د. حسن حنفى

مصر والعرب والعالم

الدوائر الثلاث بعد نصف قرن

دار العين للنشر
٢٠٠٧

الإهـــداء ...

إلى المثقفين والمناضلين الوطنيين

فى مصر والوطن العربى والعالم

الإسلامى

حسن حنفى

مدينة نصر، ١٣ فبراير ٢٠٠٧

مقدمـــة

يحمل المثقف الوطنى هموم الفكر والوطن فى آن واحد ومازال[1]. ويناضل ضد قوى الهيمنة فى الخارج والتى انتهت إلى احتلال كل فلسطين والعراق بعد احتلال أفغانستان والشيشان وكشمير، وتهديد سوريا والسودان ولبنان وإيران، كما يناضل ضد نظم القهر والتسلط والفساد والتبعية فى الداخل[2]. ولما كان الهدف من كل ذلك هو محاصرة مصر وقطع صلاتها بالشام وبالسودان، وتهديد أمنها القومى فى الشمال والجنوب وتآكل الجناح الشرقى للوطن العربى فى الشرق، فى العراق بالغزو والاحتلال، وفى الخليج بإيهامه بالخطر الإيرانى النووى أو المذهب الشيعى وضرورة حمايته بالمظلة الأمريكية والتعاون الإسرائيلى فإنه يصدر للمرة الثالثة "مصر والعرب والعالم"، الدوائر الثلاث بعد نصف قرن، لإعادة مصر إلى مكانها الطبيعى، بؤرة لدوائر ثلاث فى قراءة جديدة لاستراتيجيتها الأولى منذ باندونج ١٩٥٥ بعد أن سرقتها إسرائيل وحلت نفسها محل مصر فى المركز، والوطن العربى مجال توسعها الحيوى، والعالم الإسلامى مجال هيمنتها السياسية والاقتصادية. ومن هنا جاءت الأبواب الثلاثة: مصر والعرب والعالم. وضم الباب الأول، "مصر"، سبعة فصول: الثورة المضادة، السلطان، سؤال مصر، الأحزاب السياسية، الثقافة والمجتمع، الدين والسياسة، الثورة قادمة. وهو أكبر الأبواب. وشمل الباب الثانى، "مصر والعرب"، ستة فصول: الوطن المستباح، الوطن والمواطن، الوحدة الوطنية، الثقافة الوطنية، المقاومة الفلسطينية، انتصار لبنان. وضم الباب الثالث، "مصر والعالم"، خمسة فصول: التنوير الأوروبى، حوار الحضارات، الإسلام فى الغرب، الإسلام فى

---

(١) لذلك عنونا كتابنا "هموم الفكر والوطن" (جزءان): ١- التراث والعصر والحداثة، ٢- الفكر العربى المعاصر، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

(٢) وهو ما أصدرنا فيه من قبل "من مانهاتن إلى بغداد" و"جذور التسلط وآفاق الحرية"، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤/٢٠٠٥.

آسـيا، مـا بعـد الاسـتعمار[٣]. والهـدف هـو عودة مصر إلى مسارها الطبيعى واسترداد مكانتها بؤرة لدوائر ثلاث، والقيام بدورها فى توحيد الوطن العربى والتعاون الإقليمى مع دول الجوار خاصة تركيا وإيران حتى ماليزيا واندونيسيا وأواسـط آسيا[٤].

و"دار العين للنشر" دار شابة جعلت نفسها منبرا لاستعادة الوعى التاريخى لمصر فى إصداراتها السابقة. تديرها أستاذة جامعية فى العلوم الطبيعية، البيولوجية منها، وتحمل عبء العلوم الإنسانية، ليس مهنة بل رسالة، وليس حرفة بل أمانة. لعل مصر تعود إلى سابق عهدها منذ فجر التاريخ عندما كانت تقوم بتوحيد المنطقة والتعبير عن "فجر الضمير".

حسن حنفى

مدينة نصر، ١٢ فبراير ٢٠٠٧

---

(٣) يضم "حصار الزمن" جـ١ "إشكالات" أيضا فصلا عن "حوار الحضارات"، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤، ص٤٤١-٥٤٩.

(٤) نشرت معظم هذه المقالات من قبل فى الصحف العربية مثل "الاتحاد" فى الإمارات، و"الزمان" فى العراق، و"الدستور" فى الأردن، و"العربى الناصرى" فى مصر، و"الشرق الأوسط" فى لندن. وهى أصول المقالات قبل أن يغير الرقيب بعض العناوين أو يحذف بعض الفقرات أو الجمل أو يغير بعض الألفاظ والمصطلحات. كان بودى وضعها بين قوسين لدراسة عقلية الرقيب، ومحرمات العصر، وتوجيهات النظم السياسية. ثم أحجمت عن ذلك لما يتطلبه من مراجعة شاملة للمطابقة بين الأصل والمنشور. وتركت ذلك للباحثين.

البـــاب الأول



الفصل الأول

الثـــورة المضـــادة

١- الثورة المصرية ومقاومة الأحلاف.

٢- ١٥ مايو ثورة التصحيح أم ضياع فلسطين؟

٣- محاكمة الانقلابيين.

٤- هل تغير شيء؟

٥- نادى الضباط ونادى القضاة.

٦- جيل يدفع ... وجيل يقبض!

٧- البداية والنهاية.

٨- الأيام الأخيرة للنظام.

٩- هل يأتى سبتمبر آخر؟



١ـ الثورة المصرية ومقاومة الأحلاف

بدأت الثورة المصرية فى ١٩٥٢ بسياسة مقاومة الأحلاف. فقد جسدت الحركة الوطنية فى الأربعينيات، وكان الضباط الأحرار فى أطيافها المختلفة من الوفد والإخوان والشيوعيين. فلا فرق بين الاستقلال الوطنى فى الداخل ضد الإنجليز والقصر والإقطاع والاستقلال الوطنى فى الخارج ضد هيمنة القوى الكبرى الصاعدة.

بدأت الثورة وهى لم تستقر بعد والخلاف بين أجنحتها المختلفة، نجيب وناصر، أو بينها وبين القوى السياسية السابقة عليها مثل الوفد والإخوان والشيوعيين بمعارضة الأحلاف العسكرية. وقد كان مطروحا فى ذلك الوقت حلف بغداد. فقد كانت بغداد مازالت تحت إمرة نورى السعيد والملك فيصل والهيمنة البريطانية. وكان يمتد جنوباً إلى الرياض، وشمالا إلى استانبول، وشرقا إلى طهران وكراتشى من أجل الإحاطة بالاتحاد السوفيتى من خاصرته الجنوبية، وإحكام الخناق حوله من الجنوب بعد حصاره من الغرب عن طريق حلف شمال الأطلنطى.

وتكاتفت سوريا مع مصر فى الوقوف ضد حلف بغداد فى ١٩٥٤. وأعلن ناصر والشيشكلى أثناء زيارته لمصر هذه المقاومة لسياسة الأحلاف. كانت سوريا قد سبقت مصر بثورات الجيوش منذ ١٩٤٩وكنتيجة للهزيمة فى فلسطين فى ١٩٤٨. وانعكست مقاومة الأحلاف فى الخارج على الحركة الوطنية فى الداخل. فحركة الاستقلال الوطنى واحدة على الجهتين. أمم ناصر القناة فى ١٩٥٦، وقاوم العدوان الثلاثى. وناصر العرب تأميم القناة.

(*) الاتحاد: ٢١ أكتوبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٦.

وفجرت سوريا أنابيب البترول. وتوحدت مصر وسوريا فى فى ١٩٥٨ فى أول تجربة وحدوية عربية فى تاريخ العرب الحديث. ثم صدرت قوانين يوليو الاشتراكية فى عام ١٩٦٢-١٩٦٣ كرد فعل على الانفصال فى سبتمبر ١٩٦١.

وفى أتون حرب اليمن بعد اندلاع ثورتها فى ١٩٦٤ ومصر مثقلة بأعباء مناصرة الثورة وقفت من جديد ضد الحلف الإسلامى فى ١٩٦٥ حلف الرياض – طهران – كراتشى، بعد أن اندلعت الثورة العراقية فى ١٩٥٨ من أجل محاصرة الثورة العربية والحركة القومية. واستغل الدين لذلك، الحلف الإسلامى فى مواجهة الشيوعية فى الخارج، والاشتراكية فى الداخل، حفاظا على الدين من المادية والإلحاد. وقاومت مصر الحلف الإسلامى حتى أثخنتها الجراح فى هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧. فقامت الثورة فى ليبيا فى ١٩٦٩ كرد فعل على الهزيمة، ولكن وفاة ناصر فى ١٩٧٠ أنهت قصة مقاومة الأحلاف فى بداية الثورة وعلى مشارف نهايتها. كلفتها عدوان ١٩٥٦ لمقاومتها حلف بغداد فى ١٩٥٤، وهزيمة يونيو حزيران ١٩٦٧ لمقاومتها الحلف الإسلامى فى ١٩٦٥.

كان الهدف من الحلفين واحدا، إجهاض الثورات العربية بقيادة الجيوش الوطنية فى الخمسينيات والستينيات بصرف النظر عن الأسماء: جغرافية، بغداد، أو إسلامية، كراتشى آنذاك وإسلام أباد اليوم. ومازالت باكستان فى حضن الولايات المتحدة متحالفة معها منذ غزو أفغانستان. والرياض مازالت مستعدة لانتهاج نفس السياسة القديمة حماية لنفسها من خطر القاعدة والتفجيرات، وتفكك المجتمع من الداخل، وممارسة العنف. وبغداد تم الانقضاض عليها وتدميرها كلية واحتلال العراق بأكمله. وقامت الثورة الإسلامية فى إيران فى ١٩٧٩ لتقاوم الشيطان الأكبر. ومازالت تدافع عن استقلالها الوطنى ضد محاولات الغزو من الخارج، والانقلاب من الداخل. ومازالت مستمرة فى الدفاع عن حقها الشرعى فى

امتلاك الطاقة النووية للأغراض السلمية، وإسرائيل تمتلك السلاح النووى أمام أعين العالم دون لوم أو معارضة.

ثم حدث الانقلاب على الثورة بقوة مضادة من داخلها منذ مايو ١٩٧١. وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى أعد لها ناصر ابتداء من حرب الاستنزاف فى ١٩٦٨-١٩٦٩ وبضغوط مظاهرات الطلاب فى ١٩٧١ بدأ التحول التدريجى من الثورة إلى الثورة المضادة بداية بقانون الاستثمار والانفتاح الاقتصادى فى ١٩٧٤-١٩٧٥. ولما اندلعت الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ لاستمرار مبادئ الثورة والدفاع عن حقوق المستضعفين، بدأت الأحلاف الخارجية لحصار الشعب من الداخل ابتداء من زيارة القدس فى نوفمبر من نفس العام ١٩٧٧، ثم اتفاقية كامب دافيد فى ١٩٧٨، ثم معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ١٩٧٩.

ولم تكن حرب أكتوبر ١٩٧٣ آخر الحروب بل كانت بداية الحروب الإسرائيلية الأمريكية بغزو لبنان وحصار بيروت ١٩٨٢، وضرب المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨٤. ولما قامت الانتفاضة الفلسطينية الأولى فى ١٩٨٧ وألتف حولها العرب تم غزو العراق فى ١٩٩١ ثم فلسطين كلها، ثم أفغانستان فى ٢٠٠٣. وبدأ تهديد سوريا وتقسيم السودان. ولما انتفضت المقاومة اللبنانية لتحرير مزارع شبعا والإفراج عن الأسرى وانتصر حزب الله لأول مرة فى تاريخ العرب بقذف مدن إسرائيل وتهجير الملايين من شمال إسرائيل إلى جنوبه بدأ التفكير فى عقد أحلاف جديدة لمقاومة محور حزب الله- سوريا- إيران بعقد اجتماع رباعى مخابراتى فى العقبة بين رؤساء أجهزة مخابرات مصر والأردن وشبه الجزيرة العربية لتبادل المعلومات الأمنية ضد الإرهاب. ثم جاءت وزيرة الخارجية الأمريكية لتحويل الاجتماع إلى محور جديد للدول المعتدلة ضد الدول المتطرفة، محور الخير ضد محور الشر داخل الوطن العربى. وربما يتحول إلى حلف سنى ضد الشيعة من أجل قسمة الوطن العربى ليس فقط إلى متطرف ومعتدل بل إلى شيعة وسنة وتحويل الحرب ضد الاحتلال فى العراق وفلسطين

وأفغانستان والشيشان إلى حروب داخلية بين المعتدلين والمتطرفين، بين السنة والشيعة. فتتفتت المنطقة وتتشرذم. فالعولمة ليست طريقا واحدا بل طريقان، توحيد المركز وتفتيت الأطراف. وبالتالى تجهض كل إمكانية بإقامة قطب جديد فى المنطقة العربية الإسلامية بالتعاون مع اليسار الناهض فى أمريكا اللاتينية عوداً إلى حلم الستينيات، عبد الناصر وكاسترو العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى عصر الاستقطاب.

الدولة المعتدلة فى مواجه الدول المتطرفة حلقة جديدة من سلسلة حلقات البدائل للقومية العربية والمد الإسلامى بعد الشرق أوسطية والمتوسطية والشرق الأوسط الجديد أو الكبير. لقد سقطت الخلافة فى ١٩٢٤ التى كانت مظهراً من مظاهر وحدة الأمة حتى ولو كان ضعيفاً لصالح القومية العربية. ثم انهارت القومية العربية بعد هزيمة يونيو – حزيران ١٩٦٧ وعدوان النظام العراقى على الكويت فى ١٩٩٠ لصالح الدولة القطرية. ثم انهارت الدولة القطرية بعد الغزو الأمريكى للعراق ومحاولة تقسيمه إلى ثلاث دويلات طائفية، كردية فى الشمال، وسنية فى الوسط، وشيعية فى الجنوب، ثم تقسيم السودان إلى دويلات عرقية فى الجنوب والشرق والغرب، ثم تقسيم لبنان وسوريا ومصر وشبة الجزيرة العربية إلى دويلات طائفية عرقية تصبح إسرائيل بينها أكبر دولة عرقية طائفية فى المنطقة، يهودية عبرية، تأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية والثقافات المحلية فى المنطقة وليست من أساطير المعاد وشعب الله المختار والأرض الموعودة التى أقام عليها هرتزل تصوره للدولة اليهودية فى ١٨٩٧.

لقد انتهى الاتحاد السوفيتى والخطر الشيوعى فى مواجهة حلف شمال الأطلنطى. والآن يبدأ خطر التطرف الإسلامى وإيجاد وظائف جديدة لحلف شمال الأطلنطى إما كبديل للغزو الأمريكى ووراثة له كما يحدث فى أفغانستان حاليا أو لغزو الثقافة وتجنيد المثقفين فى مشروعات بحثية ضد العنف والإرهاب والخطر الإسلامى والتطرف.

قاومت الثورة المصرية فى البداية سياسة الأحلاف فى الخمسينيات والستينات واستسلمت لها بتحول الثـــورة إلى

ثورة مضادة فى السبعينيات حتى اليوم. فمتى تقوم الثورة وينتفض الدم فى عروقها لمقاومة الأحلاف من جديد؟

٢ـ ١٥ مايــو، ثورة التصحيح أم ضياع فلسطين؟

حدثان متزامنان. وقع كلاهما فى مثل هذا اليوم ١٥ مايو مع فارق ربع قرن يمثل حقبة من تاريخ العرب. الأول ١٥ مايو١٩٤٨ يوم ابتلاع ما يقرب من ثلاثة أرباع فلسطين، يوم تأسيس الكيان الصهيونى رسميا وإعلان نشأته فى الأمم المتحدة والذى أصبح عيد "الاستقلال" حيث يتوقف الجميع الساعة الثانية عشر ظهرا إحياء لذكرى ذلك اليوم الحزين للنكبة الأولى. والثانى ١٥ مايو١٩٧١ فيما سمى ثورة التصحيح عندما انقلب اليمين الناصرى على اليسار الناصرى واستولى على نظام الحكم، عندما انقلبت الرياسة على الجيش والحزب والإعلام والداخلية واستولت على السلطة. وتحت ضغوط مظاهرات الطلاب فى ميدان التحرير لمعرفة متى يتم التحرير، ومتى ساعة الحسم، اندلعت حرب أكتوبر بالجيش الذى أعيد بناؤه عندما كانت الناصرية مازالت حية وفى أيامها الأخيرة بشعاراتها المعروفة "إزالة آثار العدوان"، "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"، واللاءات الثلاث بعد مؤتمر الخرطوم إثر هزيمة يونيو١٩٦٧ "لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة". واندلعت حرب أكتوبر١٩٧٣ بالجيش الذى أعاد عبد الناصر بناءه، وبخطة بدر التى وضعها قبل أن يغادر بعد الإرهاق النفسى والبدنى لإيقاف مذابح الفلسطينيين فى الأردن فى سبتمبر – أيلول الأسود ١٩٧٠.

وبعد الحرب بدأ التحول عن الناصرية تدريجيا بالتلاعب بمسارها. كانت الحرب للتحريك وليست للتحرير، من أجل لفت نظر أمريكا إلى النظام الجديد كما نصح الصديق هنرى مستشار الأمن القومى فى مصر بأن أمريكا لا تساعد جثة هامدة، ولابد من تحريك

(*) الاتحاد: ١٤ مايو ٢٠٠٥، الزمان: ١٦ مايو ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ١٥ مايو ٢٠٠٥.

القضية. فبناء على أمر رئيس الجمهورية السابق، وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة لم تتقدم القوات المصرية فى اندفاعها الأول الذى أخذ العدو على غرة بفضل سياسة التمويه حتى المضايق للاستيلاء عليها، وهى المداخل إلى سيناء المكشوفة برا، والمفتوحة جوا.

ولم تصف الثغرة فى الدفرسوار وفك الحصار عن الجيش الثالث. وتُركت سوريا وحدها بعد أن قاربت على تحرير الجولان، ورأت القوات مدينة صفد فى الأفق فى الأسبوع الثانى من الحرب حتى يقضى العدو على القوات العربية، واحدة تلو الأخرى، جبهة تلو الجبهة. وتحولت المكاسب العسكرية إلى خسائر سياسية فى مفاوضات الكيلو ١٠١. وتم استرداد سيناء منزوعة السلاح على ثلاث دفعات. واستردت مصر طابا بقرار من محكمة العدل الدولية.

وبرصيد حرب أكتوبر وبعد أداء جيش مصر الذى شهد له العدو قبل الصديق، بدأ التحول السياسى تدريجيا بصدور قانون الاستثمار فى ١٩٧٤، وبالقضاء على الناصرية فى الحزب فى ١٩٧٥ بدعوى المنابر، اليسار واليمين والوسط والذى بناء عليه بعد أن تحولت إلى أحزاب مثّل "التجمع" اليسار، وحزب "الأحرار" اليمين ثم نشأ "الوفد" الليبرالى بحكم القضاء. ومثلت الدولة أى اليمين الناصرى الوسط. ورفعت شعارات جديدة "العلم والإيمان"، واتهام الماركسية بالكفر، وممارسة العنف، والناصرية بالتحالف مع الاتحاد السوفيتى، والليبرالية بحكم الإقطاع والباشوات. وبدأ التحول من القطاع العام إلى القطاع الخاص، وتشجيع رأس المال الأجنبى. كما رفع شعار "العلم والتكنولوجيا" بديلا عن "الأيديولوجيا" التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧. وبدأ النهب المنظم لثروة مصر فى الداخل، وتهريب رؤوس الأموال الوطنية إلى الخارج بعد خصخصة البنوك والشركات، وإعفاء المستثمرين الأجانب من الضرائب لمدة عشر سنوات وإمدادها بالمرافق العامة مجانا. فالرأسمالية لم تعد جريمة. ورفعت شعارات "عربة وفيلا لكل مواطن"، "الكترون فى يد كل جندى"، "حرب أكتوبر آخر

الحروب".

وبعد هبة يناير ١٩٧٧ إثر قرارات رفع الأسعار، سيطرت جماهير عبد الناصر على مصر من الإسكندرية إلى أسوان، وفجرت جام غضبها على رموز الثروة والنفاق والسلطة، النوادى الليلية، مقار الحزب الحاكم وأقسام الشرطة، دون المدارس والمستشفيات، ووزعت المواد التموينية من المجمعات على الأحياء الفقيرة. وبعد ثمان وأربعين ساعة فرضت الأحكام العرفية على البلاد، وفرض حظر التجول. وانبرى فقهاء السلطان لتبرير غلاء الأسعار. فالجسم المريض، وهو الاقتصاد المصرى، فى حاجة إلى دواء حر، وهو ارتفاع الأسعار، كى يصح، ويعبر عنق الزجاجة إلى دولة الرخاء. ورفعت صور عبد الناصر، وعادت شعاراته. ولولا غياب الحزب الثورى لعادت ثورة يوليو ١٩٥٢ إلى مسارها الصحيح ضد الانقلاب عليها بما سُمى بثورة التصحيح.

وفى نوفمبر من نفس العام ١٩٧٧ أراد النظام السياسى فى الجمهورية الثانية العثور على أحلاف تقويه ضد الثورة الشعبية فى الداخل. فتمت زيارة القدس وكأنها بوحى من السماء، والرئيس فى طائرة بين السماء والأرض، قريبا من الله، مع أن كل شىء قد تم إعداده من قبل عن طريق رومانيا ورئيسها شاوشسكو الذى اغتيل أيضا هو وزوجه بعد الانتفاضة الشعبية فى أوروبا الشرقية ضد التسلط والطغيان باسم الاشتراكية. ثم عقدت معاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ثم معاهدة السلام بين مصر والكيان الصهيونى فى ١٩٧٩. وبالصلح المنفرد خرجت مصر من موازين القوى. تحررت سيناء منزوعة السلاح. وبقت باقى الأراضى المحتلة فى الضفة والجولان تحت الاحتلال.

وبعد حادث المنصة فى ١٩٨١، استمرت سياسات الجمهورية الثانية فى الجمهورية الثالثة. ورفعت شعارات جديدة استبشر بها الناس خيرا، نظافة اليد، الشفافية. وتم الإفراج عن آلاف المعتقلين من كافة التيارات السياسية فى البلاد إيذانا ببداية عهد حر ديموقراطى

جديد. واختفت حرم الرئيس عن الأنظار بعد أن كانت مركز الإعلام والنشاط الاجتماعى والثقافى فى البلاد، بالرغم من تحذير أحد أقطاب المعارضة آنذاك وكتابته عن "الوضع الدستورى لحرم الرئيس".

واستفردت إسرائيل بالوطن العربى بعد إخراج مصر من المعادلة. وتم العدوان على لبنان وغزو بيروت فى ١٩٨٢، وضرب المفاعل النووى فى العراق فى ١٩٨٤، واغتيال أبى جهاد فى تونس أثناء الانتفاضة الأولى، انتفاضة الحجارة، ثم احتلال كل فلسطين أثناء الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى. وتدمر الصواريخ السورية فى البقاع، والاعتداء على حدود مصر، وتهديد سوريا المستمر. وفى الداخل، ازداد القهر والتسلط فى الجمهورية الثالثة باستمرار العمل بقانون الطوارئ وتزوير الانتخابات، وسيطرة الحزب الحاكم، وامتلاء السجون بالمعتقلين السياسيين. ولم تنفع تحذيرات مظاهرات الأمن المركزى فى ١٩٨٦. بل تم التوقيع فى مؤتمر القاهرة فى ١٩٩٠ على شرعية العدوان الأمريكى على العراق فى ١٩٩١، ودخول بعض القوات المصرية جنبا إلى جنب مع القوات الأمريكية، بدعوى تحرير الكويت وكما صور فيلم "العاصفة". واستأنف ضرب العراق فى ١٩٩٨ بدعوى رفض التفتيش على قصور الرياسة، ثم احتلاله كلية فى مارس ٢٠٠٣ بدعوى امتلاك أسلحة الدمار الشامل. وإسرائيل تحتل أراضى ثلاث دول عربية، سوريا وفلسطين ولبنان، وتمتلك السلاح النووى. ولا أحد يعتدى عليها. بل تشجعها الولايات المتحدة الأمريكية على العدوان والاستيطان.

وفى مايو ١٩٤٨ قام الكيان الصهيونى مخترقا حدود الهدنة، وإحلال شعب محل شعب. ثم اعتدى على غزة فى ١٩٥٥ مما دفع مصر لعقد صفقة الأسلحة التشيكية للدفاع عن النفس. ثم كانت إحدى دول العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٦٧ مما دفع مصر إلى إعادة تسليح نفسها بالسلاح السوفيتى مع بناء السد العالى بمعونته المالية والتقنية. وانتشر الاستيطان، وزادت الهجرة الروسية سكان الكيان الصهيونى بحوالى مليون مهاجر. وتوالت

معاهدات الصلح مع الأردن من دول المواجهة ومع موريتانيا من المغرب الأقصى. وفتحت مكاتب تجارية أو اتصال فى المغرب وتونس وقطر. وتقدمت الأردن بمشروع فى مؤتمر القمة العربى الأخير فى الجزائر باعتراف عشر دول عربية بإسرائيل إغراء لها من أجل تطبيق خارطة الطريق أو قبول مبادرة السلام العربية. فالدفع مقدما قبل توريد السلعة.

منذ مايو ١٩٤٨ ابتلع الكيان الصهيونى كل فلسطين. ومنذ معاهدات الصلح والاعتراف والهرولة فى تسارع لخطب ودها تقربا للولايات المتحدة الأمريكية. ووقعت اتفاقيات الكويز لابتلاع الاقتصاد العربى. والخطورة هو خلق طبقة عربية مرتبطة بمصالحها مع إسرائيل فى مجمع اقتصادى واحد. ثم يأتى الدور على العقل العربى والثوابت العربية وتصبح إسرائيل نموذجا لتحديث الوطن العربى، وتقوم بدور مصر التقليدى، مركزية إسرائيل بدلا من مركزية مصر.

فما أشبه مايو ١٩٤٨ بمايو ١٩٧١. وما أبعدهما معا عن مايو ٢٠٠٥ بعد أن تحرك الشارع العربى فى مصر ليفك الحصار عن النظام السياسى العربى المحاصر بين المطرقة والسندان، مطرقة الولايات المتحدة الأمريكية وسندان الشعوب.

٣- محاكمة الانقلابيين

إذا كان التصور الرأسي للعالم قد يؤدي إلى التسلط وكان التصور الهرمي للعالم قد يؤدي إلى القهر فإن التصور الثنائي للعالم قد يؤدي إلى الكبت. وهو التصور الذي يقوم على ثنائية متعارضة، الحق والباطل، والخطأ والصواب في المعرفة. والفضيلة والرذيلة، والحسن والقبح، والبراءة والخطيئة في الأخلاق. والرجل والمرأة، والشيخ والمريد، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، والآمر والمأمور، والأعلى والأدنى في المجتمع.

والعلاقة بين الطرفين علاقة تعارض وتناقض وتنافر وتدافع بل وتحارب واقتتال، طرف حق مطلق، وطرف آخر باطل مطلق. ولا علاقة بين الاثنين إلا بأن يقضي أحدهما على الآخر. فلا تعايش بينهما ولا وفاق. ينتصر الحق بالضرورة على الباطل، والصواب على الخطأ، والأعلى على الأدنى، والفضيلة على الرذيلة، كما هو الحال في الدراما الشعبية. وهو ما ظهر في "معالم في الطريق" عند سيد قطب، الصراع بين الإيمان والكفر، والإسلام والجاهلية، والله والطاغوت. ومن ثم يغيب الحوار بين الطرفين، ويحضر الصراع. ولا بقاء لأحدهما إلا بفناء الآخر.

وهي بقايا ثنائية شرقية قديمة، موروثة من ديانات فارس، الصراع بين أهريمان وأرمزدا، والنور والظلمة، والملاك والشيطان، ولا نصر لأحدهما على الآخر. إنما هو صراع أبدي. وتسرب هذا التصور إلى باقي الأديان. فقامت على الصراع وليس على الوئام، وعلى التناقض وليس على التآلف. بل وتسرب إلى ديانات التوحيد مثل الإسلام الذي يقوم على التناغم

والتآلف والاعتدال والوسطية. وفى أوقات الأزمات والهزائم يضيع التعادل، ويسود التطرف، وتتحول الحياة إلى صراع بين أضداد. وينقلب التوحيد إلى ثنائية، والانسجام إلى تضاد باسم الحياة الروحية، وانتصار الروح على البدن، والآخرة على الدنيا، ويشرع ذلك النص (**وتؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى**)، (**إنما الحياة النيا زينة ولهو ولعب وتفاخر بالأموال والأولاد**). ثم تنتقل هذه الثنائية المتعارضة إلى الحياة العامة، ابتداءً من الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع. فيقسم الفرد حياته إلى قسمين متعارضين، الفضيلة والرذيلة، الشرف واللذة، العقل والحس، الإرادة والرغبة، الحكمة والميول، الحب والجنس، العاطفة والجسد.

ثم تمتد الثنائية إلى الأسرة بين الأب والأم، والزوج والزوجة، والابن والبنت، والأخ الأكبر والأخ الأصغر، والأخت الكبرى والأخت الصغرى. وهى أسرة "سى السيد" التى صورها نجيب محفوظ فى "الثلاثية"، سى السيد وأمينة، سى السيد وكمال وياسين. ثم يفسر الدين طبقاً لذلك باسم القوامة (**الرجال قوامون على النساء**)، والدرجة التى للرجال على النساء (**وللرجال عليهن درجة**)، ابتساراً للآيات، وأخذها إلى منتصفها دون (**وعاشروهن بالمعروف**) و(**وهو الذى خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها**) و(**إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**)، "الرجال شقائق الرجال".

ثم تمتد إلى المجتمع العريض بين طبقتين، الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، ورجال الأعمال والعمال، وأصحاب رؤوس الأموال وصغار التجار، وتجار الجملة وتجار القطاعى، والشرفاء والحقراء، وأصحاب الأرض والفلاحين، وأصحاب المصانع والعمال، والمقاولون وعمال التراحيل، والقواد والجنود، والمشايخ والمريديون، والعلماء والجهلاء. وينشأ الصراع الطبقى دون أن يكون بالضرورة صراعاً بين الطبقات التى تمثل المصالح بل بين طبقتين تعبيراً عن التصور الثنائى للعالم.

ثم تمتد إلى العلاقات بين المجتمعات. فتنقسم إلى دار الإيمان ودار الكفر، دار الإسلام

ودار الحرب، ودار العهد والأمان، ودار العدوان والطغيان. فتقع الحرب بين الشعوب بإعلان أو بغير إعلان، بمواجهة أو بمكيدة، والحرب خدعة. وكما انتهى الاعتدال فى حياة الفرد، والتعاون فى الأسرة، والوئام فى المجتمع ينتهى السلام بين الشعوب ضد ما أوصى به الدين (**يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**). وتنتهى الحياة الثنائية عادة إلى الوقوع فى نوع من الازدواجية لإشباع الطرفين، حياة الدنيا، وحياة الآخرة بدعوى (**قل من حرم زينة الله لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا**) و(**وابتغ فيما آتاك الله الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا**). وكلما زاد الإيمان زاد الإشباع. فالله يجب أن يرى نعمته على عبده. فيبنى العمارات الفارهة وربما بالرشوة للمصالح الحكومية. وبالغش فى الأسمنت وحديد التسليح، و"خلو الرجل" أو بيع "الشقة" مرتين ثم يخصص الطابق الأرضى أو ما تحت الأرض كمسجد للإعفاء من العوائد ولدرأ الحسد (**وأما بنعمة ربك فحدث**). ويصوم بالنهار وينهم بالليل. وينعم بليالى رمضان ويعتكف فى العشر الأواخر منه. ويتزوج مثنى وثلاث ورباع، ويعدل بينهن تطبيقاً لأحكام الشرع. ويطلقهن بالدور لتجديد الأربع مع أن أبغض الحلال عند الله الطلاق. ويحج إلى بيت الله الحرام، ويتاجر فى تأشيرات الحج. ويتزوج الشيخ المسن الحدث الصغير. كفيل يكفلها بالمال، ويعين أسرتها الفقيرة. ويجمع الثروات، ويتهرب من الضرائب. ويتصدق على المحتاجين، ويؤدى الزكاة ٢,٥٪. وهى نسبة أقل من الضرائب الواجبة. ويبنى المساجد، ويلحق بها دور المناسبات والعيادات الطبية. ويسميها باسمه تخليداً لذكراه الطيبة على كل لسان. ويشارك فى ليالى الطرق الصوفية، والمناسبات الدينية، وموالد أولياء الله الصالحين. ويقيم موائد رمضان بما لذ وطاب من الطعام حتى ولو جمع المال من الكسب الحرام، وكدست النقوط من الرقص الشرقى. ويتناول السحور على حمام السباحة وأنغام الرقص الشرقى، وينوى الصيام. ويأخذ ألقاب الحاج والرئيس المؤمن، والزبيبة فى الجبهة واضحة

للعيان. ويبتهل ويسبل العينين. ويدعو فى كل خطوة. ولكل حركة ومكان، وسفر وحضر، ومنزل وشارع، وصفقة بيع وشراء، دعاء.

وكما يؤدى التصور الثنائى للعالم إلى الازدواجية قد يؤدى أيضاً إلى النفاق. يعيش الإنسان فى المستوى الأدنى ويدعى ويتظاهر أنه يعيش فى المستوى الأعلى. فالازدواجية قد تكون صادقة، ويعيش الإنسان المستويين معاً بنفس الصدق، جمعاً بين الدنيا والآخرة، وأخذاً بالحسنيين، حظ الدنيا وثواب الآخرة. أما النفاق فإنه يعنى أن يعيش الإنسان فى المستوى الأدنى بصدق، وبإدعاء وتظاهر وكذب فى المستوى الأعلى، كالتصدق رياء للناس. لذلك نقد القرآن النفاق والمنافقين، وسلوك الأعراب، والذين يقولون ما لا يفعلون. واعتبر النفاق أشد من الكفر. النفاق كفر مقنع، والكفر صريح.

وكرد فعل على النفاق يبدأ الزاهد فى العزوف عن الدنيا، والتوجه إلى الآخرة، وإيثار طرف على آخر، (**وتؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**). فالتصوف ترك الدنيا بمن فيها كرد فعل على التكالب عليها. ولا يُعرف الله إلا ببدن عار وبطن جائع. ويجد فى ملكوت الروح عالماً أوسع وأرحب وأصدق. والقرب من الله بعد عن العالم. والأنس بالله وحشة من البشر، والحب فى الله رد فعل على بغض البشر.

قد ينتهى التصور الثنائى للعالم إلى الازدواجية أو إلى الانحلال أو إلى الكبت. فى حين أن الطبيعة واحدة، والفطرة طبيعة أولى، والأشياء على البراءة الأصلية، والإنسان قادر على السلوك الصادق بطبيعته. إنما يأتيه النفاق والانحلال والكبت من المجتمع.

قد يفيد التصور الثنائى للعالم فى المقاومة، مقاومة المحتل والطغيان والقهر والتسلط. وهى مواجهة أفقية لا رأسية، فى الخارج وليست مع النفس، من أجل التحرر وليس من أجل القهر والكبت. ويقوم على توحيد قوى النفس أولاً، المادية والمعنوية، من أجل مواجهة العدو الخارجى.

وهذا لا يمنع أنه فى ثقافة أخرى مثل الثقافة الغربية التى خلطت بين المستويات أن تجد فى هذه الثنائية ما يحـــافظ على التمييز بين المثالى والواقعى، بين النفس والبدن، بين العقلى والحس بدلاً من الوقوع فى الرد المادى كالوضعية أو الرد الصورى كالمذاهب الرياضية. لذلك أتت معظم المذاهب المعاصرة ثنائية البنية لرفع الخلط بين المستويات: المادة والذاكرة، التطور الخالق، منبعاً الأخلاق والدين عند برجسون، وعلوم الوقائع وعلوم الماهيات عند هوسرل والظاهريات المعاصـــرة، والوجود والموجود عند هيدجر. فبقدر ما نحتاج إلى التوحيد الأول يحتاج الغرب المعاصر إلى الثنائية من جديد.

٤- هل تغير شيء؟

كان مطلب المعارضة المصرية على مدى أكثر من ربع قرن تغيير بعض بنود الدستور الخاصة بالاستفتاء وضرورة التحول من نظام المرشح الواحد إلى نظام الانتخاب المباشر بين أكثر من مرشح، وتحديد مدة الحكم بمدتين، كل منهما أربع سنوات، والتعددية السياسية، وإعطاء الشرعية لكل القوى السياسية فى الشارع المصرى. ويشتد ضغط المعارضة كلما حان وقت التجديد أو التمديد. واشتدت المعارضة الداخلية هذا العام. فقد طالت مدة الحكم. وأصبح الحاكم العربى هو أطول حاكم فى التاريخ من حيث مدة الحكم قد تصل إلى أكثر من ثلاثين عاما. فى حين أن رؤساء أمريكا السابقين بعد مدتين لا أكثر يسيرون فى الأسواق، مواطنين عاديين بكل الاحترام، ولهم مكانة أدبية رفيعة، وكلمة مسموعة. ويحلون القضايا الشائكة فى العالم. ويقومون بأدوار عديدة على الساحة الدولية دفاعا عن السلام.

واشتد ضغط المعارضة المصرية فى الشهور الأخيرة. وكان آخرها فى معرض الكتاب حيث طالب المثقفون بالإصلاح الدستورى. وكان جزاء أحدهم المنع من المشاركة فى نشاط المعرض الثقافى. وقامت المظاهرات فى الجامعات المصرية. وتجمعت مع حركة "كفاية". حاصرتها الشرطة وضربتها بالعصى، وكأننا مازلنا فى العهد الملكى. واتهمت المعارضة بالسوقية والخيانة والنخبوية، والرغبة فى الحكم، والطمع فى السلطة، وإثارة الشغب. كل شىء مسموح به إلا المطالبة بإصلاح الدستور. فالوقت لم يحن بعد. والأمور لابد أن تسير ببطء. والاختيار بين أكثر من مرشح يؤدى إلى زعزعة الاستقرار السياسى مما يؤدى إلى توقف الاستثمار، وهرب رؤوس الأموال الأجنبية. الاستفتاء هو القانون والدستور. وأعمال

(*) الاتحاد: ١٢ مارس ٢٠٠٥، الدستور: مارس ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢٠ مارس ٢٠٠٥.

الرئيس فى الدورات الأربع الماضية تكفى عن برنامج سياسى جديد يقوم على أساسه إعادة ترشيحه دورة خامسة حتى تبلغ مجموع الدورات ثلاثين عاما. وهو إرث من ثورة ٢٣ يوليو التى تحولت إلى وراثة بين الرؤساء والنواب. ولما غاب النائب فالإرث من الرئيس إلى نفسه مع أنه لم يعد يبقى من مبادئ الثورة الستة شىء: لا محاربة الاستعمار، ولا مناهضة الصهيونية، ولا الوقوف فى مواجهة الإقطاع، ولا الحد من الرأسمالية. واحتلت فلسطين كلها. وأصبح جيش إسرائيل يصول ويجول فى فلسطين ولبنان وسوريا. ويهدد بالتوسع والعدوان كل الأقطار العربية.

وبعد أن اشتد الضغط الأمريكى على مصر والسعودية وباقى الأقطار العربية فى سوريا لضرورة التحول الديموقراطى، وبعد أن ألغت وزيرة الخارجية الأمريكية ومستشارة الأمن القومى السابقة زيارتها لمصر إلا بعد مزيد من إجراءات التحول الديموقراطى، وضرورة الإفراج عن أحد رؤساء الأحزاب، وبعد اجتماع الحزب الحاكم مع أحزاب المعارضة للاتفاق على الإصلاح، فجأة وعلى غير إنذار، وجه الرئيس خطابا فى مسقط رأسه يطالب فيه مجلس الشعب والشورى بضرورة الإصلاح الدستورى، وتغيير أحد مواده بالتحول من الاستفتاء على مرشح واحد إلى الاقتراع العام بين أكثر من مرشح. تحول الرجاء إلى بطولة. وما كانت تطالب به المعارضة وما تظاهر من أجله الطلاب وحركة "كفاية" ويرفضه الرئيس أصبح قرارا لأنه أتى من الرئيس هذه المرة. فمازال الدستور هبة من الملك وليس حقا مكتسبا للشعب. وانقلب الإعلام رأسا على عقب، ما كان يعتبره من قبل سابقا لأوانه، ومدعاة لزعزعة الأمن والاستقرار أصبح يعتبر الآن بعد قرار الرئيس انقلابا تاريخيا، وتغيرا جذريا لم نشهد مثله من قبل منذ أيام الفراعنة. إنه زلزال ضخم لم يحدث منذ قيام الثورة المصرية منذ أكثر من نصف قرن. إنها هجمة مفاجئة على المعارضة، عدو النظام، وإدخال الارتباك فى صفوفها. فماذا ستفعل المعارضة الآن؟ وما هو برنامجها السياسى؟ وما هو مرشحها؟ وماذا

بقى للمعارضة أمام أعين الناس والرئيس قد سرق الأضواء منها وسحب البساط من تحت أقدامها؟ لم يتغير الإعلام. وظل كما هو فى ركب النظام السياسى يأتى وراءه لتبرير قراراته. فالعربة أمام الحصان وليس الحصان أمام العربة. منذ خمسين عاما أو يزيد، عمر الثورة، مازالت الصلة بين الإعلام الرسمى والنظام صلة التبرير والتزيين والتجميل خاصة الإعلام المرئى والمسموع، مما يتطلب استقلال الإعلام عن النظام، ونهاية عصر "الموظف الأيديولوجى"، والخطاب المزدوج العلنى والسرى، والنفاق السياسى، وتزيين أعمال السلطان وليس نصحه. فالعالِم يتقدم السلطان ولا يتبعه. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف.

وشتان بين النظر والعمل، بين القرار "التاريخى" والواقع السياسى. وبقدر ما تم تحقيق مطلب المعارضة السياسية فإن ما أعطى باليمين أخذ باليسار، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف. فقد تعودت مصر على الاستفتاء منذ أكثر من نصف قرن. فكيف تتحول العادات السياسية بين يوم وليلة؟ والممارسات السياسية عادات قبل أن تكون قوانين. وهيبة السلطة والحكومة فى قلوب الناس. وجهاز الإعلام فى يد النظام. وعدم وجود نائب للرئيس يبرز ولو نسبيا حتى يتعود الناس على وجود بديل فى قمة السلطة استمر أكثر من ربع قرن. وكلما برز أحد الوزراء وتحول إلى شخصية زعامية، وقدره الناس، وأثنوا على رعايته مصالح البلاد، تم إقصاؤه حتى لا يبقى إلا نجم واحد فى الليل البهيم، ومازال بعض الوزراء الذين أقصوا عن مناصبهم لما أبدوه من رعاية لمصالح الناس فى الداخل ودفاع عن استقلال البلاد فى الخارج سواء وزارة الخارجية ضد التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية والهرولة تجاه إسرائيل (عمرو موسى) أو الداخلية ضد تجار المخدرات وحسن تنظيم المرور (أحمد رشدى) أو التموين والوقوف أمام ضغوط البنك الدولى (جويلى) أو قادة الجيش وبلاؤهم فى حرب أكتوبر (سعد الدين الشاذلى) أو من قادة المعارضة التاريخيين قبل الثورة أو بعدها

دفاعا عن الإصلاح الزراعى وجامعا بين الإسلام والاشتراكية (إبراهيم شكرى). وغيرهم كثيرون. وكيف تتفق المعارضة على مرشح واحد ومازال الحوار بينها فى الطريق؟ وكيف يتم الإجماع على مرشح واحد ومواقف أحزاب المعارضة مازالت حدّية؟ فالوفد لا يقبل الإخوان لأنه علمانى، ولا ثورة ٢٣ يوليو لأنه ليبرالى. و"التجمع" لا يقبل المتأسلمين ويهاجمهم على مدى عدة عقود وكأنه لا يوجد "هم" إلا هذا الهم، ودون نقد مماثل للمطبعين والتابعين والفاسدين. و"الناصرى" مازال بينه وبين الإخوان ثأر قديم، ومازال بعيدا عن "اليسار الإسلامى"، و"حزب الوسط" مازال تحت التأسيس. و"حزب العمل" معلق، وجريدة "الشعب" موقوفة. والإخوان والشيوعيون غير شرعيين. فبين أى مرشحين يكون الاختيار؟ بين الكل ولا شىء، بين الواحد الأحد ولا أحد معه.

وماذا عن باقى مواد الدستور من أجل تحديد مدة الرئاسة بفترتين وعدم تركها مفتوحة حتى أصبح الحاكم العربى أطول رئيس يحكم فى العالم. لا يترك الحكم إلا بانقلاب أو بوفاة. بل إن بعض الدساتير العربية تجعله حاكما مدى الحياة. وماذا لو لم يرشح الأب نفسه لأسباب صحية أو تمهيدا لترشيح الابن، والابن مازال فى الأربعينات وأمامه حتى الثمانينات، أربعون عاما أخرى لأسرة حاكمة عودا إلى العصر الفرعونى، عصر الأسرات؟ وجهاز الدولة الآن يُعاد تركيبه من الأب إلى الابن، وفى حضور الأب، وبنشاط الأم، وبجهد الابن. فهو مساعد للأب ورئيس لجنة السياسات فى الحزب الحاكم. وهو وجه مصر الجديد، يرى مصر بعيون مصر. وهو الذى يخطط، التعليم من أجل السوق، وكمبيوتر لكل مواطن، والشباب قادم لوراثة الرعيل القديم، ومختار من نظام العالم الجديد، وابن العولمة. والضغوط الخارجية مستمرة. والإعلام جاهز. والجداول الانتخابية معدة سلفا. ورئاسة الدولة والحزب فى الانتظار. وكل ذلك تحت إشراف القضاء.

٥ـ نادى الضباط ونادى القضاة

إن التاريخ يعيد نفسه، أزمة انتخابات نادى الضباط عام ١٩٥٢ والتى عجلت بثورة يوليو، ومذبحة نادى القضاة فى الإسكندرية عام ٢٠٠٦ والتى قد تعجل بثورة يوليو الثانية بعد ما يزيد على نصف قرن. وهناك حنين إلى الستينيات والعودة إلى ذروة انتصارات الثورة المصرية فى مواجهة الاستعمار والصهيونية والبناء الاشتراكى لمصر، ورفض لما يحدث فى هذا العقد من التحالف مع الاستعمار والاعتراف بالصهيونية والصلح معها.

تلاعب الملك فى انتخابات نادى الضباط ورغبته فى انتخاب أحد أنصاره، حسين سرى عامر، ضد مرشح الضباط، اللواء محمد نجيب. وهو ما يحدث الآن فى الصراع بين مجلس القضاء الأعلى المعين من وزير العدل ممثل الدولة ونادى القضاة الحر المنتخب من مجموع الهيئة القضائية فى مصر، والصراع على قانون السلطة القضائية التى يريدها نادى القضاة، والإشراف على الانتخابات الرئاسية والبرلمانية، وإثبات التزوير فى حالة وقوعه، وتصدى نواب محاكم النقض ورئيس نادى القضاة لذلك، الخضيرى ومكى وبسطاويسى. أزمة نادى الضباط الأولى فى القاهرة، وحصار نادى القضاة الثانية فى الإسكندرية التى أيد معسكرها وأيدت جامعتها الثورة بعد اندلاعها.

والظروف فى الحالتين متشابهة. التغيير الوزارى المستمر قبل الثورة والتخبط فى السياسات بين القصر والإنجليز والأحزاب، والتخبط فى السياسات الحالية والتغيير الشكلى

(*) الاتحاد: ٦ مايو ٢٠٠٦، الزمان: ١ مايو ٢٠٠٦، الدستور: مايو ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٤ مايو ٢٠٠٦.

للوزارات وعدم الاستقرار السياسى. وفى كلتا الحالتين الإخوان والشيوعيون فى المعتقلات السياسية، وفشل الحياة الحزبية بين أحزاب القصر، أحزاب الأقلية، وحزب الوفد، حزب الأغلبية فى الحالة الأولى، وفشل أحزاب الأقلية المعارضة وفشل الحزب الحاكم فى استقطاب مجموع الشعب، ووجود حزب المعارضة الرئيسى، الإخوان، فى الشارع والبرلمان والصحافة دون أى سند شرعى يحميه بعد حل الجماعة منذ ١٩٥٤ فى الحالة الثانية.

كان هناك الملك والحاشية وأحزاب الأقلية. والكل يمثل سلطة القصر. واليوم هناك الرئيس والبطانة والحزب الحاكم ولجنة السياسات للتدخل فى الحياة السياسية وفرض الوزراء والنواب والمحافظين ومديرى الأمن ورؤساء الجامعات والهيئات العامة. وكان الإنجليز القطب الثانى فى الحياة السياسية قبل الثورة يملون إرادتهم السياسية مثل حادثة ٤ فبراير، والآن هناك الولايات المتحدة الأمريكية التى تملى سياساتها على النظم السياسية بالمنطقة مثل التحالف معها فى العدوان على العراق. وكان الإقطاع سندا للقصر والإنجليز أولا، والآن رجال الأعمال والبنوك والمتلاعبون بأسعار الحديد والأسمنت ونواب القروض ورؤساء مجالس إدارات شركات القطاع الخاص مثل النقل الملاحى التى هرب صاحبها بعد غرق العبارة. والفساد فى كلتا الحالتين مستمر، فساد التهرب من الضرائب والرشاوى والعمولات ونهب المال العام. والقمع مستمر أيضا على مدى أكثر من نصف قرن. فأجهزة الأمن منذ أيام الملك حتى اليوم مدربة على أن الشعب عدو النظام، وأن قادة المظاهرات عملاء للأجنبى. ومن الأفضل التعامل مع حركات المعارضة فى كل الحالات على أنهم من دعاة الشغب، وتعكير صفو الأمن والنظام العام.

قاد الضباط الأحرار أزمة انتخابات نادى الضباط بالأمس. ويقود اليوم المثقفون الأحرار والقضاة الأحرار حركة نادى القضاة وحركة الشارع المصرى المثلة فى "كفاية" و"الحركة المصرية من أجل التغيير" و"فنانون من أجل التغيير" و"حركة ٩ مارس لاستقلال

الجامعات" وتنظيمات المجتمع المدنى التى بلغت أربعة عشر تنظيما تلقائيا حرا. عجل بثورة يوليو حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢. وقد يعجل بالثورة الحالية مظاهر العنف فى المدن وفى سيناء وفى الريف والصراعات الطائفية فى الصعيد والإسكندرية.

عبر الضباط الأحرار منذ أكثر من ستين عاما عن فورة الحركة الوطنية المصرية فى الأربعينيات كما جسدته لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦، وتعبر حركة المثقفين والفنانين والقضاة الأحرار عن الهبات الشعبية التى اندلعت منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧، مظاهرات مارس ١٩٦٨، مظاهرات ميدان التحرير عام ١٩٧١، الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، الإجماع الوطنى على رفض سياسات الجمهورية الثانية فى سبتمبر ١٩٨١ والذى انتهى بحادث المنصة، هبة الأمن المركزى فى ١٩٨٦، انتفاضة الجامعات ضد العدوان الأمريكى المتكرر على العراق فى يناير ١٩٩١ ثم فى رمضان ١٩٩٨ ثم الاحتلال الشامل فى مارس ٢٠٠٣. تكونت الخلايا الأولى للضباط الأحرار فى فلسطين عام ١٩٤٨ كما تكونت حركات المعارضة فى الجمهورية الأولى فى مارس ١٩٦٨ ضد أحكام الطيران الذى أدى إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧، وضد التحول الاشتراكى فى مصر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣. وظل الصراع ضد التسلط والقهر ممتدا والدعوة إلى إقامة حياة ديموقراطية سليمة كأحد المبادئ الستة للثورة المصرية والذى مازال هدفا بعيد المنال بعد مرور أكثر من نصف قرن مع تعدد الأعذار: تأمين الثورة ضد خصومها فى الداخل والخارج والديموقراطية المباشرة فى الجمهورية الأولى، الديموقراطية لها أنياب والقوانين سيئة السمعة فى الجمهورية الثانية، وقوانين الطوارئ وتزوير الانتخابات واللعب بالدستور فى الجمهورية الثالثة.

ومما يساعد على الإسراع فى إنهاء مرحلة وبداية أخرى الخروج على مبادئ ثورة يوليو كلية، والتحول من الثورة إلى الثورة المضادة، ومن النقيض إلى النقيض. فقد تم الانقلاب على الخيار الاشتراكى إلى الرأسمالية، ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص حتى فى

القطاعـات الـشعبية مثـل الكهربـاء والميـاه والمواصـلات، ومـن مجانيـة التعلـيم إلى التعلـيم الخاص، ومن دستور ١٩٢٣ الذى وضع لمصر نظامها الليبرالى إلى دستور ١٩٧١ فى الجمهوريـة الثانيـة والتغيير الشكلى للمـادة ٧٦ فـى الجمهوريـة الثالثـة، ومـن النظـام الجمهـورى إلى نظـام التوريث المعلـن وغير المعلـن، ومـن الملكيـات الدسـتورية إلى الجمهوريـات الوراثيـة، ومـن تـأميم الـشركات الأجنبيـة إلى اسـتدعائها كاسـتثمار مـستقل أو مـشارك، ومـن القوميـة العربيـة إلى القطريـة ثـم إلى تفتيـت الأقطـار إلى فسيفـساء عرقـى طـائفى كمـا يحـدث الآن فـى العـراق والسودان ثم فى الخليج والحجاز ومصر وأقطار المغـرب العربى كلـه، ومـن التعـاون مـع الـشرق ممثلـة فـى الكتلـة الـشرقية وروسـيا والهنـد إلى التعـاون مـع الغـرب الأوروبـى والأمريكـى، ومـن أفريقيـا وآسيا فـى منظمـة التـضامن الأسـيوى الأفريقـى كـدائرة ثالثـة للتحـرك العربـى ابتـداء من مصر والـوطن العربـى إلى الانكمـاش والانعـزال والتراجـع حتـى أصبحـت إسـرائيل هـى أداة التحـديث فـى أفريقيـا. وتتعـاون مـع الهنـد والـصين فـى النهـضة التكنولوجيـة الحديثـة بمـا فـى ذلك صناعة السلاح. بل إن إسرائيل تطبق الآن سياسية الدوائر الثلاث حولها بدلا من مصر: الدائرة الغربية الأمريكية، والدائرة العربية الإسلامية ثم الدائرة الأفريقية الأسيوية.

وإذا كـان ابـن خلـدون، والعـالم كلـه يحتفـل بـستة قـرون علـى وفاتـه، قـد حـدد الجيـل بـأربعين أو خمـسين سـنة فـإن عمـر الثـورة المـصرية الأولى قـد قـارب علـى الانتهـاء منـذ ١٩٥٢ حتـى ٢٠٠٣ غـزو أمريكـا للعـراق، واسـتيلاء إسـرائيل علـى فلـسطين كلـها، النـصف الأول فـى ١٩٤٨ والثـانى عـام ١٩٦٧ مـع احـتلال سـوريا ولبنـان، واسـترداد سـيناء منزوعـة الـسلاح، فـإن الثـورة المـصرية الثانيـة قـد قاربـت علـى الابتـداء بعـد ثـلاث جمهوريـات: الأولى ١٩٥٢-١٩٧٠، والثانيـة ١٩٧٠-١٩٨١، والثالثـة ١٩٨٢ حتـى انتفاضـة نـادى القـضاة وتـضامن نـوادى أعـضاء هيئـات التـدريس بالجامعـات المصرية، وحركـة ٩ مـارس، وكفايـة، والحركـة الوطنيـة مـن أجـل التغيير، ومنظمـات المجتمـع المدنى، ونقابـات الـصحفيين والمحـامين والمهندسين، والعمـال فـى

الطريق.

لقد تم تخصيب مصر بعد عزلتها وانكماشها على نفسها. فانفرط العقد. توقف القلب ففشلت الأطراف. ولن تعود الأطراف إلى التآزر الحركي إلا بعد نهضة مصر من جديد، وعودتها إلى مسارها الطبيعي، وموقعها الجغرافي، وثقلها التاريخي. تحمي نفسها من التآكل والتفتت. وتحمي محيطها من التبعثر والضياع.

٦- جيل يدفع... وجيل يقبض!

ينقسم تاريخ مصر المعاصر على مدى أكثر من نصف قرن منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ حتى العصر الحالى إلى قسمين. الأول، بناء مصر من ١٩٥٢. والثانى، هدم مصر من ١٩٧٠ حتى الآن. الأول ادخار ثروات مصر، والثانى نهب أموال مصر. قام بالأول جيل الخمسينيات والستينيات الذى مازال يناضل ويحمى الوطن من الانهيار التام. وقام بالثانى جيل السبعينيات والثمانينيات الذى يبتلع مصر الآن. أما جيل التسعينيات، جيل الشباب الآن، فهو جيل حائر بين الجيلين السابقين، جيل شد الحزام على البطون من أجل رخاء الأجيال القادمة، وجيل فك الحزام ونهب الثروات. ولتخرب البلاد وتفتقر الأجيال القادمة. جيل يدخر، وجيل يبذر. جيل يقتصد، وجيل يستهلك.

بدأ جيل الخمسينيات والستينيات بقيادة ثورية وطنية، اشتراكية قومية، معادية للاستعمار والصهيونية. فقد اكتوى بالاحتلال البريطانى لمصر وبالهزيمة فى فلسطين فى ١٩٤٨. عانى من الاستعمار والصهيونية من الخارج، ومن القصر والفساد من الداخل. أمم قناة السويس فى ١٩٥٦ فرضا للسيادة الوطنية على أصول مصر ضد النهب الاستعمارى لها. ومصّر الشركات الأجنبية فى ١٩٥٧. وقام بأكبر عملية تصنيع منذ محمد على، الصناعات الثقيلة مثل الحديد والصلب، وصناعة الأدوية والكاوتشوك، وأقام المؤسسة العربية للتصنيع الحربى، وصناعة الألمونيوم، وصناعة السيارات، وصناعة الكيماويات ...الخ. وأقام أحياء بأكملها للصناعة فى شبرا الخيمة والأميرية وحلوان وأسوان مع مدن كاملة للعمال فى

(*) الاتحاد: ١٣ يناير ٢٠٠٧، الزمان: ١١ يناير ٢٠٠٧، الدستور: ١٥ يناير ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢١ يناير ٢٠٠٧.

امبابة. وبنى السد العالى الذى حمى مصر من الجوع والعطش. وشيّد القطاع العام لتوفير السلع للطبقات الفقيرة. وأصلح الأراضى لزيادة الرقع الزراعية وتوزيع الأرض على الفلاحين. وأنشأ مديرية التحرير. وحدد الملكية ثلاث مرات متتالية. وقرر مجانية التعليم من المدرسة حتى الجامعة، استئنافا لجهود الوفد، وإقرار مجانية التعليم حتى الثانوية العامة. فالتعليم كالماء والهواء. وبنى الجيش. وخصم جزءا من راتبه الضئيل للمجهود الحربى. وهو سعيد لتحويل الجيش الملكى للاستعراضات إلى جيش وطنى للقتال دفاعا عن استقلال مصر الوطنى واستعدادا للقتال فى التل الكبير وعلى ضفاف القناة وعودا إلى فلسطين. وأقام الإسكان الشعبى ولجان تقدير الإيجارات حماية للسكان من استغلال الملاك. وأقام خططا خمسية لتنمية مصر اعتمادا على المدخرات الوطنية أكثر من الاعتماد على المعونات الأجنبية المشروطة وغير المشروطة. فلم تتجاوز ديون مصر مئات الملايين من الدولارات والتى بلغت الآن المئات من المليارات.

وهو نفس الجيل الذى ساعد كل حركات التحرر الوطنى العربى لاستقلال الشعوب العربية فى الجزائر ومده بالسلاح لمقاومة الاستعمار الفرنسى، واليمن للتحرر من الاحتلال البريطانى. تحمّل مرارة الهزيمة فى ١٩٤٨، والعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦. وهو الذى قام بحرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٦٩، وبحرب أكتوبر ١٩٧٣، خطة بدر لعبور القناة. وتبنى القومية العربية وحولها إلى حركة تحرر عربى شاملة لتحقيق الحرية والاشتراكية والوحدة. وامتدت ثورته إلى العراق فى ١٩٥٨، وإلى اليمن فى ١٩٦٤، وإلى ليبيا فى ١٩٦٩. وأقام محافظة التكامل فى وادى حلفا بين مصر والسودان. وحقق أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث، الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١. وكان وراء استقلال المغرب العربى كله منذ إنشاء مكتب القاهرة فى ١٩٥٠. وفضل استقلال السودان باختيار حر للشعب السودانى وحقه فى تقرير المصير فى ١٩٥٤. وساعد على استقلال دول الخليج. وحمى لبنان من التدخل

الأمريكى فى ١٩٥٨. كما حمى الأردن من التدخل البريطانى فى نفس العام.

وهو الجيل الذى جعل القومية العربية بمضمونها الاشتراكى التقدمى أيديولوجية ثورية ضمن أيديولوجيات العالم الثالث للتحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وأقام أول تجمع سياسى أفريقى أسيوى فى مواجهة الاستعمار الفرنسى والهيمنة الأمريكية فى باندونج فى ١٩٥٥. وبرز زعماؤه: عبد الناصر، تيتو، نهرو، شوين لاى، نكروما، سيكوتورى، جومو كنياتا، سوكارنو، تنكو عبد الرحمن، يمثلون تحولا جذريا فى مسار العالم، من الاستعمار إلى التحرر، ومن التبعية إلى الاستقلال. وأصبح العالم الثالث يمثل نقطة توازن بين الشرق والغرب، تخفيفا للتوتر العالمى بين حلف وارسو وحلف شمال الأطلنطى. وقاوم الأحلاف الغربية منذ حلف بغداد فى ١٩٥٤ حتى الحلف الإسلامى فى ١٩٦٥.

والآن يقوم جيل السبعينيات والثمانينيات ببيع أصول مصر التى كونها شعب مصر على مدى التاريخ. وضحى بها بآلاف العمال والفلاحين فى حفر قناة السويس، وتشييد المصانع. يبيع القطاع العام بأبخس الأثمان للإقطاع القديم والرأسمالية الحديثة وللشركات الأجنبية تحت ذريعة الاستثمار. وعدنا إلى عصر سعيد. وخصخصت شركات القطاع العام بدعوى الخسارة. وتوقف بعضها من أجل إيقاف الإنتاج واتساع المجال للاستيراد بأسعار لا يستطيع الفقراء دفعها. وخصخص التعليم من الحضانة إلى الجامعة. فقضى على التعليم الوطنى لصالح التعليم الدينى أو التعليم الأجنبى. وجعل الإسكان مجالا للعرض والطلب بأسعار السوق بما فى ذلك الإسكان التعاونى. وجعل النشاط الاقتصادى فى أيدى رجال الأعمال. ورفعت الدولة يدها لصالح الاحتكار والتلاعب بأسعار الحديد والصلب والأسمنت. وجعل الغنى أكثر غنى، والفقير أكثر فقرا مادام رجال الأعمال أعضاء فى الحزب الحاكم، يصرفون عليه. ويقدمون الرشاوى للتهرب مما تبقى من رقابة الدولة على وسائل النقل البحرى وتصاريح البناء. وخصخص البنوك الوطنية. ثم قامت بتهريب رؤوس الأموال

المصرية أكثر مما أحضرت رؤوس الأموال الأجنبية. واستدان. فجعل ديون مصر أربعين مرة عما كان الأمر عليه فى الجيل السابق. واعتمد على المعونات الخارجية أكثر مما اعتمد على المدخرات الوطنية. وتلاعب بسوق الأوراق المالية. وحاول إلغاء الرقابة الإدارية. وجعل المجالس النيابية وسيلة لإثراء أعضائه بعقد الصفقات أو القروض حتى يصبح بعد أن يغادرها الأعضاء من رجال الأعمال. وأطلق الحكم للرئاسة بتغيير الدستور لصالحه، والتخلى عن النظام الاشتراكى التى كانت القوات المسلحة الأمينة عليه، ومنع تداول السلطة بين القوى السياسية الرئيسية فى البلاد.

عزل جيل السبعينيات والثمانينيات مصر عن محيطها العربى. وشاركت قواتها مع القوات الأمريكية لغزو العراق بدوى تحرير الكويت الذى كان يمكن تحقيقه دون إعطاء الشرعية للعدوان الأمريكى من مؤتمر القاهرة الذى شرّع للعدوان بفارق صوت أو صوتين، سوريا ولبنان. وأيد بقاء قوات الغزو بالعراق خوفا من النزعات الطائفية كما تدعى الولايات المتحدة الأمريكية. ويسيل الدم فى فلسطين بالعدوان المستمر عليه منذ الانتفاضة الأولى فى ١٩٨٧. ومازال يسيل. ويكتفى بتدريب الشرطة الفلسطينية، وقد خاضت مصر خمسة حروب من أجل فلسطين. وتركت لبنان فريسة للعدوان الإسرائيلى على المدنيين فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة التى انتصرت فيها المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله على أعتى قوة عسكرية فى المنطقة. وعجز الجيش الذى لا يقهر عن مواجهة المقاومة. هرمت مصر قبل الأوان، وانعكفت على ذاتها كما حدث لفرنسا بعد الثورة الفرنسية وهزيمة نابليون فى ووترلو.

وأضاع هذا الجيل الاستقلال الوطنى ومقاومة الأحلاف الأجنبية لصالح التبعية للولايات المتحدة الأمريكية والصلح مع إسرائيل. وجعل الوطن العربى مستباحا بلا حماية ولا كرامة. وأصبح للاستعمار والصهيونية اليد الطولى فى تقرير حاضر الوطن العربى

ومستقبله ومتنصلا عن ماضيه. بل خلق محاور من الدول المعتدلة مع الأردن والسعودية ضد الدول المتطرفة، سوريا ولبنان وإيران!

جيل ضحى، وجيل عاش. جيل افتقر، وآخر اغتنى. فأين حق الجيل الماضى الذى ادخر من ثروة الجيل الحالى الذى بدد؟ أين حق من اقتصد قوت يومه ليبنى مصر فى ثروات من نهب مصر؟ قضية قانونية وسياسية ووطنية يعرضها جيل الخمسينيات والستينيات الذى ينظر إلى تبديد مدخراته وبيع أصوله. أين حق دم الشهداء من أجل مصر وفلسطين واليمن فى ثروات من باعوا الأوطان وأصبحوا جزءا من الرأسمالية العالمية؟ أين حق فقراء جيل الخمسينيات والستينيات فى ثروات جيل السبعينيات والثمانينيات؟ متى يخرج الجيل الثالث، جيل مظاهرات الطلاب فى ميدان التحرير فى ١٩٧١، وجيل أكتوبر فى ١٩٧٣، والهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، وانتفاضة الأمن المركزى فى ١٩٨٦، والمظاهرات ضد الغزو الأمريكى للعراق فى يناير ١٩٩١ واحتلاله فى مارس ٢٠٠٣؟ متى يتوقف هذا الجيل الثالث عن حيرته ودهشته لما حدث فى مصر المعاصرة؟ متى ينضم إلى جيل الآباء ضد جيل الأحفاد حتى تعود مصر إلى مسارها الطبيعى، مصر الوطن، ومصر العروبة، ومصر الإسلام، ومصر العالم الثالث، ميزان الثقل فى العالم بين الشرق والغرب؟

٧- البداية والنهاية

من دلالة انتهاء مرحلة وبداية أخرى هو مقارنة بدايتها بنهايتها. فالجمهورية الثالثة فى مصر (١٩٨١-٢٠٠٦) بدأت منذ ربع قرن، وقاربت على الانتهاء. وهى أطول من الجمهورية الأولى (١٩٥٢-١٩٧٠)، والجمهورية الثانية (١٩٧١-١٩٨١). انتهت الأولى بموت طبيعى للزعيم الخالد. وانتهت الثانية باغتيال المغامر والمقامر. والثالثة على وشك الانتهاء بالانفجار الشعبى.

بدأ الجمهورية الثالثة ومصر كلها فى السجون "ومين اللى يقدر ساعة يحبس مصر؟" فى مذبحة سبتمبر الشهيرة عام ١٩٨١. وهو ما أدى إلى تصفية رأس النظام بعدها بشهر فى أكتوبر من نفس العام. وبدأت الجمهورية الثالثة بالإفراج عن المعتقلين، من السجن إلى القصر الجمهورى، ومن أبى زعبل إلى الرياسة. وفيهم أقطاب السياسة فى مصر من صحفيين وأساتذة جامعات وقادة سياسيين وكتاب ومفكرين، رجالا ونساء. واستبشر الجميع خيرا لهذا التحول من السجن إلى الحرية، ومن الخصومة بين الحاكم والمحكوم إلى الحوار بينهما، ومن العداوة السياسية بين الحكومة والمعارضة إلى تبادل الرأى، ومن القرارات والسياسات المتفردة التى اتبعتها الجمهورية الثانية إلى الاشتراك فى رسم السياسات الوطنية التى بها تتقرر مصالح الشعوب. وفى نهاية الجمهورية الثالثة عاد الأمر إلى التوتر من جديد بين النظام ومعارضيه. مذبحة القضاء الآن مثل مذبحة سبتمبر الأولى. وقد تضامن مع القضاء كل شعب مصر، أحزاب المعارضة الرسمية وغير الرسمية فيه،

(*) العربى الناصرى: ١٦ يوليو ٢٠٠٦.

الإخوان والناصريون والليبراليون والماركسيون، ومنظمات المجتمع المدنى وحركاته التلقائية مثل "كفاية"، وحركة ٩ مارس، والحركة الوطنية المصرية من أجل التغيير، وكتاب وفنانون من أجل التغيير والتى بلغت أربعة عشر تنظيما. وأصبح النظام السياسى فى وادٍ والشعب فى وادٍ آخر، مما يؤذن بالنهاية. فالديمقراطية لها أنياب "أفرمهم بالقانون". وأمام أجهزة الإعلام هدم حائط من سجن أبى زعبل وفى الواقع يتم توسيعه. وأمام الكاميرات تُحرق شرائط التجسس، وفى الواقع تنتشر أجهزة الأمن فى كل مكان.

وفى نهاية الجمهورية الثانية كان ترزية القوانين قد أصدروا ما يريده الحاكم، القوانين سيئة السمعة: قانون الاشتباه، وقانون العيب لحماية كبير العائلة، وأخلاق القرية، وتمديد الرياسة إلى أكثر من دورتين بل إلى مدى الحياة مع زيادة فى الألقاب: خامس الخلفاء الراشدين، الرئيس المؤمن، بطل الحرب والسلام. وفى نهاية الجمهورية الثالثة بدأ ترزية القوانين أيضا لتعديل المادة ٧٦ من الدستور، مادة يتيمة، فى الظاهر الانتخاب بين أكثر من مرشح، وفى الواقع استحالة انتخاب أى مرشح آخر إلا مرشح الحزب الحاكم للشروط شبه المستحيلة أمام المرشح البديل. وبدلا من قانون السلطة القضائية الذى يطالب به نادى القضاة المنتخب منهم، يمر أمام مجلس الشعب والشورى قانون لم يُعرض على القضاء لأخذ رأيهم. ومازال يعطى السلطة التنفيذية الأولوية على السلطة القضائية، طعنا فى استقلال القضاء. وبدلا من قانون يمنع حبس الصحفيين فى جرائم النشر يقدم قانون الشائعات لاستمرار حبسهم.

وقد اكتفى رئيس الجمهورية الثانية بالتمديد، الرياسة مدى الحياة دون التفكير فى التوريث، فكل إخوته ليسوا أشقاء. وكان أولاده من الإناث. والآن فى نهاية الجمهورية الثالثة، يبدأ سيناريو التوريث للابن، من عضو فى الحزب إلى رئيس لجنة السياسات إلى الأمين العام للحزب إلى نائب الرئيس إلى الرئيس. ولا يوجد إجماع شعبى على شىء من

الجيش والشعب مثل الإجماع على رفض سيناريوهات التوريث. فالقوات المسلحة هى الحامية للنظام الجمهورى طبقا للدستور. وقد كان القرار الأول لثورة يوليو تحويل الملكية إلى جمهورية. ومصر ليست سوريا ولا ليبيا ولا اليمن. وشتان ما بين عائلة محمد على مؤسس مصر الحديثة وعائلة رئيس الجمهورية الثالثة ناهب مصر المعاصرة.

وفى بداية الجمهورية الثالثة كانت هناك تجربة سابقة فى الجمهورية الثانية خاصة بالوضع الدستورى لحرم الرئيس. ليس له نص فى الدستور. إنما هو تقليد أمريكى، السيدة الأولى. ولم يكن أحد يعلم شيئا عن حرم الرئيس عبد الناصر إلا ظهورها أحيانا بجواره فى المقابلات الرسمية، ورعايتها لأسرتها. وقد حدث رد فعل عند شعب مصر من ملكة مصر فى الجمهورية الثانية، ودخولها الجامعة، وإعطائها أعلى الدرجات فى مرحلة الليسانس على مدى سنوات أربع، وجمع المادة العلمية لها، وكتابة رسالتيها، الماجستير والدكتوراه فى مرحلة الدراسات العليا. كانت راعية مشروع الوفاء والأمل، والمحركة لقانون الأحوال الشخصية. وكانت تلقى بظلالها على كل نساء مصر. وأثناء جنازة زوجها كانت تصفف شعرها. ووعت الجمهورية الثالثة الدرس. فاختفت حرم الرئيس فى الشهور الأولى. ولما استتب الأمن ورسخ النظام خرجت إلى الحياة العامة. وأصبحت تدريجيا وراء نهضة مصر الاجتماعية والثقافية، مكتبة الأسرة، رعاية الأطفال، المجلس القومى للمرأة، حماية الآثار، مؤتمر السكان. بل أصبح لها نظرياتها وفلسفتها وأيديولوجيتها فى الإدارة والحياة. أصبحت محورا من محاور السياسة، وقطبا مؤثرا فى تشكيل الوزارة وتعيين الوزراء، والتخطيط لسيناريوهات التوريث كما تروى الأخبار الشعبية.

وفى بداية الجمهورية الثالثة فى خطاب التنصيب بعد قسم اليمين الدستورى، ذكرت نظافة اليد، واستبشر الناس خيرا بعد أن دب الفساد فى الجمهورية الثانية مع بداية قانون الاستثمار فى ١٩٧٤ وبداية الخصخصة. وأدرك الناس أن من لم يغتن فى هذه الفترة فلن

يغتنى أبدا. والآن فى نهاية الجمهورية الثالثة انتهت الشعارات الأولى وذهبت أدراج الرياح. فعم الفساد وتهريب الأموال. وسيطر رجال الأعمال على رجال السياسة. وبيع ما تبقى من القطاع العام بأبخس الأثمان بما فى ذلك الشركات الرابحة. والشركات الوطنية الكبرى الخاصة بالنقل والمواصلات والمياه والكهرباء فى الطريق. وتمت المضاربات فى سوق الأوراق المالية. فاغتنى الأغنياء من الحزب الوطنى وخسر الفقراء من جموع الشعب بالمليارات. وغرقت العبارات وهرب أصحابها. واندلعت الحرائق لإخفاء السرقات والنهب للمال العام. وهربت ثورة مصر خارج مصر حتى أصبحت ضعف الدخل القومى، وضعف ديون مصر.

وفى التعليم تدخلت الجمهورية الثانية. وفرضت نظام الفصلين الدراسيين لإبعاد طلاب مصر عن المظاهرات والمشاركة فى الحياة الوطنية. وتم تعيين العمداء بدلا من انتخابهم النسبى. واستمر تعيين رؤساء الجامعات. واستمر تدخل رجال الأمن العلنى والسرى فى الحياة الجامعية. وانطلقت الأغنيات الشعبية "شيد قصورك ع المزارع من دمنا وعرق جبينا، والخمارات قبل المصانع، والسجن مطرح الجنينة، عمال وفلاحين وطلبة، ...". واستمر الأمر حتى نهاية الجمهورية الثالثة. وتدخل لجنة السياسات فى نظم التعليم. وفرض نظام الساعات المعتمدة الذى لا يتفق مع الأعداد الكبيرة، ونقص أعضاء هيئة التدريس، وفقر المكتبات العامة. وأخيرا فرض نظام الجودة وإشغال الأساتذة بما لا يفيد إلا بصرف الأموال الطائلة على مكافآت الإغراء. تطوير التعليم من أجل السوق، الحاسبات الآلية، واللغات الأجنبية، والدراسات التطبيقية لإيجاد الخريجين فرص للعمل، ولحل مشكلة البطالة.

وكما انتهت الجمهورية الثانية بالقوانين المقيدة للحريات فى الداخل انتهت أيضا بالقطيعة مع العرب وبالاعتراف بإسرائيل، والمفاوضة والصلح معها منذ زيارة القدس فى

نوفمبر ١٩٧٧ حتى كامب ديفيد فى ١٩٧٨، ومعاهدة السلام فى ١٩٧٩، عام اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران. وبدأت الجمهورية الثالثة بإعادة العلاقات مع العرب، وعودة الجامعة العربية إلى مصر. ثم عادت الآن لتهمل العرب، وتترك فلسطين حتى تقلصت قضية التحرر الوطنى إلى البحث عن رواتب الموظفين والأغذية والأدوية لشعب لاجئ. وانكمشت مصر وتقلص دورها فى محيطها العربى والإسلامى، فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. وتركت حدودها تتآكل فى الشمال فى الشام، وفى الجنوب فى السودان والصومال مثل فرنسا بعد هزيمة نابليون فى واترلو. اقتصر دورها على عقد الحوار بين الفصائل الفلسطينية، وعلى تنظيم اللقاءات بين رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية ورئيس الوزراء الإسرائيلى، والدم يسيل كل يوم. تصفية قادة المقاومة، وقتل النساء والأطفال والشيوخ على الشواطئ، وهدم المنازل أو الاصطياد بالصواريخ. ويستمر توريد الغاز الطبيعى لدوران عجلة الحرب الإسرائيلية، وتوريد الأسمنت والحديد لبناء الجدار العازل، واستقبال رؤساء وزراء ووزراء إسرائيل وكأنهم فى بلادهم.

وبدلا من تصحيح سياسات مصر الخارجية، التبعية لأمريكا، وتبرير وجود القوات الأمريكية بالعراق حماية له من الحرب الأهلية، واستعمال المياه المصرية لضرب العراق ودخول القوات المصرية مع القوات الأمريكية لاحتلال العراق بدعوى تحرير الكويت، وإقامة التدريبات المشتركة مع القوات الأمريكية ثم تلتها تونس والجزائر والمغرب، مادام رب البيت بالدف ضاربا.

وبدأت الجمهورية الثالثة بتواضع الرئيس بعد أن أخذ العبرة من عجرفة وغرور رئيس الجمهورية الثانية. وقدر الناس بطل ضربة أكتوبر ١٩٧٣ كما قدر عبد الناصر من قبل الضابط الشاب، مدير الكلية الجوية. ثم تحول شيئا فشيئا إلى مثل ما كان عليه رئيس الجمهورية الثانية، موضوع الغناء الشعبى، ووضع اسمه على الجوائز، ومشاريع الإسكان، ومحطات المترو، ويافطات الإعلانات، وتصدره لنشرات الأخبار. وأعطيت له أيضا سلسلة من الألقاب، من كبير العائلة إلى كبير الآلهة، ومن مؤسس مصر الحديثة مثل محمد على إلى بانى مصر المعاصرة. لم يلجأ إلى الدين لتبرير

السياسة ونزعه من المعارضة فافتقر إلى الرؤية وإلى الشرعية. كلاهما لا يقرآن. ويكتفيان بالتقارير. فقدت مصر الخيال السياسى لتوجيه دفة الحلم فى أعتى الأعاصير. وبلغ الضيق مداه، وعم الاحتقان، مما ينذر بالانفجار.

٨- الأيام الأخيرة للنظام

كما أن هناك علامات ليوم القيامة، اليقينى منها والظنى، هناك علامات أخرى لنهاية أى نظام سياسى. فقد كانت هناك علامات فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات مثل الحركة الوطنية، النكبة الأولى فى فلسطين، حركة ضباط الأحرار، حريق القاهرة، سقوط الوزارات، الحركة الفدائية فى القناة، ضرب الإنجليز لمخفر الشرطة فى السويس على أن نهاية نظام قد حانت، النظام البريطانى الملكى الإقطاعى، ونظام آخر جديد قد بدأ، ثورة يوليو ١٩٥٢. وتم التعبير عن ذلك فى عديد من الأفلام حول الأيام الأخيرة ليسوع أو لهتلر أو لنابليون. فهى مفاصل التاريخ والدالة على حلقاته ودوراته (**وتلك الأيام نداولها بين الناس**).

وعن علامات نهاية نظام فردية الحاكم وغروره وتجبره بل وتأليه نفسه، مسميا نفسه آخر الفراعنة أو زوجته ملكة مصر مثل حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا وشجرة الدر. لا يستشير أحدا فى قراراته التى يغامر بها فى أواخر حياته. ويدعى الاعتماد فيها على الإلهام وهو فى طائرة فوق السحاب، قريبا من الملائكة ورسل الوحى، بل ومن الله. تأتيه الرؤى، الصلح مع العدو المحتل للبلاد على نحو انفرادى وكأن سيناء أغلى من فلسطين والجولان ولبنان. والحقيقة أنه اتفاق عن طريق الوسطاء بأسلوب مسرحى وأمام أجهزة الإعلام بدعوى الصدمات النفسية مخاطبا الغرب إذا عز عليه إقناعه بالإلهام السماوى. فالغرب يعلم منذ عصوره الحديثة أن ما يتخيل فى السماء إنما يحدث فى الأرض أولا قبل أن يتخيله

(*) الاتحاد: ١٢ فبراير ٢٠٠٥، الدستور: فبراير ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢٠ فبراير ٢٠٠٥.

الناس فى ثقافاتهم الشعبية ومؤسساتهم الدينية. يخاطر بمصائر الشعوب، وينفصل عن ماضيها، ويحول ثوابتها إلى متغيرات، ومتغيراتها إلى ثوابت، وكأن السياسات المحلية والدولية أسرار فى ذهن الحاكم، وكأن الحكم إرث شخصى، وكأن الوطن ضيعة، وكأن مصير الشعوب للبيع والشراء. لا فرق بين من غامر بالحرب وبين من غامر بالسلام. فكلاهما مغامرة بالأوطان. وكلاهما تنفيذا لأوامر السيد الأجنبى، ومظهر من مظاهر التبعية باسم البطولة. وإذا ما وصلت الأشياء إلى الحد الأقصى فالطرفان يلتقيان. لا فرق بين البطولة والخيانة و"الحلال بيّن، والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات". والقطعية فى السياسة تعصب. وتحويل السياسة إلى دين. لا توجد أحكام قاطعة فى السياسة خصاما أو مصالحة، غلق الأبواب أو فتح الأبواب. بل هناك تحليل للمواقف، وحساب للمكسب والخسارة، وترك العلاقات الدولية مفتوحة أمام الأوضاع المتغيرة. فقد ينقلب الصديق إلى عدو والعدو إلى صديق.

الأحكام القاطعة فى السياسة تغلق الباب أمام البدائل، والرأى والرأى الآخر. وهى أحد مظاهر التسلط فى الرأى، والتعصب لأحادية الطرف، وإلغاء للتعددية السياسية. فالتسلط فى الداخل ينعكس على التسلط فى الخارج. وهو أيضا طلب للشهرة والإعلام، والرغبة فى الدخول إلى التاريخ ولو من أضيق الأبواب كما يفعل المجرمون ومشاهير اللصوص ومصاصو الدماء. والذاكرة تحتوى كل شىء، الخيانة والبطولة، الإدانة والبراءة، الظالم والمظلوم، الحاكم والمحكوم.

ومن مظاهر التفرد والغرور والتأله احتقار المعارضة فى الداخل، وعدم أخذها مأخذ الجد وإن سمح بها كنوع من زينة المجالس، يفخر بها أمام الغرب الذى يفرض مشروع "الشرق الأوسط الكبير" ويضع برنامجا لإصلاحه فى أول بنوده الديموقراطية. لديه مجالس منتخبة حتى ولو كانت مزيفة. يأخذ الحزب الحاكم بمعظم مقاعدها. وينجح الرئيس

بالإجماع بناء على استفتاء عام للموافقة على المرشح الوحيد الأوحد مع أن الوحدانية من صفات الله. فإذا ما أراد إثبات أن المعارضة فى الداخل محدودة، ومن ذا الذى يستطيع معارضة فرعون- الإله، فإنه يقبض عليها بالآلاف فى ليلة واحدة أو يستبعدها من جهاز الدولة والصحافة والجامعات فى مذبحة تذكر فى التاريخ. وكما يقضى على المعارضة فى الداخل يحتقر المعارضة فى الخارج، ويقطع معها، ويعزل القلب عن الأطراف. بل ويدخل فى حروب وتحالفات مع الأجنبى ضد العربى، فيسفك العربى دم العربى كما يفعل الأجنبى وكما عبر عن ذلك فيلم "العاصفة". فهو الوحيد العالِم، والآخرون جهلة أراذل. وقد يكون الثمن بضعة مليارات لتخفيف الديون. وأموال الوطن مهربة فى الخارج أضعاف الديون.

ومن عظمة التأله لا يكاد الحاكم يرى. ومن كثرة ما أحيط به من رجال البلاط يزينون أعماله ويمدحون صفاته، ويشيدون بمآثره، يغيب الواقع عنه. لا يعلم أن المياه الجوفية قد تجرف البنيان، وأن عرشه على الماء يهتز دون أن يشعر به لأن فرعون لا يموت (**إنك ميت وهم ميتون**). ويسخر ممن قبله. ولن يأتى أحد بعده. وليس له نائب لأن الله لا يخلفه أحد، وليس له مساعد إلا ابنه إعدادا له حتى يخلف الفرعون الصغير الفرعون الكبير. والبطانة جاهزة. "مات الملك، يحيا الملك".

والاحتقان فى الشارع وصل الذروة. والناس بلغ بهم الضيق إلى حد الانفجار. فالغلاء يشتد يوما وراء يوم. والأسعار ترتفع والدخول على حالها. وكما يفقر الفقراء يغنى الأغنياء. وكما تشقى الجماهير تنعم القلة. ودعم المواد الغذائية لمحدودى الدخل كاد أن يكون صوريا. وانتهى عصر الإسكان الشعبى ولجان تقدير الإيجار. وبنيت المدن الجديدة للقادرين، كمستعمرات مغلقة بحراس شداد لحماية الأثرياء الجدد. والقطاع الخاص يلتهم كل شىء. والقطاع العام من قبيل الذكريات السيئة. والتعليم الوطنى أفرغ من مضمونه لصالح التعليم الخاص من أجل السوق. والناس تسخط كل يوم من الصباح إلى المساء. ولا ضير فى السخط

والتبرم. أما الفعل والتمرد والمظاهرة فلها الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ والاعتقال سنوات وسنوات دون تهمة أو محاكمة. وطوابير الخبز تطول أو تقصر. ولم تعد السرقة فى المركبات العامة والأسواق بل بالمضاربة على أسعار الحديد والأسمنت وبتهريب الأموال ونواب القروض، وشركات توظيف الأموال التى تحولت من اللص الصغير إلى اللص الكبير، ومن الجماعات الدينية إلى الدولة العصيّة. فساد فى الداخل وتبعية فى الخارج، وبطالة وفقر، وضياع ويأس. فيهاجر غير القادرين إلى الداخل، المخدرات، والدين، والجنس، ويهاجر القادرون إلى الخارج. وتطول الطوابير أمام سفارات الدول العربية والأجنبية سعيا للخروج إلى أرض المعاد.

وكلما ازداد هاجس الأمن ازدادت العزلة والتفرد والتأله. وكلما طالت القامة ضعفت الأرجل ولم يعد للأرض ولا للناس أى دور. فيصعد فرعون إلى السماء بعد أن تطرده الأرض. فالأرض تدفع من أدنى إلى أعلى كما يفعل النبات والنار. وقد يحدث زلزال فى الأرض فيهوى فرعون، من حيث لا يحتسب كما تأخذ الأرض زخرفها وتتزين وتظن أن أمر الله لن يأتيها، وكما تجبر فرعون وقال (أنا ربكم الأعلى). والناس تنتظر الخلاص دون مخلص حتى لا يتكرر التأله. إنما تنتظره على أيديها حتى تسترد مصيرها، وتدافع عن أوطانها، وتستعيد كرامتها، وتثق بنفسها. فقد سئمت التأله. وكما يفعل الشهيد الذى فقد وطنه وأهله وقريته وصباه وتاريخه، والمستقبل أمامه معتم كذلك تفعل الشعوب فى هباتها. فتغيير الوضع القائم أفضل من الاستمرار فيه أو القيام بمغامرة غير محسوبة العواقب. فالمجهول أفضل من المعلوم. والعهد الآتى خير من العهد الماضى. وإيقاف الحاكم الحاضر لن يمنع الشعوب من التمرد نحوا لمستقبل.

٩- هل يأتى سبتمبر آخر؟

بعد ربع قرن تماما قد يعيد التاريخ نفسه من جديد من سبتمبر ١٩٨١ إلى سبتمبر القادم هذا العام أو العام القادم فتكتمل الدورة. وكما انتهت الجمهورية الثانية بعد شهر سبتمبر ١٩٨١ بشهر واحد فقد تنتهى الجمهورية الثالثة حول سبتمبر القادم أو الذى يليه. ونظرا لأن الظروف واحدة فى الحالتين فقد تكون النتائج واحدة بالرغم من تشكك البعض لاختلاف الظروف أو لأن حوادث التاريخ فردية لا تتكرر.

فالصلح المنفرد مع إسرائيل مازال قائما بل زاد بانضمام الأردن وموريتانيا وفتح مكاتب الاتصال أو المكاتب التجارية من المحيط إلى الخليج، وتفرد إسرائيل بالانتفاضتين الأولى والثانية بالاحتلال والتصفيات الجسدية لقادة المقاومة ونشطائها وهدم المنازل وتجريف الأراضى، ورفض الاعتراف بالحكومة الفلسطينية التى أتت باختيار شعبى حر وحصارها وتجويع شعب فلسطين، والمرتب فى مقابل الوطن فى فلسطين كما أن الغذاء فى مقابل النفط فى العراق. وانتهت أحلام الحكم الذاتى وخارطة الطريق والدولة الفلسطينية المستقلة لعدم وجود طرف مفاوض فلسطينى أو عربى.

والاعتماد شبه الكلى على الولايات المتحدة الأمريكية مازال قائما. فهى القوة الوحيدة التى تملك مفاتيح الحرب والسلام. بيدها ٩٩,٩٪ من أوراق اللعبة. وهى القوة المحافظة على الأمن والسلام فى العراق وإلا اقتتلت طوائفه وأعراقه وتفتت وتشرذم وانقسم إلى دويلات. وهى التى تتوسط فى محادثات أبوجا لحل مشكلة دارفور كما حلت من قبل

(*) الاتحاد: ١٣ مايو ٢٠٠٦، الدستور: مايو ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٢١ مايو ٢٠٠٦.

مشكلة الجنوب. وهى التى تملى شروطها على سوريا ولبنان واستعمال المنظمات الدولية لفرض القرارات الدولية عليها. وتهدد إيران بالحصار وبالهجوم المسلح. وتجبر ليبيا على التحول عن سياساتها لتتبع باقى النظم العربية فى سياساتها الموالية لها، ودخول الجميع بيت الطاعة.

فى سبتمبر الأول ازدادت القوانين سيئة السمعة المقيدة للحريات العامة مثل قانون الاشتباه، وقانون العيب، وقانون المحافظة على الوحدة الوطنية. واستمرت هذه القوانين فى الجمهورية الثالثة بالإضافة إلى قانون الطوارئ وقانون مكافحة الإرهاب الجديد المزمع إصداره. وظلت قضية الديموقراطية والحرية السياسية هى حجر العثرة فى الجمهوريات الثلاث التى تعاقبت على مصر فى نصف قرن.

واستمر الانفتاح الاقتصادى منذ قوانين الاستثمار حتى انتهى إلى بيع القطاع العام كله بأبخس الأثمان، وغلبة القطاع الخاص، وزيادة سطوة رأس المال الخاص والمحلى والإقليمى والدولى. فى سبتمبر الأول باسم التحرر الاقتصادى وفى سبتمبر الثانى باسم العولمة والسوق العالمية، وحرية الاستيراد والتصدير، وقوانين السوق، الربح والمنافسة. وقوى دور رجال الأعمال واحتكار تجارة الحديد والأسمنت والنقل البحرى والاتصالات. وتكونت حكومات رجال الأعمال التى تبيع الوطن من أجل الربح. وتنسى حقوق الفقراء فى ثروة الأغنياء. ونظرا لتبنى الرأسمالية دون قيمها مثل حرية المنافسة والضرائب التصاعدية فقد انتشر الفساد، وذاعت العمولات، وخرقت القوانين، وتعددت الشلل وجماعات الضغط. وارتبطت المصالح الاقتصادية بالنفوذ السياسى. فجمعت طبقة رجال الأعمال بين السلطة والثروة فى الحزب الحاكم وفى المؤسسات التشريعية والإعلامية وأجهزة الدولة التنفيذية.

حدث سبتمبر الأول بعد أن عارض رئيس الجمهورية الثانية كل فئات الشعب وقواه السياسية. وتصور أن الكل عدوه: الإسلاميون والناصريون والليبراليون والماركسيون. هم

"الأراذل" من الطبقة المتوسطة الذين يتاجرون بمآسى الشعب، ولا يستطيعون الاستغناء عن الماء الدافئ. أراد أن يثبت أن شعبه معه بعد أن أخبره بيجين ضيفه فى مصر بأن الناس فى مصر غير راضيين عن اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ولا على معاهدة السلام فى ١٩٧٩. فأراد أن يثبت له أن شعبه معه، وأن المعارضة لا تتجاوز الآلاف من العهد البائد، وأنه قادر على وضعهم فى السجون. فلما فعل اعتقل مصر كلها. ثم وقع حادث المنصة بعدها بشهر. "ومين اللى يقدر ساعة يحبس مصر؟".

ومن كثرة التسبيح بحمده، والإشادة بذكره، وبيان محامده، وترويج الإعلام لقراراته الحكيمة فى الحرب والسلم يعتز الحاكم بنفسه إلى درجة الغرور. فلا يستمع لأحد. ولا يقبل النصح. ولا يتحمل النقد، ويتأله. ويدعى الإلهام والعون من السماء، وأنه آخر فراعنة مصر. وفى سبتمبر الثانى يتوحد الرئيس مع نفسه من طول بقائه فى الحكم. ويفقد الصلة بنبض الشارع. ولا يستمع إلى النقد حتى ولو كان عالى النبرة. يستعمله كدليل لإثبات الديموقراطية كما يتطلب الخارج وليس كضرورة لإصلاح الحكم فى الداخل. يعيش وحيدا حتى ولو كان بين الأقران. لا يتصور أن هناك بديلا له أو عن سياساته. فلا يوجد أحد من الثمانين مليونا يختاره نائبا. وأمريكا قدر لا يمكن الفكاك منه. وحرب أكتوبر آخر الحروب. ومصر تدافع عن سيادتها الوطنية، ومجرد وسيط بين متنازعين فى فلسطين، والسلام خيار استراتيجى، والعراق مهدد بالتقسيم مما يبرر وجود قوات التحالف واستمرار الاحتلال حماية لوحدة العراق. ولا شأن لها بما يحدث فى السودان، الأمن القومى لمصر فى الجنوب بالنسبة لمياه النيل، ولا بما يجرى فى الشام، الأمن القومى لمصر فى الشمال مصدر الغزوات الدائم لمصر منذ الهكسوس قديما حتى إسرائيل حديثا. وقد كانت سيناء باستمرار المدخل الشرقى لمصر.

وكما نشأت فى سبتمبر الأول سياسات بديلة عن السياسات القائمة فى رفض الاعتراف بالكيان الصهيونى ورفض التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية، ورفض

القطيعة مع الوطن العربى، ورفض القوانين المؤيدة للحريات، وهو الحد الأدنى من الوفاق الوطنى الذى التفت حوله كل القوى السياسية، الإسلامية والناصرية والليبرالية والماركسية، تنشأ الآن جبهة وطنية تجتمع على الحد الأدنى من وفاق وطنى جديد ممثلا فى حركة "كفاية" وباقى الحركات الوطنية التلقائية التى نشأت فى السنوات الأخيرة مع النقابات المهنية والجمعيات الأهلية وتنظيمات المجتمع المدنى، تقدم سياسات بديلة عما هو قائم، رفض التبعية للولايات المتحدة، وتأييد المقاومة الفلسطينية والعراقية والأفغانية والشيشانية، ورفض قوانين الطوارئ وتزوير الانتخابات، وسيطرة الحزب الحاكم. وهو برنامج للإنقاذ الوطنى يمثله نادى القضاة بصرف النظر عن تعدد الأطر النظرية للقوى السياسية.

وفى كلتا الحالتين يتم الاستقواء بالخارج على الداخل. فالنظام القائم منذ ربع قرن وحتى الآن هو الوحيد الضامن ضد التغلغل الشيوعى أولا وضد الإرهاب الإسلامى ثانيا. فإذا سقط عمت الفوضى، ولم يعد أحد بقادر على رعاية مصالح الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة. وفى نفس الوقت الذى يرفع فيه الغرب شعار التحول الديموقراطى فإنه يؤيد أعتى النظم ديكتاتورية. ويرفض الاعتراف بنتيجة الانتخابات الديموقراطية فى فلسطين. إذا سقطت الأنظمة الموالية للغرب أتى الإسلاميون أو الناصريون. وكلاهما معاديان للغرب ومصالحه.

فى سبتمبر الأول كانت الحجة النزاعات الطائفية فى الزاوية الحمراء. واتهمت المعارضة بكل فصائلها بأنها المسئولة عنها. وفى سبتمبر الثانى النزاعات الطائفية فى الكشح أولا وفى الإسكندرية ثانيا تهدد أمن النظام. وكانت الجماعات الإسلامية فى سبتمبر الأول مصدر الإرهاب منذ حوادث الاستيلاء على الفنية العسكرية ومقتل الشيخ الذهبى والاستيلاء على محافظة أسيوط حتى حادث المنصة وجماعة الجهاد. وفى سبتمبر

الثانى هناك حوادث طابا وشرم الشيخ ودهب، بعد ميدان عبد المنعم رياض والسيدة عائشة والموسكى.

وفى كلتا الحالتين، كانت السيدة الأولى محط الأنظار. تسمى نفسها ملكة مصر مما اضطر أحد القادة السياسيين إلى الكتابة عن "الوضع القانونى لحرم الرئيس". ومازال التقليد سائدا، دور السيدة الأولى فى تدعيم مؤسسات المجتمع المدنى، المرأة، والطفولة، ورعاية ذوى الاحتياجات الخاصة، ومكتبات الأطفال، والقراءة للجميع.

ومما يسرع بسبتمبر الثانى أن النظام الحالى دام حوالى ربع قرن فى حين أن سبتمبر الأول أتى بعد عشر سنوات. كما أن النظام الحالى مشغول بالتوريث والخلافة والملك فى حين أن النظام السابق كان يتصور أنه باق إلى الأبد مادام الرئيس بين أولاده. كما استعمل النظام السابق "ترزية" القوانين فى حين يصطدم النظام الحالى بالقضاة وهم الحكم بين السلطتين التنفيذية والتشريعية. كما حاول النظام السابق استمداد شرعيته من الدين، وتأسيس مجتمع العلم والإيمان، وأن من لا دين له لا أمان له، وأن الرئيس هو خامس الخلفاء الراشدين. فى حين أن النظام الحالى لا يستند فى شرعيته على شىء، لا ثورة ٢٣ يوليو منذ نصف قرن فقد قدم العهد وتغيرت الظروف، ولا من حرب أكتوبر منذ أكثر من ثلاث عقود. ففلسطين وسوريا ولبنان مازالت محتلة. غاب الخيال السياسى، وتوقف القلب، وشلت الأطراف، وأصبح السير فى المكان بلا اتجاه. يكفى تجميع السلطة والثروة فى يد واحدة، الحزب الحاكم أو طبقة رجال الأعمال أو الرئيس أنا ربكم الأعلى).

الفصـــل الثـــانى

الســــلطــــان

١- فرعون مصر.

٢- الدولة والفرد.

٣- لكل أجل كتاب.

٤- كرامة السلطان.

٥- صورة السلطان.

٦- جوقة السلطان.

٧- صوفية السلطان.

٨- مشايخ السلطان.

٩- فتاوى السلطان.

١- فرعـــون مصـــر

أصبح الفرعون فى تاريخ النظم السياسية رمزا للحاكم الفرد والحكم المطلق الذى يسميه ابن رشد "وحدانية التسلط". ويعنى اللفظ فى أصل الاشتقاق الهيروغليفى الطويل، الفارع، الضخم، الكبير، العظيم القدر، رفيع المقام. كما يعنى فى الثقافة العربية المتسلط، الجبار، المتأله. وهو المعنى السائد فى استعمالات لفظ "فرعون" فى القرآن الكريم،ويستعمل نكرة "فرعون" أى فرعون، وليس "الفرعون" فرعونا بعينه. نموذجه الأول فى مصر، ولكن يوجد أيضا خارج مصر لدى عاد وثمود من الشعوب القديمة.

وقد ذكر لفظ "فرعون" فى القرآن الكريم أربعا وسبعين مرة. فهو لفظ متكرر دائم الاستعمال مما يدل على أهميته ومركزيته. ويمكن إجمال معانى اللفظ فى أربعة:

١ - العلو، والاستكبار، والتأله، والثروة، وامتلاك مصر. العلو فى الأرض والتبذير والإسراف أى تجاوز الحدود فى الاستكبار (**وإن فرعون لعال فى الأرض، وإنه لمن المسرفين**). وهو يفرق الناس، ويضرب بعضهم ببعض، ولا يجمع التيارات السياسية كلها على حد أدنى من الوفاق الوطنى (**إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا**)، كما هو الحال فى كل نظام تسلطى لإضعاف قوى المعارضة. يضرب اليمين باليسار مرة. ثم يضرب اليسار باليمين مرة أخرى. فيضعف الجانبان الرئيسيان للمعارضة. ويقوى النظام. ويصبح لا بديل له. وكلما جاءته الرسل، وحذرته المعارضة ازداد استكبارا (**وقارون وفرعون وهامان، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين**). وهو المتأله الذى لا إله غيره (**وقال**

(*) العربى الناصرى: ٤ فبراير ٢٠٠٧.

فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى). هو الذى يهدى ويقرر ويغير مواد الدستور وقوانين البلاد (**قال فرعون ما أريكم إلا أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**). ولا يكفيه التأله بل يريد الصعود إلى السماء ليزداد علوا. ويأمر رئيس وزرائه ببناء صرح يصعد عليه (**وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب**). هو فرعون ذو الأوتاد المطمئن على نظامه عن طريق وزير داخليته (**وفرعون ذى الأوتاد**). وهو ذو الجنود المطمئن على نفسه عن طريق وزير دفاعه (**هل أتاك حديث الجنود، فرعون وثمود**). يمتلك هو وطبقته ورجال أعماله وحزبه الثروة بلا حدود (**وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا**). بل إنه يمتلك مصر كلها. ويشهد الناس على ذلك بأعماله (**ونادى فرعون فى قومه. قال يا قوم أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى، أفلا تبصرون**). ويريد فرعون أن يورّث ابنه ملك مصر من بعده (**وقالت امرأة فرعون قرة عينى لى ولك**). وقد يريد الابن زحزحة الأب قبل الأوان ويعمل لحسابه الخاص، ويحشد رجاله إلى أن يحين الوقت (**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدو وحزنا**). وهو نموذج الطاغية (**اذهب إلى فرعون إنه طغى**). فالطغيان نتيجة للعلو فى الأرض والاستكبار والتأله والغنى والملك.

٢ - له أبواقه الإعلامية ومبررو حكمه، ومشرعو طغيانه من ترزية القوانين وفقهاء الدستور. هم سحرة فرعون الذين يزيفون الحقائق. يجعلون الباطل حقا، والحق باطلا، والعصى ثعبانا، والثعبان عصى. وينالون المال والجاه فى مقابل تزيين أعمال فرعون (**وجاء السحرة فرعون. قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين**). ويحرضون فرعون على المعارضة بالسجن والاعتقال وتزييف التهم والعمل بقوانين الطوارئ والأحكام العرفية (**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك. قال سنُقتّل أبنائهم ونستحى نسائهم، وإنا فوقهم قاهرون**). يحشد السحرة حتى يجندهم كلهم لحسابه (**وقال فرعون إئتونى بكل ساحر عليم**). وتأتمر أبواق الإعلام بأوامر فرعون ويغير الإعلاميون

ضمائرهم وهم يعلمون سوء أعماله (**فاتبعوا أمر فرعون. وما أمر فرعون برشيد**). يدبجون المقالات الافتتاحية، ويكتبون التقارير الصحفية اعتماد على قوة فرعون (**فألقوا حبالهم وعصيهم. وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون**). فإذا ما أراد بعض الإعلاميين ترك الزفة الإعلامية، ومغادرة السفينة الغارقة أو الاستقالة من منصب أو مغادرة لجان الحزب فإن ضميره لا يستطيع أن يصحو. ويقول الحق إلا بأمر فرعون كذلك. فهو رب العرش والضمير (**قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم**).

٣- لا يستمع إلى آراء المعارضة، ولا إلى تحذير المخلصين الوطنيين. تأتيه النصائح فيصم الآذان (**وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين**). وتكثر المعارضة من كل الاتجاهات السياسية، ولكنه يصر على طغيانه (**ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه**). يحذرونه من ظلمه، ويبصرونه بعواقب الأمور (**وإذا نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون**). ويذكرونه بأن فوق كل ذى علم عليم، وفوق كل ذى قوى قوى متين، وأن الله قاصم الجبارين (**فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين**). لا يستمع إلى نصح. وهو الحكيم المتزن الهادئ الوقور الذى لا يتهور ولا يغامر بمغامرة غير محسوبة (**قال فرعون وما رب العالمين**). والرسول شاهد على فرعون وأعماله (**إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا**). والرسول مدعم بالآيات والبينات والوقائع والإحصائيات عن تدهور الأحوال على الظلم الاجتماعى والسياسى، القهر و نهب الأموال، التسلط وبيع الأصول (**ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها**). والأدلة دامغة، والبراهين واضحة (**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه**). والآيات ليست إلى فرعون وحده بل إليه وإلى رجاله وحاشيته ورجال أعماله وأعضاء حزبه. وتتعدد الآيات والأدلة على فساد الحكم، وتفصيل القوانين، وقانون الطوارئ، ونهب الأموال، والتلاعب بالأسعار، وتهريب الثروات إلى الخارج، وزيادة البطالة، وتفشى الجريمة،

وازدياد الفقر، وهى آيات تسع، (**فى تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوما فاسقين**). وتوالت النذر، حوادث القطارات وغرق العبّارات، ونواب القروض (**ولقد جاء آل فرعون النذر**). ولا يصدقها فرعون. ويكذب بالرسل. ويتهم إعلامه صحافة المعارضة بالإثارة (**قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم**). ويدعى أنها تريد الفتنة وعدم الاستقرار وهروب المستثمرين (**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض**). وتتلقى المعارضة كل صنوف الاضطهاد والقمع من أجل استرجاع بعضهم إلى أبواق الإعلام الرسمية (**فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم**). يتهم فرعون المعارضة بالكذب والتمويه (**فقال له فرعون إنى أظنك يا موسى مسحورا**). وتتهمه المعارضة بالغرور (**وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا**). ويجمع فرعون أنصاره لإرهاب المعارضة ولكن يظل فيها ولو واحد يجهر بالحق. فأعظم شهادة قول حق فى وجه إمام جائر (**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم. وإن يك كذبا فعليه كذبه. وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم. إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب**). ويريد فرعون قتل موسى خشية أن يبدل نظامه، ويقوم بانقلاب ضده. وتقع الفوضى بدلا من الاستقرار. فلا بديل عن فرعون ونظامه (**وقال فرعون ذرونى اقتل موسى وليدع ربه. إنى أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد**). فيضل فرعون وقومه ولا يهديهم (**وأضل فرعون قومه وما هدى**).

٤- ومع ذلك ينجى الله موسى ويحميه من عذاب فرعون (وإذ نجيناكم من آل فرعون، يسومونكم سوء العذاب)، ومن سوء أعماله (فوقاهم الله سيئات ما مكروا، وحاق بآل فرعون سوء العذاب). وهو قانون تاريخى بانتصار الحق على الباطل والصواب على الخطأ (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين). فالخطأ العام إثم وجريمة (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة). يجلب على شعبه القحط والجفاف والجوع والموت وقصر العمر

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات). والعاقبة، تدك عروش الفراعنة وقصورهم ومنتجعاتهم (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون). وقد تنهار صروحهم بغتة وينتهى أجلهم فجأة (فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا). ما يحيق بفرعون من هلاك بالغرق قد حاق بالفراعنة السابقين (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم). وهذه عبرة التاريخ ونهاية الطغاة (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون). وكم من نظم طغيان انهارت، ودول تسلط بادت بما فى ذلك "قوم تُبع" الذين يفرطون فى الاستقلال الوطنى ويتبعون تلك القوة الكبرى أو هذه القوة المحلية. يجدون فى الخارج سندا وحماية على فقدانهم الشرعية فى الداخل. (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة وقوم تُبع. كل كذب بالرسل فحق وعيد). نجانا الله من فرعون وقومه. وكل عام وأنتم بخير.

٢- الدولـة والفـرد

تعددت نظريات نشأة الدولة بين العموم والخصوص.

أولا، أن الدولـة تـشمل أكـبر رقعـة مـن الأرض. وتـضم جنـسيات وقوميـات وأعـراق متعـددة. هـى "الدولـة- الأمـة" أو "الأمـة- الدولـة" أو الدولـة الأمميـة. وهـى أشـبه بالإمبراطوريـة المترامية الأطراف أو بنظام الخلافة. لذلك يُقال "الدولة الأموية"، "الدولة العباسية"، "الدولة العثمانيـة"، وفـى الحالـة الأخيرة يُقال أيضا "الإمبراطوريـة العثمانيـة". وحدث ذلك أيضا فـى الغـرب فـى "إمبراطوريـة" الإسكندر الأكبر و"إمبراطوريـة" شـارلمان، والإمبراطوريـة النمساوية، والإمبراطوريـة الفرنسية أثنـاء حـروب نـابليون. وعصبها الدولـة القاعدة، أو القوميـة السائدة. فقد كـان العـرب هـم عـصب الدولـة الأمويـة، والفـرس عـصب الدولـة العباسـية، وتركيـا قلـب الإمبراطوريـة العثمانيـة، وفرنـسا مركـز الإمبراطوريـة الفرنـسية، والنمـسا ركيـزة الإمبراطوريـة النمساوية. وتنتهى هذه الإمبراطورية بعد ضعف المركز إلى التفكك على حدود القوميـات أو الأعراق أو الطوائف بعد أن تنشأ عدة محـاولات للإصلاح عـن طريـق اللامركزيـة كمـا حـدث ذلـك أيـام الإمبراطوريـة العثمانيـة فـى حركـات الإصـلاح. ومـازال يمثلـها حـزب الخلافـة الإسـلامى الحـالى وبعض التيـارات الإسـلامية التـى لا تـدين بـالولاء للأوطـان ولا للقوميـات. فالجهاد واحد فـى فلسطين والعراق وأفغانستان، والبوسنة والهرسك. وإذا عطس مسلم فـى أقصى الشرق لقال له مسلم آخر فى أقصى الغرب "يرحمكم الله".

(*) الاتحاد: ١٠ سبتمبر ٢٠٠٥، الدستور: ١١ سبتمبر ٢٠٠٥.

ثانيا، تنشأ الدولة من الموقع الجغرافى السياسى حول الأنهار الكبرى مثل الصين والعراق ومصر. وهى الدولة النهرية المركزية التى نشأت لتوزيع مياه النيل، وتنظيم الدورة الزراعية، وجمع المحاصيل، وتوزيعها أو تصديرها. وهى دول ذات حضارات عريقة فى العلوم والفنون والصناعات والفلسفات والأديان. وهو ما أبرزه فيتفوجل من أعمدة مدرسة فرانكفورت. إذا قويت الدولة أبدعت الحضارة. وإذا ضعفت اعتمدت على حضارات الغير. تغيب عنها المشاركة الشعبية، ويتسع جهاز الدولة لملء الفراغ بين السلطة المركزية والشعب. وتغيب عنها الحرية الفردية والرقابة على الدولة. ويحل محلها السمع والطاعة لقوانين الدولة ونظمها. وهى دولة ذات مهابة، وعمق تاريخى، يصعب تفكيكها أو حتى لامركزيتها. فلولا القلب لما كانت الأطراف. الجيش عصبها، والقوة أداتها. وتغزو ولا تُغزى. تُبدع ولا تنقل، تقود ولا تُقاد.

ثالثا، تنشأ الدولة من روح الشعب، وتاريخ الأمة، وعبقريتها المتجددة عبر الزمان. وهى الدولة القومية التى نشأت فى عصر القوميات الكبرى فى الغرب مثل ألمانيا التى ولّدت النازية، وإيطاليا التى أفرزت الفاشية، وإسرائيل التى أخرجت الصهيونية. وتتسم أيضا بالمركزية، والقيادة "الكاريزمية"، والزعامة الروحية، والاختيار الإلهى. تتسم بالعدوان والتوسع من أجل توحيد كل الأفراد المنضوين تحت نفس القومية بصرف النظر عن الحدود السياسية أو الجغرافية. عمادها اللغة والثقافة والتاريخ والشخصية القومية النمطية. ومشكلتها الأقليات التى لا تنضوى تحت القومية الرئيسية ولا تريد الانصهار فيها مثل اليهود فى روسيا وأوربا الشرقية والغرب بوجه عام خاصة ألمانيا بعد أن قبل يهود فرنسا أن يكونوا فرنسيين بعد الثورة الفرنسية، ومثل الأقليات المسلمة الآن فى الدول الأوروبية، ومثل الأكراد والبربر والأفارقة فى عصر القومية العربية. وأحيانا يتم الخلط بين القومية والعرق وتنحرف إلى الرؤية العنصرية.

رابعـا، تنـشأ الدولـة علـى مجموعـة مـن المـصالح الطبقيـة، وتفـرض الطبقـة المـسيطرة مصلحتها على تشكيل الدولة وصياغة قوانينها. فهى دولة البروليتاريا كما تظهر فى بعض الأسمـاء مثـل "الجماهيريـة" أو "الـشعبية" أو "الاشـتراكية" دفاعـا عـن الطبقـات الـدنيا مـن المجتمع، العمال والفلاحين. وقد تكون الدولة التجارية أو الدولة البرجوازية دفاعا عن الطبقة المتوسطة. وقد تكون الدولـة "الأوليجاركيـة" التـى تقـوم علـى النخبـة مثـل دولـة الإقطـاع. وهـو توحيـد بـين الكـل والجـزء، بـين الدولـة وجـزء مـن المجتمـع وليـس المجتمـع كلـه بـدعوى نـشاط النخبة وسكون الجماهير، عبقرية الخاصة وجهل العامة.

وقـد كانـت هـذه الاختيـارات الأربعـة حاضـرة فـى حيـاة العـرب المعاصـرين منـذ الدولـة العثمانيـة واضـطهاد بـاقى القوميـات فيهـا مثـل العـرب والأرمـن وبعـض قوميـات أوروبـا الشرقية. ووضـع قـانون "الملة" لتحديد الـصلة بـين المسلمين وغير المسلمين وهـو مـا يتنـافى مـع قـوانين المواطنـة، والتـساوى فـى الحقـوق والواجبـات. وتـضطر الدولـة القوميـة الإجابـة علـى سؤال القوميات الفرعيـة المتعايشة مـع القوميـة الأم. والدولـة الوطنيـة تتـشابك مـصالحها مـع دور الجوار المشاركة معها فى اللغة والثقافة والتاريخ. والدولة الطبقية تعبر عن مصالح طبقة ضد مـصالح الطبقـات الأخـرى فتقـع فـى دوامـة الـصراع الطبقـى الـذى لا ينتهـى نظـرا لطبيعـة الجدل الاجتماعى.

والغريـب أن الـذى يحكم العـرب بـالفعل لـيس هـذه الأنـواع الأربعـة مـن الـدول مـن حيـث نشأتها بـل نـوع خـامس هـو الدولـة- الفـرد التـى يتوحـد فيهـا الفـرد مـع الدولـة، وتتوحـد فيهـا الدولـة مـع الفـرد. وهـو لا يخـص العـرب وحـدهم بـل يوجـد أيـضا فـى بعـض الـنظم الـسياسية الغربية مثل فرنسا الديجولية الذى ردد عبارة لويس السادس عشر "الدولة أنا". فعندما عرض عليـه أن يكـون بـالأكاديميـة الفرنـسية أجـاب: "وكيـف تـدخل فرنـسا الأكاديميـة الفرنـسية؟". وهو تضخيم لدور الخليفة أو القائد أو الزعيم أو الأخ. يُطبِّع الدولة بطبعه. بل ويسميها باسمه.

وينشأ هذا النظام لعدة أسباب. منها غياب الوعى التاريخى الجغرافى السياسى، وبأن الوضع "الجيوسياسى" هو الذى يفرز الفرد وليس الفرد هو الذى يفرزه، وغياب الوعى الطبقى نظرا لأن الفرد فى النهاية ابن طبقته، ويعبر عن مصالح فئوية بما فى ذلك عائلته وقبيلته وعشيرته وطائفته وعرقه. كما يغيب عنه الوعى بتجارب الدول السابقة مثل الإمبراطوريات والقوميات وإمكانية امتصاص الفرد فى القوى الدولية وجعله تابعا بدلا من أن يكون متبوعا. وتأليه الأفراد وقتى، مرتبط بالمستوى التعليمى للشعب. وبازدياد التعليم واتساع رقعته يتعلم الشعب معانى تداول السلطة، والرقابة على الحكام ودور المؤسسات المستقلة عن الأفراد، وبأن لا خلود لأحد (**إنك ميت وهم ميتون**).

وبنفس السرعة التى تتكون فيها دولة الفرد فإنها تنهار أيضا. فالفرد محدود بقوته وقدرته وعمره وحياته "من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات". وينتهى إما بالاغتيال أو بالانقلاب وأحيانا بالجنون مثل كاليجولا والحاكم بأمر الله. ويتضخم جهاز الدولة كى ينفذ أوامره. كما تنشا البيروقراطية كبديل عن المؤسسات. وتتكون البطانات والشلل وجماعات الضغط، كلٌ يفسر الأمر لصالحه. ويعم الفساد، وتنتشر الرشوة من أجل تحقيق مصالح الناس. ويظهر المنافقون الذين يسبحون بحمد الفرد، ويؤلهونه، ويزينونه، ويحسنون صورته فى الإعلام. يقلبون الحق باطلا والباطل حقا. وتنشأ المعارضة العلنية أو السرية وتنشأ مياه جوفية سرعان ما يعتز البناء فوقها. دورتها التاريخية قصيرة قد تستغرق أقل من جيل واحد، محدد بعمر الفرد.

ما يحتاجه العرب هو نوع جديد من الدولة، دولة المؤسسات التى تتمايز فيها السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. هى الدولة التى تكون السلطة فيها عقدا وبيعة واختيارا. ويكون فيها القضاء مستقلا وقادرا على عزل الحاكم إذا ما أخل بشروط العقد: تقوية الثغور، والذب عن البيضة، وتوفير الأمن والأمان للمواطنين، وليس مصالحة الأعداء أو

الرضا بالاحتلال. هى دولة المساواة فى الحقوق والواجبات أمام القانون. وهى الدولة التى تقوم على حرية الرأى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن أعظم شهادة قولة حق فى وجه إمام جائر. هى الدولة "الموضوعية" التى هى تحقيق الروح فى التاريخ، المستقلة عن إرادات الأفراد. الأفراد تجسيد لها وليست هى تجسيد للأفراد. وهى دولة العقل وليست دولة الهوى (ولئن اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض).

٣- لكل أجل كتاب

يتوقف القلب عن النبض لثلاثة أسباب. الأول (**لكل أجل كتاب**)، (**فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**)، وعشرات أخرى من الآيات عن الأجل المحدد. وهو جزء من الإيمان والعقائد الإسلامية. والثانى الاغتيال وحوادث الطريق والكوارث الطبيعية وهى أحداث لا يستطيع أحد أن يتوقعها. تأتى فجأة وعلى غير انتظار كما حدث لرئيس الجمهورية الثانية وهو فى عز مجده، وقمة سلطته، وأمام جنوده، ووسط احتفاليته (**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا**)، وكما حدث فى تسونامى وزلازل باكستان وإيران. والثالث قوانين الطب، والأمراض والعلل والعمليات الجراحية فى الداخل والخارج. فالموت توقف العضو الحى عن العمل وأداء الوظيفة. فلا أحد إذن يستطيع الاعتماد على نبض القلب ولا أن يوقف مصير شعب ولا نظاما سياسيا بناء على نبض القلب للرئيس أو الحاكم أو المسئول. فهذه ليست بيده إلا إذا تكبّر وتجبر وظن أن بيده الحياة والموت لشعبه ووطنه.

وهناك ثمانون مليونا من المصريين. كلهم يخدمون أوطانهم مادام نبض القلب مازال قائما، عمال وفلاحين وطلاب وجنود ومثقفين. كل فى موقعه. يخدم الوطن بصرف النظر عن مكانه. لا فرق بين رئيس ومرؤوس، بين حاكم ومحكوم، بين وزير وغفير، بين حكومة ومعارضة. ولا يخص الرئيس أو الحاكم وحده. إلا إذا كان الرئيس يظن أنه وحده هو الذى يخدم الوطن، والباقى مخدومون عنده. وإذا توقف الفلاح والعامل عن الإنتاج فإن الرئيس نفسه يجوع

(*) الاتحاد: ٢ ديسمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٣ ديسمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٣ ديسمبر ٢٠٠٦.

وتتوقف مقومات الحياة من طعام شراب ولبس وسكن وحركة لديه. فالخدمة إنتاجية وليست استهلاكية، بالفعل وليست بالقول.

وتتغير مواقع الخدمة. ولا يظل أحد طيلة حياته فى مكان واحد، حتى القضاة وأساتذة الجامعات والصحفيون يُفصلون كما حدث فى مذبحة القضاة، ويسجنون كما يحدث حاليا. فلا أحد يبقى فى وظيفة واحدة مدى الحياة حتى أصحاب العقود الدائمة. ويرفع الأمر إلى محكمة القضاء الإدارى للنظر فى الخصومات بين الموظفين والدولة، بين العمال وأصحاب الأعمال. إن الرئاسة وظيفة مؤقتة مثل غيرها. والتاريخ شاهد على ذلك. فمازال رؤساء الجمهورية الأمريكيون السابقون مثل كارتر وكلينتون نشيطين سياسيا، محليا ودوليا. ينصحون ويوجهون، وتعهد لهم كبرى القضايا لأخذ آرائهم باعتبارهم أصحاب خبرة. ويعودون إلى أعمالهم الرئيسية، التجارة فى الفول السودانى أو المحاضرة والكتابة أو العزف الموسيقى أو كتابة المذكرات إذا كان يحسن الكتابة والقراءة. ومازال جيسكار ديستان رئيس الجمهورية الفرنسى السابق يعمل ويجتهد ويعطى الاستشارات فى المال والاقتصاد دون أن ينال ذلك منه أو يقلل من قيمته.

والبقاء مدى الحياة فى الحكم مخالف للدستور الذى ينص على تداول السلطة. ولا يجوز للحاكم أن يظل فى الحكم أكثر من فترتين إلا إذا عدل الدستور بواسطة الحزب الحاكم الذى ينفذ إرادة الحاكم كى يحكم لثالث ولرابع مرة. وبدلا من التجديد كل أربع سنوات أو ست سنوات يصبح الأمر مفتوحا، الحكم مدى الحياة. مادام القلب ينبض نوع من الخطابة المدرسية لإثارة الخيال، واستجداء البطولة، وطلب التعاطف من أجل الرغبة فى البقاء وإلا وقف الناس ضد من يرغب فى خدمة وطنه إلى آخر لحظة مادام القلب ينبض.

ويمكن أن يظل القلب ينبض ولكنه فى غرفة الإنعاش ونقل الدماء ولكن المخ متوقف عن العمل. وهى حالة الموت السريرى، الموت الإكلينيكى، القلب ينبض اصطناعيا مثل

التنفس الاصطناعى ولكن العقل لا يعمل، والحواس الخمس لا تشعر، ومراكز الإحساس فى المخ خاملة. وقد تطول هذه الحالة سنوات وسنوات مثل حالة شارون. وفى هذه الحالة يصبح الحاكم غير قادر على أداء وظيفته. وتقوم المؤسسات بتعيين خلف له إلى أن تحدث انتخابات حرة، يختار الشعب رئيسه.

وهى نفس الحالة العامة التى تمر بها مصر الآن. فقد توقف الحاكم عن الإحساس بنبض الشارع وحركته وكم المعارضة لسياساته. التبعية للخارج، أمريكا وإسرائيل، والقهر والفساد فى الداخل. وعزلة مصر عما يدور فى العراق ولبنان وفلسطين والسودان وإيران. والآن تباع أصول مصر، بنوكها وشركاتها بعد خصخصة القطاع العام بأرخص الأسعار. وتجرى الصفقات التى تدر الربح بالملايين عند أصحاب المليارديرات الجديدة فى تجارة الحديد والأسمنت وعقود شركات الاتصالات، وعمولات شركات النقل البحرى وإلى آخر ما تزخر به الحياة السياسية والاقتصادية للمصريين.

وبدلا من الإصلاح من الداخل، ويقظة الوعى وعودته، وبدلا من إنقاذ المركب الغارق الذى تتقاذف به الأمواج فى المحيط يستمر الوضع على ما هو عليه. فالتغيير هروب لرؤوس الأموال، والتحرك السياسى مغامرة غير محسوبة. وضرب الفساد هز للاقتصاد لا تتحمله البلاد. والاستقلال عن أمريكا تجويع لمصر. والوقوف فى مواجهة إسرائيل إعادة لاحتلال سيناء، وتحويلها من أرض منزوعة السلاح إلى أرض محتلة.

يستطيع الرئيس أن يترك الحكم وقلبه مازال نابضا بالحياة كما يحدث فى كل الثورات والانقلابات. فقد قامت ثورة ٢٣ يوليو وقلب فاروق مازال ينبض بالحياة. الثورات قانون تاريخى إذا ما تأجل الإصلاح، وتوقف التغير الاجتماعى، وانعزل الحاكم عن الناس، ولم يشعر بنبض الجماهير بالرغم من أن قلبه ينبض.

والخطورة أن يصبح ذلك قانونا عاما لكل الرؤساء فى كل الوطن العربى بالرغم من

الديكور الديموقراطى، الانتخابات المزيفة، والتعددية الحزبية الصورية، والنتيجة المعروفة سلفا. فيتحول الانتخاب إلى استفتاء عام بالرغم من قلة المشاركة فى عملية تزييف الوعى القومى لأغلبية الناخبين.

والأخطر أن يكون الحكم مدى الحياة، مادام القلب ينبض، هو تأجيل لموضوع التوريث الذى مازال يصعب إخراجه فى مصر، وإجماع الأمة على رفضه، ومناقضته للدستور، والقوات المسلحة هى الضامن لمبادئ ثورة يوليو، والأمين على خيارها القومى الاشتراكى. فالطبخة لم تنضج بعد. وتأجيل التوريث حتى يكتمل الاستعداد له خير من الإسراع فيه ثم يحدث ما لا يحمد عقباه. فالاستمرار مع نبض القلب يعطى فرصة لمزيد من تهيئة المسرح للتوريث. وخطأ لا يصحح خطأً. ومجموع الخطأين لا يكوّن صوابا.

مازالت القضية هى البطل الأوحد، والحاكم الفرد، والرئيس الذى ليس له مثال. لا نواب له. ولا انتخابات على الرئاسة مادام قلبه ينبض. ويتم التلاعب بمواد الدستور من أجل استيفاء الديكور الديموقراطى ذرا للرماد فى العيون أمام الضغوط الخارجية. وقد ظن الناس أنه انتهى مع آخر فراعنة مصر وملكة مصر بتوقف نبض رئيس الجمهورية الثانية وبمغادرة ملكة مصر البلاد. ويبدو أن سلسلة الفراعنة مازالت قائمة ومستمرة. فالرسول هو الذى يحكم مادام قلبه ينبض، ويتلقى الوحى الإلهى. أما البشر فإنهم ميتون (**فإنك ميت وهم ميتون**)، "كلكم لآدم وآدم من تراب".

ولماذا يعيب العرب والغرب إذن على حاكم العراق السابق تسلطه وتجبره وحكمه مدى الحياة مادام القلب ينبض؟ ولماذا لا يكون النموذج رئيس الجمهورية السودانية الأسبق "سوار الذهب" الذى قام بتخليص السودان من حكم الطغيان الدينى والسياسى باسم الخلافة الراشدة الجديدة، وهو الآن محط احترام الجميع، وتعهد له بعديد من المهام الإنسانية المحلية والدولية؟ ولماذا لا يكون النموذج محمد مهاتير، رئيس وزراء ماليزيا

الأسبق، الذى ترك الحكم وهو فى قمة مجده بعد أن بنى ماليزيا وجعل معدل تنميتها يلى الصين؟ وكلاهما من المسلمين.

لماذا التشبه بالإله. فالله وحده هو الباقى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)، (كل شىء هالك إلا وجهه)؟ ينشأ تأله الحكام بزيادة مدة الحكم، وتبرير أبواق الإعلام لعبقريته وحكمته وسلامة رأيه واتزانه وعقله وهدوءه. فيزداد الحاكم غرورا وتصديقا لأوهام الإعلام. ليس الإسلام هو الحجاب، بل علاقة الحاكم بالمحكوم، إسلام الحياة العامة وليس إسلام غرف النوم، إسلام الحقوق وليس إسلام العورة (هل أنبؤكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

٤ـ كرامـة السلطـان

للسلطان هيبته فى كل الدساتير والنظم السياسية بل والثقافات الشعبية والأمثال العامية والنكات ورسوم الكاريكاتير. وبدون هذه الهيبة لا تجوز له طاعة. ويفقد قدرته على اتخاذ القرارات. وتشمل كرامة السلطان الاحترام الواجب له، والإعجاب بشخصه، والتقدير لإنجازاته، وصورته فى أذهان الناس وفى وجدان الشعب التى تبعث على الطمأنينة والتقدير المتبادل بين الحاكم والمحكوم.

وفى الشهور الأخيرة ضاعت كرامة السلطان. وأصبح موضوع تندر وسخرية ونقد بل وتشهير فى الرأى العام أو الحديث الخاص، بين الناس أو فى أوساط المعارضة. وتم التوجه إليه شخصيا وليس فقط للنظام. فهو أساسه ودعامته، رمزه وعلامته. فلأول مرة يرفض التجديد لحاكم من حكام مصر فجأة بعد أربعة وعشرين عاما من الصمت والانتظار والترقب. فقد طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى. فهو من أطول حكام العرب مدة. والتجديد معناه ثلاثون عاما، جيلا بأكمله يحكمه سلطان واحد. ومع رفض التجديد يتم رفض التوريث حفاظا على مبادئ ثورة يوليو، والنظام الجمهورى. بل يتم أيضا رفض الأسرة كلها، الأب والابن والزوج بعد أن تصدر الابن والزوج الإعلام تخطيطا للتحول من التجديد إلى التوريث. ويقوم الكاريكاتير، الرسم الساخر، بالتعبير عن الصورة السلبية للسلطان وبطانته وعصره. ويطالب بالإعلان عن الذمة المالية له وللأسرة من شروط الترشيح للانتخابات، والحديث همسا عن المليارات المهربة إلى الخارج والعمارات الفارهة وفنادق الخمسة نجوم

(*)

التى يملكها الابن من "مصروفه الخاص" وفتح شقتيه التمليك على بعضهما البعض للتوسيع، الأولى بالإسكندرية والثانية بأسوان، وتأسيسه شركة لشراء ديون مصر كوسيط مالى وبفوائد أقل لصالح مصر، وتأسيس آخر شركة مقاولات رسى عليها العطاء لتجديد شبكة الطرق فى الخليج لحسن العلاقة بين السلطانيين، فى وادى النيل وفى الخليج. وتم الحديث عن الأسرة كلها مثل الأسر المالكة أو الحاكمة مثل أسرة البوربون والهابسبورج فى أوروبا فى القرن التاسع عشر كما اعتبرت حرم رئيس الجمهورية الثانية ملكة مصر، وهو نفسه آخر فراعنة مصر.

وفى الدعاية الانتخابية الأخيرة تمت تعرية السلطان تماما. وزادت الجرأة عليه. إذ أنه لم يفعل شيئا طيلة ربع قرن فلماذا دورة خامسة؟ شكله منهك ومتعب. ولم تنفع محاولات التجميل وإضفاء الشباب عليه ولبسه "الاسبور" من مدير حملته الانتخابية وجلوسه مع الفلاحين على ضفاف النيل على أرائك وثيرة معدة سلفا لم يجلس عليها فلاح قط ومع فلاحة ترتدى قفطانا مزركشا لم ترتديه فلاحة قط. إنما هو سوء الإخراج والتمثيل. ليس لديه شىء يقوله إلا الكلام. وإذا كان وراء الكلام فعل فلماذا لم يتحقق طوالة ربع قرن مضى؟

هو السلطان كوبرى لزيادة كم الكبارى العلوية أو الأنفاق الأرضية فى عهده. وهو الإدارى بعد المناور أو المقامر فى الجمهورية الثانية، والزعيم فى الجمهورية الأولى. وهو حارس المرمى الذى لا يعرف كيف يسدد الأهداف. وهو الإدارى قارئ التقارير الذى لا يدرك اللحظات الحاسمة فى التاريخ كما أدركها عبد الناصر حين تأميم قناة السويس. ضاعت منه فرص تاريخية عدة. وهو قائد القاذفات وليس المقاتلات يطيع الأوامر بقذف العدو كما يُحدد له سلفا دون مبادرة وتصرف كما يفعل الطيار المقاتل.

وقامت المظاهرات ضده تحمل اسمه بعد أن كان ذلك من المحرمات أو المقدسات.

وكان الشرطى يقول للطالب فى المظاهرة: اهتف بسقوط أى شىء، أمريكا أو إسرائيل ولكن إياك أن تقترب من المنطقة الحرام والهتاف بسقوط السلطان أو النيل منه أو من أسرته. ورفعت حركة "كفاية" شعاراتها الدالة وبحرف "لا" الذى كان محرما استعماله مع أن الركن الأول من أركان الإسلام يبدأ به "لا إله". ونشطت أحزاب المعارضة تصوب نحو السلطان سهامها. واندلعت المظاهرات فى الجامعات تهدف ضده. واعتصمت النقابات والاتحادات والروابط والهيئات والنوادى حتى تتحقق مطالبها فى الحريات العامة. بل انضم القضاء إلى الحركة الشعبية رافضا استخدامه كصورة أو "ديكور" للإشراف الصورى على الانتخابات دون الإشراف الفعلى.

ولم ترفع الخطابة المدرسية من قدره أو تحسن صورته إذ أصبح خطاب السلطان أقرب إلى موضوع الإنشاء أو التعبير، عبارات عامة منمقة عن الوطن، والمصلحة الوطنية، وأداء الواجب، والتضحية. والعبارات الفضفاضة ليس لها أى مضمون. تدخل فى أذن وتخرج من الأخرى. ويتذكر الجيل القديم خطاب العرش الذى يولى فيه الحكومة واستعماله عبارة "وستعمل حكومتى على ...". ثم يتحدث عن عالم الأمنيات مثل خطيب المسجد الذى يتحدث عن النعيم الأخروى تعويضا عن المآسى والأحزان فى الدنيا.

ارتبط اسم السلطان بالأحكام العرفية، وقوانين الطوارئ، والمعتقلين السياسيين والتعذيب، وضرب الشرطة للمتظاهرين، والاعتداء على المتظاهرات، والاعتماد على فتوات الحزب الحاكم. وتحدث الناس بعد صمت طويل عن الضنك والفقر والغلاء وسوء الخدمات والرشوة والفساد والتهريب. ولم يعد أحد يغنى "كنت فى صمتك مكره" بل "فتعلّم كيف تكره". ويصيح الشاب "أنا يا مصر فداك، بدمى أفدى حماك". ولم تنفع محاولات التخفيف من أثر التوجه إلى رأس النظام مباشرة بأنها مظاهرات حضرية، أقلية، نخبوية، لمثقفين وكتاب وأدباء وفنانين. يصمت الشعب طويلا لفضيلة الصبر فيه. ثم يصرخ ويهب لفضيلة

الغضب لديه.

قدم تمثيلية هزلية بتغيير مادة وحيدة من الدستور تسمح بالانتخاب بين أكثر من مرشح مع استبعاد القوى الرئيسية الفعالة فى البلاد مثل الحركة الإسلامية. ويحرج المخرج باقى المرشحين، والنتيجة معروفة سلفا. ويوضع اسمه على رأس القائمة بلا مبرر من حروف أبجدية أو تاريخ التقدم. تمثيل سيئ وفيلم سيئ الإخراج وكأن الديموقراطية شكلا بلا مضمون.

وانعكس غياب كرامة السلطان على الوطن فأصبح مجرحا، يمكن النيل منه بسهولة. السلطان تعوزه الكرامة، والوطن لا حساب له فى موازين القوى الإقليمية والدولية. فالدماء تسيل فى فلسطين منذ انتفاضة السلاح حتى الآن. وتسيل فى العراق منذ الغزو الأمريكى البريطانى لبوابة العرب الشرقية. ويصاغ دستور جديد له لا يجعله صراحة جزءا من الأمة العربية. يكرس الطائفية والعرقية. ولا يتحدث عن المواطن العراقى بل عن الكردى والشيعى والسنى. غاب الوطن عن الصراعات الإقليمية فى لبنان والسودان وسوريا وإيران. وقاطع إيران منذ أكثر من ثلاثة وخمسين عاما وهى رصيد للعرب، وعمق تاريخى لفلسطين، ونموذج الصمود أمام الهيمنة الأمريكية، والدفاع عن حقها فى امتلاك الطاقة النووية للأغراض السلمية فى حين يعقد معاهدة الصلح مع الكيان الصهيونى، ويقيم المشاريع الاقتصادية معه مثل مناطق "الكويز" وتوريد الغاز الطبيعى والنفط.

لذلك تجرأت جماعات العنف المسلح على الوطن فى الداخل والخارج، بتفجيرات شرم الشيخ، وتفجيرات الأزهر والسيدة عائشة وميدان الشهيد عبد المنعم رياض، وقتل السفير المصرى فى بغداد. ونلحق بالسعودية فى مطاردة جماعات العنف فى سيناء بآلاف من جنود الشرطة. ويعيب الأعداء بأن الأمن فى مصر مخترق. ويعاتب الأصدقاء "ليس بالأمن وحده يحيا الإنسان".

إن كرامة السلطان فوق كل اعتبار، وهيبته أحد دواعى استقرار الأمن. كان لعبد الناصر عيون صقر نافذة تخترق قلوب محادثيه ومعارضيه. وكان الإعلامى يغمى عليه وهو يحادث ديجول الذى يرفض أن يضع على وجهه الإصباغ. وقد تكون ضياع هيبة السلطان أحد مسامير نعشه.

٥- صورة السلطان

طالعتنا الصحف القومية أخيرا بقرار مجلس الشرطة الأعلى أو هيئة الشرطة أو أكاديمية الشرطة، فكلها شرطة مثل أقسام الشرطة بتصميم طابع شرطة عليه صورة الرئيس لما له من أفضال على الشرطة أو تيمننا للشرطة به. وقد كانت سنة من سلاطين آل عثمان. استمرت فى عهد محمد على وأسرته حتى الملك فاروق. وكان من أوائل قرارات ثورة يوليو رفع صور الملوك من على أوراق البريد والأوراق المالية والإبقاء على رموز الوطن وأعياده ومعاركه وانتصاراته مثل ثورة يوليو ١٩٥٢، وتأميم قناة السويس وعيد تحرير سيناء فى ١٩٥٦، ومناهضة الأحلاف، حلف بغداد فى ١٩٥٤، والحلف الإسلامى محور الرياض- طهران- كراتشى فى ١٩٦٥، والوحدة المصرية السورية ١٩٥٨-١٩٦١، وحرب أكتوبر ١٩٧٣. ووضعت على طوابع البريد والأوراق المالية صور الفلاح والإصلاح الزراعى والعامل والمصنع والطالب والأستاذ فى عيد العلم. ويحدث ذلك فى وقت تشتد المعارضة المصرية ضد التمديد والتوريث مطالبة بإصلاح الدستور والانتخاب بين أكثر من مرشح، لكل برنامجه الانتخابى، وفرصته المتساوية فى الإعلام والظهور العام. فالوقت غير مناسب. والجو النفسى غير ملائم. مما يكشف عن أن النظام فى واد والشعب فى واد آخر. مع أن الشرطة أحيانا لا تستطيع مواجهة الهبات الشعبية مثل هبة ١٨/١٩ يناير ١٩٧٧، وتحرك الأمن المركزى فى ١٩٨٦ ورفض الجيش فى الحالتين القيام بوظيفة الشرطة. إذ أن مهمته الدفاع عم الأمن الوطنى ضد العدوان الخارجى وليس حفظ النظام فى الداخل. كما أن الشرطة لا تقوم بدور الجيش

(*) الزمان: ٥ مارس ٢٠٠٥، الدستور: مارس ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٦ مارس ٢٠٠٥.

فـى الـدفـاع عـن الـبـلاد مثـل الـشرطة فـى سـينـاء بـل مهمتهـا الـدفـاع المـدنى، وحمايـة الجبهـة الداخلية.

لم يفكـر عبـد الـناصـر مفجـر الثـورة العربيـة أن يـضع صـورته على طـابع بريـد أو ورقـة مالية كما يفعل الملوك أو الضباط بل أبقى على رموز مصر وتاريخها وحمايتها للوطن العربى ضـد غـزوات التتـار والمغـول مـن الـشرق، فـى مـرج دابـق وعـين جـالـوت، أو ضـد الـصليبين مـن الغرب فى معركة حطين. فالمبدأ له الأولوية على الشخص "من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت".

كما وضعت آثار مصر: الأهرام، أبو الهول، معبد الكرنك، وادى الملوك، رأس نفرتيتى، معبد الدير البحرى، طريق الكباش، تمثالا ممنون، آثار مصر الوسطى، عربة رمسيس الحربية، النيل، مكتبة الإسكندرية، القناطر الخيرية، خزان أسوان، السد العالى. فكانت أوراق البريد مدرسة لتعليم تـاريخ الـوطن والحفـاظ على ذاكرتـه مـن النـسيان. وقد كانـت مـن هوايـات الأطفال جمع هذه الطوابع ورؤية تاريخ مصر فى استمراريته. "أنا المصرى كريم العنصرين".

ولا يحتـاج الـسلطان إلى صـورة إضـافية فـصورة الـسلطان قبـل طـابع البريـد فـى كـل مكان: محطة مترو، مكتبة، جـائزة، أكاديمية، دور الحكومة والمصالح العامة. والميادين الكبرى بجـوار الإعلانـات التجاريـة، بالإضـافة إلى الجرائـد اليوميـة ونـشرات الأخبـار، والـبرامج الخاصـة، والاشـتراك فـى المناسـبات، وافتتـاح المـشروعات، ووضـع حجـر الأسـاس، وإعطـاء التوجيهات فى توفير الدواء الناقص فى ساعات فى مقابل عجز وزير الصحة، واقتراحات حل أزمة المرور. وما على وزير المواصلات إلا الطاعة والتنفيذ وكل ذلك أقرب إلى الدعاية فى عـام الانتخابـات الرئاسية. وهـو مثـل رئـيس المدينـة الفاضـلة عند الفـارابى يعلـم كـل شـىء، ويقدر على كل شىء، أكمل العقول والأجسام. وهو الوحيد الذى يتصل بالعقل الفعال. وهو الإمام والنبى والفيلسوف "كامل الأوصاف" الذى يفتتن به كل الناس.

ولا فـرق بـين شـعارات الإسـلاميين وصـورة الـسلطان. كلاهمـا حاكميـة، حاكميـة الله، وحاكميـة الـسلطان. وكلاهمـا الحـل، الإسـلام هـو الحـال، والحـزب الحـاكم هـو الحل. وكلاهمـا تطبيـق للـشريعة، الإسـلامية أو جهـاز الدولـة. لا فـرق بـين الـرئيس والأمـير. كلاهمـا عبـادة للشخص وطاعة للحاكم.

والحقيقة أن تصميم طابع بريد للشرطة وعليه صورة الرئيس ليس تكريما له فالشرطة فى ذهن الـشعب مـصدر قهر وتسلط وظلـم وطغيـان. تلفـق الاتهامـات، وتعذب المواطنين فى الأقسام. تربت على أن المواطن هو العدو، وأن الطالـب هـو المشاغب، وأن المعـارض، الإخوانى أو الشيوعى أو الليبرالى الـوطنى هـو عدو البلاد فى الداخل، والطابور الخـامس للخـارج، إيران أو الاتحـاد الـسوفيتى أو الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. ولم تـتغير منـذ الملكيـة قبـل ١٩٥٢ حتـى الآن. والشرطى بيده اليمنى العصا (الشومة)، وبيده اليسرى الدرع لحماية نفسه مـن القذف بـالطوب. الـشرطى هـو الهـراوة الغليظـة، وصـاحب الـشارب الكبير، والـضخم الجسم، والمكفهـر الوجـه. هـو حـارس النظـام والمحـافظ علـى أمنـه ضـد المـواطنين. وشـعار "الـشرطة فـى خدمـة الشعب" تـزدان بـه مـداخل الأقسام. و"الـشرطة ضد الـشعب" ممارسـات عمليـة داخل الأقسام وخارجها. وطالما أُخرجت أفلام تبين فساد الشرطة وارتكابها الجرائم فى كل الدول ولدى كل الشعوب.

ولا يوجـد نظـام بـه أنـواع مـن الـشرطة كمـا هـو الحـال فـى نظمنـا. الـشرطة المدنيـة، الـشرطة العـسكرية، أمنـاء الـشرطة، الـشرطة الـسرية، الـشرطة الـسياسية، الـشرطة الخاصـة، شـرطة الحراسـة، أمـن الدولـة، الحراسـات الخاصـة، الحـرس الجـامعى...الخ. فالدولـة دولـة شـرطة. همهـا الأمـن الـداخلى. وفـى أتـون هزيمـة ١٩٦٧ كانـت الـشرطة فـى الـداخل تعتقـل الإخوان والشيوعيين وتحافظ على أمن النظام.

ومنـذ هبـة ١٨ / ١٩ ينـاير ١٩٧٧ خرجـت صـور عبـد الناصـر محمولـة علـى الأعنـاق.

فالصورة الغائبة تزيح الصورة الحاضرة. والصورة فى الأذهان تطغى على الصورة فى الأعيان. وصورة الماضى تجرف أمامها صورة الحاضر. وكلما اشتد الكرب رفعت الصورة من القلوب فى مصر وفلسطين تستنجد بصاحبها وامعتصماه، وناصراه. وتذكّر الخلف سيرة السلف (**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات**). الصورة التى ترفعها المعارضة بالأيادى تطل من فوق الرؤوس. تشهد ولاء الناس لتاريخها، وحفاظها على ذاكرتها من غوائل النسيان.

وكما أن الشرطة خاضعة للنظام فهى خادمة للوطن مثل دفاع قسم شرطة حى الأربعين فى السويس ضد العدوان البريطانى عليه فى ١٩٥٢ مما كان نذيرا باندلاع الثورة. واستشهد رجال الشرطة العزل من السلاح. وهناك شرطة المطافئ التى تطفئ النيران. وهناك شرطة السياحة للمحافظة على الآثار وسلامة المواطنين والأجانب. وهناك شرطة الأموال العامة، وشرطة مكافحة المخدرات، وشرطة الآداب، وكلها فى خدمة الشعب، وليست فى خدمة النظام. وهى الصورة المتوارية عن الأنظار أمام الصورة السلبية الأولى. فالشرطى يُخوّف به الأطفال. ينتصر عليه اللص كما يفعل أرسين لوبين اللص الشريف.

إن دولا بأكملها تسمى بأسماء العائلات والقبائل والأنساب. فالشخص أبقى من الدولة. والناس يدينون له بالطاعة أكثر مما يدينون للوطن الأم. فوضع صورة الحاكم على طابع بريد أو ورقة مالية أقل مما يجب إذا كانت الدولة كلها تسمى باسمه.

إن صورة الرئيس مديرا للكلية الحربية، وقائدا لسلاح الطيران، ومنفذا للضربة الجوية الأولى يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ الساعة الثانية إلا خمس دقائق مازالت راسخة فى القلوب، لم يطوها النسيان بعد. وفرق بين بطل الحرب وداعية السلام. فلم تكن حرب أكتوبر آخر الحروب بل كانت اتفاقات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ١٩٧٩ بداية حروب إسرائيل، غزو جنوب لبنان وحصار بيروت، وقذف

المفاعل النووى العراقى، واغتيال أبى جهاد فى تونس، والاستيلاء على كامل فلسطين، واحتلالها المستمر للجولان ومزارع شبعا فى جنوب لبنان، وقتلها الشرطة المصرية على الحدود مع فلسطين.

ليست الصورة طريقا للخلود بل الآثار والأفعال (**إنك ميت وإنهم لميتون**).

هذه آثارنا تدل علينا ∴ فانظروا بعدنا إلى الآثار

٦- جوقــة السلطــان

للسلطان جوقة أو أكثر تسبح بحمده، وتبين مـآثره، وتزين له سوء أفعاله، وتؤلهه من دون الله. تريد عرض الدنيا، السلطة والثروة، والجاه والمنصب، الشهرة والصدارة. والسلطة زائلة (**تلك الأيام نداولها بين الناس**). والثروة لا تغنى عن نقاء الضمير، وراحة القلب. والجاه فى الأرض، والمنصب خدعة، والشهرة مصطنعة، والصدارة زيف.

وتتنوع الجوقة بين فقهاء السلطان، وصوفية السلطان، وموظفو السلطان، وهم المستشارون والوزراء وأعضاء الحزب الحاكم، ورؤساء لجان مجلس الشعب، ورجال الأعمال، وقبل كل ذلك إعلاميو السلطان الذين يسبحون بحمده من خلال أجهزة الإعلام وأخطره التليفزيون والصحافة القومية.

هذا التهليل والتكبير هو الذى حدث قبل الاستفتاء الأخير على المادة اليتيمة ٧٦ من الدستور. وكان الإعلام، بتوجيهات الرئيس، يقول قبل ذلك، لا مساس بالدستور، لا مساس بالاستقرار، الوقت مازال مبكرا، كل شىء فى أوانه حتى يتم نهب مصر لآخر قطرة، ويكون هناك الوقت الكافى لتهريب الثروات الخاصة.

وفى غمضة عين، عزفت الجوقة النغمة المضادة وبعد أن قرر الرئيس تعديل مادة وحيدة من الدستور بشروط معجزة تسمح له بالتمديد بحكم العادة والإمكانيات.

أصبح القرار هزة فى التاريخ، تحول لم يحدث مثله منذ الفراعنة القدماء، حكمة

(*) الدستور: ١٦ أغسطس ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢١ أغسطس ٢٠٠٥.

إعلان كل شيء فى أوانه، كان الرئيس يفكر فيه منذ عدة سنوات فى أن يقوم به وفى نفس الوقت يجرح المعارضة، ويضرب المتظاهرين الذين ينادون به. لو جاء القرار من الرئيس فهو الصواب، ولو نادت به الشعوب فهو الباطل حتى يتعود الناس على أن استرداد الحقوق منحة من الحكام، وليس حقا من المحكومين. فيسرق الإعلام جهد المعارضة، ويطفئ نارها، ويحاصرها بحكمة التدرج فى التحول الديموقراطى، وعدم الإسراع فى إلغاء قانون الطوارئ والأحكام العرفية، وتحديد مدة الرئاسة بمدتين، وإعادة جدولة الانتخابات، والسماح بحرية تكوين الأحزاب. يأخذ الأعلام جزءا من مطالب المعارضة ويكبّرها، ويترك الباقى ويصغّره، ويقلل من شانه. فالرئيس دائما على حق، والمعارضة دائما على باطل.

فإذا استمرت الضغوط الشعبية لرفض التمديد، تكفى أربعة وعشرون عاما، صحيا للرئيس، ونفسيا للشعب، وسياسيا للوطن. ستعزف الجوقة نغم التجرد، والزهد، والديموقراطية، وأنه لم يحدث فى تاريخ العرب الحديث أن تنازل حاكم عن السلطة، ورفض ما هو فيه من جاه طواعية واختيارا. وليس انقلابا أو اغتيالا أو موتا طبيعيا (**ولكل أجل كتاب، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون**).

وإذا قرر الرئيس أنه لا هو ولا ابنه مهتمين بالرئاسة، وزاهدين فيها، وأن الأمر يعود إلى الشعب، يهلل موظفو الرئيس، ويكبّرون على الجمهورى الذى حافظ على النظام الجمهورى، وهو أثمن ما تركته ثورة يوليو ١٩٥٢، رافضا العودة إلى النظام الملكى كما حدث فى أقطار عربية، وتُعد لذلك أقطار عربية أخرى.

وإذا ما قرر الرئيس تعديل باقى مواد الدستور، وتحديد مدة الرئاسة بمدتين فإن الجوقة ستهلل، وتبرز صفات إنكار الذات، والتواضع، واحترام رغبات الشعب، وتداول السلطة، وديموقراطية العسكر "إنى وليت عليكم ولست بخيركم. إن أحسنت فأطيعونى. وإن أسأت فقومونى. أطيعونى ما أطعت الله فيكم. فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم".

وإذا قرر الرئيس توارى السيدة حرمه عن الأنظار كما فعل من قبل عند توليه الرئاسة بعد حادث المنصة الدامى، واستفاد من تجربة حرم الرئيس السابق فى الجمهورية الثانية، وقرر عدم تصدى صورها أجهزة الإعلام ولا مكتبة الأسرة ولا الملصقات العامة ولا الإعلانات عن الجمعيات الخيرية التزاما بالوضع الدستورى لحرم الرئيس لأبرزت الجوقة شهامة الرجال، وتقاليد الحكام ولأعادوا إلى الذكريات صورة حرم الرئيس عبد الناصر التى لم يكن يعلم عنها أحد شيئا إلا بظهورها فى المناسبات الرسمية الضرورية. ولاستعاد بعض أفراد الجوقة آية (**الرجال قوامون على النساء**) أو حديث "لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة".

ولو قرر الرئيس الكشف عن ثروته، وثروة أبنائه وممتلكاتهم وشركاتهم وعلاقاتهم برجال الأعمال كما تذكر صحف المعارضة لاستعاد موظفو السلطان خطابه الأول بعد حادث المنصة عن نظافة اليد، وضرورة مواجهة الفساد، والزهد فى قصور الرئيس السابق واستراحاته وطائرته المروحية التى ينتقل بها هربا من زحام المرور فى شوارع العاصمة. ولاستعادت سيرة عمر بن الخطاب الذى حرم على نفسه السمن والزيت عام المجاعة حتى تقرح جلده إلى أن يطعم آخر المسلمين، ولاستعادت الجوقة حياة الرئيس عبد الناصر بزهده فى الدنيا، وبقاءه فى بيته، وعن طعامه من الخبز والجبن.

ولو قرر الرئيس عدم رئاسة الحزب الحاكم حتى يعلم إلى أى حد هو قادر على أن يصمد بعده، ويقيّم أدائه، ولا ينفك بعد أن يتركه لحوّله موظفو السلطان إلى الحَكَم بين السلطات، ميزان الثقل بين القوى السياسية ، المحايد بينها، تاركا الخيار للشعب، خاصة وأن ذاكرة الناس مازالت تذكر فى الجمهورية الثانية تغيير الحزب من "حزب مصر" إلى "الحزب الوطنى الديموقراطى"، فاستقال رجال الحزب الأول، وانضموا إلى الحزب الثانى، باستثناء القلة من الوطنيين الشرفاء. فلا فرق بين الأول والثانى، فكلاهما حزب الرئيس.

ولو قرر الرئيس الإسراع فى عملية التحول الديموقراطى، والسماح للحركة الإسلامية

وللحركة الشيوعية بتكوين تجمعات سياسية شرعية فى صورة أحزاب أو جماعات أو تنظيمات حتى ينشط الشارع المصرى وتنتهى قصة الأحزاب الورقية العشرين باستثناء الوفد الجديد والعربى الناصرى والتجمع الوطنى يهلل موظفو السلطان بأنه الديموقراطى الأول فى مصر الحديثة الذى سمح بإعادة جماعة الإخوان المسلمين بعد حلها فى ١٩٥٤ بدلا من الالتفاف حول الأحزاب القائمة، الوفد مرة والعمل مرة أخرى. وهو الذى سمح لأول مرة فى تاريخ مصر بحزب شيوعى رسمى بدلا من أن يلتف حول أحد الأحزاب التقدمية القائمة. وهو الذى اعترف أخيرا بالتيارات الأربعة التى تحكم فى الشارع المصرى، الإسلامى والناصرى والليبرالى والماركسى.

وإذا قرر الرئيس إلغاء قانون الطوارئ، وعدم مد العمل بقانون الأحكام العرفية وأمر الشرطة بعدم التصدى للمظاهرات السلمية التى تعبر من خلالها جميع الشعوب عن الرأى العام بعد أن زيفته جوقة السلطان لحولته الجوقة إلى الديموقراطى المجهول، والحر المظلوم. يستجيب لمطالب الشعب، ويسمع لأصوات المتظاهرين دون ضغوط خارجية تمس بكرامة الوطن وباستقلال نظامه السياسى.

وإذا ما قرر ضرب الفساد وعدم التحجج بأن الأمر بين يدى القضاء، فساد الحزب الحاكم، وفساد كبار موظفى الدولة، ونواب القروض، وتهريب أموال مصر إلى الخارج، وتجار المخدرات، والعمولات والرشاوى تحوله الجوقة إلى أمين هذه الأمة، وتقارنه بأبى عبيدة بن الجراح، وبالحرص على ثروات الأمة.

وإذا ما قرر أن تكون رئاسة الجامعات وعمداء الكليات، ورؤساء الأقسام، وشيخ الأزهر، ومفتى الديار المصرية، ورؤساء تحرير الصحف بالانتخاب دون التعيين زفت الجوقة النبأ وبأنه عود الأمور إلى نصابها، والالتجاء إلى الشعب لأخذ مصيره بيده، ورفض تجميع السلطة بيد الحاكم، والضربة القاضية لفرعون من عصى موسى.

وما سماه رئيس الجمهورية الثانية سياسة الصدمات النفسية تسميه الجوقة التحول البطىء والتدرج فى مسار الديموقراطية. فالسلطان هو الذى يحدد التوقيت. وكل شىء له زمانه ومكانه.

لم يعد رئيس الجمهورية الثانية فى أواخر أيامه يرى شيئا أمامه، وأن الناس قد أجمعوا على رفض سياساته: الصلح مع إسرائيل، والانحياز إلى أمريكا، وسياسة الانفتاح، والقطيعة مع العرب، وقهر الحريات. وأجمعت كل قوى المعارضة الإسلامية والقومية والليبرالية والماركسية على سياسات بديلة تدافع عن الأوطان فى فلسطين والآن العراق وأفغانستان ولبنان وسوريا والسودان، وتقاوم قوى الهيمنة الجديدة الممثلة فى القطب الواحد، والدفاع عن الوطن الأم، الوطن العربى بدلا من تجزئته إلى دويلات عرقية وطائفية، وحماية حرية المواطنين وحقهم فى التعبير. وظن أنهم قلة من "الأراذل" و"الأسافل". وقرر فى ليلة من ليالى سبتمبر ١٩٨١ وضعهم جميعا فى السجون. "ومين يقدر ساعة يحبس مصر؟".

٧- صوفية السلطان

"سكت دهرا ونطق كفرا". هؤلاء هم صوفية السلطان الذين أعلنوا عن تأييدهم للرئيس قبل الاستفتاء الأخير في مصر. وهم بحسب تعدادهم عشرات من الفرق الصوفية وأتباعهم بالملايين. وتصدقهم ملايين أخرى. فهم وجدانيا يقبعون فى قلوب المصريين، ويتحكمون فى الملايين منهم.

هم جزء من رياسة الجمهورية مثل مشيخة الأزهر. يعين رئيسهم، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، بقرار جمهورى. فالرياسة دين ودولة، جيش وشعب، حزب حاكم فى مجلس الشعب، وطرق صوفية متحكمة فى الشعب. الأول تحت قبة البرلمان، والثانى تحت قبة الضريح.

يمتلكون قدرة رهيبة على الاتصال بالجماهير من خلال الموالد، للنبى ولأولياء الله الصالحين، والاحتفالات الشعبية فى المناسبات الدينية، فى العيدين، شعبان، وطوال شهر رمضان، بسرادق بساحة الجامع الأزهر، يذكرون الله. يطعمهم الناس، ويقدمون لهم الفتة واللحم، تقربا إلى الله عن طريق أوليائه. ويعيشون على الصدقات، ويقبلون التبرعات حتى أصبحوا من أغنياء القوم كشركات توظيف الأموال ولكن ليس بدافع الربح الدنيوى بل بدافع الربح الأخروى. وكلاهما تجارة، الأولى تبور، والثانية لن تبور.

أصبح التصوف دينا شعبيا، بديلا عن الدين الشعائرى الرسمى. واختلط بالعادات الاجتماعية منذ الفاطميين من أجل إلهاء الناس بالدين بعيدا عن السياسة أو استخدام

(*) الاتحاد: ٢٥ يونيو ٢٠٠٥، الزمان: ٢٥ يونيو ٢٠٠٥، الدستور: يونيو ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢٦ يونيو ٢٠٠٥.

طاعة مشايخ الطرق كمقدمة لطاعة الشيخ الأكبر، الحاكم بأمر الله. وتلهى الناس بالموالد وعرائس الحلوى وأحصنة الفرسان.

وهم فنانون شعبيون، يمدحون الرسول، ينافسون فى مجال الصوت أشهر المقرئين. يتوشحون بالألوان الزاهية ويلبسون العمم الخضراء ويتمنطقون بالوشاح الأحمر أو الأخضر. ويرفعون البيارق والأعلام، وفى آخرها النجوم الذهبية. ويذكرون الله. ويتمايلون يمينا ويسارا فى الأذكار. ويرقصون كما يفعل المولويون فى إيران وفى فرقة الفنون الشعبية فى قصور الثقافة الشعبية مثل قصر الغورى. ويلفون حول أنفسهم كالنحل حتى يسقطون مغشيا عليهم فى حب الله. ويتبرك الناس بهم، ويتوسطون بهم لقضاء حاجاتهم عند الله. يتبركون بهم، وينالون بالبركة الحظوة بما فى ذلك "فك الربط" من أجل تنشيط القوة الذكورية ضد العزال.

وبما أن لهم باعا فى السياسة، يؤيدون الرئيس فى الاستفتاء ويبايعونه على فترة خامسة وكأنهم فرع شعبى من الحزب الحاكم بفروعه فى السياسة والاقتصاد فلماذا لم يذكروا مرة فلسطين وإعلانهم عن تأييد المقاومة الفلسطينية، وإحيائهم ذكرى الشهداء؟ لماذا لم يدينوا العدوان الأمريكى على العراق وأفغانستان، والعدوان الروسى على مسلمى الشيشان؟ لماذا لا يدافعون عن حق الشعب الكشميرى فى تقرير المصير؟

وإذا لم يكن لهم باع فى السياسة الخارجية فعلى الأقل هم على دراية بالسياسة الداخلية ماداموا قد اختاروا مبايعة الرئيس ضد إجماع الأمة على رفض التجديد والتمديد. فلماذا لم يدينوا قانون الطوارئ والأحكام العرفية وزج المعتقلين السياسيين فى السجون بلا تحقيق أو تهمة أو محاكمة أو إدانة؟ لماذا لم يرفضوا التوريث، والوراثة ليست مصدرا من مصادر السلطة فى الإسلام ولا الانقلاب الذى سماه القدماء "الشوكة"؟ لماذا لم ينقدوا الفساد، وتبديد أموال الأمة، ونهب ثرواتها، وبيع القطاع العام، وغلاء الأسعار، ونواب

القروض، وتهريب الأموال إلى الخارج؟ لماذا لم ينقدوا مظاهر التغريب فى حياتنا، وبيان مخاطر العولمة على هوية الأمة؟ لماذا لم ينقدوا نظم الهيمنة السياسة والاقتصادية للخارج وتبعية الداخل، وفيهم من العلماء والمتخصصين الكثير؟

لقد نشأت الطرق الصوفية فى العهد العثمانى لنفس السبب أيام الفاطميين، إلهاء الناس بالدين الشعبى بعيدا عن السياسة، والسيطرة بالدين على مصائر الناس، وتوجيههم نحو الطاعة، فطاعة السلطان من طاعة الله (**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**). وكلما ضعفت دولة الخلافة فى إدارة شئون البلاد فى الداخل والخارج ازدهرت الطرق الصوفية كحل بديل لأزمات الناس. وانتشرت خزعبلاتهم وكراماتهم فى هذا العصر.

لذلك نقدت معظم الحركات الإصلاحية الحديثة التصوف والمتصوفة مثل الأفغانى وإقبال لخطورته على نضال المسلمين ضد القهر فى الداخل والاستعمار فى الخارج. وكان أهل السلف قد نقدوهم من قبل وسماهم ابن تيمية "أولياء الشيطان" وميز بينهم وبين "أولياء الرحمن". وبينوا خطورته على الشرع والأحكام الشرعية التى تقوم على التمييز بين الحلال والحرام وليس على التوحيد بين كل شىء وكل شىء باسم المحبة المتبادلة والحب الإلهى.

ومازال التصوف فى حاجة إلى إصلاح، أن يتحول من المحور الرأسى إلى المحور الأفقى، ومن العلاقة بين الإنسان والله إلى العلاقة بين الإنسان والإنسان، ومن الصعود من العالم إلى الله إلى النزول من الله إلى العالم، ومن الذهاب من الدنيا إلى الآخرة إلى العودة من الآخرة إلى الدنيا أى من "التأويل" إلى "التنزيل" حتى تلحق الأمة بغيرها من الأمم بدلا من تصنيفها فى عداد الأمم المتخلفة وأعداؤها من الأمم المتقدمة.

التصوف فى حاجة إلى الخروج من الباطن إلى الظاهر، ومن الداخل إلى الخارج، ومن أفعال القلوب إلى أفعال الجوارح. فما تحتاجه الأمة الآن هى الأفعال فى الخارج وليس فى الداخل.

ويحتاج التصوف إلى أن يتغير من المقامات والأحوال السلبية، المقامات كالرضا والتوكل والورع والخشية والتوبة والفقر، والأحوال مثل السكر والقبض والخوف إلى مقامات وأحوال إيجابية مثل المقاومة والرفض والغضب والتمرد والاعتراض والثورة على الأوضاع حتى تتحول الجماهير من سلبية ولامبالاة كما لاحظ الكواكبى فى "أم القرى" بعد دراسة أسباب الفتور عند المسلمين، إلى إيجابية والتزام والعودة إلى حمل الأمانة وتحقيق الرسالة. كما يحتاج التصوف إلى التحول من علوم الذوق إلى علوم النظر، ومن العلم اللدنى إلى العلم الإنسانى حتى يسيطر المسلمون على نظم المعلومات، ويشاركون فى ثورة الاتصالات. وبدلا من الكرامات يجتهد المسلمون فى تحقيق مطالبهم دون التضرع إلى الأولياء الصالحين، واستجداء النصر من الله أو الانتقام من الظالمين.

لقد نشأ التصوف فى البداية كحركة مقاومة سلبية ضد الحكم الأموى بعد مقاومة آل البيت للظلم والقهر واللاشرعية. واستشهد الأئمة الأعلام، واستتب الأمر للحاكم الظالم. فانبرى الأتقياء ليقاوموا بالقلب بعد أن عزت المقاومة باليد، وهو أضعف الإيمان. وتحولت المعركة من الخارج، جهاد العدو، إلى الداخل، جهاد النفس. وخلقت بالخيال مدينة ينتصر فيها الحق على الباطل، مدينة الأقطاب والأبدال، بفعل الخيال الخلاق بحثا عن الإنسان الكامل فى الذهن بعد أن عز وجوده فى الواقع.

والآن، ليست المقاومة ميئوس منها بعد نجاحها فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. ومازالت مقاومة الحاكم الظالم مستمرة بعد تحرك الشارع العربى فى الآونة الأخيرة خاصة فى مصر مطالبا بالحرية والتعددية السياسية وإلغاء الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ وجميع القوانين المقيدة للحريات، وبيان أوجه الفساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى، وحكم البلاد بمجموعة من المصالح الشخصية والإضرار بالمصالح العامة والأمن القومى للبلاد.

لقد ساعدت الطرق الصوفية على انتشار الإسلام فى السنغال وجنوب السودان وأواسط وجنوب أفريقيا وأواسط آسيا وجنوب شرقى آسيا جنبا إلى جنب مع حركات المقاومة التى قادها الصوفية مثل الحلاج واشتراكه فى ثورة القرامطة، ونجم الدين كبرى فى مقاومة الصليبيين فى الشام، والسنوسية فى ليبيا ضد الاستعمار الإيطالى، والمهدية فى السودان ضد الاستعمار البريطانى.

فلماذا لا يخرج صوفية السلطان من عمامته ويتوجهون إلى قيادة الشعب ومقاومته للطغيان والتسلط والفساد والتبعية فى الداخل والعدوان والهيمنة على الأمة من الخارج؟ ولماذا لا يدافعون عن استقلالهم كتنظيم أهلى غير حكومى، ينتخبون رئيسهم بدلا من أين يكون جزءا من رياسة الجمهورية يعين رئيسهم بقرار جمهورى؟ والإصلاح من داخلهم أولى من الإصلاح من خارجهم. ورضا الناس والله عنهم خير من رضا السلطان وسخط الله عليهم.

٨- مشايـــخ السلطـــان

منذ الصراع الأول على السلطة بعد وفاة الرسول وانقسام الأمة إلى فريقين، سنة وشيعة، حكومة ومعارضة، ثم انقسام السنة إلى فرق أخرى، أشاعرة فى السلطة ومعتزلة وروافض فى المعارضة، انبرى كل فريق بحشد حججه النقلية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة وأقوال الصحابة والتابعين لإثبات شرعية موقفه. فتحول النزاع السياسى إلى خلاف دينى، والأحزاب السياسية إلى فرق دينية.

وانقسم العلماء إلى فريقين، فريق يأخذ الخلعة والصرة والركب، ويتقلد المناصب، ويعيش فى قصر السلطان وتحت رعايته. جاهز فى فتاويه طبقا لرغبات ولى النعم، وفريق يزج به فى السجون والمعتقلات، ويقضى حياته فى الحبس حتى الموت لأنه يفتى رعاية لمصالح الأمة، دفاعا عن الحق، مقاصد الشريعة وحقوق الناس، ومبينا واجبات السلطان. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، رعاية لحقوق الله، وينصح أولى الأمر ابتغاء لوجه الله ومصالح الناس، ويقومون بالحسبة وهى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية.

واستمر الأمر كذلك حتى العصر الحديث عندما بايع علماء الأمة محمد على واليا على مصر، لما رأوه فيه من قدرة على بناء البلاد والدفاع عن ثغورها. ولما استتب له الأمر وخشى من المعارضة فى يوم ما أو أن تتم البيعة لغيره قضى على استقلالهم، وعينهم موظفين فى الدولة مثل قادة الجند وأمراء الشرطة وأصحاب البريد. ومنذ ذلك الوقت أصبح شيخ المشايخ والمشايخ من كبار رجال الدولة لهم وضعهم فى التشريفات والمراسم الخديوية والسلطانية

(*) الاتحاد: ٩ يوليو ٢٠٠٥، الزمان: ٢٥ يونيو ٢٠٠٥، الدستور: ١٠ يوليو ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ١٠ يوليو ٢٠٠٥.

والملكية والجمهورية بعد الخديوى والملك والرئيس، ورئيس الوزراء، ورئيس مجلس الشعب. تأتى السلطة السياسية أولا ثم السلطة الدينية ثانيا، المتبوع قبل التابع، والتابع بعد المتبوع. لهم الألقاب والزى والهبات والعطايا حتى بعد إلغاء الوقف. يفتون لسلطان مصر أو لملك مصر والسودان إذا أراد أن يكون خليفة للمسلمين بعد إلغاء الخلافة فى استانبول.

واستمر الحال كذلك بعد الثورة لحاجة الضباط الأحرار إلى السلطة الدينية لتبرير شرعيتهم السياسية بعد صدامهم مع الإخوان فى أول الثورة فى ١٩٥٤. ولما كان مسار الثورة بين مد وجذر، ثورة وثورة مضادة. فقد سار مشايخ السلطان فى الركاب. فبعد قرارات مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، اللاءات الثلاث، لا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف بإسرائيل. انبرى مشايخ السلطان بتبريرها بالفتاوى والنصوص الدينية (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**)، (**وجاهدوا فى الله حق جهاده**)، (**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير**)، (**وقاتلوا الذين يقاتلوكم**)، وما أكثر الآيات والأحاديث فى هذا السياق. وبعد أن انقلبت الجمهورية الثانية على الجمهورية الأولى، وعقدت اتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٩ انبرى مشايخ السلطان، هم أنفسهم، بتبرير قرارات السلطان الجديد بآيات وأحاديث أخرى (**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**)، (**أدخلوا فى السلم كافة**). وسلام وشالوم من نفس الاشتقاق، وكلانا أولاد عم من نسل إبراهيم.

وحدث نفس التحول على الصعيد الداخلى من الاشتراكية والقومية وعدم الانحياز اختيار الجمهورية الأولى إلى الرأسمالية والقطرية والانحياز إلى أمريكا وإسرائيل، انقلاب الجمهورية الثانية والذى مازال مستمرا فى الجمهورية الثالثة والأخيرة فى حقبة من تاريخ مصر المعاصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، نهاية لمرحلة، وبداية لمرحلة أخرى. فأفتى مشايخ السلطان فى الجمهورية الأولى بان الإسلام دين الاشتراكية "الناس شركاء فى

ثلاث: الماء والكلأ والنار"، والقطاع العام من الإسلام كما مثله "الإقطاع"، وهو ما يقطعه الخلفاء للصالح العام كالمراعى للإبل، و"ليس منا من بات جوعان وجاره طاو". (**والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**). وجاء الشعر:

والاشتراكيـــون أنت إمامهـــم ∴ لولا دعاوى القوم والغلـــواء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ∴ فالكل فى حق الحياة سواء

ولما حدث الانقلاب فى الجمهورية الثانية انبرى مشايخ السلطان لتبرير سياسة الانفتاح ونقد الشيوعية الملحدة، "من لا إيمان له لا أمان له". والكسب الحر مشروع، والتجارة حلال فى الأسواق، ومع الله تجارة لن تبور. وكل ما أتى الإنسان هو رزق، حلالا أم حراما، اعتمادا على رأى بعض القدماء، والرفاهية حق المؤمنين (**قل من حرم زينة الله والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا**). والغرب مؤمن، والشرق كافر. والانحياز إلى الغرب المؤمن ضد الشرق الكافر خير وبركة، ونصرة للإسلام والمسلمين.

وقد انبرى شيخ مشايخ السلطان أخيرا بفتوى من نفس النوع لحث الناس على الاشتراك فى التصويت على تغيير المادة ٧٦ من الدستور وعدم مقاطعته كما تريد المعارضة (**ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**). وهى نصف شهادة. فأين الشهادة على الباقى، إلغاء قوانين الطوارئ، والأحكام العرفية، والإفراج عن المعتقلين السياسيين، ورفض التمديد والتوريث لأن الحكم فى الإسلام عقد وبيعة واختيار حر من الناس، لا انقلابا ولا وراثة. "إنى وليت عليكم ولست بخيركم"، "والله لو عثرت بغلة فى العراق لسئلت عنها يا عمر لماذا لم تسولها الطريق؟" فما بال العدوان الأمريكى منذ ثلاث سنوات على العراق، ومنذ أكثر من أربع سنوات على أفغانستان، ومنذ أكثر من خمس سنوات على الشيشان، ومنذ أكثر من نصف قرن على فلسطين وكشمير، ومنذ أكثر من خمسة قرون على سبته ومليليه فى شمال المغرب المحتلة من أسبانيا منذ سقوط الأندلس؟ أين الشهادة على فقر الفقراء وغنى

الأغنياء، وتهريب ثروة مصر إلى الخارج، ونواب القروض، وتجار المخدرات، ومظاهر الفساد الاجتماعى والسياسى؟ أين الشهادة على آلاف المعتقلين السياسيين والتعذيب فى السجون كما هو وارد فى تقرير حقوق الإنسان الذى صدر من مؤسسات الدولة ذاتها؟ أين الشهادة على ضرورة التعددية السياسية لأن "اختلاف الأئمة رحمة بينهم"، "كلكم راد وكلكم مردود عليه"، وشرعية الاختلاف، وضرورة الخروج على الحاكم الظالم؟

إن لفظ "الشهادة" فى القرآن له معانى عديدة. فالشهادة لا تكون إلا بالحق. وتشهد الألسنة على شاهد الزور، والشهادة على النفس أولى، ولا تجوز الشهادة مع شاهد الزور (**فإن شهدوا فلا تشهد معهم**)، وشهادة النفاق (**والله يشهد أن المنافقين لكاذبون**) . والشهادة لا تكون إلا بالقسط (**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله**). هذه هى الشهادة الكلية على أحوال الأمة ومصالحها وعدم رعاية الحكام لها (**ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله**)، (**ولا نكتم شهادة الله، إنا إذاً لمن الآثمين**).

والأخطر من ذلك كله الشهادة المضادة وهى أخطر من شهادة الزور. والشهادة المضادة هى تكفير المخالفين فى الرأى، والحكم بالردة على معارضى السلطان، وإلقاء تهم البغى والفتنة والخروج على إجماع الأمة والإفساد فى الأرض عليهم. فتقوم بعض جماعات الرفض الإسلامية بتكفير مشايخ السلطان، وتكفير الأمة كلها التى تستمع لفتاويهم. وكل تكفير له تكفير مضاد. وكل فتوى لها فتوى مضادة. ويصبح الدين سلاحا ذا حدين، للسلطان وضد السلطان. يكفر به مشايخ السلطان المعارضة، وتكفر المعارضة السلطان ومشايخ السلطان. وقد يصبح السلطان نفسه ضحية مشايخه كما حدث فى الجمهورية الثانية فى حادث المنصة.

متى يستقل العلماء عن السلطان ويصبحوا فقهاء الأمة، يدافعون عن مصالحها، وليسوا فقهاء السلطان لتبرير مواقفه السياسية التى تضر بمصالح الجماعة حتى تعود المصداقية إلى علماء الأمة ويجهرون بالحق فى وجه السلطان الجائر؟ متى يكون العلماء ورثة الأنبياء؟

٩- فتـــاوى السلطـــان

الفتوى جزء من النظام التشريعى الإسلامى. عرض له علماء أصول الفقه فى باب "المفتى والمستفتى" كما فعل الشاطبى فى "الموافقات". وهى ممارسة فعلية للاجتهاد كمبدأ عام. ولها أبلغ الأثر فى سلوك الناس لأنها هى التى تعطى شرعيته. ويطيعها الناس أكثر من طاعتهم لقوانين البلاد. فهى تتعلق بالضمير والسلوك القويم، والخوف من الله فى اليوم الآخر، وتجنب عذاب النار. فى حين أن طاعة قوانين البلاد قانونية. يسهل إزاحتها جانبا لأن القوانين "المدنية" لا ترعى تطبيق العدل بين العباد. فرضتها الدولة الباغية. بل إن عصيانا أقرب إلى طاعة الله من طاعتها.

فإذا ما تعلقت الفتوى بالشأن العام، ما تعم به البلوى، فإنها فى هذه الحالة تتقاطع مع المواقف السياسية. لا يجوز للأفراد القيام بها بل فقط مجامع البحوث الفقهية أى الجماعة، أهل الحل والعقد أى أهل الاختصاص. فقضايا الحرب والسلام مهمة مجالس الأمن القومى. وقضايا الغنى والفقر مهمة الجمعيات الوطنية للاقتصاد والتشريع. وقضية شرعية النظام السياسى مهمة المحكمة الدستورية العليا.

ومنذ أن فقد علماء الأمة استقلالهم وأصبحوا موظفين فى الدولة ومؤسساتها الدينية مثل دار الإفتاء، فإنهم فى الغالب ما يبررون قرارات السلطان إلا فيما ندر. هم جزء من جهاز الدولة مثل الجيش والمجالس النيابية والإعلام والتعليم. وفى الخلافات السياسية داخل جهاز الدولة أو بين الدولة وخصومها السياسيين أى المعارضة أو بين الدول فى الحجاز

(*) الاتحاد: ٩ سبتمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٢٦ أغسطس ٢٠٠٦.

ومصر والأردن من ناحية ولبنان واليمن والمغرب وتونس والجزائر من ناحية أخرى. تصبح الفتوى سلاحا سياسيا لنصرة هذا الفريق أو ذاك، ولتأييد هذا النظام السياسى أو ذاك، ولتبرير موقف هذه الدولة أو تلك القضايا الكبرى. فيتحول الخلاف السياسى إلى خلاف دينى. وتزداد الأمة فرقة وتشتتا بل وتكفيرا متبادلا. فهى فتاوى ليست لوجه الله ولا لمصلحة المسلمين. ليست خالية من الأهواء وبالتالى تكون كلها باطلة لأنها أقرب إلى الميل منها إلى الحق (**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض**).

والفتوى التى صدرت من بعض فقهاء الحجاز بتحريم مناصرة حزب الله فتوى خاطئة منهجا وموضوعا، قصدا وهدفا وغاية. فهى تبدأ من النص، وعادة ما تبدأ الفتاوى بالواقع. لذلك يسميها علماء المغرب "النوازل" أى ما يقع للمسلمين من حوادث ومصائب ومآسى مثل العدوان الإسرائيلى على لبنان وفلسطين. فالبداية بالنص تتوقف على اختيار النصوص. وكل مفتى يختار النص الذى يحقق أهدافه. والنصوص متشابهة. إنما تقوم الفتوى على تحليل العلل فى الفرع ومعرفة مدى اتفاقها مع العلل المذكورة فى الأصل وهو النص. وهو تحليل للواقع يقوم به المختصون فى العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الدولية. بل إن فهم الأصل وهو النص يعتمد على منطق لغوى محكم يفرق بين الحقيقة والمجاز، والظاهر والمؤول، والمحكم والمتشابه، والمجمل والمبين، والعام والخاص، والأمر والنهى، وفحوى الخطاب ولحن الخطاب إلى آخر ما يعرفه علماء الأصول. ولا يُترك لسوء التأويل والأغراض الشخصية وأهواء المفتين.

ولا تتعلق الفتوى بالماضى بل بالحاضر. والحكم على حزب الله بأنه رافضى أسوة بالرافضة أيام الفتنة الكبرى إنكار لتغير الزمان والعصر. والحكم عليه بأنه صفوى فارسى إنما هو تغليب الجاهلية على الإسلام، وإثارة النعرات التاريخية والعرقية والمذهبية وتضحية بالحاضر ومآسيه. فلكل عصر أحكامه. والحكم الحاضر يدرأ خطأ ماثلا فى الحاضر، وملحا

فى العصر. يدرأ المفاسد، ويجلب المصالح، ويغلّب العاجل على الآجل. ولو كان هناك خطر شيعى من محور إيران والعراق وسوريا ولبنان فإنه ليس خطرا عاجلا. وقد يكون وهما. إنما الخطر العاجل هو العدوان الصهيونى على فلسطين ولبنان، والأمريكى على العراق وأفغانستان، والروسى على الشيشان. وهو ما يحدث الآن حيث تسيل الدماء كل يوم. ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ كل يوم، ويتم تدمير البنية التحتية للبنان وفلسطين. هذا هو الخطر العاجل الذى تتصدى له الفتاوى.

وغرض الفتوى توحيد الأمة، وتجميع قواها وحشد طاقاتها ضد الغزو والعدوان وليس تفرقتها إلى سنى وشيعى، رافضى وأباضى، سلفى وعلمانى. فالموت لا يفرق بين المذاهب والطوائف والديانات. وطالما سعت الاتجاهات الإصلاحية المعاصرة إلى التقريب بين المذاهب منذ الشيخ شلتوت، والإمام القمى، ومجلة "التقريب". وكيف يكون هناك تعارض بين العرب ودول الجوار الإسلاميين، تركيا وإيران، وهما أكثر مساندة للمقاومة فى فلسطين ولبنان من بعض الأنظمة العربية؟ ومن أين يأتى الخطر على الخليج، من إيران فى الشرق أم من العراق فى الشمال؟ وإن تغليب التناقض الرئيسى بين مصلحة الأمة لا فرق فيها بين عرب وعجم وترك على التناقض الثانوى والخلافات بين الأقطار العربية والإسلامية أقرب إلى روح الشرع الذى ينتصر للمظلوم ضد الظالم.

ولا يجوز قياس شيعة لبنان على شيعة العراق. فلكل طائفة ظروفها التاريخية والسياسية والاجتماعية. لقد عانى شيعة العراق من النظام العراقى السابق وكانوا ثورا عليه. فى حين أن شيعة لبنان جزء من الحركة الوطنية اللبنانية ومن نسيج الشعب اللبنانى. وإذا أخطأ شيعة العراق أو سنته أو أكراده فإن ذلك لا يعنى خطأ شيعة لبنان. ومجموع الخطأين لا يكوّن صوابا.

وإن قسمة الوطن فى العراق أو لبنان أو الحجاز أو دول الخليج إلى سنة وشيعة هو

وقوع فى التصور الطائفى ومشروع الشرق الأوسط الجديد الأمريكى. فالوطن واحد بصرف النظر عن طوائفه العرقية والمذهبية. والمواطنون مواطنون بصرف النظر عن أصولهم الطائفية. هكذا قرر مؤتمر "الطائف" للمصالحة اللبنانية بعد الحرب الأهلية. حزب الله ليس شيعيا طائفيا بل يمثل المقاومة الوطنية اللبنانية. تقاوم فيه كل ألوان الطيف السياسى الناصرى والماركسى والمسيحى والسلفى والعلمانى. هويته وطنية وليست طائفية. كان الشاه شيعيا. وكانت أمريكا تريد إدخاله فى حلف إسلامى بين الرياض وطهران وكراتشى للدفاع عن المصالح الأمريكية ومحاصرة القومية العربية فى مصر وسوريا واليمن والجزائر. ولم يقل أحد من علماء الحجاز أن شاه إيران شيعى. وكان متعاونا مع إسرائيل. ثم جاءت الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ وقطعت العلاقات مع إسرائيل. وسلمت سفارتها لمنظمة التحرير الفلسطينية. ومازالت تمثل أكبر تهديد للكيان الصهيونى بما لديها من قوة عسكرية وأسلحة للردع.

إن فقه الواقع يقرر أن الخطر الأعظم على الأمة الآن هو الخطر الصهيونى الأمريكى ومشروع الشرق الأوسط الجديد والعدوان على لبنان وفلسطين والعراق مما يستوجب شحذ طاقات الأمة كلها عربية وإسلامية لدرء العدوان وتحرير الأرض. فقد دافعت لبنان كلها عن بيروت ضد محاولة غزوها فى ١٩٨٢. وحررت المقاومة اللبنانية الجنوب المحتل فى ٢٠٠٠. وها هى الآن مرة ثانية تدافع عن لبنان كله مع الشعب اللبنانى ضد العدوان الإسرائيلى على لبنان كله وتدمير البنية التحتية وقتل المدنيين وهدم المنازل والمستشفيات والمساجد والكنائس بعدما عجز عن مواجهة المقاومة وجها لوجه على الأرض فى الجنوب.

كل من قال "لا إله إلا الله" فهو مسلم، دمه وماله فى عصمة المسلمين. فلا يجوز تكفير المسلم أو استبعاده وإخراجه من حظيرة المسلمين. والإسلام يناصر كل مظلوم معتدى عليه بصرف النظر عن دينه وطائفته ومذهبه وعرقه كما فعل الرسول فى "حلف الفضول".

الإسلام مع الحرية والعدل فى كل مكان وليس فقط على أراضى المسلمين.

على فقهاء الأمة مراعاة ضمائرهم وإصدار فتاويهم دفاعا عن مصالح الأمة وليس لتبرير المواقف السياسية للسلاطين. وعليهم أن يختاروا بين المصالح العامة والخطر العاجل ومسئوليتهم عن دماء الأبرياء وبين المصالح الخاصة للنظم الحاكمة والعائلات المالكة.

الفصل الثالـث

سـؤال مصـر

١- من الذى قتل سفير مصر؟

٢- من الذى فجر شرم الشيخ؟

٣- بم تنشغل مصر هذه الأيام؟

٤- العقل أم القدم؟

٥- الطاقة النووية بين الجد والهزل.

٦- يا مصر، كم لك من حدود؟

١ـ من الذى قتل سفير مصر؟

يفرق الفلاسفة، شرقيين وغربيين، عند وقوع أى حدث بين أنواع من العلل أهمها العلة الفاعلة والعلة الغائية. ويتساءلوا: أيهما أكثر تأثيرا فى وقوع الحدث؟ فمن الذى قتل سفير مصر، مختطفوه وهى العلة الفاعلة أم سياسة مصر وهى العلة الغائية أى السبب الذى من أجله اغتيل سفير مصر؟

ويفصل فلاسفة آخرون العلة الفاعلة ويجعلونها على أنواع: الأداة، السلاح الأبيض أو السلاح النارى أو اليد التى تمسك به أو الشخص القابض بيده على السلاح. ويضيف آخرون، والضحية نفسها، عدم قدرتها على الهرب أو عدم نجاحها فى المقاومة. ومع ذلك يتفق الجميع على أن العلة الفاعلة الحقيقية هو الهدف من الفعل والغاية من ارتكابه.

وقد تكوّن إجماع الأمة الآن بعد طول تردد، وبعد النجاحات التى حققتها على أن ما يحدث فى العراق الآن مقاومة مشروعة للاحتلال يقوم به الجيش العراقى الذى حافظ على نفسه بأسلحته وعتاده يوم احتلال بغداد فى أبريل ٢٠٠٣ بعد شهر من المقاومة بعد أن تحول من جيش إلى شعب، ومن عسكريين إلى مدنيين. فالجيش جيش الشعب. وانضم إليهم البعثيون والإسلاميون واليساريون والليبراليون الوطنيون. فالأرض أرض العرب والمسلمين. ولا فرق بين أن يكونوا من الداخل أو من الخارج، من العراق أو سوريا أو لبنان أو إيران. فالمعركة واحدة. وأرض العروبة واحدة. والشعب العربى واحد. بل إن قوات الاحتلال بعد أن

(*) الاتحاد: ٢٣ يوليو ٢٠٠٥، الزمان: ٢٦ يوليو ٢٠٠٥، الدستور: ٢٣، ٢٤ يوليو ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢٤ يوليو ٢٠٠٥.

غاصت فى مستنقع العراق وتكبدت الخسائر فى الأرواح والعتاد بدأت تفاوض المقاومة المسلحة مباشرة فى الميدان أو عن طريق الحكومة التى تشكلت تحت الاحتلال أو عن طريق تنظيمات جديدة تنشأ بوازع من الاحتلال وكأنها مستقلة، وتنادى بضرورة الوصول إلى كلمة سواء حتى تغطى انسحاب قوات الاحتلال وكأنه كان رضوخا لإرادة شعب العراق، ووقفا لإراقة الدماء، وحماية لشعب العراق. وأصبحت المقاومة تشتد يوما وراء يوم. وتكسب شرعية جديدة ممن كانوا يترددون فى الاعتراف بها وبعد أن انتقلت من الدفاع إلى الهجوم، وتحولت قوات الاحتلال من هجوم إلى دفاع، وبعد أن قامت ببطولات نالت احترام الجميع فى الداخل والخارج.

من قتل سفير مصر هى سياسة مصر الخارجية تجاه العراق وفلسطين خاصة ومجمل القضايا العربية والإسلامية. فقد آثرت مصر الانكماش على نفسها بدعوى استهلاك مواردها على أكثر من نصف قرن على الأمن القومى فى مصر فى الشام، حدود مصر الشرقية المفتوحة، والتى كانت تأتى منها الغزوات. وكان زرع الكيان الصهيونى لفصل مصر عن الشام، وبتر الوطن العربى قسمين، قسم فى آسيا، وقسم فى أفريقيا.

وأخطر من الانكماش هو تحالف مصر مع الولايات المتحدة والكيان الصهيونى. فقد أعطت سياسة مصر للعدوان على العراق فى مؤتمر القاهرة فى ١٩٩٠ الشرعية للغزو الأول لأمريكا للعراق فى يناير ١٩٩١ بفارق صوت واحد، وتخلت عن دورها فى الوساطة والمصالحة بين العراق والكويت من أجل انسحاب العراق من الكويت بإرادة العرب وليس بالغزو الخارجى.

ومن مظاهر هذا التحالف الاعتراف بحكومة العراق التى تكونت تحت الاحتلال، وإرسال سفير لمصر هناك. بل وتزعمت مصر الدعوة إلى استئناف التمثيل الدبلوماسى بين الأقطار العربية والحكومة التى تكونت تحت الاحتلال بدعوى مساندة شعب العراق والعمل

لصالحه. وتثار تساؤلات فى الشارع المصرى حول الضغوط الأمريكية على مصر للقيام بذلك حتى لا تسقط حكومة العراق وينكشف للعالم أن كل الانتخابات التى تمت فى العراق تحت الاحتلال والتى قاطعها قسم كبير من الشعب العراقى كانت غير شرعية وأن الحكومة لا تمثل شعب العراق. ولو فعلت مصر، الشقيقة الكبرى ذلك لتبعها العرب طبقا للتصور الشائع.

يضاف إلى ذلك سوء الاختيار، وتردد السفير الضحية فى القبول. فقد أمضى من قبل عدة سنوات فى البعثة الدبلوماسية المصرية فى إسرائيل، وفلسطين تحت الاحتلال. وها هو ينتقل إلى العراق، أيضا تحت الاحتلال. وقد تم التعيين مواكبا لصفقة الغاز المصرية إلى إسرائيل بالمليارات على عدة سنوات قادمة. يضاف إلى ذلك اضطهاد جماعات المعارضة فى مصر، واعتقال أعضاء الإخوان المصريين، قادة وشبابا طبقا لقانون الطوارئ. المسئول هو سياسة مصر الخارجية التى وضعت سفرائها فى الخارج فى موضع الخطر وسياسة مصر الداخلية التى اضطهدت الحركة الإسلامية.

المقاومة العراقية هى مجرد أداة التنفيذ وليس سببه بل السبب سياسة مصر الخارجية، العربية والإقليمية والدولية. لذلك جاء فى بيان الخاطفين: "مصر، دولة الطاغوت التى والت النصارى واليهود"، وكما تقرر كتب الفقه القديم. والسرعة التى تم بها الاختطاف والقتل تبين أن الأمر يتعلق بالمبادئ والمواقف العامة من مصر وسياساتها العربية. ولم يكن هناك مجال للحوار أو المساومة أو الوصول إلى وعود. وأصبح السفير ضحية المطرقة والسندان، مطرقة المقاومة وسندان سياسة مصر العربية وموقفها من حكومة العراق تحت الاحتلال، وحكومة إسرائيل المحتلة لأراضى فلسطين.

وقد نجحت سياسة المقاومة فى سحب القائم بأعمال البحرين بعد أن تمت محاولة الاغتيال، وانتقال سفير باكستان إلى عمان، وتقليل عدد أعضاء البعثة الدبلوماسية المصرية فى العراق. وقد

نجحت المقاومة من قبل بعد تفجير قطارات مدريد فى إسقاط الحكومة اليمينية الأسبانية المتحالفة مع الولايات المتحدة وانتخاب الشعب الأسبانى حكومة اشتراكية سحبت القوات الأسبانية من العراق. كما نجحت تفجيرات قطارات لندن بإعلان رئيس الوزراء البريطانى بنية بريطانيا سحب قواها فى ظرف عام. بل جاءت التقارير أيضا لخوف أمريكا أن يصيبها ما أصابها من قبل أن أمريكا ستسحب معظم قواتها فى ظرف عام حتى لا تظل وحيدة تغرق فى مستنقع العراق. وتهيج ذكريات فيتنام وانتصار شعب من شعوب العالم الثالث على أكبر قوة فى العالم. فالتاريخ يعيد نفسه. وأمريكا لا تتعلم من التاريخ لأنها لا تاريخ لها.

إن مؤازرة العرب للمقاومة فى العراق وفلسطين بل وفى أفغانستان والشيشان يوما بعد يوم، وتحمل مناظر الدماء التى تسيل من أجل استقلال العراق، سواء من قوات الاحتلال أو من الشرطة المتعاونة معها يحاصر سياسة العرب الخارجية تجاه العراق خوفا من أن تنتقل إليهم المقاومة بعد استقلال العراق، كما انتقلت إليهم بعد طرد القوات السوفيتية من أفغانستان وعودة العرب الأفغان إلى أوطانهم. ويفخر العرب بدور سوريا ولبنان وإيران فى حرب تحرير العراق.

إن تيار العداوة إلى الولايات المتحدة وإسرائيل يشتد يوما بعد يوم فى الوطن العربى والعالم الإسلامى بل فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل وداخل الولايات المتحدة ذاتها. وانتخاب رئيس جمهورية إيران دليل على ذلك. فالناس سئمت استجداء الكرامة والتذلل للقَوى ليرحمها. فلا يفل الحديد إلا الحديد. ولا يقاوم المحافظة الجديدة فى الولايات المتحدة إلا المحافظة القديمة فى العالم الإسلامى، حماية لإيران وسوريا ولبنان.

إن شهادة سفير مصر هى نتيجة لسياساتها. ولا يعوض عن ذلك تعزية عامة أو خاصة، مرة أو مرتين، ورعاية أسرة الشهيد. فلا شىء يعوض الرجال إلا الاتعاظ بهم وحمايتهم من رعونة الحكام.

قد يكون الأمر معادا، ولكن الذكرى تنفع المؤمنين.

٢- من الذى فجر شرم الشيخ؟(*)

عادة ما تبحث أجهزة الأمن والإعلام عن الفاعلين لحوادث العنف، والحكم قد صدر من قبل بأنهم مجرمون ضالون مخربون. ينتمون لمنظمات إرهابية عالمية كالقاعدة، قادمون من أفغانستان أو باكستان أو من ممثليها فى بعض العواصم الأوروبية. وقد انتشرت قوات الأمن فى كل مكان أكثر مما كانت. ودخلت فى معارك مسلحة مع الهاربين فى كهوف الجبال ومغاراتها فى سيناء.

ويُقال أيضا أن ما يحدث من حوادث عنف إنما هى سلسلة من الإرهاب العالمى لا فرق بين تفجيرات قطارات مدريد أو لندن أو واشنطون ونيويورك قبلها أو شرم الشيخ بعدها. فهى حلقات من مسلسل واحد هو الإرهاب. وحله فى إقامة مؤتمر دولى للإرهاب لتعريفه واقتراح الوسائل للقضاء عليه بالرغم من تنوع الأسباب والمصادر. سيطرة أمريكا على العالم وإيثارها القوة على العدل وظلم المسلمين وراء حوادث واشنطن ونيويورك، واشتراك أسبانيا وبريطانيا فى قوات العدوان الأمريكى على العراق وراء حوادث قطارات مدريد ولندن، وسياسات النظام فى مصر وراء تفجيرات شرم الشيخ. فالعلة الفاعلة ليست فقط الأداة، هذه المجموعة أو تلك من جماعات المعارضة السرية ولا حتى العلة الغائية أى السبب الذى من أجله وقعت حوادث العنف. بل السبب هو صورة الجلاد فى ذهن الضحية، صورة الظالم فى ذهن المظلوم. فالحرب هى أيضا بين الصور الذهنية المتبادلة بين الطرفين المتحاربين. لذلك كان الإعلام وتشويه الصور المتبادلة عند الفريقين المتصارعين أحد أسلحة

(*) الاتحاد: ٢٧ أغسطس ٢٠٠٥، الدستور: ٢٧ أغسطس ٢٠٠٥.

القتال. وهو ما يسمى "التوجيه المعنوى".

ولا تنفع الحجج الخطابية والنداءات الإنسانية لمواجهة ظواهر العنف مثل النيل من أرزاق الناس. فمعظم ضحايا العنف من بسطاء العمال الذين تغربوا وتركوا مدنهم وقراهم من أجل لقمة العيش. والكرامة قبل الأرزاق، والكل قبل الأجزاء. صحيح أن قتل الأبرياء من نساء وأطفال وشيوخ لا يجوز شرعا. وفى رأى آخر المتعاونون مع نظم القهر والطغيان يستحقون ما يستحقون مثل المتعاونين من الشرطة والجيش فى العراق مع قوات الاحتلال. ويُستنكر تدمير الدخل القومى، والسياحة فى مقدمتها، وشرم الشيخ درة السياحة المصرية والإضرار بمصالح البلاد القومية. وتريد جماعات العنف إثبات أن القوة الحقيقية هى قوة جماعات العنف المطاردة من أجهزة الأمن.

ونظرا لمعرفة النظام السياسى أن وسائله الأمنية عاجزة عن مقاومة ظواهر العنف المسلح والقضاء على أسبابه فإنه لجأ إلى تنظيم تظاهرات شعبية من أهالى شرم الشيخ مع بعض السياح أمام أجهزة الإعلام لبيان اشتراك الشعب مع الشرطة، والناس مع الدولة لحصار جماعات العنف وبيان أنها دوائر منعزلة عن الشعب، وأن الشعب مثل الشرطة والجيش ضدها. بل تمت الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربى طارئ لمواجهة ظاهرة الإرهاب . والعنف عام فى السودان والسعودية واليمن والجزائر. ولم تدع هذه الدول إلى عقد مؤتمر قمة عربى طارئ. ولأجل إضفاء مزيد من الحجج يضاف إلى جدول الأعمال فلسطين والعراق من أجل الموافقة على بيان ختامى أعد سلفا قبل عقد المؤتمر يكرر ما تم إصداره عشرات المرات من قبل. ولولا ظروف أخرى طارئة لانعقدت القمة الطارئة ولا جديد فيها ولا حاجة إليها منذ القمة العادية فى مارس الماضى حتى القمة العربية فى مارس المقبل. والهدف عودة شرم الشيخ إلى الصدارة فى أجهزة الإعلام العربية والعالمية حتى تنشط السياحة من جديد، وتخف الأضرار على هذا الموسم السياحى بعد إلغاء بعض الحجوزات للأفواج السياحية

الغربية.

والحقيقة أن التعامل الأمنى الإعلامى مع ظواهر العنف يعيبه قصر النظر، ورفض البحث عن الأسباب الفعلية لها أى الدوافع التى تدفع جماعات الغضب للانفجار بين الحين والآخر. فتتصدر الإعلام وهى محرومة منه. وتواجدها فيه لأنها جماعات وجودها نفسه محظور. فلا يوجد نظام أمنى لا يمكن اختراقه. ولا يوجد إعلام حكومى إلا وله إعلام مضاد، ومنه العنف كوسيلة إعلامية للظهور على الصفحات الأولى من جماعات محظورة فى الوجود والتعبير والإعلان.

والحقيقة أن الدافع الأول على ظواهر العنف هى صورة النظام السياسى فى ذهن خصومه السياسيين فى الداخل والخارج، فى العلن أو فى السر، فوق الأرض أو تحتها، الشرعى منها وغير الشرعى. وهى الصورة التى تدفع إلى الاحترام أو الغضب، إلى القبول أو الرفض، إلى المسالمة أو إلى الحرب. فإذا كان النظام السياسى مجرحا يكون عرضه للعنف السياسى. إذا ما قهر جماعات المعارضة فى الداخل اضطرها إما إلى النزول تحت الأرض فى الداخل أو الهروب إلى الخارج حيث يتمتع كل مواطن أو جماعة بحرية التعبير وشرعية الوجود. وتحت الأرض تقوى شبكة التنظيم السرى فى خلايا نائمة تنشط على غير توقع فى السيدة عائشة أو الأزهر أو ميدان الفريق عبد المنعم رياض. وفى الخارج تقوى شبكات التنظيم العالمية لجماعات العنف السياسى لسهولة وسائل الاتصال الحديثة.

ويكون النظام السياسى مجرحا معرضا للعنف السياسى إذا كان قد مارس القهر فى الداخل والتبعية للخارج. إذ تطول مدة الحكم، وتتجدد فترة الرئاسة إلى ما لا نهاية، وتبدأ محاولات التوريث، وتتحكم "شلة" واحدة باسم النظام الحاكم فى مقدرات البلاد. تجمع بين السلطة والثروة. ويعم الفساد فى غياب أجهزة الرقابة الإدارية، وأمام ضعف قوى المعارضة. ويضاف إلى القهر فى الداخل التبعية للخارج لأمريكا وإسرائيل، بالصمت على العدوان على

العراق، بل والدخول فى قوات التحالف ضده بدعوى تحرير الكويت عام ١٩٩١، وتأييد الحكومات التى تكونت تحت الاحتلال، والاعتراف بها، والدعوة إليها. كما يتم قبول مشاريعها مثل الشرق الأوسط الكبير أو المتوسطية أو العولمة التى تقودها بدعوة السلام والتنمية والنشاط الاقتصادى العالمى الواحد، الاقتصاد المفتوح القائم على المنافسة وقوانين السوق.

ويكون مجرما مرة ثانية بالاعتراف بالعدو الصهيونى وعقد معاهدات السلام معه، وفلسطين مازالت محتلة، والمقاومة الفلسطينية تذبح كل يوم منذ الانتفاضة الأولى حتى الانتفاضة الثانية. وقد دخلت مصر أربعة حروب من أجل فلسطين. وقامت ثورتها فى ١٩٥٢ من أجل فلسطين. وفلسطين هى المدخل الشرقى لمصر، وأمنها جزء من أمن مصر القومى فى الشام فى الشمال مثل أمنها فى السودان فى الجنوب.

ومن ثم تحقق جماعات العنف السياسى هدفين. الأول إثبات ضعف النظام وعجزه عن الدفاع عن أمن المواطنين فى الداخل، وأن جماعات العنف هى التى تتحكم فى الشارع بقدرتها على تجنيد أفراد الجماعات وأعضاء الخلايا. وفى نفس الوقت تضعف النظام اقتصاديا بضربه فى مقتل وهى السياحة أو الشركات الأجنبية.

السبب غير المنظور للعنف إذن هى صورة النظام السياسى فى ذهن جماعات الغضب، وعدم احترام الدولة لنفسها أمام مواطنيها لما يرونه من مظاهر القهر والفساد فى الداخل والتبعية والموالاة فى الخارج. جعلت الدولة نفسها معرضة للعنف ضدها لأنها جرحت نفسها بنفسها، وعرّت صدرها للمعارضة الشرعية فى الداخل بالكشف عن مظاهر التسلط والقهر والفساد أو المعارضة السرية فى الداخل والخارج التى مهمتها إطلاق الرصاص على من جعل صدره عاريا ونفسه مجرّحا. ولماذا لا يتم العنف فى ماليزيا ويتم فى أندونيسيا والفلبين وكشمير وسيريلانكا؟ لقد استطاعت ماليزيا أن تعطى نموذجا للحكم

الرشيد، بناء الدولة اقتصاديا مع استقلال الإرادة الوطنية حتى أصبحت ثانى أكبر معدل للتنمية فى العالم بعد الصين. وترك رئيس وزرائها الحكم وهو فى قمة السلطة والثروة للبلاد كى يعطى المثل على تداول السلطة. فى حين تعثر النظام السياسى فى أندونيسيا والفلبين وسيريلانكا لغياب الحوار الوطنى الداخلى بين الفرقاء والجماعات السياسية المتعددة.

إن التيار الإسلامى من أقوى فرق المعارضة فى الوطن العربى والعالم الإسلامى فى الداخل والخارج. وهو قادر على تجنيد الجماهير وحشد المظاهرات بالآلاف بل وبالملايين والنزول إلى الشارع والوقوف فى وجه الطغاة فى الداخل والعتاة فى الخارج ضد العدوان على حقوق الشعوب فى حكم نفسها بنفسها وضد العدوان عليها من قوى الهيمنة الخارجية كما حدث فى العراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. وتستند إلى رصيد ضخم وبُعد تاريخى طويل فى تراث المعارضة وضرورة الخروج على الحاكم الظالم بعد استنفاذ الوسائل السلمية مثل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واللجوء إلى القضاء. وتكشف كثير من أقوال جماعات العنف عن هذا التراث السلفى القديم الشيعى والسنى على حد سواء مثل "قرب الأشرار وأبعد الأخيار" فى حيثيات اغتيال رئيس الجمهورية الثانية فى مصر، "دولة الطاغوت التى والت النصارى واليهود" فى حيثيات تفجير شرم الشيخ، "دولة الكفر" لتبرير تفجير قطارات مدريد ولندن. وهو تراث شائع فى المعاهد والجامعات الدينية وعلى المنابر منذ غزوات الصليبيين والتتار والمغول والاستعمار الحديث، والهجمة الاستعمارية الحالية تسترجعه ذاكرة التاريخ. ولا ينفع فى الإيقاف من أثره طرد الطلاب الأجانب من المدارس الدينية فى باكستان أو اختيار تراث آخر يعبر عن السلم والتسامح والأخوة لأن ظروف الأمة وأوضاعها الحالية تجد فى تراث الخروج على الحاكم الظالم أفضل تعبير عنها.

إن العنف السياسى ظاهرة معقدة تحتاج إلى البحث فى جذورها بصراحة وصدق بعيدا عن الإعلام الرسمى والنظام السياسى الأمنى. فدماء الأبرياء أمانة فى عنق فقهاء الأمة وليس فقط فقهاء السلطان.

٣- بم تنشغل مصر هذه الأيام؟

من مآسى الزمن وحسرة الشعوب، ومن علامات الانهيار فى النظام السياسى، ومن العلامات الفارقة فى المسار التاريخى، أن تنشغل مصر، هذه الدولة المركزية فى محيطها الإقليمى وموازين القوى الدولية، بما هو أقل من قامتها وما يدور فى هامشها بعد أن ابتعدت هى عن القيام بدورها المركزى، وهمّشت نفسها فلم يعد لها إلا الموضوعات الهامشية لتشغل نفسها بها، وتصبح بؤرة حياتها السياسية.

انشغلت مصر أخيرا بالأحداث الطائفية فى الإسكندرية. كما انشغلت قبلها بالأقباط المتحولين من المسيحية إلى الإسلام بسبب الاقتناع أو بسبب الحب، حب قبطية لمسلم أو لطلاق الأقباط أو حرمان الكنيسة لبعض الكهنة لاتهامهم بسوء الخلق وتصوير ذلك فى الإعلام بحيث تضاعف سعر الجريدة عشرات المرات. ولا تدرك مصر ما يُخطط لها من نزاعات طائفية كما يحدث فى لبنان والعراق والخليج ضمن مخطط التفتيت المستمر للوطن العربى منذ انتهاء الخلافة التى كانت توحد المسلمين ولحساب القومية العربية عام ١٩٢٦، ثم انتهاء القومية العربية التى كانت توحد العرب لحساب الدولة القطرية بعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، ثم انتهاء الدولة القطرية بعد غزو العراق الأول عام ١٩٩١ بدعوى تحرير الكويت، واحتلاله الثانى عام ٢٠٠٣ بدعوى القضاء على أسلحة الدمار الشامل، وتدويل قضية الوحدة الوطنية فى السودان والصراع بين الشمال والجنوب، والشمال والغرب فى دارفور وإدخاله فى أتون النزعات العرقية والطائفية. فتقسيم مصر أيضا فى الطريق.

(*) الاتحاد: ٢٧ مايو ٢٠٠٦، الدستور: مايو ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٤ يونيو ٢٠٠٦.

وتنشغل مصر الآن بالبهائية وحكم قاضى الإسكندرية بأنها دين مستقل يكتب فى البطاقة الشخصية مع الإسلام والمسيحية واليهودية. وهى نحلة صوفية إشراقية تدعى أن مؤسسها بهاء الله أتاه الوحى من السماء بالإخاء بين البشر، ونهاية العداوة بين الأديان. فالدين واحد وهو دين الروح والمحبة. فلا صراع بين الأقوام والطوائف والشعوب. معبدها الرئيسى فى حيفا. وهناك ضغوط دولية للاعتراف بها كدين، احتراما لحقوق الإنسان. وبالرغم من نقد سوء تأويلها للدين عامة وللإسلام خاصة من مجموع علماء الأمة مثل القديانية إلا أنها تعود من جديد إلى الواجهة فيما يخطط للوطن العربى من فسيفساء لدويلات عرقية وطائفية وشغلها بالنحل والملل حتى تبتعد عن الأوطان وما يحيط بها من أخطار فى الداخل، الفساد والتسلط، وفى الخارج، التبعية والهيمنة.

وتعود مصر للانشغال بالتحليل والتحريم، هل الفن حرام؟ فمازالت قضية التحريم هى السائدة. بل ويحرمه بعض أساتذة الفنون المنشغلون به لضرورات المهنة. فالنص له الأولوية على الواقع، والماضى يسبق الحاضر، وإيمان العوام يجب فن الخواص. بل وينشغل مفتى الديار المصرية، وهو أرفع منصب فى الاجتهاد للتحديث والتجديد فيما تعم به البلوى ويفيد الناس بتحريم التماثيل كما فعلت الطالبان فى أفغانستان عندما أطلقت المدافع على تماثيل بوذا فى بوبيان. وهو الموقف الرسمى للمؤسسات الدينية المحافظة. والأعمال بالنيات. كان التحريم قديما لشبهة وثنية فقد كان الإسلام قريب العهد بها. أما اليوم فقد انتفت الشبهة. ولم يعد أحد يعبد الآن تمثال سعد زغلول أمام كوبرى قصر النيل أو تمثال طلعت حرب فى الميدان باسمه، أو تمثال إبراهيم باشا فى ميدان الأوبرا، أو تمثال مصطفى كامل فى الميدان الذى يحمل اسمه، فإذا انتفت الشبهة انتفى الحكم.

كما تنشغل بالعنف فى سيناء وبجماعة التوحيد والجهاد، والبحث عن التنظيمات الجهادية السرية التى تضرب الدولة الفاسدة فى العمق فى مسلسل متواصل، طابا، شرم

الشيخ، دهب فى سيناء، ميدان عبد المنعم رياض، السيدة عائشة، الأزهر بالقاهرة.

وتنشغل مصر أيضا بالتبشير وسماح الأزهر فى وثيقة للمبشرين بمزاولة نشاطهم فى مصر تحت الضغوط الدولية وحرية الأديان. والديانات كلها محبة وسلام. والتبشير يبطن غير ما يظهر. فقد كان التبشير دائما مقدمة للاستعمار والتغريب، ونزع المواطنين من ثقافاتهم الوطنية، وزرعهم فى ثقافة أخرى، يدينون لها بالولاء مع إغراءات المنح الدراسية، والعمل، والسفر إلى الخارج. فهو جزء من التدخل الخارجى فى الأوطان.

وتنشغل مصر بنجوم الفن، والمغنيات الشابات، المصريات والعربيات، وبأنواع الفيديو كليب، والرقص العارى مع الأغنية، وهو الهدف الرئيسى منها، وليس الكلمات، أشعار شوقى وحافظ وجبران، ولا ألحان عبد الوهاب والرحبانية. ومع نجوم الفن يأتى نجوم الكرة، وأبطال الدورى، والمنافسة بين الأندية لتفريغ الطاقة بدلا من المنافسة الحزبية والمعارضة السياسية. ومعهم يأتى مشايخ الفضاء بلباسهم الأبيض المهيب، ولحاهم السوداء الطويلة، وقسمات وجوههم الجادة، يعدون بالجنة، وينذرون بالنار.

تنشغل مصر هذه الأيام بقضية التوريث بعد التجديد، وأى فرعون سيتولى حكم مصر، وأى خليفة سيكون للمسلمين. ويتقلص الوطن فى الحكم. ويدافع الفرعون عن الوراثة (**ونادى فرعون فى قومه. قال يا قوم: أليس لى ملك مصر اليوم، وهذه الأنهار تجرى من تحتى، أفلا تبصرون**). ويستخف برموز المعارضة (**أم أنا خير من هذا الذى هو مهين، ولا يكاد يبين**). ويستخف بجماهيرها (**فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين**). وتنسى قضية الوطن العربى، المستباح دماؤه فى فلسطين والعراق، والمهدد فى الشام فى سوريا ولبنان، وفى السودان، فى الشمال والجنوب، الأمن القومى لمصر.

وتنشغل مصر بالصراعات الحزبية لوراثة الحكم والنظام المنهار. وينشغل الإعلام الرسمى والحزبى بالهجوم على الإخوان وأدائهم فى مجلس الشعب بين صفقاتهم مع النظام

ومشاركتهم فى الحركة الوطنية مع أحزاب المعارضة. وكما تحول الوطن فى العراق إلى برنامج النفط فى مقابل الغذاء، وفى فلسطين إلى المرتب فى مقابل الوطن، فإنه تحول فى مصر إلى كرسى العرش، وقصر عابدين فى مقابل الوطن. وضحت مصر ببغداد لأنها منافس لمصر فى زعامة الوطن العربى بعد اختفاء زعيمه الأول الذى قاد حركة التحرر العربى، ودافع عن القومية العربية والوحدة العربية لحماية الأقطار العربية من التجزئة والتفتيت. وتركت الدماء تسيل فى فلسطين على مدى عشر سنوات منذ الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧، وهى التى دخلت أربعة حروب من أجلها. وتركت الخليج محاصرا، بالرغم من إعلان دمشق، بين الحضور الإيرانى فى الشرق، والخطر الإسرائيلى من الشمال الغربى، والوجود الأمريكى من أقصى الغرب.

كانت مصر عبر تاريخها الطويل دولة الفتح والدفاع عن محيطها الإقليمى فى الشام وفى السودان. توحد وادى النيل، والمغرب العربى، والشام. وتدافع عن استقلالها ضد الهكسوس والفرس والرومان والصليبيين والتتار والمغول والاستعمار الغربى الحديث. ثم نست تاريخها، وتحالفت مع الغرب، وتبعت الولايات المتحدة الأمريكية، واعترفت بإسرائيل، وصالحتها، وعقدت معها المعاهدات، والأراضى العربية مازالت محتلة. والخطر الإسرائيلى بالتوسع والتهديد النووى مازال قائما. وترفض انسحاب قوات الاحتلال من العراق حتى لا يتفتت. وتتحرج من مقابلة وزير الخارجية الفلسطينى للضغط على الحكومة الفلسطينية للاعتراف بإسرائيل دون أن تأخذ شيئا فى المقابل، الانسحاب إلى حدود الرابع من يونيو- حزيران ١٩٦٧، وحق عودة اللاجئين، وفك المستوطنات، وتوزيع المياه.

نست مصر أنها كانت مصدر النهضة العربية الحديثة فى مصر وبر الشام، وأنها الممر للمغرب العربى من الشرق إلى الغرب فتحا، ومن الغرب إلى الشرق حجا، وأنها أول من قام بالتجارب الوحدوية الحديثة منذ محمد على حتى عبد الناصر. ولم تعد تتذكر أن "جندها خير

أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة".

انشغلت مصر بهموم الخبز فى الداخل ونسيت الحرية، وهما لا يفترقان (**فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**). وكيف يتوفر الخبز فى الداخل وقد هربت المطاحن إلى الخارج. وكيف تتذكر الحرية حين أصبح همها الأول كرسى العرش؟

غاب خيالها السياسى وتحولت إلى سلطنة أو إمارة. لم تعد قادرة على الدخول فى المعارك الكبرى فى التحرر والتنمية والوحدة والنهضة والريادة والمقاومة والتأميم والتصنيع والتخطيط ومضاعفة الدخل القومى كل عشر سنوات، وأن تكون مثل الصين وماليزيا.

ما تنشغل به مصر هذه الأيام هو مقتلها لأنه يقضى على روحها، ويحاصرها فى حدودها، ويؤدى إلى انغلاقها على ذاتها، وسكونها وركودها. فتتآكل من الداخل، وتنشغل بهوامشها وأطرافها وليس بقلبها ووعيها. وإذا كان جيفارا يعود من جديد إلى أمريكا اللاتينية، فمتى يعود صلاح الدين، والظاهر بيبرس، ومحمد على، وعبد الناصر من جديد إلى مصر؟

٤- العقل أم القدم؟

مرت بمصر أحداث جسام هذا الشهر، غطى بعضها على البعض الآخر. وتداخلت الأمور، تشابكت وتعقدت مثل أحوال الصوفية. فلم يعد أحد يدرى هل هو فى حالة خوف أم رجاء، هيبة أم أنس، حزن أم فرح، قبض أم بسط، غيبة أم حضور. المضحكات والمبكيات شىء واحد.

كان الحدث الأكبر هو الدورة الأفريقية لكرة القدم والذى غطى على معرض القاهرة الدولى للكتاب، الثانى فى الأهمية بعد معرض فرانكفورت. وامتلأت الصحف بأخبار الدورة أكثر من أخبار المعرض وكان الاستعداد والدعاية لها أفضل من الاستعداد للمعرض. بلغ عدد زوار الاستاد الرياضى خمسة وسبعون ألفا فى كل مباراة، وبيعت تذاكرها فى السوق السوداء من الكبار والصغار. وبلغت حصيلة كل مباراة ما يقرب من الثلاثة ملايين جنيها مصريا. ولم يتجاوز زوار معرض الكتاب عدة آلاف كل يوم بعد أن زادت تذكرة الدخول أربع مرات. وكان فى الماضى يفتح أبوابه مجانا للجميع. فالقراءة للجميع. وأغلق المعرض أبوابه مبكرا مساء حتى يشاهد الجمهور المباراة. ويوم الجمعة تغلق أبواب المعرض فى منتصف النهار بعد الصلاة استعدادا ليوم الحسم فى الكرة. وتفتح فى الصباح والناس تستيقظ متأخرا وتذهب إلى الصلاة مباشرة. فبدأت استعدادات الناشرين للرحيل من اليوم السابق يوم الخميس.

وافتتح الرئيس الدورة الأفريقية كما حضر الحفل الختامى لتوزيع الجوائز. وحملت

(*) الاتحاد: ١٨ فبراير ٢٠٠٦.

السيدة حرمه علم مصر تلوح به للفريق المصرى الفائز. وحمل نجله علم شركة كورية للدعاية. وحضر بينهما التدريبات الرياضية للفريق المصرى للتشجيع. وافتتح معرض الكتاب أيضا، مارا على دور النشر دون حوار مع المثقفين هذه الدورة حتى لا يفتح على نفسه الباب أو يأتيه صداع فى الرأس من الأسئلة التى تثار كل عام حول الديموقراطية، وتزوير الانتخابات، والبلطجة، وتدخل أجهزة الأمن، وإهانة القضاء، والتوريث، والأحكام العرفية، والدستور والفساد، وحكومة رجال الأعمال، وبيع مصر.

وبقدر نجاح الدورة الأفريقية لكرة القدم من حيث التنظيم ومتابعة الجمهور بقدر ما فشل معرض الكتاب الدولى. فقد بدأ بخلاف بين الناشرين المصريين ورئيس الهيئة حول إقامة إدارة المعرض حوائط عازلة أمام عرض الكتب تمنع الجمهور من الرؤية. وهددوا بالمغادرة. وتضامن معهم الناشرون العرب.

وتقلصت الأنشطة الثقافية إلى الحد الأدنى تحت شعار "لا سياسة فى المعرض، ولا معرض فى السياسة" مع أن الثقافة سياسة، والسياسة ثقافة فيما يعرف بالثقافة السياسية. وهو نفس شعار "لا سياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة" مع أن السياسة تستعمل الدين لتحريك الجماهير فى "لاهوت التحرير" كما فعلت الحركات الإصلاحية، الأفغانى والكواكبى وعلال الفاسى والبشير الإبراهيمى وعبد الحميد بن باديس. كما يستعمل الدين السياسة لتحقيق مثله العليا عن طريق الممارسة السياسية. وهو نفس شعار "لا سياسة فى الجامعة، ولا جامعة فى السياسة". فماتت الجامعة ولم تعد قادرة على تخريج علماء متخصصين ولا مواطنين صالحين. وفرق بين معرض القاهرة الدولى للكتاب بإدارة أستاذ جامعى يعرف قيمة الثقافة والحوار الثقافى بين كل اتجاهات الفكر والعمل فى الحياة الوطنية مع استقلال نسبى عن الدولة، وبين إدارته بلواء فى الشرطة أو الجيش أو باستئجار هيئة لتنظيم المعرض بناء على علاقات الأصهار والصداقات والمصالح المتبادلة.

وحضر الرئيس الدورة الأفريقية لكرة القدم فى القاهرة، وغاب عن مؤتمر الاتحاد الأفريقى فى الخرطوم. ومصر هى البلد المؤسس لمنظمة الوحدة الأفريقية إبان حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا، ولم تكن هناك إلا ثلاث دول أفريقية مستقلة. وكانت معظم حركات النضال الوطنى الأفريقى لها مكاتبها فى القاهرة. وسارت الشائعات حول سبب غياب مصر عن أفريقيا، وفى الخرطوم عاصمة وادى النيل، وفى وقت السودان فى خطر، ومهدد بالعدوان بحجة دارفور كما حدث فى العراق، وتقسيم القطر الشقيق بين غربه وشرقه، بين شماله وجنوبه. هل صحة الرئيس هى السبب وقد جاوز السبعين، وشبهات الأمراض العضال تتناولها الألسنة؟ هل الورقة الليبية التى تدعو إلى اعتبار المغرب العربى جزءا من أفريقيا وليس من الوطن العربى كى تحمل همومه فى فلسطين والعراق؟ وهى الدعوة الفرنسية الاستعمارية القديمة لقسمة الوطن العربى إلى مشرق ومغرب، مشرق صوفى إشراقى دينى، ومغرب عقلانى علمى مدنى. المشرق أقرب إلى فارس والهند، والمغرب أقرب إلى فرنسا. وهى الدعوة التى روج لها أيضا طه حسين فى "مستقبل الثقافة فى مصر". هل لم ترد مصر إحراج نفسها بتبنى سياسة خارجية معادية لتدخل القوى الأجنبية فى السودان منذ استبعادها عن مؤتمر المصالحة الوطنية بين شمال السودان وجنوبه ومشكلة دارفور فى طريقها إلى التدويل وتدخل الأمم المتحدة؟ هل مازال الرئيس متشائما من الخرطوم منذ حادثة الاعتداء عليه؟ هل قررت مصر منذ مدة الاحتجاب، تعكف على شأنها، ولا تبدد مواردها فى حروب إقليمية على حدودها؟ وقد تحول الاستنزاف الخارجى إلى استنزاف داخلى بنهب ثروتها ببيع القطاع العام، وتهريب الأموال، والإسراف فى مظاهر الترف، والثراء الفاحش للقلة على حساب الأغلبية.

وعمت الأفراح بعد نيل مصر كأس أفريقيا للمرة الخامسة. ونزلت الآلاف إلى الشوارع، ترقص وتغنى وتصيح. وترفع الأعلام الملونة، وتدهن الوجوه، وتلبس القبعات حتى

الصباح. وغطت الأفراح على أحزان ألف شهيد، غرقى العبارة. وبدلا من أن يُعلن الحداد الوطنى ثلاثة أيام وتنكس الأعلام أسوة بما يحدث حين موت زعيم عربى، عمت الأفراح وآلاف المصريين لا يعرفون أين جثث ذويهم، فى بطون أسماك القرش أم داخل العبارة فى أعماق البحر.

وتحول السخط العام على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد والذى يخشى منه من اندلاع انتفاضة ثالثة أسوة بالانتفاضة الأولى فى يناير ١٩٧٧ والثانية، انتفاضة الأمن المركزى فى ١٩٨٦، تحول إلى فرح عارم ووهم بالانتصار بترجيح ضربات الجزاء. وتجمعت القوى الشعبية بعشرات الألوف وكأنها تناصر المقاومة الفلسطينية أو العراقية أو الشيشانية. وهى نفس الجماهير التى لم تشأ أن تشارك فى الانتخابات التشريعية الماضية بأكثر من ٢٣٪. نزلت عن بكرة أبيها الآن تسد الشوارع، وتعوق المرور. فكُرة القدم أهم من المؤسسات التشريعية، والمباريات الرياضية أهم من المناقشة الحزبية بين المعارضة والحزب الحاكم، وكأن صفر المونديال وجد تعويضا له فى كسب الكأس بركلات الترجيح.

وكافأ الرئيس المنتخب القومى المصرى بثلاثة ملايين جنيها مصريا وربع سكان مصر يعيشون تحت خط الفقر، والملايين من عمال مصر وفلاحيها يصارعون من أجل البقاء، ونساء مصر اللائى يعملن من أجل إعالة أسرهن. وأساتذة الجامعات الذين بلغوا السبعين خفضت مرتباتهم إلى مائتى جنيها والباقى تعويضا لهم من صندوق الصدقات والنذور والخدمات الاجتماعية. لا حق لهم فى حضور مجالس الأقسام ولا مجالس الكليات ولا مجالس الجامعات بعد هذه الخبرة الجامعية الطويلة على مدى نصف قرن. بل لا يحق لهم التدريس أو الإشراف على الرسائل منفردين إلا بالاشتراك مع أستاذ عامل قد يكون أحد طلابه. ولماذا يخرج الضباط على الاستيداع وهم فى سن الأربعين ويأخذون مكافأة مالية كبيرة ليعملون بالقطاع الخاص فى قطاع الأعمال ويبقى الأساتذة هذا العمر الطويل فى

الجامعات دون إفساح المجال للأجيال الشابة الجديدة؟ ولماذا لا يكون النموذج العسكرى هو النموذج الأكاديمى؟ وقد ظل رسل، وجادمر فى جامعاتهم حتى المائة أقل أو أكثر. وقد صدر القانون بعد أن دخل مجلس الشعب فى جلسته الأخيرة. ولم يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة. وصدر به قرار جمهورى! وهم الأساتذة الذين تربى على أيديهم أبطال الكرة المصرية وضباط الجيش والرئيس وحرمه وأنجاله. وكيف يهب الرئيس من خزانة الدولة هذه الملايين الثلاثة دون موافقة من وزارة المالية أو مجلس الشعب ودون إذن بالصرف من الخزانة العامة؟ وهل يتصرف الرؤساء فى أموال الشعوب كما كان يتصرف قدماء السلاطين بالهبات والعطايا والمنح على العلماء والشعراء والفلاسفة والأدباء والفقهاء فى بلاطه؟

ثم ننعى بعد ذلك على الشباب وضياع مُثلهم. فأى المثالين أفضل، كرة القدم أم تنوير العقول؟ وأيهما أنفع، تسجيل الأهداف فى الشباك أم تحقيق الأهداف الوطنية؟ أيهما أبقى فى تاريخ الأمم، ركلة قدم وضربة رأس أم تحقيق انتصار قومى فى التنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية بدلا من المساعدات الأجنبية والبون الشاسع بين الأغنياء والفقراء؟

٥- الطاقة النووية بين الجد والهزل

انشغل الرأى العام فى مصر أخيرا بحق مصر فى امتلاك الطاقة النووية للأغراض السلمية. وهو حق طبيعى لا ينازع فيه أحد من الدول الكبرى أو الصغرى. وتمارسه مصر فعليا منذ بداية الثورة وإقامة مفاعل أنشاص، واستعمال الطاقة النووية فى البحوث الطبية والزراعية، واستكشاف التربة. فالطاقة النووية ليست بالضرورة السلاح النووى الذى يتطلب بحوثا أكبر، وإمكانيات أعظم، وظروفا دولية مواتية، وحاجة فعلية للدفاع عن النفس.

ليست القضية قدرات مصر العلمية فهذه لا شك فيها. فقد كان لديها برنامجا توقف منذ أوائل الثمانينيات بعد كامب ديفيد فى ١٩٧٨، واتفاقية السلام فى ١٩٧٩. فلم تعد تشعر مصر بخطر عليها من السلاح النووى الإسرائيلى ومفاعل ديمونة على مقربة منها فى صحراء النقب، الامتداد الطبيعى لسيناء. وعلماء مصر ذو شهرة عالمية، سواء من بقى فى الداخل أو من هاجر إلى الخارج. ويكفى ذكر اسم يحيى المشد عالم الذرة المصرى الذى اغتالته إسرائيل فى غرفة نومه فى العراق، وهو يساعد فى إنشاء القدرة النووية العراقية فى المدينة العلمية التى أسسها العراق لاستقبال العلماء العرب. ليست القضية تقنية خالصة، فالتقنيات النووية معروفة فى مراكز الأبحاث المتخصصة تحت طلب من يريد. وهى ليست قضية موازين دولية بين الشرق والغرب، بين روسيا وأمريكا أو بين الشرق والشرق، الصين أو اليابان أو الهند أو باكستان أو بين الغرب والغرب، أمريكا أو أوروبا. فقد انتهى عصر الاستقطاب، والتعاون الدولى من أجل استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية متاح

(*) الاتحاد: ١٤ أكتوبر ٢٠٠٦، الدستور: ١٦ أكتوبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٥ أكتوبر ٢٠٠٦.

للجميع. والوكالة الدولية للطاقة النووية تقوم بالتنسيق بين الدول والتفتيش على مفاعلاتها لضمان عدم انتشار الأسلحة النووية، وتوقيع الدولة على عدم انتشارها التى وقعتها مصر ولم توقعها إسرائيل.

وليست القضية الاستعداد لإيجاد بدائل للطاقة نظرا لنفاذ البترول فى مصر الذى يقدر عمره الآن بعشرين عاما أكثر أو أقل. فهذه قضية عالمية. وأكبر مخزون للنفط مازال فى المنطقة العربية. والغاز الطبيعى مخزون لا ينفذ، وأبحاث الطاقة الشمسية على أشدها، وتستغل باقتدار فى اليابان. وليست القضية أيضا الحاجة إلى الطاقة النووية لتحلية مياه البحر. فالمياه العذبة متوافرة، والنيل يفيض عاما وراء عام. ومخزون المياه وراء بحيرة السد فيه أكثر من الحاجة. وما يضيع فى البخر فى أعالى النيل وفى البحر فى مصبه. هذه مشكلة الخليج والسعودية والمناطق الصحراوية الخالية من الأنهار والمياه الطبيعية، الجوفية أو الأرضية.

إنما أثيرت القضية أثناء الاجتماع السنوى للحزب الحاكم بعد أن طالت المناقشات دون التوصل إلى نتائج واضحة فيما يتعلق بالمطالب القومية الكبرى التى تحملها المعارضة وبعض الأجنحة الإصلاحية فى الحزب الحاكم. لم يتم التوصل إلى إصلاح الدستور، وتداول السلطة، والتعددية الحزبية، وشرعية الأحزاب المتواجدة فى الشارع السياسى، والقضاء على الفساد، والحريات العامة، وحقوق الإنسان، والعلاقات العربية، وإعادة دور مصر فى فلسطين والعراق ولبنان وسوريا والسودان. تُرك ملف مصر مفتوحا دون الوصول إلى شىء. أُثيرت قضية حق مصر فى امتلاك القدرة النووية والذى تملكه بالفعل من أجل تلميع الحزب الحاكم، وإثارة النعرة الوطنية، وخلق معركة وهمية لا ينازع فيها أحد. فالحزب فى حاجة إلى شرعية وطنية، وحضور جماهيرى لا يجده. والأمين العام للجنة السياسات هو الذى يثير القضية حتى يصبح فى مكان الصدارة، المدافع عن حقوق مصر الوطنية، وليس مجرد بؤرة

جذب لرجال الأعمال أو وريث شرعى للحكم أو يكتفى بتأييد الولايات المتحدة الأمريكية له.

ليست القضية إذن موضوعية، امتلاك مصر القدرة النووية، بل إثارتها فى هذا التوقيت بالذات للتغطية على الانتكاسات المتتالية فى السياسة المصرية على الصعيدين الداخلى والخارجى. فعلى الصعيد الداخلى، غلاء الأسعار، زيادة معدلات الفقر، كوارث القطارات والعبارات، سوء الخدمات الصحية والتعليمية، نهب ثروات مصر، التلاعب بالأسعار خاصة الحديد والأسمنت لمزيد من الاحتكار، بيع القطاع العام فى صفقات مشبوهة آخرها صفقة عمر أفندى، بيع البنوك الوطنية، الاتجاه إلى خصخصة شركات المياه والغاز والكهرباء أى تحويل مصر إلى سوق لرأس المال الداخلى والعالمى، والدخول محلية. وعلى الصعيد الخارجى ترك لبنان يُدمر وحيدا خوفا من تدمير مصر، وتركت سوريا شريك مصر فى الحرب والسلام محاصرا بين المطرقة والسندان، والعراق يذبح أبناؤه كل يوم، ومهدد بالتقسيم، والسودان تغزوه القوات الدولية لتقسيمه بدعوى حقوق الإنسان فى دارفور وكأنه لا وجود لحقوق الإنسان فى فلسطين والعراق، والسودان هو الأمن القومى لمصر. والأخطر من ذلك كله منافسة إيران فى قدراتها النووية، وإيقاع تناقض بين قدرات إيران الفعلية وقدرات مصر المستقبلية، تخويفا للخليج مع أن القدرة النووية الإيرانية الحاضرة ظهير للقدرة النووية العربية القادمة. والتناقض بين القدرتين الإيرانية والعربية من ناحية والسلاح النووى الإسرائيلى من ناحية أخرى. وقد بدأ ذلك بالفعل فى اجتماع رؤساء أجهزة المخابرات والأمن لبعض الدول العربية "المعتدلة" بتعبير وزيرة الخارجية الأمريكية ونظرائهم فى إسرائيل لعمل جبهة واحدة فى مقابل التطرف والإرهاب فى إيران وسوريا وحزب الله، مقابل لا شىء لاسترداد حقوق فلسطين أو لانسحاب قوات الاحتلال من العراق أو بعدم التدخل الخارجى فى شئون السودان.

وإذا كان الإعلان عن حق مصر فى امتلاك القدرة النووية جادا فلماذا تعارض

الولايات المتحدة امتلاك إيران وكوريا هذا الحق؟ ولماذا توافق على هذا الحق الفعلى لكل الدول الغربية والشرقية، مثل إسرائيل والهند؟ إن أول من أعلن موافقته على هذا الحق لمصر بعد إعلان الحزب الحاكم عنه هو سفير أمريكا فى مصر. فربما تمت موافقة أمريكا على هذا الإعلان من قبل حتى تظهر أمريكا عادلة فى مواقفها من الدول ضد إيران وكوريا ومع مصر وإسرائيل والهند وباكستان.

توقيت هذا الإعلان يدل على أن القضية مجرد علاقات عامة لملء الفراغ السياسى فى البلاد، تغطية على الانهيار الداخلى والتبعية الخارجية. والأمور الجادة لا تؤخذ بمثل هذه الخفة. ومن يريد امتلاك القدرة النووية يفعل ذلك سرا، ولا يتباهى به علنا. والكلام عن شىء يدل على عدم صنعه. فالكلام أحيانا يكون تعويضا عن العجز (**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**). لذلك وصف أحد المستشرقين العرب ولهذا السبب بأنهم ظاهرة صوتية.

إن الأمور الجادة التى بها يتحدد مصير الأوطان لا تؤخذ وسيلة للدعاية والإعلان وللتغطية على مواقف أخرى. فإسرائيل لا تتحدث عن قدرتها النووية ولا على سلاحها النووى، ولا عن عدد القنابل النووية التى لديها. ولم توقع على اتفاقية انتشار الأسلحة النووية بالرغم من صياح الغرب ومشاريعهم فى جعل منطقة الشرق الأوسط خالية من أسلحة الدمار الشامل، وبالرغم من اتهام العرب الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية بالمعيار المزدوج فى التعامل مع العرب وإسرائيل.

ثم خفت الضجة وطواها النسيان مثل كثير من الأمور والمثارة فى الوطن العربى. هى مجرد أهواء وانفعالات وليست وقائع وحقائق، مجرد زوبعة فى فنجان، (أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض).

٦- يا مصر، كم لك من حدود؟

تربى المواطن المصرى منذ نعومة أظافره فى الحضانات والمدارس حتى الإعلام الرسمى أن مصر تتميز بتجانس تاريخى وجغرافى وسكانى ودينى وثقافى وسياسى. حافظت على وحدتها عبر التاريخ، بالرغم مما طرأ عليها من نظم سياسية متعاقبة، دخيلة أو أصيلة، أجنبية أو وطنية. ولم تنقسم إلى شمال وجنوب إلا فى لحظة واحدة فى تاريخها القديم سرعان ما قام الملك مينا بتوحيدهما، ولبس التاج المزدوج رمزا لوحدة القطر. وكانت الوحدة الوطنية دائما أحد أهداف الحركات الوطنية منذ الملك مينا حتى ثورة ١٩١٩ برمزى الهلال والصليب، وحدة المسلمين والأقباط. الشعب متجانس بين الشمال والجنوب، بين بحرى وقبلى، بين الدلتا والصعيد. يربطهما وادى النيل والقطار وكما ظهر ذلك فى الأغانى الشعبية والأمثال العامية. لا فرق بين سكان الشمال البيض أصحاب العيون الخضراء أو الزرقاء والشعر الأشقر فى المنصورة وبين سكان الجنوب أصحاب البشرة السمراء والعيون السوداء والشعر الفاحم سكان وادى حلفا. وبالرغم من تفاوت الرزق بين المصريين والذى يزداد يوما وراء يوم منذ شكاوى القروى الفصيح فى مصر القديمة حتى الهبات الشعبية من أجل الخبز فى يناير ١٩٧٧ والأمن المركزى فى يناير ١٩٨٦ إلا أن أحدا من المصريين لم يمت جوعا أو عطشا. فمياه النيل متوافرة، الأرض الخضراء فيها قوت للجميع حتى قبل معونة القمح الأمريكية. سكانها بدو وحضر، وأرضها وادى وصحراء، وطقسها ممطر وجاف، وجوها بارد وحار. ومع ذلك حافظت مصر على وحدتها الجغرافية كما حافظت على وحدتها

(*) الاتحاد: ٧ يناير ٢٠٠٦، الدستور: يناير ٢٠٠٦.

السياسية. وبالرغم من طغيان حكامها حتى أن لفظ فرعون، حاكم مصر القديم، أصبح معادلا للطاغية سواء كان ذلك لدى الفراعنة القدماء أو الفراعنة الجدد إلا أن الحد الأدنى من التوافق ظل سائدا بين الحاكم والمحكوم بالرغم من الهبات الشعبية التى لم تنقطع فى الشمال والجنوب، ثورة ابن الهمام فى الصعيد، وثورة عرابى شرق الدلتا.

ويعرف العالم كله حدود مصر الدولية، فى المطارات عبر الجو، وفى المدن الحدودية، رفح والسلوم ووادى حلفا فى الأرض، وفى المدن البحرية، الإسكندرية وبورسعيد والسويس فى البحر. ويعانى المصريون أكثر من الأجانب، والعرب الفلسطينيون والعراقيون أكثر من المصريين، وأحيانا الباكستانيون أرض أسامة بن لادن أكثر من الكل من الانتظار "قليلا" حتى يتم اتخاذ الإجراءات الأمنية الضرورية بالرغم من حصول القادمين على تأشيرات دخول فى السفارات والقنصليات المصرية فى الخارج. فى حين يمر الأوروبيون والأمريكيون والإسرائيليون بمجرد أخذ طابع بخمسة عشر دولارا من شباك البنك داخل المطار ودون تفتيش أو بحث أو مراجعة للقوائم للمشبوهين والممنوعين من الوطنيين المصريين أو المواطنين العرب.

كل ذلك معروف. ويعرفه المصريون الذين يقفون بالساعات الطوال منذ الفجر. ويقفون فى طوابير الصباح للتقدم إلى نوافذ القنصليات أو السفارات الأجنبية للحصول على تأشيرات دخول، دون أماكن انتظار فى الغالب، وعلى قارعة الطريق، فى الطقس البارد أو الحار. والذهاب أكثر من مرة، مرة لتقديم الأوراق، والعودة بعد أسبوعين لمعرفة هل تمت الموافقة أم لا أو استكمال الأوراق، ومنها التأمين الصحى. ومن السفارات الكبرى يأخذون البصمات وصور حدقات العيون. وفى المطارات الأجنبية يقفون المصريون أيضا لإعادة النظر والتحقق من عدم تزوير تأشيرات الدخول، فالعربى مشبوه مشبوه. والمسلم خاصة ولو كان بجلباب أو طاقية أو ذقن من أنصار بن لادن وتنظيم القاعدة، إرهابى خطير، أتى

لتفجير القطارات أو الطائرات أو المبانى العامة.

إنما القضية هى فى الحدود الداخلية، داخل الوطن، فى الانتقال من الوادى إلى الصحراء، ومن الشرقية إلى سيناء، ومن شمال سيناء إلى جنوبها، وقبل الدخول إلى المدن الساحلية الشهيرة كالغردقة وشرم الشيخ. وسيناء هى المدخل الشرقى لمصر، والصحراء الغربية هى المدخل الغربى لمصر، ووادى حلفا هى المعبر الجنوبى لمصر. قبل كل مدينة فى سيناء يوجد "كمين" وعليه شرطة أو جيش أو مخابرات عامة لفحص الركاب وحقائبهم خاصة الشباب. وقد يستدعى الأمر إنزالهم جميعا من العربة فى البرد القارص أو الحرارة الملهبة حتى يطمئن الكمين أنه لا يوجد من بين المواطنين إرهابى. فى حين يدخل الإسرائيليون إلى طابا بلا تأشيرة طبقا لاتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام بل وإلى شرم الشيخ أيضا وباقى مدن سيناء تشجيعا للسياحة، والاستفادة من دخلها حتى ولو تم التفريط فى السيادة الوطنية.

لم يتغير الأمر منذ أيام الاحتلال البريطانى لمصر، عندما كانت حدود مصر الشرقية قناة السويس، ولا يعبر المواطن فى سيناء إلى الوادى بثروته الحيوانية إلا إذا دفع ضريبة مرور على كل ضأن وماعز وجمل وفرد لأنهم سيطعمون من خضرة الوادى. ولا يعبر المواطن ويسير على ضفاف القناة الغربية من جهة الوادى إلا إذا أخذ تصريحا من جيش الاحتلال أو الجيش الوطنى أو الشرطة العسكرية أو شركة قناة السويس. فهناك حدود داخل الحدود. والمواطن متهم ومشبوه، عدو للنظام منذ البداية طالما أنه قادم إلى التخوم، وخارج من قريته أو مدينته.

تآكلت الحدود الوطنية بفعل الحدود الأمنية. وقد يتغير ولاء البدو فى سيناء بعد طول الاحتلال من الوطن الغربى إلى الوطن الشمالى. فقد بنت قوات الاحتلال المساكن، وعبدت الطرق، وأدخلت الكهرباء والمياه، وتعاملت مع البدو كأنهم امتداد لبدو النقب. وأقامت

بعض الصناعات على بحيرة البردويل لتجفيف الأسماك، ومغسلة فى العريش لإيجاد فرص عمل للبطالة الزائدة لدى الشباب. واستخرجت المعادن، وأقامت المستعمرات مثلياميت، وكانت من مشاريع الأمن الوطنى زراعة سيناء وإقامة مزارع جماعية ومدن فى سيناء قادرة على استيعاب خمسة ملايين مواطن، يقفون فى مواجهة "الموشاف" والمزارع الجماعية فى النقب. وقد كان فراغ سيناء من السكان أحد أسباب احتلالها المستمر مهما حاولت الجيوش الدفاع عنها فى العراء. وفى التفجيرات الأخيرة فى طابا وشرم الشيخ تم استجواب الآلاف من سكان سيناء. فهم الأعداء الذين يهددون الأمن القومى داخل البلاد. هم الحدود التى يجب أن يُدافع عنها، حدود فى الداخل وليست فى الخارج، موانع فى القلوب وليست حواجز على الأرض.

ويمر "السوبر جيت" سريعا، القصر الطائر، لرجال الأعمال والشخصيات المهمة، بأسعار مرتفعة. يحمل الذين يبنون مصر، ويشيدون القرى السياحية، ويعمرون مصر، ويزيدون دخلها القومى. يأخذه "الناس اللى فوق" حيث المضيفات الحسناوات وأسعار المشروبات والمأكولات المرتفعة. كما يأخذ عربات الوجه القبلى "الناس اللى تحت". وتتصاعد الروائح الكريهة من حمامها.

وفى كمائن التفتيش يُسأل من يعترض على سوء المعاملة، وطول الانتظار فى برد الليل أو قيظ النهار: من أنت؟ ويجاب أنا مواطن من ثمانين مليونا من المصريين، يدافع عن حقوقه وحقوق المواطنين فى المرور بسلام فى ربوع الوطن، شماله وجنوبه، شرقه وغربه، واديه وصحرائه، نيله وسينائه. يحاول مد الجسور بين المواطن والدولة بدلا من العداء المستحكم بينهما. إذ تعتبر الدولة بأجهزتها المواطن عدوا لها، يريد الانقضاض عليها وتخريبها وتعكير صفو السواح، والإضرار بالأمن القومى وتشويه سمعة مصر وصورتها فى الخارج. وكرد فعل على ذلك فى اللاوعى الوطنى يشعر المواطن بأن الدولة عدو له، لا ينتمى

إليها، ولا يشعر بالأمن منها. مما قد يضطره إلى الهجرة أو طلب الحماية الأجنبية كما كانت تفعل الأقليات الدينية والعرقية طوال تاريخ مصر الحديث. ويسأل المواطن ممثل الأمن، مدنيا من المخابرات العامة: ومن أنت؟ ألست الذى يقف عائقا بين المواطن والدولة التى تحميه؟ ألست الذى يمثل الدولة لدى المواطن وليس المواطن لدى الدولة مثل معظم مؤسسات الدولة بما فى ذلك المؤسسات التعليمية، العمداء، ورؤساء الجامعات، ونواب المجالس النيابية والوزراء؟ وهل منعت كل هذه الاحتياطات الأمنية من وقوع بعض الحوادث فى الأقصر أو الدير البحرى أو سيناء؟ ولماذا تتصور الدولة نفسها على أنها جهاز امن، وإن دعت الضرورة جهاز قمع، والمواطن هو المشبوه والمدان والمجرم بالضرورة؟ ألا يخلق ذلك عند المواطن تصورا مقابلا بأن الدولة عدوه، وسبب آلامه وأحزانه وشقائه من البطالة والفقر بالإضافة إلى القهر والتسلط؟ وفى هذه الحالة يستعد المواطن للخروج عليها. وينتظر الفرج ممن يأتى إليه داعيا ومبشرا بنظام جديد، يقيم العدل، ويقضى على الظلم، وبالتالى إمكانية تحوله من مهمش متهم فى وطنه إلى أن يكون أميرا للعالم كله، ابتداء منه، من هذه البؤرة، بؤرة الإسلام، وهذه الجماعة، جماعة المؤمنين. العمل ميسور، والسكن موفور، والزواج مضمون، والنصر بإذن الله.

الفصل الرابـــع

الأحـــزاب السياسيـــة

١- الانتخابات بين الشكل والمضمون.

٢- هل هناك موانع للديموقراطية؟

٣- الدروس المستفادة من الانتخابات المصرية.

٤- الأحزاب السياسية بين الشرعية واللاشرعية.

٥- لماذا الهجوم على الإخوان فى مصر؟

٦- الصدام مع الإخوان، لمصلحة من؟

٧- اللعب بالنار.

٨- كيف يتم التعامل مع الحركات الإسلامية؟

٩- من يملأ الفراغ السياسى؟ الحاجة إلى حزب جديد.

١ـ الانتخابات بين الشكل والمضمون

الحرية مطلب أساسى فى الطبيعة البشرية. يولد الإنسان حرا ثم يكبله المجتمع بالقيود والأعراف والقوانين المتبعة. فيتحول من حر إلى مقهور. ثم يحاول أن يتحرر، يحرر نفسه بنفسه بالنضال الاجتماعى والسياسى. لذلك قال عمر قولته الشهيرة "لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا". كما قال أحمد عرابى متأثرا بتعاليم الأفغانى أمام الخديوى توفيق فى قصر عابدين "إن الله خلقنا أحرارا، ولم يخلقنا عقارا، والله لا نُورّث بعد اليوم".

والحرية أيضا مطلب واقعى فعلى. يشعر المواطن العربى بأن ما فى قلبه ليس على لسانه، وأن ما يُقال فى الإعلام المرئى والمسموع والمقروء لا يعبر عما فى نفسه بل يبرر النظم السياسية القائمة. فالإعلام أحد أجهزة الدولة مثل الشرطة والجيش وقوات الأمن. لذلك لجأ إلى حديث الهمس والنكات الشعبية والكتابة على الآثار ودورات المياه والمركبات العامة وحوائط المنازل فى الطريق العام شعاراته التى لا يسمح أحد بكتابتها فى الإعلام الرسمى وهو ما يعرف فى الثقافة الشعبية باسم "هتاف الصامتين".

والحرية مطلب تاريخى. فمنذ أن قامت الثورات العربية الأخيرة فى أوائل الخمسينيات همشت قضية الحرية لصالح التنمية الاجتماعية، والتحرر الوطنى، والعدالة الاجتماعية، والتصنيع وبناء الدولة الحديثة مما يستدعى استقرار النظام. وعمت تجربة

(*) الاتحاد: ٣ سبتمبر ٢٠٠٥، الدستور: ٤ سبتمبر ٢٠٠٥.

الحزب الواحد، والطليعة الثورية، والتغير من أعلى، والتخطيط المركزى. وكان من نتيجة ذلك صعود طبقة البيروقراطيين والتكنوقراط وضباط الجيش ورجالات الحزب وتضخم جهاز الدولة، واتهام كل المعارضين السياسيين من داخل النظام أو من خارجه بأنهم أعداء النظام، متعاونون مع الخارج، من أنصار النظام البائد. وبعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، بدأ التسليم بقضية الحرية، وبضرورة التعددية الحزبية. وواكب ذلك بعد حرب أكتوبر صدور قانون الاستثمار فى ١٩٧٤، والانقلاب على النظم "الشمولية" أى "الناصرية"، والتحول إلى القطاع الخاص، والتعاون مع الغرب. واشتد هذا التحول الرأسمالى خاصة بعد كامب ديفيد فى ١٩٧٨، وبعد سقوط النظم الاشتراكية فى أوائل التسعينيات، وفرض العولمة واقتصاد السوق نظامها على العالم. وواكبت الدعوة إلى الحرية الدعوة إلى الرأسمالية، وربط الاشتراكية بالقهر والنظم الشمولية.

والحقيقة أن الحرية مطلب الفرد، وحقه الطبيعى فى التعبير الحر بالقول والفعل والتنقل والاعتراض. وكما ارتبطت الحرية بالفرد، ارتبطت الديموقراطية بنظام الحكم. وأصبح كلاهما قرينين: حرية الفرد وديموقراطية الحكم.

ولما تفاقمت الأزمات بعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، وتم عقد معاهدات الصلح مع الكيان الصهيونى منذ زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ واتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ١٩٧٩، والأردنية الإسرائيلية بعدها، ومع موريتانيا فى ٢٠٠١، بدأت الهبات الشعبية تطالب بالخبز فى مصر فى يناير ١٩٧٧، وفى المغرب وتونس فى ١٩٨٣، وفى الأردن فى حوادث عَمان فى التسعينيات. وسرعان ما سكنت. وبعد العدوان على فلسطين بعد انتفاضة الأقصى واحتلالها كلها، وبعد العدوان على العراق فى ٢٠٠٣ والعدوان على أفغانستان والشيشان، وعجز الأنظمة العربية عن أن تدافع عن الأوطان تحركت الشعوب تطالب بالحرية والديموقراطية والتعددية السياسية وإلغاء قوانين الطوارئ

والأحكام العرفية، وإنهاء سيطرة الحزب الحاكم، والوقوف أمام التمديد والتوريث. وتحت الضغوط الشعبية فى الداخل والأمريكية فى الخارج بضرورة التحول الديموقراطى بعد أن كانت أمريكا تؤيد أعتى النظم الديكتاتورية فى العالم بما فى ذلك الوطن العربى، قرر النظام السياسى فى مصر تعديل مادة يتيمة فى الدستور رقم ٧٦ التى تسمح بانتخاب الرئيس من بين أكثر من مرشح دون غيرها من المواد التى تتعلق بمدة الرئاسة وحرية إنشاء الأحزاب السياسية.

وتحرك الشارع العربى فى مصر ولبنان واليمن صراحة، وفى سوريا والسعودية وليبيا خلسة من أجل المطالبة بضرورة التحول إلى الديموقراطية من الداخل وليست من الخارج. بدأت مظاهر هذا التحول بالاستعداد للانتخابات الرئاسية فى مصر من بين أكثر من مرشح بلغوا العشرة دون ندية بينهم. فالرئيس الذى تربع على عرش مصر ما يقرب من ربع قرن فى كفة وباقى المرشحين كلهم بما فى ذلك مرشح حزب الوفد العريق مع باقى مرشحى الأحزاب الورقية فى كفة أخرى. والنتيجة معروفة سلفا. لذلك قاطعت معظم أحزاب المعارضة الانتخابات. ومُنع المستقلون والإخوان المسلمون والذين قد يحصلوا على أكثر من نصف أصوات الناخبين من الترشيح لاستحالة حصول المستقل على توقيعات مائتى وخمسين عضوا من المجالس النيابية والمحلية.

تحول المضمون الحقيقى للديموقراطية إلى مجرد شكل. فقررت كبرى أحزاب المعارضة كالعربى الناصرى والتجمع الوطنى المقاطعة لعدم الجدية، وعدم توافر الفرص المتكافئة للمرشحين، ومنع مرشحين آخرين، وسيطرة الإعلام الرسمى على الرأى العام، والصحافة القومية. وفى بطاقة الانتخاب الرئيس هو أول الأسماء دون مراعاة للحروف الأبجدية للمرشحين أو لتاريخ التقدم للترشيح. وحكم الواقع رئيس عرفه الناس على مدى ربع قرن وآخرون لم يسمع عنهم أحد باستثناء مرشح الوفد وحزب الغد لاتهامه واعتقاله ثم

الإفـراج عنـه. وجهـاز الدولـة كلـه بمـا فـى ذلـك أجهـزة الأمـن والـشرطة بجانـب الـرئيس. والمؤسـسات الدينيـة الإسـلامية والقبطيـة كلـها مـع الـرئيس، وإعـلان ذلـك علـى لـسان شـيخ الأزهـر وبابـا الأقبـاط وكأنـه لا يوجـد تعدديـة فـى الـرأى بـين المـسلمين والأقبـاط باعتبـارهم مصريين. وهناك أقباط ومسلمون فى حركة "كفاية"، وفى الحركة الوطنية من أجل التغيير، وفى معظم حركات المعارضة التى نشأت تلقائيا فى الشهور الأخيرة والتى بلغت أربعة عشر تنظيما أهليا من تنظيمات المجتمع المدنى.

خطـوة إلى الأمـام وخطوتـان إلى الخلـف. مـا أعطـى بـاليمين أخـذ باليـسار. وتحولـت الانتخابـات مـن آليـة لتحقيـق الديمقراطيـة إلى مجـرد شـكل يتـستر علـى الـنظم التـسلطية الـسابقة. القـوى الـسياسية فـى الـشارع العربـى أربعـة: الإسـلاميون والناصـريون والليبراليـون والماركسيون. ووجـود أربعـة مرشـحين علـى مـستوى النديـة تعبير عـن المضمون ولـيس الـشكل. وإذا كـان الحـوار بـين أحـزاب المعارضـة جـادا فإنـه يمكـن الاتفـاق علـى مرشـح واحـد لقـوى المعارضة ضد مرشح الرئاسة لعدم تفتيت الأصوات. ويختـار الشعب بين مرشـحين رئيسيين: مرشح الحزب الحـاكم الذى استمر على مدى ربع قرن، ومرشح أحزاب المعارضـة التـى تريد تـداول الـسلطة، وبدايـة مرحلـة جديـدة فـى تـاريخ مـصر. ولا فـرق بـين الـسياسة الداخليـة حـول البطالـة والإسـكان والفقـر ونقـص الخـدمات الـصحية والاجتماعيـة، والـسياسة الخارجيـة، التحـالف مـع أمريكـا والـصلح مـع إسـرائيل، وتـوارى الـدور القـومى، وغلبـة القطريـة، وغيـاب العرب عن الساحة الدولية.

لقد أدرك الرأى العام فى مصر الذى يمثله رجل الشارع أن الانتخابـات مجـرد تمثيلية أو مسرحية أو فيلم سيئ الإخراج. تحولت إلى مهزلة يضحك منهـا الجميـع. فالنتـائج معرفـة مسبقة. هى انتخابات هشة لـن تبقى حتى يظهر سيناريو آخر يقلب الموازين، من التمديد إلى التوريث أو إنهـاء عصر بأكمله وفترة من حيـاة مصر السياسية مضى عليهـا نصف قـرن

تضم الحرية والاشتراكية، الوطنية والقومية، ائتلاف وطنى وتعددية سياسية. يظل المستقبل حتى الآن فى المجهول. وقد يتكشف فى غضون أشهر إذا ما اشتدت الأزمة فى لبنان وسوريا، وإذا ما تقرر العدوان على إيران والسودان، وإذا ما استمر الاحتلال لفلسطين والعراق إلى ما لا نهاية، وإذا ما تحولت حركات المعارضة الناشئة إلى ثورات شعبية عارمة فى إندونيسيا وأوكرانيا وفنزويلا. فالعصر القادم هو عصر الشعوب.

٢- هل هناك موانع للديموقراطية؟

اختلف النقاد، قدماء ومحدثين، حول علاقة الشكل بالمضمون. فصل القدماء بينهما طبقا للثنائيات التقليدية القديمة: اللفظ والمعنى، البدن والنفس. فالمضمون مستقل عن الشكل استقلال المعنى عن اللفظ، والنفس عن البدن. المعنى ثابت فى الذهن، واللفظ يتبدل. والوجود الذهنى سابق على الوجود اللفظى. المعنى فى الذهن واللفظ فى اللسان والحلق. لذلك نشأ علمان منفصلان. علم المنطق لضبط المعانى وطرق الاستدلال، وعلوم البلاغة لاختيار أحسن الألفاظ وأفضل الأساليب طبقا لتعريف البلاغة القديم "حسن القول طبقا لمقتضى الحال".

أما النقاد المحدثون فقد وحدوا بين الشكل والمضمون. فلا مضمون بلا شكل، ولا شكل بلا مضمون. يفرض الشكل مضمونه كما يفرض المضمون شكله. ومن هنا نشأت البنيوية والأسلوبية ومناهج تحليل الخطاب. وإذا كان القدماء قد وقعوا فى المثالية وعالم الماهيات المستقل عن عالم الوقائع فإن المحدثين قد وقعوا فى الشكلانية اللفظية.

وربما تحتاج علوم اللغة إلى نظرية جدلية ثالثة تجعل العلاقة بين الشكل والمضمون ليست علاقة آلية ثابتة ، تمييزا أو توحيدا، انفصالا أو اتصالا، بل علاقة متحركة. يختار المضمون شكله أولا. ثم يعيد الشكل تكييف مضمونه ثانيا. ثم تظهر الوحدة العضوية الحركية بينهما فى تجدد مستمر لكليهما معا طبقا لآليات الإبداع.

(*) الاتحاد: ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٥، الزمان: ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٥.

والانتخابات مجرد شكل أو آلية لتحقيق الديموقراطية وليست غاية فى ذاتها وإلا وجد الشكل دون المضمون أو وجد مضمون مغاير بل نقيض للديموقراطية وهو الطغيان أو كما يقول ابن رشد فى جوامعه على جمهورية أفلاطون "وحدانية التسلط". الانتخابات هنا مجرد تبرير للتسلط وتشريع للطغيان. تهدف إلى معرفة رأى الناس وإدراكهم للمصالح العامة ولأفضل من يمثلهم فى الديموقراطية التمثيلية أو الديموقراطية البرلمانية أو فى الديموقراطية المباشرة. الانتخابات آلية لآلية، آلية للديموقراطية، والديموقراطية آلية لتحقيق المصالح العامة. الانتخابات وسيلة لا غاية، وسيلة لإشراك الناس فى إدارة شئون البلاد واختيار حكامها. والديموقراطية أيضا وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق المصالح القومية بمشاركة الناس ضمانا لتحقيق أنجح وأفضل من بيروقراطية الدولة أو فردية الحاكم.

والسؤال هو هل هناك موانع للديموقراطية فى بعض الثقافات ولدى بعض الشعوب كما تروج لذلك بعض النظم العنصرية صاحبة التفوق الحضارى؟ فأوروبا نموذج للديموقراطية فى نظم حكمها وليست آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية. فى الغرب وحده منذ القرن السابع عشر نشأت نظرية العقد الاجتماعى عند لوك واسبينوزا ونظّرها روسو فى القرن الثامن عشر لتفسر نشأة السلطة فى المجتمع عن طريق التفويض، تفويض الناس عن رضى جزءا من سلطتهم إلى واحد يختارونه فيما بينهم ليحقق الإرادة العامة La Volonté Générale. فى حين عاش الشرق فى "الاستبداد الشرقى" Le Déspotisme Oriéntale كما نظّره مونتسكيو. ثم أضيفت عليها نظريات "المستبد العادل" أو "الزعيم" لتفسير بعض النظم السياسية فى بعض الثقافات الأخرى فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية التى يجّب فيها الفرد الدولة، ويعبر بقدراته الخاصة عن روح الشعب ومصالح الأمة.

ويضرب المثل قديما بالفرعونية فى مصر والتى مازالت فى اللاوعى الجمعى للمصريين. هو الله الذى يقرر ماذا يفعل، وما على الشعب إلا الطاعة. وعندما أتى الإسكندر

إلى مصر اعتبره المصريون ابن الإله رع أو آمون. ورأى فيه المفسرون "ذو القرنين" الذى يتحدث عنه القرآن بلغة الإعجاب. وجعله الفلاسفة موحدا بالله ينشر التوحيد فى ربوع أفريقيا وآسيا، وليس فقط تلميذ أرسطو. واستمرت الفرعونية فى الكنيسة القبطية فى الدور المركزى الذى يقوم به رئيس الكنيسة الأرثوذكسية الذى يتوحد مع الملك أو الإمبراطور فى العصر البيزنطى. وكانت الثقافة اليونانية الرومانية التى مارست الديموقراطية اللاتينية فى أثينا والرومانية فى روما، ثقافة وافدة من الخارج. وبقت هامشية فى مقابل مركزية الموروث.

واستمرت مركزية السلطة فى الثقافة الإسلامية فى مصر السنية فى الفقه، الشيعية فى الثقافة الشعبية التى تقوم على تأليه الإمام كما ظهر لدى الحاكم بأمر الله، وتقديس الأئمة المعصومين، وتبجيل آل البيت. وعمت ثقافة الأولياء وسلطتهم وقدرتهم على إجراء المعجزات. وظهر حورس من جديد، رمزا لشركة مصر للطيران، والمعارض الفنية فى الداخل والخارج فى صورة "ابن البلد"، وفى الأغانى الشعبية "البلد عاوزه ولد"، والفتوة فى ملحمة "الحرافيش"، والزعيم فى مسرحية "الزعيم". وتعلم التلاميذ فى المدارس دور منقذى مصر الكبار، أحمس طارد الهكسوس، وصلاح الدين محرر القدس، ومحمد على بانى مصر الحديثة، وعبد الناصر مفجر ثورة يوليو ومؤسس التجربة الاشتراكية ورائد القومية العربية.

وفى الحياة الوطنية، ثم التركيز أيضا على زعماء مصر الوطنيين: أحمد عرابى، عبد الله النديم، مصطفى كامل، محمد فريد، سعد زغلول، مكرم عبيد، مصطفى النحاس أكثر مما ذكر الشعب وحركات الجماهير وصفوف المقاومة. فالزعيم يجسد روح الشعب. والغناء له والمدح فى "كامل الأوصاف" و"عاش اللى قال" و"زعيمنا جمال". ورئيس الجمهورية الثانية "آخر فراعنة مصر"، وزوجته "ملكة مصر" نفرتيتى وكليوباترا وحتشبسوت وشجرة الدر معا.

ولم يقتصر ذلك على مصر. بل عمّ النموذج فى آسيا عند ماوتسى تونج، وهوشى منه،

وغاندى، ونهرو. وظهر أيضا عند محمد محاضر، بانى ماليزيا الحديثة فى المادة ١١٦ التى تعطى له سلطات استثنائية. وظهر فى أمريكا اللاتينية عند بيرون والبيرونية فى الأرجنتين. بل ولم يخل النموذج الأوروبى الديموقراطى منه فى المادة ١٦ فى الدستور الفرنسى التى تعطى ديجول سلطات استثنائية لإنقاذ البلاد من الخطر.

وإذا كانت الانتخابات مجرد آلية للديموقراطية، والديموقراطية مجرد وسيلة لمعرفة اتجاهات الرأى العام ورؤى القوى السياسية، فقد يستوفى النموذج الأوروبى الشكل دون المضمون. فلا فرق بين الجمهوريين والديموقراطيين، أكبر حزبين سياسيين فى الولايات المتحدة الأمريكية، فى العدوان على العراق، وتأييد إسرائيل، وتدعيم النظام الرأسمالى. ولا فرق بين المحافظين والعمال، أكبر حزبين سياسيين فى بريطانيا أيضا، فى العمل لنفس الأهداف. لذلك إن لم تكن الديموقراطية وآلية الانتخابات وسيلة لتحقيق نسق من القيم أو مشروعا قوميا يجسد مصالح الناس فإنها تكون مجرد شكل دون مضمون.

وليس للديموقراطية شكل واحد أو نموذج أوحد بل تتعدد أشكالها. والشورى أحد الأشكال، تحقق الديموقراطية سلبا، وهو عدم التفرد بالرأى والقرار دون استشارة أهل الاختصاص، أهل الحل والعقد بتعبير القدماء، لتجنب الدوافع الشخصية أو المصالح الطبقية. ومعظم مآسى العرب من القرارات الفردية مثل زيارة رئيس الجمهورية الثانية للقدس، وعقد اتفاقيات كامب ديفيد، ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، والخصخصة، والاعتماد شبه الكامل على الولايات المتحدة، وغزو العراق للكويت. شرط الديموقراطية الأول هو حرية الرأى، وتداول السلطة. "إنى وليت عليكم ولست بخيركم" ضد التمديد إلى ما لا نهاية. والعقد والبيعة والاختيار ضد التوريث وضد الانقلاب العسكرى الذى سماه القدماء "الشوكة".

٣- الدروس المستفادة من الانتخابات المصرية

أخذ العبر من الماضى سنة حميدة (**إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار**). والانتخابات المصرية فى الإعادة فى المرحلة الثالثة أوشكت على الانتهاء. والكل يحلل ويستخلص العبر وأهمها:

١- ارتفاع صوت المعارضة العلمانية بكل فصائلها، الناصرية واليسارية والليبرالية فى جرائدها وآرائها وداخل مقارها وضعف وجودها فى الشارع. هناك فرق بين الصوت والجسم، بين الكلام وأثره. تعبر عن أشواق الجماهير وطموحاتها ولكنها لا تسيّسها أو تجندها، باستثناء شرائح كبرى من المثقفين والفنانين. تعبر عن خطورة الموقف السياسى فى الداخل والخارج ولكنها عاجزة عن استقطاب الناس باستثناء القلة. وما فائدة النقد دون الجمهور العريض. مع أنها هى المعارضة الأكثر وعيا من الناحية السياسية، والأكثر قدرة على صياغة برامجها الاجتماعية والسياسية تفصيليا دون الاكتفاء بالشعارات الوجدانية أو الإيمانية. وهى الأكثر تواصلا مع تاريخ مصر، الوفد مع ما قبل الثورة المصرية فى ١٩٥٢، والناصريون واليساريون مع ما بعد الثورة المصرية المغدورة بها منذ السبعينات وحتى الآن. والسؤال هو: كيف يتحول اليسار العلمانى إلى قوة شعبية، له قواعده الجماهيرية وثقافته الثورية النابعة منه وليست الأيديولوجيات الجاهزة الوافدة التى لا يعلمها الكثير من الأغلبية الأمية الصامتة. فكر دون جمهور، وروح بلا جسد، وصورة بلا مادة، ورأس بلا جسم.

٢- ظهور المعارضة الإخوانية وكأنها اللاعب الأول فى الساحة وهى المسماة حتى الآن

(*) الاتحاد: ١٠ ديسمبر ٢٠٠٥، الدستور: ١٣ ديسمبر ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ١ يناير ٢٠٠٦.

فـى أدبيـات الدولـة والحـزب الحـاكم الجماعـة المحظـورة وبلغـة وزارة الداخليـة الجماعـات الدينيـة. فبعد خمسين عاما من قرار الحل فى ١٩٥٤ مازالت موجودة على الساحة. تشارك فى الحياة السياسية منذ السبعينات. تقود المظاهرات من أجل تدعيم المقاومة الفلسطينية وضـد العـدوان الأمريكـى علـى العـراق، وضـد الأحكـام العرفيـة، وقـوانين الطـوارئ، والفـساد والتبعيـة. والجماعة غير شرعية، وليس لها منبر إعلامى. فقد أغلقت جريدة "الشعب" لسان حال حزب العمل. وليس لها منبر آخر غير حركة الشارع. إلا أن ثقافتها السياسية نابعة من الموروث الثقافى للناس. ويؤثر شعارها "الإسلام هو الحل" على الجماهير التى تبحث عن حل لمشاكلها بعد أن جربت أنظمة الحكم فيها الليبرالية مرة قبل ثورة ١٩٥٢، والاشتراكية مرة أخرى بعدها. وضاعت نصف فلسطين فى التجربة الأولى فى ١٩٤٨، وضاع النصف الآخر فى التجربة الثانية فى ١٩٦٧. كانت الجماهير قبل الثورة مطحونة بالإقطاع والقصر والإنجليز، ومازالـت مطحونـة بعـد الثـورة والانقـلاب عليهـا منـذ الـسبعينات برجـال الأعمـال وهيمنـة الولايـات المتحـدة وغطرسـة إسـرائيل. فللـشعار "الإسـلام هـو الحـل" دلالـة نفـسية، المفتـاح السحرى، وكلمة السر للتخفف من الضنك. والناس مرتبطة بتراثها. تعرف الإسلام ولا تعرف الليبراليـة والقوميـة والاشتراكية والماركسية باعتبارهـا شـرائع لم ينـزل الله بهـا مـن سلطان. الشعار يمثل هروبا إلى الأمام حتى تمر هذه الموجات العالية من الأيديولوجيات العلمانية للتحديث. هو هروب سلبى. وقد لا تعرف معنى الشعار إيجابياً كنظام اقتصادى سياسى اجتماعى لحل المشاكل التى تعانى منها البلاد. هو طريق للخلاص، وحلم بمستقبل أفضل. وهو شعار قصير مركز يجيب على السؤال الضمنى الذى يسأله كل الناس: ما الحل؟ ما البديل؟ ويكون الجواب النفسى "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل" والحل لأزمة الروح والأخلاق والضمير. فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. وهو ما دعته الجماعة أكثر مما دعاه المثقفـون الـذين حـاولوا إقنـاع الجماعـة بترجمـة الـشعار إلى برنـامج اجتمـاعى سياسـى

اقتصادى مادامت تخاطب الرأى العام ولا تخاطب نفسها وجماعتها.

٣- عدم التنسيق الكافى بين قوى المعارضة المدنية، ناصرية ويسارية وليبرالية، وبينها وبين قوى المعارضة الإخوانية. وحدة قوى المعارضة مازالت بعيده المنال. كان هدف كل منها الحصول على أكبر عدد ممكن من المقاعد فى مجلس الشعب وليس تفويت الفرصة على الحزب الحاكم للحصول على الثلثين. فنزل مرشحو المعارضة المدنية ضد بعضهم البعض، الوفدى ضد اليسارى، واليسارى ضد الناصرى، وكل منهما ضد الإخوانى. كل مرشح يريد المكسب إيجاباً لنفسه وليس سلباً بإسقاط خصومه فى الحزب الحاكم. وقد اشتهر أحد رؤساء الأحزاب اليسارية بالهجوم المستمر على "المتأسلمين" وعلى الإخوان لأنه لا لقاء بين العلمانية والإسلام، ولا تداخل بين السياسة والدين. وهو خطأ تاريخى وعلمى فى آن واحد. فالإسلام دين علمانى كما يبدو فى مقاصد الشريعة، الحفاظ على الحياة والعقل والحق والكرامة (العرض) والثروة (المال). يبحث فى العلل المؤثرة فى سلوك الناس. وقيم العلمانية، العقل والعلم والإنسان والطبيعة والتقدم قيم إسلامية كما لاحظ الطهطاوى فى "مناهج الألباب" ورؤيته مدى الاتفاق بين فلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر والشريعة الإسلامية بين "الشرطة" لنابليون والشريعة بين مونتسكيو وابن خلدون.

٤- ذكاء الإخوان المسلمين فى إمساك كل الخيوط، الحزب الحاكم بيد والمعارضة باليد الأخرى. مع الحزب الحاكم "مشاركة لا مغالبة"، ومع المعارضة تنسيق جزئى لا منافسة. يكسبون من الحزب الحاكم فى ضعفه وعجزه وحاجته إلى المؤازرة فمازال يمسك بزمام السلطة. وينسقون مع المعارضة خاصة مع الحركة الوطنية من أجل التغيير. بل إنهم فى البداية لم يرفعوا شعاراتهم النمطية "الله غايتنا"، "الرسول زعيمنا"، "القرآن دستورنا"، "الجهاد سبيلنا"، "الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا". والتفوا حول الشعارات الوطنية العامة التى رفعتها حركة كفاية، لا لقانون الطوارئ، لا للأحكام العرفية، لا للتوريث، لا

للتمديد، نعم لإصلاح الدستور، نعم للتعددية السياسية، نعم لتداول السلطة، نعم للحريات العامة، نعم لإعادة توزيع الدخل، نعم لتأييد المقاومة فى فلسطين والعراق. علمت التجارب الإخوان، صدامهم مع النظام الليبرالى واستشهاد حسن البنا، صدامهم مع النظام الاشتراكى واستشهاد سيد قطب.

٥- تقهقر الحزب الحاكم وضعفه وانقساماته وتقاتلهم على المكاسب والخلاف بين الرعيل القديم بمساندة الرئيس والرعيل الجديد بزعامة ابن الرئيس. الأول يريد الاستمرار فى الثروة والسلطة. والثانى يريد حظه فى تركة مصر. أصبح الرعيل القديم عبئا على الحزب. وهو مكروه من الشعب. وهو الذى جعل الحزب يفقد أصواته لصالح المعارضة بقسميها المدنى والدينى. بقى الحزب فى السلطة أكثر مما يجب. وحامت حول رجاله الشبهات. وأصبحوا فى ذهن الشعب رموز الفساد. وقد يحل الحزب نفسه إذا ما فقد الثلثين من المقاعد فى مجلس الشعب حتى لا تسقطه المعارضة، ويكون لها الحق فى ترشيح رئيس للجمهورية. وقد يشير الحزب الحاكم من طرف خفى إلى البديل الأسوأ إذا ما أتى الإخوان. وقد تريد أمريكا نظاما جديدا يجمع بين الوفد والإخوان لضمان أغلبية شعبية والاقتصاد الحر فى آن واحد بدلا من إقامة آليات السوق الحر على نظام فاسد وتسلطى.

٦- ظاهرة المستقلين الانتهازيين الذين يرشحون أنفسهم مستقلين بعيداً عن الحزب الحاكم إما طوعاً أو قسراً. ثم يكسبون ثقة الناخبين لكراهيتهم للحزب الحاكم. ثم يعلنون انضمامهم للحزب الحاكم بعد الفوز. ويعودون إليه من الباب الأمامى، من أوسع الأبواب بعدد من المقاعد ينقذ الحزب الحاكم من أن يصبح حزباً للأقلية. وهى انتهازية مزدوجة. يريدون أن يكسبوا مرتين. الأولى من الشعب بالابتعاد عن الحزب الحاكم، والثانية من الحزب الحاكم والابتعاد عن الشعب. هى ظاهرة أقرب إلى الخيانة الوطنية، خيانة الدائرة التى انتخبته على مبادئ ثم غير مبادئه بعد نجاحه. يُطعن فيها دستوريا من الناخبين.

٧- ظاهرة البلطجة واستعمال العنف ضد الخصوم من مرتزقة الحزب الحاكم بالسيوف والخناجر والهراوات وسقوط القتلى والجرحى، ورجال الأمن لا يتحركون مادام ذلك كله يساعد على إنجاح الحزب الحاكم. صوت الناخب قوة يده. ويده هى التى ستحسم لمن الأغلبية وليست صناديق الانتخابات. وهى فضيحة عالمية أمام أجهزة الإعلام والقنوات الفضائية عن التحول الديموقراطى فى مصر. لقد تحرك الشارع لأخذ حقه بيده. وتحركت القوى المضادة لإجهاض هذا الحق والاستمرار فى الباطل.

٨- القضاء المستقل النزيه المشرف على الانتخابات، وتسجيل كل المخالفات وألاعيب التزوير بمنع المرشحين من الدخول إلى مراكز الاقتراع، وتغيير بطاقات الانتخاب داخل الصناديق والتسجيل الجماعى لموظفى الوزارة أو الهيئة التى منها يأتى المرشح. يصر القضاء على إصدار قانون السلطة القضائية والإشراف الكامل على العملية الانتخابية، واستقلالها عن وزارة العدل وعن وزارة الداخلية، شكلاً ومضموناً، وإبطال التزييف دون تمييز بين قاض معارض وقاض موال للحكومة. الأول يُستبعد، والثانى يبقى.

دروس وعبر، لمن يعتبر (إن فى ذلك عبرة لمن يخشى).

٤- الأحزاب السياسية بين الشرعية واللاشرعية

الأحـزاب الـسياسية تعـبير عـن القـوى الاجتماعيـة والتيـارات الفكريـة والحركـات السياسية فـى أى مجتمـع. فـالحزب الـسياسى أساسـا هـو تعـبير عـن طبقـة اجتماعيـة، مثـل أحـزاب العمـال التـى تعبر عـن الطبقـة العاملـة. ولم تنـشأ أحـزاب فلاحـين لأن الفـلاح عامـل زراعـى. بـالرغم مـن وجـود فـرق بـين علاقـة العامـل بالآلـة وعلاقـة الفـلاح بـالأرض. الأول أقـل ارتباطـا بوسـيلة الإنتـاج فـى حـين أن الثـانى أكثـر ارتباطـا بهـا. وهنـاك أحـزاب الأقليـة أو الإقطـاع أو النخبـة الحاكمـة مثـل الأحـرار الدسـتوريين فـى مـصر قبـل الثـورة. وهنـاك أحـزاب الطبقـة الوسطى، أحـزاب رجـال الأعمـال. وتـتراوح الأحـزاب فـى الـوطن العربـى بـين النخبـة الحاكمة ورجال الأعمال.

كما تعبر الأحزاب السياسية عن التيارات الفكرية فى المجتمع مثل أحزاب الإصلاح، والأحـزاب الإسلامية كـالإخوان المسلمين. فـالتيـار الفكـرى يخترق الحـواجز الطبقيـة. إذ تجمـع الأحـزاب الإسـلامية بـين مختلـف الطبقـات الاجتماعيـة، العليـا والوسطى والـدنيا. فـالحزب فكرة قبـل أن يكـون مـصلحة. وقد جمعـت بعض الأحـزاب فـى الـدول الغربيـة بـين الاثـنين مثـل الـديموقراطيين والجمهـوريين فـى الولايـات المتحـدة، والأحـزاب الديموقراطيـة المـسيحية، والديموقراطية الاشتراكية فى ألمانيا خاصة وأوروبا عامة.

كمـا تعبر الأحـزاب عـن حركـات سياسـية وطنيـة عامـة توحدت مـع تـاريخ الـبلاد مثـل حزب الوفد فى مصر قبل الثورة، والأحزاب القومية بعد الثورات العربية فى النصف الثـانى

(*) الاتحاد: ٤ مارس ٢٠٠٦، الدستور: مارس ٢٠٠٦، العربي الناصري: ١٩ مارس ٢٠٠٦.

من القرن العشرين، وحزب الاستقلال فى المغرب، وحركة التحرر الوطنى فى الجزائر، ومنظمة التحرير الفلسطينية فى فلسطين، وحزب الدستور فى تونس، وحزب الله فى لبنان.

وفى الوطن العربى خاصة، تنشأ الأحزاب السياسية من "حضن" السلطة. فبعد أن قامت الثورات العربية الأخيرة فى سوريا ومصر والعراق واليمن وليبيا وموريتانيا والصومال والسودان أنشأت مجموعات "الضباط الأحرار" أحزابا سياسية حتى تحول الانقلاب إلى ثورة، والثورة تيار فكرى، والتيار الفكرى إلى تغير اجتماعى، والتغير الاجتماعى إلى حركة شعبية جماهيرية، أصحاب المصلحة فى الثورة. وبعد أن ينتهى العمر الأول للثورة، ويبرد نارها بل وانقلاب غالبيتها إلى ثورة مضادة، تتحول الأحزاب الثورية الأولى إلى أحزاب سلطة، تحكم بمفردها. ثم تجاوزها الزمن، ولم تعد قادرة على تغيير أنفسها بالرغم من تغير العصر. فتجد أحلافا لها فى الطبقات الجديدة فى الداخل من العسكر أو من رجال الأعمال الجدد الذين كانوا يمثلون الرأسمالية الوطنية أو فى الخارج لدى القوى الكبرى والتى انتقلت من القوى الاستعمارية القديمة، فرنسا، وانجلترا، وأسبانيا، والبرتغال، وهولندا، وبلجيكا، وإيطاليا إلى القوة الاستعمارية الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية.

ولتنشيط الحياة الحزبية، بدأت أحزاب السلطة فى خلق أحزاب وهمية جديدة لتفادى الضغوط عليها فى الداخل والخارج، نهاية عصر الحزب الواحد، وضرورة "الإصلاح" و"التحول الديموقراطى". ينشأ حزب مرتبط بفرد مثل حزب الأمة فى مصر ولا وجود له لا فى الشارع السياسى ولا كتنظيم مؤسى. وينشأ حزب آخر تقليدا للغرب مثل حزب "الخضر" الذى نشأ ضد تلوث البيئة من مخلفات المصانع. ولا توجد فى أوطاننا مساحات خضراء للدفاع عنها إذ نعيش فى الصحراء وبين رياحها. ولا يوجد تصنيع أثر فى البيئة بل توجد نفايات بشرية وحيوانية ومجارى طافحة وأكوام قمامة. وقد تنشأ بعض الأجنحة من الحزب الأم. وبدلا من الحوار الخصب بين يمينها ويسارها ووسطها، بين جيل الرواد وجيل

الطليعة تنشأ أحزاب مستقلة فيضعف الحزب الأم ولا يقوى الحزب المنشق. وقد تساعد الدولة فى هذا الانشقاق لإضعاف الحزب الأم. فقد تفرع حزب "الغد" فى مصر عن حزب الوفد. وخرج حزب "الوسط" من حضن الإخوان، وحزب "الكرامة" من "العربى الناصرى". ومعظمها مازالت تحت التأسيس. فى حين استطاعت أجنحة فى أحزاب أخرى أن تبتلع الحزب الأم مثل حزب العدالة والتنمية فى المغرب بالنسبة لحزب الاستقلال، وحزب العدالة والتنمية فى تركيا بالنسبة لحزب "رافاه". وبلغت مجموعة هذه الأحزاب "الورقية" فى مصر على سبيل المثال أربعة عشر حزبا.

وفى نفس الوقت هناك أحزاب سياسية فى تكوينها وفكرها وتنظيمها وشعبيتها ومستقبلها لاشرعية مثل الإخوان المسلمين فى مصر وسوريا، وجبهة الإنقاذ فى الجزائر، والنهضة فى تونس، ومعظم الأحزاب الشيوعية فى مصر وليبيا وتونس والسودان وشبه الجزيرة العربية. وقد تكون شرعية فى الداخل ولاشرعية فى الخارج مثل حماس فى فلسطين، وحزب الله فى لبنان، والثورة الإسلامية فى إيران لأنها أثرت طريق النضال ضد الهيمنة الغربية، والعدوان الأمريكى الإسرائيلى. هى أحزاب لاشرعية فى الداخل لأنها ضد نظم الحكم القائمة وأحد حركات المعارضة الرئيسية ومنافس رئيسى لها فى الحكم الذى فقد شرعيته بعد أن أصبح تابعا للخارج وقاهرا فى الداخل. وهى لاشرعية فى الخارج لأنها رفضت الخضوع للهيمنة الخارجية. فأصبح سلاح الشرعية سلاحا مزدوجا توجهه أنظمة الحكم ضد أحزاب المعارضة الجذرية، إسلامية أو ماركسية. كما توجهه أحزاب المعارضة ضد أنظمة الحكم. وتوجهه القوى الخارجية ضد النظم الوطنية المنتخبة ديموقراطيا فى فلسطين ولبنان وإيران، كما توجهه هذه النظم ضد العدوان الأمريكى اللاشرعى على العراق وأفغانستان والعدوان الإسرائيلى على فلسطين، كل فلسطين. وقع الوطن العربى فى تناقض بين أحزاب شرعية لا وجود لها فى الشارع السياسى حتى وإن كان بعضها الحزب الحاكم،

وأحزاب لا شرعية لها وجودها فى الشارع السياسى وخارج أنظمة الحكم واللعبة السياسية برمتها. فمن الذى يحكم، القصر أم الشارع؟ الرئاسة أم الجماهير؟ الشرعى أم اللاشرعى؟

ومن الذى يعطى الشرعية؟ الدولة والرئاسة ولجنة الأحزاب والبرلمان أى الدولة الحكم والخصم أم الشارع والجماهير؟ وهل استطاعت الشرعية الصورية التى تهبها أو تمنعها الدولة قادرة على منع حركة الشارع وصعود الحركات اللاشرعية إلى المؤسسات السياسية فى حالة انتخابات شبه ديموقراطية؟ وهل استطاعت كل وسائل التزوير، وأجهزة الأمن والدولة والرئاسة والإعلام والمخابرات واستعمال العنف والبلطجة وتأجير الفتوات أن تمنع من انتزاع الحركات "اللاشرعية" شرعية وجودها فى الشارع وفرضها على المؤسسات الدستورية؟

وقد أدى هذا الوضع بين شرعية الحزب الحاكم اللاشرعية، ولا شرعية الحركات الإسلامية الماركسية الشرعية إلى انعزال الناس عن السياسة، وعدم مشاركة الجماهير فى العملية الديموقراطية. إذ يذهب أقل من ربع من لهم حق الانتخاب إلى صناديق الانتخاب. يرفضون شرعية الحزب الحاكم اللاشرعية، ويخافون من لاشرعية الحركة الإسلامية والماركسية الشرعية. فقرت الحياة الحزبية، وبقت الجماهير خارج اللعبة السياسية. تنتظر الخروج من هذه الحلقة المفرغة بين الشرعية النظرية واللاشرعية العملية للحزب الحاكم، واللاشرعية النظرية والشرعية العملية للحركات الإسلامية والماركسية. وتنأى بنفسها عن هذا التكفير المتبادل بين الدولة وخصومها فقد تكون خاسرة فى الحالتين، خسارة محسوسة ومشاهدة من الحزب الحاكم، وخسارة متوهمة ومتوقعة من أحزاب المعارضة.

والأحزاب التاريخية فى الوطن العربى أربعة: الليبرالية التى حكمت مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، والقومية التى حكمت معظم أقطار الوطن العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين، والجناحان الرئيسيان فى نظام الحكم القائم ليبراليا كان أم

قوميا، الحركة الإسلامية التى يُرمز لها بالإخوان المسلمين، والحركة الاشتراكية التى يُرمز لها بالشيوعيين. الليبرالية العربية لم تجدد نفسها وظلت خصيما للاشتراكية بدعوى الاقتصاد الحر، وللحركة الإسلامية بدعوى العلمانية، فى أزمة مع نفسها ومع جماهيرها. كما انحسر المد القومى فى الخمسينيات والستينيات بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وحربى الخليج الأولى والثانية وظهور النزعات القطرية بل والعرقية والطائفية لتجزئة الأقطار العربية. وذاب الشيوعيون العرب إما فى نار العولمة الجديدة أو فى حضن الدولة أو كهوامش فى حوار مع التيارات الأخرى. وما تبقى مازال يعمل تحت الأرض بالطريقة التقليدية. فلم يبق إلا الحركة الإسلامية فى الداخل أو فى الخارج التى مازالت تعمل على الأمد الطويل بغية الوصول إلى الحكم على مراحل، من المشاركة إلى المغالبة بعد أن تم تهميشها على مدى أكثر من نصف قرن. الكل يعمل للحاضر، وهى وحدها التى تستعد للمستقبل.

٥- لماذا الهجوم على "الإخوان" فى مصر؟

منذ أن انتهت الانتخابات النيابية فى مصر هذا الشهر بدأ التناحر على السلطة بين فرق المعارضة، بدلا من أن تبكى على حظها، وتتعلم من تجربتها، وتتساءل حول حصول الحزب الحاكم على أكثر من ثلثى المقاعد وبالتالى سيطرته على الحياة السياسية فى مصر على مدى ست سنوات قادمة. وبدلا من تحليل أسباب الفشل السياسى لكل فصائل المعارضة: التجمع (ست أصوات)، والوفد (صوتان)، والكرامة تحت التأسيس (صوتان)، والغد (صوتان)، وهى فى مجموعها اثنتا عشر صوتا من مجموع أربعمائة وأربعة وأربعين صوتا بدأت تهاجم المعارضة الرئيسية التى تمثلها جماعة "الإخوان المسلمون" والتى حصدت ثمانية وثمانين مقعدا. ولا يكفى تعليق هذا الانحسار للمعارضة اليسارية والليبرالية على التزوير والبلطجة وتدخل الشرطة وأجهزة الأمن واستعمال كل وسائل العنف. فقد عانت منها المعارضة الإخوانية أيضا. ومع ذلك حصلت على ما يزيد على سبعة أمثال.

بدلا من العبرة بما حدث، واستنباط الدروس المستفادة منها والسياسة بأحد معانيها هى فن التعلم من التجارب، فلا يوجد ضمان نظرى مسبق لنجاح أى تيار سياسى معارض، وبدلا من النقد الذاتى ومراجعة النفس، ومعرفة أوجه القصور من أجل الاستعداد للجولة القادمة بعد ست سنوات،وتجنب عوامل القصور، وزيادة فرص النجاح، بدأ الهجوم على "الإخوان" إما لتغطية أسباب القصور الذاتى، والهجوم أحسن وسيلة للدفاع أو التعبير عن العداء الدفين بين الإخوان والشيوعيين منذ الأربعينات الذى مازال قائما فى اللاوعى

(*) الاتحاد: ١٧ ديسمبر ٢٠٠٥، الدستور: ١٨ ديسمبر ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ١٨ ديسمبر ٢٠٠٥.

السياسى والذى مازال ظاهرا بالهجوم المستمر على "المتأسلمين" وكأنهم هم البلاء الوحيد فى البلاد دون نقد للمتأمركين وللمطبعين وللمتصهينين وللطائفيين والذين باعوا البلاد وخانوا الأوطان، أو التناحر على السلطة من الآن بعد انتهاء "التكتيك" الذى كان سائدا قبل الانتخابات من أجل وحدة قوى المعارضة ضد الحزب الحاكم، ونهاية شهر العسل بينهما، والعودة إلى الاستراتيجية المتأصلة، العداء التقليدى بين السلفية والعلمانية.

والهجوم على المعارضة "الإخوانية" من المعارضة اليسارية يضع هذه الأخيرة فى نفس خندق الحزب الحاكم والدولة وأجهزته فى الهجوم على الجماعة "المحظورة" أو الجماعة الدينية أو الجماعة المستقلة. وبالتالى يتحول أعداء الأمس إلى أصدقاء اليوم. ويتضح أن التناقض الرئيسى ليس بين الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة بل بين أحزاب المعارضة نفسها بجناحيها "الإخوانى" من ناحية والليبرالى واليسارى والقومى من ناحية أخرى.

فلم هذا الخوف من "الإخوان"؟ لم هذا الذعر منهم؟ ولتبرير هذا الخوف والذعر تتم تشويه صورة الإخوان بتكرار الصور النمطية التى تروج لها أجهزة الإعلام الغربية لتشويه صورة الإسلام والمسلمين. فالإخوان ينادون بالدولة الدينية وهم ضد الدولة المدنية. وهو غير صحيح. فالسلطة السياسية فى الإسلام منتخبة من الشعب "الإمامة عقد وبيعة واختيار". وهو نائب عن الأمة وليس خليفة لله أو حتى للرسول. ينادون بتطبيق الشريعة أى الحدود على المسلمين وغير المسلمين. وهو غير صحيح. فالشريعة تعطى الحقوق قبل أن تطالب بالواجبات، حق المسلم فى بيت المال فى الغذاء والكساء والإيواء والتعليم والصحة والعمل والكرامة. والحدود جزء صغير من نسق الشريعة الكلى كنظام سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى. وهناك الشروط التى يصعب توافرها لتطبيق الحد. وهناك الموانع التى يكثر حضورها لإيقاف تطبيق الحد.

الإخوان يحرمون كل شىء، الموسيقى والفن والرقص والغناء، والتليفزيون والسينما.

والحرام عندهم يسبق الحلال. والمنع له الأولوية على السماح. وهى صورة كريهة منقولة مما يروج عن الطالبان وبعض الحركات الأصولية المتشددة فى البدو والحضر. وقد كان الفقهاء من كبار المؤلفين فى الحب مثل ابن حزم فى "طوق الحمامة". وكان القراء من أساطين الغناء. وقد علّم الشيخ أبو العلا سيدة الغناء العربى أم كلثوم أصول الغناء. والموسيقى العربية، والرسم العربى، والفن العربى، والموشحات العربية أشهر من أن تُعّرف.

وإذا حضر الإخوان على الساحة السياسية فسيطالب الأقباط بنفس درجة الحضور. وبالتالى يخاطر ظهور الإخوان بالوحدة الوطنية، ويكونون بداية لنشر الطائفية. وهو اتهام باطل. فالإخوان وطنيون أولا. والوطنية تسمح بتعدد المرجعيات والأطر النظرية. المسلمون والأقباط مصريون أولا، تجمعهم الهوية الوطنية قبل أن يفرقهم الدين. وما يريده الغرب هو غرس النعرة الطائفية والعرقية لتفتيت الأقطار العربية بعد أن ضعفت الرابطة القومية.

يمارس الإخوان العنف، ولا يقبلون الحوار. وهم الذين بدأوا بالعنف فى الانتخابات الأخيرة. وهو ما تناقلته أجهزة الإعلام الغربية ضد الحركات الإسلامية. الإخوان أهل حوار. يدعون الناس سلما لا عنفا (**لا إكراه فى الدين**)، ويدعون إلى كلمة سواء بينهم وبين الناس فى الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية والتنمية المستقلة. يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس. هم جزء من الوحدة الوطنية فى الداخل لمقاومة الخارج (**أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

ليس الإخوان كلهم من تيار فكرى واحد. فهناك كما هو الحال فى كل التنظيمات السياسية وسط ويمين ويسار. الوسط هو الأغلبية. يقبل المجتمع المدنى ومبادئ الحرية والديموقراطية. وهو الذى يمثله حزب "الوسط" تحت التأسيس. واليمين يتلاشى تدريجيا. يمثله الإخوان التقليديون الذين لم يتغيروا منذ تأسيس الجماعة فى العشرينات حتى الآن على مدى سبعين عام تقريبا. واليسار مازال غير مؤثر بعد أن بدأه سيد قطب فى المرحلة

الثالثة من حياته بعد الإبداع الفنى ثم النقد الأدبى، مرحلة "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" و"معركة الإسلام والرأسمالية" و"السلام العالمى والإسلام". وهو القادر على مد الجسور وعقد الحوار مع المعارضة الليبرالية واليسارية والقومية. ويتسع يوما وراء يوم حتى يستقطب الوسط معه وينحسر اليمين كلية.

وبدلا من تأسيس الجبهة الوطنية بين أطياف المعارضة كلها، إخوانية ويسارية وليبرالية وقومية، واستئناف التنسيق الذى حدث قبل الانتخابات النيابية، تتفكك المعارضة، ويضرب بعضها بعضا. وتتوجه المعارضة اليسارية والليبرالية إلى حليف الأمس تهاجمه وتنقده، وتقلص حجمه حتى يفسح لها المجال للانتشار والتأثير. مازالت عقلية الفرقة الناجية هى السائدة حتى فى المعارضة اليسارية.

وبدلا من التعلم من الإخوان، وكيفية توسيع قواعدهم، وتنظيم صفوفهم، وتحزيب نسائهم، والحفر فى الموروث الثقافى، ورفع شعارات قادرة على تجنيد الجماهير بالرغم من خطابيتها مثل "الإسلام هو الحل" الذى تعود عليه الناس منذ أكثر من عقدين من الزمان، تتوجه المعارضة اليسارية بالهجوم على الإخوان وترفع شعار "لا للدولة الدينية، نعم للعلمانية". فى حين أن الأيديولوجيات العلمانية للتحديث اختيار النخبة وإن عبرت عن مصالح الجماهير. تستطيع الأيديولوجيات اليسارية الحفر فى الموروث لتعميق ثقافتها ولحمها بالموروث الثقافى حتى تكون أكثر ضربا من الثقافة الشعبية وأكثر أثرا فى سلوك الناس.

بدلا من الصراع على السلطة ووراثة الدولة، والدولة مازالت قائمة بالرغم من ضعفها فى الداخل وتبعيتها للخارج، يضرب جناحاها الرئيسيان بعضهما بالبعض الآخر. كانت الدولة باستمرار وتمثل القلب منذ دولة محمد على فى القرن التاسع عشر حتى الدولة الليبرالية فى النصف الأول من القرن العشرين والدولة القومية والاشتراكية فى النصف

الثانى منه. وكان جناحاها، الإخوان والشيوعيون، هما المعارضان الرئيسيان. وكانت الدولة تضرب الإخوان بالشيوعيين كما حدث بعد الثورة المصرية فى الجمهورية الأولى أو تضرب الشيوعيين بالإخوان كما حدث فى الجمهورية الثانية أو تضرب الاثنين معا كما حدث فى الجمهورية الثالثة وفى الدولة الليبرالية الأولى قبل الثورة. ولم يعد الإخوة الأعداء يتصورون، بدلا من الصراع بينهما، أن الدولة المتسلطة هو العدو المشترك لهما معا، يتحالفان معا ضده. وبدلا من التقاتل على وراثة الدولة الرخوة يتوجه الجميع، القلب والجناحان للتصدى لمخاطر التجزئة، العرقية والطائفية التى تحيط بالدولة القطرية فى العراق ولبنان وسوريا والسودان ودول الخليج ومصر وكل دول المغرب العربى.

وأيهما أفضل الهجوم على الإخوان أم الاستمرار فى توحيد قوى المعارضة بكافة فصائلها ضد دولة التسلط والطغيان وتزوير إرادة الشعوب؟ متى تتعلم قوى المعارضة من تاريخها؟ متى تتراكم تجاربها وتعيد حساباتها على الأمد الطويل وليس على الأمد القصير؟

٦ـ الصدام مع الإخوان، لمصلحة من؟

وكأن الوطن فى حاجة إلى كب الزيت على النار وإشعال الحريق فيه بعد أن اختار النظام السياسى العزلة والانكماش والتفتيت والنهب والتبعية والاستمرار فى السلطة والتضحية بكل شىء. وهذا ما يحدث الآن بالصدام مع الإخوان، الحزب الحاكم وبعض أحزاب المعارضة. فلمصلحة من يتم هذا الصدام ويُخطط له؟

الإخوان موجودون على الساحة المصرية منذ تأسيسها عام ١٩٢٧ فى الإسماعيلية على ضفاف القناة وأمامها جنود الاحتلال البريطانى. واستطاعت فى ظرف عقدين من الزمان أن تكون قوة المعارضة الرئيسية فى البلاد ضد الاحتلال والقصر وفساد الحكم والأحزاب السياسية بالرغم من عدم اشتراكها فى لجنة الطلبة والعمال التى كانت تمثل بؤرة الحركة الوطنية فى عام ١٩٤٦. اشتركت فى حرب فلسطين مع الجيش المصرى فى ١٩٤٨ كمتطوعين. كما نظمت المقاومة المسلحة على ضفاف القناة ضد قوات الإنجليز عام ١٩٥١. وتم التعارف بينهم وبين الضباط الأحرار فى أتون المعارك وفى ميدان القتال. وكان عبد الناصر على صلة معهم باعتبارهم إحدى القوى الوطنية فى البلاد. وكانوا على علم بموعد قيام الثورة. وعهد إليهم بحراسة المبانى العامة ليلتها.

وبعد أزمة مارس ١٩٥٤ وانضمام الإخوان للقوى الديموقراطية فى البلاد والتى كانت تريد العودة إلى الحياة النيابية والدستور التى كان يرمز لها محمد نجيب، حلت الجماعة، ودخل أعضاؤها السجون، واستشهد قادتها، وهاجر البعض الآخر. وظلوا بعيدين عن الحياة

(*) العربى الناصرى: ١٨ يونيو ٢٠٠٦.

السياسية المصرية حتى عام ١٩٧١ عندما أخرجهم رئيس الجمهورية الثانية من السجون لاستعمالهم ضد الناصريين. ولما سار في سياساته إلى الحد الأقصى، التبعية للولايات المتحدة، الصلح مع إسرائيل، القوانين المقيدة للحريات، والقطيعة مع العرب، تخلصت بعض الجماعات منه وهي التي تكونت داخل السجون وأصبحت تنقد التنظيم الأم نفسه لتعاونه مع النظام وسيادة التيار التغريبي فيه.

ثم مارس الإخوان الحياة السياسية بشرعية الواقع الجديد. فدخلوا الانتخابات العامة مع حزب الوفد في عام ١٩٧٦. وتوالت مشاركتهم في المجالس النيابية حتى المجلس قبل الأخير بسبعة عشر عضوا، وهذا المجلس بثمانية وثمانين. وكانوا قد كسبوا انتخابات معظم الاتحادات والنقابات وأندية الجامعات. وكانت لهم منابرهم الإعلامية ونشراتهم ودعائهم واجتماعاتهم لانتخاب المرشد العام كأمر واقع خاصة وأن قرار الحل في ١٩٥٤ مازال مطعونا فيه أمام القضاء.

والآن يتزايد الهجوم على الإخوان من الحزب الحاكم ومن بعض أحزاب المعارضة خاصة حزب "التجمع". وتكال لهم الاتهامات من رئيس الوزراء بأنهم تنظيم سري داخل مجلس الشعب مع أنهم أتوا بانتخاب حر مباشر بالرغم من محاولات تزوير الانتخابات من الحزب الحاكم وأجهزة الدولة، الأمن والشرطة خاصة. ومازالت الشبهات تحاك حولهم أنهم يد مع الحكومة ويد مع المعارضة، يرفضون التمديد والتوريث علنا مع المعارضة، ويقبلونها سرا مع الحكومة، ويستغلون أزمة القضاة لصالحهم الخاص. هدفهم الوصول إلى الحكم، وركوب موجة المعارضة، ويتلاعبون بانتخابات النقابات والاتحادات المهنية. والدولة منقسمة على نفسها. رئيس الوزراء يتهم مع الحزب الحاكم، ورئيس مجلس الشعب يدافع. وتستعملهم لجنة السياسات كفزاعة للولايات المتحدة الأمريكية، إما التوريث وإما الإخوان. وعلى أمريكا أن تختار بين الصديق والعدو، بين العولمة والإرهاب. بل إنه يتم التفكير أحيانا

فى حل البرلمان للتخلص من المعارضة الإخوانية والقيام بانتخابات أخرى بعد التأكيد على أن الإخوان جماعة محظورة مازالت تخضع لقرار الحل منذ أكثر من نصف قرن مضى.

ويخشى من كثرة الضغط عليهم والالتفاف حولهم واعتقالاتهم المستمرة بعد كل مظاهرة عامة أو محاكمتهم وإدخالهم السجون من جديد أن تنشأ جماعات جديدة تبرر استعمال العنف والتصفيات الجسدية، وبالتالى ممارسة العنف والعنف المضاد. فلمصلحة من يقع التصادم بين الحزب الحاكم والإخوان؟ ألا يمكن للنظام السياسى أن يتحالف مع الداخل وقواه الرئيسية لفك حصاره فى الخارج، فى الشام فى فلسطين والعراق، وفى الجنوب فى السودان؟ ألم يئن الأوان لتصحيح مسار ثورة يوليو وإلغاء قرار الحل فى ١٩٥٤ بعد أن عاد الوفد والناصريون بقرار القضاء؟ ألم يئن الأوان وثورة يوليو جديدة على الأبواب أن تعيد الثورة ربط نفسها بالقوى السياسية القائمة فى البلاد، الإخوان والشيوعيون والناصريون والليبراليون؟

أما أحزاب المعارضة فمازالت ترى الإخوان منافسا رئيسيا لها كسلطة بديلة بعد أن ينتهى النظام القائم. وتحاول أن تتخلص منهم وتستدعى النظام الحاكم عليهم. فقد أخذت جميع أحزاب المعارضة فى الانتخابات الأخيرة بالرغم مما شابها من تزوير اثنى عشر صوتا فى حين حصد الإخوان ثمانية وثمانون صوتا. وهى جريمة لا تغتفر. ويرفع أحد أحزاب المعارضة الرئيسة فى هتافاته الجماهيرية شعار:

الفاشية لها وجهان ∴ الحزب الحاكم والإخوان!

ويستبعدهم الوفد بدعوى العلمانية، فلا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة. والحزب الحاكم يستعمل المفاهيم الدينية للترويج لخياراته السياسية. والناصريون التقليديون أكثرهم حياء، والناصريون الشبان لم يقعوا فى مثل هذا الفخ حرصا على وحدة المعارضة وعدم تفتيتها. نسق الإخوان مع كافة أحزاب المعارضة فى الانتخابات الماضية.

ويشاركون فى كل المظاهرات والتجمعات السياسية مثل كفاية وحركة ٩ مارس وكل الحركات الوطنية من أجل التغيير. ينزلون الشوارع ويُقبض عليهم بالمئات. وينضمون للقضاة الأحرار بالرغم من اتهامهم بركوب الموجة والتفتيش فى النوايا والضمائر. ومع ذلك تفضل المعارضة الرسمية تغليب التناقض الثانوى بينها وبين الإخوان على التناقض الرئيسى بين كل فصائل المعارضة والحزب الحاكم. وفى نفس الوقت الذى تحاصر فيه حماس فى الداخل والخارج، وتحاصر فيه إيران فى الخارج يُحاصر الإخوان فى الداخل خوفا من المد الإسلامى. وفى نفس الوقت تثبت المقاومة الإسلامية فاعليتها ودورها فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير.

ليست من مصلحة القوى السياسية فى البلاد، الحزب الحاكم أو أحزاب المعارضة، الهجوم على الإخوان وجعلهم المشكلة الرئيسية فى البلاد والسخرية منهم ومن مرشدهم العام الذى يعامل الحكومة بـ"الحذاء". وليس فى صالح الوطن تفتيت قواه السياسية فى الداخل والتنافس على السلطة، والحزب الحاكم مازال قائما ويمسك بزمام السلطة فى كل مكان.

ما ينقذ الوطن هو تكون جبهة وطنية عريضة تتفق على الحد الأدنى من برنامج للخلاص الوطنى يقوم على الدفاع على الإرادة الوطنية المستقلة ضد التبعية للخارج، وحرية الشعب والمواطن ضد القهر فى الداخل، والقيام بدور مصر الإقليمى والدولى ضد الانكماش على الذات والعزلة من الخارج، ودفاعا عن العدالة الاجتماعية وإعادة توزيع الثروة ضد تراكمها فى أيدى القلة من الأغنياء ورجال الأعمال الكبار ضد الفساد والرشوة وتهريب الأموال. ويقوم بدور هذه الجبهة الوطنية المتحدة حكومة ائتلاف وطنى من جميع القوى السياسية بالرغم من تعدد أطرها الفكرية لتحقيق البرنامج الوطنى للإنقاذ، وليس عن طريق تداول السلطة الذى يعنى حكم حزب واحد على التوالى مع استبعاد الآخرين.

إن البلاد فى حاجة إلى تغير نوعى فى الرؤية، الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة،

طبقا للإحساس بالمخاطر المصيرية التى تواجهها وفى وقت يُعاد فيه التخطيط للوطن العربى كله ولدول الجوار فى الشرق الأوسط الكبير جغرافيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا. والإخوان لهم القدرة على حشد الجماهير وإخراجها من سلبيتها السياسية على مدى نصف قرن. وهم قادرون على عودة مصر إلى القيام بدورها الإقليمى الطبيعى فى محيطها العربى، بالتنسيق مع الإخوان فى الأردن وفتح وحماس والجهاد فى فلسطين، والمقاومة الإسلامية فى العراق وأفغانستان والشيشان، وتحقيق المصالحة الوطنية بين القوى الإسلامية وقوى المعارضة السياسية فى لبنان والسودان وليبيا وتونس والجزائر. وهم قادرون على عدم وقوع تصادم بين الوطن العربى ودول الجوار، إيران وتركيا.

ليس من مصلحة أحد الصدام مع الإخوان الآن، وكب الزيت على النار وإشعال الحريق. فالوطن العربى هو الخاسر. ومن صالح الجميع تجميع القوى الوطنية وتوجيهها ضد القهر فى الداخل والهيمنة فى الخارج. فالإخوان هم فى النهاية سليل الحركة الإصلاحية التى منها خرجت معظم حركات التحرر الوطنى، وإليها قد تعود.

٧- اللعب بالنـــار

تدور العملية الديموقراطية بين الحكومة والمعارضة. الأغلبية فى الحكم، والأقلية فى المعارضة. وبسبب سوء الأداء والسياسات، تصبح الأغلبية فى الحكم أقلية فى المعارضة، وتصبح الأقلية فى المعارضة أغلبية فى الحكم. وفى كلتا الحالتين، الفارق ضئيل بين الحكم والمعارضة لأنه فى السياسة لا يوجد حق مطلق وباطل مطلق. ويتم الاختيار بين سياسات وليس استفتاء على أشخاص أو تنصيبا لحزب حاكم، يسمح لبعض أفراد المعارضة بالنجاح فى الانتخابات كنوع من "الديكور" الديموقراطى حتى تكون هناك أغلبية وأقلية، حكومة ومعارضة.

وفى مصر المعاصرة منذ عقدين من الزمان تتفق الحكومة مع المعارضة المستأنسة على عدد مقاعد المعارضة وعلى زعيمها الذى يمثلها، هذا الحزب الليبرالى مرة، وذاك التجمع اليسارى مرة أخرى. وتشجع قيام حزب للغد أو للمستقبل مرة ثالثة يقوم بدور المعارضة من داخل الحزب الحاكم بعد الاتفاق على قواعد اللعبة وعدم تجاوز الخطوط الحمراء وذلك من أجل قسمة قوى المعارضة إلى معارضة شرعية من داخل النظام ومعارضة لاشرعية من خارجه إما من أحزاب الرفض التى مازالت تعيش بأحلامها فى الخمسينيات والستينيات، والعالم قد تغير، والناس قد تبدلوا، ولم يعد العصر يتحمل الروايات الكبرى والمشاريع التاريخية العظمى، وإما من الجماعات المحظورة إسلامية وماركسية على مدى نصف قرن بالرغم من وجودها فى الشارع وفى المؤسسات الدستورية والهيئات والنقابات والأحزاب

(*) العربى الناصرى: ١٢ يونيو ٢٠٠٥.

وجهاز الدولة وربما الجيش والشرطة.

فإذا اشتدت المعارضة خارج هذه اللعبة التقليدية وقوى عودها وأصبحت شوكة فى جسد النظام السياسى فإنه يستعمل معها سياسة "فرق تسد"، السياسة الاستعمارية القديمة التى استعملتها القوى الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا، من شق صف النضال الوطنى، وضرب الحركات الوطنية بعضها بالبعض الآخر، وقسمتها إلى حليف وعدو، عاقل ومتهور، تدريجى وانقلابى. وكلما اشتد حصار المعارضة للنظام وعجز النظام عن الدفاع عن النفس فإنه ينتقل إلى الهجوم على صفوف المعارضة بخلق طابور خامس فيها. يعارض فى الواجهة ويتحالف من الخلف مع النظام. وسرعان ما تنكشف هذه اللعبة إما بانقلاب النظام على حلفائه من المعارضة واستبدالها بفريق معارض آخر أو بانقلاب المعارضة على النظام ويقظتها وانضمامها لباقى فرق المعارضة الوطنية. فهو الاختيار الأبقى حتى ولو كان الأصعب والأطول، والأقل ضمانا فى الوصول إلى الحكم.

والأخطر من ذلك ما يحدث هذه الأيام من تحول النظام إلى استئناس بعض أحزاب المعارضة التقليدية الشرعية أو مغازلة البعض الآخر اللاشرعى طبقا للعبة شد الحبل بينهما إلى ضرب المعارضة التى وصلت إلى حد المقاومة الشعبية والعصيان المدنى، ونزلت إلى الشارع، وحشدت الجماهير فى تنظيمات شعبية جديدة تجاوزت أحزاب المعارضة الرسمية. وانضمت إليها المنظمات الأهلية. واستعملت سياسة النفس الطويل، وجمّعت قواها، واتفقت على برنامج موحد للعمل الوطنى. ورفعت شعارات واحدة، متجاوزة الاستقطاب بين السلفية والعلمانية.

ولم يجد النظام الحاكم أمام هذه الظاهرة الجديدة التى استرعت انتباه الداخل والخارج إلا اللعب بالنار وتأجير بعض فتوات الحزب الحاكم مع بعض المأجورين، عشرون جنيها يوميا، للقيام بمظاهرات مضادة تستعمل العنف ضد تكتل المعارضة وصلت الذروة

يوم الأربعاء الأسود ٢٥ مايو، يوم الاستفتاء على الاستفتاء، والمعروفة نتائجه مستقبلا، وتم العدوان على الشعب بلا حياء ولا كرامة، ولا تمييز بين رجل وامرأة، بين صحفى وسياسى، وهى مستعدة للضرب منذ أيام الملك قبل الثورة حتى صاحب التاج بعد الثورة ضد خصوم النظام. هذا هو تركيب الداخلية وأجهزة الأمن فى خدمة السلطان أيا كان. وتلحق مصر حينئذ بالحروب الأهلية والطائفية والعرقية فى لبنان والجزائر والسودان والعراق وأفغانستان والشيشان. وتضيع الوحدة الوطنية التى طالما كانت من مآثر مصر منذ ثورة ١٩١٩.

لم يشأ النظام فقط مواجهة المعارضة بالشرطة بالطريقة التقليدية بل مواجهتها بمظاهرات مضادة للإيحاء بانقسام الشعب بين تيارين واتجاهين وطريقين. والحزب الحاكم يمثل تيار الأغلبية، والمعارضة تمثل تيار الأقلية. ولما كان الشعب غير راشد وغير قادر على الممارسة الديموقراطية تصادم التياران فى الشارع. وكما تنظم المعارضة احتجاجاتها فى النقابات والاتحادات والنوادى، نقابات الصحفيين والمحامين والمهندسين ونوادى القضاة وهيئات التدريس بالجامعات فإن الحزب الحاكم ينظم أيضا مظاهرات تأييداً للنظام الحاكم. ويدعو للتجديد والتمديد بل وللتوريث، فهذا الشبل من ذاك الأسد. وتساعد الشرطة من طرف خفى مظاهرات الحزب الحاكم ولا تدافع عن المعتدى عليهم من جماعات المعارضة. فإذا ما اتسع النطاق، وتوالت الصدمات، تظهر مقدمات الحرب الأهلية، وذريعة إصدار الأحكام العرفية، والعمل بقانون الطوارئ كما حدث من قبل فى نهاية الجمهورية الثانية بإشعالها الفتنة الطائفية من أجل التخلص من المعارضة الوطنية والتى انتهت بمذبحة سبتمبر ثم بتصفية المنصة عام ١٩٨١.

يلجأ النظام إلى اللعب بالنار كلما اشتدت به حالة اليأس، وضاق حوله الحصار فى الداخل والخارج، وارتبك فى كيفية تعامله مع قوى المعارضة بالمغازلة والاتفاق أم بالقوة

والعين والحمراء. وفى حالة العسرة يخرج من هذا المأزق عن طريق "علىّ وعلى أعدائى يارب"، ويهدم المعبد. يفضل الحكم على الوطن، وأمن النظام على الأمن القومى، والنخبة الحاكمة على مستقبل البلاد.

وماذا كان يضير النظام لو سمح بمعارضة ومظاهرة هنا وهناك، وهو يمسك بزمام السلطة فى كل شىء، فى المؤسسات الدستورية والإعلامية وبيده أجهزة الأمن والشرطة والقوات المسلحة؟ يضيره أنه يخشى الشعب ومنظماته الأهلية. ويصيبه الرعب من تحرك الشارع الذى ظل ساكنا على أكثر من ثلاثة عقود إلا من عدة هبات شعبية وقتية، من الطلاب أو العمال أو الأمن المركزى أو مجموع الشعب تنتهى بعد أن تبدأ لعدم وجود تنظيم شعبى قادر على أن يجسد مطالب الجماهير، ويحولها من فورة إلى ثورة، ومن هبة إلى نظام بديل. يضيره أنه يعلم أن السلطة بيد المعارضة بالرغم من أنها ليست فى السلطة، وأن السلطة تتهاوى بالرغم من أن بيدها كل وسائل القوة والبطش. وقد كان نيلسون مانديلا يحكم جنوب أفريقيا من سجنه فى روبين أيلاند على مدى ربع قرن بالرغم من بطش النظام العنصرى الأبيض بالشعب بكل ما لديه من قوات الأمن والشرطة.

قد يحرق اللعب بالنار الوطن كله وليس فقط الشارع بتأجير مظاهرة حكومية لضرب مظاهرة وطنية. فبعد انقسام الشعب تنقسم الشرطة التى يرفض فريق منها أن يكون أداة فى يد النظام لضرب الشعب. وقد ينقسم الجيش. فالجنود والضباط أفراد من الشعب، تتجاذبهم تياراته السياسية الإسلامية والقومية. فهو فى النهاية جيش الثورة والأمين عليها بنص الدستور. وقد تنقسم مؤسسات الدولة، ويحدث انهيار دستورى كما هو الحال الآن برفض نادى القضاة الدخول فى لعبة تزييف الانتخابات دون إشراف قضائى كامل.

قد يحدث فى الوطن العربى عن قريب والذى تتجاذبه المياه الجوفية من أسفل والعواصف من أعلى انهيار للنظام السياسى ابتداء من مصر إلى الوطن العربى كله كما

حدث فى أوروبا الشرقية حتى الاتحاد السوفيتى ابتداء من بولندا.

الحطب جاف، يكفى الشرارة. الواقع العربى يموج، والنظام العربى ساكن أو يتحرك فى المكان. وكل ما يحدث الآن من ترقيع قليل للغاية، ومتأخر للغاية. قد يؤدى اللعب بالنار إلى حرق الوطن كله، حكام ومحكومين.

والنار تأكل بعضها ∴ إن لم تجد ما تأكله

٨- كيف يتم التعامل مع الحركات الإسلامية

مازالت الحركات الإسلامية فى الوطن العربى والعالم الإسلامى مبعث قلق لدى نظم الحكم، وموضع تساؤل لدى عديد من الباحثين. وأصبحت ظاهرة تهدد الجميع، فى الداخل والخارج. ويتساءل الجميع: هل يتم التعامل معها بالصدام وإراقة الدماء أم بالاحتواء والضم وإدخالها فى النسيج الاجتماعى أم بالحوار والفهم المتبادل كى تتغير من الداخل؟

ارتبط اسمها بالإرهاب فى الخارج بعد حوادث سبتمبر فى نيويورك وواشنطن ولندن ومدريد بل وفى قلب العالم العربى فى مصر والأردن وتونس والمغرب والكويت والمملكة العربية السعودية واليمن. بل تحول فى الجزائر إلى حرب أهلية كانت حصيلتها فوق المائة وخمسين ألف قتيل. ولم ينج العالم الإسلامى منها فى تفجيرات بالى بأندونيسيا وباكستان والهند وتركيا. وتم الخلط بين المقاومة فى العراق وفلسطين وأفغانستان والشيشان وكشمير والإرهاب. وأصبح كل عمل يقوم على العنف إرهابا دون تفرقة بين إرهاب الدول ومقاومة الأفراد والشعوب. وتم الانتقال من الواقع إلى الفكر، ومن الظروف السياسية والاجتماعية التى أفرزت العنف إلى الإسلام ذاته والحكم على جوهره بأنه دين يمارس العنف وينتشر بالسيف. شريعته الإسلام أو الجزية أو القتال. وشعاره سيف ومصحف. وفى رأى الغربيين سيف تقطر منه الدماء، ومصحف يدعو إلى الكراهية ونبذ الآخر واعتباره إما كافرا أو أهل ذمة أو معاهدا.

مازالت الطريقة الغالبة فى التعامل مع هذه الحركات الإسلامية هو طريق الأمن

(*) الاتحاد: ١٠ فبراير ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٨ فبراير ٢٠٠٧.

والشرطة والجيش والحرس الوطنى، عنفا بعنف، وقوة بقوة، وسلاح علنى فى مقابل سلاح سرى، وقوة الدولة ضد قوة الجماعات. وبطبيعة الحال تكون الغلبة للدولة. فهى الأقوى عدة وعتادا وتنظيما. ويقتل أفراد جماعات العنف أو يعتقلون ويعذبون فى السجون للحصول على المعلومات. فيزدادون عنفا على عنف، وتطرفا على تطرف كما حدث لسيد قطب فى السجن وتحت وطأة التعذيب عندما تحول من "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" و"معركة الإسلام والرأسمالية" و"السلام العالمى والإسلام" فى أوائل الخمسينيات إلى "معالم فى الطريق" بعد اعتقاله فى ١٩٥٤. وقد حدث نفس الشىء لبعض الجماعات وتحولهم إلى العنف فى السجون مثل شكرى مصطفى وجماعة التكفير والهجرة فى السبعينيات. وهاجر البعض إلى خارج البلاد. وانضم بالمجاهدين الأفغان ضد الاحتلال الروسى. وقاتلوا فى البوسنة والهرسك. وعاد "الأفغان العرب" إلى الأوطان ليقوموا بالجهاد فى الداخل بعد أن انتصروا فى الخارج.

ومع زيادة صعود المد اليمينى فى الغرب بدأ العداء للإسلام والمسلمين إما بتشويه صورة الإسلام فى أجهزة الإعلام الغربية، بالأفلام أو الصور أو الرسوم المتحركة أو الروايات والقصص. وبدأت مظاهر الاضطهاد لهم فى القوانين الاستثنائية لمحاربة الإرهاب، ومنها الحجاب، والتعليم الدينى، والمؤسسات الخيرية والمصارف الإسلامية بل والمعاهد ومراكز الأبحاث والجامعات. وطالب اليمين الأوروبى بإيقاف سيل الهجرات الشرعية واللاشرعية من الجنوب إلى الشمال، من أفريقيا وآسيا إلى أوروبا. بل طالب اليمين المتطرف ببدء القيام بعملية نزح للمسلمين وإرجاعهم إلى بلادهم الأصلية كما طُرد المسلمون من الأندلس من قبل حماية للهوية الأوروبية، ودفاعا عن التجانس الأوروبى، وتمسكا بالعقيدة المسيحية واليهودية، وبنقاء العنصر الأبيض، وحماية للحضارة الأوروبية.

وآثر بعض المستنيرين داخل النظم السياسية البداية بالحوار مع أفراد هذه الجماعات

وقياداتها داخل السجون من أجل إعلان توبتهم وإرجاعهم إلى الإسلام الصحيح، إسلام الدولة والنظام والاستقرار. وهى سياسة الاحتواء. فالجماعات على خطأ وفى ضلال مبين. والدولة على هدى وطريق مستقيم. ونجحت بعض هذه المحاولات. وتمت مراجعات فى السجون بلغت الآن حوالى العشرين كتيبا لرفض العنف المسلح وتكفير المسلمين وقبول العمل فى المجتمع المدنى، ورفض الحاكمية والدولة الدينية، وقبول مبدأ المواطنة والتعددية السياسية، والانتخابات البرلمانية، وإطلاق حرية الفكر، وممارسة الاجتهاد. وخرج "التائبون" من السجون بالفعل، وانخرطوا فى الحياة الاجتماعية من جديد وإن كانت مشاركتهم فى الحياة السياسية بأحزاب دينية مازال بعيد المنال لمنع الدستور لذلك حماية للبلاد من الطائفية. وقد تحول أحد زعمائهم فى الجزائر إلى أديب وروائى.

ليست طريقة التعامل مع الحركات الإسلامية الاحتواء والاستئناس مادامت المنطلقات الفكرية والظروف السياسية والاجتماعية لم تتغير. بل الطريق هو الحوار مع هذه المنطلقات حتى يتضح اللبس فى فهم النصوص، والابتسار لها، والانتقاء لبعضها دون البعض الآخر. الطريق هو الحوار معها، الند للند كطرفين متكافئين، واجتهادين شرعيين بين أحرار متساويين وليس بين سجّان وسجين. الطريق هو الحوار مع تصوراتهم للعالم ومع فهمهم للتراث وموقفهم منه. فليس كل ما فى التراث هو السيف والتكفير والردة والحدود، والقتل والعقاب والردع. فى التراث أيضا الرحمة، وحرمة أرواح وأعراض وأموال المسلمين، واحترام الآخر والحرية والحوار مع المخالفين وقبول الرأى والرأى الآخر.

المطلوب فهم الدوافع والغايات، وبيان تعدد الطرق والوسائل لتحقيقها طبقا للقاعدة الفقهية: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بشرط عدم الإتيان بمنكر أعظم منه، وطبقا لمبادئ الحوار فى الإسلام، والجدال بالتى هى أحسن، وافتراض أن الإنسان على صواب وقد يكون على خطأ، وافتراض الآخر على خطأ وقد يكون على صواب، دون تعيين أحد الطرفين فى خطأ

مطلق أو فى صواب مطلق (**وإنا أو إياكم على هدى أو فى ضلال مبين**). وتلك مهمة العلماء فى إعادة بناء الموروث القديم وتحويله من الجانب المغلق إلى الجانب المفتوح. فالإنسان ما يقرأ وما يرث.

والمطلوب أيضا العمل على تغيير الظروف الاجتماعية والسياسية التى أفرزت هذه الجماعات، وهى حالة الضيق العام والأزمة المستغلقة التى يعيشها الشباب، قهر وفقر وفساد وضياع فى الداخل، واحتلال وعدوان وإهانة وجرح للكرامة فى الخارج. وليس لهذا الشباب أى تنظيم سياسى شرعى يضمه. فيظل يعبر عن نفسه سياسيا خارج إطار الشرعية، ويعنف ضد القانون، ويكفّر الحاكم الظالم، ويخرج على المجتمع الذليل. يعيش تحت الأرض أو يكوّن جماعات مثالية مغلقة على أطراف المدن أو فى الصحراء. ويتزوجون فيما بينهم، الأطهار للطاهرات، والمؤمنون للمؤمنات بلا تكلفة تُذكر. يكفى وهب النفس والرضا بين الطرفين، والشهود من أعضاء الجماعة. وزوجات الشهداء يردن الاستقرار وإعادة التأهيل. كثير من النظم العربية لا تعطى شرعية للحركات الإسلامية. لذلك فيها يشتد العنف، فى مصر وليبيا وتونس والجزائر وسوريا وغيرها. وأقلها يضعف فيها العنف نسبيا حيث توجد أحزاب سياسية ذات مرجعية إسلامية مثل الأردن والمغرب والكويت واليمن وغيرها.

والأوضاع الخارجية تبعث أيضا على القلق، احتلال العراق وفلسطين والصومال وهم أعضاء فى الجامعة العربية، وأفغانستان والشيشان وكشمير وهى دول إسلامية بعضها أعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى. ساهمت الحركات الإسلامية فى حركات التحرر الوطنى. وكانت البوتقة التى انصهرت فيها كل حركات الاستقلال الوطنى من ليبراليين وقوميين وماركسيين. وبعد نيل الاستقلال حكمت الأيديولوجيات العلمانية للتحديث وحدها. واستبعدت الحركات الإسلامية. ثم وقع الصدام بين الفريقين. ودخلت الحركات

الإسلامية السجون فازدادت تطرفا وعنفا. وظلت مستبعدة من العمل السياسى على مدى أكثر من نصف قرن. لم تتعود فيه إلا على الخصومة مع نظم الحكم، مع إحساس قوى بالاضطهاد. هم مواطنون مثل غيرهم ولكنهم مطاردون باستمرار من أجهزة الأمن. تسخر منهم الرسوم فى الصحف، من اللحى والجلباب، والحجاب والنقاب، والمعتقدات والممارسات.

فإذا ما تغير هذا الجو من الإحباط العام، والإحساس بالغضب والظلم والعجز، وإذا ما عادت الأوطان إلى مسارها الطبيعى، واعترفت النظم الحاكمة بأهمية التعددية السياسية، ونبذ حديث الفرقة الناجية، وأن الحق من جانب واحد، وإذا ما أصبح هذا الوطن للجميع على قدم المساواة تنحسر هذه الجماعات الغاضبة التى لم تجد حتى الآن إلا العنف كوسيلة للتعبير عنها.

ومن منظور تاريخى عام، قد تكون الحضارة الإسلامية على أعتاب ازدهار ثان بعد الازدهار الأول قبل ابن خلدون فى القرون السبعة الأولى وبعد التوقف الأول بعد ابن خلدون على مدى سبعة قرون أخرى فى العصر العثمانى. وقد بدأ ذلك منذ حركات الإصلاح الدينى فى القرن التاسع عشر وفى الصحوة الإسلامية فى أواخر القرن العشرين. الإسلام الآن هو الدين الثانى فى أوروبا. والمسلمون يكونون ربع سكان المعمورة، أكثر من مليار وربع. وإمكانياتهم المادية والمعنوية بلا حدود. والعالم الإسلامى، الأفريقى والأسيوى، مرشح أن يخرج منه قطب ثان فى مواجهة القطب الأول. لذلك يشتد عليه الحصار من الخارج والتهديد من الداخل. ويُبالغ فى استعمال القوة معه بالغزو المباشر وبالقواعد العسكرية والأحلاف ومناطق النفوذ والتجزئة والتقسيم إلى فسيفساء عرقى طائفى منعا لوحدته. فإذا كان الإسلام قادما وليس مولّيا، أليس من الأفضل الحوار معه وترشيد حركاته بدلا من تركه كالثور الهائج يقتل ويُقتل؟

٩- من يملأ الفراغ السياسى؟

الحاجة إلى حزب جديد

مازالت الانتخابات الأخيرة فى مصر ونتائجها تثير تساؤلات كثيرة. فقد حصل الحزب الحاكم على ٧٨٪ من أصوات الناخبين. وحصل الإخوان المسلمون بالرغم من أنها محظورة، لاشرعية فى نظر القانون، وشرعية فى نظر الناس والشارع السياسى على ٢٠٪. وحصلت باقى أحزاب المعارضة، الناصرية والقومية والليبرالية على حوالى ٢٪. إلا أن مجموع الناخبين الذين ذهبوا للمشاركة فى العملية السياسية من خلال صناديق الاقتراع لا يتجاوز ٢٣٪ أى أقل من ربع عدد الكتلة الانتخابية التى لها حق التصويت.

وفوجئ الجميع، الحزب الحاكم والمعارضة، الدولة وخصومها، الداخل والخارج، بهذه النتائج. واستعملت كفزاعة للولايات المتحدة الأمريكية كى تقبل النظام القائم وليس النظام المحتمل فى المستقبل طبقا لمبدأ اختيار أهون الضررين، خاصة وأن أمريكا بدأت تعلن عن رغبتها فى حوار مع الجماعات الإسلامية المعتدلة. فلا ضير أن تحكم بشرط الدخول فى السوق، وقبول الخصخصة، والدخول فى مشاريع التسوية ومعاهدات السلام مع إسرائيل لإنهاء الصراع العربى الإسرائيلى.

وكان من نتائجها أيضا قرار تأجيل الانتخابات المحلية سنتين وإلا حصد الإخوان الأصوات، وسيطروا على الحياة المدنية والحكم المحلى. وشفطوا المجتمع من أسفل، من أجهزة الدولة، والخدمات الاجتماعية، وهو المنهج الجديد للوصول إلى الحكم، دون ما حاجة

(*) الاتحاد: ١١ مارس ٢٠٠٦، الدستور: مارس ٢٠٠٦.

إلى الانقلاب عليها من أعلى، وهو الأسلوب القديم. وفى اللغة الأردية التى استعملها المودودى، "ثورة" تعنى "انقلاب" فى "منهاج الانقلاب الإسلامى". وهو نفس السيناريو الذى حدث فى الجزائر عندما سمحت بانتخابات حرة بعد المظاهرات العارمة التى اجتاحت الجزائر من الشباب العاطل. نجحت جبهة الإنقاذ، وحصدت حوالى ٧٠٪ من الأصوات. فانقلب عليها الجيش، وألغى النتائج، وحظر نشاط الجبهة. وبدأت الحرب الأهلية بين الجبهة والجيش والتى كلفت الجزائر حتى الآن أكثر من مائة وخمسين ألف قتيل. وهو ما حدث فى فلسطين أيضا بنجاح "حماس" على غير توقعات مراكز قياس الرأى العام. وهو ما حدث من قبل فى انتخابات الرئاسة فى إيران بنجاح المحافظين والرئيس الحالى وتوارى الإصلاحيين. وهو مؤشر على ما قد يحدث فى أى انتخابات ديموقراطية حرة فى كافة أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى.

فإلى أى مدى يستمر هذا الوضع السياسى الغريب، المفرّغ من الداخل: حزب حاكم نال الأغلبية بالتزوير وبتدخل أجهزة الأمن وبسلطان الدولة، وبالتعود على مدى نصف قرن على نجاح حزب الحكومة، وحزب رئيسى معارض من جماعة محظورة لاشرعية، هرب الناس إليها بشعارات تمثل طوق النجاة للناس: "الإسلام هو الحل" بعد أن استعصت الحلول، وتفاقمت الأزمات، وغامت الرؤية. و"الإسلام هو البديل" بعد أن جربت الليبرالية أولا ثم الاشتراكية ثانيا، وزاد فقرها وقهرها فى كلا النظامين، واحتلت الأراضى، وضاع الاستقلال. و"الحاكمية لله" بعد أن ظلمت حاكمية البشر، وسجنت واعتقلت وفسدت ووالت الأجنبى على حساب الوطنى، وصالحت الأعداء. و"تطبيق الشريعة الإسلامية" بعد أن شقى المواطن وعذب فى أجهزة الحكم وبيروقراطية الدولة وتعسف القوانين، وعظمت الرشاوى والوسائط. وعادة ما يتعاطف الناس مع المضطهد. ويجد فيه معبرا عن الغضب الاجتماعى مثلهم. والناس تشعر بوجود الإخوان فى الحياة اليومية فى الخدمات العامة

والمستشفيات والمستوصفات، ودور المناسبات، والدروس الخصوصية الجماعية والترابط الاجتماعى، وحماية الشباب، والدفاع عن الفضيلة.

أما الأحزاب الناصرية واليسارية والليبرالية فبدأت تقوم بالنقد الذاتى السرى أو العلنى. فحدثت انشقاقات فى حزب الوفد، وحزب الغد. وسجن مؤسسه الذى أخذ ٨٪ من الأصوات فى الانتخابات الرئاسية. وكان رئيس حزب الوفد رهن الاعتقال داخل مقر الحزب من معارضيه ولم تفرج عنه إلا أجهزة الدولة. مما يدل على أن الرئيس وحده هو الذى فى حصن الأمان أمام هشاشة منافسيه. والناصريون منقسمون بين الرعيل الأول (العربى) وجيل الشبان (الكرامة). والتجمع به همس خفى عن مسئولية أمينه العام، يد مع النظام ويد أخرى ضد خصومه خاصة المتأسلمين أى الإخوان المسلمين.

هناك إذن فراغ سياسى، تمثله الأغلبية الصامتة، وهم ٧٧٪ ممن لهم حق الانتخاب أى ثلاثة أرباع الكتلة الانتخابية فى مصر. تفوق كل الأحزاب، الحزب الحاكم، والحزب "المحظور"، والأحزاب العلمانية. هناك حاجة إلى حزب سياسى جديد يملأ الفراغ السياسى، ويخاطب الأغلبية الصامتة. يتجاوز الاستقطاب التقليدى بين الإسلاميين، الإخوان المسلمين، والعلمانيين، الوفد والناصرى والتجمع. ويتجاوز الصراع على السلطة، والتنافس عليها. كل منها يدعى أنه وريث الحزب الحاكم. والنظام يعتمد على هذا الفريق الإسلامى مرة ليضرب به الفريق الآخر (العلمانى) كما كان الحال فى الجمهوريتين الثانية والثالثة أو يضرب الفريق الإسلامى بالفريق الاشتراكى التقدمى كما كان الحال فى الجمهورية الأولى حتى يضعف الجناحان، ويقوى القلب. وكل فريق يكفّر الفريق الآخر مما استحال معه إقامة ائتلاف وطنى وتحويل التنسيق الانتخابى فى الدوائر إلى جبهة وطنية متحدة وبرنامج عمل وطنى موحد. كل فريق يريد أن يحكم بمفرده بدعوى تداول السلطة، وهو فى الحقيقة انفراد بالسلطة من كل فريق على حده، باسم الفرقة الناجية.

والجبهة الوطنية المتحدة إمكانية فعلية. فالإسلام ثقافة مصر الشعبية. والمكوّن الرئيسى لوجدانها الوطنى. منه خرجت حركات التحرر والمقاومة للمحتل. ويقوم بدور الأيديولوجية السياسية لدى الناس. يعطيهم تصوراتهم للعالم، وموجهات السلوك. والاشتراكية بكل روافدها الدينية والأخلاقية والعلمية أى الماركسية تعبر عن حاجة الناس إلى العدالة الاجتماعية، وتقليل الفوارق بين الطبقات، ووضع سياسة متوازنة للأجور، تتناسب مع طبيعة العمل وحده. والليبرالية شكلت وجدان مصر الحديث والذى بلغ الذروة فى ثورة ١٩١٩. ومازال الناس يحنون إليها لما كانوا يتمتعون به من حرية فى الصحافة، وتعددية حزبية، ووزارة مسئولة أمام البرلمان، ومؤسسات المجتمع المدنى. والقومية تجربة مصر الحديثة منذ محمد على والعصر الليبرالى، وتأمين مصر فى الشام والسودان وشبه الجزيرة العربية، ووحدة وادى النيل، والقضية الفلسطينية، واستقلال المغرب العربى حتى عصر عبد الناصر عندما أصبحت القومية العربية نظرية تحررية تقوم على الحرية والاشتراكية والوحدة. وعليها قامت أول تجربة وحدوية بين مصر وسوريا، الجمهورية العربية المتحدة، فى تاريخ مصر الحديث. وعليها أيضا قامت كل التجارب الاشتراكية والتنموية فى مصر وسوريا والعراق وليبيا والجزائر واليمن. وبسببها وقع العدوان على مصر فى يونيو-حزيران ١٩٦٧ لإجهاضها دون تعميمها فى كافة أرجاء الوطن العربى.

إن الذى يملأ الفراغ السياسى فى الوطن العربى هو أيديولوجية جامعة لكافة الأيديولوجيات السياسية على اختلاف مدى انتشارها فى الشارع السياسى: الإسلامية، والاشتراكية، والليبرالية، والقومية. تتضمن تحرير الأوطان من الاستعمار القديم فى سبتة ومليلية، والاستعمار الاستيطانى فى فلسطين، والاستعمار الجديد فى العراق، وفى دول الجوار، أفغانستان والشيشان وكشمير، وحماية الأوطان من التهديد بالعدوان مثل سوريا والسودان وإيران، وحصار مصر من أجل إسكات القلب حتى تشل الأطراف. ثم يأتى تحرير

المواطن من كل صنوف القهر والتسلط وخرق حقوق الإنسان فى التعبير والحركة وحرية النقد السياسى والاجتماعى. ثم تأتى العدالة الاجتماعية من أجل إعادة توزيع الدخول فى الوطن العربى بين الأغنياء والفقراء، بين من يملكون ولا يملكون، فأغنى أغنياء العالم منا، وأفقر فقراء العالم فينا. ثم تأتى وحدة الأمة بعد تجزئتها إلى أقطار ثم تفتيت الأقطار إلى فسيفساء طائفى عرقى تشاهد بداياته فى العراق بين سنة وشيعة وأكراد وتركمان وآشوريين ويمتد إلى الخليج بين سنة وشيعة، وإلى شبه الجزيرة العربية بين نجديين وحجازيين، وإلى اليمن بين زيدية وشوافع، وإلى السودان وموريتانيا وتشاد ومالى ونيجيريا من دول الجوار بين عرب وزنوج، وإلى مصر بين مسلمين وأقباط، وإلى المغرب العربى كله بين عرب وبربر، وإلى لبنان بين سنة وشيعة وموارنة. فتصبح إسرائيل هى أكبر دولة طائفية عرقية فى المنطقة تأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية بها، وليس من أساطير المعاد وشعب الله المختار المكونة للكيان الصهيونى كما تصوره هرتزل فى "الدولة اليهودية" فى أواخر القرن التاسع عشر. ثم تأتى التنمية المستدامة بالمشاركة الشعبية وليس فقط بتخطيط الدولة. وأخيرا يوضع ملامح المشروع القومى الجديد تأكيدا للهوية القومية التى تذوب فيها كل الهويات الزائفة العرقية والطائفية والقبلية والعشائرية.

ويستطيع "اليسار الإسلامى" أن يقوم بذلك بصرف النظر عن الاسم، الثورة الإسلامية، لاهوت التحرير، عودا إلى أبى ذر الغفارى، واستئنافا لجمال الدين الأفغانى.

إن التفكير فى حزب جديد يملأ الفراغ السياسى ليس حلما طوباوياً أو مجرد أمنية بل هو تفكير جدى لدى بعض المثقفين الوطنيين لإنشاء حزب وسط يسار أو يسار وسط فى مواجهة يمين رجال الأعمال التابع للولايات المتحدة الأمريكية. وهو ما قد يفرزه الحراك السياسى عن قريب إذا ما تعقدت الأزمة وتفاقمت الأحداث.

الفصل الخامس

الثقافة والمجتمع

١- الثقافة والسياسة.

٢- البوابة الحديدية للجامعة.

٣- أفعل التفضيل.

٤- الشفافية.

٥- التعليم من أجل السوق أم لتكوين المواطن الصالح؟

٦- الرد على البدعة أم السكوت عليها؟

٧- الأقوال والأفعال.

٨- صحافة الإثارة.

٩- أباطرة الصحافة وسدنة النظام.

١ـ الثقافة والسياسة

انفض معرض القاهرة الدولى للكتاب الأسبوع الماضى. وهو ثانى أكبر معرض دولى للكتاب على مستوى العالم بعد معرض فرانكفورت. وتتكرر نفس الظواهر كل عام بالإضافة إلى ظواهر جديدة تعبر عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية العامة فى البلاد. فالمعرض أداة تنفيس مجهرة المثقفين، شبابا وشيوخا. يكشف أكثر مما تكشف أحزاب المعارضة أو الحزب الحاكم أو أجهزة الثقافة، مجالسها وهيئاتها.

تنتشر الكتب الدينية، كتب التراث القديم بعدة نشرات وطبعات، مزخرفة ملونة، أعمال كاملة فى العلوم النقلية، القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه. وهى العلوم التى مازالت تؤثر فى الناس من خلال الجامعات والمعاهد الدينية ومكتبات المساجد وخطبائها، والبرامج الدينية فى أجهزة الإعلام، ومقتنيات البيوت الخاصة. وهى علوم تعتمد على النقل وحده دون العقل مما يقوى التقليد وحجة السلطة، سلطة النص والقدماء فى الثقافة العامة. وتأتى فى المرتبة الثانية الكتب المترجمة، خاصة الكتب السياسية لمن شاء من النخبة المثقفة نافذة على الوافد. وأبرزها المشروع القومى للترجمة وبروز الأسماء اللامعة فى الثقافة الغربية. وبين الموروث والوافد يغيب التفاعل من أجل الإبداع وتظل ثنائية الثقافة إحدى أزمات العصر. فالعربى بين ثقافتين. ولا يملأ الفراغ إلا الإبداع الأدبى فى الشعر والرواية والقصة والمسرحية ويدل ذلك كله على غلبة الكم دون الكيف.

(*) الاتحاد: ١٩ فبراير ٢٠٠٥، الدستور: فبراير ٢٠٠٥.

ويضاف إلى ذلك غلاء الأسعار، والزحام الشديد للفرجة وليس للشراء للإطلاع على السلع الجديدة فى الأسواق. وكالعادة يهرب الناشرون، مصريين وعرب من المؤلفين لعدم دفع حقوقهم وكأن المؤلف شحاذ يبحث عن كريم، وكأن الناشر يعطى صدقة ولا يؤدى حقا. ويظهر ناشرون جدد، يضعون اختياراتهم النوعية، مثقفون ناشرون يجذبون الانتباه. يحاولون نشر الأصيل ويعدون بأداء الحقوق. والمؤلف يصدق ويشجع "أفلح إن صدق". والناشرون يشكون من ارتفاع أسعار إيجار المتر المربع، ومن بطء إخراج الكتب من الدوائر الجمركية، ومن الرقابة ومصادرة الكتب التى تزداد عاما بعد عام. فما كان مسموحا به فى الأعوام الماضية ومازال متوافرا فى الأسواق أصبح ممنوعا هذا العام. بلا ضابط أو معيار. مع أن القانون لا يبيح مصادرة كتاب لا قبل النشر ولا بعده إلا بأمر قضائى. والواقع يكذّب التصريحات الرسمية كالعادة فى أزمة عامة لصدق الخطاب الرسمى السياسى والثقافى على حد سواء.

وأهم ما يميز معرض القاهرة هو نشاطه الثقافى والأدبى والفنى إلى يجتمع فيه المثقفون والأدباء والفنانون ربما من عام إلى عام. يستأثر الوزراء والمسئولون والكبار بالقاعات الكبرى. وفيها يتم الدعاية للنظام وتبرير سياساته. وهو ليس حوارا بين الرأى والرأى الآخر بل بين الرأى ونفسه، بعيد عن الثقافة السياسية وأقرب إلى التجميل السياسى.

والأهم مناقشة الكتب فى "كاتب وكتاب". وهى الأقرب إلى النشاط الثقافى المستقل. والاختيار تغلب عليه الشللية. فما معيار اختيار كتاب آخر؟ صحيح أن هناك لجنة للاختيار. تختار كتبا قبل أن تصدر. وتترك كتبا قد صدرت. الوساطة والمحاباة والتميز والمعرفة المسبقة قد تكون أحد بواعث الاختيار. ويوضع أسماء المناقشين والمحاورين أحيانا لملء الفراغ ولجذب الجمهور بل ودون سؤال البعض منهم أو وضعهم بالرغم من اعتذارهم.

وكثر الغياب بالرغم من امتلاء القاعة أو المخيم. ووصل الأمر إلى أن حضر المؤلف نفسه دون غيره. مناقشة نفسه أمام قاعة مكتظة.

وفى "الخيمة الثقافية" يشتد النقاش، وتتصارع الآراء، وتتعدد الاتجاهات. وتكون هى المؤشر على الحيوية الثقافية ومستوى الحوار فى البلاد. الواقفون أكثر من الجالسين. والمتحدثون صرحاء، من رموز الحركة الوطنية والثقافة الوطنية. تتعرض للعام قبل الخاص، وللمصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة، وللواقع المعاش قبل الكتاب المدون، وللسياسة قبل الثقافة. فالثقافة سياسة، والسياسة ثقافة.

وتسترجع الخيمة الأحداث نقاش الرئيس مع المثقفين كل عام حيث تطرح فيه المسائل بوضوح فى مواجهة مباشرة. ولدواعى الأمن تغير المكان والزمان والهيئة المنظمة. فالمكان فى رياسة الجمهورية، وليس فى أرض المعارض. فالرياسة المحروسة أكثر أمنا من المعرض الشاسع. والزمان قبل المعرض وليس فى أول يوم. فحركات الرياسة تتغير زمانا ومكانا لدواعى الأمن. ولم يعد المنظم الهيئة العامة للكتاب بل رياسة الجمهورية. تختار عددا قليلا من المضمونين مع استبعاد المشاغبين.

ومع ذلك لا يوجد ضمان كامل كما حدث فى السادس من أكتوبر ١٩٨١. فطالب رئيس المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ونائب مركز الأهرام للدراسات السياسية وأحد الكتاب اللامعين والمفكرين السياسيين بالتعبير عن الإجماع الشعبى بضرورة تغيير الدستور، والتحول من الاستفتاء على مرشح واحد إلى الانتخاب بين أكثر من مرشح كأحد علامات التحول الديموقراطى، والنظام محاصر بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج وسندان الداخل. وهو مطلب مشروع على لسان كل المواطنين. ومن أجله تكونت حركة "كفاية" كتحرك شعبى تلقائى. فاتهم الكاتب بأنه لا يفهم وبان أولى الأمر أكثر فهما منه. وقوبل اتهام السلطان للعالم باتهام العالم للسلطان بأنه المسئول عن تعذيب الآلاف فى السجون بلا

تحقيق أو محاكمة أو إدانة. وكانت النتيجة منع المفكر السياسى من المشاركة من أى نشاط ثقافى فى ندوات المعرض. فتحول إلى بطل قومى، وقائد وطنى. يُهتف باسمه فى معظم الندوات. فمن بيديه الأمر السلطان أم العالم؟ من يقود من، العربة أم الحصان؟ ولماذا إذن كان العلماء ورثة الأنبياء وكان السلاطين فى النار "والله لو عثرت بغلة فى العراق لسئلت عنها يا عمر لماذا لا تسوى لها الطريق؟". وهل آلاف المسجونين المعذبين بلا جريمة أو اتهام أقل من بغال العراق؟ وأين لنا بسلطان مثل عمر؟

البركان قادم ونرى الدخان. فقد ألقى روائى لامع بالجائزة فى وجه ممثلى نظام القهر والطغيان فى الداخل، والتبعية والتحالف فى الخارج. والناس ترنو إلى مخلص، وتنتظر المسيح فى آخر الزمان كى يقضى على المسيح الدجال كما تقضى بذلك علامات الساعة.

ويوما وراء يوم يزداد عدد الشرطة. ويُحاط بالقاعات وبالخيم الثقافية. ويقبض على الشباب الذين يوزعون المنشورات ضد التوريث والتجديد. ويقوم المعرض بدور الأحزاب والجمعيات الأهلية وهايد بارك القاهرة. وتعلو أصوات باعة المأكولات والألعاب الشعبية فى العراء على أصوات المثقفين داخل القاعات والمخيمات. ويظهر طابور للأطفال ربما من مدرسة أو ملجأ بلباس موحد يصرخون ويصخبون، وكأنهم فى مظاهرة غير واضحة الأهداف، لا تكشف عنها الشعارات. إنما هى الحناجر التى مازالت تصرخ. جيل قادم مازال يبحث عن وضوح رؤية.

وكان طفلى الصغير منذ ما يزيد على العشرين عاما وعمره خمس سنوات يمشى مشية عسكرية وفوق كتفه عصا "مقشة" فسألته: ماذا تفعل؟ قال: "أحارب". قلت: تحارب من؟ قال: أحارب العراق. قلت: وماذا فعلت العراق؟ قال: إذن أحارب إيران؟ قلت: وماذا فعلت إيران؟ قال: أمال أحارب مين؟ قلت: تحارب إسرائيل. قال: قالوا لى فى المدرسة أننا عقدنا معها سلام. (سلامٌ قولا من رب رحيم).

٢- البوابة الحديدية للجامعة

للحياة رموز. وللأشياء معانى. وللحركات الشعبية دلالات. وهذا بالضبط ما يحدث فى جامعة القاهرة فى السنوات الأخيرة. يقع حدث يمس الحياة الوطنية، العدوان الأمريكى على العراق، العدوان الإسرائيلى على فلسطين، تزوير الانتخابات الطلابية فيجهر الطلبة بأصواتهم، ويقومون بمظاهرات داخل أسوار الجامعة، ويدورون بين الكليات لتجميع باقى الطلاب. فإذا ضاق بهم المكان، وارتفعت الأصوات، وبلغت القلوب الحناجر، واشتد الحصار حولهم من أجهزة الأمن العلنية والسرية، وغُلّقت الأبواب، اندفع الطلبة نحو الباب الحديدى، وكسروا القيد حوله ليخرجوا إلى الميدان أمام الجامعة وفى وسطه النصب التذكارى للشهداء، وحوله الأمن المركزى بلباسه الأسود وخوذاته الحديدية وبأيديه العصى، جاهزا للضرب فوق الرؤوس والأبدان. فممنوع الخروج خارج الجامعة. ولو كسرت سلسلة البوابة الحديدية فلبضعة أمتار حتى لا يلحق الطلاب برموز التبعية والاستسلام، السفارة الإسرائيلية بجوار كوبرى الجامعة، والسفارة الأمريكية بميدان التحرير. وقد ضرب حولهما الحصار المسلح من قوات الأمن موجهة الرصاص على المواطنين إذا ما تجمهروا أمامهما، ومنعا للطلاب من الوصول إلى المدينة الجامعية أو الالتحام بفقراء بين السرايات أو بميدان الجيزة. فالطلاب ممنوعون من الالتحام بالشعب، وهم نخبته المثقفة، و قلبه النابض، وضميره اليقظ، والمؤشر على حركته الوطنية.

هذه الجامعة ابنة ثورة١٩١٩. تأسست جامعة وطنية عام ١٩٢٥ بأرض تبرعت بها

(*) الاتحاد: ٦ يناير ٢٠٠٧، الدستور: ٢٢ يناير ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٤ يناير ٢٠٠٧.

إحدى سيدات العائلة المالكة، وباكتتاب عام من باشوات مصر الوطنين بعد أن كانت جامعة خاصة منذ ١٩٠٨ بداية بمدرسة الحقوق ،وكان اسمها فى ذلك الوقت مدرسة الحقوق الفرنسية لاعتمادها على الفرنسيين الذين كانوا يساعدون الحركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال البريطانى حتى الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٠٤. كما تبرعت العائلة المالكة بأرض حديقة الحيوان وحديقة الأورمان أمام الجامعة. وقامت الجامعة بدورها الوطنى خاصة فى الأربعينيات، وتكوين لجنة الطلبة والعمال فى ١٩٤٦. وفتح على طلبتها كوبرى عباس الشهير نفس العام. وخُلد شهداؤها بالنصب التذكارى أمام الجامعة، وفى نهاية الشارع وضع تمثال نهضة مصر بعد نقله من ميدان محطة مصر، ميدان السكة الحديد كما نقل تمثال رمسيس الثانى فيما بعد بعيدا عنه.

وسفارة إسرائيل تطل عليه من الأدوار العليا فى العمارة الثالثة من على يسار كوبرى الجامعة، وعلمها يرفرف فى سماء مصر. وطبقها للاتصالات ثابت فوق سطحها. وداخل الجامعة مبنى دار الضيافة بالمعونة الأمريكية، ومبنى آخر للجودة وإصلاح التعليم من أجل السوق بتوجه من لجنة السياسات للحزب الحاكم من أجل إرساء قواعد جديدة للتعليم الجامعى. يركز على تعلم اللغات والتعامل مع الحاسبات الآلية لاحتياج الشركات، وجعل بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية بالإنجليزية والفرنسية وليسانس الحقوق بالفرنسية بجوار العربية كما كان الحال فى الجامعات الجزائرية فى عصر الاستعمار.

نشأت الجامعة المصرية إذن تحمل هموم الفكر والوطن، العلم والسياسة، الثقافة والوطن. واستمرت فيها المظاهرات الطلابية التى يؤرخ بها للحركة الوطنية المصرية، لا فرق بين مشرفة ونظيف من كلية العلوم وعبد الحكيم الجراحى من شهداء الحركة الوطنية المصرية. وقد جمع طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى ولويس عوض وعبد العظيم أنيس بين العلم والوطن، بين البحث العلمى الحر والليبرالية السياسية. وعصفت بها بين الحين

والآخر النظم السياسية مثل ما حدث من تطهير فيها للخصوم السياسيين فى مارس ١٩٥٤ وفى سبتمبر ١٩٨١. وعمتها المظاهرات فى الأزمات السياسية الكبرى وفى أوقات الهزائم مثل المظاهرات ضد حكم العسكر، وضرورة العودة إلى الديموقراطية فى أزمة مارس ١٩٥٤، والمظاهرات ضد أحكام الطيران فى ١٩٦٨، ومظاهرات ميدان التحرير فى ١٩٧١ والسؤال عن عام المعركة الذى طال. ثم التحم الطلاب بالهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ احتجاجا على ارتفاع الأسعار، وبالمعارضة السياسية الرئيسية فى البلاد ضد معاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٨ واتفاقية السلام فى ١٩٧٩ والتى كلفت زعماء المعارضة من أساتذة وصحفيين وسياسيين وقادة روحيين الفصل خارج وظائفهم بقرار جمهورى يعترف فى ديباجته بخرق قانون العاملين فى الدولة. وهو ما دفع رئيس الجمهورية الثانية حياته بسببه. واستمرت المظاهرات الطلابية ضد الغزو الأمريكى للعراق فى ١٩٩١، ثم فى ضربه بعد ذلك فى ١٩٩٨، ثم فى احتلاله عام ٢٠٠٣. وقامت أيضا ضد الاحتلال الصهيونى لكل فلسطين، دعما للمقاومة. واندلعت المظاهرات أخيرا ضد تزييف انتخابات الاتحادات الطلابية، وشطب أسماء المرشحين من الحركة الإسلامية، وتكوين اتحادات حرة موازية. ومهما استعملت الحركة الطلابية بفصيليها الرئيسيين بعضها ضد البعض الآخر، تصفية الحركة الإسلامية بأيدى اليساريين أو تصفية اليساريين بأيدى الجماعة الإسلامية، ظلت الحركة الطلابية فى مجموعها حركة وطنية ومؤشرا على الأزمات السياسية الكبرى التى تمر بها البلاد.

والقضية هى البوابة الحديدية للجامعة المقيدة بالسلاسل والأقفال وكأن الأمن الجامعى داخل الأسوار، والأمن المركزى خارجه لا يكفيان. إذا اشتدت المظاهرات وعلت الأصوات هز الطلبة البوابة رمز القهر الجامعى والاستبداد السياسى وتعلقوا بها، وعلوا قمتها، وهزتها الأيدى حتى تنكسر. ثم يندفع الطلاب خارجها. فيواجهون بخط الدفاع الثانى من الأمن المركزى جنودا وعربات تحيط بالميدان، وفى وسطه النصب التذكارى

للشهداء. فيقف الطلبة حوله يهتفون بالشعارات الوطنية، ويخطبون فى زملائهم. فهل للجامعة أسوار؟ وهل تغلق البوابة الحديدية بالسلاسل والأقفال حماية للنظام؟ أليست الجامعة ضد الأسوار والقيود والسلاسل. وظيفتها هدم الأسوار؟ ألم ينهدم سور برلين؟ أليس جدار الفصل العنصرى بين الضفة وفلسطين ١٩٤٨ فى طريقه إلى الزوال؟ وكلما كسر الطلبة البوابة الحديدية يُعاد إصلاحها وتقويتها وإعادة لحمها بالحجر. وهل يمنع ذلك الحركة الطلابية من معاودة كسر الرمز حتى تفتح الأسوار، ويسقط الستار الحديدى، ويفك القيد؟ وهم يتعلمون فى المدارس منذ نعومة الأظفار أشعار أبى القاسم الشابى:

إذا الشعب يوما أراد الحياة ∴ فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلى ∴ ولابد للقيد أن ينكسر

إن مهمة الجامعة ليست غلق الأبواب بل فتحها، وليس حبس الطلاب داخل الأسوار بل إطلاق حرياتهم خارجها. فالطلبة أبناء الشعب. وإذا كان السور علامة، والبوابة رمزا، فإن مهمة الجامعة هدم أسوار الأذهان، وفتح بوابات العقول، وتنوير القلوب. قوة الطلاب أقوى من الصلب. والأمن المركزى لا يحيط بالنصب التذكارى للشهداء، ولا يمنع من الوصول إلى تمثال نهضة مصر، ولا إلى سفارة إسرائيل أمامه. ومن ثم كان شعار لا سياسة فى الجامعة ولا جامعة فى السياسة خارج تاريخها الذى جمع بين العلم والوطن.

لقد خلقت الجامعات الألمانية الوحدة الألمانية. وأسس الأساتذة الألمان الثقافة الوطنية التى عليها قامت الوحدة. لم يخوّنهم أحد. وكانت إدارة الجامعة من كبار المفكرين والفلاسفة كما كانت الجامعة المصرية فى أول عهدها برئاسة أحمد لطفى لجامعة القاهرة، وعمادة طه حسين لكلية الآداب، ومصطفى مشرفة لكلية العلوم فى الوقت الذى كانت مصر تبنى وطنا لا تهدمه.

إن جمــال جامعــة القــاهرة وطرازهــا المعمــارى مــن عــصر النهــضة كــان مقــصودا. فالجامعة عماد النهضة. واليوم اختنق المرور أمام الجامعة بعد انسداد شوارعها وحصار أرصفتها خوفا من العربات المفخخة. وأصبح المرور من كلية الفنون التطبيقية حتى بين السرايات حى الطلاب، السكن والكتب والطباعة، عذابا يوميا يضيع فيه الوقت فتختنق فيه الأنفاس. فما المانع من إقامة نفق أرضى يربط بين الجامعة والمكتبات على الرصيف المقابل لانتقال الطلاب دون المخاطرة بحياتهم أمام وسائل النقل العامة والخاصة. كما تحول رصيف الجامعة الموازى لحديقة الأورمان أمام الجامعة إلى مقلب وعربات للزبالة. وكلها رموز وعلامات على حال الجامعة الآن. وما المانع أن تتحول حديقة الأورمان المغلقة وقاية للأخلاق من رعونات الشباب إلى ساحة حرة للتعبير عن الرأى مثل هايد بارك فى لندن إن كان ميدان عابدين أمام القصر محرما على الشعب من التظاهر أمامه؟ وفى المساء وفى شارع الجامعة وعلى الخضرة فى وسطها تقوم فرق الغناء والضرب بالدفوف للاحتفال بالأعراس. وداخل الأسوار فى المساء يلعب بعض الطلبة الكرة الشراب فى أروقة الجامعة بين المبانى مثل أطفال الشوارع. ولا يضج ذلك أمنا ولا يثير غضب إدارة. فهذا عصر جديد وذاك عصر قديم، وسبحان من له الدوام!

٣ـ أفعل التفضيل

يكشف تحليل الخطاب السياسى اليومى خاصة الخطاب الإعلامى عن نوع من المبالغات وإطلاق الأحكام. وتصل المبالغات إلى حد التهويل والتكبير والتعظيم والتفخيم. ويبدو ذلك فى كثرة استعمال أفضل التفضيل فى وصف الرئيس، رئيس دولة أو مؤسسة أو مصلحة أو هيئة أو جماعة أو حتى عصابة. فهو ليس فقط فاضلا بل أفضل والأفضل. وليس فقط ذكيا بل أذكى والأذكى. وليس فقط قادرا بل أقدر والأقدر. وليس فقط عالما بل أعلم والأعلم.

فإذا ما قرر الرئيس تغيير مادة فى الدستور طالما طالبت بها المعارضة منذ سنوات واعتبر الطلب فى غير موعده، متهورا، يؤدى إلى القلق، وهروب أموال الاستثمار فإنه زلزال سياسى، حدث تاريخى، لم يحدث منذ أيام الفراعنة، ضربة معلم، حسن تخطيط، إجهاض للمعارضة، استجابة لرغبة الشعب. وهو مثل حوادث الطبيعة والظواهر الكونية، رعد وبرق. ويتحول الخطاب السياسى من الصمت المطبق إلى الصراخ المطلق، ومن اللاشىء إلى كل شىء، ومن الصفر إلى اللانهائى، ومن العجز المطلق إلى القوة الخارقة.

وهو خطاب سياسى فى الظاهر، ودينى فى الباطن. فالخطاب الدينى هو الذى يقوم على التعظيم والتفخيم والإجلال كما يبدو فى التعظيم الإلهى، والمدائح النبوية، وتفسير الظواهر بعلة واحدة وسبب أول هو الفاعل الحق، وغيره فاعل بالمجاز. هو خطاب التأليه الذى يعظم كامل الأوصاف، لا فرق بين صفات الله وصفات السلطان، يقوم به رجال الدين

(*) الاتحاد: ٣٠ أبريل ٢٠٠٥، الزمان: ٢ مايو ٢٠٠٥، الدستور: مايو ٢٠٠٥.

ورجال السياسة، وفقهاء الشريعة وفقهاء السلطان. يصف القرارات وكأنها معجزات، لم يتوقعها أحد، ولا يقدر عليها إنسان.

وإذا تقدمت الحكومة بمشروع فهو أعظم المشاريع الذى لم يأت به الأولون ولا الآخرون، تغيير خريطة مصر، الخروج من الوادى، وتحويل الوادى الرأسى إلى وادى أفقى، والخروج من ضيق الوادى القديم إلى رحاب الصحراء. مياه الشرب أنقى مياه فى العالم، والأسعار أرخص أسعار فى الكون، ومكتبة الأسرة قدوة لتجارب القراءة فى العالم، ومشروع القراءة للجميع أصبح نموذجا لقراءة كل الشعوب. والعناية بأطفالنا نموذج للعناية بأطفال العالم، ومعارضنا تكشف عن إبداعنا وعبقريتنا على المستوى الدولى. صحافتنا حرة، وتعليمنا للجميع، وطرقنا العلوية والدائرية وأنفاقنا كلها آية فى العمران.

أصبحت حياتنا كلها مبالغات فى مبالغات. وغاب عن حياتنا النقد الذاتى، ووضع كل شىء فى مكانه الصحيح، وفى نسبته المقررة. لم يعد للخطاب السياسى أى ثقل. ولا يتطلب أى تصديق من كثرة ما تعود عليه الناس. لا يؤدى غرضا، ولا يهدف إلى شىء إلا مزيدا من مدح السلطان. نقص الخطاب السياسى الصدق وأصبح لا فرق بين الخطاب السياسى والخطاب الدينى. الأول مدح للسلطان، والثانى مدح لله.

وفى نفس الوقت الذى نضخم فيه الحدث الصغير، نصغر الحدث الكبير ليس عن طريق أفعل التصغير بل عن طريق تصغير الأسماء. الأفعال للتفضيل، والأسماء للتصغير. فالمظاهرة السياسية الضخمة التى تناقلتها أجهزة الإعلام، وعرضتها القنوات الفضائية، محدودة العدد، معزولة عن الجماهير، نظمتها فئة ضالة، أو مندسون من التاريخ. وتفجير قنبلة فى حى سياحى تودى بحياة الأبرياء حادث فردى منعزل، ولا يوجد تنظيم وراءه، خلية نائمة أو نشطة. لم تتأثر السياحة، ولم تلغ الأفواج، والفنادق عامرة، والأمن مستتب. والفقر محدود، والاقتصاد قارب أن يخرج من عنق الزجاجة، والبطالة أمكن السيطرة عليها

بتوفير آلاف من فرص العمل عن طريق الشركات الاستثمارية الجديدة. واختناقات المرور محدودة. والتهريب استثناء. والاقتصاد بخير. فقد أمكن السيطرة على ارتفاع أسعار العملات الأجنبية، وقويت العملة المحلية. ومخالفات الشرطة تمت المعاقبة عليها. وقانون الطوارئ فقط فى الحالات الحرجة وأوقات الخطر التى يتهدد فيها الأمن القومى للبلاد. والطائفية حوادث متفرقة فى حين أن نسيج الأمة سليم.

وما يتم على الصعيد الداخلى يتم أيضا على الصعيد الخارجى. علاقتنا بأمريكا ممتازة. والخلاف لا يفسد للود قضية، خلافات داخل الأسرة الواحدة، عاصفة فى فنجان. والخلاف مع إسرائيل طبيعى، ولكن السلام قائم، والأمن على الحدود مستتب. والسفارات مفتوحة، وحوادث قتل المصريين على الحدود حوادث فردية، خطأ حراس الحدود. واعتذار إسرائيل مقبول. وشارون رجل سلام. والسلام قائم إنما يحتاج فرصة، وخيار استراتيجى يستلزم الصبر.

وخلافاتنا مع إثيوبيا فى خبر كان. وقطع علاقاتنا مع إيران منذ ربع قرن لاشىء فى إيقاع التاريخ. صادقناها أيام الشاه حليف إسرائيل. وعاديناها بعد الثورة المعادية للكيان الصهيونى. تبعث الجواسيس، وظهير الحركات الإسلامية، وتصدر الثورة. ونبعث مراقبين للسودان لحل أزمة دارفور التى كبرها الإعلام الغربى وضخمتها القوى المعادية. وإهانات المصريين خارج الوطن مشاكل صغيرة تحلها السفارات فى الخارج. وفرنسا دولة صديقة. والمجموعة الرباعية متعاطفة. وروسيا مازالت حليفة. والصين صديق تقليدى. والعالم كله ينظر إلينا نظرة إعجاب.

وهكذا نحول الصغير كبيرا ونجعل الكبير صغيرا بفضل أفعل التفضيل وطرق التصغير مما يدل على تقصى التحليل، والتسرع فى الحكم على الأشياء. فالتطرف ليس فقط فى الواقع لدى جماعات التطرف بل هو فى لغة الخطاب السياسى، ورؤية العالم، وإصدار الأحكام بين التهويل والتهوين.

تأخذ مواقف انفعالية من الواقع بين الحد الأقصى والحد الأدنى. وتصِف الواقع بين الخير المطلق والشر المطلق. ونخلط بين الذات والموضوع، بين انفعالات النفس وبنية الواقع، بين ما نتمنى أن يكون وما هو كائن. لذلك يجيب الرئيس باستمرار عن أى سؤال عن أمر واقع فى الأوضاع الداخلية أو الخارجية بألفاظ "أتمنى"، "أرجو"، "أتعشم". والواقع له بنيته الخاصة بعيدا عن الأمنيات. لذلك غلب الإنشاء على الخبر فى الخطاب السياسى الإعلامى، وكثرت المابنبغيات، وتراكمت الأخلاقيات حتى أصبحت كغطاء للتعمية على واقع يصعب تحليله ورؤية عناصره ومكوناته. والعيش فى الأوهام خير من رؤية الواقع. والنفس تعشق الأمانى، وتنكف من الغم والهم والقرف.

ونظرا لسيادة الإعلام خاصة المرئى منه فقد عم الخطاب الإعلامى الخطاب الثقافى والخطاب العلمى كما ضم من قبل الإعلام والثقافة فى وزارة واحدة. وأصبح سمة عادة للثقافة الوطنية. واتهمت كل محاولة لنسبية الأحكام بالخيانة فى السياسة والكفر فى الدين. تشكك المعارضة فى كل شىء ولا ترى الإنجازات. تهدم أكثر مما تبنى، وتحقد أكثر مما تحب.

أصبح الاحتماء بأفعل التفضيل وسيلة للهروب من الواقع، وطريقا للتقرب لأصحاب السلطة الذين لا يستدعون إلا من يكثر من المديح للسلطان، والهجاء لخصومه السياسيين، باستعمال أفعل التفضيل له، وطرق التصغير لهم. وعادة ما ينتهى الذهاب إلى أقصى حد إلى نيل أقل شىء. وكلما اتسع الخطاب قل التحقيق. وكلما علا الصوت رجع الصدى. ولا شىء إلا الصوت. وأصبح الكلام رخيصا بلا ثمن مع أن الله هو الكلمة.

وتنتهى الثقافة إلى سجال بين الإثبات والنفى. ويتحول الحوار إلى خصومة، والبرهان إلى جدل، والتعددية فى الرؤية إلى أحادية فى النظر. ثم تقع الواقعة، ويقع الخطب الجلل. وينكسر الخطاب القائم على أفعل التفضيل. ويظهر خطاب الأسى والحسرة والندم. ويكثر البكاء ونعى الحظ (والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون).

٤ـ الشفافيـــة

كثر استعمال كلمة "الشفافية" فى الخطاب السياسى العربى فى الآونة الأخيرة. ويزداد الاستعمال كلما تعقدت الأمور وصعب إيجاد المخرج للأزمة على أرض الواقع. فيأتى الانفراج باستحداث الكلمات ومن خلال اللغة وبصياغة خطاب سياسى وهمى مطعم بألفاظ بها مفتاح الفرج.

ويستعمل اللفظ فى كل الاتجاهات، وبكل المعانى، ولتحقيق كافة الأغراض حتى ولو كانت معانى متضاربة. فاللفظ يجد هوى فى النفس. وهى صورة فنية فى ثقافة تعشق الكلمات والأغانى والأشعار، وتستعمل التشبيهات، ومازالت الأمثال العامية فيها سلطة وحجة لفهم الواقع وتبرير أحداثه. ومن كثرة الاستعمال فى معانى متضاربة فقدت معناها الدقيق. يستعملها القائل بأى معنى يشاء. ويفهمها السامع بأى معنى يريد. غرض القائل التمويه على السامع، وغرض السامع الترفيه عن النفس من القائل باعتباره مغنيا أو راقصة أو فتاة إعلانات أو لاعب كرة. أصبحت كلمة "شفافية" غير شفافة لأنها لا تعنى شيئا محددا بل وتستخدم لأغراض غير شفافة. بل إنها أصبحت من ألفاظ النفاق فى الخطاب الذى يهدف فى العلن إلى غير ما يبطنه فى السر.

وهى كلمة غير عربية، كلمة غير أصيلة، ترجمة للفظ أجنبى Transparence الذى يعنى اشتقاقا ما يمكن الرؤية من خلاله أو ما لا يمنع الرؤية، وما لا يحجب أو يستر أو يمنع مثل الزجاج. ويضاده لفظ المعتم Opaque. وفى الاستعمال تعنى عكس المعنى الاشتقاقى.

(*) الاتحاد: ٢٨ يناير ٢٠٠٦.

تهدف إلى التعمية والتستر والتغطية والتمويه والتضليل وإبعاد الناس عن الفهم والرؤية. يستعملها السياسيون والموظفون العموميون والمدراء ورجال الأحزاب والإعلام وكثير ممن يتصدون للحياة العامة. بل ويستعملها الرؤساء أيضا للهروب من تحليل الواقع وتشخيص أزماته وكأن القضية فى النفس. فكلما صفت النفس وراق الذهن وصدق القلب ظهرت الشفافية، واتضحت الرؤية، وانحلت المسائل المعقدة، وخرج الناس من عنق الزجاجة الذى طال أكثر مما يجب بحيث بلغ عنان السماء، واستمر الناس محشورين فيه منذ قرنين من الزمان.

يستعملها المزور للانتخابات من المشرفين عليها من أجهزة الأمن ابتداء من وزير الداخلية حتى رجالات الحزب الحاكم وكبار ضباط الشرطة حتى يغسلون أيديهم من دم يعقوب ويلبسون قيمص عثمان "الشفافية". ويستعمله بائعو القطاع العام وشركاته الخاسرة والرابحة بأرخص الأسعار للمشترين من أصحاب العائلات الكبرى المواطنين أو العرب أو الأجانب بعد قيامهم بأداء الرشاوى اللازمة حتى يسرى عليهم العطاء بدعوى الشفافية. وتستعمله أنظمة الحكم المتهمون فى قضايا الاغتيال السياسى فى الداخل والخارج تهربا من المسئولية واستجواب لجان التحقيق بدعوى الصدق فى الخطاب السياسى بناء على الشفافية فى الرؤية وفى التعبير. ويستعمله مديرو هيئات المعارض الدولية للكتاب لإقصاء النشاط السياسى منها بدعوى الشفافية. فالنقاش السياسى يعبر عن مصالح وقوى تسيطر عليه المعارضة وتجذب إليه الشباب. فلا سياسة فى المعرض ولا معرض فى السياسة، تنفيذا للأوامر من لواء سابق. وافتقدت المعارض عصر الأساتذة الجامعيين الذين كانوا يديرونه بروح الرأى والرأى الآخر، الحكومة والمعارضة. ويستعمله مديرو الجامعات لإبعاد الطلاب والأساتذة عن السياسة. فلا سياسة فى الجامعة ولا جامعة فى السياسة. ويستعمله رجال الدين وفقهاء السلطان لقصر الدين على أمور الآخرة، وعدم خلطه

بأمور الدنيا، فلا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين وبدعوى الشفافية والتى تعنى هنا تبرير المواقف المسبقة للسلطة السياسية. ويتداوله الوزراء المسئولون عن الفساد للتغطية عليه وعلى بيع البلاد، الشركات والبنوك بل وقناة السويس التى حاربت مصر من أجلها بعد العدوان الثلاثى عليها فى ١٩٥٦. وظيفة اللفظ فى التداول هو الدفاع عن النفس وتغطية الفساد السياسى والاقتصادى والهجوم على المعارضة غير الشفافة التى تهدف إلى الوصول إلى السلطة، وكأن السلطة حكر على فئة بعينها من قريش أو الجيش. يُستعمل اللفظ إذن كسلاح سياسى بين نظم الحكم والمعارضة، بين الدولة وخصومها فى الصراع على السلطة باسم الشفافية، وطهارة اليد، ونقاء الضمير.

ومن كثرة تداول لفظ "الشفافية" أصبح معتماً لا شفافاً، لا يعنى شيئاً، ولا يساعد فى رؤية شىء أو إيضاح مسألة. أصبح ثقيلاً على النفس، لا ينير الذهن.وانضم إلى باقى المفاهيم الشائعة والتى كثر استعمالها فى ثقافتنا المعاصرة مثل: الديموقراطية، المجتمع المدنى، الأقليات، المرأة، حقوق الإنسان، الإصلاح، الإسلام والتى هى كلمات حق يراد بها باطل. إذ تعنى الديمقراطية الخصخصة والأمركة والانفتاح على الغرب، والعولمة، والاستهلاك، وليس حرية التعبير والاختيار وتداول السلطة. ويعنى المجتمع المدنى البديل عن الدولة الوطنية لصالح المجتمع المفتوح لحرية رأس المال، وليس قوة الرقابة الشعبية من خلال الإعلام المستقل والحسبة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وتعنى الأقليات تفتيت الأمة تحت دعاوى العرقية والطائفية، وليس التعددية السياسية والمساواة فى الحقوق والواجبات بين المواطنين. وتعنى المرأة شق صف النضال الوطنى ضد الاستبداد فى الداخل والهيمنة فى الخارج، وتحويل العدو الفعلى وهو الطغيان إلى عدو وهمى هو الرجل، وكلا المرأة والرجل ضحية له. وتعنى حقوق الإنسان حقوق الأفراد بالمعنى الغربى أكثر مما تعنى حقوق الشعوب فى الاستقلال فى عصر الهيمنة الجديدة. ويعنى الإصلاح مشاريع الشرق الأوسط

الكبير والشرق أوسطية والمتوسطية وليس تجاوز كبوة الإصلاح الأولى منذ فجر النهضة العربية إلى إعادة صياغته فى بداية النهضة العربية الثانية. ويعنى الإسلام مواجهة القهر فى الداخل والعدوان فى الخارج كما صاغه الأفغانى وتحقيق مصالح الأمة فى الاستقلال الوطنى، وحرية المواطن والعدالة الاجتماعية، ووحدة الأمة، والتنمية المستقلة، والدفاع عن الهوية، وحشد الناس. ومن ثم أصبح تشويه المفاهيم البريئة أحد مظاهر الفساد العامة فى البلاد للاتجار بها فى اقتصاديات السوق، وللتستر على كل مظاهر الفساد فى الواقع، وجعل الحل فى الداخل وليس فى الخارج. فتغيير النفس سابق على تغيير الواقع، والجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، أصعب من الجهاد الأصغر وهو جهاد الأعداء فى الداخل والخارج. فلم يعد شيء حتى اللغة عصيا على التجارة به فى سوق النخاسة.

إن المهمة الرئيسية للثقافة الوطنية هو تحليل اللغة التداولية فى الحياة اليومية لمعرفة كيفية استعمال الألفاظ بعد اختراعها للتمويه على الناس كمخدرات لغوية وفكرية فى مجتمع انتشرت فيه المخدرات الفعلية من أجل تسكين البدن والروح، وإيهام الجسم والعقل بموفور الصحة وكمال العقل. إنه نوع من تدنيس المقدسات فى مجتمع لم يعد فيه شيء مقدس بعد أن تمت التجارة بكل شيء حتى بالأوطان وبالتاريخ وبالأمم وبمستقبل الشعوب. وبعد بيع القطاع العام والتفريط فى حقوق الشعوب واستقلال الأوطان يتم بيع لغتها فى ثقافة مازالت اللغة وأشكال التعبير خاصة الشعر هو ما يحافظ على وجودها واستمرارها فى التاريخ. ولما كان الواقع أبلغ من الألفاظ وكانت هناك حدود لتحمل الزيف الإعلامى فى الخطاب السياسى فقد تندلع الثورات الشعبية ضد كل مظاهر الزيف اللغوى والنفاق السياسى، (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).

٥- التعليم من أجل السوق أم لتكوين المواطن الصالح؟

تجرى همهمات بين الحين والآخر تتحول إلى تصريحات لجس النبض ومعرفة رد فعل الرأى العام عن ضرورة إصلاح التعليم. بل وتنشر الصحف القومية وملحقاتها التعليمية الإصلاح المنشود الذى يركز كله على البرامج الدراسية وليس المناهج التعليمية. يركز الإصلاح على ضرورة جعل أكثر المواد اختيارية ، وأقلها إجبارية. فحرية الاختيار مقياس التعليم الصحيح. وهى شرط التحول الديموقراطى، أحد متطلبات مشروع الشرق الأوسط الكبير. كما يركز الإصلاح على عدد سنوات الدراسة، حذفا لعام مرة وإضافة لعام مرة أخرى. وهى كلها تغييرات شكلية لا تتعرض لموضوع مناهج التعليم، وضرورة تجاوز التلقين والحفظ والنقل إلى مناهج النقد والتفكير الحر والإبداع. فمازالت غاية التعليم بالنسبة للنظام السياسى هو خلق المواطن المطيع وليس المواطن الصالح، المواطن الذى يسمع ويلبى دون أن يفكر أو يعترض، والمدرس بيده العصا حفاظا على النظام، لا فرق بينه وبين الشرطى الذى يمسك بعصا أغلظ لفض المظاهرات. وليس الهدف هو القضاء على ظاهرة الدروس الخصوصية التى أفرغت التعليم الوطنى من مضمونه وخلقت تعليما خاصا موازيا فى المنازل. فما يعطيه المدرس فى التعليم العام مساو لأجره، وهو القليل. وما يعطيه فى المنازل له أجر إضافى، وهو الكثير. فتحول التعليم المجانى وهو من مظاهر سيادة الدولة ومسئولياتها لأن التعليم كالماء والهواء، تحول إلى تعليم مدفوع الأجر بطريق غير مباشر أو تعليم خاص بالعملة الأجنبية، دينية أو أجنبية، إسلامية أو مسيحية، وطنية أم أجنبية، محلية أو دولية. تلك معارك جيل مضى،

(*) الاتحاد: ٢٦ مارس ٢٠٠٥، الدستور: مارس وأبريل ٢٠٠٥.

جيل الأربعينيات الذى ناضل من أجل مجانية التعليم ووطنيته، وجيل الخمسينيات الذى حقق مجانية التعليم الجامعى والتزامه بقضايا التنمية بعد الثورة المصرية فى ١٩٥٢.

والأخطر من ذلك الآن، وهو ما يتربص هذا الجيل، بعد ما يزيد على نصف قرن من مخاطر قادمة، التعليم من أجل السوق بحجة القضاء على البطالة وتخريج فنيين مهرة قادرين على التعامل مع السوق فى عصر العولمة. فالسوق هى القيمة الوحيدة وهدف التعليم العام من أجل خلق موظفين للشركات أو التعليم العالى لخلق محامين ومحاسبين ومنظرين للسوق مما يتطلب تعليما أجنبيا موازيا. حقوق بالفرنسية بجوار العربية. واقتصاد وعلوم سياسية بالفرنسية بجوار العربية. وتجارة خارجية "بالإنجلش" موازية للتجارة العربية وكأننا فى عهد الاستعمار الفرنسى للمغرب العربى، فى تونس والجزائر ومراكش قبل التعريب. يتطلب السوق الموظف الكفء، والمدير القادر على التعامل مع شريكه الأجنبى والذى يعرف قوانين السوق. ومن ثم يتحول المواطن إلى آلة صماء كما تحول العامل من قبل فأصبح شيئا مثل الآلة والمتجر، أداة لقوانين السوق. فالتعليم مهنة وليس رسالة فى حين أن اسم الوزارة المسئولة "التربية والتعليم" أى تربية المواطن الصالح وتعليمه أو "التعليم الوطنى" أى ارتباط التعليم بالوطن وبالأمة، بمصالحه وقضاياها. مهمته تربية الفكر النقدى، وعى المواطن بحقوقه قبل إلزامه بواجباته. فلا واجب إلا ويقابله حق. وهو الفكر الحر القادر على الجهر بالحق دون خوف من عصا المدرس أو هيبة الناظر. غايته تكوين المواطن الصالح وتأكيد المواطنة، المساواة فى الحقوق والواجبات. فنقص الوعى بالمواطنة قد يفتت الأوطان فى السودان والعراق ولبنان والخليج ومصر بل والمغرب العربى كله.

يركز إصلاح التعليم على الاختيار بين النظرى الذى لا فائدة منه والعملى المفيد. الأول مثل كل المواد الاجتماعية، الفلسفة والمنطق وعلم النفس والجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والسياسة. والثانى اللغات والحاسبات الآلية. الأولى علوم قديمة، والثانية علوم جديدة. مع

أن التاريخ هو الذى يثبّت فى المواطن وعيه التاريخى وانتسابه إلى أمة دون انتزاعه منها. والجغرافيا هى التى تجعله واعيا بالعالم المحيط به وتنمية موارده والوعى بنظام العالم المحلى والدولى كما هو الحال فى الجغرافيا السياسية. ومبادئ الاقتصاد والسياسة هى التى تجعله يدرك قضايا العدالة الاجتماعية وتوزيع الدخل ونظام الأجور، والحقوق السياسية فى الحرية والديموقراطية. والفلسفة هى التى تجعله قادرا على الفكر الحر بمعرفته بتاريخ المذاهب الفلسفية ودورها فى نهضات الشعوب. والمنطق يعلمه مبادئ الفكر السليم ومناهج الاستدلال، واستنباط النتائج من المقدمات فى ثقافة مازال تسيطر عليها الخطابة والإنشاء أو الخرافة والسحر. وعلم النفس يجعله قادرا على سبر غور النفس البشرية بدلا من الإلهامات وانتظار المعجزات.

وللتمويه على الرأى العام يعرض الإصلاح المنشود على لجان من الخبراء التى قد تصل إلى الرأى المضاد فلا يؤخذ به لأن الأمر معروض على مجلس الوزراء أى على السلطة التنفيذية دون أهل الاختصاص. وتنشر بنوده فى الصحف لمشاركة الرأى العام من أجل التمويه فى حين أن القرارات مأخوذة سلفا، مفروضة من لجنة السياسات فى الحزب الحاكم الذى تأتيه التعليمات من مشروع الشرق الأوسط الكبير. ودوره فى الإخراج والتنفيذ. فأصبح "الإصلاح" كلمة حق يُراد بها باطل، وعلى كافة المستويات السياسية والتعليمية.

إن الغاية من الإصلاح المزمع هو السيطرة على أجيال قادمة، وإدخالها فى قوانين السوق باسم العولمة، وارتباطها برأس المال العالمى. ورأس المال ليس له وطن. وولاؤها للمستثمر الأجنبى، والقطاع الخاص، ولمناطق "الكويز" وللأسواق الحرة. فالتجارة شطارة بالرغم من تنبيه ابن خلدون على مخاطر أخلاق التجار، الكسب السريع، والفساد، والغش، والتكسب بإنتاج الآخرين، الفلاحين والعمال فى قطاعى الزراعة والصناعة. الغاية من الإصلاح هو الهيمنة الداخلية على تشكيل وعى الأمة بعد الهيمنة الخارجية، وخدمة الداخل

للخارج بدلا من خدمة الخارج للداخل. الغاية هو الاستيراد والاستهلاك والعمولات والرشاوى بدلا من التصدير والإنتاج وفائض القيمة والرقابة على البنوك والتحويلات والأموال العامة.

إن الهدف من التعليم أساسا قبل الإعداد المهنى وتنمية القدرات من أجل السوق هو تكوين المواطن الصالح الذى يدين بالولاء للوطن ويحرص على ثوابت الأمة. فالتلميذ أو الطالب هو حامل الأمانة للحفاظ على وحدة الأمة فى التاريخ. وهو بفكره الحر، وعقله الناقد قادر على أن يقوم بدور الناصح الأمين لأولى الأمر، وليس المواطن المطيع الذى ينحصر دوره فى تنفيذ قرارات "سى السيد" إن كان عاملا أو تبريرها إن كان عالما. إن رفض مشروع الشرق الأوسط الكبير إنما هو باللسان، ورفض الإملاء من الخارج إنما هو بالقول. أما فى الواقع فيتم تنفيذه بالفعل بنفس جهاز الدولة الذى لا يقتنع به، وبنفس النظام السياسى الذى يرفضه، وبنفس الرجال الذين لا يؤمنون به.

ومع ذلك قد تضيع كل هذه الجهود هباء لأنها ضد منطق الأشياء وطبائع الأمور وقانون التاريخ. فقد بدأت الشعوب تتحرك فى بيروت. وتسير العدوى الآن إلى باقى العواصم العربية ومنها القاهرة. وشخصية مصر، والمواطن المصرى، والثوابت الوطنية صامدة ضد أى محاولات لتغييرها والانحراف بها أو محوها. وليس من السهل أن تقضى حضارة خمسمائة عام فى العالم الجديد على حضارة سبعة آلاف عام من فجر التاريخ. والدول التاريخية الثابتة لا تهزها الأنظمة السياسية التابعة. "يا جبل ما يهزك ريح".

٦- الرد على البدعة أم السكوت عليها

ثارت ضجة إعلامية فى الآونة الأخيرة، وسالت الأقلام، وارتفعت أصوات الاستنكار والرفض بل والخروج على الشرع إلى حد التكفير. وتساءل الرأى العام لا عن تهويد القدس، ولا زرع المستوطنات، ولا دماء العراق والشيشان، بل عن جواز أن تؤم المرأة الرجال فى الصلاة، فى وقت المسجد كله مهدد بالضياع والهدم على رؤوس مصليه رجالا ونساء.

فقد دعت مسلمة من أصل أفريقى أمريكى فى إحدى كنائس هارلم إلى جواز إمامة المرأة للصلاة، وتجاور المرأة الرجل فى نفس الصف خلف المرأة الإمام. وأمتهم بالفعل أمام أجهزة الإعلام للدعاية والإعلان. وأقامت امرأة مصرية أخرى الصلاة. فالفتوى عامة. يشارك فيها الناس من كل الشعوب أمريكية ومصرية. وتوالت المقالات، وفتحت الساحات للنزال. وكلها تنقد وتهاجم. وولت الوجوه بعيدا عن فلسطين والعراق إلى نيويورك وأمريكا والتى منها يأتى الخير والشر على حد سواء.

والحقيقة أن الدعوة قد أطلقتها أقلية وهى واحدة من الأقلية الأمريكية الأفريقية، من الأقلية المسلمة منها والتى فى غالبها محافظة تقليدية. وهى امرأة، وهو الموضوع الذهبى فى الولايات المتحدة الأمريكية. فالنساء والأمريكيون الأفارقة معتبرون من الأقليات الذين لهم نسبة من الوظائف العامة والخاصة. تنتسب إلى الحركة النسائية العامة فى الولايات المتحدة الأمريكية. وهى حركة قوية نشطة يحميها الدستور ضد أى أشكال التمييز الجنسى أو العرقى مثل المرتب المتساوى للعمل المتساوى بين المرأة والرجل، بالإضافة إلى حق

(*) الاتحاد: ٢ أبريل ٢٠٠٥، الدستور: أبريل ٢٠٠٥.

الإجهاض والشذوذ الجنسى والعرى وامتلاك الجسد. وأمريكا بلد الإعلام والتقاليع والموضة والإثارة. فتصدر الخبر بالصورة أجهزة الإعلام كلها، المقروءة والمرئية والمسموعة، فى مجتمع يقل فيه الاهتمام بالشأن العام، والحوادث الفردية خاصة الجرائم والفضائح تأخذ حيزا كبيرا فى الإعلام الباحث عن البطولة الحقيقية أو المزيفة كما هو الحال فى راعى البقر فى الأفلام الأمريكية. ففى جو الشمول والآلة الرأسمالية الضخمة وبقيمة الفرد والفردية يحتاج الأمريكى الذى لا يبرز من خلال النسق الكبير إلى فعل بطولى فردى بما فى ذلك إطلاق النار على أطفال مدرسة من فوق السطح أو اغتيال سفاح مجهول عشوائيا لكائن من كان. فتتصدر صورته الصفحات الأولى وكأن الحرب العالمية الثالثة قد قامت.

حدث ذلك فى نيويورك، أكبر مدينة فى الولايات المتحدة، مركز السلطة والمال، وفى كنيسة وليس فى مسجد لأنه يسهل فى الكنيسة القيام بالتقاليع. فالكنيسة ليست فقط مكانا للصلاة بل مركزا للخدمات، للثقافة والفنون. وقد قام قس شاب من قبل بالاحتفال بالقداس يوم الأحد على أنغام الجيتار أو بموسيقى الجاز أو على إيقاع الرقص الحديث. فالعبادات تتغير أشكالها طبقا لظروف العصر، بل والعقائد أيضا. فالمسيح أبيض عند البيض، وأسود عن السود. والشيطان أبيض، والملاك أسود. والأنبياء من إبراهيم حتى محمد سود، وأعداؤهم، آل إبراهيم وابن نوح ويهوذا وأبو جهل وأبو لهب بيض. حدث ذلك فى هارلم، معقل الأمريكيين الأفارقة، والمسلمين منهم.

لقد عُرفت صاحبة الزوبعة بنشاطها على الساحة الإسلامية. وحضرت جنوب أفريقيا فى كيب تاون. وحاضرت فى مسجد كليرمون المعروف باتجاهات إمامه التقدمى ومصليه الإصلاحيين. إذ يحضر الرجال والنساء فى دروس المسجد. ويصلون معا وراء الإمام. والمحافظون يصبرون عليه على مضض. وثارت زوبعة صغيرة ومحدودة لدى المسلمين لم يُطنطن لها الإعلام الغربى أو الأمريكى، زوبعة فى فنجان. كانت الغاية من زيارة جنوب

أفريقيا كسب الثقة، والإعلان التدريجى عن جرأة المسلم كرد فعل على تهميشه والنيل من ثقافته. وأصبحت من رواد المؤتمرات والندوات الخاصة والعامة، بما عرف عنها من مناصرة المرأة بوجه عام والمسلمة بوجه خاص مثل كثير من رائدات الحركة النسائية العربية خاصة فى المغرب وفى بنجلاديش. ولم ينفع معها التنبيه غير المباشر وأن الإسلام شىء والتقليعة الأمريكية والضرب على الوتر الحساس شىء آخر. ولم ينفع معها حوار هادئ وتبادل النصح بين المسلمين عندما حضرت إلى أندونيسيا، وأصرت على توسيع الزوبعة الصغرى إلى إعصار أكبر. صحيح أن المسلمين الأفارقة فى حاجة إلى رفع للمعنويات، فهم أقلية داخل أقلية، ومتهمون بالتخلف بسبب دينهم ولونهم فى عالم يسيطر عليه البيض من خلال الإعلام. تشجيع الاجتهاد الإسلامى شىء محبوب أمام موجة المحافظة والتقليد لكن فى صمت دون طنطنة إعلامية، وفيما ينفع المسلمين فى حياتهم اليومية، دفاعا عن المصالح العامة، وليس فى أشكال العبادات.

إن الغاية مما حدث فى نيويورك أخيرا تفتيت الأمة أكثر مما هى مفتتة، وقسمتها أكثر مما هى مقسمة، وإحداث فتنة فيها أكثر مما بها من فتن. وثار جمهور المسلمين المحافظين فى أمريكا، ومعهم جماهير المسلمين فى الوطن العربى والعالم الإسلامى. وانهالت مقالات التنديد. وشاح المسلمون بوجوههم بعيدا عن الدماء التى تسيل فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير، والمخاطر المحيطة بلبنان وسوريا والسودان وإيران إلى هذه الفتنة الجديدة التى لا نفع فيها للمسلمين، تهددهم بالانقسام والانشغال بما لا ينفع. ترك المسلمون المصالح العامة إلى ما لا نفع فيه إلا مزيدا من التشهير المتبادل بين "الإسلام التقدمى" و"الإسلام المحافظ"، والغرب الأوروبى والأمريكى سعيد بما يحدث، وتوجيه المسلمين حرابهم إلى أنفسهم وليس إلى عدوهم، الهيمنة الأمريكية والتوسع الصهيونى. وأيهما له الأولوية فى فقه الأولويات، دم الشهداء فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان

وكشمير أم إمامة المرأة للصلاة فى كنيسة؟ ويعيد التاريخ الحديث نفسه. ففى الوقت التى كانت الانتفاضة الأولى فى الذروة، والعالم كله مشدود أمام أطفال الحجارة وهم يرشقون الدبابات الإسرائيلية خرجت قضية رواية "الآيات الشيطانية" وتم تكفير صاحبها ورصد جائزة بالملايين لقتله. فالمسلمون الذين يناضل أطفالهم بالحجارة أعتى الجيوش وأقواها وأكثرها تسليحا، لا يتحملون رواية لأديب فى مجتمع دولى حرية الإبداع فيه مقدسة. فخسر العرب والمسلمون باليسار ما كسبوه باليمين. وفى الوقت الذى كان حزب العمل ممثلا بجريدة "الشعب" فى مصر يواجه الفساد والتغلغل الإسرائيلى فى الزراعة المصرية أقام الدنيا وأقعدها على رواية "وليمة لأعشاب البحر" لأديب منشورة منذ عشرات السنين وعدة مرات لإعادة نشرها فى وزارة الثقافة فى مصر، وخرجت المظاهرات من جامعة الأزهر العريق تندد بالإباحية. فكانت فرصة للنظام للقضاء على أكبر أحزاب المعارضة وأقوى جرائدها حماية للأمن العام. لا يتعرض الفقهاء المسلمون إلا إلى ما تعم به البلوى، وما يمس كل منزل وهى الحاجات الأساسية التى بها قوام الحياة والتى حددها الأصوليون فى مقاصد الشريعة الضرورية الخمسة: الحياة، والعقل، وما يتفق عليه جمهور العقلاء، والعرض أى الكرامة، والمال أى الثروة الوطنية. ولا تدخل إمامة المرأة ضمن هذه المقاصد العامة.

مازالت ثقافتنا الموروثة والتى مازالت مستمرة فى الثقافة الوطنية تحدد للناس تصوراتهم للعالم، وتعطيهم موجهاتهم للسلوك، مازال الرجل فيها هو المركز فى الأسرة والمجتمع ليس بسبب الإسلام الذى يمنع حقوق المرأة بل لأنها طبيعة الثقافة التقليدية، وكما هو الحال فى اليابان أيضا، كونفوشية أو بوذية أو شنتوية (عبادة الإمبراطور) أو مسيحية. وما تناقلته أجهزة الإعلام من الصلاة بإمامة المرأة من صور، مناظر مازال الذوق العربى الإسلامى لم يتعود عليها. امرأة تركع وتسجد والرجال وراءها يأتمون. وامرأة بجوار الرجل تركع وتسجد أيضا وليس فى موسم الحج بملابس الإحرام التى يتساوى فيها الناس

جميعـا، دون تمييـز بـين غنـى وفقـير أو رجـل وامـرأة. والعـادة جـزء مـن الـشرع مثـل اللغـة فـى معانى الألفاظ بل الأولوية للعادة إذا ما تعارضت مع الشرع. وتغيير العادة يحتاج إلى النفس الطويل وليس إلى الفرقعات الإعلامية والأهم هى النوازل أى ما يحل بالمسلمين من كوارث وأزمات. والعاجل له الأولية على الآجل. ودم المسلمين الذى يراق كل يوم وأراضى المسلمين التى تدنس لها الأولوية على إمامة المرأة.

٧- الأقوال والأفعال

تجعل أحوال الأمة الدفاع عن الإسلام عند الدعاة صعبا للغاية. فما أكثر الاتهامات التى تقال على الإسلام حاليا مثل الإرهاب، والعنف، والتخلف، والطائفية، والعرقية، ووضع المرأة، وحقوق الإنسان، ووضع الطفل والشيخ، والمجاعة، والجفاف، خلطا بين الإسلام والمسلمين، بين الدين وممارساته، بين نسق القيم والأوضاع الاجتماعية. وقد أصبح الدفاع عن الإسلام ودحض شبهات خصومه جزءا من أدبيات الحركة الإصلاحية.

والغرب لا يعرف حجة القول بل حجة العمل. ولا يصدق المثال بل يرى الواقع. فمهما قيل عن عظمة الإسلام وعالميته وإنسانيته وحريته وعدالته والغرب يرى واقع المسلمين فى الاتجاه المعاكس فإنه لا يصدق الدعاة. فالواقع أبلغ من التمنيات. والرؤية أقوى من السماع طبقا للمثل الشهير "أسمع كلامك يعجبنى، أشوف أعمالك أستعجب".

ويعرف الغرب أيضا حدود منهج الدفاع. فهو منهج انتقائى يقوم على اختيار النصوص التى فى صالحه دون نصوص أخرى نقيضة. فإذا تحدث الداعى عن (**لا إكراه فى الدين**) قدم له المستشرق الغربى آية السيف. وهو منهج نصى. يعتمد على حجة السلطة وليس على حجة العقل. ويغفل تحليل العلل وهى أساس الأحكام الشرعية. والمستشرق يحلل الواقع ولا يأبه بالنص، ويرصد العلل ويحيلها إلى جوهر الإسلام الثابت وليس إلى عوامل التاريخ المتغيرة. وهو منهج تاريخى. يستدعى من الذاكرة اللحظات المضيئة فى التاريخ

(*) الاتحاد: ١٥ أبريل ٢٠٠٦، الزمان: ١٤ أبريل ٢٠٠٦، الدستور: أبريل ٢٠٠٦.

ويترك غيرها. فيأتى المستشرق الغربى وينتقى لحظات أخرى فى صفه ليثبت هجومه. والتاريخ مملوء بالشيء ونقيضه، دون تمييز بين القاعدة والاستثناء. وهو منهج أخلاقى يضع ما ينبغى أن يكون، وليس منهجا اجتماعيا يصف ما هو كائن. والمستشرق يصف الظواهر كما هى عليه ويحللها ولا شأن له بما ينبغى أن يكون. فهو لا ينتسب إلى الحضارة الإسلامية كمثال، ولكنه يدرسها كواقع. وبقدر ما يستعمل الداعية الخطابة والوعظ الدينى يستعمل المستشرق التحليل الاجتماعى. وفى النهاية تكون حجة الواقع أبلغ من حجة النص. ويكون التحليل العلمى أقوى من الوعظ الأخلاقى. ويضيع كل الوعظ الأخلاقى فى القنوات الفضائية إلى الهواء كما بدأ منه. ولا يبقى إلا العلم.

والأمثلة على هذا التقابل بين أقوال الداعية وواقع المسلمين كثيرة.

يكثر الداعية بأن الإسلام دين السلام وبأن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام عليهم، وأن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا، وأن لفظ "الإسلام" ولفظ "السلام" من نفس الاشتقاق. ومع ذلك تسيل دماء المسلمين، ويقتتلون فيما بينهم. وتنفجر القنابل فى المساجد فى العراق وباكستان، ويقتتل السنة والشيعة. وما أكثر الحروب الأهلية عند المسلمين فى لبنان والجزائر. وما أكثر معارك الحدود بين دولهم، بين الجزائر والمغرب. وقد غزا العراق الكويت. واقتتل اليمنيون فيما بينهم. وأبرز الغرب الصراع بين العرب والأفارقة فى دارفور، وكلاهما مسلمون. ووضع مع ذلك المقاومة فى العراق التى تقتل العراقيين، والعمليات الاستشهادية فى فلسطين. ويختلط الحابل بالنابل دون تفرقة بين الإرهاب والمقاومة، بين العراقى الوطنى والعراقى العميل المتعاون مع الاحتلال. وفى حالة غياب رابطة الأخوة فى الأمة فإنها تجد هويات بديلة وعرقية وطائفية وقطرية تسبب هذه النزاعات طبقا للمبدأ الاستعمارى القديم "فرق تسد".

ويتحمس الداعية، ويصول فى مبادئ العدالة الاجتماعية فى الإسلام مثل الزكاة،

والمشاركة فى الأموال، وحق الفقراء فى أموال الأغنياء، والملكية العامة للركاز أى ما فى باطن الأرض غير المنقول مثل المناجم بما فى ذلك النفط، ونظرية الاستخلاف، وأن ما لدى الإنسان وديعة، له حق الانتفاع والتصرف والاستثمار، وليس له حق الاكتناز والاحتكار والاستغلال. ويستدعى من الذاكرة التاريخية أبا ذر الغفارى وموقفه من عثمان فى قضية توزيع الثروة، وعمر بن الخطاب وثوبه القصير، وتحريم السمن على نفسه عام المجاعة، وسيرة عمر بن عبد العزيز، وقول الأفغانى "عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه"، وما كتبه سيد قطب فى "العدالة الاجتماعية فى الإسلام"، ومصطفى السباعى فى "اشتراكية الإسلام". وفى نفس الوقت يرى المستشرق حال المسلمين والتباين الشديد بين الأغنياء والفقراء، وتراكم الثروة فى شبه الجزيرة العربية، والفقر والمجاعة فى جنوب السودان ومالى وتشاد وبانجلادش، والملايين المهددة بالموت من القحط والجفاف نساء وأطفالا وشيوخا، وانتظار مساعدات الكنائس وهيئات الإغاثة الدولية.

ويتحدث الداعية عن الحرية فى الإسلام، وأن الإسلام دين الحرية، وأن "لا إله إلا الله" إعلان للحرية، رفض آلهة العصر المزيفة بفعل "لا إله"، ثم إثبات حرية الضمير فى "إلا الله". وتُستدعى من الذاكرة التاريخية قولة عمر لحاكم مصر "لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟". وتذكر آيات **(لا إكراه فى الدين)**، **(ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)**. ويرى المستشرق والغرب كله معه وأجهزة الإعلام استعمال قانون الردة ضد المفكرين والباحثين والكتاب، والتفريق بينهم وبين زوجاتهم، وإصدار الفتاوى بقتلهم، وهروبهم من أوطانهم إلى الغرب، ينعمون بحرية الفكر والبحث والتعبير. وفى التقارير الدولية عن حالة حقوق الإنسان، تظهر الدول الإسلامية فى مقدمة الدول التى تخترق فيها هذه الحقوق بالسجن والتعذيب والاعتقال للصحفيين والأدباء والمفكرين.

ويتحمس الدعلية فى رؤية الإسلام لتعمير الأرض، وتنميتها، وتحويلها من رمال

صحراء إلى حدائق غناء، ومن هشيم أصفر تذروه الرياح إلى خضرة تهبط عليها الماء وتنبت من كل زوج بهيج. فقد خلق الله الإنسان فى الأرض واستعمره فيها. وسخر له كل شىء فيها، الفلك، والأنعام، والمعادن والطير والأسماك والهواء والنار لصالحه. ويرى الغرب بعينيه أن البلاد الإسلامية فى أفريقيا وآسيا هى قلب الدول المتخلفة، تعتمد فى غذائها على الخارج. وترتهن إرادتها الوطنية بسبب المعونات الأجنبية خاصة القمح. ديونها الخارجية وعجز ميزان مدفوعاتها بالمليارات. تستورد أكثر مما تصدر. ولا تمثل إلا أقل القليل فى التجارة العالمية. ولديها الأموال والأرض والمياه والسواعد والعقول كى تصبح سلة العالم للغذاء، ولكن معظم شعوبها تعيش تحت خط الفقر أو فوقه بقليل.

ويبرز الداعية عالمية الإسلام وإنسانيته، وأن الرسول قد بعث للأسود والأحمر، وأن هداية للعالمين. فالإسلام آخر الديانات، والرسول خاتم الأنبياء، والكل لآدم وآدم من تراب، والإسلام دين الفطرة، وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه. لا يفرق بين الأجناس والألوان، والشعوب والأقوام. ثم يرى الغرب فى الواقع النزعات العرقية والطائفية. ويتخصص بعض المستشرقين فى إبراز الرق فى الإسلام خاصة فى أفريقيا. ويبرز علماء اللغة معانى "العبد" و"البربرى" فى اللغة التداولية. وتصبح قضية دارفور عنوانا للمسلمين دون ذكر لنضال المسلمين فى جنوب أفريقيا ضد نظام التفرقة العنصرية أو بلالا الحبشى وصهيبا الرومى، وسلمانا الفارسى من صحابة الرسول، وأن العروبة هى اللسان وليست العرق.

ويبين الداعية تحريم موالاة الأجنبى، وأن المسلمين (**أشداء على الكفار، رحماء بينهم**)، وأن اليهود والنصارى لن ترضى عن المسلمين حتى ولو اتبعوا ملتهم. ويرى الغرب فى الواقع موالاة المسلمين للأجنبى على حساب الوطنى. نظمهم السياسية تابعة للغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية. القواعد العسكرية الأجنبية على أرضهم ومدنهم، وفى بحورهم وموانيهم. يحاربون معه إخوانهم فى الدين، وعاجزون عن مناصرة إخوتهم فى فلسطين

والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. وضاع منهم استقلالهم الوطنى الذى طالما ناضلوا من أجله. وفضلوا التبعية على الاستقلال.

ويفخر الداعية بأنهم خير أمة أخرجت للناس، وبأن الله جعلهم شهداء على جميع الأمم، وجعل الرسول عليهم شهيدا. فى حين يرى العالم أن الأمم الغربية هى صانعة التقدم، وأن مجموعة الثمانية تسيطر على ٨٠٪ من تجارة العالم، وأن العولمة فى المركز الغربى، والمسلمون فى الأطراف. وفى تصنيف شعوب العالم فى العلم والصناعة والعمران تأتى الدول الإسلامية فى آخرها.

ولا تنفع الحجج بأن ذلك هو مصير كل الحضارات. فقد تحولت المسيحية من المحبة إلى العدوان، ومن المغفرة إلى الهيمنة، ومن ملكوت السماوات إلى ملكوت الأرض. كما تحولت اليهودية من رسالة الأنبياء موسى واسحق ويعقوب إلى دعوة صهيونية لهرتزل وجابونتسكى، ومن طاعة للتوراة إلى عصيانها. بل إن هذا أيضا مصير الشعوب فى ثوراتها. وشتان ما بين الآباء المؤسسين لأمريكا وبين المحافظين الجدد فى البيت الأبيض. وقد تحولت الثورة الفرنسية من الحرية والإخاء والمساواة إلى الإرهاب. كما انقلبت الثورة الاشتراكية فى روسيا إلى نظام شمولى قهرى.

قد يكون هذا هو المصير الإنسانى، من الوجود إلى العدم، ومن البقاء إلى الفناء، ولكن هيهات من يسمع ومن يقتنع، والواقع مرئى للعيان. وأفضل وعظ للمسلمين هو تغيير أحوالهم حتى يتطابق واقعهم مع مثالهم. هنا لا تحتاج الأمة إلى دعاة بالقول فى الفضائيات بل إلى فلاحين فى الحقول، وعمال فى المصانع، وعلماء فى الجامعات، حينئذ لا يُقال عنا: رأيت فى الشرق مسلمين بلا إسلام، ورأيت فى الغرب إسلام بلا مسلمين.

٨ـ صحافة الإثارة

الإعلام أحد العلوم الحديثة الناتجة عن علوم الاتصال. ورث الروايات القديمة التى كانت الطريق لنشر الخبر، جيلا وراء جيل. كما ورث طرق جمع المعلومات القديمة وتبادل الرسائل واقتفاء الأثر مثل الحمام الزاجل، والأحصنة وسماع وقعها على الأرض، واقتفاء الأثر مثل الرمال. وتلتها الأجهزة السلكية واللاسلكية ثم الموجات الصوتية ثم الموجات الضوئية والأقمار الصناعية وكل وسائل الاتصال الحديثة التى أحدثت ثورة فى المعلومات. فالمعلومات قوة. ومن يمتلك معلومات أكثر ويعرف كيفية تحليلها يمتلك قوة أكثر. والحرب هى أساسا حرب معلومات. واستحدثت أجهزة الكمبيوتر لتخزين المعلومات وفهرستها وتحليلها، وسهولة استدعائها لضعف الذاكرة البشرية وسرعة تلف أرشيفات الحفظ.

وأنشأت كليات الإعلام وعلوم الاتصال لهذا الغرض. تعلم الطلاب الخبر وتحليله والصحافة وتبويبها، والفرق بين الخبر والتعليق والتحليل والمقال. وعرض الفلاسفة المعاصرون للأمر نظرا لما رأوه من خطورة الإعلام على نقل الحقائق، وأثره على تكوين الرأى العام، وتحديد رؤى العالم. واختيار أنماط السلوك كما فعل هربارت ماركوز فى كتابه الشهير "الإنسان ذو البعد الواحد"، تحليل دور الإعلام فى المجتمعات الصناعية المتقدمة لتسويق المنتجات فى النظم الرأسمالية، والتوحيد بين الخبر وطريقة إيصاله بحيث يوحى بتوجه معين، ويدفع إلى سلوك خاص لشراء البضائع لأنها الأفضل نوعا والأرخص ثمنا، كبيرة ولذيذة، لا يضارعها مثلها، فرصة العمر قبل أن يحين الأجل.

(*) الاتحاد: ٤ نوفمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٦ نوفمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٩ نوفمبر ٢٠٠٦.

وتقوم صحافة الإثارة فى البلاد المتخلفة بمثل هذا الدور عن طريق الإثارة والدفع إلى الحد الأقصى فى مجتمعات التطرف والتعصب والحدة. ويصل الأمر إلى الكذب ونقل أخبار مختلقة أو أقوال مبتسرة خارجة عن السياق بهدف الإثارة وليس بهدف التوعية عن طريق إيصال الخبر الصحيح. وقد فرق القدماء بين الخبر الصحيح والخبر الكاذب. ووضعوا شروطا لنقل كل منهما. كما تنقل المعلومات الصماء دون تحليل لها حتى يؤدى الخبر دوره فى يقظة الوعى القومى والدعوة إلى التفكير والتساؤل. وقد يتم توظيف الخبر دفاعا عن الأنظمة القائمة وليس نقدا لها كما هو الحال فى ما يُسمى بالصحافة القومية التى تمتلكها الدولة، وإساءة تأويل المعلومات. وتتحول الصحافة إلى إعلانات حكومية بدلا من البيانات الثورية للصحافة السرية أو صحافة المعارضة. ويصل الأمر إلى حد عدم تصديق مثل هذه الصحف، وهبوط توزيعها، وتكرار مادتها مهما تعددت عناوينها. وتصبح مجرد ديكور للدولة الحديثة وأحد متطلباتها.

والهدف من صحافة الإثارة ليس نقل الخبر أو تحليله بل بيع الجريدة وزيادة توزيعها وانتشارها بدلا من ركودها، وتفاقم الديون عليها، ويكون الهدف أيضا ترقية الصحفى الشاب أو الصحفية المبتدئة لأنها هى التى أذاعت الخبر المثير، وترقية المسئول عن الصفحة أو القسم أو مدير التحرير إلى رئيس للتحرير لأنه هو الذى قرر نشر الخبر المثير، وخبط خبطة صحفية استرعت الانتباه، وأثارت الرأى العام، وأصبح حديث القاصى والدانى. وربما استعمله النظام السياسى لأغراضه الخاصة ضد خصومه السياسيين، وأصبح من أعمدة النظام الإعلامى. وتصبح الغاية من الإعلام ليس يقظة الوعى القومى بل تصفية خصوم النظام، والكشف عن الفضائح، وفتح الملفات السرية التى يبقيها النظام لديه لحين الوقت الذى يقرر فيه تصفية خصومه أو عملائه الذين أصبحوا عبئا عليه أو رفضوا الامتثال المطلق لأوامره وإذا ما أرادوا ترك السفينة قبل أن تغرق واللحاق ببر الأمان أو ركوب سفينة أخرى

مازالت قادرة على عبور اليباب. وقد يكون الهدف من الإثارة إشعال الفتنة، وكب الزيت على النار، وحرق البلاد بتدخل أيدى أجنبية تدفع إلى الحدة والتطرف للقضاء على وحدة البلاد، وإثارة حرب أهلية بين الطوائف والأعراق والأيديولوجيات السياسية.

وتعتمد صحافة الإثارة على الثقافة الشعبية والمحافظة الدينية السائدة فى الرأى العام، واستقرار الأعراف التى تحولت إلى قيم ثابتة من طول قبولها، والرضوخ لقيمها، وطاعة أوامرها. كما تعتمد على الأفكار الشائعة والمعتقدات الموروثة والقوى السياسية المحافظة إذا ما برز رأى جديد أو عبّر كاتب عن موقف بديل. فتحاصر كل رأى، وتجرّم كل فكر، وتتملق الذوق العام. وتجعل نفسها حارسة القيم، والمدافع عن الإيمان ضد المنحرفين الملحدين المارقين المرتدين الخارجين على النظام.

تتعرض للمسائل الإيمانية والمعتقدات الموروثة. وتدافع على ما استقر منها عبر مئات السنين ضد أى اجتهاد جديد أو قراءة معاصرة. وتدخل فى أدق المسائل العلمية والعقائدية لتعرضها على الرأى العام فى الصحف السيارة مع أن مكانها الطبيعى فى الجامعات ومراكز الأبحاث والمعاهد المتخصصة. ودون أدنى حرج تتعرض للمسائل العقائدية مثل الذات الإلهية، صفاتها وأفعالها وأسمائها، وكأنها قرب المنال، يعرفها الصحفى كما يعرفها النبى. وتتعرض لقضايا الوحى والتاريخ، والنص وحوامله فى الزمان والمكان. وتتهم المفكرين والباحثين بأنه ينكر الوحى والنبوة والمقدس. وما هو نازل من السماء يجعلونه صاعدا من الأرض. والناس فى لحظات ضعفها وهزيمتها وعجزها لا تجد قوة إلا فى الدفاع عن المقدسات التى تعطيها الأمل فى المستقبل، والتمسك بالثوابت دون المتغيرات (**كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**).

وتترصد صحف الإثارة لهذا المفكر أو ذلك الباحث لكلمة منه أو تشبيه عفوى تلقائى. وتلقى عليه الأضواء. تترك المعانى والمقاصد، وتتمسك بالألفاظ والحروف، والله يضرب

الأمثـال للنـاس كـى يعقلـون. ويقـضى الباحـث العمـر فـى البحـث العلمـى والتـأليف الجـاد الرصين. ولا يسمع عنه أحد شيئا. ولتشبيه عابر أو عبارة عفوية بقصد التقريب إلى الإفهام تتناقله أجهزة الإعلام، وتطير به وكالات الأنباء، ويصبح اسمه على كل لسان فى مشارق الأرض ومغاربها. ويُعرف بما لم يقصده، ويُجهل بما قصده. وتضيع سنوات العمر لصالح لحظة عابرة. ويضيع المقصود لصالح غير المقصود.

ومثل القضايا الدينية الإيمانية تثار الفضائح الجنسية للشخصيات العامة، ولرجال الكهنوت، والزواج العرفى، والأطفال الشرعيين وغير الشرعيين. والجنس مثل الدين والسياسة محرمات ومقدسات فى الثقافة الشعبية. ويُقرن بها أخبار الزواج والطلاق، والخلع والهجر، والحب والعشق لنجوم المجتمع من رجال السياسة والمال والسلطان، مع أخبار الفنانين والفنانات، المحجبات وغير المحجبات، الصادقات والطالبات منهن الشهرة والإعلانات لتسويق الأفلام القادمة. ومعها تُنشر مذكرات السياسيين الصامتين، وتذاع أسرار المجتمع بعد كشف الغطاء، ويُعلن عن تصريحات القادة المنسيين الذين يقلبون صفحات التاريخ، ويعيدون تركيب الحوادث من جديد بعد أن طواها النسيان.

قد يكون الهدف من صحافة الإثارة الانحراف بالرأى العام، وإبعاده عما يهم الناس وما سماه القدماء "عموم البلوى"، قضايا الاحتلال والتحرر، والقهر والحرية، والفقر والعدالة الاجتماعية، والتجزئة والوحدة، والاعتماد على المعونات الخارجية والتنمية المستقلة. قد يكون الهدف هو إبعاد الناس عن التفكير فى الدماء التى تسيل كل يوم فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير، وعن كوارث القطارات والعبارات، ومياه الشرب المسمومة، وأنفلونزا الطيور، والأمراض المستوطنة، وتعذيب المواطنين فى السجون والمعتقلات، وامتهان كرامتهم فى أقسام الشرطة. مهمتها تزييف الوعى القومى واغترابه، وإدخاله فيما لا نفع فيه، وترك الصالح العام. فالإثارة غبار يعمى الرؤية.

وعلى هذا النحو تضحى صحافة الإثارة بالوطن من أجل المهنة الزائفة. وتضرب بعرض الحائط الصالح العام من أجل الصالح الخاص للصحفى أو لجريدته. تضرب المفكرين بعضهم ببعض وتجعلهم يكيلون السباب والشتائم لبعضهم البعض بلا حياء أو خلق. ويصل الأمر بفضل الإثارة إلى تبادل الاتهامات بالتكفير، وإطلاق الأحكام بالتخوين. ويتبارى فقهاء السلطان، ويتسابقون فى تكفير الخصوم السياسيين، والحكم عليهم بالقتل لأنهم مرتدون. وما أسهل أن يأتى متعصب لتنفيذ الحكم إذا ما تقاعست الدولة بعد فتوى أحد الفقهاء أنه يجوز لأى مسلم توقيع العقاب على مسلم آخر إذا ما صدر ضده حكم بالردة احتسابا لوجه الله.

صحافة الإثارة هى البديل الأسوأ للعلم والتحليل الموضوعى للأحداث فى هدوء ودون انفعال، إيثارا للاعتدال على التطرف، دون إثارة للفتن والنعرات الطائفية والعرقية، ومنع تدخل الأيادى الأجنبية لإشعال الحريق، وتفتيت الأوطان، وإحداث حروب أهلية بين فرقاء الوطن الواحد. ومن ثم كان على المثقف الوطنى والمفكر الواعى الصمود ضد صحافة الإثارة من أجل وأد الفتنة فى مهدها "الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها"، وإطفاء النار ووأدها وهى مازالت فى المهد، وتفضيل الآجل على العاجل، والتضحية بالنفس من أجل المحافظة على الوطن.

٩- أباطرة الصحافة وسدنة النظام

سقوط النجوم علامة من علامات الساعة (**والنجم إذا هوى**)، عندما يتهم البرىء صاحب الدعوة بالضلال والغواية (**ما ضل صاحبكم وما غوى**). أما فى حالة أباطرة الصحافة فى مصر وفى الوطن العربى فإنهم قد ضلوا الطريق، وغووا الناس، وزينوا للحكام سوء أعمالهم، وقلبوا الحق باطلا والباطل حقا. يظل إمبراطور الصحافة على مدى عقود من الزمان نموذجا للوطنية ثم يتحول فى غمضة عين إلى نموذج للفساد. ويسقط من أعلى رأس النظام إلى حضيضه، ومن دخول مبنى الجريدة، دخول الأباطرة القصور إلى دخول دور المحاكم والقضاء كالمتهمين والمجرمين للتحقيق، ومن ترأس مجلس الإدارة فى الصحيفة فى أعلى دور فى المبنى الشاهق إلى قفص الاتهام محاطا بالحراس فى الطابق الأرضى لقصور العدالة.

ومنهم من يقفز من القطار قبل أن يصطدم، وتقع الواقعة. ويدعى الوطنية وينضم إلى صفوف المعارضة، وينقد النظام والحزب الحاكم بعد أن استفاد عدة عقود من الزمان، وشعر أن نهاية النظام قريبة. فيترجل، ويستعد للنظام القادم. ومنهم من ينتظر إلى سن المعاش بعد أن يكون قد استنفذ آخر قطرة من لبن البقرة، ثم يتحول إلى معارض داخل الصحف القومية أو داخل صحافة المعارضة بالمقالات الملتهبة، وبالمقابلات الصحفية الرنانة. فقد تحول بقدرة قادر من الجاهلية إلى الإسلام. ومنهم من يقوم بذلك وهو مازال تحت السلاح، فى سن الخدمة ليضمن مستقبلا يبنيه فى المرحلة القادمة بعد أن أوشكت هذه المرحلة على

(*) الاتحاد: ٢٩ أبريل ٢٠٠٦، الدستور: أبريل ٢٠٠٦.

الانهيار. يترك الحزب الحاكم، ويتنازل عن مكاسبه العاجلة فى السلطة والثروة، انتظارا لمكاسب آجلة فى السلطة البديلة، والثروة مستمرة. يموت الأنبياء والملوك، ويستمر الكهان والأحبار والسدنة. (**فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا**). أما رجال الاقتصاد والمال فإنهم يهربون خارج البلاد بعد تهريب أموالهم وبيع شركاتهم وانتظار عقد الصفقة مع النظام للعودة مع تنازل عن جزء من رأس المال للوسطاء ومبعوثى النظام. ومنهم من يزاح فى صمت بعد أن أصبح عبئاً على النظام. وطوابير الانتظار طويلة (**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**).

الإعلام الرسمى فى يد الدولة مثل كل شىء. وهى الكتيبة الأولى فى الدفاع عن النظام بالتمويه والكذب كما تفعل أجهزة الأمن والشرطة بالعصى والقنابل المسيلة للدموع. وما أكثر الموظفين الأيديولوجيين فى كل نظام الذين يستعملون العلم والدين والثقافة ويزيفون التاريخ والحقائق دفاعا عن النظام. يتبعونه كما يتبع الخادم سيده. ويخالفون الضمير. والنظام يعلم ذلك. والمصالح واحدة. لهم مرتبات تبلغ عشرات الألوف شهريا، ونسب من الإعلانات التى تبلغ الملايين سنويا، وعلاوات وبدلات سفر مع أنهم فى طائرة الرئيس. وينالون شرف المقابلات الصحفية مع الرئيس أو مع رؤساء الدول على الصفحات الأولى. ويوضعون فى مناصب أكبر من قاماتهم، ويلبسون أثوابا أوسع من أجسادهم حتى يظلون عبيدا للشهرة والثروة والقوة والمنصب والجاه. لهم اللسان الذى يعبر عن عباقرة السياسة ومنقذى العالم. أباطرة يعظمون آلهة. ويتفاوتون فى الذكاء وحسن التبرير وجمال الأسلوب، والقدرة على الإقناع كما يفعل الراوى فى سرد حكايات ابن البلد، وكما يفعل عازف الربابة فى التغنى بمآثره. وفى القرآن (**قتل الخراصون**) وهوا المداحون. وفى الرواية القديمة "لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم".

وتحفظ آلهة الحكم ملفات أباطرة الصحافة بالفساد. فعندما يحين الوقت، ويصبح

هؤلاء الأباطرة عبئا على النظام أو عندما تفوح رائحة الفساد أو عندما يستهلكون ويصبحون غير قادرين على الإقناع أو عندما يفقدون الأهلية كلية فى خطاب الناس، تفتح ملفات الفساد. ويضحى بهم ككبش الفداء. ويظهر الحاكم أنه الراعى للحق والعدل، وأنه نظيف اليد، وأنه برىء من دم يوسف، وانتهاك كرامة الأوطان، براءة الذئب. والعيب كل العيب فيمن لبسوا قميص عثمان. وقد يحدث ذلك عندما تبدأ صحف المعارضة فى النيل منهم، وتسريب أخبار فسادهم بما لدى الصحفى من مصادر معلومات مستقلة أو بما يسربه إليه النظام. فقد خلق النظام بعض أوجه المعارضة لاستعمالها ضد سدنته عندما تأزف الآزفة، وتقع الواقعة. (إن عذاب ربك لواقع). وقد يهدد الأباطرة أنفسهم بإعلان ملفات الفساد للكل، لهم ولغيرهم لهدم المعبد على رؤوس الجميع. ومنهم من لا يُمس لأنه تحت مظلة الحماية الأمريكية أو الإسرائيلية. فعملاء الخارج أكثر تحصينا من عملاء الداخل.

إن النظام السياسى هو أداة الفساد الأولى فى البلاد. وأباطرة الصحافة أداة الفساد الثانية لتزييف الوعى الشعبى وتضليل الرأى العام. وإنها أسطورة أن الصحافة ملك الشعب، وأنها قطاع عام يسيطر عليه المجلس الأعلى للصحافة، ومن داخل مجلس الشورى. وقد تنازلت الدولة عن القطاع العام. وباعته بأبخس الأسعار. وهى فى سبيل خصخصة الماء والكهرباء والنقل البرى والبحرى والجوى. ومازالت تسيطر على قطاع الصحافة لأنها اشترته لنفسها إلى الأبد. وذاعت تجارة تراخيص الصحف من الأحزاب الصورية الموجودة على الورق إلى الأحزاب والتيارات والقوى السياسية الموجودة فى الشارع دون شرعية قانونية. وتنشأ صحف جديدة للمعارضة من الإرث الوطنى القديم. بل ينشئ النظام السياسى نفسه أو ورثته صحيفة جديدة بين الصحف القومية وصحف المعارضة لشق طريق ثالث، يد فى النظام واستمراريته، ويد فى المعارضة الإصلاحية من الداخل لتجديده من جيل جديد يرث الجيل القديم، وينتظر الثروة والسلطة بعد أن فاضت فى أيدى الرعيل القديم.

أما صحافة المعارضة فإنها مثقلة بالديون. تطبع فى مطابع الصحف القومية ومهددة بالغلق إن لم تسدد ديونها. صوتها عال وحزبها ضئيل كما وضح فى الانتخابات الأخيرة. وتنقسم على نفسها أيضا إلى صحافة جيل قديم لا يريد أن يترجل وصحافة جيل جديد يظن أنه أولى بريادة الحزب والتصدى لقضايا الواقع المرير. ومازال الكل صرخة فى واد. قد تؤدى دورا مزدوجا، دوراً فى إحداث التراكم التاريخى الضرورى لتحركات شعبية بدأت من قبل ومازالت مستمرة، وفى نفس الوقت يستشهد بها النظام لتجميل صورته فى الداخل والخارج كدليل على الحرية والديموقراطية.

من الطبيعى أن تكون هناك صحافة الحزب الحاكم. ومن البديهى أن تكون هناك صحف للمعارضة. وتلقائيا تنشأ صحف وطنية مستقلة تشق طريقا ثالثا بين السلطة والسلطة البديلة، بين من يحكم بالأمس ومن يحكم فى الغد. وكلاهما يتنافسان على حكم اليوم (**ولمن الحكم اليوم، لله الواحد القهار**).

وفى القرن الثامن عشر قسم فيكو، أحد فلاسفة التاريخ فى إيطاليا، تطور التاريخ إلى ثلاث مراحل. وقال أنه استمدها من تاريخ مصر القديم. الأولى مرحلة الآلهة، والثانية مرحلة الأبطال، والثالثة مرحلة البشر. الأولى طويلة، والثانية متوسطة، والثالثة قصيرة فى الدورة الأولى. وفى الدورات التالية تقل مرحلة الآلهة لصالح مرحلة الأبطال. وتقل مرحلة الأبطال لصالح مرحلة البشر. فمتى يسقط آلهة النظام وأباطرة الصحافة لصالح الناس؟ **(ولله فى خلقه شئون).**

الفصل السادس

الدين والسياسة

١- القهر الديني والقهر السياسي.

٢- ألفاظ التكفير والتعددية السياسية.

٣- الدين الشعبي والمعارضة السياسية.

٤- الدولة الإسلامية دولة مدنية.

٥- الجامع والكنيسة أم المدرسة والمستشفى؟

٦- تداول السلطة أم الائتلاف الوطني؟

٧- الدين والثقافة والسياسة في رمضان.

٨- إفطارات رمضان.

٩- الدين والأفراح.

١ـ القهر الدينى والقهر السياسى

القهر سمة العصر وأحد أسباب الضيق فى الوجدان العربى المعاصر. يشعر الفرد أنه مقهور. وتحس الجماعة أنها مقهورة. ويعانى الشعب أولا لأنه مقهور. وقد كتب كثير من علماء النفس والاجتماع العرب عن "سيكولوجية الإنسان المقهور"، وعن مصادر القهر الدينى والسياسى والاجتماعى والتاريخى.

القهر بنية بصرف النظر عن تجلياتها فى السلوك الإنسانى وفى الحياة العامة. هى بنية تقوم على التسلط. ويعنى التسلط تحديد العلاقة بين طرفين على نحو رأسى، بين الأعلى والأدنى، وليس على نحو أفقى بين الأمام والخلف. فالقمة أعلى من القاعدة، والإرادة الشاملة أقوى من الإرادات الفردية بل وتجبّها. هو التصور الهرمى للعالم. وليس غريبا أن يبدعه فرعون رمزا للحياة وللممات. فهو الإله الفرعون رمز القهر الدينى والقهر السياسى. سماها البعض "أرض النفاق والطغيان". فالطغيان يولد نفاق البعض للتعايش وتجنب البطش. كما يؤدى إلى شهادة البعض الآخر لمقاومة البطش دفاعا عن العدل ضد الظلم وامتلاك البلاد (**ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى، أفلا تبصرون**). وليس غريبا أن ينشأ فى مصر على مدى عصور التاريخ، بالرغم من شكاوى الفلاح الفصيح، وثورة ابن الهمام فى صعيد مصر، وثورة الفلاحين، وثورة ١٩١٩، وثورة يوليو، والهبات الشعبية بين الحين والآخر والمظاهرات العارمة فى لحظات الخطر والمساس بالكرامة الوطنية.

(*) الاتحاد: ١٦ ديسمبر ٢٠٠٦، الدستور: ١٧، ١٨ ديسمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٧ ديسمبر ٢٠٠٦.

ومصادر القهر متنوعة، الأول، الدين كما يعرضه رجال الدين دفاعا عن مناصبهم المزورة كما يقول الكندى. وطالما تعاون رجال الدين مع رجال السياسة عبر العصور. وطالما تعاونت الكنيسة مع الدولة، والبابا مع الإمبراطور، وعلماء الأزهر مع رجالات الحكم باستثناء القليل. وأفرزت عقائد القضاء والقدر التى ينقدها الأفغانى دفاعا عن الحرية والمسئولية بعد أن تحولت إلى ثقافة شعبية كما تبدو فى الأمثال العامية "المكتوب مامنوش مهروب"، "المتعوس متعوس ولو علقوا على راسه فانوس"، "يا متعوس غير رزقك ما تحوش"، "العين صابتنى ورب العرش نجانى" إلى آخر الأمثال التى درسها أحد علماء الاجتماع فى مصر فى "هتاف الصامتين" و"رسائل الإمام الشافعى". ولا تقوم ثورة إلا إذا تخلى الشعب عن هذا المعتقد كما حدث قبيل الثورة الفرنسية بفضل فلاسفة التنوير.

والثانى، السياسة كما تبدو فى النظم التسلطية مثل النازية والفاشية والنظم الشمولية والنظم العسكرية والملكية. وهو ما سماه ابن رشد فى "الضرورى فى السياسة"، "وحدانية التسلط" أى حكم الفرد المطلق الذى يقرر الصواب والخطأ، ويضع السياسات بناء على عبقريته أو إلهامه الخاص فى الحرب والسلام، والاشتراكية والرأسمالية، والاعتماد على الشرق أو الغرب. هو وحده كامل الأوصاف لا بديل عنه، ولا نائب له. يحكم فى الحياة عن طريق أجهزة الأمن والشرطة والإعلام، وفى الممات عن طريق الصور المعلقة والأقوال المأثورة والذاكرة الحية قبل أن تضعف أو تتوارى أمام الأحداث الجديدة. لذلك تشتد الدعوات للحرية والديمقراطية وينتهى حكم الفرد بالليبرالية البرلمانية.

والثالث، المجتمع. وهو قهر العادات الاجتماعية وقهر أب الأسرة، والأخ الكبير والأم أحيانا والمدرس والناظر والفتوة والشجيع. ومن يخرج على التقاليد يتهم بالعقوق والانحراف. وإذا كانت معتقدات شعبية فسرعان ما يتهم بالكفر والإلحاد والردة، جزاؤه الموت والتفريق، وعدم التوريث أو الدفن فى مقابر المسلمين أى أنه "موت وخراب ديار". لذلك قامت كل

الحركات الإبداعية فى الفن والأدب بتجاوز التقاليد والعرف للتحول من القديم إلى الجديد، ومن الإتباع إلى الإبداع.

والرابع، التاريخ وتقليد القديم والتمسك بالماضى وممارسة العادات الموروثة دون نقد أو تمحيص. فالسلف أفضل من الخلف، (**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات**). وكما برز فى بعض الأحاديث التى تعتمد على نقد السند دون نقد المتن كما لاحظ ابن خلدون "خير القرون قرنى". مع أن القرآن يدعو إلى المشاركة فى حركة التاريخ والاختيار بين التقدم والتأخر، (**لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**). كما يدعو إلى التنافس فى الخير، (**وفى ذلك فليتنافس المتنافسون**). فالتاريخ له ثقله فى الوعى الشعبى. يعيش الماضى فى الحاضر، والسلف فى الخلف. فتنشأ الحركات السلفية التى تطالب بالعودة إلى الماضى بعد أن انسد الطريق أمامها. وعجزت عن الخروج من توقف الحاضر إلى حركة المستقبل. وهو ما يحدث الآن فى هروب الحركة السلفية إلى الماضى وهروب الحركة العلمانية إلى المستقبل. وكلاهما عجز عن الدخول فى أتون الحاضر.

والأهم هو القهر الدينى وتعاونه مع القهر السياسى والقهر الاجتماعى والقهر التاريخى. فالقهر الدينى هو الأساس أى قهر الروح باسم الإيمان والطاعة، مستغلة القهر السياسى لأن أفضل وسيلة لطاعة السلطة السياسية هى السلطة الدينية التى تشرع له وتضفى عليه الشرعية التى يفتقدها لأنها لم تأت باختيار حر من الناس مع أن "الإمامة عقد وبيعة واختيار" بتعبير الأصوليين القدماء. حدث ذلك فى الغرب فى العصر الوسيط عندما استعمل القهر الدينى القهر السياسى، وسيطرت الكنيسة على الدولة، وقام البابا بطرد الملوك من الرحمة الإلهية إذا ما عصوه. تعاونت السلطتان على الدفاع عن الإقطاع، أراضى الكنيسة وأراضى الدولة، ضد ثورات الفلاحين كما حدث فى ألمانيا فى القرن السادس عشر بقيادة توماس مونزر الراهب البروتستانتى. واستعمل الملوك الأحبار فى بنى إسرائيل.

واستعملت بعض النظم السياسية فى الوطن العربى المؤسسات الدينية لتبرير سياسات هذه النظم. فإذا ما قويت الدولة استعملت الكنيسة لمد سلطانها فى الداخل والخارج فى قبول النظام الملكى، واستعمار الشعوب فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية باسم التبشير.

ويأخذ السلطان صفاته من الله مثل علمه المطلق وقدرته التى ليس لها حدود وحياته الدائمة واستمراره فى الحكم. يسمع ويبصر عن طريق أجهزة المخابرات العامة والبوليس السرى وأدوات التجسس والتصنت وانتهاك الحرمات. يتكلم كما يشاء. يريد فيأمر فيطاع. وتصور الوعى الشعبى الله كالسلطان، فعال لما يريد (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**). كما تصور قدماء المصريين الفرعون كإله، وكما تصور اليابانيون حتى إلى عهد قريب الإمبراطور كإله.

وفى كلتا الحالتين، الشعب هو الخاسر، وهو مصدر السلطات. والمواطن هو الضائع بفقدان حرياته الفردية. ومن تراكم القهر الدينى تنشأ حركات الإلحاد فى حده الأقصى للتحرر من الإله السلطان أو العلمانية فى حدها الأدنى للفصل بين السلطتين الدينية والسياسة، بين الكنيسة والدولة. كما تنشأ حركات ليبرالية تدافع عن حرية الفرد والجماعة أو فوضوية تكفر بالدولة والنظام السياسى والطبقة وكل مظاهر القهر الدينى والسياسى والاجتماعى والتاريخى دفاعا عن الفرد الحر كما فعل شترنر فى "الواحد وصفاته". وبدلا من أن يتوقف التاريخ تحدث الثورات فيه وتقع الانكسارات فى مساره المتصل. فالتاريخ قصة الحرية عند كروتشه.

مازال القهر هو البنية الغالبة على الوجدان العربى. وانغرست فيه محرمات ثلاثة: الدين والسلطة والجنس، الثالوث المقدس، مصدر عبادة وتشريع، وفى نفس الوقت مظهر حرمان وضياع. لعبة الدين والسياسة والجنس وراء كثير من الصراعات البرلمانية ومشايخ الإعلام والقنوات الفضائية والصحافة السوداء، صراعا على السلطة، والقهر باق. قنوات

ثلاث يغذى بعضها بعضا. لا يحدث تحرر سياسى إلا بعد تحرر الدين. فالدين هو الأساس، والسياسة فرع. تحرر الروح سابق على تحرر البدن. وتحرر الذهن قبل تحرر السجن. وتحرر القلب قبل تحرر العقل. والتحرر من الإله- السلطان سابق على التحرر من السلطان- الإله.

٢- ألفاظ التكفير والتعددية السياسة

اللغة أداة للتعبير عند المتكلم، ووسيلة للفهم عند السامع، ومدخل لمعرفة نوع الخطاب. وتحليل لغة الخطاب يكشف عن نوع الثقافة وطرق الممارسة. ولا فرق فى ذلك بين الخطاب الدينى والخطاب السياسى والخطاب الإعلامى بل والخطاب فى الحياة اليومية.

وقد ورثنا تركة ثقيلة من ألفاظ تمثل لغة الاستبعاد والإقصاء للمعارضين السياسيين، ظاهرها دينى أو طائفى أو عرقى أو جغرافى وفى باطنها سياسى، استبعاد السلطة للمعارضة لإقصائها وإدانتها كسلطة بديلة، وبالتالى القضاء على تداول السلطة.

ومن هذه الألفاظ: كافر، ملحد، مشرك، مرتد. وهى تقضى على المعارضة من الأساس. فمن يلصق به هذا الاتهام يخرج من زمرة الجماعة. لا يعيش معها، ولا يتزوج من نسائها، ولا يدفن فى مقابرها، ولا يرث من أموالها. بل ويُقتل المرتد إذا ما فارق الجماعة. وأخفها زنديق، ومنافق، فاسق، عاصى. خرج عمله عن إيمانه، ومن ثم فأفعال المعارضة السياسية تخرج عن حظيرة الإيمان مع أن الحاكم أيضا قد يخرج فعله عن إيمانه ويتستر بالنفاق وهو أولى بالاستبعاد. و"من قال لأخيه كافر فقد باء بها". وأخف منها شيعى، خارجى، معتزلى. وهى فرق المعارضة السياسية الرئيسية فى تاريخنا القديم فى مقابل السنى أو الأموى أو الأشعرى الذى فى السلطة. فالشيعى اتبع الأهواء ومال. والخارجى فارق الجماعة. والمعتزلى اعتزلها. وكل من عارض السلطة القائمة فقد "زعم" و"ادعى". والسلطة القائمة وحدها هى

(*) الاتحاد: ٢٣ أبريل ٢٠٠٥، الزمان: ٢٦ أبريل ٢٠٠٥، الدستور: أبريل ٢٠٠٥.

التى "تقول". فالمعارضة زعم وادعاء وبطلان. والحكومة حق وصواب دون بهتان.

فإذا ما خفت لغة التكفير ظهرت لغة الطائفية لتصنيف الناس والتفرقة بين المواطنين طبقا للطائفة. فهذا سنى وذاك شيعى، وهذا مسلم وذاك مارونى. وتفرق أبناء الوطن الواحد وتوزع الوطن على الطوائف. شيعة الجنوب، ومسلمو الشمال، كما توزعت ضواحى المدن على الطوائف، بيروت الشرقية للمسلمين وغربها للمسيحيين وما بينها نقاط تماس. وشمالها للمارونيين وجنوبها لأمل. ويقع الخليج فى نفس الفخ، بالحديث عن الشيعة والسنة بالإضافة إلى أهل البلاد أصحاب رؤوس الأموال والمهاجرين. والمهاجرون نوعان عرب وأسيويون. والعرب نوعان فلسطينيون وسوريون من ناحية ومصريون من ناحية أخرى، منافسة على الأرزاق. وقد تأخذ القسمة الطائفية شكلا سياسيا بين معارضة وموالاة، والمعارضة فى أغلبها مسيحية، والموالاة فى أغلبها إسلامية. صحيح أن تحرك الشارع اللبنانى أخيرا كان تحت علم لبنان الوطن، واختفت أعلام الطوائف. ومع ذلك ظلت الطائفية المحرك الباطنى، كل منها يريد استبعاد الآخر من الحكم، والاستئثار بالسلطة، وتقنين ذلك بالدستور. رئيس جمهورية مارونى، ورئيس وزراء سنى، ورئيس برلمان شيعى. واختفت المواطنة لصالح الطائفة. وهو ما يحدث الآن فى العراق. وتحولت معارك السلطة إلى معارك الطائفة. وما قد تجر إليه سوريا والسودان ومصر والجزائر والمغرب. إذ تحكم طائفة وتستبعد طوائف أخرى. قد تتحكم أغلبية فى أقلية أو أقلية على أغلبية ليس بناء على اختيار للمواطنين بل على التحكم والاستبعاد، مما جعل الغرب يثير قضية الأقليات فى الوطن العربى. وقد يعطى نظام نسبة معينة لتمثيل الأقليات فى المجالس النيابية، ومن ثم تختفى المساواة بين المواطنين. كما يتوارى قانون الجدارة والاستحقاق فى رعاية المصالح العامة. والكافر العادل خير عند الله من المسلم الظالم.

وقد يحل العرق محل الطائفة أو معها فهذا عربى وذاك بربرى أو زنجى. العرب فى

الحكم والبربر أو الزنوج فى المعارضة. وكما ينقسم العرب إلى قبائل كذلك ينقسم الزنوج إلى قبائل، هذا من البشارية وذاك من النوبة ويكون الصراع على السلطة بين القبائل والعشائر، وليس فقط بين الحكومة والمعارضة.

وقد تكون القطرية أحد عوامل التمييز بين العرب، والمنافسة على المناصب القيادية فى المنظمات الإقليمية. هذا مصرى وذاك مغربى، هذا سورى وذاك سعودى. وقد يتم توزيع المناصب دوريا على الأقطار العربية. فأصبح القطر مثل الطائفة أو العرق. وضاعت العروبة كعنصر جامع. وتورث المناصب طبقا للأقطار حتى لا يفقد القطر نفوذه على المنظمة الإقليمية. وبدلا من أن يكون القطر فى خدمة المنظمة العربية تكون المنظمة فى خدمة القطر.

وقد يأتى الإقليم كقسمة داخل القطر الواحد. ويتحزب أبناء الإقليم ضد أبناء الأقاليم الأخرى فى توارث المناصب. فهذا بحراوى وذاك صعيدى، هذا حضرى وذاك بدوى. بل قد يوزع المواطنون على المحافظات. هذا شرقاوى وذاك منوفى. ويظهر التنافس بين سكان كل إقليم. ويسخر بعضهم من بعض طبقا للذكاء والغباء، الفهم وعدم الفهم، "الحداقة" والسذاجة، الفهلوة والعبط.

وقد يدخل التعليم الذى يحدد نوع المهنة فى التمايز بين المواطنين. فهذا أفندى وذاك "بلدى". هذا شيخ وذاك علمانى. وهذا عسكرى وذاك مدنى. ولكل زيه. الطربوش أو عرى الرأس للأفندى، و"الطاقية" للبلدى، و"العمامة" للشيخ، و"الكاسكيت" للعسكرى. بل ويتم احتكار المهنة والحفاظ بالمنصب للتوارث من الآباء إلى الأبناء. فالطبيب ابن الطبيب. والمهندس نجل المهندس. والمحامى الابن يخلف المحامى الأب. ويتم توارث المهن حتى المهن اليدوية. فذاك من أسرة النحاس وذاك من أسرة الخبان، وثالث من أسرة الحداد. ويتم التنافس بين المهن. وتتحول المهن إلى طبقات يصارع بعضها بعض. ويزهو أصحاب المهن النظرية على أصحاب المهن العملية، ويترفع خريجو الجامعات على خريجى المعاهد الفنية

والمدارس المهنية أو الصناعات الحرفية عن طريق الخبرة والممارسة. وقد يتحول الأمر إلى التحزب لنادى رياضى والانتصار له ولو بالضرب على النادى المعارض. فهذا أهلى وذاك "زملكاوى". وقد يصبح الأمر أيضا منافسة على المطربين. فهذا من أنصار عبد الوهاب وذاك من أنصار أم كلثوم. وهذا من أنصار الفنان القديم وذاك من أنصار الغناء الشبابى الجديد. واختلف الناس وتحزبوا وتفرقوا شيعا فيما لا فرقة فيه ولا تشيع.

قد يكون من المقبول تصنيف الناس والقوى السياسية طبقا لاختياراتهم السياسية. وفى الشارع العربى هناك أربعة اختيارات رئيسية تمثل تيارات فكرية تحولت بعدها إلى قوى سياسية: الإسلاميون والقوميون والناصريون، والليبراليون والماركسيون. فالتيار الإسلامى هو المحرك الرئيسى للشارع العربى والأقدر على تجنيد الجماهير بعد أن استبعدوا من الحكم على مدى نصف قرن. ومازال سلاح اللاشرعية والمنع وراءهم بالرغم من وجودهم فى الشارع ونجاحهم فى الانتخابات فى الاتحادات والنقابات والمنظمات الأهلية. والتيار القومى الناصرى هو الذى يمثل حركات الضباط الأحرار التى استولت على السلطة فى منتصف القرن الماضى بالرغم من انقلابها إلى ثورات مضادة فى الربع الأخير من ذات القرن. ومازال الحنين إليه قائما، والمعارضة منه قوية ومؤثرة. والتيار الليبرالى حكم البلاد فى النصف الأول من القرن العشرين والذى يمثل الوطنية والحرية والاستقلال بالرغم من عدائه للثورات العربية الأخيرة وتبنيه الاقتصاد الحر. والتيار الماركسى بالرغم من ضعفه أو حضوره الهامشى، السرى أو العلنى إلا أنه مازال اختيار من بعض المثقفين وقطاع من العمال. الخطورة إذا أتى فريق فى السلطة استبعد القوى الأخرى باعتبارها خصوما سياسيين أو معارضة غير شرعية كما استبعد الليبراليون الإخوان والشيوعيين، وكما استبعد الناصريون الإخوان دائما والشيوعيون بعد انقلاب الثورات القومية على أنفسها.

وقد يكون من المقبول تصنيف الناس طبقا لأصولهم الاجتماعية، هذا غنى وذاك فقير،

هذا رأسمالى وذاك اشتراكى، ذاك من الصفوة وذاك من العامة، هذا من النخبة وذاك من الجماهير، هذا من الحكومة وذاك من المعارضة، دون تداول للسلطة وبعقلية الفرقة الناجية فى السلطة، والفرق الهالكة فى المعارضة.

لقد نجحت الثورة الفرنسية فى خلق لفظ جديد هو "المواطنة" يتساوى فيه الجميع كما هو فى نشيد المارسيلييز "إلى السلاح، أيها المواطنون". كما نجحت الثورة الاشتراكية فى روسيا فى خلق لفظ آخر يتساوى فيه المواطنون وهو "الرفيق". ونجحت الحركة الإسلامية فى اختيار لفظ يتساوى فيه جميع أفراد الأمة وهو "الأخ" إلا أننا مازلنا فى ثقافتنا الوطنية متأرجحين بين هذه الألفاظ بالإضافة إلى ألفاظ "الراعى" و"الرعية" و"الإمام" و"الأمة". ومازلنا نفتقد ألفاظ "الوطن" و"المواطن" و"المواطنة" ومازال خطاب عبد الناصر يرن فى الآذان "أيها الأخوة المواطنون".

٣- الدين الشعبى والمعارضة السياسية

هناك فرق بين الدين الرسمى والدين الشعبى. الدين الرسمى هو العقيدة والشريعة، دين المؤسسات، الدين كما ينبغى أن يكون فى أصوله وقواعده. وهو معيار السلوك الصحيح. مسطور فى الكتب، وعليه إجماع الناس. لا يختلف فى عمومه من بيئة إلى بيئة، ومن مجتمع إلى مجتمع. يتعلمه المؤمنون فى المدارس والمساجد وأجهزة الإعلام. أما الدين الشعبى فهو الدين الذى يمارسه الشعب ويختلط بالعادات الموروثة عبر الأجيال ومن خلال القرون الطويلة. لا فرق بين دين ودين، بين الإسلام والمسيحية واليهودية أو بين الهندوكية والبوذية والشنتوية فى طرق الممارسات الشعبية. هو الدين الاجتماعى الذى طالما درسه علماء تاريخ الأديان، والاجتماع، والقانون، والفنون الشعبية.

وقد اتضح الدين الشعبى فى مصر خاصة منذ الفاطميين حتى العثمانيين، تقربا للحكام للشعب أو يلهونه به بعيدا عن السياسة أو طلبا للولاء للدين كمقدمة للولاء للسياسة. لا فرق بين النبى والولى، بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء. واشتهرت مصر بحب آل البيت والأولياء الصالحين. وعرفت القاهرة بأنها مدينة الألف مئذنة، ومركز مشيخة الطرق الصوفية، ومدينة الأزهر الشريف.

وأعطى لكل من آل البيت والولى كرامة مثل سيدنا الحسين، فالحسين حبيب النبى والسيدة زينب "إن شالله يا ست" وهى حفيدة النبى، والسيد عائشة، والسيدة تيريزا، وعذراء الزيتون. وأعطى لكل منها قدرة خاصة. فالشافعى يستجيب لطلبات المستغيثين خاصة

(*) الاتحاد: ٢ يوليو ٢٠٠٥، الدستور: ٣ يوليو ٢٠٠٥.

العـاقرات حتـى يحملـن. وهـى أيـضا مـن كرامـات الـست تيريـزا. وعـذراء الزيتـون تظهـر فـى الأزمات كما ظهرت بعد هزيمة يونيو- حزيران فى مصر، والسيدة زينب تنتقم للمظلوم من الظـالم، والـدعاء لهـا مـستجاب لنـصرة المظلـوم مـن الظـالم، الـدعاء للمظلـوم لاسـترداد الحـق المسلوب، والدعاء على الظالم كى يرد الحق إلى أهله وإلا ناله القصاص. والدليل على صدق الدعاء تنظيف الضريح، وكنس ما يحيط به من مخلفات أو التصدق بالعيش والفول على الفقراء "عيش وفول للسيدة".

وهذا هو ما حدث عندما ذهب فريق من حركة "كفاية" المعارضة فى مصر وأغلبهم من النساء إلى ضريح السيدة يدعو على النظام، ويستنجد بها ضده. يحملون المقشات بعد حمل الشموع لتنظيف الضريح. وهو ما لم تحبذه حركة "كفاية" كحركة سياسية واعية. فما الإيجـابى ومـا الـسلبى فـى الاعتمـاد علـى المـوروث الـدينى والثقافـة الـشعبية فـى المعارضـة السياسية؟

الإيجابى هو استعمال الضعفاء كل ما فى إمكانياتهم لتقوية موقفهم، وشد عزيمتهم، وتعبيرهم عن إيمانهم بحق المظلوم من استرداد حقه من الظالم. ولا غضاضة فى الاعتماد على الثقافة الشعبية وإيمان البسطاء. وهو خير من الاستسلام للقضاء والقدر، واللامبالاة، والفتور. وقد استطاعت حركة "كفاية" تحريك الشارع المصرى لأول مرة فى الآونة الأخيرة مستقلة عن أحزاب المعارضة، ومنظمات المجتمع المدنى، والحركات السرية، إسلامية أو ماركسية.

والثقافـة الـشعبية فـى الـبلاد الناميـة تقـوم بـدور الأيـديولوجيا الـسياسية فـى الـبلاد المتقدمة. فهى تنبع من الوعى التاريخى. ومازالت قادرة على تحريك الناس. وجماهير الموالد والاحتفالات الدينية أكثر مما يستطيع الحزب الحاكم أو أحزاب المعارضة أن تحشده بالرغم من قوة أجهزة الدولة وسلطاتها على توفير وسائل النقل والرشوة وتقديم كافة الضمانات والوعود.

كما تمتاز بقدرتها على إنزال السياسة من برج السياسيين وعقول المثقفين إلى الشارع، واستثمار عواطف الغضب السياسى عند الجماهير، وتركيب المطالب الاجتماعية والسياسية على حوامل شعبية.

هكذا فعلت كثير من حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لتحريك الجماهير باستخدام الموروث الثقافى الدينى أو الشعبى. ولاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية نوع منه، توظيف العقائد للحراك السياسى والاجتماعى. وهو ما يتم فى آسيا فى البوذية السياسية، والكونفوشوسية الاجتماعية، والهندوكية التى تقوم على اللاعنف والنضال السلمى وجلوس الملايين فى الميادين العامة أمام القوات البريطانية لشل حركتها. وهو ما حاولته حركة ماوماو فى أفريقيا، والمؤتمر الوطنى الأفريقى فى توظيف الرقص الأفريقى والغناء من أجل حشد الجماهير. وهو ما حاولته المهدية فى السودان والسنوسية فى ليبيا فى توظيف "الرباط" لطرد المستعمر وما تفعله الحركات الجهادية الآن فى العمليات الاستشهادية.

وحدث ذلك على مدى التاريخ عندما رفض المسيحيون فى شمال أفريقيا عماد الكنيسة الإمبراطورية الرومانية التى اضطهدت المسيحيين قبل أن يتحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية، والرغبة فى الاستمرار فى كنيسة الشهداء للتحرر من الاستعمار الرومانى الوثنى أو المسيحى. وهو ما حدث أيضا فى ظهور عذراء جوادلوب فى المكسيك، والجثو على الركب من المعاقين طلبا للشفاء. وما المانع من توظيف الخرافة سياسيا واجتماعيا. وقد ظهر السيد المسيح لفيكتور كولومبوس، وتأسست كنيسة الرجل الأبيض لتدعين تحقيق رسالته السياسية. وظهرت السيدة العذراء لجان دارك مطالبة إياها بتحرير فرنسا من الاستعمار البريطانى بعد هزيمة الجيش الفرنسى.

وهو نوع من الإبداع السياسى يتجاوز مقار أحزاب المعارضة فى الشقق السكنية فى

وسط المدينة. يثير الخيال السياسى. وتشارك فيه الجماهير. وتخرج السياسة من أوساط المثقفين وممارسات النخبة إلى حركة الشارع التى طالما اشتكى الساسة من غيابها. وتنصب عليها أجهزة الإعلام الأجنبية، والقنوات الفضائية، وتأخذ مساحة كبيرة فى الإعلام الخارجى، وتجد صداها فى الأحياء الشعبية بالرغم من تجاهل الإعلام المحلى لها.

وقد تخيف أنظمة الحكم وأجهزتها التى مازالت جاهلة. فالثقافة الشعبية أصيلة لدى الضابط والشرطى، لدى الرئيس والمرؤوس، لدى الوزير والغفير. وكثيرا ما تركت الشرطة التى تحاصر مبانى النقابات لمنع الأعضاء من الدخول إذا ما استعدت عليها الناس الست أم هاشم أو غضب أولياء الله الصالحين. وبالإضافة إلى الأحساس بالذنب لدى الشرطة وأجهزة الأمن وأنهم عبد المأمور هناك أيضا الانتقام الدينى والعذاب الإلهى كما حدث ليقظة بعض ضباط الشرطة ورفضهم الأوامر بضرب المظاهرات السلمية والانتفاضات الشعبية.

أما السلبى فى ذلك فهو أيضا كثير. فغاية أحزاب المعارضة والتنظيمات الشعبية هو تنمية الوعى السياسى للجماهير. ولا يحدث ذلك بالاغتراب عن الواقع واللجوء إلى الدين كحيلة للعاجز. والقضاء على الظلم له آلياته فى أخذ الحقوق وليس من بينها الدعاء على الظالمين والاستنجاد بالست أم هاشم. ولا يمكن محو الأمية السياسية بأمية خرافية. تلجأ الجماهير إلى قوى خفية، وتتوقع إحداث كرامات. وهو ما يناقض التنظيم السياسى وآليات حشد الجماهير، ويجعل الجماهير أكثر انفعالا وأقل عقلا، وربما أشد تعصبا وأقل تسامحا. كما قد تحدث ردة إذا لم تتحقق النتائج المتوقعة، واستأسد النظام السياسى، واستمر فى طغيانه. ويتحول الصراع السياسى إلى صراع الخرافات. كما أنه سلاح ذو حدين. إذ يستعمل الحاكم أيضا شيوخه وأئمته ودعاته وأولياءه وكهنته لإبطال مفعول الاستنجاد بالست أم هاشم بل والقيام بدعاء مضاد باسم الحفاظ على الأمن، وضمان الاستقرار بالاستمرار، ولكل فريق مبرراته. ويصعب الأمر إذا ما نجح القمع فى تفريق المظاهرات،

وفرض الأمن، واعتقال المتظاهرين بالآلاف.

والحقيقة أن سندة الحكم يخشون على الثروة والسلطة ليس من انتقام الست أم هاشم ولا دعاء المعارضة بل من الثورة الشعبية وانتزاع الثروة والسلطة من أيديهم. فهم فى ساعة الخطر يأخذون بالأسباب، ويستعدون بتهريب الأموال إلى الخارج، ويحاربون المعركة الأخيرة.

إن مجموع الخطأين لا يكون صوابا. ولا بديل عن الوعى السياسى بواجبات الحكام وحقوق المواطنين بإحصاءات دقيقة، من يمتلك ماذا من ثروة مصر المهدورة.

٤- الدولة الإسلامية دولة مدنية

فى لعبة شد الحبل بين الدولة والإخوان فى مصر، يضيع الحق قصدا، ويتم تشويه الإسلام عمدا لصالح الصراع على السلطة. والوصول إلى السلطة حق مشروع لكل التيارات والقوى السياسية فى البلاد عن طريق تداول السلطة، وبالأسلوب الديموقراطى، واللجوء إلى صناديق الاقتراع، والاختيار الحر من الشعب. حزب حاكم فى السلطة على مدى أكثر من نصف قرن عمر الثورة المصرية، وأحزاب معارضة إسلامية وليبرالية وماركسية وقومية تنازعها السلطة. الحزب الحاكم بيده كل شىء، الدولة والجيش والشرطة والإعلام، والمعارضة ليس بيدها أى شىء، مطاردة من أجهزة الأمن، فى السجون والمعتقلات أو سرية تحت الأرض أو مهاجرة خارج البلاد أو ضعيفة مهمشة فى الداخل. ظهر حجمها الحقيقى فى الانتخابات التشريعية الأخيرة عندما لم تحصل فى مجموعها على أكثر من عشرين مقعدا بينما حصد الإخوان ثمانية وثمانين، ومجموعها مائة صوت أقل من ربع المقاعد فى مجلس الشعب الذى تبلغ مقاعده أربعمائة وأربعة أربعين مقعدا.

والخوف على مصر بعد العراق ولبنان وفلسطين والصومال والسودان والتهديد المستمر لسوريا وإيران. "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها". الخوف أن تتكرر مأساة الصدام بين الثورة والإخوان كما حدث فى ١٩٥٤ فى حادثة المنشية لاغتيال رئيس الجمهورية الأولى، ثم حادث المنصة فى ١٩٨١ باغتيال رئيس الجمهورية الثانية، وما قد يقع اليوم من صدام بينهما بدت مؤشراته فى حملة الاعتقالات الأخيرة تحت ذريعة التدريب العسكرى لطلاب

(*) الاتحاد: ١٧ فبراير ٢٠٠٦، الدستور: ١٥ فبراير ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٥ فبراير ٢٠٠٧.

الحركة الإسلامية فى جامعة الأزهر ضد الهجمة الاستعمارية الجديدة على الوطن العربى والعالم الإسلامى. وهو ما قامت به الثورة فى بدايتها فى المدن الجامعية، استئنافا لحرب الفدائيين فى القناة عام ١٩٥١ ضد قوات الاحتلال البريطانى على ضفاف القناة. وبين كلا الحادثتين ربع قرن تقريبا. فمتى تتوقف هذه الدائرة المفرغة بين الدولة وخصومها، بين السلطة والمعارضة؟

الذريعة اليوم هى رفض الدولة الدينية التى تدعو إليها الحركة الإسلامية لأن الدولة الحديثة دولة مدنية، ورفض تكوين أحزاب دينية لا يسمح بها الدستور درءا للفتنة الطائفية. والإسلام ليس دولة دينية ولا دولة أمنية بل دولة مدنية يحكمها القانون والدستور كما هو الحال فى الدولة الحديثة. وهو منصوص عليه فى برامج الحركة الإصلاحية فى مصر وسوريا والأردن ولبنان. فلماذا التشويه المتعمد، وتصيد الأخطاء، وابتسار الحقائق، والعودة إلى شعارات الأربعينيات، والاعتماد على ما هو وافد من تاريخ الغرب فى الصراع بين الكنيسة والدولة أو بين السلطة الدينية والسلطة السياسية؟ لماذا تشويه الحقائق ونقل تاريخ الغرب على تاريخنا؟ ليس القصد هو العلم أو الوطن بل إبعاد الحركة الإسلامية عن السلطة فى مرحلة ضعف الدولة وتحويلها إلى دولة قاهرة فاسدة فى الداخل، وتابعة ضعيفة فى الخارج بعد نجاح الحركة الإسلامية فى الاتحادات والنقابات المهنية بالرغم من محاولات التزييف من الحزب الحاكم.

لقد تغيرت برامج الحركة الإسلامية على مدى ربع قرن. وتجاوزت مرحلة النشأة الأولى التى رفعت فيها شعارات "الحاكمية"، "تطبيق الشريعة الإسلامية" وتحولاتها الحديثة، "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل". لا تعنى الحاكمية حكم رجال الدين بل حكم الشريعة والقانون. ولا يعنى تطبيق "الشريعة الإسلامية" تطبيق الحدود بل إعطاء الحقوق قبل أداء الواجبات. فحق المسلم فى بيت المال التعليم والعلاج والعمل والسكن

والاستقرار العائلى قبل تطبيق الحدود. فالجوع والبطالة مانعان من تطبيق حد السرقة. ولا يعنى شعار "الإسلام هو الحل" أو "الإسلام هو البديل" إلا السأم والملل من الأيديولوجيات العلمانية للتحديث، الليبرالية والقومية والماركسية. فقد ضاعت نصف فلسطين فى ١٩٤٨ فى العصر الليبرالى، وضاع النصف الآخر فى ١٩٦٧ أثناء الحكم القومى.

تطورت الحركة الإسلامية من العشرينيات حتى الآن على مدى أكثر من ثمانين عاما. فلماذا دفعها إلى الوراء لتشويهها وهى تكاد تقترب من مبادئ الدولة المدنية الحديثة، وتقبل بالتعددية السياسية، وحرية الفرد، وديموقراطية الحكم، والانتخابات التشريعية، وتداول السلطة، والمواطنة، والمساواة فى الحقوق والواجبات أمام القانون؟ لقد كبا الإصلاح من الأفغانى إلى محمد عبده بسبب فشل الثورة العرابية، واحتلال مصر فى ١٨٨٢. وكبا مرة ثانية من محمد عبده إلى رشيد رضا بسبب الثورة الكمالية فى تركيا فى ١٩٢٣. وكبا مرة ثالثة بالصدام بين الإخوان والثورة فى ١٩٥٤. وكبا مرة رابعة فى الصدام بين الجماعات الإسلامية والدولة فى ١٩٨١. وقد تعلمت الحركة الإسلامية من التاريخ. وبدلا من أن تتجه إلى مزيد من العنف جراء ما حاق بها من ويلات على أيدى النظام السياسى اتجهت إلى السلم والعمل السياسى العلنى. ومازال سيف الحظر مسلطا عليها بالرغم من وجودها فى الشارع وفى المجالس التشريعية والدستورية فى الاتحادات والنقابات المهنية وفى شتى مظاهر الحياة العامة. ومازالت المحافظة الدينية العامة الموروثة منذ ألف عام منذ قضاء الغزالى على العلوم العقلية وتكفير المعارضة وتشريع أخذ الحكم بالشوكة، مازالت حالة فى الوجدان بل وتقوى يوما بعد يوم بسبب الصدام بينها وبين النظم السياسية، وإقصاءها من العمل السياسى على مدى أكثر من نصف قرن. ومنها خرجت معظم حركات التحرر الوطنى فى مصر وتونس وليبيا والجزائر والمغرب والسودان واليمن وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين.

والأخطر من ذلك صب الدولة الزيت على النار باستدعاء باقى أحزاب المعارضة ضد التيار الإسلامى ووقوع بعض أحزاب المعارضة فى الفخ كما استعملت الجمهورية الثانية التيار الإسلامى لتصفية الناصريين، "أكلت يوم أكل الثور الأبيض". بل إن بعض الإسلاميين العلمانيين وقعوا فى الفخ يهاجمون الحركة الإسلامية بعدما نشئوا فيها. ودفعهم التجديد إلى الحد الأقصى دون المرور بالمراحل المتوسطة.

الدولة الإسلامية ليست دولة دينية يحكمها رجل دين أو ملك أو خليفة بل يحكمها من يبايعه الناس طواعية واختيارا. فتعبير القدماء "الإمامة عقد وبيعة واختيار" السلطة للشعب، والحاكم منفذ للدستور، والقضاء له الكلمة الأخيرة. وهى دولة الفقراء الذين يشاركون الأغنياء فى أموالهم (**والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**). وفيها الملكية العامة لوسائل الإنتاج وللموارد الطبيعية. نظامها يقوم على العدل. فالعدل أساس الملك. وحاكم كافر عادل خير عند الله من حاكم مسلم ظالم. وعلاقاتها الدولية تقوم على السلم والتعاون. فلا إكراه فى الدين. وقد كان النجاشى، ملك الحبشة، حاكما مسلما بالرغم من أنه نصرانى لأنه انتصر للعدل وللحق ضد الظلم والباطل. الإسلام ليس دينا بمعنى الكهنوت ولكنه دين المصالح العامة. والشريعة وضعية كما قال الشاطبى فى "الموافقات". تقوم على الدفاع عن الحياة والعقل والقيمة والعرض أى الكرامة والمال أى الثروة الوطنية. والتوحيد ليست مجرد عقيدة دينية بل نظرية فى الوحدة، وحدة الذات الإنسانية ضد النفاق وانفصال القول عن العمل، واللسان عن القلب، والفكر عن الضمير، وضد التفاوت الشديد بين الطبقات، وضد استعلاء دولة على دولة دفاعا عن وحدة البشرية. والنص الدينى إجابة على أسئلة طرحها الواقع كما هو معروف فى أسباب النزول. الواقع يسأل، والوحى يجيب (**ويسألونك عن الأهلة**)، (**ويسألونك عن الأنفال**)، (**ويسألونك عن المحيض**)، (**ويسألونك عن الخمر**). والتشريع متطور بتطور الزمان وتغير المصالح كما هو معروف من دلالة النسخ (**ما**

ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) بغية التدرج، ومواكبة التشريع لدرجة تطور الواقع كما هو الحال فى تحريم الخمر.

لقد نجحت الدولة الإسلامية فى الماضى فى المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة واستانبول فى قيام حضارة تقوم على العلم والفن. ومازلنا نزهو بجامعات الأزهر والزيتونة والقرويين وبآثار قصر الحمراء ومدينة الزهراء وبرج أشبيلية بالأندلس، وبمدارس الطب الإسلامى فى باليرمو وبادوا. وقد كانت النهضة الأوروبية فى بدايات العصور الحديثة من آثار الترجمات العبرية واللاتينية للعلوم العربية والثقافة الإسلامية.

وكما نجحت الدولة الإسلامية قديما نجحت حديثا فى ماليزيا وأندونيسيا بعد أن تحول الإسلام إلى هوية وطنية وساهم فى إنشاء الدولة. ونجح فى تركيا المعاصرة بفضل حزب العدالة والتنمية والنهج الاستقلالى. ونجح فى إيران الثورة ومناهضتها للاستعمار والصهيونية. وتحولت الحركات الإسلامية إلى أحزاب سياسية شرعية فى الأردن والكويت واليمن والمغرب ولبنان. تساهم فى البناء الديموقراطى، وتعمل على تداول السلطة. وفى الغرب أحزاب ديموقراطية مسيحية واشتراكية مسيحية تصل إلى السلطة عبر صناديق الاقتراع. ولم يتهمها أحد بالدولة الدينية. وأمامنا عدو صهيونى أنشأ دولته على اليهودية ولم يتهمها أحد بأنها دولة دينية وشرعيتها دينية. وتسمى "الدولة اليهودية". وتقدم حزب الوسط وحزب الكرامة وأحزاب أخرى بطلب ترخيص من لجنة الأحزاب بمجلس الشورى فرفضت جميعها وكلها تقول بالدولة المدنية.

خطورة حظر العمل الشرعى للحركات الإسلامية فوق الأرض يجعلها تتكون سرا فى إطار لاشرعى تحت الأرض. الخطورة أن تنشأ أجيال جديدة أكثر عنفا من الجيل القديم بعد أن تضيق بها السبل ويتربص بها قانون الطوارئ. فمن يكسر هذه الحلقة المفرغة؟

٥- الجامع والكنيسة أم المدرسة والمستشفى؟

انشغلت مصر هذه الأيام والمنزل يحترق حولها فى لبنان وسوريا والعراق والسودان. بل وفى دول الجوار مثل إيران وأفغانستان والشيشان وكشمير بالجامع والكنيسة والمسلم والقبطى. وهو الفتيل الذى تود قوى الهيمنة الخارجية إشعاله من أجل تفتيت مصر فى استراتيجية التجزئة والتقسيم للأوطان وللوطن العربى والعالم الإسلامى للقضاء على أى شكل من أشكال الوحدة، الوطنية أو القومية أو الإسلامية. فقد تحررت الشعوب بفضل أيديولوجيات الوحدة والاستقلال للوطن، فى حركات الاستقلال الوطنى أو العروبة، القومية العربية، أو الأمة الإسلامية. ولا تريد قوى الهيمنة الحالية الممثلة فى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية أى وحدة أخرى باستثناء العولمة، ومجموعة الثمانية، وحدة السوق المركزى حتى تظل الأطراف أسواقا وطاقة وعمالة، ويظل التقابل قائما إلى الأبد بين المركز والأطراف، المنتج والمستهلك، المعلم والتلميذ، المتقدم والمتخلف، الأبيض والملون.

وهى مباراة فى الانفصال، وتأكيد للهويات البديلة الدينية والعرقية والقبلية والعشائرية والعائلية كما هو الحال فى لبنان والعراق والسودان والخليج والجزائر فى وقت ضعفت فيه الدولة، وتوقف النظام السياسى عن الحركة، وغاب فيه الولاء للوطن والجماعة. وكلها هويات تجزيئية مفتعلة يُظن أنها تجلب الحماية للأقليات وهى أداة للتدخل الأجنبى. ولما كان الوطن العربى والعالم الإسلامى مازال مرتبطا بتراثه وبموروثه الثقافى فإنه يمده بهويته الدائمة عبر العصور بالرغم من نتوءات الحداثة بين الحين والآخر هنا أو

(*) الاتحاد: ٩ أبريل ٢٠٠٥، الزمان: ٩ أبريل ٢٠٠٥.

هنـاك، ليبراليـة مـرة، وماركسية مـرة أخـرى. ولمـا كـان التراث مقدسـا وكأنـه لـيس مـن صـنع الرجـال واجتهـاد العلمـاء، فقـد تمـاهى مـع الـدين، وأصـبحت الهويـة الثقافيـة هويـة دينيـة. تؤيدها قوى الهيمنة وصعود اليمين الغربى، وتغذيها المحافظة الجديدة فى الولايات المتحدة لإشـغال الـشعوب بمـشاكل مزيفـة بعيـدا عـن الأوطـان والقوميـات والأمميـات. ولمـا كانـت الثقافـات بطبيعتهـا خاصـة، وقـع صـدام الحـضارات، وتكـون العولمـة هـى النظـرة التوحيديـة الممكنـة باسـم الـسوق، والعـالم قريـة واحـدة، وثـورة الاتـصالات. ومـن ثـم يتوحـد المركـز وتتفتـت الأطراف.

وتصبح مصر وتمسى على أخبار من تحول من المسيحية إلى الإسلام إما عن اقتنـاع أو بـدافع الحـب، سـرا أم علنـا، الآن أم منـذ وقـت طويـل. وتثـور الكنـائس علـى نقـص عـدد الأقبـاط واحـدا، ويفـرح المسلمون بزيـادة المليـار والربـع واحـدا أو اثـنين. وتعجـز الدولـة. وتلجـأ للـسلطة، سـلطة الكنيـسة أو الأزهـر ليمنـع هـذه " التحـولات" تطفئـةً للنـار، ودفاعـا عـن الأمـن وحتـى لا تتحـول مظـاهرات الكنـائس إلى مظـاهرات الـشوارع، ويتحـول الـدينى إلى سياسـى، والـضيق فـى النفـوس، والقلـوب فـى الحنـاجر، والحطـب جـاف ينتظـر الـشرارة. وتحـول الشخـصى إلى عام، والعام إلى شخصى مع أن الدين فى القلب، ولا فرق بين إسلام ومسيحية فكلاهمـا ديـن إبراهيم. (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**). وجوهر الإيمـان العمـل الـصالح (**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**). الإيمـان فـى القلـب ولـيس فـى الـشعائر، وفـى النيـة الحـسنة وليس فى الطقوس.

وجوهر الإيمان "محبة الجار" أو السعى فى مصالح النـاس. و"الله فى عون العبـد مـادام فـى عـون أخيـه". بـل إن تـسوية الطريـق فـى العـراق حتـى لا تتعثـر بغلـة فيـه مـن واجبـات الحـاكم، فمـا حـال مـولاة الأجنبـى والتعـاون مـع المحتـل ونهـب الثـروات والإضـرار بالـصالح العـام؟ وقـد أوحـى المسيح بأنـه إذا أرادنـا الـصلاة فليغلـق كـل منـا نفسه فـى حجرتـه، ويغلـق

الأبواب ويصلى حتى لا يراه إلا أباه الذى فى السماوات، تحذيرا من النفاق والتظاهر والادعاء. كما قال الرسول "جعلت لى الأرض مسجدا طهورا". لقد نشأت حركة بناء المساجد والجوامع عندما تراكم رأس المال فى عصور الملكية والإقطاع موازية لحركة بناء القصور. الغرض منها الأبهة والعظمة وبيان مدى سلطة الملك. لا فرق بين دار العبادة والقصر والسجن فى الفخامة والقوة. والدين زهد وتقشف، وإيثار الآخرة على الدنيا. الدين ليس من جانب المنغلق بل المنفتح. ولا يهدف إلى إشغال الأرض بالمبانى والحضور المزيف بل إلى مزيد من التقوى فى القلوب. وكان مسجد الرسول من زعف النخل وكانت كنيسة المسيح فى الإخوة بين الحواريين والعشاء الربانى. والدولة تشكو من ضيق الميزانية، وعدم توافر الدعم اللازم للخدمات العامة، والعجز فى ميزان المدفوعات، ونقص المرافق. فالأولى من بناء الكنائس والمساجد، بناء المدارس والمستشفيات وإعادة بناء المرافق العامة التى يستفيد منها كل الناس بصرف النظر عن دينه. الدولة فقيرة مكبلة بالديون الخارجية، وتعيش على المعونات الدولية. وأموال الزكاة وصدقات البر إنما تنفق لإشباع الحاجات الأساسية وهى الضروريات وليس الحاجيات أو التحسينات بتعبير الأصوليين.

الناس فى حاجة إلى مستشفيات ومدارس وأندية رياضية. فالجسد المريض ليس مسلما ولا قبطيا. وكان المسيح يبرئ الأكمة والأبرص ويقيم القعيد ويحيى الموتى. وكان الطب صنعة الأقباط والمسلمين، أسرة بختيشوع، وحنين بن اسحق، وابن سينا والرازى وابن رشد. والناس فى حاجة إلى مدرسة للعلم بدلا من اكتظاظ الفصل بالعشرات، وكثرة الصراخ الإعلامى وبرامج التنمية عن محو الأمية. فالدين وحى، والوحى معرفة. وصحة الجسد فى النادى الرياضى لا تفرق بين مسلم وقبطى. وأطفال الشوارع والميادين الذين يلعبون الكرة على قارعة الطريق فى حاجة إلى نوادى رياضية للجميع.

وتعليم الدين فى المدارس ليس عن طريق حصص فى العقائد الإسلامية أو المسيحية

وفصل التلاميذ. المسلمون لحصة الدين الإسلامى. والأقباط لحصة الدين المسيحى. هنا تبدأ الفرقة فى الوطن، وتنشأ الهويات البديلة المزيفة عن الهوية الوطنية. ويشعر التلاميذ أن الوطن به عنصران وطائفتان وثقافتان وحقيقتان. وإن وحد العلم بينهما فإن الدين يفرق بينهما. وهنا تبدأ الطائفية والمغايرة والتمييز بين المواطنين. الأفضل تعليم القيم الدينية المشتركة فى كل الأديان عن محبة الجار، والتسامح، والعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان، وحرية الفرد، وديموقراطية الحكم، وإعمال العقل، وخدمة الناس. وهى مقاصد الشريعة عند الأصوليين، والمواعظ على الجبل فى الإنجيل. الدين جزء من التربية الوطنية. الوطن واحد، والدين واحد، لإحقاق العدل فى الداخل والاستقلال عن الخارج. فالمواطنة أولا والتنوع الثقافى ثانيا.

يستطيع البرنامج الوطنى العام أن يجمع بين المواطنين جميعا فى مشروع وطنى مشترك يضم محو الأمية، تعمير الصحراء، إيجاد فرص عمل، تجميل المدن، تنظيم المرور، تنظيف الشوارع، تعبيد الطرق. فالعلاقة مباشرة بين المواطن والوطن وليس عن طريق الحكومة أو جهاز الدولة. فيشعر المواطن بالانتماء للوطن الذى يشارك فيه الجميع وليس للطائفة أو العرق أو العشيرة أو العائلة. والمسيحى مسلم ثقافة لأنه يعيش بين المسلمين، والمسلم المسيحية جزء منه، والمسيح كلمة الله وروح منه. والدين الشعبى يوحد بين الدينين. فالمسلم يطلب الشفاء والمرأة المسلمة ترجو الحمل من السيدة تيريزا. والمسيحية تطلب الحمل والشفاء من الإمام الشافعى. كلاهما قدرى، صابر، يرضى بما رزقه الله له. وفى الأزمات الكبرى يتوحد الشعب ويظهر الولاء للأوطان. وفى حالات الضعف للنظم السياسة تظهر الفرقة الدينية كهويات بديلة وتخلق الأزمات. فالدين وسيلة لتوحيد الأوطان والشعوب وليس لبث الفرق وقسمة الأوطان.

٦- تداول السلطة أم الائتلاف الوطنى؟

كثر استعمال مفهوم "تداول السلطة" فى العقود الأخيرة عند كافة أطياف المعارضة السياسية. وأصبح يؤدى دور طوق النجاة والمفتاح السحرى لحل كل الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فى الوطن العربى. ومن الصعب الحكم هل نشأ هذا التعبير بطريقة تلقائية فى الثقافة السياسية المعاصرة أم أنه ترجمة للمصطلح الأجنبى Transfer of Power؟ وعلى أية حال أصبحت كثير من المصطلحات السياسية الوافدة جزءا من اللغة السياسية المعاصرة مثل الليبرالية والديموقراطية والبرلمان بعد أن تم تعريبها كما عرب القدماء مصطلحات فلسفة، جغرافيا، سفسطة، هيولى ...الخ.

وفى الظاهر هو تعبير فعال. يمثل سلاحا قويا ضد الحزب الحاكم الذى يستأثر بالسلطة على مدى عشرات السنين، وضد الحكام العرب المنتسبين إلى قريش أم إلى الجيش، إلى الهاشميين أو إلى العسكريين الذين يستمدون سلطتهم من الوراثة وهى أبدية من الخلافة حتى الملك العضود أو من الانقلاب العسكرى الذى يعبر عن موازين القوى الفعلية. فمازال الجيش فى كثير من بلدان العالم يمثل القوة الرئيسية المنظمة، وأكثر قدرة على التحرك من المؤسسات الدستورية والأحزاب السياسية بل والثورات الشعبية وانقلابات البلاط. ومع ذلك هو تعبير غير مؤثر. فلم يحدث أن تداول السلطة ديموقراطيا فى الأنظمة السياسية العربية المعاصرة.

والأخطر من ذلك أن مفهوم "تداول السلطة" إنما يعكس ما سماه ابن رشد "وحدانية

(*) الاتحاد: ٢٥ فبراير ٢٠٠٦، الزمان: ٢٢ ، ٢٤ فبراير ٢٠٠٦، الدستور: فبراير ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٩ أبريل ٢٠٠٦.

التسلط"، لا فرق بينه وبين ممارسة الحزب الحاكم. إذ يشرع للسلطة البديلة أى للمعارضة على الحكم بمفردها بعد أن يُزاح الحزب الحاكم ديموقراطيا عندما يصبح أقلية والمعارضة أغلبية أو بانقلاب عسكرى حماية للوطن من التبعية للخارج والفساد فى الداخل أو بثورة شعبية كما حدث فى السودان عام ١٩٨٦، وفى لبنان بعد اغتيال رئيس الوزراء وعدد آخر من الاغتيالات السياسية للنواب والصحفيين. الخطورة أن تأتى المعارضة بعد أن حصلت على الأغلبية ثم تتمسك بالسلطة إلى الأبد، ويعلن قادتها أن الانتخابات التى أحضرتهم لسدة الحكم هى آخر انتخابات كما حدث فى الجزائر منذ إعلان بعض قادة جبهة الإنقاذ ذلك، وانقلاب الجيش عليها، ثم وقوع البلاد فى حرب أهلية كلفت أكثر من مائة وخمسين ألف شهيد. فالحزب الأيديولوجى، إسلاميا كان أم علمانيا، قرشيا كان أم عسكريا إنما وجد ليحكم إلى الأبد لأنه الحق الذى لا يأتيه بالباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وينشغل الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة فى التنافس على السلطة، والتسابق على الحكم، وتزوير الانتخابات، وتجنيد الأنصار، وشراء الأصوات، واستعمال كل وسائل البلطجة، وتدخل أجهزة الأمن مما يؤدى إلى انعزال الناس. فسواء كان فى الحكم هذا الحزب أو ذاك فالواقع لم يتغير. والفقر فى تزايد، والقهر مستمر. أصبحت السلطة غاية لا وسيلة. والوصول إلى الحكم تربع على العرش لا فرق بين الملكيات والجمهوريات. فكلاهما وراثة. بل إن الناس فى النظام الجمهورى تتحسر على أيام الملكية حيث كانت حرية الصحافة، والمنافسة الحزبية، واستقلال الجامعات والقضاء والصحافة. والناس تحت النظام الملكى لا تجرؤ على المعارضة والمنادة بالنظام الاشتراكى بعد ما آل إليه هذا النظام من ملكية جديدة وتوريث، قهرا بقهر، وفسادا بفساد. أصبحت السلطة فارغة دون مضمون. ويحدث التغير الاجتماعى من خارجها، من مؤسسات المجتمع المدنى، والحركات الوطنية التقليدية، والمظاهرات الطلابية والاضطرابات العمالية، والهبات الشعبية، والثقافة الحرة. لم

يحكم الأفغاني. وكان له أكبر الأثر على الحركات الإصلاحية الثورية في مصر والسودان وإيران وأفغانستان. فليس المهم من يحكم في القصر بل ما الذى يتحكّم في العقل.

يكشف مفهوم "تداول السلطة" إذن أنه لا فرق بين الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة، تسلطا بتسلط، وفسادا بفساد. ولا فرق بين رئيس الحزب الحاكم وباشا الحزب المعارض. البنية واحدة في المجتمع الأبوى، التفرد بالحكم واتخاذ القرار.

وتثبت التجارب السياسية التى حدث فيها تداول فى السلطة أن المعارضة التى أصبحت فى السلطة تحكم بفردها ذهنيا وفكريا حتى لو ضمت بعض الوزراء من السلطة السابقة. ففى التجربة المغربية كان حزب الاستقلال فى السلطة والاتحاد الاشتراكى فى المعارضة. ثم أصبح الاتحاد الاشتراكى فى السلطة والاستقلال فى المعارضة. ثم أصبح حزب العدالة والتنمية فى السلطة وباقى الأحزاب السياسية فى المعارضة. وفى الحالات الثلاث لم يحدث حوار بين السلطة والمعارضة. وحاليا لا يوجد حوار بين حزب العدالة والتنمية والاتحاد الاشتراكى. كل فريق ينظر إلى الفريق الآخر على أنه خصم أيديولوجى. فالإسلام أيديولوجية كاملة متكاملة لا يحتاج إلى حوار مع الأيديولوجيات العلمانية للتحديث. والاشتراكية أيديولوجية تقدمية ونزعة إنسانية ديموقراطية لا تحتاج إلى حوار مع حركة إسلامية محافظة رجعية ثيوقراطية نصية. التجربة التركية أفضل عندما حكم العلمانيون منذ الثورة الكمالية واستمروا فى الحكم بالرغم من تغير الظروف، وظهور تيارات إسلامية محافظة أو تقدمية جديدة. فأتى حزب "رفاه" فى المعارضة يحيى ذكريات قديمة وحنين إلى دولة الخلافة. فعاداها الجيش، وحل الحزب، وعزل رئيسه أربكان. والآن استطاع حزب العدالة والتنمية أن يحكم بالتشاور مع باقى التيارات السياسية الأخرى، علمانية أو إسلامية. كما استطاع تحييد الجيش. واستقرت تركيا سياسيا بعد أن تبدلت عليها الأحزاب والقوى السياسية عدة مرات دون أن ينجح أى منها بمفرده أو متحالفا مع حزب

آخر فى الاستمرار فى الحكم. كما أخذ الحزب الحاكم موقفا وطنيا من القضية الكردية فى الداخل فى إطار من التعددية السياسية، ومن القضية الفلسطينية بالابتعاد عن إسرائيل سياسيا وعسكريا، ومن العدوان الأمريكى على العراق برفض مرور القوات الأمريكية على أرضها بناء على رفض البرلمان.

وتجربة حماس فى الطريق. عليها أن تختار: الحكم بمفردها كما حكمت فتح بمفردها بناء على تداول السلطة بين الأغلبية والأقلية أم بناء على تآلف وطنى تشارك فيه السلطة والمعارضة، حماس وفتح فيها من أجل التفاوض أو المقاومة لاسترداد حقوق شعب فلسطين. ليس من مصلحة الشعب الفلسطينى أن تحكم حماس بمفردها لتبين قدرتها على إنجاز ما لم تستطعه حركة فتح. وليس من مصلحته كذلك أن ترفض فتح المشاركة فى السلطة مع حماس حتى تذوق ما ذاقته فتح من الإذلال والإهمال والتهميش فى التعامل مع الولايات المتحدة وإسرائيل وفرجة الوطن العربى على ما يحدث. فالقضية فلسطينية وليست عربية فى عصر القطرية والطائفية والعرقية. "مصر أولا"، "الأردن أولا"، "الكويت أولا" ...الخ.

الإسلاميون قادمون إلى السلطة ديموقراطيا كما هو الحال فى المغرب وتركيا. وهم على وعى بعدم التسرع والقفز على السلطة بالعقلية الانقلابية القديمة للمودودى وقطب بل بالانتشار فى المجتمع أولا من القواعد الشعبية، وبالمشاركة لا المغالبة مع السلطة القائمة. فقد جرب الشعب العربى الليبرالية فى النصف الأول من القرن العشرين، ثم الاشتراكية مرة أخرى فى النصف الثانى منه. وجرب الماركسية فى تحالف مع بعض الأحزاب القومية. وكانت النتيجة مزيدا من التبعية للخارج والقهر للداخل. ضاعت نصف فلسطين فى العهد الليبرالى ١٩٤٨، والنصف الثانى فى العهد الاشتراكى ١٩٦٧. وتبعثرت الأمة الإسلامية أولا والعربية ثانيا. وتعيش الآن مرحلة تفتيت الدولة القطرية وتجزئتها إلى فسيفساء عرقى وطائفى. فلم تجد الناس إلا الحركة الإسلامية تنتسب إليها. وأصبحت شعاراتها "الإسلام

هو الحل"، "الإسلام هو البديل"، بحثا عن طوق النجاة، و"الحاكمية لله" بدلا من الدولة القاهرة المستبدة الفاسدة التابعة، و"تطبيق الشريعة الإسلامية" بدلا من عذاب المواطنين فى بيروقراطية الدولة ورشاوى الموظفين. ما تحتاجه فقط مزيدا من الترشيد والعقلانية والواقعية والاجتماعية وأقل قدر من النصية والعقائدية والسلفية والمثالية والإيمانية.

وقد كان هذا هو طريق الرسول فى بناء الدولة العربية الإسلامية الأولى، بالتوافق الوطنى بين المهاجرين والأنصار، والأوس والخزرج، وأهل الكتاب والمسلمين. فالديانات الثلاثة تنتسب إلى مصدر واحد، إبراهيم. وأضاف القرآن الصابئة. وأضاف الرسول المجوس. بل إن القاضى عبد البر أضاف عبدة الأوثان. فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ما يهم هو العمل الصالح للجميع. فأيهما أجدى "تداول السلطة" أم "الوفاق الوطنى"؟

٧- الدين والثقافة والسياسة فى رمضان

ظاهرة غريبة تتكرر كل عام فى الشهر الكريم دون توقف ودون تساؤل ودون استدراك. وهى ظاهرة إلغاء الصفحات الثقافية والسياسية فى الصحف اليومية، سواء صحف الحكومة أو صحف المعارضة، ووضع بدلا منها صفحات الفكر الدينى. وبدلا من المقالات الثقافية ومقالات التحليل السياسى توضع بدلا منها صور مآذن المساجد وجداول إمساكية رمضان والحديث عن الصيام كركن رابع من أركان الإسلام الخمسة، مع صور ملونة وعيون جاحظة، ووجوه مبتهلة، وسماء مرصعة بالنجوم. وتكرر ما تفعله كل عام بالحديث عن مفطرات الصوم وآدابه، وكيفية أداء شعائره الإضافية كالتراويح، وليلة القدر، وختم القرآن، والاعتكاف فى العشر الأواخر منه، وإضاءة المصابيح وإنارة المآذن، وتعليق الفوانيس، وزيارة الأقارب فى أوله، وزيارة المقابر فى آخره مع الاحتفال بالعيد ووضع الزهور عليها، والترحم على الموتى، وتوزيع الرحمة، وقراءة القرآن، لا فرق بين الزيارة الشرعية والعادات الشعبية. وقد تتطرق صفحات الفكر الدينى إلى مأكولات رمضان ومشروباته، ما يضر منها وما ينفع، قمر الدين، والكنافة والقطايف والبلح والخشاف والمكسرات التى يكلف استيرادها أضعاف الشهور العادية.

والسؤال هو: هل تحويل الصفحات الثقافية والتحليل السياسى إلى صفحات للفكر الدينى فى المناسبات على هذا النحو هو من جوهر الدين أم من مظاهره؟ هل الدين هو رموزه وشعائره وطقوسه وعبادته كما يرى الفقهاء أم معانيه ومقاصده ودلالاته كما يحاول

(*) الاتحاد: ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٢ أكتوبر ٢٠٠٦.

الصوفية وهم أقرب إلى الحديث النبوى؟ فكم من الصائمين لم ينالهم من الصيام إلا الجوع والعطش لأنه لم يتمثل معانيه مثل قوة الإرادة، وتحمّل الجوع والعطش، والكف عن الأذى، وتقوى الله فى المعاملات، والتراحم، وزيارة الأقارب، ومشاركة الفقراء فى همومهم، وتلبية حاجاتهم. فللفقراء حق فى أموال الأغنياء (**الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**)، و"ليس منا من بات شبعان وجاره طاو". والأدبيات كثيرة عن حكمة الصوم والإسلام والاشتراكية فى الستينيات.

الدين سلوك رمزى، لذلك سميت العبادات الشعائر والطقوس، وللرموز معانى ودلالات فى الحياة ومؤشر على السلوك فيها. الدين وسيلة لإسعاد البشر وتحقيق الكمال على الأرض وإرشاد للإنسان فى حياته اليومية وليس غاية فى ذاته وإلا تحول إلى صور وأشكال ورسوم وكهنوت. وهو مصير كل دين قبل حركات الإصلاح فيه. حدث ذلك فى بعض الديانات الشرقية مثل الهندوكية والديانات الأفريقية مثل "الفتشية"، تقديس الأشياء فى الطبيعة. وهو ما يميز الديانات "البدائية" كما يصف الأنثروبولوجيون. وقد كان ذلك مصير اليهودية أيضا على يد الأحبار والكهان ورؤساء المعابد. فجاء المسيح ليحيلها إلى مضمون أخلاقى روحى لإكمال الشريعة من جانبها الباطنى وليس الخارجى. ثم جاء الإسلام ليؤكد على ما أكد عليه المسيح (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**)، وأن الرسول قد بُعث ليتمم مكارم الأخلاق.

الدين ما يتعلق بحياة الناس. فخيركم للناس أنفعكم للناس. والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه. ولو عثرت بغلة فى العراق لسئل عنها عمر لماذا لم يسوّلها الطريق. وكانت غزوة بدر فى رمضان، وحرب أكتوبر- تشرين ١٩٧٣ فى رمضان. رمضان شهر الإنفاق والبذل وزكاة الفطر، والتراحم والتزاور والتصالح. فلا يجوز خصام الأخ لأخيه أكثر من ثلاثة أيام. والأحزاب تتخاصم، والحكومة والمعارضة تتنافران، والمصالح الشخصية

تفرّق الناس ولا تجمعهم. والصيام حد من الاستهلاك وليس مضاعفته. وقد لا يطعم الفقراء والمساكين اللحم طيلة العام إلا على موائد الرحمن.

الثقافة جزء من الدين. إذ يحثّ الدين على إعمال الفكر، وتحكيم العقل، والاعتماد على النظر. فالنظر أول الواجبات. والعقل مناط التكليف. والاجتهاد أحد مصادر التشريع. أتى الإسلام لتحرير العقل من الخرافة والوهم. ودعا القرآن للتفكر والنظر (**أفلا تعقلون**)، (**أفلا تفكّرون**)، وفى الحديث القدسى "أول ما خلق الله خلق العقل. فقال له: أدبر فأدبر، وعزتى وجلالى ما خلقت إلىّ أعز منك". أتى الإسلام لتنوير العقول، وإثارة الأذهان، وطلب البرهان (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**).

ولا يوجد دين تحول إلى ثقافة وحضارة كالدين الإسلامى. فتعلم القراءة والكتابة يحرر العبد، والقضاء على الأمية جوهر الدين وهدفه الأقصى على عكس ما هو قائم حاليا من أن أكثر من نصف المجتمع مازال أميا. وانخفاض مستوى التعليم يجعل الأمية مزدوجة، أمية القراءة وأمية الوعى الثقافى. وترجم القدماء ثقافات اليونان والرومان غربا، وفارس والهند شرقا. وعظموا الثقافات المجاورة. عرضوها وأكملوها وأبدعوا فيها. وتحول بلاط الخلفاء إلى نقاشات ثقافية حول المسائل الإيمانية الكبرى، وجود الله وخلق العالم وخلود النفس، وشارك فيها المسلم والنصرانى واليهودى والمجوسى والصابئى والوثنى والزرادشتى والهندوسى والمانوى والملحد والكافر على قدم سواء.

وانتشرت الثقافة الإسلامية شرقا إلى آسيا وغربا إلى أوروبا عبر الترجمة إلى اللاتينية مباشرة أو عن طريق العبرية. ونشأت الثقافة العقلانية فى العصر الوسيط المتأخر تحت أثر الثقافة الإسلامية. وانتشرت الرشدية اللاتينية فى قلب الثقافة المسيحية لتحكيم العقل فى قواعد الإيمان. فانتهى العقلانيون إلى التوحيد والتنزيه.

وفى القرنين الأخيرين، عندما اتصل علماء الأزهر بالغرب مثل رفاعة الطهطاوى وخير

الدين التونسى وابن أبى ضياف، انفتحوا ثقافيا على الآخر. وظهرت تيارات الإصلاح فى العالم الإسلامى بفضل الانفتاح الثقافى على الغير. وقامت حركات النهضة بكل تياراتها الليبرالية والعلمية والتحديثية والقومية بفضل التفاعل الحضارى مع الآخر. فالدين ثقافة وحضارة. ودخل الإسلام فى معركة صدام الحضارات لتحويلها إلى حوار الثقافات. وقد دعا الكندى أول فلاسفة الإسلام سابقا إلى أخذ الحكمة حتى من الأمم البعيدة القاصية عنا. فكل إنسان يشرّفه الحق. "اطلبوا العلم ولو فى الصين". فالثقافة دين والدين ثقافة. ومن ثم تحويل الصفحات الثقافية إلى صفحات للفكر الدينى خروج عن مقصد الدين وتحويله إلى كهنوت وعالم مغلق منفصل عن عالم الحياة.

وإلغاء صفحات التحليل السياسى أيضا لصالح الفكر الدينى فى رمضان تملق لأذواق الجماهير، ولعب بالعواطف الدينية، وفرصة ذهبية للتعتيم السياسى، والتخلص من هم طالما ضايق الحكام بتنوير المحكومين ومعرفة حقوقهم لاستردادها من الحاكم. أتى الدين لتغيير الأمر الواقع. وقاوم الأنبياء عيوب أقوامهم، تسلط فرعون، والشذوذ الجنسى عند قوم لوط، وصورية الشريعة عند اليهود، وعبادة الأوثان عند قوم إبراهيم، والدعوة إلى المساواة بين عبيد مكة وساداتها، بين عامتها وأشرافها، بين سودها وبيضها، بين فقرائها وأغنيائها. وجعل من مبادئه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم. وجعل الحسبة الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية أى الرقابة على الأسواق وجهاز الدولة كما تفعل الرقابة الإدارية وديوان المحاسبة الآن. وأعظم شهادة قولة حق فى وجه حاكم ظالم، ومن مات دفاعا عن عرضه وماله فهو شهيد، وعظّم ثقافة الشهادة، وأسس الأحكام السلطانية، ووضع السياسة الشرعية. فالنقد الاجتماعى جزء من الإسلام، وتطبيق الشريعة أساسه وجوهره. فالسياسة دين، والدين سياسة. فكيف تلغى صفحات التحليل السياسى فى رمضان لحساب الفكر الدينى؟

يُخشى أن يتحول الدين فى شهر رمضان إلى كهنوت وعزلة عن الحياة الثقافية والسياسية. كما يُخشى أن يتحول الدين إلى وثنية جديدة عن طريق التركيز فى شهر رمضان على العادات الاجتماعية التى لصقت بالدين وهى وافدة من خارجه خاصة من عصر الفاطميين لإلهاء الناس بالدين الشعبى عن مقاومة الحكام. لذلك تساند الدولة مظاهر التدين فى رمضان فى أجهزة الإعلام الرسمية المرئية والمسموعة والمقروءة. وفى نفس الوقت تلهى الناس بالمسلسلات التليفزيونية والبرامج الترفيهية وفوازير رمضان.

٨- إفطارات رمضان

من مظاهر الشهر الكريم، وقد قارب على الانتهاء، عدة ظواهر دينية واجتماعية وسياسية وثقافية. تتداخل فيما بينها دون تمييز إلا فى أذهان العامة أو الفقهاء. فمن الظواهر الدينية: إنارة المساجد خاصة المآذن، صلاة التراويح، حفلات تسليم جوائز حفظ القرآن الكريم، السرادقات فى الأزهر والحسين لمشايخ الطرق الصوفية، البرامج الدينية الزائدة فى الإعلام المرئى، صفحات الفكر الدينى النمطية بدلا من الصفحات الثقافية فى الصحافة، معارض الكتب الدينية فى أروقة المساجد الكبرى، الإمساكيات لمواقيت الصلاة والإفطار والسحور والشروق.

ومن المظاهر الاجتماعية: فوانيس رمضان، أغانى رمضان، مسابقات رمضان، ليالى رمضان، أوكازيونات رمضان، ياميش رمضان، كعك العيد، مأكولات رمضان، قمر الدين، الخشاف، الكنافة، القطايف، مدفع الإفطار، المسحراتى، تقليل ساعات العمل، السهرات الرمضانية، سحور رمضان فى السرادقات أمام محلات الفول والطعمية والكباب، زحمة الطرقات وتكدس المرور. إذ تخرج الملايين فى نفس الوقت وتعود فى نفس الوقت، القيادة بسرعة فائقة قبيل الإفطار للحاق بموعده حتى ولو كان فى ذلك فقدان الحياة إثر حوادث الطرق المميتة، العصبية والضيق نظرا للجوع أو العطش أو الامتناع عن التدخين.

ومن هذه المظاهر إفطارات رمضان تدعيما للترابط الاجتماعى بين الطوائف والهيئات

(*) الاتحاد: ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٥، الدستور: ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٥.

والمؤسسات والجمعيات ومنظمات المجتمع الرسمى والمدنى. وبعد عدة دعوات على بعض منها وبناء على خبرة شخصية هى على أنواع باستثناء دعوات القوات المسلحة وأفرعها العديدة. وبلغت من كثرتها حد أنه أصبح من المستحيل حجز أى قاعة فى أى مكان لإفطار سواء فى دور القوات المسلحة: الدفاع الجوى أو المدرعات أو المركبات أو المدفعية أو المشاة أو الحرب الإليكترونية أو الإشارة أو فى الفنادق الكبرى أو فى النوادى الرياضية، بالرغم من أن رمضان ليس شهرا للزواج مثل شهور الربيع والصيف وإلا تضاعفت صعوبة إيجاد مكان خال. كما حجزت القاعات الكبرى فى فنادق الخمسة نجوم أو فى النوادى الاجتماعية فى أكثر من قاعة فى نفس اليوم. وعادة ما يتناول رجال الدين والمسئولون الإفطار مرتين. الأولى فى أوله والثانية فى آخره تتخللها صلاة المغرب لكثرة الدعوات وصعوبة الوفاء بها فى نفس الوقت. ويبلغ الزحام درجة أنه يمكن أن تختلط الدعوات. فيذهب مدعو إلى إفطار لم يُدع إليه ويترك إفطارا دُعى إليه. فالقاعات متجاورة. وقد يندس المتطفلون. فالموائد عامرة، والبذخ واضح، كما هو فى الأفراح. فلا هو من أهل العريس ولا هو من أهل العروس.

تكثر الإفطارات الدينية وموائد الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط بحضور رجال الدين من الجانبين بالملابس الرسمية، العمائم والقلنسوات والمعاطف السوداء والقفاطين الداكنة. وأجهزة الإعلام تغطى المائدة الرئيسية. فالمطلوب الإعلان عن الوحدة الوطنية على الصعيدين الوطنى والعالمى، والقبلات تنهار، والأحضان بالعشرات. ويتم تبادل الكلمات الرسمية التى هى أقرب إلى الخطابة المدرسية والوعظ الدينى عن محاسن الصيام وفضائل الشهر الكريم، واحتفال الطوائف غير الإسلامية برمضان كاحتفال المسلمين بمولد المسيح وبعيد القيامة. وتتراتب الموائد طبقا للطبقات الاجتماعية والمهنية. الأقرب إلى المنصة والمائدة الرئيسية رجال الكهنوت ثم رجال الدولة من المحافظين ومديرى الأمن. فالسلطتان الدينية والسياسية متفاهمان ومتعاونان ومنسجمان. ثم السفراء الأجانب لبيان مدى

الوحدة الوطنية فى الداخل لإبلاغها للخارج، والخارج لديه معلومات أخرى عن واقع العلاقات بين الطوائف، ثم رجال القضاء ثم أساتذة الجامعات، أهل العدل والعلم، الشهود على الوحدة الوطنية، ثم صغار الرهبان والقساوسة والمشايخ وموظفو الكنائس والأوقاف. أما سائقو السيارات ورجال الأمن فلهم قاعة خاصة وطعام خاص أقل كما وكيفا وتكلفة، مع أنهم الفقراء. ولا أحد يسمع الكلمات. يغادر البعض، ويتحادث البعض الآخر. وينتهى اللقاء كما بدأ استعدادا للعام القادم. وترد الطوائف "العزومات" لبعضها البعض كما هو الحال بين أهل العريس وأهل العروس وبين الأصدقاء.

وهناك الإفطارات السياسية للأحزاب الحكومية أو لأحزاب المعارضة كنوع من الدعاية الحزبية، وعقد الصفقات، وتبادل المشورات، وتنسيق الجهود. والانتخابات قادمة بعد عيد الفطر المبارك. حزب معارضة رئيسى عين على الشارع وعين أخرى على الحكم. يدعو على الإفطار رجالات الحزب الحاكم بغية التعاون. فالمعارضة أمام الناس، والمساومات خلف الكواليس. والمدعوون بالآلاف. فالحياة أخذ وعطاء. تأييد النظام فى مقابل شرعية الحزب. وإفطار آخر من أحزاب تحت التأسيس مخلصة وفعالة تجذب كل أطياف الشعب وقواه السياسية. يتعامل المدعوون من القلب إلى القلب. يمثلون بصدق الوحدة الوطنية فى صورة جبهة وطنية أو ائتلاف وطنى. الكلمات مملوءة بحب الوطن، والحد الأدنى من التوافق السياسى. تتخللها الأغانى والأشعار الوطنية لنصرة المقاومة فى فلسطين والعراق، ولنقد الفساد فى الحزب الحاكم. يمولها أعضاء الحزب الأغنياء من رجال الأعمال.

وهناك إفطار النقابات والاتحادات والمؤسسات الحكومية والجامعات والكليات والأقسام من أجل الوجاهة الاجتماعية. تتخللها صفقات ومساومات على المناصب القيادية. ومعظمهم من الحزب الحاكم. يتنادون بالباشا والبيك، الألقاب التى ألغتها الثورة. ويتعاطون الألقاب، يا ريس، يا زعيم، سيادتك، كالعشيرة أو القبيلة المهنية أو الحرفية. لا

تلقى الكلمات. فالسادة رجال أعمال لا أقوال، وأصحاب مناصب لا وعود. ورجال سلطة تحكم ولا تتكلم. فالكلام للمعارضة بحرية تامة، والفعل للنظام بسرية تامة.

وهناك إفطار الجامعات، علماء مصر وصفوتها. ربع المدعوين من الأساتذة الجامعيين، والباقى من الحزب الحاكم والمحافظين ورجال الأمن والإداريين. فلم تعد الجامعة مستقلة فى شئونها. وأساتذة الجامعات هم قادة المستقبل. عينهم على الحكم أكثر من الجامعة. فقدت الجامعة استقلالها. ولم تعد الجامعة للجامعيين. الجامعة للدولة وليست الدولة للجامعة. يمثل قادتها الدولة داخل الجامعة ولا يمثلون الجامعة لدى الدولة. لذلك نشأت حركة ٩ مارس لاستقلال الجامعات، والعودة إلى جامعة أحمد لطفى السيد وليس لرئيس الجامعة الذى ينتظر رفعه إلى مصاف الوزير أو إلى رئيس الوزراء.

وهناك إفطار دور النشر والعاملين بحقل الثقافة. وفيها يظهر الكتّاب والأدباء والمفكرون والفنانون وأصحاب الأقلام. يعقبه ندوة ثقافية يتصدرها كبيرهم من الصحفيين أو رجال الفكر والقضاء فى خطاب يعد أن يكون قصيرا ثم يطول. فالمفكر داعية. ويلتف حوله نفر قليل من المدعوين فى حلقتين. وباقى المدعوين يتسامرون ويتمازحون. ولا تستطيع ذلك إلا دور النشر الكبرى التى على علاقة مع الدولة فى توريد الأوراق والأحبار أو التى تقوم بدور فى الأندية الرياضية أو لديها تطلعات سياسية أو دينية.

وهناك إفطار موائد الرحمن طبقا للأحياء ولأصحاب الدعوة الذين يرجون الجنة فى الآخرة بعد أن عاشوا فى جنة الدنيا، جنة الشهرة والمال من الفنانين والفنانات ورجال الأعمال. وتتفاوت الأحياء من أعلاها إلى أدناها، من الزمالك وجاردن سيتى حتى بولاق الدكرور والأباجية وقلعة الكبش وباب الشعرية والعطوف والجمالية حيث تشتد الحمية الدينية ويقرب الجوار إلى أولياء الله الصالحين. ويذوق فقراء مصر على مدى شهر طعم اللحم، ويقدم الطعام على موائد كبيرة ومقاعد مشتركة طويلة أو على حصائر على الأرض

وطبالى مستديرة أو مستطيلة. والله هو المُطْعِم (**الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**).

تكلف إفطارات رمضان الخاصة والعامة خزينة الدولة الملايين لاستيراد كماليات رمضان، شهر الزهد والصيام والإحساس بالفقراء من الأغنياء فيحس الفقراء بشبع الأغنياء. وبعد انفضاض المولد، ورفع الموائد، يعود الواقع كما هو. فلم يتغير شىء فيه. وتقع حوادث الإسكندرية بين المسلمين والأقباط والخسائر بين موتى وجرحى لعرض مسرحية فى كنيسة ظن المسلمون أنها تسئ إليهم. وتبدأ المظاهرات السياسية فى الشوارع ضد الحزب الحاكم ومن أجل الإفراج عن آلاف المعتقلين السياسيين من الأمهات ولو بفوانيس رمضان أمام ضريح الست أم هاشم.

٩- الدين والأفراح

بعد أن توقف القصف على لبنان وإطلاق الصواريخ على شمال الكيان الصهيونى والتقاط الأنفاس على ما يحدث فى لبنان على الساحة الداخلية، وتحول اهتمام العالم إلى إيران والسودان وسوريا وأفغانستان، نظرة إلى الداخل، إلى الحياة الاجتماعية تساعد على تحليل الأوضاع الداخلية التى هى ركيزة الأوضاع الخارجية. فالتحليل السياسى هو أساسا تحليل اجتماعى للسياسة. والتحليل الاجتماعى هو تحليل سياسى للمجتمع، لا فرق بين السياسة والاجتماع، بين الدولة والمجتمع.

وقد بان أخيرا مدى انتشار الدين فى الحياة اليومية، ليس فقط فى التمسك بالشعائر والعبادات المفروضة فى الشريعة بل أيضا فى مظاهر الحياة الاجتماعية والسلوك اليومى والآداب وعادات الطعام والشراب، والدخول والخروج من المنازل، والبيع والشراء. ومنها عادات الأفراح وأعياد الميلاد والمآتم والتعازى والمواسم والأعياد. ورمضان على الأبواب حيث تكثر هذه المظاهر، إنارة المآذن، وأغانى رمضان، وفوازير رمضان، وحلوى رمضان، وتسالى رمضان، وأمسيات رمضان.

فمن عادات الأفراح وبداية الزفة وضرب الدفوف إنشاد أسماء الله الحسنى واحدا تلو الآخر فى لحن مؤثر، يرتفع وينخفض، يجمع ويفرّق. ومع اللحن يتمايل المنشدون والمدعوون، بين الذكر والرقص، والدين واللهو، والإيمان والفرح. وأمام العروسين طفلان بالحلة الرسمية السوداء ووراءه الرداء الأبيض للعروس والأسود للعريس، يحمل كل منهما شمعة بيد

(*) الاتحاد: ١٦ سبتمبر ٢٠٠٦.

والمصحف باليد الأخرى مفتوحا على إحدى صفحتيه بالمصادفة، والورود تتساقط فوق الرؤوس وعلى المصحف. وقد تتساقط نقاط الشمع السايح عليه أيضا. ولا أحد قرأه أو تدبر ما فيه. بل الكل ينظر إلى ما هو آت بعد انتهاء أسماء الله الحسنى: الزفة، والراقصة، والغناء الذى يهنى بليلة الزفاف. وتتلوه الطنبورة ودوران المجذوب أو الولى بردائه المزركش مرة فوق الرأس، ومرة أخرى على الوسط، ومرة ثالثة على الأرض كما تفعل الراقصة، لا فرق بين رقص دينى ورقص دنيوى، بين هز الرأس وهز الوسط. يتلوه الرقص الشعبى، التقاتل بالعصى كالفتوات أو التحطيب. ثم يرقص الرجال كما ترقص الجمال، وترقص النساء كما تهتز الخراف، والمدعوون عرايا. قد يشارك الشباب والشابات منهم ومنهن، تحية للعروسين. والمصحف مفتوح. فالحياة تحتاج إلى شرعية. والدنيا تستند إلى الدين.

وهو نوع من الاطمئنان النفسى أن كل شىء يتم فى هذا العالم حتى فى أكثر الأمور خصوصية العلاقة بين الرجل والمرأة أى الجنس فى حاجة إلى سند شرعى من الدين: المأذون، والفاتحة، والدعوات، وأبو حنيفة، وذكر آية الزواج (**سبحان الذى خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**). تتلوها أغنية على شريط تسجيل "أنا عاوز اتجوز يا جدعان" أو على .D.G بصوته الصاخب. فيهب المدعوون جميعا وكأنهم قد سمعوا الآذان للصلاة. هنا يتم فتح المغلق وكشف المحجوب، الدين والجنس بعيدا عن السياسة، الله السلطان أو السلطان الله. وإذا كان الدين يظهر فى حفلات العرس للكبار فإنه يظهر أيضا فى أعياد الميلاد للأطفال الصغار. تبدأ أيضا بإنشاد أسماء الله الحسنى، ونفس إنشاد الكبار، والطفل يتمتم بشفتيه: الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار إلى آخر أسماء الله الحسنى التسع وتسعين. ولا يفهم منها شيئا. ولا يذكر إلا اللحن الذى تعود عليه فى المناسبات المشابهة أو فى حفلات المدارس الدينية الخاصة. والأطفال فرحون بالألوان والأعلام والتيجان والطراطير والنجوم والملابس الجديدة وبالتجمع

وبالألعـاب والأراجـوز ودبـدوب ونبنـوب، وبـاللف والـدوران مـع الأسـود والنمـور والحمـائم والطيور، وبالحوار معهم والأنس بهم.

ثم يأتى دور الثقافة. ويسأل القيم الشاب على الحفل وتوجيه الأطفال أسئلة لاختبار ثقافتهم وتطويرها، وأخذ مناسبة عيد الميلاد لإعطاء درس خصوصى فى الثقافة العامة. ما هى آخر زوجة للرسول؟ ويصيح طفل ويسبقه مدعو بالغ: ميمونة. كم حجة حجها الرسول؟ ويصيح طفل: واحدة بعد أن تكون سبقته فى الإجابة امرأة سعيدة بكمال ثقافتها الدينية. ما هو الصحابى المذكور ثلاثين مرة وله الجنة؟ وهنا صعبت الإجابة، واحتار الصغار والكبار، والكل تشوق للمعرفة وصحت: حسن نصر الله، ولكن عاد أحد المدعوين إلى الوراء وأجاب: زيد. ما هو أفضل عمل يقوم به الإنسان فى يومه؟ وأجاب طفل: الصلاة. وماذا بعد الصلاة؟ فأجاب طفل آخر المذاكرة. واستحسن الجميع الإجابتين. الجمع بين الدين والدنيا، بين المسجد والمدرسة، بين الجامع والحضانة. ما هو الشىء الأكثر كرها؟ وأجاب الجميع فى صوت واحد: الشيطان. ولم يقل أحد ومن هو الشيطان؟ هل هى مجموع أهواء النفس أم هو الشيطان الأكبر، الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى مجموعة أخرى من الأسئلة عن المستقبل سأل القيّم الرشيد الموّجه للحفل طفلا طفلا: ماذا تريد أن تصبح فى المستقبل؟ فقال الطفل المحتفى به: طبيب أسنان. لماذا؟ لأننى أريد أن أعالج أسنانى من السوس. فالإنسان يريد مصلحته ونجاته، هناءه وسعادته. وأجاب طفل آخر: مهندسا. لماذا؟ كى يبنى بيتا كبيرا بدلا من غرفته الصغيرة. فالضيق فى الحاضر له اتساع فى المستقبل. وأجاب طفل ثالث: طيارا. لماذا؟ لأنى أريد أن أضرب العدو! ومن العدو؟ إسرائيل! لماذا؟ لتحرير المسجد الأقصى. هنا يبرز الوعى السياسى من خلال الوعى الدينى، وينكشف الاغتراب الدينى بالواقع السياسى. الدين ستار، والسياسة مستور. الدين رمز، والسياسة واقع مكشوف. الدين لغة الحياة اليومية، والسياسة مضمونها، ما وراء

اللغة والرمز.

تدل ثقافة الطفل إذن على شيئين. الأولى ثقافة شعبية شائعة وهى الثقافة الدينية المتوارثة والتى يلجأ إليها المجتمع حفاظا على نفسه من الضياع ومن الذوبان فى هذا العالم المترامى الأطراف وكما يبدو من القنوات الفضائية. تفرزها الأسرة والمدرسة والمجتمع والدولة والإعلام. والثانية ثقافة حديثة واعية تكشف عن وعى الطفل بالعالم وبما يحيط به وبمدى قدرته على السيطرة على العلم والتقنية لمواجهة تحديات العصر وفى مقدمتها الاحتلال.

الثقافة الأولى طاغية. لها جذورها فى الوعى الثقافى. وهى ثقافة نمطية واحدة مقدسة لا شك فيها ولا نظر. هى ثقافة جاهزة للرد على كل شىء حتى دون معرفة السؤال. والثقافة الثانية ثقافة العقل والفكر والعلم والمواجهة. هى الثقافة الحديثة، رد فعل على الثقافة القديمة. وقد تتصادم الثقافتان فى لحظات الشقاق الوطنى أو الحراك الاجتماعى فى لحظة ضعف الدولة الوطنية. وقد يشتد التصادم إلى حد شق الصف الوطنى بين سلفيين وعلمانيين، الأول يكفّر الثانى، والثانى يخوّن الأول. كل فريق يعتبر نفسه على صواب، والثانى على خطأ. فغاب الحوار الوطنى، ونشأت الحروب الأهلية. والغرب يغذى الفرقة والتشاحن فى العراق ولبنان ودارفور.

تنقص هذه المناسبات والاحتفالات الثقافة الوطنية الجامعة للأطفال، قيم الوطن والأخوة والعدل والتنمية وزراعة الصحراء وتنظيف الشوارع وإعادة بناء النجوع، والأخذ بيد الفقراء، وعيادة المرضى، والدفاع عن المظلومين. هى الثقافة الإنسانية العامة التى تجمع بين القديم والجديد، بين الأديان والطوائف، بين المذاهب السياسية والفرق الدينية.

يظل الموروث الثقافى هو الملجأ الأول للسلوك فى الحياة اليومية. ونظرا لأن المجتمعات العربية مجتمعات تراثية، فإن الموروث الثقافى لديها هو أساسا موروث دينى.

يلجأ الناس إليه ساعات الفرح والحزن، ويعتمدون عليه أوقات الهزيمة والنصر. ففى هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ أنشد المصريون:

"إلهـــى ليـــس لى إلاك ذخـرا ∴ فكن عونى على هذا الزمـــان.

إلهـــى ليـــس لى إلاك عونـــا ∴ فكن عونى إذا رام زمـــــــانى".

وفى نصر أكتوبر ١٩٧٣ غنى المصريون:

"الله أكبر فـــوق كيـــد المعتدى ∴ والله للمظلــــوم خير مؤيـــدى

أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى ∴ بلدى ونور الحق يسطع فى يدى

قولوا معى قولوا معى الله أكبر الله أكبر".

فمتـى ينتبـه العـرب إلى أهميـة إعـادة بنـاء الثقافـة الوطنيـة بحيـث تكـون حـاملا للأهداف الوطنيـة؟ متـى يعى العـرب أهميـة إعـادة بنـاء المـوروث الثقـافى بحيـث يـصب فـى تحـديات العـصر، وبالتـالى يـأمن العـرب غـائلـة الفرقـة وشـق الـصف الـوطنى باسـم الثقافـة القديمة أو الجديدة، والوطن هو الخاسر؟

الفصل السابـع

الثـــورة قادمـــة

١- نداء إلى الشعب.

٢- نداء إلى الشرطة.

٣- نداء إلى المعارضة.

٤- وحدة قوى المعارضة.

٥- العصيان المدنى.

٦- الشعوب والجيوش.

٧- الطوفان قادم.

١- نداء إلى الشعب

قد تكون مصر فى لحظة فارقة من تاريخها بعد أن اشتد لف الحبل حول عنق سوريا، الأمن القومى لمصر فى الشمال، ومخاطر التقسيم العرقى فى السودان بين الشمال والجنوب والغرب، الأمن القومى لمصر فى الجنوب، وبعد تفاقم العنف فى شبه الجزيرة العربية واشتداد المعارضة المسلحة من أسفل من قوة الضغط السياسى والأمنى من أعلى. وقد تكون حوادث الإسكندرية الأخيرة بداية النهاية فى النظام السياسى فى مصر، الفتنة الطائفية من أجل التقسيم، وتصاعد النداء بالدولة القبطية فى مصر من أقباط المهجر وصداهم المكتوم فى الداخل، بعد الدويلات الشيعية والسنية والكردية فى العراق، والمارونية والإسلامية فى لبنان، والعلوية والسنية فى سوريا، والعربية والبربرية فى المغرب العربى، والعربية والزنجية فى السودان، والنجدية والحجازية والحضرموتية فى شبه الجزيرة العربية، والسنية والشيعية فى الخليج، والزيدية والشافعية فى اليمن حتى تصبح إسرائيل هى أكبر دولة عرقية طائفية فى المنطقة وسط فسيفساء من هذا النوع، تأخذ شرعية جديدة أبدية من طبيعة الجغرافيا السياسية للمنطقة بدلا من أساطير التكوين الأولى التى أعطاها لها هرتزل فى "الدولة اليهودية" فى أواخر القرن التاسع عشر، أساطير أرض المعاد، وشعب الله المختار.

ومن هنا تأتى أهمية الانتخابات التشريعية القادمة من أجل معركة الحسم. هل تستمر مصر فى سياساتها السابقة على مدى ثلاثة عقود من الزمان فى الجمهوريتين الثانية والثالثة بعد التحول مائة وثمانين درجة فى سياساتها من مناهضة الاستعمار

(*) الاتحاد: ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٥، الزمان: ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٥، الدستور: ٥ ديسمبر ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٥.

والصهيونية إلى التحالف والاعتراف بهما، ومن الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن الإنتاج إلى الاستهلاك، ومن التصنيع إلى الاستيراد، ومن التخطيط إلى الخصخصة، ومن الاستقلال الوطنى إلى التبعية السياسية، ومن النزاهة إلى الفساد، ومن الحضور على الساحة الإقليمية والدولية إلى الغياب، ومن الجمهورية إلى الملكية، ومن تحالف قوى الشعب العامل إلى الإقطاع الممثل فى رجال الأعمال؟ أم هل تعود مصر إلى مسارها التاريخى، قائدة التحرر فى الوطن العربى، وبؤرة وحدته وتنميته، متحالفة مع القوى الوطنية فى العالم الثالث، باندونج وعدم الانحياز والقارات الثلاث، ورائدة التجارب التنموية فى الدول النامية؟ يمثل الحزب الحاكم انحراف مصر عن مسارها الطبيعى. وتمثل قوى المعارضة الموحدة عودة مصر إلى مسارها التاريخى.

كانت الانتخابات الرئاسية السابقة معروفة نتائجها سلفا مع بعض الحياء من ٩٩,٩٪ إلى ٨٦٪ بالرغم من تعديل الدستور للانتخاب من بين أكثر من مرشح. فجاء الانتخاب فى صورة استفتاء للزعيم الأوحد، وللرئيس الأبدى على مدى أكثر من ربع قرن، مع توريث الحكم فى أبنائه من بعده وهو ما لم يفعله حتى الأنبياء (**قال إنى جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتى. قال لا ينال عهدى الظالمين**). فانحسر عنها الناس. وغاب المشاركون. ولم يتعد المنتخبون أكثر من ٢٣٪ من شعب مصر. وسمع شعب مصر نداء المعارضة بالمقاطعة. وأصبح الرئيس الآن رئيس الأقلية، وليس رئيس الأغلبية.

أما الانتخابات التشريعية القادمة فهى مختلفة. إذ تمثل معركة فاصلة بين المعارضة الموحدة التى تعبر عن تطلعات شعب مصر فى مواجهة الحزب الحاكم الذى نهب مصر وأضاع كرامتها. لا شىء حُسم فيها من قبل. عيون منظمات المجتمع المدنى وبعض المراقبين الدوليين عليها. والتحذير من التزوير، وتدخل أجهزة الدولة، والتلاعب بكشوف الانتخابات قد بدأ. والحزب الحاكم تتصارع أجنحته بين رعيل قديم بقيادة الأب، ورعيل جديد بقيادة

الابن، بين الذين نهبوا مصر حتى التخمة والذين يستعدون لنهب مصر، فقد جاء دورهم.

ومجلس نيابى قوى بالمعارضة خير من مجلس يستولى فيه الحزب الحاكم على كل مقاعده باستثناء ديكور بسيط من أحزاب المعارضة المحظورة كالإخوان أو الشرعية كالتجمع والوفد والعربى الناصرى. وربع المقاعد للمعارضة حوالى مائة، يقدمون البديل، خير من معارضة هامشية لا تؤثر فى تغيير سياسات الحزب الحاكم.

لقد تعود المصريون على السلبية السياسية وعدم المشاركة فى الانتخابات على مدى نصف قرن. كان الزعيم فى الجمهورية الأولى يعبر عن طموحات الشعب ويحقق أمانيه. ووثقت الجماهير به، بالزعامة المباشرة التى تجُب المؤسسات، كما يحدث دائما للقادة العظام فى التاريخ مثل محمد على. وفى الجمهورية الثانية عندما أصبحت حرب أكتوبر آخر الحروب، والسلام اختيارا استراتيجيا، والرأسمالية ليست جريمة، وعربة وفيللا لكل مواطن، والكترون لكل جندى، تم تخدير الشعب على أمل الخروج من عنق الزجاجة. واستمر نهب مصر فى الجمهورية الثالثة كسياسة رسمية من بيع للقطاع العام حتى الشركات الرابحة، وتهريب رؤوس الأموال إلى الخارج، والفساد والعمولات، والتلاعب بالأسواق، والاحتكار، رأسمالية بلا قيم رأسمالية. فعزف الشعب عن المشاركة السياسية بالرغم من وجود أحزاب للمعارضة ابتداء من المنابر حتى الأحزاب الورقية.

ثم استيقظ الشارع المصرى وبدأت حركة الجماهير استئنافا للهبات الشعبية المتكررة ابتداء من أزمة مارس ١٩٥٤، ومظاهرات الطلاب ضد أحكام الطيران فى ١٩٦٨، واعتصام ميدان التحرير مطالبين بساعة الحسم فى ١٩٧١، ثم الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، ومظاهرات الأمن المركزى فى ١٩٨٦، والمظاهرات الضخمة ضد العدوان الأمريكى الأول على العراق فى ١٩٩١، والثانى عام ١٩٩٨، وتأييد الانتفاضة الفلسطينية الأولى فى ١٩٨٧، والثانية فى عام ٢٠٠٠. ونشأت حركات تلقائية وصلت إلى أربعة عشر حركة وفى مقدمتها

"الحركة الوطنية من أجل التغيير" و"كفاية". ونشطت منظمات المجتمع المدنى، ووسعت نشاطها خارج منظور حقوق الإنسان والمرأة الضيق إلى الفضاء الاجتماعى والسياسى.

وثقت جماهير شعب مصر بالزعيم فى الجمهورية الأولى، وتخلصت من المقامر فى الجمهورية الثانية، والآن تنتفض ضد الإدارى فى الجمهورية الثالثة. قاد الربان الأول السفينة إلى بر الأمان وثقبها المقامر الثانى. والآن تغرق. والآن تعود مصر إلى سابق عهدها قبل الثورة، الحركة الوطنية فى الأربعينيات، ولجنة الطلبة والعمال فى ١٩٤٦ والتى تشبه وحدة قوى المعارضة الآن.

الرهان اليوم على حركة الشارع المصرى والقوى الوطنية فيه، أحزاب المعارضة، التجمع والناصرى والوفد، والأحزاب تحت التأسيس "الوسط" و"الكرامة"، والقوى السياسية "المحظورة"، الإخوان، فى مواجهة تراجع الحزب الحاكم وانقساماته وصراعاته الداخلية على قسمة الغنائم "ما شافوهمش وهمه بيسرقوا، شافوهم وهمه بيتحاسبوا". لذلك هرب البعض، واعتبر نفسه مستقلا حتى لا يلوَّث بمساوئ الحزب الحاكم ومفاسده. وقد يعودون إليه لتقويته ولأخذ نصيبهم من الغنائم. فالمستقل الذى ينجح بفضل استقلاله يخون الأمانة التى أولاها ناخبوه إذا ما عاد إلى الحزب الحاكم. ويقبلهم الحزب الحاكم لتوسيع حضوره فى المجلس النيابى ضد أحزاب المعارضة.

المشاركة الشعبية فى الانتخابات النيابية القادمة ضرورة وطنية. ويستطيع المواطن أن يمارس مواطنته ويدافع عن وطنه بالمقاطعة مرة كما حدث فى الانتخابات الرئاسية الماضية، وبالمشاركة مرة أخرى كما هو الحال فى الانتخابات القادمة. وقد يضع الحزب الحاكم العقبات مثل التلاعب بالكشوف، وتكرار أسماء الأحياء، وإضافة أسماء الأموات، وتعذيب المواطن للتعرف على دائرته الانتخابية. فالكشوف لم تُعلن بعد فى الأقسام. وقد يستعمل نواب الحزب الحاكم كل أساليب الإرهاب التى قد تصل إلى حد التصفية الجسدية

لمرشحى المعارضة أو لوضع العقبات الإدارية أمامهم، وإعاقة دعاياتهم الانتخابية. فنواب الحزب الحاكم يدافعون عن الثروة والسلطة فى آن واحد. ولن يتركوا الشعب لاختيار حر لمرشحيه.

إن المشاركة الفعالة فى الانتخابات التشريعية القائمة هو الطريق إلى حصار الحزب الحاكم، وإقناع النظام السياسى أن الطغيان له حدود، وأن تزوير إرادة الشعب لم يعد ممكنا، وأن الشعب قد أخذ مصيره بيده بعد أن تساهل فى حقه على مدى ثلاثة عقود من الزمان. وهذا ما يتطلب جهدا زائدا من الشعب للمشاركة فى الانتخابات، وتجاوز ما تعود عليه من السلبية والمقاطعة. كانت إدارة الظهر للحاكم أحد عوامل المقاومة. والآن مواجهة الحاكم وجها لوجه هو السبيل للخلاص منه.

إن حركة التاريخ قد أسرعت خطاها مع قوى المعارضة الوطنية ضد الحزب الحاكم. ولم يبق للنظام السياسى إلا أن يدرك مسارها. فإما أن يتحالف مع الشعب، ويحرص على مصر التاريخية وثوابتها فى الاستقلال الوطنى ودور مصر الإقليمى والدولى، وإما أن يرحل كما رحل حكام مصر السابقين، سعيد وتوفيق. ومازال رمسيس وأحمس وصلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر فى الذهن والذاكرة، يحركون الخيال والوعى والضمير.

٢- نداء إلى الشرطة

بعد عدة أيام، تعقد الانتخابات التشريعية ربما لأول مرة فى جو صحى أو تنافس حقيقى بين المعارضين والحزب الحاكم. وهناك حماس شعبى للمشاركة من أجل التخفيف من سيطرة الحزب الحاكم على المجلس النيابى، وإيجاد صوت آخر حتى تتحقق شروط الديمقراطية من وجود معارضة قوية قادرة على التنافس مع الحزب الحاكم من أجل تداول حقيقى للسلطة وليس حكم حزب واحد، ووريث واحد على مدى ربع قرن أو يزيد. ولا يتغير إلا بالوفاة أو بالاغتيال أو بالانقلاب.

والشرطة هنا مجرد رمز لسلطة الدولة التى تضم قوات الأمن المركزى ووزارة الداخلية بكل أجهزتها الأمنية العلنية والسرية، ووسائل الإعلام التى تقوم بدور الشرطة فى الرقابة والتحيز وإبراز إنجازات الحزب الحاكم، وتصدر الرئيس نشرات الأخبار والبرامج الخاصة عن إنجازات ربع قرن مضى، والجهاز الإدارى وعلى رأسه موظفو الدولة ورؤساء الإتحادات والنقابات والهيئات العامة والمحليات، ورؤساء المجالس البلدية والمحافظين ومديرى الأمن والمشايخ والعمد ورجال الحزب الحاكم والنوادى الرياضية. فالدولة هى المجتمع، والمجتمع هو الدولة مهما حاولت منظمات المجتمع المدنى المستقلة الفكاك من هذه المصيدة والخروج من تلك الدائرة المفرغة.

فالشرطة ملك للشعب وليس للنظم. هى الدائمة والنظام هو العابر. هى جزء من

(*) الاتحاد: ١٩ نوفمبر ٢٠٠٥، الزمان: ١٨ نوفمبر ٢٠٠٥، الدستور: ٢١ نوفمبر ٢٠٠٥.

الشعب العامل الكادح وليس من الحزب الحاكم الذى استولى على السلطة والثروة ونهب مصر كما فعل الباشوات والإقطاعيون قبل الثورة. مهمتها الدفاع عن أمن الشعب التاريخى وليس أمن النظام السياسى، والدفاع عن مصالح الشعب وليس العمل ضدها، وحماية المواطن وليس تهديده، والعمل مع قوى الإصلاح والتقدم فى البلاد وليس مع قوى الفساد والانحلال.

"الشرطة فى خدمة الشعب" كان شعار مصر فى الجمهورية الأولى بل وحتى فى الجمهورية الثانية. له دلالته الواضحة. ثم تغير بعد ذلك فى الجمهورية الثالثة إلى "الشرطة والشعب فى خدمة القانون". وهو شعار يضع الشرطة والشعب فى طرف واحد ومصلحة واحدة. أما القانون فقانون من؟ هو القانون الذى تضعه الدولة، وتصيغه السلطة، وينفذه الحزب الحاكم لصالحه. فما أعطى باليمين "الشرطة والشعب" أخذ باليسار "فى خدمة القانون". خطوة إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف.

ليس من الصعب تصور حياد الشرطة فى المعارك الانتخابية بين مرشحى الحكومة ومرشحى المعارضة، مثل حياد أجهزة الإعلام واستقلال الجامعات والقضاء. وزير الداخلية مسئول أمام البرلمان مثل مسئولية وزير الدفاع. ورئيس الجامعة يمثل الجامعة لدى السلطة وليس السلطة أمام الجامعة. والقاضى هو ميزان العدل بين الحاكم والمحكوم دون استبعاد القضاة المستقلين عن الحكومة والإبقاء على من يظن من المتعاونين معها فى الإشراف على الانتخابات. فإذا كان القضاء جزء من وزارة العدل فإن نوادى القضاء جزء من منظمات المجتمع المدنى. وإذا كان الضباط جزء من وزارة الدفاع فإن نوادى الضباط جزء من تنظيمات المجتمع المدنى. وقد اندلعت ثورة يوليو ١٩٥٢ من تدخل وزارة الدفاع فى انتخابات نادى ضباط الجيش.

الواجب الوطنى للشرطة هو عدم التدخل فى الانتخابات التشريعية القادمة. فوجود

مجلس نيابى يعبر عن حقيقة القوى الوطنية الفاعلة فى الشارع السياسى أكثر أمنا من مجلس نيابى مزور تطعن فيه القوى الشعبية، ويحكم القضاء بحله كليا أو جزئيا، أو بإعادة الانتخاب كلية أو فى بعض الدوائر التى جرى فيها التزوير. هو تطبيق القانون الانتخابى بمنع التزوير وليس بالمساعدة عليه أو القيام به. وهو أيضا عدم ممارسة العنف مع مرشحى المعارضة أو ناخبيهم. مهمة الشرطة منع العنف واستتباب الأمن وتطبيق القانون، وعدم القبض على المرشحين أو الناخبين وتلفيق التهم لهم وتفويت فرصة المشاركة عليهم فى العملية السياسية. مهمتها عدم وضع العوائق أمام الناخبين ونقلهم من دائرة إلى أخرى، والتلاعب بكشوف الانتخابات والبطاقات الانتخابية.

الواجب الوطنى والمهنى للشرطة هو الانتصار للحق والعدل والقانون والدفاع عن المظلوم من الظالم، وليس مساندة الظالم ضد المظلوم. واجبها عدم أخذ صف طرف ضد طرف، وعدم الانحياز للحكومة ضد المعارضة وهو الشائع أو للمعارضة ضد الحكومة وهو النادر. بالرغم من أن التصور الشائع هو أن الشرطة جزء من الحكومة، تأتمر بأوامرها. ومع ذلك ضمير الشرطى فوق مهنته، ووطنيته لها الأولوية على الأوامر الصادرة إليه. يحكم الشرطى ضميره أولا قبل تنفيذ الأمر حتى وإن نفذ الجندى الأمر الموجه إليه فى ساحة القتال. وكثيرا ما خالفت الشرطة أوامر الاعتقال وقامت بتهريب الوطنيين والمناضلين فى العصر الملكى وأيام الاحتلال.

هناك قسم فى الداخلية لتدريب ضباط الشرطة على التيارات السياسية المحركة للمجتمع المصرى لتنويرهم وتعليمهم أن المطلوب القبض عليهم هم مواطنون شرفاء يعملون لصالح الوطن وليسوا مجرمين أشقياء خارجين على القانون. وفى الشارع السياسى قوى سياسية أربع تحركه. الإسلاميون ورمزهم الإخوان المسلمون، الجماعة التى مازال يطلق عليها "المحظورة" كما كنا نطلق على إسرائيل وهى تحتل أراضى ثلاث دول عربية "إسرائيل

المزعومة"، والليبراليون الذين كانوا يحكمون مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، والناصريون الذين حكموا مصر بعد الثورة فى الجمهورية الأولى، والماركسيون الذين كانوا على مدى قرن من الزمان حزبا محظورا قائما على العمل السرى أو العلنى. وقد يضاف إليهم مجموعة من الأفراد المستقلين الذين تنجبهم مصر متجاوزين الأحزاب الرسمية أو المحظورة والذين يعملون أحيانا مع تنظيمات المجتمع المدنى والحركات الوطنية الأخيرة مثل "كفاية" و"الحركة المصرية من أجل التغيير" و"حركة الأدباء والفنانين من أجل التغيير" بالإضافة إلى حركة مهندسون ضد الحراسة، وحركة استقلال القضاة، والتى بلغت حوالى خمسة عشر تنظيما. وهذه القوى الوطنية هى التى تحرك مظاهرات الطلاب فى الجامعات وتشارك فى اعتصامات العمال واضراباتهم. فهم ليسوا أعداء للوطن تقبض عليهم الشرطة وقوات الأمن للإهانة والتعذيب والاختطاف والاعتقال بلا تهمة أو محاكمة بالسنوات. هؤلاء هم حكام الغد ومصر المستقبل. لهم كل الاحترام والتعظيم. ليسوا مجرمين ولا تجار مخدرات ولا مهربين ولا فاسدين ولا مضاربين ولا أصحاب عمولات ورشاوى ورجال أعمال ملفاتهم أمام الرقابة الإدارية تنتظر موافقة السلطة السياسية للتقدم للقضاء فى حالة الغضب عليهم أو الحفظ فى حالة التستر والرضا عنهم.

يبدو أن الشرطة وأجهزة وزارة الداخلية لم تتغير منذ أيام الملك. كل معارض فهو عدو للوطن. لذلك تسمى الشرطة فى بعض البلدان "الدرك الملكى". وبالرغم من قيام الثورة منذ أكثر من نصف قرن إلا أن الشرطة لم تتغير. توظيفها فى الحفاظ على أمن النظام وليس أمن البلاد. يوكل إليها الوقوف أمام المظاهرات والهبات الشعبية وغضب الشارع وحركات الاحتجاجات وفض الإعتصامات وتكميم الأفواه. وفى كل وزارة أو مصلحة أو هيئة هناك مكاتب للأمن. والأمن الداخلى الذى تحافظ عليه الشرطة له الأولوية على الأمن الخارجى الذى يحافظ عليه الجيش.

إن من واجبات الحياة السياسية وحسن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تغيير صورة الشرطة فى أذهان الناس وفى الثقافة الشعبية وفى الأعمال الفنية، بدلا من تعذيب المواطنين والقبض على الأبرياء، وزوار الفجر وتعذيب المعتقلين السياسيين وتلفيق الأدلة والاتهامات الباطلة. وطالما أُخرجت الأفلام عن فساد الشرطة وتعاونها مع المجرمين ورجال الأعمال الفاسدين.

الشرطة، جنودا وضباطا، بالرغم مما يحدث فى الأقسام من مآسى وأحزان، هم فى النهاية الأبناء والآباء. هم مواطنون مصريون يتألمون ويعانون مثلهم من الفساد فى الداخل والتبعية للخارج. وفى الأدب الشعبى والتاريخ الوطنى مظاهر كريمة للشرطة. لعبة "عسكر وحرامية" لدى الأطفال. والانضمام إلى كلية الشرطة أمل لحاملى الثانوية العامة والبحث عن الوسائط للقبول، دفاع قسم شرطة السويس عن العدوان البريطانى عليها بعد محاصرته قبل الثورة ورفض الاستسلام حتى الموت حتى أصبح ذلك اليوم عيد الشرطة. وكما تكوَن داخل الجيش تنظيم الضباط الأحرار فى الأربعينات فهناك أيضا ضباط الشرطة الأحرار الذين رفضوا التعاون مع القصر والاستعمار، وقاموا بحماية الحركة الوطنية المصرية. ولا فرق بين أمن البلاد فى الخارج وتلك مهمة الجيش، وأمنه فى الداخل، وتلك مهمة الشرطة. المهم أمن من؟ النظام أم الشعب؟ الحزب الحاكم أم الوطن؟ الحاضر أم المستقبل؟

٣- نداء إلى المعارضة

فى الوقت الذى يتحرك فيه الشارع المصرى، وينزل فيه المصريون بكافة طوائفهم طلاب، ومثقفين، وعمال، وفلاحين، وموظفين، تظل قياداته الحزبية أقل إدراكا لأهمية هذا التحرك، وكأن المد التاريخى محاصر بالجزر الإنسانى، مع أن مهمة الإرادة الإنسانية أن تتحد مع قانون التاريخ حتى تحدث تغيرا نوعيا فى مساره. ويساعد تحليل اللحظة التاريخية الراهنة على فك هذا الحصار من القوى السياسية لمد التاريخ من أجل تغليب الآجل على العاجل، وتفضيل التحليل السياسى على الأمد الطويل على الكسب السياسى على الأمد القصير.

ليس هدف المعارضة الآن الوصول إلى السلطة. فبعد ما يزيد على نصف القرن وهو عمر ثورة ٢٣ يوليو غابت المعارضة السياسية لصالح تحالف قوى الشعب العامل، وبناء مصر، وتحديثها وتنميتها، وتحقيق المبادئ الستة للثورة المصرية. وتم تبرير ذلك بالديموقراطية المباشرة التى تجُب فيها الزعامة المؤسسات السياسية. فالزعيم يجسد روح الشعب، ويحقق طموحاته وأشواقه وآماله. وكانت تجربة المنابر فى السبعينات محدودة الأثر. ولم تقو المعارضة إلا فى السنوات الأخيرة عندما بدأ الانقلاب على ثورة يوليو منذ مايو ١٩٧١، ثم التحول عن مبادئها بل وإنجازاتها من النقيض، إلى النقيض ثم العدوان على الوطن العربى فى فلسطين والعراق والعالم الإسلامى فى أفغانستان والشيشان، وتهديد سوريا ولبنان وإيران واحتجاب مصر ودورها فى محيطها العربى والإقليمى. فتحرك شعب

(*) الاتحاد: ٣ ديسمبر ٢٠٠٥، الدستور: ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٥.

مصر ليعود إلى سيرته الأولى فى تجربته الليبرالية قبل الثورة، الشعب مصدر السلطات، الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة، التعددية الحزبية، البرلمان، الدستور، مسئولية الوزارة أمام البرلمان، الصحافة الحرة، الجامعة الحرة، حرية تكوين الجمعيات الأهلية، قوة المجتمع المدنى، وفى نفس الوقت لا تنسى تجربتها الاشتراكية القومية بعد الثورة. بدأت حركة الشارع المصرى تجمع بين الحرية والعدالة، وتضم تاريخ مصر فى القرن العشرين معا وليس على التبادل.

لن تصل المعارضة إلى السلطة إلا بعد تحريك الشارع المصرى وعودة المواطن إلى ممارسة العمل السياسى، والوصول إلى ميزان تعادل بين السلطة والمعارضة فى صراع متكافئ بين ندين كما يحدث فى أمريكا بين الديموقراطيين والجمهوريين، وفى بريطانيا بين العمال والمحافظين، وفى ألمانيا بين الحزبين الكبيرين، الديموقراطى الاشتراكى والديموقراطى المسيحى، بل وفى إسرائيل بين العمال والليكود. وفى حالة مصر بعد سيطرة الحزب الحاكم على مقاليد الأمور على مدى نصف قرن مثل نجاح الرئيس عن طريق الاستفتاء الصريح بنسبة ٩٩,٩ ٪ وعن طريق الاستفتاء المقنع بنسبة ٨٦ ٪ فإنه يصعب أن تصل المعارضة إلى السلطة.

ليست مهمة المعارضة الوصول إلى القصر، ففى القصر مازال السلطان متربعا على العرش. بل مهمتها تجنيد الناس، وحشد الجماهير، وتحريك الشارع، والتعبير عن الأغلبية الصامتة من اجل الاستعدادات للجولة القادمة. فكما كانت الانتخابات الرئاسية الماضية البداية بالمقاطعة فإن الانتخابات التشريعية القادمة هى الجولة الثانية بالمشاركة من أجل الإقلال من سيطرة الحزب الحاكم على البرلمان، وبالتالى الاستمرار فى الرأى الواحد، والحزب الواحد، دون صوت بديل ورأى آخر. هدف المعارضة محاصرة الحزب الحاكم وإبعاده عن السيطرة على المجلس التشريعى حتى يتحول إلى حزب أقلية يسيطر عليه رجال

الأعمال والفساد السياسى والمالى والإقطاعيون الجدد كما كان الحال فى مصر فى حزب الباشوات والإقطاع وكبار ملاك الأراضى قبل الثورة.

هدف المعارضة هو العودة بمصر إلى مسارها الطبيعى، وتصحيح مسار التاريخ، ووضع شعب مصر فى قلب حركة التاريخ حتى يسقط النظام الحاكم كما تسقط الأوراق الذابلة فى الخريف. ليس المهم من يحكم مصر الآن، بل من الذى سيحكم مصر فى المستقبل، ويغلق هذا الاستثناء فى تاريخ مصر فى العقود الثلاثة الأخيرة من فقدان مصر لذاتها ومسارها فى التاريخ إلى عودة مصر إلى وعيها وحركتها فى التاريخ، من ضعف مصر وتأثير القوى المحلية والدولية فيها إلى قوة مصر وتأثيرها فى موازين القوى المحلية والدولية.

فهل تستطيع المعارضة أن توحد قواها فى جبهة واحدة ضد الحزب الحاكم حتى لا تتفتت أصوات المعارضة فينجح مرشحو الحزب الحاكم بكل ما لديه من التلاعب بالقوائم الانتخابية، وتدعيم جهاز الدولة، ووسائل الإعلام، والرئيس، وطبقة رجال الأعمال، وأصحاب الثروة والجاه؟ إن التمسك بالشعارات المبدئية قد لا يفيد مرحليا من الناحية السياسية. فوحدة المعارضة فى وحدة برنامجها السياسى والاتفاق على الحد الأدنى من الإجماع الوطنى. فالشعارات المبدئية إعلان أيديولوجى لا غبار عليه، ولكن التحدى هو كيفية تحويله إلى برنامج سياسى فى لحظة تاريخية محددة من تاريخ مصر. فمثلا "الإسلام هو الحل" أو "الإسلام هو البديل" صحيح من حيث المبدأ ولكنه يفرق المعارضة إذا ما تمسك أحد فرقائها بالعلمانية. هنا يتم تحويل الشعار المبدئى إلى برنامج سياسى حول مطالب مصر بإلغاء الأحكام العرفية، وقوانين الطوارئ، وتعديل الدستور، والإفراج عن المعتقلين السياسيين، والقضاء على الفساد، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والدفاع عن الاستقلال الوطنى فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان، والتعددية السياسية، وحرية الصحافة، وحق تكوين الأحزاب والصحف والجمعيات الأهلية. وقد تنازل الرسول فى صلح الحديبية عن

"بسم الله الرحمن الرحيم" بعد اعتراض المشركين ورضى باقتراحهم "باسمك اللهم" الذى يوحد الفريقين ويجمّعهم على الحد الأدنى من الاتفاق.

تتفرق المعارضة إذا انشغل كل فريق بحساباته الخاصة على حساب المصلحة الوطنية العامة. يريد الحصول على أكبر عدد ممكن من مقاعد المجلس أو يضع عينا على الانتخابات والتنسيق مع المعارضة والعين الأخرى على الحكومة والحزب الحاكم. فلعله يأخذ ميزة منه فينال الحسنيين من الشعب والحكومة. والسياسة فن الحكم. وقد يتكرر نفس الشىء عندما رفض "الإخوان" الدخول فى لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ التى كانت تمثل الإجماع الوطنى. فتوحيد المعارضة بكل فصائلها، الوفد والتجمع والناصرى والإخوان أفضل من قائمتين للمعارضة حتى ولو تم التنسيق بينهما. والإسلام المستنير جزء من قوى التجمع. وشق المعارضة بدعوى العلمانية ورفض الشعارات الدينية هو صراع على السلطة، واستبعاد لمصلحة الوطن، وتخل عن منطق الحوار، والتفكير بالاستبعاد والإقصاء، وليس بالتقارب والفهم المتبادل. فمقاصد الشريعة تقوم على الحفاظ على الضروريات الخمس: الحياة، والعقل، والقيمة، والعرض أى الكرامة، والمال أى الثروة الوطنية. الشريعة وضعية تقوم على رعاية مصالح الناس. فادعاء العلمانية والاتهام بالشعارات الدينية تقليد للتناقض الغربى، ونقص فى معرفة طبيعة الإسلام ودوافع العلمانية. فالإسلام فى جوهره دين يقوم على رعاية مصالح الناس. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

إن دور الوفد القديم ورسالة الحركة الوطنية من أجل التغيير الجديدة هو التقريب بين الإخوان والتجمع، وتجاوز حديث الفرقة الناجية، أن الصواب واحد مع فريق وليس متعددا لدى كل فريق. فالكل راد والكل مردود عليه، وتجاوز الحسابات الخاصة وتصفية الحسابات التاريخية إلى المصلحة الوطنية العامة.

لقد استطاع الوفد كسب الانتخابات الوطنية العامة فى ١٩٥١ فهل تستطيع الحركة

الوطنية المصرية أن تعود إلى سيرتها الأولى؟ هل يستطيع يسار الوفد والإسلام المستنير فى التجمع والناصرية الإسلامية والشعبية فى العربى وحزب الوسط والحركة الوطنية المستقلة أن تكون بؤرة للوحدة الوطنية وقلبا لها؟

وإن صعب نيل ذلك فعلى الأقل يكون التنسيق بين قائمة المعارضة الموحدة وقائمة الإخوان تنسيقا كاملا حتى لا تتفتت أصوات المعارضة. قد يوجد خلاف فرعى بين قوى المعارضة، ولكن التناقض الرئيسى بينها وبين الحزب الحاكم. ما يهم هو سماع صوت الشعب، وتآكل الحزب الحاكم وتفتيته، وإدخال قوى المعارضة الرئيسية فى البلاد المجالس الدستورية، وإخراج الحزب الحاكم والأحزاب الورقية منها. وإن لم تحصل المعارضة على كل ما تتمناه فالمعارك قادمة، معركة التوريث. ومن خلال المعارك تظهر قيادات وطنية جديدة قادرة على أن تبرز كبديل عن الرئيس وسلطته أو الابن وطموحاته. فمازالت المعارك ممتدة حتى الانتخابات الرئاسية القادمة. وإن غدا لناظره قريب. (ويقولون متى قل عسى أن يكون قريبا).

٤ـ وحدة قوى المعارضة

يبدو أن العيب فينا وليس فى غيرنا، لدى المعارضة والحزب الحاكم فى آن واحد. وكما قال الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا ∴ وما لزماننا عيب سوانا

فإذا كنا نشكو من تسلط الحزب الحاكم وأغلبيته المطلقة فإننا أكثر شكوى من المعارضة المنقسمة على نفسها، وتفضيل الحزب على الوطن، والدولة على الثورة، والحكم على التغير الاجتماعى، والعاجل على الآجل، والحاضر على المستقبل.

فالمعارضة فى مواجهة نظام يقوى بحكم التاريخ. فهو الذى يحكم منذ أكثر من نصف قرن حتى الآن منذ ١٩٥٢. يحكم بالاستفتاء وليس بالانتخاب. ويقدم مرشحا واحدا وليس أكثر من مرشح. ويعدل الدستور دائما لصالحه. ويفتح تجديد فترة الرياسة إلى ما لا نهاية أو يجعلها مدى الحياة. ويصدر الأحكام العرفية حفاظا على النظام ضد معارضيه الإسلاميين أو الشيوعيين بصرف النظر عن هذا النظام المنبثق من ثورة ٢٣ يوليو ومبادئها الستة فى الخمسينيات والستينيات أو المنقلب عليها منذ السبعينيات وحتى الآن. ويستسلم الناس بحكم العادة. فالممارسة السياسية عادات سياسية وليست قرارات فوقية. فقد تعود الناس على عدم المشاركة السياسية إما ثقة بالزعيم البطل أو رضاء بالزعيم المقامر أو تولية للظهر للحاكم الموظف الساكن الذى لا يتحرك حرصا على ثبات النظام وخوفا من إعادة احتلال سيناء بعد أن كلف تحريرها الصلح المنفرد مع الكيان الصهيونى، ومازالت باقى أراضى

(*) العربى الناصرى: ٣ أبريل ٢٠٠٥.

العرب فى سوريا ولبنان وفلسطين محتلة. وقد يستمر النظام الحالى حتى بعد تعديل المادة اليتيمة فى الدستور بسيطرته على جهاز الدولة، الجيش والشرطة والإعلام والثقافة وأرزاق الناس وأسواق العملة، بقوة السياسة والاقتصاد.

وفى مقابل بقاء النظام بحكم التاريخ والعادة والدولة تتفتت المعارضة. كل منها يعمل لحسابه الخاص. وشتان ما بين هدف المعارضة من التخلص من نظام التبعية للخارج والفساد والقهر فى الداخل والوسائل المتبعة لتحقيق الهدف. فمازال كل فريق من المعارضة، الإخوان والناصريون والليبراليون، كل يقدم مرشحه أو يكاد وعلى غير سابق إنذار، طمعا فى العاجل دون الآجل، وفى الشهرة الإعلامية وليس فى النجاح الفعلى، وفى جذب انتباه القوى الخارجية إليه وليس بتجميع القوى الداخلية حوله. ومن ثم يقوى الحزب الحاكم بمرشحه الوحيد. وتضعف المعارضة بمرشحيها الكثّر فتتفتت أصواتها. وينجح مرشح الحزب الحاكم لا بسبب سياساته ولكن بسبب وحدته. بالإضافة إلى تاريخه ودولته. ويرسب مرشح المعارضة لا بسبب سياساتها بل بسبب تفرقها وتشتتها، وكثرة مرشحيها، بالإضافة إلى تهميشها على مدى نصف قرن، وسباحتها ضد التيار، وعزوف الجماهير عن المشاركة السياسية باستثناء فترة الهبات الشعبية الكبرى مثل مارس ١٩٦٨ بعد عدوان ١٩٦٧، ويناير ١٩٧٦ ضد ارتفاع الأسعار، ومظاهرات ١٩٧١ ضد احتلال سيناء والتراخى فى تحريرها، والأمن المركزى فى يناير ١٩٨٦ ضد الفقر والجوع، ومظاهرات الجامعات المصرية ضد الغزو الأمريكى للعراق فى يناير ١٩٩١ بدعوى تحرير الكويت، وإعادة ضربه فى ١٩٩٨ بدعوى عدم الانصياع لقرارات الأمم المتحدة ومطالب لجان التفتيش ثم غزوه الكلى فى مارس ٢٠٠٣ بدعوى امتلاك أسلحة الدمار الشامل. وقد نكون على أهبة هبّة جديدة، والتحول من الاستكانة إلى الحركة، ومن الاستسلام إلى الرفض، ومن الهدوء إلى الانفجار. فالنظام محاصر بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج وسندان الداخل، والجماهير بدأت الحركة من

أجل تغيير الدستور. والمظاهرات بدلا من أن تضربها الشرطة بالعصى، تحاصرها بالأجساد، وربما فى المستقبل القريب تنطلق حرة وتتجاوز الحصار. وفى المستقبل الأبعد تنضم الشرطة إلى الشعب. فليست الشرطة فقط فى خدمة الشعب بل تدافع عنه وتثور معه. وليس شعب مصر ولا شعب لبنان ولا باقى الشعوب العربية بأقل من جماهير جورجيا وأوكرانيا وقرقيزيا. فالعصر عصر الشعوب، وهروب رأس النظام.

ولما كان الإخوان من قوى المعارضة الرئيسية فى البلاد، تسيطر على الجماهير المنظمة داخل أسوار الجامعات وخارجها، ولها رصيد فى النضال السياسى فإن التنظيم مازال مترددا بين تأييد النظام القائم، الأب أو الابن، ما دام سيحقق شروطهم. وهى إشارة موجهة إلى النظام القائم بإمكانية التعاون، وبالتالى تخرج كلية على وحدة قوى المعارضة. وهو خطأ فى التحليل السياسى مثل خطأ الأربعينيات عندما لم ينضموا إلى لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ والتى كانت تعبر عن مطالب القوى الوطنية فى الحرية والاستقلال حتى اتهمهم خصومهم بالانتهازية السياسية والدخول فى لعبة السراى مع أحزاب الأقلية . وأحيانا أخرى ينضمون إلى مجموع قوى المعارضة الأخرى، وينسقون معها ويوحدون مطالبها. فالوحدة قوة فى مقابل نظام تتضارب أجنحته، وتتجاذبه المصالح المتضاربة فى صراع مكتوم على السلطة والمال.

وفيم كانت الحوارات السابقة بين قوى المعارضة الإسلامية والناصرية والليبرالية التى تمثل أحزاب المعارضة الرئيسية فى البلاد؟ وأين الجهود التى بذلت من قبل على مدى أعوام سابقة استعدادا لساعة الحسم وعلى الصعيدين النظرى والعملى؟ أين الاتفاق فى الأهداف بالرغم من اختلاف المنطلقات والمرجعيات والأطر النظرية لكل فريق؟ أين السياسات البديلة عن سياسات النظام الحاكم والتى تمثل حجر الأساس لدى قوى المعارضة، وحجر العثرة أمام استمرار النظام السياسى؟ وهى القواسم المشتركة لدى قوى

المعارضة كلها: الاستقلال ضد التبعية، واستكمال حركة التحرر الوطنى فى فلسطين والعراق بل وفى دول الجوار فى أفغانستان والشيشان، وحماية الأوطان من الهجمة الاستعمارية الثانية على لبنان وسوريا والسودان، ومن دول الجوار إيران وحماية مصر من لف الحبل حول عنقها، وتهديد أمنها القومى فى الشمال والجنوب، وأخذ حق الفقراء من أموال الأغنياء بعد أن تضاعفت الفوارق بين الطبقات آلاف المرات بين من يملكون كل شىء، السلطة والثروة ومن لا يملكون شيئا ولا حتى الكرامة، والتنمية والاعتماد على الذات، والتصنيع والتصدير وليس الاستيراد، وحماية الصناعات الوطنية، والحفاظ على وحدة الأمة من مخاطر التجزئة والتفتيت، والحرية السياسية للمواطن، وحق تشكيل الأحزاب قبل الأشكال الديموقراطية. إن قوة المرشح من مدى تعبير السياسات التى يقدمها عن مصالح الناس وليس بشخصه أو بحزبه أو بما يؤيده من القوى الخارجية.

ربما لا يستطيع مرشح المعارضة أن ينجح فى الانتخابات القادمة، ولكنه يستطيع أن يخرق حاجز ٩٩.٩ ٪ التى ينجح بها المرشح الأوحد فى عصر الاستفتاء والذى سيظل هو نفسه فى عصر الانتخاب إلى حين حتى تكتسب المعارضة مناعة من كثرة التظاهرات اليومية وتحريك الشارع وحشد الجماهير. نجاح المعارضة فى أن ينجح النظام الحالى فى الاستمرار ولو بنسبة من ٧٠ ٪ أكثر أو أقل حتى ينجح مرشح المعارضة الموحدة فى المرة القادمة بنسبة ٥١ ٪ أكثر أو أقل فى الانتخابات القادمة بعد ست سنوات أخرى لا ندرى ماذا يحدث فيها لجحا أو لحماره أو للسلطان!

٥- العصيان المدنى

تتعدد أشكال المقاومة طبقا لظرف كل وطن ومصدر العدوان عليه، من الخارج أم من الداخل، مثل المقاومة المسلحة، والحركات السرية، والسير نحو القصر الرئاسى. ومنها العصيان المدنى وهو أحد أشكال المقاومة السلبية المشروعة. ويعنى تحرك المجتمع المدنى فى كافة قطاعاته وبمبادرة من أحزاب المعارضة والمنظمات الأهلية للتعبير عن المطالب الاجتماعية والسياسية بعد أن تفاقمت وتراكمت عبر السنين. ولم يستطع النظام السياسى التعامل معها أو طرحها على الرأى العام بالمصارحة وليس بالخداع عن طريق البيانات الحكومية وبعض الصحف القومية وأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة. كما يعنى أن العقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم قد خرقه الحاكم من طرفه وإنكاره على الطرف الآخر المطالبة بفسخ العقد من أجل عقد جديد يلتزم به الطرفان. العصيان المدنى هو طريق للمقاومة السلمية بديلا عن الانقلابات العسكرية. فالجيوش الوطنية مازالت الآمنة على مصالح البلاد فى الداخل والأمين القومى فى الخارج، وبديلا عن التنظيمات السرية والخلايا النائمة، وعن المقاومة المسلحة للجماعات النشطة بعد أن تراكم الضغط من أعلى فازداد التفكك من أسفل، وفى غياب حوار بين الطرفين أو بتأخر حركة إصلاحية يقوم بها النظام السياسى مما أدى إلى انقسام الوطن بين الحاكم والمحكوم، والتعارض بين حقوق المواطن وواجبات الدولة.

والعصيان المدنى هو المرحلة الثانية بعد تحرك الشارع فى مظاهرات سلمية أمام

(*) العربى الناصرى: ١ مايو ٢٠٠٥.

مجلس الشعب، ونقابة الصحفيين، ورياسة الجمهورية، ومقار الحزب الحاكم، ووزارة الداخلية، وكل رموز السلطة القائمة. الهدف منه هو زيادة الضغط على النظام السياسى للتسليم بمطالب الشعب والتى تمثلها المعارضة خارج السلطة وليس الحزب الحاكم بداخلها. الهدف منه مزيد من تحريك المجتمع المدنى بكافة قواعده الشعبية بعد أن تحركت منظماته وهيئاته، وقذفت حجرا فى مياه راكدة.

وتتغير أشكال العصيان المدنى طبقا لظروف كل مجتمع وقدرات الشعب على التحرك. يبدأ بإيقاف العمل ساعة فى اليوم على مستوى الوطن كله حتى يتوحد فى المطالب أو الإضراب عن العمل لمدة يوم واحد تعبيرا عن أن الوطن هو الشعب وليس النظام السياسى، وأنه هو الذى ينتج فى حين أن النظام السياسى هو الذى يدير. والإنتاج أفضل من الإدارة.

وتشارك كل قطاعات المجتمع فى العصيان المدنى مثل سائقى عربات الأجرة والنقل العام فى الطرق العامة، والعمال فى المصانع، والفلاحون فى الطريق الزراعى، والمعلمون فى المدارس، والطلبة وأساتذة الجامعات فى المدرجات، وموظفو الدولة فى دور الحكومة، والقضاة والمحامون فى المحاكم، وأصحاب المحال التجارية فى الدكاكين والمتاجر. ولكل هذه القطاعات مطالب مهنية. فالاحتجاج اجتماعى قبل أن يكون سياسيا. وظواهر البطالة والغلاء والفقر والإسكان تعم الجميع. بدايتها فى المجتمع ولكن نهايتها فى السياسة. الأزمة اجتماعية وحلها سياسى. وأساس الضنك الاجتماعى الخنق السياسى.

وقد يقال إن العصيان المدنى تعكير للصفو العام، وتعطيل للمصالح، وإيقاف لحركة المرور، وشل للمدن. وهو غير صحيح. فالمدن مشلولة بطبيعتها. والوقت العام مهدر من قبل. وساعات الإنتاج فى اليوم معدودة. ومصالح الناس معطلة. ويقف الطريق أو الجسر العلوى لمرور الرئيس أو الوزير خاصة إذا كان وزير الداخلية. وتكثر الأجازات. ومع ذلك، فائدته فى

الترابط الوطنى لا تقاس بخاسره على مستوى تسيير الأعمال فى الحياة اليومية. وضعف الاستجابة الشعبية طبيعى نظرا لعدم تعود الناس على المشاركة السياسية أو على ممارسة الضغط الشعبى على الحكومات، واسترداد الحقوق باليدين وليس بانتظار خطاب الرئيس لصرف المنحة فى عيد العمال.

لقد حصلت الهند على استقلالها بالعصيان المدنى كأحد أشكال المقاومة السلمية دون عنف. ووقف ملايين الهنود فى ساحات نيودلهى أمام قصر الحاكم البريطانى، وقعدوا القرفصاء أمام الجنود البريطانيين وقوات الخيالة. وهكذا فعلت الثورة الإسلامية فى إيران بوقوف الملايين من الإيرانيين فى الميادين العامة لمحاصرة قوى السافاك والجيش الإمبراطورى فى الثكنات. والعصيان المدنى أقوى وأكثر صلابة من الانقلاب العسكرى الذى قد ينجح أو يفشل طبقا لميزان القوى بين فرق الجيش الموالية والثائرة.

واستعمل الكيان الصهيونى العصيان المدنى لتحقيق مآربه. فقد حشد المستوطنون خمسة عشر ألفا لاحتلال المسجد الأقصى لولا وجود عشرة آلاف من الفلسطينيين منذ صلاة الفجر فيه. كما يوقف الكيان الصهيونى كل شىء فى الثانية عشر ظهرا من الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ الذى أعلن فيه ولادته فيه وضياع أكثر من نصف فلسطين. وليس الأمر غريبا أيضا على تاريخنا. فقد بدأت ثورة ١٩١٩ فى مصر بالعصيان المدنى لقاطرات السكة الحديد وخلع الفلاحون القضبان فى الريف. كما اعتصمت الألوف من الطلاب فى ميدان التحرير فى ١٩٧١ احتجاجا على استمرار احتلال سيناء منذ ١٩٦٧ مما كان له الأثر فى اندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣ للتحرير. فكيف يُقال أن الجماهير لم تتعود عليه وهى صاحبة الحق فيه؟

إن الجميع يتساءل أين الشارع العربى؟ لقد تصورته أمريكا فارغا كما تصور مؤسسو إسرائيل من قبل فلسطين فارغة. وأن تحرك الشارع العربى فى لبنان وفى مصر لبداية

لتحركه فى باقى العواصم العربية لأخذ الشعوب مصيرها بأيديها. ومن ثم تحترم الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الغربية إرادتنا الوطنية، وتحسب ألف مرة حساب الرأى العام. وفى قراراتها المصيرية الخاصة بالمنطقة تمر عبر الشعوب وليس عبر الحكام.

إن تعبير "العصيان المدنى" قد يكون غير مألوف لدى الشارع العربى. فالعصيان كفر فى الدين، ومروق عن الملة، ومفارقة للجماعة، وخروج فى السياسة. و"المدنى" ضعيف نظرا لسيادة العسكرى عليه. فمن يتحكم فى الشارع هو ضابط الشرطة وليس المواطن. فكيف يتحرك الشارع بدعوته إلى القيام بشىء لم يتعود عليه؟ والحقيقة أن الهبات الشعبية التى حدثت فى السنوات الأخيرة، والنزول إلى الشارع فى هذا العام، وتحرك الطلاب والمحامين والقضاة والحركة الإسلامية، كل ذلك قد يكون مقدمة للعصيان المدنى. وهو هبة شاملة ليست وقتية بل دائمة. لا تقمعها أجهزة الأمن لأنها ليست تجمهرا فى مكان واحد. هى انتفاضة شعب واقفا كالسد فى مواجهة نظام قد تجرفه المياه وراءه.

وهو حركة طبيعية تنشأ من تراكم الأحداث، وتوالى الاعتراضات، ونشوب المظاهرات. وفى نفس الوقت يرتبك النظام السياسى ويتردد بين الاستسلام لمطالب الشعب ويكون هو الخاسر كنظام تسلطى والكاسب كنظام شعبى، وبين الوقوف ضدها والقبض على قادتها فتدخل البلاد فى مذبحة سبتمبر جديدة بعد ما يقرب من ربع قرن هو عمر الجمهورية الثالثة فتتحول أفراح أكتوبر إلى أحزان (إنك ميت وهم ميتون).

٦- الشعوب والجيوش

وأخيرا، انتفض الشعب العربى فى فلسطين ولبنان بالإضافة إلى العراق والشعب الإسلامى فى أفغانستان والشيشان ضد العدوان الخارجى بروح جديدة، جندى عربى فى مواجهة جندى إسرائيلى، خارج دبابته ومصفحته. الضحية فى مواجهة الجلاد، الرجل فى مواجهة الحصن الحديدى، أسير بأسرى، ويوم أسير إسرائيلى بعشرات السنين من الأسرى العرب، فلسطينيين ولبنانيين ومصريين وعراقيين ويمنيين، تركتهم النظم العربية فى إسرائيل كما تركتهم فى جوانتانامو. ويرفض الكيان الإسرائيلى تبادل الأسرى طبقا للمواثيق الدولية بين دولتين فى حالة حرب. فالعدو الإسرائيلى لا ينظر إلى العرب نظرة الند للند بل نظرة الأبيض للأسود والمستعمر للهندى الأحمر، والمستوطن لصاحب البلد. ليس كفؤا فى الحرب ولا شريكا فى السلام. والغرب صاحب النزعة الإنسانية صامت حول تبادل أسير بآلاف من النساء والأطفال والشيوخ والشباب. والمحافظون الجدد فى البيت الأبيض الذين اختارهم الله لإنقاذ العالم يؤيدون ذبح الأطفال والنساء، وهدم المنازل، وتجريف الأراضى، والعدوان على المدنيين. والنساء تصرخ "واعُرباه". وليس من معتصم يجيب أو يستجيب.

تصمت النظم. فالكرسى هو الدائم، والسلطان هو الأبقى. وتكتفى بدور الوساطة المنحازة إلى العدو الإسرائيلى بمطالبة المقاومة فى فلسطين ولبنان بتسليم الأسرى الإسرائيليين دون الإفراج فى المقابل عن الأسرى العرب. بل تعتبر بعض النظم أن المقاومة مغامرة غير محسوبة العواقب، وتلقى اللوم عليها. وتكتفى بدور الوسيط للتفاوض. فالسلام

(*) الاتحاد: ٢٠ يوليو ٢٠٠٦، الدستور: ٢٠ يوليو ٢٠٠٦.

خيار استراتيجى. وحرب أكتوبر آخر الحروب. فالنظم محايدة بين مقاومة الاحتلال والاحتلال. وهم مجرد أولاد عم للقاتل والقتيل. أقصى ما يستطيعونه، فتح المعابر لإمداد الشعب العربى المحاصر فى فلسطين ولبنان بالطعام أو تحويل الأموال أو توفير المواد الطبية. فقد تقلص الوطن فى الخبز والمرتب من أجل الحرص على حياة الناس تحت الاحتلال.

ووسط صمت النظام السياسى العربى وإحساس الشعوب بالعجز وامتهان الكرامة، تأتى المقاومة الشعبية وحدها فى فلسطين ولبنان لترفع هامة العرب. وتذكّر العدوان الإسرائيلى أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، شعار العرب فى الستينيات والذى عليه قامت حرب أكتوبر فى السبعينيات. وفى ذروة العدوان على ما تبقى من فلسطين فى قطاع غزة، وضرب المدنيين، وهدم مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، ومبانى وزارات الداخلية والخارجية والاقتصاد، تأتى المقاومة اللبنانية لتخفيف الضغط على المقاومة الفلسطينية ومؤازرتها وتوزيع الخسائر على الشعبين الفلسطينى واللبنانى دون باقى الشعب العربى خاصة فى دول المواجهة والتى أصبحت تسمى دول الجوار. وتصدت المقاومة الفلسطينية واللبنانية للعدو الإسرائيلى كما فعل جيش مصر من قبل فى حرب أكتوبر، الجندى فى مواجهة الدبابة (**لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر**). وإذا ما واجه جندى العدو المقاوم الفلسطينى فإنه يقع فى الأسر أو يهرب (**وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله**). ولم تقو الدبابات الإسرائيلية على الدخول وسط مدن القطاع خشية من صواريخ المقاومة المضادة. لا يحارب العدو إلا عن بُعد تجنبا للمواجهة بين الغاصب والمغتصب، بين المستوطن وصاحب الأرض. فيستعمل السماء ضد الأرض، الطائرة والصاروخ ضد المنزل والحى والمخيم. وتقبع المقاومة فى الأرض، وتتشبث بها لصد غارات السماء.

ليست القضية قضية صورية، علاقة المقاومة الفلسطينية بالسلطة الوطنية، رياسة أم حكومة، وعلاقة المقاومة اللبنانية بالحكومة اللبنانية لأخذ إذنها، والسماح لها بالمقاومة

والوطن محتل. بل القضية قضية تحرير شعب لوطن محتل كما حدث فى الجنوب، واستكمال حركة التحرير فى ما تبقى من احتلال. وقد تتعدد الآراء حول التوقيت والتنسيق ولكنها تتفق على ضرورة المقاومة الشعبية للعدو المحتل للأراضى الوطنية.

وفى الوقت الذى اختلفت فيه النظم العربية بين نصير للمقاومة والخوف من المغامرات غير المحسوبة، توحد العدو الإسرائيلى بين الحكومة والشعب، بين جناحى الائتلاف حزب العمل وحزب كاديما مع حزب الليكود المعارض على ضرورة الاستمرار فى العدوان على فلسطين ولبنان. فالعرب لا يعرفون إلا لغة القوة والتأديب من أجل القضاء على روح المقاومة والاستسلام التام لإرادة العدو الصهيونى الأمريكى. والفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن بالمرصاد ضد أى قرار حتى ولو كان لينا للمطالبة بإيقاف العدوان على الشعوب طبقا لميثاق الأمم المتحدة. والصمت الأوروبى تابع للموقف الأمريكى. وعجز النظام العربى نتيجة طبيعية للاعتراف بالعدو الصهيونى وتبادل السفراء والتطبيع معه والأراضى العربية مازالت تحت الاحتلال. ولم تنفع مبادئ مدريد، الأرض فى مقابل السلام، ولا المبادرة العربية، سلام كامل فى مقابل انسحاب كامل.

إن اتهام المقاومة بالجنون والمقاومة غير المحسوبة والتضحية بلبنان ونصحها بالتعقل والتروى والتنسيق إنما يجوز لو كانت نفس التهمة ونفس النصيحة موجهتين للعدو الإسرائيلى ولكان الأمر معقولا، عقلا بعقل، وجنون بجنون. ولا يفل الحديد إلا الحديد. إن التهديد بقتل رئيس الوزراء الفلسطينى، وتصفية رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، فلا أحد بمنأى من جيش الدفاع الإسرائيلى، وخطف ثلث مجلس الوزراء وعشرات من أعضاء المجلس التشريعى كل ذلك يدل على أن الدولة الفلسطينية الموعودة إنما هى محض خيال، وحقنة مخدرة للشعب الفلسطينى حتى يتم تدميره نهائيا، ويعيش الفلسطينيون فى "كانتونات" عربية داخل إسرائيل التى ابتلعت كل فلسطين، لا فرق بين عرب ١٩٤٨ وعرب

١٩٦٧. ولا خوف من تغيير التركيبة السكانية فى إسرائيل. فأساليب النازية قادرة على الإبقاء على التفوق السكانى العنصرى اليهودى.

لم تخسر حماس بل عادت إلى أصولها الشعبية وقواعدها فى المقاومة. وكسبت فتح لأنه فى النهاية عادت كمقاومة لتأكيد الوحدة الوطنية الفلسطينية بالاتفاق على وثيقة الأسرى كحد أدنى من البرنامج الوطنى. ولم يخسر شعب فلسطين لأنه تصدر المقاومة. وانضمت إليه المقاومة اللبنانية فى محيط شعبى عربى وإسلامى واسع تأييدا للمقاومة بعد أن تخاذلت النظم السياسية.

لم تعد للأوطان المستقلة حرمة. ولم تعد للعواصم العربية والإسلامية حماية. تغزو الولايات المتحدة بغداد وكابول، ويغزو الاتحاد السوفيتى جروزنى. وتعتدى إسرائيل على بيروت، مطارها ومستودعات وقودها، ومحطات توليد كهربتها، وخزانات مياهها، وجسورها وأحيائها. فقد قتل الأخ يوم أكل الذئب الثور الأسود. وتهدد دمشق وطهران. والقاهرة وعمان والرياض تنصح بالتعقل دون المغامرات غير المسئولة وغير المحسوبة.

إن الصراع مع العدو الإسرائيلى بدأ منذ أكثر من نصف قرن. وقد يمتد عقوداً أخرى من الزمان بسبب طول عمر النظام العربى. وشهداؤنا فى الجنة وقتلاهم فى النار. وقد سُئل عنترة: ما الشجاعة يا عنترة؟ فقال: أن أضع أصبعى فى فم عدوى، ويضع عدوى أصبعه فى فمى. فمن يصرخ أولا يكون أقل شجاعة. (**إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله**).

وإذا كانت هزيمة ١٩٤٨ قد أدت إلى الثورات العربية بقيادة الضباط الأحرار فى سوريا ومصر والعراق وليبيا واليمن فإن العدوان الإسرائيلى على ما تبقى من فلسطين فى قطاع غزة عام ٢٠٠٦ قد يؤدى إلى ثورة الشعوب الحرة فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة. ليس جيشا فى مواجهة جيش، بل شعبا فى مواجهة جيش، طريق فيتنام وطريق العراق.

٧- الطوفــان قــادم

إن مـا حـدث فـى لبنـان مـن تفجير موكـب رئيس الـوزراء الـسابق لهـو بدايـة الطوفـان. ليس المهم من فعله بل لماذا فعله؟ فالعلة الغائية عند الفلاسفة أقوى تأثيرا من العلة الفاعلة. فالغايـة هـى التـى تحـرك الأفـراد والجماعـات. وعنـدما يـتم تمثلـها تتحـول إلى دوافـع وبواعـث تبـدأ مـن الطاقـة الفرديـة وتـصب فـى الحـراك الاجتمـاعى. ولا يهـم الفعـل نفـسه والتحقيـق، المحلى أو الدولى، والقبض على الجناة ومحـاكمتهم أو الإشـارة بأصـابع الاتهـام إلى هذا النظـام الغربى أو القوة الأجنبيـة. بل مـا يهم هو نتائجـه والآثـار المترتبـة عليـه على الـصعيدين المحلى والـدولى. وكـأن نظريـة "الـدومينو" التـى طبقـت مـرة فـى جنـوب شـرق آسـيا وفـى دول البلقـان وفى أوروبا الشرقية تعود من جديد إلى الـوطن العربى حتـى تسقط أقطاره واحدا تلـو الأخر. وغـزو العـراق مـا هـو إلا مقدمـة لسلسلة طويلـة مـن الغـزوات الأخـرى بأشـكال جديـدة، ولـيس بالضرورة بشكل العدوان المسلح المباشر من القوة الكبرى الوحيدة فى العـالم على إحدى الـدول الصغرى بدعوى المروق عن النظام الدولى والعصيان لقرارات الأمم المتحدة.

وهى عملية بلغت من دقة التنفيذ والإتقان مـا قد تتجـاوز قدرات أى نظام عربى. فقد استطاعت تكنولوجيا التفجير، وربما باليورانيوم المخصب، أن تتغلب على تكنولوجيـا الـدفاع والحماية بالمصفحات والمدرعات التقليدية. فالعملية أكبر مـن جهد فـردى أو جمـاعى أو حتـى قطرى محلى. لا يستطيع القيـام بهـا إلا إسـرائيل أو أمريكـا أو كلاهمـا معـا. فهمـا الوحيـدان الكاسبان منهـا، زعزعـة الاسـتقرار فـى الـوطن العربـى، وتفجير مـا تبقـى مـن نظمـه المتهاويـة

(*) الاتحاد: ٥ مارس ٢٠٠٥.

بضربة واحدة لإعادة تخطيط المنطقة من جديد طبقا لميزان القوى المحلية والدولية.

وقد قامت القوى الكبرى، وفى مقدمتها الولايات المتحدة وإسرائيل، بسبر واختبار مناطق الضعف فى الوطن العربى من أجل النفاذ منها إليه. وهى مناطق نفاذ خلقناها بأيدينا مثل الوضع الطائفى فى لبنان وحرب أهلية دامت خمسة عشر عاما دون حل لمشكلة الطائفة أو الوطن. وتتكرر نفس المشكلة فى السودان فى دارفور، بين الشمال والجنوب والغرب بعد أن عزت المواطنة السودانية عن توحيد مناطق السودان. فأصبح العرب فى مواجهة الأفارقة مما أعطى فرصة لقوى الاستعمار التقليدية لفصل الجنوب والغرب عن الشمال.

ووجود القوات السورية فى لبنان وعدم انسحابها منذ تنفيذ بنود اتفاقية الطائف، وتغلغل المخابرات السورية وتدخلها فى الشأن اللبنانى أو تمديد الرياسة الحالية لفترة جديدة ضد الدستور اللبنانى أعطى ذريعة للقوى والمنظمات الدولية كى تتدخل فى العلاقات بين سوريا ولبنان من أجل العدوان على سوريا بدعوى عدم تطبيقها القرار الدولى بالانسحاب من لبنان وتبنى المعارضة اللبنانية هذا البند. وانقسمت لبنان بين حكومة ومعارضة، بين موالين ومعارضين وشبح الحرب الأهلية لم ينقشع بعد. وكان العراق أيضا قد أوقع فى فخ العدوان على إيران الذى لم يدفع الولايات المتحدة للتحرك ضده لأنه كان ينفذ مطالبها بالتخلص من الثورة الإسلامية فى إيران، عدو الشيطان الأكبر، وفى فخ العدوان على الكويت مما دفع الولايات المتحدة بالتحرك هذه المرة دفاعا عن النفط الخليج، وحصارا للقوة العراقية التى كانت تمتد نحو الجنوب لحصار شبه الجزيرة العربية من الشمال والجنوب معا. وكانت الذريعة امتلاك أسلحة الدمار الشامل والتسلط، وإسرائيل مدججة بالسلاح، وأمريكا تؤيد نظم التسلط فى الوطن العربى مادامت تابعة لها، تحقق سياساتها.

وكما تختبر القوى الكبرى مناطق الضعف فى الوطن العربى فإنها أيضا تتعرف على

مناطق القوة فى دول الجوار فى العالم الإسلامى كى تقضى على السند والظهير فى ماليزيا وأندونيسيا وإيران. فقد تمت من قبل محاولة ضرب العملة فى جنوب شرق آسيا. وأندونيسيا أيضا مهددة بتقطيع الأوصال بداية بتيمور الشرقية ثم اتشيه ثم التنصير على قدم وساق. أما إيران فهى الباقية التى لم تدخل بعد بيت الطاعة والتى مازالت تمثل بؤرة تجميع ومناهضة لقوى الهيمنة الكبرى. وتعمل على ما تبقى من وحدة العالم الإسلامى وتأييد قضاياه فى سوريا ولبنان وفلسطين.

الطوفان قادم، وموجة جديدة من الهيمنة من الخارج والتفتيت من الداخل فى الآفاق. البداية الجديدة بعد العراق، تفتيت لبنان، وإعادة الحرب الأهلية من أجل تركيز الطائفية والقضاء على وحدة الوطن والتخلص من نموذج فريد من الديموقراطية والتعددية السياسية وحرية الصحافة. فبيروت هى العقل العربى الذى يحاصر كما حوصر العراق الذى يقرأ. فيتم حصار العقل والعين معا.

ثم يتم التخلص من حزب الله فى الجنوب بعد اتهامه بالإرهاب فى طريق التسوية العربية الإسرائيلية والقضاء على كل مظاهر المقاومة ونموذجها. وهى التى نجحت فى تحرير الجنوب والقضاء على قوة وطنية قادرة على أن تكون منبرا للحوار بين الموالين والمعارضين فى النظام اللبنانى. وربما كان التخلص من رئيس الوزراء أنه كان رمزا للوحدة الوطنية منسقا مع حزب الله لحماية استقلال لبنان ووحدته وتجربته الديموقراطية.

ثم يتم شد الحبل على عنق سوريا بذريعة وجودها فى لبنان وضرورة انسحابها منه دون مطالبة إسرائيل بالانسحاب من مزارع شبعا فى الجنوب، ومن الجولان المحتل ومما تبقى من فلسطين إذا كان الهدف هو مبدأ استقلال الدول وعدم جواز احتلال أراضى دولة من دولة أخرى. والذريعة أيضا ضرورة التحول الديموقراطى فى سوريا، وملف حقوق الإنسان، ومساندة الإرهاب، والإبقاء على مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية، والتنسيق مع

إيران، وممر توريد الأسلحة إلى جنوب لبنان.

ونظرا لأن أوروبا مازالت متأرجحة بين الاستقلال عن الولايات المتحدة والتبعية لها، وأخذت موقف الاستقلال من العدوان الأمريكى البريطانى على العراق فإنها أخذت موقف التبعية فيما يتعلق بلبنان وسوريا، وأوروبا خاصة فرنسا، هى الراعية التقليدية لهما بعد أن كانا محتلين منها. وقذف دمشق بالطيران الفرنسى قبل الاستقلال مازال فى الأذهان.

ثم يأتى الدور على السودان والتدخل فى شئونه بالقوات الأجنبية تحت ذريعة حماية لدارفور وشعب دارفور من حرب الإبادة، وتجنيد المنظمات الدولية لإعطاء الشرعية للعدوان على السودان. ويقوم الإعلام بتصوير مظاهر البؤس والجوع والتشرد لمليون سودانى فى دارفور وكأن أربعة ملايين فلسطينى لا يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلى المباشر فى نفس الوضع المأساوى.

ثم يأتى الدور على إيران بعد أن يصبح وحيدا حماية لإسرائيل وترصدا بمفاعلاته النووية حتى تنفرد إسرائيل فى المنطقة بالسلاح النووى دون رادع لها. كما يتم القضاء على الإسلام الثورى، وإمكانية وجود نموذج للتنمية والاستقلال خارج النموذج الغربى، ويضعف دور إيران كقوة جذب لمناطق وسط آسيا وكإمكانية تكوين قطب جديد مع تركيا ومصر يعيد التوازن إلى العالم ذى الطب الواحد.

ثم يأتى الدور على شبه الجزيرة العربية من أجل تفتيتها وإنهاء قوة اقتصادية وسياسية فى المنطقة مازالت تقاوم الهيمنة الصهيونية على الأرض وفى الفكر. ولا تحتاج القوى الكبرى للتدخل فالنظام مرهق. فقد تأخر فى الإصلاح. ومن كثرة الضغط من أعلى بدأ التفكك من أسفل. وبدلا من الحوار مع حركات الإصلاح تحول إلى صراع بالسلاح.

والمغرب العربى تغذى فيه فرنسا روح البربرية الفرانكفونية فى مواجهة العروبة.

وتقيم المعاهد والمراكز فى جنوب فرنسا لرعاية البربرية حليفا للفرانكفونية.

وأخيرا يأتى الدور على مصر بعد قص ريشها فى الشام، الأمن القومى لمصر منذ الهكسوس حتى الاستعمار الحديث ونشأة الكيان الصهيونى، وفى الجنوب، فى السودان حيث منابع النيل، وفى الشرق فى شبه الجزيرة العربية وإيران، وفى الغرب فى المغرب العربى والامتداد الأفريقى الغربى لمصر منذ الحيثيين حتى الحرب العالمية الثانية وموقعة العلمين.

فهل يستطيع العرب إيقاف الطوفان القادم؟

البــاب الثانــى





الفصل الأول

الوطـــــن المستبــاح

١- الجسد العربى.

٢- القلب المفتوح.

٣- هل فقد العرب زمام المبادرة؟

٤- وحدة القاعدة وتفرق القمة.

٥- اختراق الوطن العربى.

٦- الخطر على الخليج... من أين؟

١- الجسد العربي

جرت العادة على تشويه ثقافة الشعوب من أجل تبرير احتلالها والقضاء عليها. فالشعوب في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، لها عقل "بدائي"، وفكر "متوحش"، وسلوك "همجي"، وثقافة "بدوية". وقد ساهم في خلق هذه الصور النمطية الاستشراق، وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية، والمؤرخون، وعلماء تاريخ الأديان، وفلاسفة التاريخ في الغرب بالتوازي مع المد الاستعماري الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر. ونشأت النظريات العنصرية لتحديد الخصائص الأبدية للشعوب من أجل إثبات تفوق بعضها على البعض الآخر. والأكثر تفوقا هو الذي له الغلبة على الأقل تفوقا طبقا لقوانين التطور التي وضعها دارون، الغلبة للأقوى، والصراع من أجل البقاء.

وبعد حركات التحرر الوطني وحماية الشعوب لثقافاتها والدفاع عنها عاد الاستعمار في موجة ثانية لاحتلال إسرائيل ما تبقى من فلسطين بعد الاحتلال الأول في ١٩٤٨ ثم احتلال الولايات المتحدة الأمريكية أفغانستان ثم العراق واحتلال روسيا الشيشان. ليس الهدف فقط احتلال الأرض وتشويه الثقافات بل استئصال الأجساد كما فعلت الهجرات الأوروبية مع الهنود الحمر، السكان الأصليين في نصف القارة الغربي. فالجسد مازال هو جسم الجريمة. عليه أن يختفي حتى تنظف الأرض ممن عليها، وإحلال الغزاة محلها وإعطاء أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض كما تريد إسرائيل أو السيطرة على العالم كله باسم العولمة وأيديولوجية اليمين المحافظ، والمحافظة الجديدة، والمسيحية الصهيونية. فالأرض قد

(*) الاتحاد: ١ يناير ٢٠٠٥، الزمان: ٥ يناير ٢٠٠٥، الدستور: فبراير ٢٠٠٥.

تنتفض. والشعب قد يعود إلى المقاومة. والثقافة قد تظل حية فى قلوب الأحياء. لذلك وجب هذه المرة استئصال الجسد نفسه. ولو بُعث فإنه لن يكون فى هذا العالم. ولا يعلم الاستعمار الجديد أن العنقاء تبعث من خلال الرماد فى هذا العالم.

وهو ما يحدث الآن عندما تغتال إسرائيل طفلة حاملة حقيبة كتبها على ظهرها فى طريقها إلى المدرسة والضابط القاتل يتصورها فدائية تحمل متفجرات على ظهرها فى عملية استشهادية. وبعد أن يقترب ويتحقق أنها طفلة ذاهبة إلى مدرستها يطلق على الجثة عشرين طلقة حتى يخفى جسم الجريمة. فإنه يخاف من الطفل الفلسطينى حيا أو ميتا. يفرّغ فيها خزانة رشاشه حتى لا يبقى شىء من فلسطين، أرضا أو شعبا، رجلا أو إمرأة، شابا أو طفلة حتى يطمئن إلى بقاء الاحتلال ودوام الاستيطان بالاستئصال. يريد تمزيق اللحم وتكسير العظم وتحويل الجسد إلى فتات حتى لا يبعث من جديد (**قل من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**). وجندى آخر يعلق رأس فلسطينى مقطوع على هوائية دبابته ليعلن للناس أنه يقطع الرؤوس مع تدمير البيوت وتجريف الأراضى دون أن يعلم أن اجتزاز رأس الحسين هو الوقود المستمر عند كل المظلومين والمضطهدين عبر التاريخ وإلى يوم الدين. وعينا الرأس تنظر إلى الجندى فى تحد للتاريخ، للحاضر والمستقبل. ويضع الجندى فى فم الرأس لفافة تبغ حتى تمحى من ذهنه صورة الفلسطينى وفى يده بندقية. وجندى ثالث يضع طفلا حيا على مصفحته حتى يُصاب بالحجارة. يحمى المركبة بالجسد. فإما أن يقتل الفلسطينى الفلسطينى أو أن يتوقف الفلسطينى عن انتفاضة الحجارة. ويُمثّل بجثث الشهداء حتى يطمئن الإسرائيلى أن الجثة لن تنتفض إلى الأبد دون أن يعلم أن الشهداء لا يموتون لا فى الأرض ولا فى السماء. شعب يعشق الشهادة فى مواجهة شعب حريص على الحياة. والفلسطينيون لا يرهبهم الموت بقدر ما يرتعش الإسرائيلى من الموت. وفى نفس الوقت تتاجر إسرائيل بالمحرقة وما فعلته

النازيـة بـاليهود. فـلا فـرق بـين النازيـة والـصهيونية فـى التـصفيات الجـسدية واستئـصال الأجساد، وتحويل الوجود إلى عدم، والموت إلى إماتة، والقتل إلى تقتيل. ومـاذا يـضر الـشاة سلخها بعد ذبحها؟ وقد قامت كل الشرائع السماوية والأرضية على حرمة الموتى، وعدم التمثيل بالجثث احتراما للموت. وألفت الروايات فى ذلك مثل "انتجونا" ليوربيدس.

ومـا يحـدث فـى فلسطين يحـدث فـى العـراق. لا فـرق بـين جنـدى إسـرائيلى وجنـدى أمريكى. ففـى العـراق لا يكفـى احـتلال الـوطن، وقهـر الـشعب بـل تـدمر المدن كمـا دمـرت الفلوجة وترك الضحايا بلا مدافن، "موتى بلا قبور" كما كتب جان بول سارتر. وتتعفن الجثث أياما وأسابيع دون حرمة لميت أو احترام لشريعة أو قانون، وتدفن الجثث بالعشرات دون هوية فى مقابر جماعية، يواريها التراب بلا أهل ولا أصدقاء حتى لا يعود الشهيد كذكرى حتى فى قلوب الناس. وتتوالى أخبار تعذيب الأجساد ليس فقط فى سجن أبى غريب بل فى باقى السجون كراهية للجسد العربى، جسم الجريمة. ويطلق الجندى الأمريكى النار على الجسد المتحرك حتى ولو كان إمام مسجد ذاهب للصلاة. يخشى حركة الأجساد التى قد تؤتيه الموت فجأة وعلى غير انتظار. لذلك أُمر الجندى الأمريكى فى فيتنام بإطلاق النار على كل شىء يتحرك حتى ولو كان غصن شجر من نسمة هواء يحسبه مقاتلا فيتناميا. يريد الأمريكى تثبيت الحركة وإيقاف العالم حتى يتمكن من السيطرة عليه.

والغريب أنه فى الثقافة الغربية المعاصرة مذاهب لاحترام الجسد "أنا جسدى" عند جابريل مارسل. والجسد هو وسيلة الاتصال بالعالم والتعامل مع الآخرين والكلام عند ميرلوبونتى. بل إن السيد المسيح سُمى "الجسد المقدس" أو "الجسد العظيم". وشتان ما بين النظر والعمل، بين الفكر والممارسة طبقا للمعيار المزدوج المعروف فى تعامل الغرب مع غيره من الشعوب.

الجسد عند الإسرائيلى قيمة يريد حرمانها من الفلسطينى. لذلك تصور الله جسدا

(**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا**). وهو جسد يخور (**فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار**). وما يطلبه الإسرائيلى هو كبر الجسد (**قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم**). وهو جسم خاو من أى روح، قوة بلا عدل (**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم**). فالجسد العربى لا يفنى حتى ولو مُثّل به. والجسد الإسرائيلى والأمريكى مجرد ظاهر وباطنه خراب.

والغريب أنه يُعاب علينا أننا لا نعرف قيمة للجسد. نقطع الرأس، ونغتال الأبرياء. ونعامل المرأة عندنا كجسد فى تعدد الزوجات، والضرب والعدوان الجسدى عليها. وجعلنا المرأة مجرد عضو جنسى. وغطينا العرى بالحجاب.

ولا يضيرنا أن تكون هذه الأرض من هذه الأجساد كما قال أبو العلاء:

خفف الوطأ فما أظــن ∴ أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

والخلود عند ابن رشد مرتان. مرة بالعقل عندما يتحول إبداع الفرد إلى تراث حضارى عام فى عقل الإنسانية، ومرة أخرى من خلال البدن الذى يتحول إلى تراب وطين ينبت فيه الزرع، ويزدهر فيه الاخضرار.

فإذا كان الروح لا يفنى فإن البدن أيضا خالد فتحية إلى الجسد العربى.

٢- القلــب المفتــوح

إن الوطن العربى اليوم بمثابة قلب مفتوح أو جوف مفتوح يجرى فيه كل من شاء أى عملية جراحية دون أخذ رأى صاحبه ودون أن يعرف مدى الخطورة وعما إذا كان الهدف هو صحة الجسد أو القضاء عليه. إنه أشبه بملعب بلا صاحب، ملعب كل الفرق على أرضه كما تشاء وتسجل الأهداف فى شباك صاحبه إن وجد.

لا يوجد متحدث باسمه، ولا معبرا عن مصالحه، ولا مجسدا لوجوده وثقله عبر التاريخ. بل هى مجموعة من الإرادات المتضاربة بل والمتعارضة، والمشارب المتباينة. يضرب بعضها بعضا سرا أم علنا. المغرب أقرب إلى الغرب منه إلى الشرق. والهجرات منه بالملايين إلى الدول الغربية. وهو قريب منه جغرافيا ولغويا. فلماذا لا يكون الخاصرة الجنوبية للاتحاد الأوروبى؟ والخليج العربى مستقر للقوات الأمريكية حتى لا يتكرر العدوان عليه من الشرق أو الشمال. ولم تنجح اتفاقية دمشق فى أن يقوم العرب بالدفاع عن أنفسهم بأنفسهم، بعد أن سمحوا للأجنبى بالتدخل فى شئونهم ونصرة فريق على فريق وحارب العربى مع الأمريكى ضد العربى.

ويختلف العرب فى مؤتمرات القمة. وإذا اتفقوا ففى عبارات إنشائية وبيانات عامة تتكرر فى كل مؤتمر حتى حفظها الناس. فهى تدون قبل الانعقاد. وعرف الناس النتائج قبل المقدمات، والحلول قبل المشاكل. فلم يعد للعرب كلمة مسموعة. وردت إليهم مبادرة السلام

(*) الاتحاد: ١٥ يناير ٢٠٠٥، الزمان: ١٢ يناير ٢٠٠٥، الدستور: فبراير ٢٠٠٥.

العربية، اعتراف كامل فى مقابل انسحاب كامل. فالجسد المسجى لا قيمة ولا ثقل ولا قوام له.

ويعلم الغرب جيدا أنه يتعامل مع نظم سياسية قد لا تترجم تماما طبيعة القوى السياسية فى الشارع العربى. نظم وريثة نصف قرن أو يزيد، والشارع العربى قد تغير. وظهرت الحركة الإسلامية كعامل مؤثر فى المعادلة السياسية بعد أن استبعدت فى بناء الدولة الوطنية الحديثة بعد الاستقلال وأصبح الكثير منها خريج سجون، ونزيل معتقلات. تعود إلى الساحة السياسية ناقمة غاضبة، وتبدو الفاعل الوحيد المؤثر فى الداخل والخارج. تخشاها أنظمة الحكم فى الداخل. ويهابها الغرب فى الخارج، وبدل أن تكون داخل الجسد المسجى ترد إليه الحياة أصبحت خارجه، تهيم على وجهها خارج الزمان والمكان.

فلسطين قلب مفتوح، تلعب فيه إسرائيل كما تشاء. تحتل المدن وتقيم الحواجز، وتبنى الحائط العنصرى، وتقف على المعابر، تداهم المخيمات وتدمر البيوت، وتجرف الأراضى. تغتال القادة والنشطاء. وتقبض على أفراد المقاومة. ولا راد للعدوان إلا بعض عبارات الشجب والتنديد فى الداخل، وإدانة الاستعمال المفرط للقوة دون أصل العدوان. فلسطين أرض بلا صاحب، ووطن بلا شعب. هى أرض المعاد لبنى إسرائيل ومن طرأ عليها ووفد إليها كعرب فلسطين حكمه حكم الأقليات كما هو الحال فى الأنظمة العنصرية. المقاومة فيها إرهاب وعنف وقتل للأبرياء وإجبار لإسرائيل على الانسحاب من الأراضى المحتلة وهو تهديد لأمنها، وانتقاص من سلطانها. الجسد المفتوح مسجى فى فلسطين. تدوس عليه إسرائيل بالأقدام. وتربط شرايينه فى دورات دموية صغيرة لا تعيد إلى القلب حياته.

والعراق قلب مفتوح. تلعب فيه قوات التحالف الرئيسية والرمزية، وفى مقدمتها القوات الأمريكية. تدمر المدن، وتهدم المنازل، وتقتل الأبرياء. تحل الجيش والشرطة والحزب. وتنهب دور الحكومة وأبنية الدولة ومكتبات الجامعة والمتاحف. وتتاجر فى نفط العراق

باسم برنامج النفط فى مقابل الغذاء. وتلعب فيه المخابرات الإسرائيلية والغربية والشرقية كما تشاء باستثناء إرادة شعب العراق. الكل يخطط لمستقبله إلا شعبه. الكل يسعى إلى تقطيع الأطراف ولا أحد يسعى إلى حماية القلب والحفاظ على نبضه وقوته.

والسودان قلب مفتوح تلعب فيه القوى الغربية ما تشاء فى جنوب السودان وغربه. ظل الغرب يدعم الجنوبيين بإرسال السلاح مباشرة، واستعمال مطارات الجنوب دون المرور بالخرطوم. ويعلن رئيس وزراء بريطانيا أنه سيرسل ثلاثة آلاف جندى دفاعا عن سكان دارفور. والأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبى، ودول الجوار والاتحاد الأفريقى، الكل يلعب فى جوف السودان، ويعيد ترتيب الأوراق طبقا لميزان القوى الحالى. والولايات المتحدة الأمريكية تعلن أن ما يحدث فيه هو تطهير عرقى أما ما يحدث فى فلسطين فهو دفاع عن أمن إسرائيل.

ومن يصمد من العرب والمسلمين مثل سوريا وإيران من أجل حماية الجسد العربى والإسلامى إلا أن الخنجر بيد القاتل ممدودة تهدد سوريا إن لم تتوقف عن مساعدة المقاومة العراقية، وتأييد حزب الله فى جنوب لبنان وفتح دمشق لقادة المقاومة الفلسطينية، والاستسلام التام لإسرائيل. وكذلك يتم تهديد إيران إن لم تتوقف عن التجارب النووية وإن لم تقبل التفتيش على مفاعلاتها وإن لم تقبل الخضوع التام للغرب، الولايات المتحدة وإسرائيل. كما أنه يجب أن تتوقف عن تدعيم سوريا وحزب الله فى لبنان.

وأفغانستان والشيشان وكشمير أيضا قلوب مفتوحة يلعب من يشاء فيها. فقد غزت الولايات المتحدة أفغانستان بدعوى القضاء على نظام الطالبان الذى يأوى تنظيم القاعدة. وتم تدمير وطن بأكمله بالطائرات والصواريخ والمدافع الطويلة المدى. وهو مدمر أصلا بالقهر والفقر والتخلف وتجار الحروب والمخدرات.

وغزت روسيا الشيشان، وقضت على استقلالها التاريخى. وليس هناك أعز على

الشعوب من استقلالها الوطنى. ومازال الجسد الشيشانى يصارع من يلعب فى جوفه مادام القلب مازال ينبض بالحياة والأفضل لروسيا الاتحاد السوفيتى السابق، اتحاد بين دول مستقلة كنوع من الكومنولث الأسيوى.

وكشمير أيضا قلب مفتوح، والعشرات تسقط من أجل الاستقلال. وتفرقت كلمة المسلمين. وفقدت القدرة على الضغط على الهند والنظام الدولى لإجراء الاستفتاء وإعطاء شعب كشمير حق تقرير المصير.

ونفس الجوف المفتوح فى تايلاند وبورما والصين حيث يلاقى المسلمون أبشع أنواع الاضطهاد وليس لهم نصير. والأمة فاقت المليار. وتكون خمس سكان العالم.

لم يعد الجسد الملقى، والقلب المفتوح بقادر على الاستلقاء إلى الأبد، والعبث بجوفه وقلبه من كل جانب إلا من صاحب الجسد الذى لا يكد ينطق. لذلك فقدت الأمة قوتها التفاوضية. وغاب من يتحدث باسمها. وإن تحدث أحد باسم قطره فالغرب يعلم أنه يتحدث باسم نفسه بالرغم من ادعاء البعض "إن شعبى ورائى".

الجراح مفتوحة فى الجسد العربى. والكل يوسّع فيها دون أن يلئمها حتى أصبح الجسد العربى مثخنا بالجراح، فى نزيف دائم حتى يصفى دمه ويصبح جثة هامدة بلا حراك.

هل يمكن عقد قمة عربية للاتفاق على الحد الأدنى من الوفاق العربى. ويتحدث باسمه رئيس عربى بقوة تفاوضية جماعية؟ هل يمكن للنظم العربية أن تعبر عن شعوبها بعد أن تعبر الشعوب عن نفسها، وتكون قوة للموقف التفاوضى العربى؟ فالحاكم الذى يتكلم باسم شعبه أقوى من الحاكم الذى يفاوض بشخصه. والقرار الجماعى أقوى وأكثر مدعاة للاحترام من القرار الفردى. ويد الله مع الجماعة.

٣- هل فقد العرب زمام المبادرة؟

أحد أبعاد الأزمة الراهنة الانسداد السياسى، وتوقف مسار التاريخ ودوران الزمان، والعجز عن الحركة، وانتظار فعل الآخرين لإحداث رد فعل مبالغ فيه مثل ردود الأفعال حول الرسوم الساخرة أو الأفلام أو البرامج التليفزيونية التى تسخر من حضارتنا أو غياب رد الفعل مطلقا كما هو الحال فى أنهار الدماء التى تسيل كل يوم فى فلسطين والعراق، والمظاهرات العارمة كرد فعل على حرق منبر المسجد الأقصى والسكون التام أمام احتلال مدينة القدس نفسها، والأقصى جزء منها، ومنبره جزء من الجزء.

وأحد أسباب هذه الأزمة غياب زمام المبادرة عند العرب خاصة مصر. والمبادرة فعل حر، انبثاق الحياة وطفرة فيها بمصطلحات برجسون، وهى فعل حدسى وإدراك مباشر ورؤية وكشف والهام بلغة الصوفية. هى انتفاضة الوجود، والتحول من الثبات إلى الحركة، ويقظة الوعى والتحول من النقل إلى الإبداع. هى قفزة من الكم إلى الكيف وعبور المستويات غير المتصلة بلغة كيركجارد. هى التقدم والرقى والطفرات فى الطبيعة حيث يصعب وجود حلقات مفقودة بين الجماد والنبات، والنبات والحيوان، والحيوان والإنسان، والإنسان والملاك، بلغة التطور الخالق. وهى الثورات فى تاريخ الشعوب بعد أن تتوقف عن الحركة، ويطول عمر الحاكم والمياه الجوفية تسيل من تحت أقدامه لا يراها. يتهمها أنصار الوضع القائم بأنها خبل وجنون وحمق. والجنون فنون. والحق هو تاريخ الجنون منذ بترارك فى "مدح الجنون" حتى فوكو فى "تاريخ الجنون". وتُتهم بأنها مقامرة ومخاطرة غير محسوبة

(*) الاتحاد: ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٦، الدستور: ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٦.

العواقب. لم تحظ بالموافقة عليها من الديوان بورقة رسمية عليها ختم النسر، كما اتهم حزب الله أخيراً فى معركته مع إسرائيل لتحرير ما تبقى من أراضى الجنوب والأسرى العرب فى سجون العدو.

وهى مبادرة يقوم بها الأفراد والجماعات والشعوب، أفعال فردية وجماعية وشعبية وطنية. يزخر التاريخ بها. الأفعال الفردية أفعال الأبطال والقادة العظام، رمسيس الأول مدافعا عن مصر بعربته الحربية ضد الغزاة من الهكسوس مصلياً للآلة حورس، والإسكندر الأكبر الذى زحف من أوروبا إلى آسيا، ومن اليونان حتى بلاد الهند والسند، ومن أثينا حتى أواسط آسيا مبشرا بالحضارة اليونانية، وفى رأى المسلمين داعيا إلى التوحيد. وهو ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم، من أجل تكوين إمبراطورية شاملة يحكمها العقل وتُمارس فيها الفضيلة طبقاً لتعاليم أرسطو المعلم الأول. وهو هانيبال عابرا البحر الأبيض المتوسط، وصاعداً جبال إيطاليا حتى يستولى على روما فى الصراع الأبدى بين روما وقرطاجنة، بين أوروبا وأفريقيا، بين الشمال والجنوب، وليس فقط بين الفرس والروم بين كسرى وقيصر، بين الشرق والغرب. وهو صلاح الدين قاهر الصليبيين الذى وحد مصر والشام وانتصر عليهم فى حطين بعد أن طهر الجبهة الداخلية من الخانعين والمستسلمين بدعوى السلام والمحبة مع الأعداء مثل الصوفية، وغلق خانقاتهم وزواياهم حتى لا يمثلوا طابورا خامسا وطعن الأمة من الخلف بأيديولوجية الهزيمة والاستسلام بدعوى عالمية الإيمان وعولمة الروح. وهو فكتور كولمبوس الذى اعتمد على خرائط المسلمين ونظرياتهم فى كروية الأرض للالتفاف حول العالم عبر البحار، والانتقال من أوروبا إلى آسيا، ومن الغرب إلى الشرق عبر المحيطات كمد استعمارى ثان بعد أن فشلت الطعنة الصليبية الأولى عبر المتوسط نحو الأرض، فلسطين عن طريق الغزو البرى. وهو محمد على مؤسس مصر الحديثة، هذا الجندى الألبانى الذى حضر إلى مصر مع الجيش التركى دفاعا عن مصر ضد الغزو الأوروبى، فحول مصر بإدراكه

إمكانياتها الجغرافية والتاريخية وقدراتها المادية والبشرية إلى دولة عظمى فى القرن التاسع عشر تقف أمام أعتى الجيوش الأوروبية دفاعا عن مصر وريثة تركيا فى الخلافة المنهارة، وليحكم من القاهرة بدلا من استانبول. وهو عبد الناصر الذى شارك فى الحركة الوطنية المصرية فى الأربعينيات وتكوينه حركة الضباط الأحرار أثناء حرب فلسطين فى ١٩٤٨، وكرد فعل على هزيمة الجيوش العربية بالقضاء على الأنظمة الملكية الفاسدة والإقطاع، وتحويل مصر إلى مركز للتحرر الوطنى فى العالم العربى والعالم الثالث كله، وقيامه بتأميم القناة فى ١٩٥٦ بعد أن رفضت الولايات المتحدة الأمريكية تمويل السد العالى فى ١٩٥٤. ورأى أمامه ديليسبس جديد على وجه أوجين بلاك مدير البنك الدولى الذى يعرض أمامه شرط التمويل وهو الدخول فى حلف بغداد، والتفريط فى الاستقلال الوطنى.

وتقوم بالمبادرة جماعات المقاومة، والتنظيمات السرية بشق سراديب تحت الأرض للإمداد بالسلاح ولممارسة حرب العصابات ومباغتة قوات العدو، جندا وعتادا من حيث لا يشعر، فتقضى النملة على الفيل، ويقضى الفأر على الأسد كما حدث فى حرب فيتنام ضد القوات الأمريكية، من فلاحين بسطاء فى مواجهة أعتى جيوش العالم عدة وعتادا. كذلك فعلت المقاومة فى جنوب لبنان، وكان آخرها انتصار حزب الله على الكيان الصهيونى بخيال عسكرى وإبداع ميدانى، الفرد فى مواجهة "مركفا" المصفحة الدبابة زهرة الجيش الاسرائيلى، وكما فعل كاسترو فى ١٩٥٨ بمجموعة من المقاومين لإسقاط أعتى نظام تسلطى، نظام باتيستا. وهكذا أيضا فعل ماوتسى تونج فى "المسيرة الطويلة" من قلب الريف زحفا على المدن حتى العاصمة بكين، وهروب تشان كاى تشيك إلى جزيرة فرموزة. وهو ما تقوم به المقاومة الفلسطينية والعراقية الآن ضد الاحتلال الصهيونى لفلسطين، والأمريكى للعراق عن طريق التفجير عن بعد والقنص والانقضاض على العدو من السراديب أو بالطيران الشراعى.

وتقوم بها أيضا الشعوب والجيوش الوطنية كما هو الحال فى الحرب العالمية الثانية وتحرير أوروبا من الغزو النازى والفاشى وكما فعل مونتوجمرى فى معركة العالمين ضد روميل فى حرب الصحراء. وهو ما فعله الجيش المصرى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعبوره القناة وشق الساتر الترابى بمدافع المياه بعد أن ظن العدو الصهيونى أن مصر قد ذهبت إلى غير رجعة، وماتت دون بعث أو نشور. ومازالت إيران وكوريا الشمالية كدول وكنظم شعبية صامدة، دفاعا عن الاستقلال الوطنى وممارسة حرية الإرادة الوطنية وحقها فى امتلاك الطاقة النووية لأغراض السلم أو حتى الحرب فى حالة العدوان عليها. فالغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية مدجج بالسلاح النووى للقضاء على ما تبقى من نظم اشتراكية فى العالم حتى تصبح الرأسمالية هى النظام الوحيد الذى لا بديل له باسم العولمة والعالم ذى القطب الواحد. وتبقى إيران ممثلة لإرادة الصمود أمام قوى الهيمنة والاستعمار الجديد دفاعا عن الهوية الثقافية الوطنية المستقلة. ترفض الدخول فى بيت الطاعة الذى دخلته معظم النظم العربية. تؤيد المقاومة الوطنية فى لبنان والصمود الوطنى فى سوريا.

فقد العرب زمام المبادرة لتوقف الخيال السياسى باسم الواقعية والحكمة السياسية، وبدافع الحذر المبالغ فيه، والبيروقراطية الوظيفية، وحساب المكسب والخسارة على الأمد القصير، و"تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها". غاب الخيال السياسى لحل أزمات العرب فى السودان وفلسطين. وقد كان يمكن لسوريا أن تقفز على الجولان أثناء الحرب العربية الإسرائيلية السادسة التى قادتها لبنان ولتخفيف الحمل على حزب الله، وربما تستيقظ مصر وتنهض من جديد دفاعا عن حبيبة قلبها سوريا، وإحراج الأردن كدولة مواجهة فى معركة العرب الكبرى. كان يمكن للعرب الذين صالحوا العدو سحب السفراء أو قطع العلاقات أو إيقاف التطبيع والتبادل التجارى. بل أعلن البعض أنه لا يمكن أن يفعل شيئا، وأنه غير مستعد للدخول فى معركة. بينما أعلن البعض الآخر أنهم من المغلوبين على أمرهم

أمام إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وبعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ واتهام العرب أمريكا بالتدخل عن طريق الطيران الأمريكى لمساندة القوة الجوية الإسرائيلية وبيان بطلان هذا الاتهام، أجاب موسى ديان بأنه وضع خطته بناء على حدود الخيال العربى. فإسرائيل تمتلك أربعمائة طائرة أطلقتها كلها للقصف الجوى لمطارات العدو ولم تترك طائرة واحدة فى سمائها للدفاع كما تقتضى بذلك الكتب العسكرية والمذكرات المحفوظة، نصف القوات الجوية للهجوم والنصف الآخر للدفاع. وكان باستطاعة العرب بطائرة واحدة الدخول إلى سماء إسرائيل المفتوحة ودك مطاراتها ومدنها. ويبدو أن عقدة ١٩٦٧ مازالت فى اللاوعى العربى توجهه وتخيفه وتحذره من المواجهة. ولم يمحها انتصار ١٩٧٣، ولا المقاومة فى جنوب لبنان، ووقف غزو بيروت فى ١٩٨٢، وتحرير الجنوب فى ٢٠٠٠، ودك المدن الإسرائيلية فى ٢٠٠٦.

توقف العرب عن أخذ زمام المبادرة لتوقف الطموح العربى والشهامة العربية والبطولة العربية. فقد انتهت المشاريع الكبرى التى حملها العرب منذ فجر النهضة العربية حتى الدولة العربية الواحدة، حلم الخمسينيات والستينيات. وانتهى الإحساس العربى بالمثال والتصدر. ونسوا أبى فراس الحمدانى.

نحن قوم لا توسط بيننا ∴ لسنا صدر العالمين أو القبر

بل انتهت المبالغة العربية

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما ∴ تخر له الجبابر ساجدينا

وكان الفارس العربى يبنى قصره وحصنه فى قمم الجبال وليس فى السهول. فقد العرب الإحساس بالأمانة والرسالة، ورضوا أن يكونوا مع الخوالف والقاعدين والتثاقل إلى الأرض. رضوا بالدنيا دون الآخرة، حرصوا على الحياة، وكرهوا الموت والشهادة. لم يعد

يلتزمون بشيء أما النفس وأمام الناس وأمام الله. وهم خير أمه أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. تبلدت الحواس إلى درجة الخيانة والمساومة مع العدو على الأخ العربى كما فعل يهوذا مع المسيح. بل إن المبادرة العربية التى تستخدم اللفظ هى صياغة جيدة لقرار الأمم المتحدة ٢٤٢ وقرار ٣٣٨، ومبادرة روجرز، واتفاقيات مدريد وأوسلو، الأرض فى مقابل السلام ماتت فى مهدها. فقد أتت من موضع ضعف وليس من موضع قوة، استجداء للحق من الغير، وبقوى دولية وليس بقوى ذاتية. ويعرف العدو أنه لا بديل عنها. فماتت فى مهدها. فمتى يستعيد العرب زمام المبادرة لتحريك الزمن وتغيير مسار التاريخ؟

٤- وحدة القاعدة وتفرق القمة

أحد أسباب الأزمة العربية الراهنة وحدة الشعوب وتفرق الحكومات، وحدة القاعدة وتفرق القمة. النضال يوحّد، والسياسة تفرّق كما هو حادث فى فلسطين، وحدة النضال الوطنى أثناء المقاومة وتفرق السلطة الوطنية الفلسطينية بين رئاسة السلطة ورئاسة الوزارة بين فتح وحماس فى مرحلة السلام. والمعارك توحّد وقسمة الغنائم تفرّق كما حدث بعد حرب أكتوبر. فقد وحدت الحرب بين مصر وسوريا. ووقف العرب سندا لهما وقادت السعودية حركة حظر النفط. ثم لعبت السياسة بالنصر فتفرق العرب بعد كامب ديفيد بين معسكر السلام ومعسكر الحرب، بين أنصار كامب ديفيد وجبهة الصمود والتصدى. الدم يوحّد والسياسة تفرّق كما حدث فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة بين المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله والجيش الإسرائيلى بقيادة عامير وحالوتس. انتصرت المقاومة ووحدت لبنان بكل طوائفه والآن يُسلب النصر منها بخلافات السياسيين حتى أصبح لبنان على شفا حرب أهلية لو اشتعل الفتيل وسرت النار فى الحطب الجاف بفعل عميل داخلى أو خارجى. العمل يوحّد والنظر يفرّق. فالعمل له أولوية على النظر (**وقل اعملوا**)، (**يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل**). أما النظر فبطبيعته متعدد. النظر منظور. وتتعدد المناظير طبقا للرؤية. فالعين لا ترى إلا جانبا واحدا من المنظر. تتوحد القاعدة على أن الإصلاح الزراعى ضرورة تحتمها ضيق المساحة المزروعة ثم تختلف القيادة السياسية على تملكها للدولة أم للجمعيات التعاونية أم للأفراد. الغاية توحّد، والوسيلة تفرّق. فلا خلاف على الاستقلال الوطنى عند القاعدة ولكن الخلاف لدى النخبة السياسية فى كيفية الحصول

(*) الاتحاد: ٩ ديسمبر ٢٠٠٦، الدستور: ١١ ديسمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٠ ديسمبر ٢٠٠٦.

عليه بالإرادة الوطنية المستقلة أم بالأحلاف الإقليمية أم بالحماية الدولية والدخول فى محاور الدول الكبرى. المآسى توحّد، والأفراح تفرّق. المآسى تهدد الحياة، والحياة بطبيعتها بها غريزة حب البقاء. أما الأفراح فهى من الكماليات. والخلاف عليها على مستوى الرفاهية. وذلك مثل تضامن الفقراء ومساندة بعضهم لبعض فى الرزق، واختلاف الأغنياء على نهب الأموال العامة وطبقا للمثل العامى المصرى "ما شافوهمش وهما بيسرقوا، شافوهم وهما بيتحاسبوا".

إن وحدة القاعدة هى حركة التاريخ. وهى التى تحافظ على استمرار الأمة بالرغم من تغير النظم السياسية. فمصر باقية منذ آلاف السنين بالرغم مما تتوالى عليها من نظم فرعونية ويونانية ورومانية وعربية، أمويين وعباسيين وفاطميين وطولونيين وإخشيديين ومماليك، وفرنسيين وبريطانيين وأخيرا مصريين، اشتراكيين قوميين أولا، ورأسماليين غربيين ثانيا، وعولميين تابعين ثالثا.

وتفرق القمة هو الذى يوقف مسيرة القاعدة، ويعوق حركتها، ويفتت وحدتها، ويشتت شملها بل ويجزأها إلى كيانات طائفية عرقية حتى يبقى النظام السياسى على أشلاء الأمة. تتفرق القمة من أجل الإبقاء على المناصب الدائمة للملوك والرؤساء والسلاطين وأصحاب السعادة والسمو والمعالى والنيافة والغبطة والجلالة مدى الحياة، مادام القلب ينبض. ويظل كل منهم حاكما على قطر، وقائما على شريحة من الوطن حتى ولو كانت صحراء قاحلة أو مدينة أو بئراً أو منجماً دون أرض أو شعب. ما يهم هو المصلحة الشخصية والسلطة الفردية والثروة الخاصة. قد يتنافسون على الزعامة القومية. وتلعب دولة صغرى، صوتها أعلى من حجمها دور الشقيقة الكبرى، وحجمها أكبر من صوتها. قد يكون الدافع على تفتت القمة حب الظهور وجاه الدنيا والإحساس بالنقص الذى يتحول إلى إلهام من السماء. وقد يطبع التكوين الأمنى للشرطى فى الشرطة أو العسكرى فى الجيش مزاج القائد أو الزعيم بالرغبة

فى السلطة والتسلط، وأن عصا الشرطى أو بندقية الجندى قادرة على التحكم فى مسار الشعوب وفى نظام العالم. قد يولد الزعيم ملكا ابن ملك. فى فمه ملعقة من ذهب. ينحنى أمامه رجال الدولة لتقبيل يديه أو كتفيه أو ذنب أنفه أو حافر حصانه. وقد يكون شيخ قبيلة أو سليل عائلة أو رئيس عشيرة، يحكم باسم العصبية كما قرر ابن خلدون من قبل ونحن نحتفل بمرور ستمائة عام على وفاته بالقاهرة والإسكندرية، بالرغم من خطورة الثروة والملك والعمران والحداثة على العصبية والولاية والنبوة والإمامة والخلافة وكافة المناصب الدينية.

صحيح أن الحق النظرى متعدد، والحق العملى واحد، ولكن التعددية النظرية وهى أساس التعددية السياسية لا تعنى الفرقة والتشتت لأنها محكومة بالإجماع الوطنى وبرنامج العمل الوطنى الموحد الذى يمثل وحدة القاعدة. الخلاف على الوسائل وليس على الغايات، على الطرق والأساليب وليس على الأهداف، على أفضل السبل لتحقيق المصالح العليا للأمة كما هو الحال فى اليابان والصين فيما يسمى بالإجماع التوافقى أو الوفاق الوطنى.

وحدة القاعدة هى الأساس. وفى غيابها يظهر اختلاف القمة. لذلك كانت الوحدة الوطنية أو الائتلاف الوطنى أحد مطالب حركات الاستقلال الوطنى فى كوبا وفيتنام والصين وثورة ١٩١٩ فى مصر. وهو حجر العثرة اليوم فى النضال الوطنى الفلسطينى، وصعوبة تكوين حكومة وحدة وطنية لفك الحصار عن الشعب الفلسطينى. كما تشهد بذلك تجارب المقاومة الشعبية أثناء الاحتلال مثل المقاومة الفرنسية وجبهات الائتلاف الوطنى والخلاص الوطنى والإنقاذ الوطنى.

وقد تشارك فى القاعدة أفراد وجماعات من كل البلدان لوحدة الهدف والمصير كما حدث فى الحرب الأهلية الأسبانية بين الجمهوريين فى الجنوب والملكيين فى الشمال، وتكاتف كل الحركات الجمهورية مع الجنوبيين باسم وحدة النضال العالمى. وحدث نفس

الشىء بالنسبة للحركات الأممية الاشتراكية أو الإسلامية باسم وحدة البروليتاريا العالمية أو وحدة الأمة الإسلامية. ونجاح اليسار فى أمريكا اللاتينية يقوى الحركات اليسارية فى أفريقيا وآسيا، فى الوطن العربى والعالم الإسلامى نظرا لوحدة الهدف المشترك فى مقاومة الرأسمالية العالمية والهيمنة الأمريكية وقوانين السوق باسم العولمة والعالم قرية واحدة، وثورة الاتصالات.

والحالة الراهنة فى الوطن العربى هى كذلك، وحدة القاعدة وتفرق القمة، وحدة الشعوب وتناقض النظم. بل إن النظم أصبحت هى العائق الأول على تحقيق الأمانى القومية فى التحرر الوطنى والحريات العامة والعدالة الاجتماعية ووحدة الأمة، والتنمية المستدامة، والهوية القومية، وحشد الناس. ويبدو ذلك فى خلافات مؤتمرات القمة العربية ووقوعها بين المطرقة والسندان، بين آمال القاعدة فى الحرية والاستقلال والضغوط الخارجية من أجل الهيمنة والتبعية.

وعندما يفقد الوطن العربى مركز ثقله وقلبه فى مصر تفقد الأطراف أيضا اتزانها. وتستقطبها قوى الهيمنة مثل أمريكا وإسرائيل لإدخالها فى مناطق نفوذها. فبدلا من أن يصبح الوطن العربى مركز العالم تتجاذبه قوى الشرق والغرب. ويصبح الخليج أسيويا، والمغرب العربى أفريقيا أو غربيا، مستقطبا نحو الجنوب مثل ليبيا أو نحو الشمال مثل تونس والجزائر والمغرب. والهجرة إلى الشمال عامل على ذلك. وربط المغرب بأسبانيا عن طريق النفق البحرى يربط أفريقيا بأوروبا كما ربط النفق المائى تحت بحر المانش بين أوروبا وانجلترا. وكما ربطت قناة السويس من قبل بين أفريقيا وآسيا بالإضافة إلى جسر الصداقة الجديد فوق القناة.

فهل تستطيع القمة أن توحد نفسها مثل القاعدة وأن تصبح قمة قاعدية؟ وهل تستطيع القاعدة أن تفرض وحدتها على القمة وأن تصبح قاعدة أممية؟ ألا تستطيع حرية الفرد وديموقراطية الحكم أن تقرّب بين القمة والقاعدة بحيث تصبح القمة تعبيرا عن القاعدة، وتصبح القاعدة قائدة للقمة؟

٥- اختراق الوطن العربى

إن شرط مواجهة الخطر الخارجى هو إعداد الجبهة الداخلية كما فعل صلاح الدين إزاء الغزو الصليبى عندما بدأ بالتخلص من دعاة الهزيمة فى الداخل وأدعياء التصوف، وتوحيد مصر وسوريا. وأحد أسباب غزو الوطن العربى اليوم وحصاره وتهديده هو تفتت الجبهة الداخلية "أُكلت يوم أكل الثور الأسود".

والوطن العربى الآن مخترق، أشبه بالجبن السويسرى، مملوء بالفراغات الداخلية بالرغم من تماسكه الخارجى، وجود ينخر فيه العدم بتعبير جان بول سارتر، تفاحة مخوخة من الداخل بتشبيهه أيضا. الهيمنة عليه ليست بسبب القوة المهيمنة من الخارج بل بسبب ضعفه من الداخل، مثل العين والمخرز بتعبير طيب تيزينى.

وتتمثل نقاط الضعف فى الوطن العربى فى سيادة القطرية، "مصر أولا"، "الأردن أولا"، "الكويت أولا". وهو ما أدى إلى الصلح المنفرد مع إسرائيل بداية بمصر فى كامب ديفيد. فسيناء لها الأولوية على الضفة والقطاع والقدس والجولان. ثم الأردن فى وادى عربة. فالسلام مع إسرائيل يؤدى إلى الرخاء ورضا الغرب، وجذب السياحة. ثم موريتانيا لتضمن الحماية الغربية وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية لتنفيذ مشاريع التنمية. رفضت إسرائيل المفاوضات مع العرب مجتمعين وفى وقت واحد لأنها تعلم أن الوحدة قوة، وأن الفرقة ضعف، وأنها تستطيع أن تملى إرادتها على كل قطر عربى بعد أن تستفرد به أكثر مما تستطيعه والعرب مجتمعين. ولا تريد إسرائيل ولا الغرب العودة إلى الناصرية والقومية التى

(*) الاتحاد: ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٦.

لا تفرق بين سيناء والضفة والقطاع والجولان.

ومن مظاهر الاختراق تأخر الإصلاح، وتفجير المجتمع العربى من الداخل بعد أن زاد الضغط عليه من الخارج. وكلما تأخر الإصلاح، وتوقف الحراك الاجتماعى الطبيعى تكونت حركات العنف المسلح من أجل التخلص من نظم القهر والفساد فى الداخل والتبعية للخارج. ويهرب المواطنون إلى الخارج. ويكونون حركات معارضة تستقطب القوى الأجنبية بعضها لتجنيدهم فى النظم القادمة بعد انهيار النظم الحالية. وتنشط المعارضة فى الخارج، ويصبح المجتمع محاصرا إعلاميا من الخارج ومهدد بالسلاح من الداخل.

ومن مظاهر الاختراق شق الصف الوطنى إلى حد الحروب الأهلية بين أبناء الوطن الواحد، وانشغال التيارات السياسية بالاقتتال فيما بينها بدلا من مقاومة الغزو ومظاهر الهيمنة فى الخارج. حدث ذلك فى لبنان والجزائر ومازال يحدث فى السودان. فقد دمرت الحرب الأهلية لبنان أول مرة. وانتهت باتفاق الطائف. ثم انقسم بين أكثرية ومعارضة بعد انتصار المقاومة بقيادة حزب الله على العدوان الإسرائيلى فى الجنوب. كما اندلعت الحرب الأهلية فى الجزائر. وكلفت أكثر من مائة وخمسين ألف قتيل، وقد شارفت على النهاية بعد اتفاق الوئام الوطنى. واشتعلت الحرب الأهلية فى السودان بين الشمال والجنوب على مدى عشرين عاما، ومازالت رحاها دائرة فى دارفور. وقد اقتربت من نهايتها بالمصالحة الوطنية فى الجنوب، وهى على وشك الانتهاء فى دارفور بعد اتفاق أبوجا. غاب الحوار الوطنى فى الداخل. واقتتلت فرق الأمة. وقد ضاعت الأندلس من قبل بسبب الاقتتال بين ملوك الطوائف وتحالف بعضها مع القوى الخارجية.

ومن مظاهر الاختراق وجود قوات أجنبية على أرض الوطن بالغزو المباشر مثل العراق أو بوجود أساطيل وقواعد وقيادات لها فى مياه الخليج. لم يعد الوطن مستقلا حتى بالمعنى الأول للاستقلال وهو إخراج القوات الأجنبية من الأوطان. قامت هذه القوات بغزو

الوطن من داخله وبالقرب منه. ومازالت مستعدة لذلك لتقفز منها على دول الجوار. أصبح الوطن العربى مستباحا لمن يريد الغزو أو التهديد أو الحصار. وفلسطين أرض مستباحة يعبث بها العدو الصهيونى كما يشاء، قتلا وتدميرا وتجويعا وحصارا. وعادت سياسة الأحلاف منذ رفض العرب حلف بغداد فى الخمسينيات والحلف الإسلامى فى الستينيات. وبدأ تصنيف العرب إلى متطرفة ومعتدلة، يواجه بعضهم بعضا. ويتم التنسيق بين الدولة المعتدلة ضد الدولة المتطرفة. وقد يُقسم الوطن مذهبيا وعرقيا من داخله إلى شيعة وسنة وإلى أكراد وعرب وبربر وأفارقة. اخترقت الأحلاف والتكتلات الأوطان. وأصبحت أخطر من القواعد العسكرية الثابتة.

ومن مظاهر الاختراق استسلام بعض النظم التى كانت ترفع صوتها بالرفض وبضرورة مقاومة الاستعمار والصهيونية تمسكا بالحلم العربى القديم وتأكيدا على الناصرية وأمانة القومية العربية. تنفى ضلوعها فى حوادث العنف ثم تثبتها وتدفع التعويضات بالملايين، وتطرد الفلسطينيين مادام قد أصبح لهم شبه وطن. وتنصح بالاعتدال بعد أن كان يضرب بها المثل بالتطرف. وتدعو إلى التخلى عن القدرات النووية بعد أن كانت تسعى إليها وتستوردها وتضعها فى صناديق حتى يحين الأوان. أعادت علاقاتها بالغرب واتجهت نحوه لإقامة مشاريع مشتركة للاستثمار بعد أن لم ينجح التعاون مع الشرق فى التسليح والتصنيع وبناء النهر العظيم. وتنتقل من الساحة العربية إلى الساحة الأفريقية. فأفريقيا وليست آسيا فضاء طبيعى للمغرب العربى.

وقد يحدث اختراق آخر للأطراف وإغرائها بالدخول فى العولمة لمزيد من العوائد لعائدات النفط بعد استثمارها، ومد قناة بحرية من البحر الميت عبر إسرائيل إلى البحر الأبيض المتوسط بدلا من قناة السويس. والقوى العظمى الدولية والمحلية قادرة على حماية النفط من الطامعين فيه. وأحد المدن مؤهلة الآن لأن تكون هونج كونج العرب، حلقة

الاتصال بين الشرق والغرب، منطقة خدمات وليست منطقة إنتاج، منطقة تجارية حرة وليست منطقة صناعية مبدعة.

ويمكن سد فراغات الوطن العربى بوحدته ولحمته وممارسة سياسة الحماية الذاتية. وإذا كانت أوروبا استطاعت أن تقيم الاتحاد الأوروبى بعد قرنين من الحروب بين أقطارها فكيف لا يستطيع العرب أن يقيموا وحدة مصالح بين أقطارهم، على الأقل شنجن عربى وسوق عربى مشترك، ودفاع عربى مشترك، وتضامن عربى مشترك؟ لماذا يتأخر العرب فى الإصلاح السياسى، حرية الفرد، وديموقراطية الحكم، والتعددية الثقافية والسياسية ويظل خطر القهر والاستبداد قائم؟ لماذا لا تنشأ محافظات التكامل على الحدود المتنازع عليها من أجل تآكل الحدود المصطنعة من خلال الحركات الشعبية وتأكيد أن الهوية لا تأتى من الجغرافيا بل من التاريخ، لا تأتى من حدود مصطنعة بل من تراكم تاريخى بلا حدود؟ إن العالم العربى قادر على حماية ذاته بذاته دون حاجة إلى إقامة قواعد عسكرية ثابتة فى بحاره وعلى أرضه.وهو قادر أيضا على التمسك بالتواصل المشترك منذ عصر تحرره من الاستعمار القديم فى الخمسينيات و الستينيات إلى مقاومة أشكال الاستعمار الجديد منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن. ويستطيع الوطن العربى حماية أطرافه من جذب مراكز أخرى لها خارج الوطن العربى، ومصر مركزه وقلبه حتى لا تتآكل عروبة الأطراف فى الآسيوية شرقاً والأفريقية جنوباً، والغربية شمالاً. ألا تحتاج الأمة العربية إلى وعى عربى جديد كما كتب نجيب عزورى "يقظة الأمة العربية" منذ قرن من الزمان؟

٦- الخطر على الخليج... من أين؟

مازالت العروبة تنبض فى قلب كل عربى. بل إنها تنتفض هذه الأيام من اختراق الوطن العربى وتجزئته إلى كيانات طائفية ومذهبية وعرقية بداية بالعراق والسودان، مرورا بلبنان وسوريا والخليج والمغرب العربى، ونهاية بمصر. فالأرض تنقص من أطرافها أولا قبل الوصول إلى القلب وهو يحتضر من أجل الإجهاز عليه (**أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**).

والخطر الحالى على العراق، والدائم على فلسطين، والماثل على السودان، والآتى على لبنان، والأخطر على الخليج. وتتعدد الرؤى من أين يأتى الخطر على الخليج، من محيطه الإقليمى خاصة من الشرق، إيران، أم من الشمال الغربى، إسرائيل، أم من نظام العالم الجديد فى عصر الهيمنة الأمريكية بالرغم من مؤشرات تراجعها، الولايات المتحدة الأمريكية؟ وقد يأتى الخطر من وضعها الداخلى، الهجرات الأسيوية، الدولة الريعية، التردد فى إثبات الهوية بين الشرق والغرب، وتحديد الرسالة، التجارة أم الأمانة. وتتعدد الآراء بتعدد الولاءات السياسية والربحية والمصالح الشخصية والفئوية. فهل يستطيع البحث العلمى الموضوعى أن يحدد من أين يأتى الخطر على الخليج؟ وهل يستطيع الحوار الهادئ والمصلحة العامة والهم القومى المشترك أن يحدد مصدر الخطر دون اتهام أو تخوين؟

إن ضعف العرب لا يعنى بعثرتهم أو غيابهم، بل يعنى فقط لحظة عابرة فى تاريخهم، قد تكون الأسوأ. وإن غياب مصر عن أن تكون مركز جذب للأطراف ومحيطها الإقليمى لا

(*) الدستور: ٢١ ديسمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١١ فبراير ٢٠٠٧.

يعنى السعى نحو البديل فى مراكز أخرى حتى لو كانت إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا تتكرر مأساة الجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا عندما ضعفت بغداد ثم انهارت الخلافة فى اسطنبول فانجذبت نحو موسكو كمركز بديل. وقد حدث أيضا ذلك فى دول أوروبا الشرقية مثل ألبانيا والبوسنة والهرسك بعد سقوط الخلافة عندما انفصلت عنها وأصبحت جزءا من أوروبا الشرقية. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى انضمت إلى أوروبا الغربية.

فمن أين يأتى الخطر على الخليج؟ لا يأتى الخطر من الجنوب. فالخليج جزء منه ممتدا من الكويت حتى عُمان. جنوبه بحر العرب، ولا يأتى الخطر من العرب. ولا يأتى من الغرب، فالملكة العربية السعودية غربه وهو جزء من شبه الجزيرة العربية، وعضو فى "مجلس التعاون". أتى الخطر من الشمال، من غزو العراق للكويت فى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠. وكان جزاء العراق تدميره بحجة تحرير الكويت ثم احتلاله بحجة القضاء على أسلحة الدمار الشامل، ثم تجزئته وتفتيته بحجة الصراع المذهبى والطائفى والعرقى. كان الهدف الحقيقى القضاء على أكبر قوة عسكرية عربية ونموذج تنموى حماية لإسرائيل بإضعاف الجبهة الشرقية وفصل إيران جغرافيا عن سوريا بقطع العراق. وانتهى الخطر بنهاية النظام العراقى، كما انتهت القومية العربية كنظام سياسى تسلطى ابتداء من هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، ونهاية بغزو العراق للكويت فى أغسطس ١٩٩٠.

فهل يأتى الخطر هذه المرة من الشرق، إيران؟ هل هو خطر واقع أم خطر متوهم؟ لم يحدث أن هددت الثورة الإسلامية فى إيران الخليج. وانتهى عصر تصدير الثورة بعد رحيل الخمينى وحمية الصحوة الإسلامية. بل جعلت "إيران الثورة" اللغة العربية اللغة الأجنبية الأولى فى المدارس. ورفضت مصر مدها بمئات من المدرسين. ولم تفعل مع إيران ما فعلته مع الجزائر من قبل من أجل تعريب الجزائر بعد الاستقلال فى ١٩٦١ فى مواجهة الفرانكفونية،

وكما فعلت مع اليمن بعد الثورة اليمنية فى ١٩٦٤ ضد الأمية. وكانت فرصة لتعريب إيران بدلا من الخلاف حول تسمية الخليج، العربى أو الفارسى. لقد احتلت الجزر الثلاث فى عصر الشاه، وليس بعد الثورة الإسلامية. ويمكن إيجاد حل لها بروح الأخوة الإسلامية التى لا تعترف بالحدود الجغرافية. فالمسلمون أمة واحدة، وتصور عبد الناصر لمحافظات التكامل بين مصر والسودان وبين كل قطرين عربيين ترك الاستعمار بينهما خلافات حدودية مثل الجزائر والمغرب على واحة تندوف، ومصر وليبيا على واحة جعبوب، ومصر والسودان فى حلايب وشلاتين، واليمن والسعودية على عسير ونجران، والإمارات وعمان على واحة البريمى، والكويت والعراق على آبار النفط، وسوريا والأردن على وادى الحمة، والمغرب وموريتانيا على الصحراء، والكويت والسعودية على المنطقة الدولية المنزوعة السلاح ...الخ.

لم تعتد إيران على الخليج كما اعتدى النظام العراقى السابق على الكويت. بل إن بعض نظم الخليج دعمت إيران فى عدوان العراق عليها كما دعمت العراق. ولم تأت الهجرات السكانية التى تهدد عروبة الخليج من إيران بل من باكستان والهند والفلبين وأندونيسيا ومن جنوب شرق آسيا عامة. ولا يمثل التشيع أى خطر على الخليج الذى نصفه شيعى، عرب شيعة يساهمون فى بناء الأوطان، والدفاع عن مصالح شعوبه. والخلاف إرث قديم تصدت له محاولات "التقريب" منذ الشيخ شلتوت والإمام القمى. ولا أحد من عامة المسلمين يعرف هذا الخلاف أو يحمل هذا الوزر. المسلمون بكافة طوائفهم أمة واحدة لا تفرق بينهم الخلجان أو البحار، الأنهار أو المحيطات، تضاريس الأرض من جبال وسهول وجزر. لهم إرث ثقافى وحضارى مشترك، ساهم فيه الجميع. والعرب على ضفتى الخليج، فى شبه الجزيرة العربية وفى الأهوار والعتبات المقدسة، كربلاء والنجف فى العراق. ومصر شيعية فى ثقافتها بحب آل البيت، ومالكية أو شافعية فى فقهها بواقعيتها واتزانها.

بقت أسطورة الخطر النووى الإيرانى التى يضخمها الإعلام، ويؤسسها الغرب. وهو

خطر وهمى لأسباب عملية وأيديولوجية. فكيف يهدد النووى الإيرانى الخليج وإيران هى أول المتضررين بالإشعاع النووى نظرا لقرب المسافة بين الاثنين؟ ولماذا تهدد إيران الخليج والشيعة على ضفتى الخليج، والمسلمون سنة وشيعة حرام دماؤهم وأعراضهم وأموالهم؟ وهل يهدد الخليج إيران حتى تنتقم إيران من الخليج؟ وتمتلك باكستان والهند السلاح النووى ولا يهددان الخليج. النووى الإيرانى موجه ضد إسرائيل التى تهدد إيران منفردة أو بالتعاون مع الولايات المتحدة. وهو موجه أيضا ضد الولايات المتحدة الأمريكية التى تهدد إيران بالعدوان كل يوم للقضاء على حقها فى امتلاك الطاقة النووية كما فعلت مع العراق بغزوها وتدميرها تحت ذريعة تدمير أسلحة الدمار الشامل. إن النووى الإيرانى ظهير للعرب والمسلمين، وسند لهم، ودفاع عنهم فى مواجهة الخطر النووى الإسرائيلى الذى صرح رئيس الوزراء الإسرائيلى بأنه يمتلك السلاح النووى، مائتى رأس نووية كما صرح بذلك الجاسوس الإسرائيلى فانونو. إن الخطر النووى على الخليج يأتى من إسرائيل أو من الولايات المتحدة الأمريكية أو من كليهما معا للاستيلاء على آبار النفط فى حالة ما إذا تم تهديد النظام العالمى الأحادى القطب وأصبحت المصالح الإسرائيلية الأمريكية فى المنطقة فى خطر.

وقد يأتى الخطر على الخليج من الداخل من التركيبة السكانية للخليج والهجرة الأسيوية المتزايدة والتى بلغت أكثر من ثلاثة أرباع السكان حتى كادت أن تمحو عروبة الخليج فى الحياة اليومية واللغة العربية فى الأسواق. وطالما تستعمل أمريكا المنظمة الدولية لحسابها فقد تصدر قرارا يجعل هذه الهجرات سكانا أصليين لهم حق المواطنة فيتغير نظام الحكم لصالحهم. ويصبح الخليج العربى امتداد لآسيا فيه. والعمالة العربية قادرة على إحداث التوازن فى التركيبة السكانية وليس طمعا فى مال أو فرص عمل. قد يأتى الخطر من الدولة الريعية والاعتماد على مصدر واحد للثروة هو النفط، ودون تحويل عائداته إلى صناعة فى حالة نفاذ النفط أو مصادرة العوائد فى البنوك الأجنبية حتى لا تمول دول الخليج

الإرهاب! وقد يأتى الخطر من مظاهر الحداثة المستوردة التى ليس لها رصيد فى التاريخ والثقافة، وهى مؤذنة بخراب العمران كما يقول ابن خلدون وتصبح الأرض (**خاوية على عروشها**) والبنايات الفارهة (**هشيم تذروه الرياح**).

والأخطر من ذلك كله أن يتغير رؤية الخليجيين للعالم، التجارة قبل السياسة، والربح قبل الرسالة، ورغد العيش قبل القضية، والاستهلاك قبل الأمانة. دبى هونج كونج العرب. والخليج حلقة اتصال وخدمات بين الشرق والغرب. وعائدات النفط مصدر استثمار فى العالم. كل ذلك من أجل الالتفاف حول قضية فلسطين. تخسرها مصر والأردن من دول الطوق سياسيا وموريتانيا من دول المحيط سياسيا، ويخسرها الخليج اقتصاديا وربحيا. والحجة عصر العولمة.

وإذا كان إعلان دمشق لم يتم تفعيله للدفاع عن الخليج وأمنه السياسى والاقتصادى والثقافى فإن العربى عربى مهما عصفت به الأحداث. هويته العربية مازالت صامدة مادام المتنبى شعره، والقرآن رسالته، والعقال رمزه، وقيم البداوة خلقه قبل الإسلام فى حلف الفضول، وبعده فى عروبة اللسان.

الفصل الثانـــى

الوطـــن والمواطـــن

١- الأوطان الطاردة.

٢- الدولة الأمنية.

٣- أين يذهب اللاجئ العربى؟

٤- أين العرب؟

٥- العرب والهرب.

١ـ الأوطان الطاردة

ظاهرة استفحل أمرها فى القاهرة وربما فى عواصم عربية أخرى، ظاهرة الأوطان الطاردة. الوطن يطرد أبناءه، ويخرج أحشاءه. فيصبح الوطن طاردا، والمواطن مطرودا.

قبل السبعينات كانت الهجرة خارج الأوطان محدودة. لا يقدر عليها إلا الكوادر العليا، كيف دون كم، مع أقل قدر من الاحترام فى السفارات والقنصليات الأجنبية. كانت الفكرة الشائعة ارتباط المصرى بوطنه، والفلاح بأرضه. يشكو غربته إذا غادر قريته إلى المدينة. فى حين كانت الهجرة منذ القرن التاسع عشر عادة بر الشام فى سوريا ولبنان إلى أقصى بلاد الأرض، أمريكا اللاتينية، البرازيل والأرجنتين فى جنوب نصف الكرة الغربى. وأبدعت أدب المهجر بكل ما فيه من سمات الرومانسية والحنين إلى الأوطان. فى حين لا يوجد أدب مهجر مصرى.

وقد تنوعت أسباب الهجرة منذ السبعينات حتى الآن منها البحث عن الرزق ومجال أوسع للعمل من المهنيين والكوادر العليا الذين ضاقت بهم بيروقراطية البلاد وعدم فاعليتهم كأصحاب علم وخبرة. ومنهم الآن الجراحون وعلماء الطبيعة والاقتصاديون العالميون. يعتلون أعلى المناصب فى الجامعات والمؤسسات ومعاهد البحث العلمى والمنظمات الدولية. ويحصلون على الجوائز العالمية. وهم مطرودون خارج الأوطان. ومنها الخلاف السياسى مع نظم الحكم ومطاردتهم داخل الأوطان. بل والبحث عنهم أحياء أو أمواتا، من الإخوان أو

(*) الاتحاد: ٢٦ فبراير ٢٠٠٥، الدستور: فبراير ٢٠٠٥.

الشيوعيين. وانتهوا إلى ترك السياسة والانخراط فى المجتمع الجديد. وأصبحوا من رجال الأعمال الناجحين باستثناء البعض منهم الذى استمر فى نشاطه السياسى على المستوى الدولى بإمكانيات أكبر وبحريات بلا حدود فى المجتمعات الغربية التى يعيشون فيها. وقد اتسعت وتيرة هجرة بعض أقباط مصر خاصة إلى استراليا وأمريكا وكندا بحثا عن الرزق وإن غُلف ببواعث طائفية طلبا لمزيد من الحرية للهويات الدينية. وأخيرا اتسعت ظاهرة العمالة المهاجرة غير المتخصصة خاصة فى دول الخليج والسعودية وأحيانا الأردن وليبيا. فالتعمير مطلوب. والتعليم واجب.

والوطن الطارد هو الوطن المفكك الذى فقد قدرته على الجذب. وغاب مشروعه الوطنى. وانهارت تجارب حداثته المتعددة. والمواطنون كالأنقاض فيه تتدحرج هنا وهناك بعد أن انهار البناء كى تُبنى من جديد فى مكان آخر. الوطن الطارد فقد قلبه وغاب عقله، وتجمدت أطرافه. وقد تتقطع أوصاله حتى يتحول كله إلى أقليات وسط عالم يتوحد مركزه، وتتفتت أطرافه باسم العولمة.

وإذا كان العمل مشروعا، وأرض الله واسعة، وما من دابة فى الأرض إلا وعلى الله رزقها إلا أن الطريقة التى يتم بها طلب الهجرة تنال من احترام المواطن لنفسه، وتقلل من هيبة الوطن وكرامته. فالطوابير أمام السفارات فى القاهرة من الصباح الباكر فى الشوارع وعلى الأبواب الحديدية، ووراء شرطة الأمن الخاصة والعامة، وخلف الحواجز الحديدية وكأنها زيارة الأهالى إلى الأبناء المعتقلين فى السجون ودور الأمن. والانتظار وقوفا فى الشوارع، فى برد الشتاء وقيظ الصيف، بلا قاعات انتظار أو مقاعد للجلوس إلا فى حالات قليلة. وحارسوا السيارات يساومون على التقدم فى الطوابير بثمن خاص، وبأسبقية الحجز لأنهم أصدقاء الحراس أو بوابى السفارات. ووراء النوافذ موظفون مصريون، غلاظ شداد، يعقّدون أكثر مما يحلون. ويرفضون أكثر مما يقبلون. ويؤجلون أكثر مما يشهلون. فالأوراق

ناقصة، وغير مصدقة، وشهادات البنوك غائبة، والدعوات غير واضحة، والكفيل غير معلوم. وإن كان المتقدم سعيد الحظ قبلت أوراقه وعليه الانتظار حتى يأتى الرد أو يتحدد موعد المقابلة أو الاتصال هاتفيا على رقم لا يعمل أو مشغول طيلة الوقت أو يتحول بصوت آلى من رقم داخلى إلى رقم آخر حتى تدور الدائرة مرة ثانية. ولابد من التأمين. والشركة على الناصية حتى يمكن علاج المهاجر إذا ما حدث له مكروه. والآن لا يستطيع طالب الهجرة أو التأشيرة الاقتراب من القصور الفخمة فى الزمالك أو من الشقق الفاخرة فى البنايات الجديدة إلا بموعد سابق قد يأتى بعد أسابيع أو أشهر حتى وإن فات موعد المؤتمر أو وقت الصفقة. وصورة المواطن المسكين فى ذهن القنصليات الأجنبية الذى بيده أوراق اعتماده أنه ليس فقط مهاجرا طالبا الرزق بل هو إرهابى يمارس العنف. ويريد الهجرة بطرق غير شرعية. هو أولا ثم أسرته وأقاربه وجيرانه وأهل قريته بعد ذلك. لا فرق بين هجرة ومؤتمر، بين عامل وأستاذ، بين عاطل وعالم. والمستشار الثقافى لا يستطيع أن يفعل شيئا إلا من خلال القنوات الرسمية. وكذلك المستشار السياسى لا يستطيع أن يفعل شيئا أمام أمن وطنه.

وفى نفس الوقت الذى يطرد فيه الوطن مواطنيه يجذب عمالة أسيوية خاصة فى الخليج حتى يأمن الخطر السياسى من العرب، قوميين أو إسلاميين أو ليبراليين. ويأتى بعمالة أسيوية، ذكورا بلا إناث، عوائل بلا أسر تحت رحمة الكفيل وحجز جواز سفره. يسيطرون على الأسواق والأعمال اليدوية فى الزراعة. وقليلا ما يتكلمون العربية. وقد يحدث تنافس بين المجموعات المهاجرة على فرص العمل إذ لا يجمعهم جامع إلا الرزق وليس الوطن أو الأمة.

وينتقل المهاجر من جحيم إلى جحيم، من جحيم الوطن الطارد إلى جحيم الغربة وغياب الوطن البديل. يعمل كأجير فى غير وطنه. ويصبر على الضيم وهضم الحقوق، وسوء المعاملة، وصعوبة تسوية أوراق العمل والهجرة. يعيش مع ذويه فى محميات عربية أو أسيوية

ويخلق الوطن البديل من داخله، صورة مصغرة للوطن الطارد، طالما أن الوطن البديل لم يستوعبه ولم يقبله، وطالما أنه لم يندمج فيه فيتحول الوطن الطارد فى الداخل إلى جيتو فى الخارج لأن الوطن البديل أيضا وطن طارد يرفض أن يندمج الأجنبى فيه. فالوطن البديل فى الغرب عنصرى فى اللون، ومركزى فى الثقافة. لديه عقدة تفوق تجاه الجميع. يتحقق الهدف المادى، إشباع الحاجات الأساسية، ولكن يظل البؤس الروحى. يحن إلى الوطن الأم ومآسيه. ولا عزاء عنه فى وفرة الوطن البديل.

وانتهت كل المحاولات لربط المهاجرين بالوطن الأم إما عن طريق المشاركة فى نهضة الأوطان بالعلم أو الإنتاج، بالنهضة أو الاستثمار إلى الخطابة وكلام الندوات وإعلانات الصحف. ولم تتجاوز الجنسية المزدوجة لسهولة السفر والتنقل. لم يتحول الشتات إلى "عاليا" كما هو الحال لدى المهاجرين إلى إسرائيل، وجنسية اليهود المزدوجة بين الوطن الأم الذى هاجر منه والوطن البديل الذى هاجر إليه. ويصعب أن يتحول الولاء المزدوج إلى الولاء إلى الوطن الأصل.

لقد حاول العراق بناء مدينة العلماء. ودعا كل العلماء العرب فى الأوطان الطاردة أو الأوطان البديلة إلى الحضور لبناء عراق المستقبل. وانزعجت إسرائيل. واغتالت يحيى المشد عالم الذرة المصرى فى العراق حتى تظل هى وحدها كعبة العلماء من المهاجرين اليهود. ومازالت حتى الآن الأوطان طاردة لمواطنيها ليس فقط إلى الخارج، بل أيضا إلى الداخل فى جماعات سرية تحت الأرض تمارس العنف بين الحين والآخر. فالهجرة إلى الخارج وإلى الداخل، إلى العالم وإلى النفس. الأولى هجرة إلى أهل الكتاب. الثانية هجرة من بلاد الكفر.

فهل تتدخل وزارات الخارجية فى الوطن العربى لحماية مواطنيها من طرق طلب الهجرة وأساليبها دفاعا عن كرامة مواطنيها؟ وهل طوابير الخبز تمتد أيضا إلى طوابير الهجرة؟ وهل سوء معاملة جهاز الدولة للمواطنين يبرر سوء معاملة القنصليات الأجنبية لهم وكأننا عدنا إلى عهد الاستعمار القديم؟ وإن قيل قديما: "لا كرامة لنبى فى وطنه" فهل يقال حديثا: "لا كرامة لمواطن فى وطنه"؟

٢ـ الدولــة الأمنية

عـرف تراثنـا الفلـسفى الـسياسى القـديم أنواعـا مـن المـدن سماهـا الفـارابى المدينـة الفاضلة التى يحكمها العقلاء ويعيش فيها الناس سعداء، والمدينة الجاهلة عكسها. وهى على أنواع. المدينـة الجاهليـة التـى لا تعى شيئا ولا تـرى شيئا ولا تبصر شيئا مـن عواقـب الأمـور. والجهل ليس مصدرا من مصادر العلم. والمدينة البدالة التى كانت مدينة فاضلة ثم انقلبت على نفسها وتحولت إلى مدينـة مضادة. ومدينـة الخسة التـى لا يحكمها مبدأ ويـتحكم فيهـا الأراذل والأشرار. والمدينة الفاسقة التى يتحكم فيها الفساد والمال والنهـب والسلب وتهريب الأموال. والمدينة الضالة التى حادت عن الطريق وخرجت على ثوابت الفضل. وأخيرا مدينة التغلب التى تقوم على الغلبة والقوة وتعتمد على العسكر والشرطة فى الداخل قبل الخـارج، مدينة التسلط والقهر والطغيان.

كمـا عـرف التـاريخ الـسياسى الحـديث عدة دول فـى الغـرب وفـى الـشرق علـى الـسواء. منهـا الدولة الليبراليـة التـى تقـوم علـى الحريـات العامـة للمـواطنين، حريـة الفـرد وديموقراطيـة الحكـم، والعقـد الاجتمـاعى بـين الحـاكم والمحكـوم، والفـصل بـين الـسلطات، وحقـوق الإنـسان والمواطن. وأصبحت أشهر نموذج للدول. يقدمها الغرب لغيره من الشعوب حقا أو بـاطلا نظرا للمعيار المزدوج الذى يمارسه، تفرقةً بين الشعوب والثقافات.

وقد تحولت الدولـة الليبراليـة بمـا تمخض عنهـا مـن نظـام رأسمـالى إلى دولـة الرفـاهيـة أو

(*) الاتحاد: ٢٨ مايو ٢٠٠٥، الدستور: مايو ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢٩ مايو ٢٠٠٥.

الوفرة نظرا لفائض الإنتاج لديها بعد إشباع الحاجات الأساسية للشعب. وهو النموذج الذى تدعيه الولايات المتحدة والدول الاسكندنافية بالرغم من وجود الفقر فى الولايات المتحدة فى أبالاشيا ولدى الأمريكيين من أصل أفريقى، وجماعات المهاجرين من أصل أسبانى، الشيكانو، وكثير من الأقليات، وبالرغم من سوء معاملة المهاجرين العرب خاصة المغاربة فى البلاد الشمالية.

وفى مقابل ذلك أعطى الشرق نموذج الدولة الشمولية التى تعطى الأولوية فيها للنظام على الفرد، وللأيديولوجيا على الرفاهية، وللسلطة على الشعب. وقد انهارت هذه الدولة بانهيار النظم الشمولية ابتداء من أوروبا الشرقية حتى الاتحاد السوفيتى السابق.

أما نحن العرب فقد أعطينا نظما لدول أخرى. بدأناها بالدولة الوطنية التى أسسناها بعد حركات التحرر الوطنى. وأحيانا تسمى الدولة الوطنية الحديثة على نموذج الدولة الوطنية فى أوروبا. بعد انهيار الإمبراطوريات الأوروبية وانهيار الإمبراطورية العثمانية. وأصبحت نموذجا للدولة المناهضة للاستعمار والصهيونية باعتبارها نوعا من الاستعمار العنصرى الاستيطانى فى فلسطين وجنوب أفريقيا. وهى الدولة التى تقوم على التخطيط الاقتصادى، والقطاع العام، ودعم المواد الغذائية للطبقات الفقيرة، والتصنيع، ومجانية التعليم، وتحديد إيجار المساكن، وتوفير العمل لكل الخريجين، والتأمين الصحى والضمان الاجتماعى، وتحالف قوى الشعب العامل فى حزب طليعى تقدمى واحد.

ثم بدأت هذه الدولة الوطنية فى الانهيار التدريجى على مدى نصف قرن. وانقلبت على نفسها. وتحولت إلى ثورة متحالفة مع الاستعمار، متصالحة مع الصهيونية ومعترفة بها، وبيع القطاع العام إلى القطاع الخاص، والاستيراد، ورفع الدعم عن الطبقات المحرومة فى الغذاء والسكن والصحة والتعليم، وإنشاء المدارس والجامعات الخاصة، وازدياد معدل البطالة. وتحول الحزب الطليعى إلى حزب حاكم واحد يقوم بأشد أنواع القهر باسم الأغلبية

بعد تزوير الانتخابات. فنشأت لدينا الدولة التسلطية التى تحكم باسم الملكية أو العسكرية، باسم قريش أو الجيش، دون بيعة حرة من الناس ودون اختيار حر بين مرشحين. تحكم بقانون الطوارئ والأحكام العرفية.

كما عرف العرب أخيرا "الدولة الرخوة" التى فقدت عصبها وصلبها. وأصبحت تابعة للخارج، حدودها مفتوحة لقوانين السوق. وإرادتها الوطنية المستقلة مفقودة بدخولها فى أحلاف عسكرية تحت مسميات عديدة، التدريب أو المناورات المشتركة، الأمن الإقليمى. وهى الدولة التى لم يعد يهابها أحد فى الداخل، وأصبحت ثرواتها نهبا للناهبين.

وعرف العرب أيضا "الدولة الريعية" التى يقوم اقتصادها على ريع واحد هو ريع النفط. وفى حالة الاستغناء عن النفط ببدائل أخرى للطاقة أو فى حالة انخفاض الأسعار بإغراق السوق بكميات من النفط أو فى حالة احتلال آبار النفط من دولة إقليمية أو قوة عظمى حماية للاقتصاد الغربى، ينتهى ريع الدولة. فتنتهى الدولة.

والأخطر من ذلك كله، وهو القاسم المشترك بين الدول التى نشأت داخل النظام العربى هى "الدولة الأمنية" عصب الدولة التسلطية. وهى الدولة التى تحكمها أجهزة الأمن، الشرطة، والأمن المركزى، ومباحث أمن الدولة، والمخابرات العامة، باسم الأمن القومى. ويعنى أمن النظام. الدولة جزء منها وفى خدمتها، وليست هى جزء من الدولة وفى خدمتها. أجهزة الأمن أقوى من الرياسة ومؤسسات الدولة، والمجالس النيابية، والقضاء، والجامعات، والنقابات، والاتحادات، والجمعيات المدنية، والمنظمات غير الحكومية، والصحافة القومية أو المعارضة، والمظاهرات السلمية، وكل تعبير حر عن الرأى أو تحرك شعبى لمطالبة بحق. فالمباحث لها السلطة العليا على النيابة، ورجل المباحث له الكلمة على وكيل النيابة الذى يأمر بإخلاء سبيل المعتقل، وينتظر الأمر النهائى من مباحث أمن الدولة، كما ابتهل أحد الشعراء "أبانا الذى فى المباحث". ولا تستطيع الجامعة ولا وزارة التعليم العالى أن تفرج عن

الأساتذة المعتقلين طبقا لقانون الطوارئ. ولا يستطيع وزير أو مستشار للرئيس أو عضو فى البرلمان أو رئيس لجنة فيه أو عضو بارز فى لجنة سياسات الحزب الحاكم أو صحفى مرموق فى أولى الصحف القومية الإفراج عن معتقل قبض عليه قبل صلاة الجمعة بتهمة إمكانية توافر نية التظاهر بعد الصلاة. بالرغم من أن المباحث قد أحضرت عشرات المأجورين من البلطجية لصالح التمديد بعد الصلاة.

ويعنى الأمن فى "الدولة الأمنية" أمن النظام وليس الأمن القومى، الأمن السياسى وليس الأمن الاقتصادى، أمن الحكم وليس أمن البلاد. الأمن هو الذى أجل عودة العلاقات بين مصر وإيران، بالرغم مما يفرضه الأمن القومى فى مصر بعودة العلاقات فى مواجهة الكيان الصهيونى والهجمة الجديدة من الاستعمار على الوطن العربى من القطب الأوحد فى العالم. وهو الذى فرض السلام المنفرد مع إسرائيل، والتبعية للولايات المتحدة الأمريكية، والتخفف من المسئوليات القومية تجاه فلسطين والعراق، والتحلل من التضامن الإسلامى مع أفغانستان والشيشان وكشمير. وغياب الأمن فى الداخل يذهب الأمن فى الخارج كما صور فيلم "الكرنك" تعذيب فى السجون بالسياط داخل المعتقلات، وقصف لمطارات مصر بطائرات العدو الإسرائيلى يوم ٥ يونيو- حزيران ١٩٦٧. هو الأمن عن طريق عصا الأمن المركزى، والقنابل المسيلة للدموع فى أيدى الشرطة. وعربات الأمن المركزى التى تحصد بآلاف المصلين فى المساجد الكبرى قبل الصلاة وبعدها، والأخذ بالشبهات عن طريق الضربات الوقائية. وهى حجة إسرائيل فى العدوان على العرب فى حروبها الأخيرة.

وكان الشعار من قبل "الشرطة فى خدمة الشعب" وفى الواقع أصبح "الشعب فى خدمة الشرطة". ثم تحول إلى "الشرطة والشعب فى خدمة القانون"، وفى الواقع أصبح "الشعب والشرطة فى خدمة السلطة". الشرطة صاحبة المقام الرفيع. والمعتقل فى قيد حديدى بمعصم الشرطى. ورجل المباحث يسلب المعتقل تليفونه المحمول وماله لأنها خطر

على أمن الدولة. وأهالى المعتقلين ينتظرون طيلة النهار لعلهم يستطيعون إلقاء نظرة على الابن أو الأخ أو الزوج أو الأب أو القريب أو الصديق من "البوكس" إلى المحكمة أو من المحكمة إلى "البوكس"، طيلة النهار على باب المحكمة. ثم تتغير المحكمة من حى إلى حى أوسع بدلا من تجمهر الأهالى وسد الطريق واختناق المرور. ويهرع الأهالى يلحقون بالمحكمة الجديدة وكأنهم فى يوم الحشر.

فى تاريخ كل شعب عصر الملوك وعصر القضاة. وفى تاريخنا الإسلامى كان الحاكم الأمير يقف أمام القاضى يستمع لحكمه الذى ينصف المحكوم من الحاكم، والمظلوم من الظالم. وكان فى كل عصر وزير داخلية يمسك بالأمن الداخلى مثل "بريا" فى الاتحاد السوفيتى سابقا، والحجاج فى أوائل دولة بنى أمية. مازالت الشرطة هى شرطة الملك أو الرئيس.

متى يسترد الشعب أمنه من "الدولة الأمنية"، ويسترد المواطن حقه من الشرطى؟ متى ينشد المصريون بصوت كوكب الشرق إحدى مقاطع "مصر تتحدث عن نفسها" لشاعر النيل "يا دولة الظلم إمَّحِى وبيدى"؟

٣- أين يذهب اللاجئ العربى؟

المواطن لاجئ فى وطنه، فى جنوب الوادى وشماله. وبدلا من أن يربط النيل من على ضفافه فرّق بينهم، ورماهم فى بحر الغربة فى الشمال على الضفة الأخرى للمتوسط فى أوروبا، الملجأ والأمل الأخير.

ثلاثة آلاف لاجئ سودانى فى القاهرة، أكثر أو أقل. فالفرد أمة بأكملها (**إن إبراهيم كان أمة**). لفظهم وطنهم الأول، السودان الشقيق، الجمهورية السودانية أى السودان الجماهيرى أى الدولة الشعبية، والنظام الذى يرعى مصالح الناس. لم يستطع إلا مؤخرا حل قضية الجنوب فى إطار من الحوار الوطنى، والتعددية السياسية، وعدم التضحية بوحدة الأوطان من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية مسلمين وغير مسلمين، وهى لا تطبق إلا على المسلمين وحدهم، وليس فقط الحدود بل أيضا الحقوق، ليس فقط قانون العقوبات بل أيضا النظام السياسى القائم على أن الإمامة عقد وبيعة واختيار، وأن الرئيس منتخب من الشعب وليس ممثلا لله، والنظام الاقتصادى القائم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، الزراعة (الماء، والكلأ)، والصناعة (النار)، والعمل فيه مصدر القيمة. فالمال لا يولد المال بدليل تحريم الربا، وعدم تركيز المال فى يد حفنة قليلة (**كى لا يكون المالُ دولة بين الأغنياء منكم**)، واستثماره دون تبديده فى الاستهلاك (**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**). وبعد حرب أهلية كلفت السودان آلافا من الشهداء تمت المصالحة الوطنية ومخاطر الانفصال لم تتبدد بعد. ثم نشأت قضية دارفور، وآلاف اللاجئين من الحرب الأهلية. وتدخلت القوى الكبرى فى القضيتين،

(*) الاتحاد: ١٤ يناير ٢٠٠٦، الدستور: يناير ٢٠٠٦.

الجنوب ودارفور، للبحث عن حل تحت التهديد، وفرض العقوبات الدولية. وغاب العرب، وحضر الأفارقة وكأن أطراف الوطن العربى فى الجنوب مع الأفارقة وفى الشرق مع الأسيويين لابد أن تتآكل تحت وطأة النعرات العرقية والطائفية. ثم حصار القلب فى مصر وإجهاضه والقضاء على فاعليته ومركزيته بالتبعية للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية خاصة وإحلال إسرائيل محلها تقوم بدورها فى تحديث الوطن العربى وتجميعه وتوحيده فى قطب مستقل. والأخطر هو الحكم على الثقافة العربية والإسلام فى أجهزة الإعلام الدولية والقنوات الفضائية بالعنصرية والتسلط والتخلف وخرق حقوق الإنسان، الشباب والأطفال والشيوخ، واضطهاد الأقليات. ومهما حاولنا الدفاع عن الثقافة العربية وعن الإسلام المثالى بالنص إلا أن الواقع أبلغ من كل نص، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف.

ولجأ المواطنون السودانيون إلى شمال الوادى إلى الأخت الشقيقة والجار الجنب طالبين الحماية والعون. فالشعب واحد فى الشمال وفى الجنوب. ومصر للسودانيين هو الوطن الثانى بل والوطن الأول ثقافة ورحما. وعاشت عدة أجيال على شعار وحدة وادى النيل ووحدة مصر السودان، وكما صرح أحد زعماء مصر الوطنيين "تقطع اليد التى توقع على انفصال الجنوب والشمال". وكانت مصر باستمرار ملجأ المهاجرين والمناضلين من كافة أرجاء الوطن العربى، بما عُرف عنها من تسامح وحسن ضيافة وكرم مثوى. وعلى مدى ثلاثة أشهر والأشقاء السودانيون فى العراء فى ميدان عام معتصمين. يعيشون فى ظروف لاإنسانية، نساء وأطفال وشيوخ، فى برد الشتاء القارص وبلا حمامات عامة. يأكلون ويطبخون وينامون ويمارسون حياتهم الطبيعية تحت غطاء السماء كما يفعل المصريون على أبواب السفارات الأجنبية طلبا لتأشيرات الدخول. لم تحاول مصر إعطاء مساكن للإيواء، احتراما لحقوق الإنسان. وقيل إن السبب هو التواطؤ بين النظامين فى الجنوب والشمال. فقد تعودت النظم السياسية فى الوطن العربى أن المواطنين بلا حقوق، وعليهم واجبات كما

تعود الغربيون على أن لهم حقوقا وليس عليهم واجبات. ثم جاء الأمر بفض الاعتصام بالقوة بعد أن فشلت محاولات الحوار كما يقال بين المسئولين الثلاثة جنوب الوادى وشماله والمفوضية العليا للاجئين التى تمثل العالم الحر. وتم ذلك بالعنف، بخراطيم المياه، والهراوات، والسحل والضرب للأطفال والنساء والشيوخ وبالغازات المسيلة للدموع حتى سقط حوالى الستين شهيدا، وضعفهم من الجرحى، ومثلهم من الشرطة المصرية وقوات الأمن المركزى لمكافحة الشغب، خمسة وعشرون كتيبة من الأمن المركزى. يرافقهم خمسمائة ضابط بدعوى النظافة، وحماية البلاد من خطر "الإيدز"، وشكوى السكان بالبنايات المجاورة، واحتمال التظاهر المضاد. وقوات الأمن المركزى قد دربت على الطاعة المطلقة باستعمال أقصى درجات العنف. فهى أداة النظام للبطش بالمواطنين العاصين منذ النظام الملكى حتى اليوم.

وبعد أن فر المواطن السودانى من وطنه الأول الذى لم يراعيه إلى وطنه الثانى الذى لم يحميه لجأ إلى الوطن الثالث المأمول إلى المفوضية العليا للاجئين، والأمم المتحدة، ونظام العالم لحمايته بعد أن تخلى عنه وطنه فى الجنوب وأولاد العمومة فى الشمال. تأخر صرف الإعانات للاجئين كما تأخر الرد على طلبات الهجرة إلى استراليا وكندا. والمهانون فى أوطانهم وفى عروبتهم لماذا لا يُهانون أيضا فى المنظمات الدولية التى مازال يحكمها تصور الرجل الأبيض للملونين، بقايا الرق من أفريقيا الذى أُحضر عنوة إلى العالم الجديد وإلى أوروبا للبناء والتعمير. وأوروبا تعانى من الهجرة، من جنوب المتوسط إلى شماله. ويريد الاتحاد الأوروبى الحد منها فى حين تم تسهيل هجرة "الفلاشة"، يهود أثيوبيا إلى إسرائيل بسهولة ويسر. وتهجير آلاف اليهود من روسيا والدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية إلى إسرائيل والذى وصل فى العقد الأخير إلى المليون. بل إن أمريكا كلها الآن والتى يزيد مقدارها على المائتى مليونا شعب من المهاجرين. وتدعى أوروبا رعاية حقوق الإنسان. وتنقد غيرها لخرق حقوق الإنسان. وفى الممارسة الفعلية لا فرق بين أوروبا وغيرها مادام الأمر

يتعلق بالملونين. فحقوق الإنسان تراعى فقط داخل حدود أوروبا الجغرافية، وتنتهى خارجها.

وكل من الأوطان الوهمية الثلاثة تلقى المسئولية على الآخر. فالسودان تلقى المسئولية على مصر. تترك المقدمات وتأخذ النتائج. المشكلة فى الجنوب وفى دارفور وتُرحل إلى مصر. ومصر تلقى اللوم على المفوضية الدولية للاجئين، أنها لم تقم بدورها فى حل قضايا اللاجئين السودانيين. والمفوضية الدولية صامتة، لا تعليق. فأزمة الأوطان داخلية لا تحلها المنظمات الدولية. ومادام السلام قد حل ربوع السودان فى الجنوب وفى الغرب فعلى اللاجئين العودة إلى وطنهم الأصلى. والأوطان تدفع بمواطنيها إلى الهجرة كالقبور التى تلفظ أجسادها يوم الحشر. وانهارت حجة العرب ضد معاملة إسرائيل للفلسطينيين، وقوات الاحتلال الأمريكى فى الفالوجة والقائم للعراقيين. فالعرب يفعلون نفس الشىء بأنفسهم. تفعل مصر بالسودانيين نفس الشىء. ويُعذب أسرى جوانتانامو فى الوطن العربى الذى تمارس سجونه التعذيب وليس فى سجون الغرب، حرصا على الشكل، وخوفا من تسريب الإعلام.

لم يبق للاجئين إلا الوطن الرابع، بعد السودان ومصر والمفوضية الدولية لشئون اللاجئين وهى الراحة فى السماء بعد الاستشهاد. ففى السماء متسع للجميع. وللشهداء الروح والريحان. فنعيم السماء خير بديل عن شقاء الأرض.

وإذا كان هذا هو الحل للشهداء فمازال الأحياء يفترشون الأرض. ويستمرون فى المقاومة، يساندهم المصريون. إن مجرد الإدانة من أحزاب المعارضة لا تكفى، بل النزول إلى الشارع والاعتصام المشترك فى نفس المكان، والوقوف أمام أجهزة الأمن. لقد قام الشعب باسترداد حقوقه من المحتل الغاصب أثناء حركات التحرر الوطنى. ثم بدأت الدولة الوطنية التابعة فى التفسخ والانحلال. فدور الشعب الآن استئناف مرحلة ثانية من التحرر الوطنى ضد الهيمنة الجديدة والعدوان العسكرى المباشر فى العراق وأفغانستان، وتهديد سوريا

ولبنان وإيران وضد التسلط والطغيان والقهر والاستبداد فى الداخل.

متى يجد اللاجئ العربى وطنا له؟

يمنيون فى المنفى ∴ ومنفيون فى اليمن

جنوبيون فى صنعا ∴ شماليون فى عدن

وكالأعمام والأخوال ∴ فى الإصرار والوهن

خطى أكتوبر انقلبت ∴ حزيرانية الكفن

ترقى العار من بيع ∴ إلى بيع بلا ثمن

ومن مستعمر غاز ∴ إلى مستعمر وطنى

لماذا نحن يا مربى ∴ ويا منفى بلا سكن

بلا حلم بلا ذكرى ∴ بلا سلوى بلا حزن

٤- أين العرب؟

لم يصل العرب إلى أسوأ فترة فى تاريخهم الحديث كما وصلوا إليه الآن من عدم اعتراف أحد بهم أو أخذهم فى الحسبان فى مجريات الأحداث المحلية والدولية. فالوطن العربى فارغ من شعوبه وحكوماته كما قيل عن فلسطين من قبل بنية الاستيطان الصهيونى فيها فى أوائل القرن الماضى، مقايضة شعب بلا أرض بأرض بلا شعب منذ وعد بلفور. والآن تتم مقايضة ثانية، وطن بلا أمة، وهو الوطن العربى، بأمة خارج الأوطان، إسرائيل الكبرى، أو الإمبراطورية الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية واللتين تعم إرادتهما فوق كل الأوطان.

وقد بدت مظاهر غياب العرب فى هذه الأيام بصورة فاضحة عندما طلبت الولايات المتحدة الأمريكية الدخول فى مفاوضات مع عدوها اللدود إيران بشأن مستقبل العراق! والعراق كما يُقال فى أدبياتنا السياسية والتى ثبتت لنا من عصر الخطابة "البوابة الشرقية" للوطن العربى. وبانهيارها ينهار المشرق العربى كله فى سوريا ولبنان والأردن وفى الخليج. وتبقى مصر عارية فى جناحها الشرقى بلا دفاع خاصة وأنها أصبحت خالية من صلاح الدين والظاهر بيبرس ومحمد على وعبد الناصر. وعلى هذا الأساس تم تدعيم العراق بالسلاح فى حربه ضد إيران خوفا من المد الشيعى فى الوطن العربى السنى، ومن امتداد الثورة الإسلامية من إيران إلى باقى الأقطار العربية.

لم تطلب الولايات المتحدة الأمريكية من الأنظمة العربية الصديقة التعاون معها بشأن انسحاب مشرف لقواتها من العراق خاصة وأنها لا ترفض شيئا تطلبه أمريكا. لم

(*) الاتحاد: ١ أبريل ٢٠٠٦، الدستور: مارس ٢٠٠٦.

تطلب من الخليج الصديق، وقواتها فيه منذ العدوان على العراق. وقيادة أسطولها وقواعدها على أرضه. ولم تطلب ذلك من السعودية الحليفة بالرغم من الخلاف الأخير بينهما حول التحول الديموقراطى وإيقاع الإصلاح. ولم تطلب ذلك أيضا من الأردن الصديق صاحب الحدود المشتركة مع العراق، وكثير من المهاجرين العراقيين فيه. بل ولم تطلب ذلك من مصر، الشقيقة الكبرى، بما لها من إرث تاريخى فى العمل العربى، ومقر الجامعة العربية والتى قامت بتسليح العراق ومساعدته على تحرير الأغوار وجزيرة الفاو عندما بدأت الدائرة تدور على العراق، وتقدمت القوات الإيرانية نحو البصرة.

طلبت الولايات المتحدة مساعدة إيران لحل ورطتها فى العراق بدعوى ضمان مستقبل العراق. وإيران هو العدو الذى يقضى مضاجع الولايات المتحدة منذ نجاح الرئيس الحالى فى الانتخابات، وإعلانه ما يدور فى قلب كل عربى مسلم، وما تربت عليه عدة أجيال من ضرورة عودة اليهود من حيث أتوا، وعودة فلسطين إلى أهلها. وهو ما أعلنه من قبل أيضا رئيس وزراء ماليزيا السابق. كما تصر إيران على حقها الشرعى فى تخصيب اليورانيوم، والاستمرار فى بحوثها النووية السلمية، وإصرار أمريكا على أن ذلك تهديد لأمنها القومى وأمن حليفتها إسرائيل التى تمتلك ترسانة نووية تقدر بما يزيد على مائتى رأس نووى، ولم توقع حتى الآن على معاهدة انتشار الأسلحة النووية. ولم توافق أمريكا على اقتراح العرب بجعل منطقة الشرق الأوسط خالية من السلاح النووى وأسلحة الدمار الشامل. كما ترفض إيران العدوان العسكرى على العراق وتهديد سوريا، ونزع سلاح المقاومة فى جنوب لبنان. وتعتز بقوتها العسكرية وبطول مدى صواريخ "شهاب" القادرة على أن تطول إسرائيل دون خوف. وهى المؤثرة فى محيطها الإقليمى الغربى عن طريق شيعة الخليج، والشمالى فى باكستان وأفغانستان وأواسط آسيا وامتدادها الشرقى إلى الهند وماليزيا وأندونيسيا، وكانت مصر فى العصر الملكى تعرف قدرها وتصاهرها. وكان عبد الناصر يؤيد ثورتها منذ

مصدق حتى الخمينى. ويمد مجاهدى خلق بالسلاح لإسقاط نظام الشاه التابع للولايات المتحدة والمتحالف مع إسرائيل. ونحن الآن نخاصمها منذ اندلاع الثورة. ونوصد الأبواب فى وجهها بدعوى تصدير الثورة. وهى تمتلك السلاح النووى ونحن لا نمتلكه. ونحتج فى ذلك باسم شارع أو صورة. ونضحى بالمصالح الوطنية العليا من أجل شخص. والغرب لا يحترم إلا القوى، المعتد بنفسه وليس الضعيف التابع السائل للعدل والشحاذ للسلام.

وبسبب غياب العرب أيضا تم انقضاض إسرائيل على سجن أريحا لخطف رئيس الجبهة الديموقراطية ورفاقه بعد أن تم اغتيال رئيسها السابق بالرغم من وجود اتفاق دولى أمريكى بريطانى إسرائيلى فلسطينى على وجود مراقبين دوليين للاطمئنان على وجود الرفاق فى السجن بعد محاكمتهم أمام القضاء الفلسطينى. وتم التواطؤ. وانسحب المراقبون قبل الغزو الإسرائيلى إحراجا للسلطة الوطنية الفلسطينية. فهى لا تحكم، وغير قادرة على الدفاع. وإسرائيل التى لم تحتل أريحا كما احتلت باقى مدن فلسطين فى الضفة الغربية قادرة على احتلالها واختطاف من تشاء. وهو أيضا إحراج لحماس وللحكومة الجديدة. فماذا ستفعل أمام هذا التحدى؟ إن صمتت كالسلطة فقد سقطت فى أعين ناخبيها ومجموع الشعب الفلسطينى. وإن ردت بالقوة تم اغتيال رئيس الوزراء الجديد. وهو إحراج لمصر، الشقيقة الكبرى التى دخلت أربعة حروب دفاعا عن أمنها القومى فى فلسطين. وهو إحراج للأمة العربية كلها التى أصبح وطنها مستباحا فى الأرض والجو. وهى نفس العقلية الأمريكية عندما قامت أمريكا بخطف نوريجا رئيس وزراء بنما من قصره. وهو حليفها وتاجر مخدراتها. وينتقل الرفاق من سجن الوطن إلى سجن العدو بلا ملابس ساترة إمعانا فى الإذلال. وهو عدم اعتراف بالقضاء الفلسطينى الذى أصدر حكمه وينفذه. فكل شىء مباح فى أراضى العرب وفى لعبة الانتخابات الإسرائيلية، وكسب أصوات الناخبين بالمزايدة فى سوء معاملة العرب، وإنكار وجودهم وجرح كرامتهم ومحو ذاكرتهم.

وتستمر الإهانات للعرب إلى درجة إنكار وجودهم كلية وإخراجهم من الحسبان فى أى معادلة. فلا يوجد شريك فلسطينى يمثل الشعب الفلسطينى، ويمكن التفاوض معه، لا رئيس السلطة الوطنية السابق، ولا رئيسها الحالى، ولا الحكومة الحالية المنتخبة ديموقراطيا. بل تهدد إسرائيل بقتل رئيس وزرائها إذا ما وقعت حادثة أو فعل من أفعال المقاومة. لم تعترف إسرائيل بالعرب كطرف مفاوض ثم أصرت على مفاوضة العرب، كل قطر على حدة. فوقع الصلح المنفرد مع مصر والأردن وموريتانيا مع وجود مكاتب اتصال أو تجارة مع هذا القطر أو ذاك.

والآن يُتخذ قرار فى الأمم المتحدة لإرسال قوات أمن دولية فى دارفور بدلا من قوات الاتحاد الأفريقى دون موافقة حكومة السودان، وتمهيدا للانفصال وتجزئة السودان بين شمال وغرب وشرق وجنوب. والسودان أمن مصر القومى فى الجنوب. كما أن فلسطين أمنها القومى فى الشمال. ولا يتحرك العرب. فالعرب لم يعودوا طرفا فى أى نزاع أو أى تسوية.

أصبح الوطن العربى بلا صاحب. فقد غاب عنه أصحابه. وتفرض الخطط والمشاريع عليه، الشرق الأوسط الكبير، المتوسطية. وبعد احتلال فلسطين والعراق، تهدد سوريا ولبنان والسودان ولا أحد يدافع عن كرامة الأوطان.

والمرة الوحيدة التى حضر فيها العرب عندما احتاجت أمريكا إلى شرعية لغزو العراق بعد أن خذلتها الأمم المتحدة. فدعت مصر إلى مؤتمر القاهرة قبل الغزو وشرّعت للتدخل الأمريكى بأغلبية صوتين. بل دفعت مصر وسوريا ببعض قواتهما مع قوات التحالف لغزو العراق بدعوى تحرير الكويت. واستعملت البحار والخلجان العربية لضرب العراق بالصواريخ طويلة المدى. وكان الثمن إلغاء بضعة مليارات من ديون مصر. وسقط بيان دمشق فى مسئولية العرب عن حماية الخليج والتصدى للعدوان على الأوطان.

وانكمشت مصر داخل حدودها واقتصر دورها على الوساطة بين الفصائل أو بين السلطة الوطنية وإسرائيل أو على تدريب الشرطة الفلسطينية أو على التوسل لفتح المعابر لإرسال الطحين لقطاع غزة حتى لا يجوع أطفاله بعد أن عمت طوابير الخبز فى القاهرة وغزة.

ومازالت أغنية جوليا بطرس تصدح فى الآذان "وين العرب وين".

٥- العرب والهرب

سئم العرب من نقد ذواتهم، جلدها وتعذيبها، كما يفعل العاجز أو "الماسوشى" الذى يجد لذته فى إيلام نفسه وتعذيبها لأنه لم يعد قادرا على الرؤية. فقد انفصم عن العالم. ولم يجد إلا ذاته يغرق فيها ويحتمى بها حتى ولو كان بالنواح والصراخ.

لقد خرج العرب من التاريخ فى العالم ذى القطب الواحد. لم يستعدوا له. وظنوا أن ما قاموا به من حركات التحرر الوطنى وما حصلوا عليه من الدول الوطنية الحديثة فى عصر الاستقطاب هو أقصى إنجاز، ونهاية التاريخ. فلما تحولت الدولة الوطنية إلى دولة تابعة للخارج وقاهرة للداخل وعاد الاحتلال من جديد، خرج العرب صفر اليدين. واستمر التاريخ فى مساره الجديد، ولم يستعد العرب له. فخرجوا منه. وحدد مساره الأقوياء، الإمبراطورية الأمريكية الجديدة وإسرائيل الكبرى. وطلب من العرب الرضوخ له، والرضا بوضعهم فيه فى مشاريع الشرق الأوسط الكبير، والمتوسطية. إسرائيل فى المركز بدلا من مصر، وأقدر على تحديث دول الجوار. وأمريكا تحمى الكل من الخطر الإيرانى والإرهاب الإسلامى بديلا عن الخطر الشيوعى.

وقَبِلَ العرب ذلك بالرغم من إمكانياتهم المادية والمعنوية، موقعهم الجغرافى بين القارات الثلاث، وما لديهم من مصادر الطاقة، وعائدات النفط، وأسواق شاسعة، ومواد أولية وفيرة، وعقول تفكر وتخطط، وسواعد تعمل وتنتج. إلا أن الطموح ينقصهم. فقد انهارت

(*) الاتحاد: ٢٢ يوليو ٢٠٠٦، الدستور: ٢ أغسطس ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٢٣ يوليو ٢٠٠٦.

الخلافة التى كانت تحميهم وتوجههم فى ١٩٢٤ لصالح القومية. ثم انهارت القومية العربية التى كانت توحدهم وتنهض بهم بعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ لصالح القطرية. ثم انهارت القطرية بعد احتلال العراق وفلسطين لصالح الدويلات العرقية والطائفية. وضاع الاستقلال الوطنى الذى قام به الآباء لصالح الهيمنة الجديدة والاحتلال الذى يرزخ تحته الأبناء والأحفاد فى فلسطين والعراق، والعدوان على لبنان وتهديد سوريا.

ثم وجد بعض العرب وسيلة للعودة إلى التاريخ من أضيق الأبواب بالاشتراك فى العدوان الأمريكى على العراق فى يناير ١٩٩١ بدعوى تحرير الكويت التى كان يمكن أن تتحرر بإرادة العرب الجماعية. ومازال العراق يُذبح كل يوم. ويبرر بعض العرب بقاء القوات الأمريكية بالعراق وإلا تحول إلى حروب طائفية تنتهى بالتقسيم. وهو ما يحدث الآن بالضبط دون مشاركة العرب.

وترك العرب الانتفاضة تُذبح كل يوم، منذ انتفاضة الحجارة عام ١٩٨٧ حتى انتفاضة السلاح فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠. وهو تاريخ لا يذكره أحد بعد أن غطى الإعلام الغربى والعربى عليه بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فالقوة هى التى تبقى حوادث التاريخ فى الذاكرة. فض العرب أيديهم من قضية العرب الكبرى، فلسطين. وبعد أن خاضوا خمسة حروب من أجلها تهدم المنازل كل يوم، والتصفيات لقادة السرايا كل ساعة.

والحجة المعلنة عدم جر العرب إلى معركة لم يحددوا هم أنفسهم زمانها ومكانها، والصلح العلنى أو السرى مع إسرائيل، وعقد اتفاقيات السلام معها بشروطها السرية والعلنية، والتبعية للولايات المتحدة الأمريكية التى بيدها مفاتيح الحرب والسلام، القوة العظمى فى العالم التى لا يقع فيه شىء إلا بأمرها. والحجة شبه المعلنة أن عصر القومية قد انتهى ولم تبق إلا القطرية: "مصر أولا"، "الأردن أولا"، "الكويت أولا". ولم يعد هناك قطر مستعد لنجدة أخيه. والحجة غير المعلنة، الدفاع عن الكرسى، والبقاء فى الحكم. فالقوة

الكبرى الآن تغزو، وتغير الأنظمة لكل نظام يرفض الدخول فى بيت الطاعة. والأمم المتحدة فى يدها، والقرارات هى التى تصوغها أو تعترض على صياغات غيرها. وأوروبا خافتة الصوت. والدول الثمانية الكبار لا يرفضون للقوة الكبرى طلبا. والمحافظون الجدد مستمرون فى تبليغ رسالتهم الإلهية للعالم، رسالة الغزو والعدوان.

وبعد العدوان الإسرائيلى الأخير على فلسطين ولبنان ترك العرب الفلسطينيين واللبنانيين للقتل والتشريد كل يوم بالصمت أو بالإدانة لحماس أو لحزب الله والمغامرات غير المحسوبة وغير المسئولة الضارة بالمصالح العربية. وأين هى المصالح العربية التى لا يهتم بها أحد؟ وأين هى المغامرات والإحساس بالعجز والسكون واللامبالاة هو الموقف الثابت للأنظمة العربية؟ بل إن قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل أو حتى طرد السفراء الإسرائيليين من عواصم ثلاث دول عربية وغلق المكاتب التجارية ومكاتب الاتصال فى الخليج وفى بعض دول المغرب العربى لم يتم. بل لم تقم المظاهرات العارمة المنددة بالعدوان والتى تشعر الأنظمة العربية والمقاومة الفلسطينية واللبنانية والعالم الخارجى أنها السند الشعبى للمقاومة. لم تقم إلا فى دمشق وعمان والقاهرة. وساندتها بعض عواصم العالم الإسلامى فى بنجلادش وباكستان.

وأخيرا صدر بيان وزراء الخارجية العرب ليعبر عن إرادة العرب الجماعية. واختلف الرفاق فى تحديد من هو العدو؟ هل هى إيران التى يزداد نفوذها فى الوطن العربى والعالم الإسلامى كل يوم من خلال شيعة العراق وشيعة لبنان ممثلا فى حزب الله على نحو علنى أو شيعة الخليج والمنطقة الشرقية فى المملكة العربية السعودية والعلويين فى سوريا؟ هل هى إسرائيل كقاعدة للعدوان على فلسطين وسوريا ولبنان والتى مازالت تهدد دول الجوار، تريد التوسع والاستيطان؟ البعض يريد تغليب الآجل على العاجل، والمتوهم على الفعلى. والبعض الآخر، وهم الأغلبية، يريدون تغليب العاجل على الآجل، والواقع على الافتراضى. ففلسطين

قاربت على الضياع، والعراق تمزق، ولبنان يُسوى بالأرض، والتهديد لسوريا يؤذن بحرب شاملة، الحرب العربية الإسرائيلية السادسة. والكل يرفض التوريط. وكأن المقاومة مغامرة، وقبول العدوان أسلم وأضمن! المقاومة مخاطرة، والاستسلام حكمة. وكلاهما يتمسح بالقومية العربية خوفا عليها من الثورة الإسلامية الشيعية فى إيران أو تمسكا بها للدفاع عن فلسطين ولبنان.

صدر بيان وزراء الخارجية العرب ليعلن ليس فقط موت عملية السلام بل هروب العرب من المعترك، واستمرار خروجهم من التاريخ. إدانة العدوان الإسرائيلى على فلسطين مجرد شجب وكلام مكرر معاد. وإدانة العدوان على المدنيين وتدمير البنية التحتية فى فلسطين ولبنان تقليص لقضية تحرير الأرض فى قضية إنسانية تنموية يستطيع العرب حلها ببعض المعونات الإنسانية، والمشاركة فى إعادة الإعمار مثل العراق وهو مازال تحت الاحتلال. وإعلان التضامن مجرد قول دون فعل، لغو كلام كما يقول إقبال. والحرص على عدم انزلاق المنطقة إلى حرب شاملة مجرد وهم وخداع للنفس، وشيك بلا رصيد. فلن يدخل العرب بجيوشهم فى حرب. كانت حرب أكتوبر آخر الحروب، والسلام خيار استراتيجى. وهو الخوف من عقدة الحروب العربية السابقة منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧. ولم تستطع حرب أكتوبر ١٩٧٣ إبراء الجرح العميق والإحساس بالعجز بعد الهزيمة. وتأييد حكومة لبنان وسيطرة جيشها على مناطق الجنوب مطلب إسرائيلى أمريكى ضد المقاومة. وهل أخذت المقاومة إذنا من الحكومة بتحرير الجنوب؟ واعتبار مجلس وزراء الخارجية فى حالة انعقاد دائم لا يفيد فى شيء، ولا يخيف أحدا إذا احتجوا أو إذا انفضوا. والاعتراف بأنه لا توجد آلية لدرء العدوان وأن اتفاقية الدفاع المشترك فى حاجة إلى قراءة من جديد هو تمسك بواقع لإعطاء شرعية للتخلى عن واجب الدفاع العربى المشترك. وإعلان وفاة السلام هو فى الحقيقة دفن السلام وتشييع جنازته. فقد توفى من قبل بإعادة احتلال فلسطين كلها، وعدم الاعتراف

بحكومة حماس أو بأى شريك فلسطينى آخر، فتح أو السلطة الوطنية الفلسطينية. فالسلام أسطورة، والدولة الفلسطينية الموعودة حقنة تخدير لا وجود لها على الأرض، لا فى العاجل ولا فى الآجل. وخارطة الطريق مجرد وهم حتى فى ذهن واضعيها. وتتحفظ إسرائيل على أربعة عشر بندا فيها، وهى طوق النجاة للعجز العربى. لم يعد يبق شىء من أرض فلسطين. واللاءات الثلاثة الإسرائيلية، لا للعودة إلى حدود ١٩٦٧، لا للانسحاب من القدس الشرقية، لا لعودة اللاجئين، قضاء على السلام. لقد رفع العرب ورقة التوت الأخيرة، خارطة الطريق حتى يستدعوا إليها من جديد بعد أن قام العرب بعمل مجيد وهو إعلان دفن السلام.

وتبلغ ذروة الهروب العربى فى إحالة الموضوع إلى مجلس الأمن! تخلى العرب عن قرارهم، وممارسة إرادتهم المستقلة. وعجزوا عن أخذ موقف فيما يخص مصيرهم ووجودهم. أحال العرب ما يمسهم إلى غيرهم. ورفعوا أمرهم إلى دول العالم كى تقرر لهم. فأعلنوا عجزهم. وكما أعلنوا وفاة عملية السلام فإنهم أعلنوا أيضا وفاتهم وحدادهم على أنفسهم. وماذا يفعل مجلس الأمن وقد رفض من قبل المشروع القَطَرى لأنه غير متوازن أى لا يدين المقاومة ولا يضمن أمن إسرائيل. والفيتو الأمريكى بالمرصاد لأى قرار يعبر عن مطالب العرب: إيقاف القتال وقصف المدنيين، تبادل الأسرى، العودة إلى مائدة المفاوضات. وقد صدرت من قبل مئات القرارات لصالح فلسطين منذ قرار التقسيم فى ١٩٤٨ حتى قرار الانسحاب من الأراضى المحتلة بعد عدوان يونيو- حزيران ١٩٦٧. وما من مجيب. وما فائدة توجيه لبنان شكوى لمجلس الأمن، والعالم كله يتبنى الشروط الإسرائيلية، ويطالب بما تبقى من استحقاقات تطبيق القرار ١٥٥٩، والإلزام بتعويض المدنيين عن الخسائر! والحكمة فى ضبط النفس؟

والأخطر من ذلك كله، تبرير العدوان على لبنان باختيار القدر له كى يكون مرتعا للعبث الإسرائيلى. ولماذا لم يختر القدر إسرائيل كى تكون ساحة المعركة لاسترداد الحق

العربـى كمــا يفعـل حــزب الله الآن عنـدما نقـل المعركـة إلى أرض إسـرائيل، الـصاروخ فـى مواجهة المدينة.

تحيـة إلى لبنـان، شـعبا وجيـشا، مقاومـة وحكومـة. يكفـى العـرب شـرفا أن أصـغر قطـر عربى يواجه أكبر قوة عسكرية كما واجه شعب فيتنام من قبل آلة الغزو الأمريكى، وتحيـة إلى شجرة الأرز على جبال لبنان، وفى علم لبنان، وفى قلـب كل عربى.

الفصل الثالـث

الوحدة الوطنية

١- الطائفية أم المواطنة؟

٢- الطائفة والعرق أم الوطن؟

٣- الحرب الأهلية أم حرب التحرير؟

٤- انفراط العقد.

٥- لماذا يتأخر الإصلاح؟

٦- الإصلاح بين السلفية والعلمانية (١).

٧- الإصلاح بين السلفية والعلمانية (٢).

١ـ الطائفية أم المواطنة؟

وقعت فى مصر حوادث مزعجة ودالة فى الإسكندرية خلال الشهر الكريم، شهر رمضان، غضب المسلمين على مسرحية فى كنيسة بالإسكندرية وفهموا منها أنها تعرّض بالإسلام، وتندد به. وازدادت الحمية، وبلغت القلوب الحناجر، ووقع القتلى والجرحى، وحطمت المحلات والسيارات، وكأنه غضب من أجل استكانة العرب وقبولهم الضيم فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. ومصر تعانى من السلبية السياسية ولامبالاة الجماهير لما يحدث فى الداخل والخارج، ومن غياب الشارع قبل صحوته الأخيرة كفاعل مؤثر فى مجرى الأحداث.

ويشتد المشهد مأساوية عندما يوضع فى سلسلة من الحوادث المشابهة والمخاطر المحدقة بدول الجوار. إذ بدأ نفس المشهد فى العراق وصياغة دستور يمهد لقسمته إلى ثلاث دول، كردية فى الشمال، وسنية فى الوسط، وشيعية فى الجنوب. ثم قسمة الخليج إلى دويلات، سنية وشيعية، وقسمة شبه الجزيرة العربية إلى دويلات، نجدية وحجازية وحضرموتية، وقسمة اليمن إلى دولتين، زيدية وشافعية، وتجزئة سوريا إلى دولتين، علوية وسنية، ثم العودة إلى لبنان وتقسمته إلى دويلات سنية وشيعية ومارونية. ثم الالتفاف حول مصر من الجنوب وقسمة السودان إلى دولة عربية مسلمة فى الشمال، وأخرى زنجية مسيحية فى الجنوب، وقسمة المغرب العربى كله إلى دولتين، عربية وبربرية. تحاصر مصر فى الشمال والجنوب والشرق والغرب من أجل تقسيمها إلى دولتين، مسلمة فى الشمال وقبطية

(*) الاتحاد: ١٢ نوفمبر ٢٠٠٥، الزمان: ١١ نوفمبر ٢٠٠٥، الدستور: ١٣ نوفمبر ٢٠٠٥.

فى الجنوب. ويتحول الوطن العربى كله إلى فسيفساء عرقى طائفى تصبح فيه إسرائيل أقوى دولة عرقية طائفية فى المنطقة، مركز تحيط به الأطراف. وتأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية للمنطقة، بدلا من الأساطير المؤسسة للكيان الصهيونى التى أعطاها لها هرتزل فى "الدولة اليهودية" فى أواخر القرن التاسع عشر، أساطير شعب الله المختار وأرض المعاد. وتحل إسرائيل محل مصر مركزا للتحديث، ونموذجا له فى المنطقة العربية. وتنتهى كل الحركات الوحدوية فيه، وحدة الأوطان، وحدة وادى النيل، وحدة المغرب العربى، وحدة مصر والشام، وحدة اليمن، وحدة دول الخليج، الوحدة العربية، الوحدة الإسلامية... الخ.

ويتم الصراع بين الطوائف والأعراق نظرا لغياب الحوار الوطنى العام فى البلاد، واستئثار كل طائفة أو عرق أو طبقة أو فئة أو جماعة ضغط أو مجموعة من رجال الأعمال أو من رجال الرئيس بالتفرد بالرأى والتسلط والدفاع عن مصالحه الشخصية وغياب الصالح العام. كما غاب الحوار السياسى بين الحاكم والمحكوم لصالح تسلط الحاكم وملل المحكوم. فاشتد الاحتقان السياسى والتوتر بين الطوائف والقوى السياسية المختلفة. وعم الرأى الواحد واستبعاد الرأى الآخر. فالحق لدى الفرقة الناجية، فرقة الحكومة، وكل فرق المعارضة هالكة. الأولى ناجية، والثانية فى النار.

وتتحول دور العبادة إلى معسكرات. تقف الشرطة والعربات المصفحة على أبواب المساجد والكنائس كما تقف أمام مقار الأحزاب. وهو التعامل الأمنى مع قضايا التعددية الفكرية والسياسية فى البلاد. وعلى الناحية الأخرى، تمتد موائد الوحدة الوطنية بين رجال الدين. وتُلقى الكلمات النمطية السطحية والتى يكتنفها الرياء، وتتخللها قبلات يهوذا. وتطلق التصريحات الإنشائية الخطابية والمواعظ والخطب المدرسية، والواقع مختلف تماما. فما أسهل القول، وما أصعب العمل. وتوضع الحراسة على رجال الدولة والمؤسسات

الحكومية والسفارات الأجنبية. فالاحتقان الدينى والسياسى احتقان واحد.

ولا تظهر هذه النزعات الطائفية والعرقية إلا فى حالة ضعف الدولة الوطنية وغياب المشروع القومى. لم تظهر هذه النزاعات إبان ثورة ١٩١٩. وكان الشعار وحدة الهلال والصليب. واختفت كلية فى الجمهورية الأولى فى الثورة المصرية. وكان الشعار وحدة عنصرى الأمة، النسيج الوطنى الواحد. فلما ضعفت الدولة الوطنية، وانهار المشروع القومى، بدأ الناس يبحثون عن هويات بديلة فى الطائفة أو العرق أو العشيرة أو حتى المنطقة الجغرافية. مسلم وقبطى، عربى وافد أو مصرى فرعونى، بدوى حضرى، صعيدى بحراوى، زيدى وشافعى، أشعرى وحنبلى، سلفى وعلمانى... الخ. ويتحول التحزب الطبيعى إلى الكرة، أهلاوى وزملكاوى. يتصادم أنصار كل نادى، ويعتدون على الحكام، ويخربون الملاعب، وقد يسقط القتلى والجرحى. هو جنون واحد فى غياب العقل، وحمية واحدة فى غياب الرشد، وتطرف وتعصب وعنف فى غياب الحوار والعقلانية والرأى والرأى الآخر. وهو نفس التعصب للفن فى السينما والمسرح، اللمبى، لهاليبو، بوحة، والأغانى الشعبية الهابطة أو السياسية الرخيصة "باحب عمرو موسى وبكره إسرائيل".

وقد تتدخل الدولة فى إشعال الفتنة كما فعلت فى حوادث الزاوية الحمراء فى أواخر السبعينيات فى الجمهورية الثانية. وكانت ذريعة من أجل إلقاء القبض على المعارضة السياسية بجميع طوائفها فى مذبحة سبتمبر ١٩٨١، ووضع الآلاف فى السجون من الدعاة المعارضين أو السياسيين أو الفصل من الجامعات والمؤسسات الصحفية أو العزل من البطريركية. وكانت ذريعة من أجل فرض الأحكام العرفية، وحالة الطوارئ وإصدار القوانين الاستثنائية بحجة الدفاع عن الوحدة الوطنية. قد يكون الأمر مدبرا هذه المرة بعد عجز النظام السياسى التحكم فى حركة الشارع المتزايدة، واشتداد المعارضة السياسية. ويكون الهدف تقييد الحريات العامة، والاستمرار فى فرض الأحكام العرفية.

تحـزب النـاس مـن أجـل مـسرحية تعـرض تحـول قبطـى إلى الإسـلام ثـم عودتـه إلى المسيحية من جديد بعد اكتشاف أن دينه القديم الذى كان عليه أفضل من الدين الجديد الذى تحول إليه. وهو موضوع ساذج خطابى دعائى. فالأديان واحدة. والخلاف بين الطوائف خـلاف اجتمـاعى وسياسـى. فـلا المـسيحية بأفـضل مـن الإسـلام، ولا الإسـلام بأفـضل مـن المسيحية. فإبراهيم أبو الأنبياء، والدين واحد، التوجه إلى الله والعمل الصالح (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**)، والمؤمنون جميعا سواء (**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**). أما التحول السياسى فلا يثير أحدا ولا يحرك جماهيرا. فقد تحولت الاختيارات السياسة فـى مـصر بعـد حـرب أكتـوبر ١٩٧٣، وانقلبـت مـن النقـيض إلى النقـيض، مـن الاشـتراكية إلى الرأسماليـة، ومـن القطـاع العـام إلى القطـاع الخـاص، ومـن التخطـيط إلى الاقتصاد الحر، ومن القومية إلى القطرية، ومن مناهضة الاستعمار والصهيونية إلى التحالف معهما والاعتراف بهما، ومن الاستقلال الوطنى إلى التبعية السياسية، ولم يتحرك أحد. ولم تقم مظاهرة. وغاب الصراع الاجتماعى. فهل التحول من دين إلى دين، وهو أمر شخصى لا يتعلق بمصير الدول، أهم من التحول من سياسة إلى سياسة، وهو أمر عام يتعلق بمصير الأوطان؟

والأخطر من ذلك كله تدخل القوى الخارجية وسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على مجلس الأمن فى شئون الأوطان بدعوى حماية الأقليات. وتنشط الجماعات القبطية المهاجرة لإشعال الفتيل، وتضخيم أمثال هذه الحوادث، وجعلها سياسات رسمية متبعة. وتخلق ظواهر أخرى من صنع الخيال: إجبار المسيحيات على التحول إلى الإسلام بعد إجبـارهم علـى الـزواج مـن مـسلمين، اغتـصاب المـسيحيات فـى غـرف قيـاس الملابـس فـى المحلات العامة، واضطهاد الأقباط وعدم توليهم الوظائف العامة، وكلها أمور تتعلق بالجنس

والدين والسياسة وهى المحرمات الثلاثة فى الثقافة الشعبية. وتنشط البحوث بفضل التمويل الأجنبى عن الأقليات وليس عن الاستقلال الوطنى والعدالة الاجتماعية، والوحدة الوطنية، والتنمية المستقلة، والمشاركة السياسية.

وتتحقق أحد أهداف العولمة، توحيد المركز وتجزئة الأطراف، ووضع نهاية للدولة الوطنية المستقلة التى تم الحصول عليها نتيجة حركات التحرر الوطنى فى الخمسينيات والستينيات. وتصبح فرنسا حامية للكاثوليك، وانجلترا حامية للإنجليكان، وألمانيا راعية للبروتستانت، وإسرائيل حامية ليهود العالم من الاضطهاد والمحارق، وأمريكا حامية للجميع باسم حقوق الإنسان والحرية والديموقراطية وقيم العالم الحر.

ليس الغزو من الخارج هو الطرق الوحيد لتفتيت الأوطان حتى لا يتكرر مستنقع العراق للقوات الأمريكية بل يمكن التفتيت من الداخل عن طريق إشعال النزاعات الطائفية والعرقية. وهو المخطط المعد الآن لتفتيت لبنان وسوريا وإيران والخليج وشبه الجزيرة العربية والسودان والمغرب العربى فى الأطراف ثم لف الحبل حول عنق مصر وتفتيتها. ومن ثم يُقضى على كل إمكانية فى المستقبل لقيام قطب ثان فى مواجهة القطب الأول، قد يخرج من المنطقة العربية الإسلامية، من تجمع شعوب أفريقيا وآسيا حتى يضمن القطب الأول بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية السيطرة على العالم كله.

٢- الطائفة والعرق أم الوطن؟

كانت الانتخابات العراقية الأخيرة ولادة عسيرة لأنها تمت تحت الاحتلال ولم يكن ضمن برامج مرشحيها وأحزابهم المطالبة بانسحاب قوات الاحتلال من أراضى العراق وتأكيد وحدة العراق الوطن وليس تمثيل العراق الطائفة والعرق. لذلك كان من الطبيعى أن يقاطع السنة الانتخابات. فلا انتخاب فى وطن محتل. كما رفضوا الاشتراك فى حكومة تتشكل تحت الاحتلال. ووزير الدفاع الأمريكى يملى شروطه. ينبه ويحذر من أن تكون المطالبة بانسحاب قوات التحالف من بين برنامج الحكومة المرتقبة. وطالت المدة. واختلفت الطوائف والأعراق على توزيع الحقائب الوزارية، ومن ضمنها الوزارات السيادية، الخارجية والدفاع والنفط والداخلية التى بيدها أمن الوطن السياسى والاقتصادى فى الخارج والداخل. ووضع مبدأ التقسيم. وتم تنفيذه بالفعل بين الشيعة والأكراد والسنة. وسمع الناس لأول مرة عن التركمان والأشوريين. واختلفوا فى معايير التوزيع طبقا للواقع أى نتائج الانتخابات أو طبقا للتوازنات بين الطوائف والأعراق، ومن ثم ضرورة تمثيل السنة بالرغم من عدم اشتراك أغلبيتهم فى الانتخابات. ولم يسمع أحد عن الوطن العراقى والمواطن العراقى بصرف النظر عن طائفته أو عرقه والمواطنة العراقية التى يتساوى فيها كل العراقيين، والاتفاق على الحد الأدنى من البرنامج الوطنى.

تحول العراق إلى لبنان آخر الذى أدت الطائفية فيه إلى حرب أهلية دامت خمسة عشر عاما، دمرت الوطن. ومازال أحد بنود اتفاق الطائف الذى أنهى الحرب لم يتحقق بعد

(*) الاتحاد: ٧ مايو ٢٠٠٥، الزمان: ١٤ مايو ٢٠٠٥، الدستور: مايو ٢٠٠٥.

وهو التخلى عن الهوية الطائفية إلى الهوية الوطنية. وكما تم الإجماع الوطنى على إخراج القوات الأجنبية من لبنان، السورية أولا، فلماذا نسيان القوات الإسرائيلية فى مزارع شبعا؟ ولماذا لا يوجد إجماع وطنى على تنفيذ بند المواطنة الذى تحقق فى الشارع اللبنانى باختفاء الأعلام الطائفية ولكنه لم يختف بعد من الدستور ومن الممارسات السياسية. لبنان أولا، والعراق ثانيا فى مخطط تقسيم الوطن العربى إلى فسيفساء عرقى طائفى، سنة وشيعة، مسلمين وأقباط ودروز، عرب وبربر وزنوج حتى تصبح إسرائيل هى أكبر دولة طائفية عرقية فى المنطقة. تأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية فيها. وليس من الأساطير القديمة التى أعطاها لها هرتزل فى "الدولة اليهودية"، أساطير العودة والمعاد وشعب الله المختار التى لم يعد يصدقها أحد.

والطبيعى ألا يشارك السنة فى الانتخابات ولا فى تشكيل الحكومة تحت الاحتلال. وفى فقه الأولويات مقاومة المحتل لها الأولوية المطلقة على المغانم السياسية للأحزاب السياسية أو للطوائف والأعراق. وطالما قاوم الأكراد السلطة المركزية فى بغداد مطالبين بالاستقلال الذاتى كخطوة نحو الاستقلال التام. ولم يسمع أحد عن مقاومتهم للاحتلال. ورئيس الجمهورية منهم. وكان صلاح الدين منهم أيضا. ولولا رفض تركيا السماح للقوات الأمريكية للمرور من أراضيها لمرت من خلال شمال العراق حيث يوجد الأكراد نحو بغداد. وتاريخ مقاومة الشيعة فى العراق مشهود له منذ انتفاضة الجنوب فى ١٩٩١ بعد إخراج القوات العراقية من الكويت وقمع النظام العراقى لها دون أن يساعدهم أحد. واستشهاد علمائهم وقادتهم يعرفه الجميع. وأخيرا تحرك الصدر. وأصبح رمزا للمقاومة الوطنية لولا الحسابات السياسية. ومازال السنة هم الذين يتحملون عبء التحرير كله ليس فقط فى المثلث السنى حول بغداد بل فى كافة أنحاء العراق.

إن المقاومة العراقية هى الحكومة الشرعية فى العراق التى تعطى الأولوية لتحرير

الوطن من الاحتلال الأجنبى على المساهمة فى انتخابات ليس من برامجها انسحاب قوات الاحتلال وقسمة الحقائب الوزارية طبقا للطوائف والأعراق. فتحرير الأرض سابق على الحكم فى القصر. الحكومة الشرعية هى قيادة المقاومة السرية تحت الأرض ضد الاحتلال. هكذا فعلت المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى لفرنسا. وهو منطق المقاومة فى كل مكان.

إن الحل الوحيد لإيقاف نهر الدم فى العراق من دماء العراقيين هو تشكيل حكومة وطنية لها برنامج وطنى. تقاوم بيد وتفاوض باليد الأخرى. يد تفاوض ويد تحمل السلاح. وتطالب بوضع جدول زمنى للانسحاب فى موعد أقصاه نهاية هذا العام. ويقوم على تعددية سياسية تمثل كافة التيارات السياسية فى البلاد كما هو الحال فى كافة حركات التحرر الوطنى فى الجزائر والمغرب وكوبا وفيتنام والهند، وكما هو الحال فى حركة المقاومة الفلسطينية حاليا.

ويحدد البرنامج السياسى إذا كانت دولة العراق تابعة لقوى خارجية غربية أو أمريكية مثل كثير من الأنظمة العربية أو وطنية مستقلة مثل إيران وماليزيا؟ كما يحدد النظام السياسى هل يقوم على نظام الحزب الواحد والتسلط الفردى أم على التعددية السياسية والانتخابات الحرة واختيار الشعب؟ ويختار النظام الاقتصادى، السوق والنشاط الاقتصادى الحر والخصوصية والدخول فى العولمة فرأس المال ليس لها وطن أو النظام الاقتصادى الموجه والملكية العامة لوسائل الإنتاج، والقطاع العام، والتصنيع، وتدعيم المواد الغذائية، وتقريب الفوارق بين الطبقات وهى بعض التوجهات الاشتراكية التى عرفها العرب فى الستينات؟ ويحدد انتماء الدولة القطرى، العراق أولا، أو القومى، فالعراق جزء من الأمة العربية؟ كما تعيد النظر فى علاقاتها بدول الجوار خاصة إيران وتركيا حماية للبوابة الشرقية للوطن العربى بدلا من التناقض المفتعل بين القومية العربية والقومية

التركية أو الثورة الإسلامية. وعليه أن يختار بين التحالف مع الاستعمار والصهيونية أم يظل وفيا للثوابت فى السياسات العربية، مناهضة الاستعمار والصهيونية، وعدم الصلح معها أو الاعتراف بها قبل الانسحاب الكامل من الأراضى المحتلة والعودة إلى حدود الخامس من يونيو – حزيران ١٩٦٧، وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس. وتحدد أيضا موقعها بالنسبة للهجمة الاستعمارية الجديدة على الوطن العربى ودول الجوار، واحتلال أفغانستان والشيشان وكشمير وسبته ومليلية المدينتين المغربيتين من بقايا الاستعمار الأوروبى فى بداياته. وعلى هذا البرنامج الوطنى يتكون الائتلاف الوطنى أو الجبهة الوطنية أو جبهة الإنقاذ.

لن تتوقف إراقة دم العراقيين، ولن يعرف العراق الاستقرار إلا بانسحاب قوات الاحتلال من كافة أراضيه، والتحول من جيوب المقاومة إلى مقاومة المدن، ومن مقاومة المدن إلى الثورة الشعبية العامة، انتفاضة الوطن بأكمله حتى يبنى العراقيون وطنهم، ويعود كما كان وطنا واحدا لشعب واحد.

إن المقاومة حسب آخر التقارير حتى الأمريكية وعلى لسان وزير الدفاع الأمريكى تنتظم حوالى نصف مليون، نصف جيش العراق الذى اختفى بسلاحه أثناء الغزو قبل سقوط بغداد، وتحول إلى عصب شعب يناضل. فهو جيش الشعب، وشعب الجيش كما كان الحال فى الجزائر وفيتنام. ولا غرابة أن تلقى قوات الاحتلال نفس المصير. وهناك عشرات العمليات يوميا، ومئات الخسائر من قوات الاحتلال. ولا تعلن البيانات الرسمية إلا جزءا منها لرفع الروح المعنوية للجنود وللاستمرار فى خطأ السياسة الأمريكية بتبرير العدوان بصرف النظر عن الذريعة. فهو عدوان يبحث عن سبب دون أن يكون هناك سبب للعدوان.

هذا هو اختصار الطريق، واللحاق بما فات، وسرعة اللحاق بالزمن. ولا خروج من المستنقع العراقى إلا بتجفيفه أو جريان الماء فيه.

٣- الحرب الأهلية أم حرب التحرير؟

منذ عدة أشهر لم تعد المقاومة العراقية فى مواجهة قوات الاحتلال. وتراجعت الخسائر الأمريكية كثيراً من جنود وعتاد. وفى مقابل ذلك زادت خسائر المدنيين العراقيين العزّل. واكتشفت مذابح جماعية للعراقيين، عشرات الجثث المقتولة رميا بالرصاص أو شنقاً مع توثيق اليدين والرجلين مع التعذيب البدنى. فمن العدو؟ هل هم المواطنون العراقيون الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة، لا مع قوات الاحتلال ولا مع المقاومة الوطنية؟ وإذا جاز اعتبار المتعاون مع المحتل من قوات الأمن والجيش محتلا تجب مقاومته، فهل يجوز اعتبار مجموع الشعب العراقى كذلك؟ وهل يجوز خطف الصحفيين الأجانب ووكالات الإغاثة وجماعات حقوق الإنسان وكلهم ضد الغزو الأمريكى البريطانى للعراق،أصدقاء وليسوا أعداء. فالإنسان بفعله وليس بجنسيته؟

وإذا كانت المقاومة مركزة خاصة فى المثلث السنى فإن ما يدعو إلى الدهشة انعدام المقاومة الكردية فى الشمال، والشيعية فى الجنوب، وكلاهما، الأكراد والشيعة، أهل نضال ومقاومة، نضال الأكراد فى المنطقة الكردية، ونضال الشيعة فى الجنوب، وثورتهم ضد النظام العراقى السابق. بل إن رئيس العراق كردى، ورئيس المجلس الشيعى الأعلى صاحب كلمة مسموعة، وآية الله السيستانى له قدره واحترامه. وكان هو الوحيد القادر على إيقاف المعارك بين جيش الصدر وقوات الاحتلال. مع أن الفريقين نشطاء فى الانتخابات، وتوزيع الحقائب الوزارية، وقسمة العراق طائفياً، وضياع الهوية العراقية الوطنية لصالح الهويات

(*) الاتحاد: ٢٥ مارس ٢٠٠٦، الدستور: مارس ٢٠٠٦.

العرقية والطائفية. من يقاوم المحتل مثل العرب السنة لا يهتمون بالمناصب الوزارية. ومن لا يقاوم المحتل مثل الشيعة والأكراد مهتمون بالمناصب الوزارية، رئاسة الدولة، ورئاسة الوزراء، ورئاسة البرلمان. ويتركز الخلاف كله حول تقلد المناصب، والحصول على أكبر قدر من السلطة تحت الاحتلال، وتغليب التناقض الثانوى على التناقض الرئيسى.

ثم تفاقم الوضع بالتفجيرات المتبادلة للمساجد والأضرحة والمقامات والأسواق والمحال العامة بين السنة والشيعة مثل تفجير ضريحى الإمام الهادى والإمام العسكرى. وليس للسنة ولا للشيعة مصلحة فى ذلك. ولا فى عقائد السنة أو الشيعة هذا التقتيل المتبادل بين الفريقين بعد جهد دام عدة قرون للتقريب بين المذاهب. ولا تصل الخلافات المذهبية إلى حد إراقة الدماء والتصفيات الجسدية كما تم من قبل فى ذكرى استشهاد الحسين، وهو إمام معظّم عند السنة والشيعة على حد سواء. هو سيد الشهداء. إنما المصلحة لأمريكا وإسرائيل. مصلحة أمريكا فى أن يتحول القتال بين المقاومة وقوات الاحتلال إلى اقتتال طائفى بين السنة والشيعة. فينشغل المقاتلون بالداخل وليس بالخارج. ويغلّبون التناقض الثانوى على التناقض الرئيسى. وكما وصف القرآن (**بأسهم بينهم شديد**)، (**يخربون بيوتهم بأيديهم**)، (**يقتلون أنفسهم بأيديهم**)، (**والفتنة أشد من القتل**). وحذر القرآن من ذلك (**أشداء على الكفار رحماء بينهم**) من أجل تغليب التناقض الرئيسى على التناقض الثانوى. ومصلحة إسرائيل فى الاستمرار فى هدم العراق، وتفتيت الأمة بعد القضاء على النظام السياسى، وإزكاء العداوة بين الطوائف حتى ينشغل العراقيون واللبنانيون والجزائريون بالحروب الأهلية فيما بينهم بعيداً عن المواجهة مع إسرائيل من أجل القدس وفلسطين. وإذا نجح تفتيت العراق فإنه سيتكرر فى لبنان بين مسلمين وموارنة، وفى سوريا بين علويين ودروز وسنة، وفى الأردن بين بدو وحضر أو بين فلسطينيين وأردنيين، وبين زيدية وشوافع فى اليمن، وسنة والشيعة فى الخليج، ونجديين وحجازيين فى السعودية، وعرب وأفارقة فى

السودان والصومال ...الخ. والقصد أيضاً محو ذاكرة التاريخ فبدلاً من الصراع بين الكوفيين والبغداديين فى النحو والفقه والكلام يقع القتال بين الشيعة والسنة، وبدلا من المساجد كمدارس للعلم تصبح هدفا للتفجيرات المتبادلة. وبدلا من إحياء ذكرى الأئمة الشهداء الذين وقفوا فى مواجهة الطغيان تُدمر مقاماتهم. ويمحون من ذاكرة التاريخ. وتصبح العراق بلا تاريخ مثل أمريكا. ويتحول العراقيون إلى نوع من الهنود الحمر الجدد، والأمريكيون الإسرائيليون المهاجرون البيض الذين يرثون الأرض ومن عليها.

والغاية النهائية تفتيت الوطن العربى إلى فسيفساء عرقى طائفى بداية من أطرافه الأربعة ونهاية بالقلب وكما وصف القرآن (**أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**). من الشرق تفتيت العراق وتآكل بوابة العرب الشرقية ثم الخليج كله بين سنة وشيعة. ومن الغرب تتفتت أيضاً، كل أقطار المغرب العربى بين عرب وبربر. ومن الجنوب تنهار بوابة العرب الجنوبية بين عرب وأفارقة. وفى الشمال تتفتت الأقطار بين أكراد وعلويين ومسلمين ومارونيين فى الشام الكبرى بدلاً من مشروع الهلال الخصيب الاستعمارى القديم. وفى نفس الوقت الذى ينكمش فيه الوطن العربى من جهاته الأربعة من أجل ضرب القلب فى مصر بالتهميش أولاً ثم بالتفتيت ثانياً إلى مسلمين وأقباط تتمدد إسرائيل وتتسع حدودها. فلا عودة إلى حدود ٤ يونيو- حزيران، ولا لدولة فلسطينية متواصلة الأطراف عاصمتها القدس الشرقية، ولا لعودة اللاجئين.

وكما لاحظ ابن خلدون من قبل أن العرب لا يفلحون إلا بصبغة نبوة أو ولاية أى بظهور زعيم أو مخلص أو مهدى، فالمهدية قاسم مشترك بين عقائد المسلمين، سنة وشيعة، ينتظر الناس هذه الأيام مخلصاً، ابن بلد، يعيد سيرة "الحرافيش" وفتوات نجيب محفوظ. المهلهل ابن أبى ربيعة الذى بعد مقتل أخيه كليب صاح "اليوم خمر وغدا أمر"، اليوم أمريكا وإسرائيل والتبعية لهما وغدا الاستقلال الوطنى ولم شمل العرب، دفاعا عن فلسطين والعراق،

وحماية لسوريا ولبنان والسودان.ويحن إلى صلاح الدين الذى وحد مصر والشام دفاعاً عن الهجمة الاستعمارية الصليبية الأولى وأنقذ القدس. ويحن إلى الأمس حيث كان عبد الناصر حامياً للعروبة، موحداً للعرب، ومواجها الاستعمار والصهيونية، ومدافعاً عن ثورة اليمن حتى عم نموذج الضباط الأحرار فى قوات العراق واليمن وليبيا وسوريا.

ويخاف البعض من تكرار الزعامات "الكاريزمية" الحديثة ومن حكم الفرد المطلق حتى ولو كان بطلاً مغواراً خشية من التفرد بالقرار. ويؤثر هبات شعبية وحركات جماهيرية من أجل الدفاع عن الأوطان ضد القهر فى الداخل والعدوان من الخارج وليس فقط دفاعه عن شرف الرسول ضد الرسوم الساخرة. قد يخشى البعض من تكرار تجربة الجيوش الوطنية التى تحقق المشاريع القومية ولكن على حساب الحريات العامة. وبعد حركة الشارع المصرى واللبنانى فى العامين الماضيين يرى البعض أن المثقفين الوطنيين والكتاب الأحرار والفنانين من أجل التغيير، والجامعيين، والقضاة، والمستقلين، هم عصب التغيير الجديد. قد تنضم إليهم جماهير العمال وفقراء المدن وسكان المقابر فى هبات شعبية ضد الفساد والأغنياء ورجال الأعمال. كما حدث من قبل فى "لجنة الطلبة والعمال" فى الأربعينيات التى على منوالها تمت صياغة حركة "الضباط الأحرار". وسواء كان هذا المخرج أو ذاك فإن المخاض قادم، ولادة يسيرة أم عسيرة، طبيعية أم بقيصرية، طفلاً سليماً أو مشوهاً فى سبعة أشهر أم فى تسع؟ (ويقولون متى، قل عسى أن يكون قريباً).

٤- انفـــراط العقد

زفّت وكالات الأنباء أخيرا نبأ عزم الجزائر والمغرب وإسرائيل على القيام بمناورات عسكرية مشتركة مع حلف شمال الأطلنطى فى البحر الأبيض المتوسط الذى كان فى يوم ما مثل البحر الأحمر بحيرة عربية، على ضفافه شمالا فى أوروبا، وجنوبا فى أفريقيا، وشرقا فى آسيا، وغربا على حدود الأطلنطى. وكانت مصر وتونس ولبنان قد انضموا كمراسلين سياسيين للحلف للتخفيف من لفظ "عضو". ألفاظ مختلفة والهدف واحد. مثلما فرّق الغرب قديما بين استعمار وحماية ووصاية. والهدف واحد وهو احتلال أراضى الغير.

لم تعد مصر مركز جذب للعرب، ولا قلبا يضخ الدم فى الأطراف. فتوقف القلب أو كاد، وشلت الأطراف. وأوشك العقد على الانفراط كما انفرط من قبل عقد الدول الإسلامية بعد سقوط مركز الخلافة. وانجذبت دول أواسط آسيا نحو مراكز صاعدة جديدة فى موسكو سواء فى العهد القيصرى أو بعد الثورة البلشفية. وقد تتفتت الأقطار أيضا بعيدا عن عواصمها. فتنحسر بغداد لصالح كركوك أو النجف، وتنحسر الخرطوم لصالح دارفور والفاشر. وتنحسر القاهرة لصالح الإسكندرية أو الصعيد حيث تتفاقم الأحداث.

وتتنازع الأقطار فيما بينها مثل كرات "البلياردو". كل منها يضرب فى الآخر عشوائيا أو بفعل من يمسك العصا ليضرب هذا بذاك مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل. فالجزائر والمغرب فى صراع حول البوليساريو. والسعودية تفكر فى إقامة جدار عازل بينها وبين العراق لمنع "المتسللين" منها إلى العراق. واتهامات متبادلة بالتدخل العسكرى بين

(*) الاتحاد: ٢٢ أبريل ٢٠٠٦، الدستور: أبريل ٢٠٠٦.

السودان وتشاد، وحرب فعلية بين إريتريا والحبشة. ويعود شبح الحرب الأهلية فى لبنان. وتقع حرب طائفية غير معلنة فى العراق. وقد يقع قتال فلسطينى فلسطينى بين فصائل المقاومة، متجاوزة الخط الأحمر. وأخيرا تقع حوادث طائفية فى الإسكندرية بين المسلمين والأقباط. ومازالت آثار الحرب الأهلية وبقاياها فى الجزائر بين الدولة والجماعات الإسلامية المسلحة. والعنف يضرب فى المغرب والأردن والكويت والخليج والسعودية واليمن. لم يعد الوطن العربى آمنا على نفسه فى الداخل أو فى الخارج (**يدمرون بيوتهم بأيديهم**).

مازال العدوان على فلسطين دائرا كل يوم دون اعتراف بالسلطة الوطنية الفلسطينية، ولا بمنظمة التحرير ولا بخارطة الطريق، ولا بأى طرف فلسطينى أو عربى للشروع فى مفاوضات سلام مع إسرائيل طبقا لمشاريع التسوية فى دولتين أو طبقا للقرارات الدولية. ومازال العدوان على العراق قائما، والمقاومة تتزايد كل يوم، مع خطورة تحول المقاومة الوطنية من مواجهة قوات الاحتلال إلى ذاتها فى اقتتال طائفى عرقى حول السيادة على العراق أو من أجل تفتيته، والاحتلال مازال قائما، وتغليب الأجل على العاجل، والوطنى على الأجنبى على الرغم من تحذير القرآن (**أشداء على الكفار رحما بينهم**).

وتهديد سوريا ولبنان واستعمال الأمم المتحدة التى تسيطر عليها الولايات المتحدة لإصدار قرارات تبرير العدوان على سوريا وتهديد لبنان وإشعال الحرب الأهلية فيها مقدمة للعدوان المباشر. ويتمركز الأسطول الأمريكى فى مياه الخليج على أهبة الاستعداد لتكرار تجربة العراق تحت ذريعة التحول الديموقراطى فى الشرق الأوسط الكبير حتى ولو كان على أسنة الرماح وفوهات المدافع وهدير الطائرات وجنازير الدبابات والعربات المصفحة. فالاحتلال الأمريكى خير من الاستبداد العربى. ويقوم الإعلام بتهيئة الرأى العام لذلك، مآسى دارفور، الملايين التى تموت جوعا وقحطا فى الصومال وتشاد ومالى والسودان ونيجيريا وأفريقيا الوسطى والحبشة، وظهور الغرب على أنه الحامى الأول لحقوق الإنسان

والشعوب فى الحياة.

والهدف من ذلك كله إحكام الحصار حول مصر وتهديد أمنها القومى واستقرارها الداخلى فى الشمال فى الشام، وفى الجنوب فى السودان، وفى الشرق فى شبه الجزيرة العربية والعراق، وفى الغرب فى المغرب العربى تحت دعوى "المفاصلة" بين المشرق والمغرب، فالمشرق أسيوى، والمغرب أوروبى. ثم يأتى الرمح فى القلب بتفتيت مصر التى بقت واحدة عبر التاريخ. تتميز بوحدتها الوطنية مهما توالت عليها الديانات والمذاهب. فينشأ النزاع بين المسلمين والأقباط، بين الأكثرية والأقلية، بين الأنا والآخر، وكأن الوطن والمواطنة لا وجود لهما. فلم يعد أحد يتكلم عن المواطن بل عن المسلم والقبطى. فى حين تظل إسرائيل إسرائيل بالرغم من وجود المذاهب والأعراق. وأمريكا هى أمريكا بالرغم من التوتر العرقى الطائفى الذى ينخر فى المجتمع الأمريكى وانهيار نموذج "وعاء الانصهار".

حينئذٍ تلعب إسرائيل دور مصر فى تحديث المنطقة. وتساعدها على الانتقال من التخلف إلى التقدم، ومن القدامة إلى الحداثة. تشق قناة جديدة عبر النقب لربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر بديلا عن قناة السويس. وتمر أنابيب النفط من الخليج إليها للتصدير إلى أوروبا وليس عبر الشام أو مصر. وتعطى فوائد أكبر على استثمار عوائد النفط فى بنوكها أو فى البنوك الأجنبية مع سيطرة الرأسمال اليهودى على العالم. وتنتهى الحروب. ويشع السلام.

ويطمئن الغرب الأوروبى والأمريكى معا على مصادر الطاقة. فمازال النفط العربى الإسلامى يمثل أكثر من ثلاثة أرباع مخزون العالم. وتطمئن الولايات المتحدة بقيادة المحافظين الجدد على تحقيق حلم الإمبراطورية الأمريكية الجديد بالهيمنة على العالم عبر القفز فوق آسيا والسير فوق الجسر العربى الإسلامى إليها لحصار الاتحاد السوفيتى والصين من الجنوب. ويطمئن العالم إلى نظامه الجديد، العالم أحادى القطب بقيادة إسرائيل

الكبرى والإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

وفى نفس الوقت يطمئن الغرب إلى إيقاف المد الإسلامى فى أوروبا سواء من خلال الهجرات من جنوب البحر الأبيض إلى شماله أو من خلال تحول الأوروبيين إلى الإسلام فى أوروبا ذاتها وليس على ضفافها. فقد أصبح الإسلام الدين الثانى فى أوروبا. ويتجاوز المسلمون أربعة عشر مليونا. وأصبحت الهوية الإسلامية مزاحمة للهوية الأوروبية وجاذبة للعديد من الأوروبيين بما تمثله من قيم جديدة ضد العنصرية والفردية والأنانية والنزعة الاستهلاكية والتصور "المادى" للعالم. لذلك يتم تشويه الإسلام واتهامه بالإرهاب والعنف وخرق حقوق الإنسان والمرأة والأقليات وكأن العنف حكر على المسلمين، وليس ضاربا جذوره فى صميم المجتمعات الغربية فى أيرلندا، وإقليم الباسك فى أسبانيا، والمافيا فى إيطاليا، والنازية الجديدة الصاعدة فى ألمانيا، واليمين الفرنسى، والجريمة المنظمة والجماعات العنصرية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرغم من مظاهر انفراط العقد وتناثر حباته وقرب سقوط جوهرته الوسطى التى تحفظ اتزانه فى مصر إلا أن المقاومة ضد هذا التبعثر والتشتت، شلل الأطراف وضعف القلب تشتد كل يوم سواء بالمقاومة الفعلية للاحتلال فى فلسطين والعراق والشيشان وكشمير وجنوب لبنان باسم الدفاع عن الأوطان أو بالحركات الشعبية وتحرك الجماهير العربية ونزولها إلى الشارع ضد تبعية النظم السياسية للخارج وقهرها للداخل فى مصر خاصة، وتحرك المجتمع المدنى، وظهور حركات وطنية جديدة تلقائية تحافظ على استقلال الوطن ووحدة شعبه. كما أن نجاح الحركة الإسلامية فى فلسطين، حماس، وفى مصر، الإخوان المسلمون، بادرة على أن الإسلام الذى خرجت منه معظم حركات التحرر الوطنى، عائد من جديد لإنقاذ الدولة الوطنية من التفتت والتشرذم والضياع. ووصول الإسلام العقلانى المستنير فى تركيا والمغرب للحكم مؤشر على أن الإسلام السياسى قادر على إنقاذ

البلاد بروح المسئولية والوحدة الوطنية وأولوية المصالح العليا للبلاد على المصالح الحزبية والأيديولوجيات النظرية. ويأتى تحدى الثورة الإسلامية فى إيران للولايات المتحدة الأمريكية ليعبر عن ضمير الأمة بالنسبة لفلسطين المغتصبة ونظم الحكم التابعة دفاعا عن الحق باسم القوة.

ووراء هذا الإسلام الظاهر هناك العروبة المكبوتة التى توجت النضال العربى ضد الاستعمار والصهيونية فى الخمسينيات والستينيات. وهناك الوطن الذى استشهد من أجل استقلال الملايين، مازال قابعا فى الضمير. ويتحرك الشارع العربى غضبا ضد انتهاك حرمة الأوطان، والدم العربى المستباح. ويتحرك الصحفيون والمحامون والجامعيون والقضاة ينبئون عن قدوم مخاض جديد (ويقولون متى قل عسى أن يكون قريبا).

٥- لماذا يتأخر الإصلاح؟

يبدو أن النقاش الذى دار منذ فجر النهضة العربية وحتى الآن بأيهما نبدأ، الثورة أم الإصلاح، مازال دائرا حتى الآن. فقد اختار الأفغانى الثورة نظرا ليأسه من إصلاح الدولة العثمانية. فقد قضى على الإسلام أمراؤه المستبدون وعلماؤه الجاهلون. وبعد فشل الثورة العرابية فضل محمد عبده الإصلاح التدريجى للفقه واللغة العربية والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما أدى إلى نجاح الليبرالية فيما بعد ثورة ١٩١٩ حتى انتهت عام ١٩٥٢.

واستمر النقاش فى النصف الثانى من القرن العشرين بعد اندلاع الثورة المصرية عام ١٩٥٢. كان الضباط الأحرار يمثلون الثورة ضد الإنجليز والقصر والإقطاع. وأسرعوا بإلغاء الملكية. وانسحبت القوات البريطانية من الضفة الشرقية وقناة السويس فى ١٩٥٤فى حين أراد اليمين الإقطاعى الإصلاح عن طريق التدرج فى التغير الاجتماعى، والحوار مع الغرب دون الصدام معه، والمفاوضات مع إنجلترا دون معاداتها، والرقابة على القصر دون إلغاء الملكية. والرأسمالية الوطنية مرحلة متوسطة للتحول من الرأسمالية الغربية إلى الاشتراكية السوفيتية. كما أراد اليسار مزيدا من التحول الاشتراكى، من الإقطاع إلى الاشتراكية العلمية، ومن التحالف مع الغرب إلى التحالف مع الشرق.

وكما تحولت الثورة إلى ثورة مضادة من الخمسينيات والستينيات إلى السبعينيات

(*) الاتحاد: ٢٧ يناير ٢٠٠٧، الزمان: ٢٦ يناير ٢٠٠٧، الدستور: يناير ٢٠٠٧.

والثمانينيات فى القرن الماضى وحتى الآن كذلك توقف الإصلاح، وتجاوزه الواقع، وأصبح الناس يتوقون إلى مرحلة جديدة تتجاوز الثورة والإصلاح معا. لذلك برز مفهوم النهضة، وهو من إرث القرن التاسع عشر، النهضة العربية الأولى. وتحول إلى نهضة شاملة ليعبر عن متطلبات المرحلة الأولى.

وتقلصت طموحات هذا الجيل، ودارت حول الإصلاح من جديد. ويتضمن حرية المواطن أولا وديموقراطية الحكم ثانيا فى جدول الأعمال الوطنى. ويتسع أكثر ليشمل حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والإدارة العليا فى جدول الأعمال الغربى. وفى كلتا الحالتين تتوارى قضايا استكمال حركة التحرر الوطنى فى فلسطين والعراق، وإعادة توزيع الثروة الوطنية بما يحقق أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية، ووحدة الأمة ضد مخاطر التجزئة العرقية والطائفية، والتنمية المستقلة ضد تهريب رؤوس الأموال إلى الخارج وبيع الأصول والاستيراد والاعتماد على المعونات الخارجية، والدفاع عن الهوية ضد التغريب والتميع والتحالف مع الآخر والتبعية له، وحشد الناس وتجنيد الجماهير ضد اللامبالاة والفتور والاستكانة وغياب الحراك الاجتماعى.

ونتيجة لتأخر الإصلاح يتأزم الوضع السياسى بين الدولة الأمنية والمعارضة الضعيفة من ناصريين وليبراليين وماركسيين أو محظورة من إسلاميين. وينكمش دور الدولة- القاعدة، والشقيقة الكبرى فقد تتآكل الأطراف أو تبحث لها عن مركز آخر تنجذب إليه، ويعطيها الحماية والإحساس بالأمان. وقد ينعزل الشعب عن النظام السياسى القهرى لأنه يعطى الأولوية للصراع مع قوى الهيمنة الخارجية أو الإقليمية على حساب الحريات العامة والتعددية السياسية والمشاركة فى الحكم. وقد ينتج أيضا تفتيت المجتمع من الداخل ونشأة جماعات العنف المسلح لتغيير الواقع بالقوة وبحد السيف. فكثرة الضغط من الخارج يولد الانفجار من الداخل، وشدة القهر من أعلى يولد جماعات العنف من أسفل. فتنشغل الدولة

بسيطرة قوى الأمن، الجيش والشرطة، عليها حفاظا على النظام. وقد ينتج عنه تدخل القوى الأجنبية تحت ذريعة الدفاع عن الأقليات، والتطهير العرقى والتعددية الثقافية كمقدمة لتفتيت الدولة الوطنية. وقد يكفى الزعيم الملهم والأخ القائد ببصيرته وحنكته. ويتفرد بقرار فوقى للإصلاح طبقا لأهوائه المتقلبة شرقيا ثم غربيا، اشتراكيا ثم رأسماليا، مقاوما ثم مسالما، عروبيا ثم أفريقيا، وحدويا ثم قطريا. وقد يحكم تيار واحد أو حزب واحد يقصى باقى التيارات وفى مقدمتها التيار الإسلامى لما تمثله من خطورة على النظام السياسى وتحت ذريعة الفصل بين الدين والسياسة، دفاعا عن الدولة المدنية ضد الدولة الدينية. وقد يؤدى إلى الحرب الأهلية بين فرقاء الأمس وشركاء الوطن الواحد، تدمر كل شىء، الأرض والشعب، الثورة والإصلاح، وإلقاء التهم المتبادلة بالتكفير والتخوين. إذا ما تأخر الإصلاح يستمر حكم الفرد المطلق ملكيا كان أم جمهوريا أو حكم العائلات والعسكر، قريش والجيش. وقد يكون ذريعة لعدوان خارجى بحجة رعاية الإرهاب أو امتلاك أسلحة الدمار الشامل.

يعنى تأخر الإصلاح توقف الحراك الاجتماعى الطبيعى، والجدل التاريخى. ويصبح الحكم والشعب خارج الزمن. فيتحول الحكم إلى هيكل عظمى يعيش على نفسه، ويتشرذم الشعب. ويولى كل منهما ظهره للآخر. ويتصور النظام السياسى أنه باق إلى الأبد، وأن كرسى الحكم خالد، والمياه الجوفية تنخر فى الأساس بفعل الزمان وعوامل التعرية الطبيعية حتى ينهار. ويصبح الحاكم متماهيا مع الله والتاريخ، والشعب شيطان مدان خارج التاريخ. يُؤْثر الحاكم العاجل دون الآجل فى قصر نظر سياسى. أنا وحدى وما بعدى الطوفان. يعطى الأولوية للبقاء فى السلطة على سلامة الوطن من المخاطر الخارجية أو الانقلابات الداخلية. همه بقاء حكم العائلة وليس تداول السلطة بناء على اختيار الناس.

فإذا ما تحرك الزمن بفعل الأفراد والجماعات وقوانين التاريخ والجدل الاجتماعى فى الداخل قبل الخارج انهار البناء كله بفعل الهزات الأرضية. وكلما تأخر الإصلاح ظهرت

جماعات العنف السياسى بحكم قانون الفعل ورد الفعل. فكل فعل له رد فعل مساو وفى الاتجاه المضاد. وقد تنشأ جماعات مسلحة علنية فوق الأرض بدعوى الدفاع عن حقوق الأقليات. وتقع الحروب الأهلية التى يغذيها الغرب، الاستعمار والصهيونية، من أجل تفتيت الدول الوطنية التى ساهمت فى القضاء على الاستعمار فى عصر التحرر الوطنى. ومازالت تناضل ضد الصهيونية لاسترداد حقوق شعب فلسطين. عنف بعنف، ودم بدم، وقتل بقتل، "إذا اقتتل المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار".

فإذا كانت الثورة قد انقلبت إلى ثورة مضادة باستثناء المقاومة الوطنية فى فلسطين والعراق، وإذا كان الإصلاح قد تأخر وبدأت المجتمعات فى التفكك والأوطان فى التحلل، وكان من الصعب العودة إلى الثورة وحلم الخمسينيات والستينيات، فعلى الأقل لماذا يتأخر الإصلاح وهو أضعف الإيمان؟ والخطوة الأولى فيه الحريات العامة والحقوق الطبيعية للإنسان والمواطن، حرية التعبير عن الرأى، وحرية الحركة والانتقال، وحق الاختلاف والتعددية السياسية، وحق الاختيار الحر للحاكم وللنظام السياسى، وحق المواطنة الذى يتساوى فيه الجميع بصرف النظر عن دين أو مذهب أو طائفة أو عرق أو عائلة أو عشيرة، والمساواة فى الحقوق والواجبات بين جميع من ينتسبون إلى وطن واحد.

تأخر الإصلاح يعطى ذريعة للقوى الخارجية للتدخل بجدول أعمالها ومشاريعها للمنطقة باسم "الشرق الأوسط الكبير" أو "الشرق الأوسط الجديد" الذى يدور فى الفلك الأمريكى الصهيونى أو "المتوسطى" الذى يكون فيه الشمال مصدّرا والجنوب مستهلكا، وتكون إسرائيل عنصر التحديث فيه، وإبعاد العراق وشبه الجزيرة العربية كلها، شرقها وجنوبها، وقسمة الوطن العربى إلى أسيوى وأفريقى، مشرقى ومغربى. الخليج أقرب إلى آسيا، والمغرب أقرب إلى أوروبا.

تأخر الإصلاح يعنى تفتيت الأوطان وفك عرى الوحدة الوطنية، والوقوع فى اقتتال

طائفى مذهبى عرقى دون حوار سياسى وطنى يجمع بين التيارات الفكرية والسياسية فى البلاد، والاتفاق على حد أدنى من الوفاق الوطنى والبرامج السياسية مع أكبر قدر ممكن من التعددية السياسية. فالحق النظرى متعدد، والحق العملى واحد بتعبير الفقه القديم. المذاهب والأيديولوجيات السياسية تتعدد وتتغير بتغير المراحل التاريخية والأطر الثقافية، ولكن المصالح العامة ثابتة. تتغير النظم السياسية بتغير الأجيال، والدول ثابتة عبر العصور.

تأخر الإصلاح فى الداخل يعطى ذريعة لفرضه من الخارج. والأفضل ألا يتأخر، "بيدى لا بيد عمرو". بل من الضرورى أن يتسارع للحاق بما فات من ركود فى النظم واستكانة فى الشعوب.

٦- الإصلاح بين السلفية والعلمانية (١)

تمر الثقافة العربية الآن بحالة استقطاب شديد بين التيارين الرئيسيين فيها، السلفية أو أنصار القديم، والعلمانية أى أنصار الجديد. الأول ينهل من الموروث، والثانى ينقل من الوافد. الأول تتمسك به الجماهير، والثانى تتبناه النخبة. فتضاعف الاستقطاب ليس فقط بين الجناحين الرئيسيين بل أيضا بين القلب، وهى الدولة أو النظام السياسى وخصومها. فالتياران ليسا فقط فكريين بل هما أيضا حركتان سياسيتان. فالتيار السلفى خرجت منه معظم حركات الاستقلال الوطنى كالسنوسية والمهدية، وجمعية علماء الجزائر وعلال الفاسى، والأمير عبد القادر الجزائرى، بالإضافة إلى مؤسسه الأول الأفغانى. ومن التيار العلمانى خرجت أيضا كثير من حركات التحرر الوطنى بمفردها أو متضامنة مع التيار السلفى مثل جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والحزب الدستورى القديم والجديد فى تونس، وثورة ١٩١٩ فى مصر.

وتمتد حالة الاستقطاب إلى شتى مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين أنصار الحجاب وخصومه، وأنصار الدولة الدينية وأنصار الدولة المدنية، وأنصار تطبيق الشريعة وأنصار تطبيق القانون المدنى، بين الحزب الحاكم والمعارضة، بين القطاع العام والقطاع الخاص، بين الأغنياء والفقراء، بين العِمَّة والطربوش. ويمثله فى الإعلام برنامج "الاتجاه المعاكس" الذى يتم فيه دفع الحوار إلى حالة من التناقض والإقصاء المتبادل وكأن العرب لا يتفقون على شىء، ولا يلتقون على قضية. كل طرف ينفى الطرف

(*) الاتحاد: ٣ فبراير ٢٠٠٧ ، الزمان: ٣١ يناير ٢٠٠٧، الدستور: ١٠ فبراير ٢٠٠٧.

الآخر ويستبعده لحساب فرقته الناجية ضد فرقة خصمه الهالكة. فيغذى الخصام بدل الوفاق، وينمى التناقض بدل الحوار. وقد يؤدى ذلك كله فى وقت تندلع فيه الشرارة إلى حروب أهلية بين المتخاصمين فكريا. فتتفتت الأوطان. وهو الخطر الماثل الآن على العراق وفلسطين والسودان والصومال ولبنان.

لقد نشا الإصلاح الأول فى القرن التاسع عشر فى مواجهة الاستعمار والهيمنة فى الخارج والقهر والجهل فى الداخل. وكان الدين هو البداية بعد تحوله إلى المكوّن الرئيسى للثقافة الوطنية عبر التاريخ. برز الإصلاح كحل ثالث لضعف الدولة العثمانية أمام الخارج، وتسلطها على الداخل ضد تيارين متعارضين، السلفية أو العثمانية التى كان يمثلها أبو الهدى الصيادى، والعلمانية التى كان يمثلها "حزب الاتحاد والترقى" أو "تركيا الفتاة" أو "القومية الطورانية" والتى اقتطفت الثمرة بعد ثورة كمال أتاتورك فى ١٩٢٣، وإلغاء الخلافة فى ١٩٢٤. وأصبح بناء الدولة الحديثة هو بداية الإصلاح بالمعنى الشامل، والتحول من الدين إلى العلم، ومن القديم إلى الجديد. وهو بداية النهضة والتغير الاجتماعى والتحول التاريخى. لم يكن هناك فرق بين الأفغانى مؤسس الحركة الإصلاحية وشبلى شميل ممثل التيار العلمى العلمانى. كان الأول يسمى الثانى "حكيم الشرق". وكان الثانى يسمى الأول "لوثر الشرق".

وقام التيار الليبرالى على يد الطهطاوى مقيما الجسور بين التيار السلفى والتيار العلمانى، جامعا بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد. قرأ الطهطاوى الشريعة الإسلامية من منظور قانون نابليون "الشَّرطة"، وقرأ قانون نابليون مؤصلا إياه فى الشريعة الإسلامية. القرآن والدستور يقومان بنفس الوظيفة التشريعية. والفرق الإسلامية هى الأحزاب السياسية. وأهل الحل والعقد هو البرلمان. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة والحسبة هو الإعلام الجديد وحرية الصحافة. وقاضى القضاة هى المحكمة الدستورية العليا. والشورى هى الديموقراطية. والزكاة وحق الفقراء فى أموال الأغنياء هى الاشتراكية. وشهادة

أن لا إله إلا الله هى الحرية. والنظم الإسلامية أو "الأحكام السلطانية" هى النظم السياسية. ومقاصد الشريعة، الدفاع عن الحياة والعقل والقيمة والعرض أو الكرامة والمال أى الثروة الوطنية هى حقوق الإنسان الفردية والاجتماعية. والشريعة الإسلامية "وضعية" كما يقول الشاطبى فى "الموافقات" أى مدنية تتأسس فى حياة الناس، وتدافع عن مصالحهم العامة. حمل مشايخ الأزهر مثل حسن العطار والطهطاوى مشعل الإصلاح والنهضة. واستمرت مدرسة محمد عبده فى هذا التيار مثل قاسم أمين وسعد زغلول وعلى عبد الرازق وطه حسين ومصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ محمد الخفيف داخل الأزهر وخارجه. لا فرق بين سلفى وعلمانى، بين إسلامى وليبرالى مثل هيكل والعقاد وخالد محمد خالد، بين إسلامى واشتراكى كما هو الحال عند الشيخ سعاد جلال "الشيخ الأحمر".

ولما انتهى الإصلاح إلى طريق مسدود بالرغم من قيادته للحركة الوطنية المصرية منذ ثورة ١٩١٩ حتى الأربعينيات والتى ساهم فيها الإخوان والوفد ومصر الفتاة والماركسيون قامت الثورات العربية الأخيرة فى منتصف القرن الماضى لتواجه بطريقة أكثر حسما، ووراء الضباط الأحرار جيوش نظامية، قضية الاستقلال الوطنى، وجلاء القوات الأجنبية، وتحقيق وحدة وادى النيل بين مصر والسودان. وبالرغم من إنجازاتها الضخمة: الإصلاح الزراعى فى ١٩٥٣، جلاء القوات الأجنبية فى ١٩٥٤، مؤتمر باندونج وتأسيس حركة عدم الانحياز كاختيار سياسى للعالم الثالث فى ١٩٥٥، تأميم القناة فى ١٩٥٦، تمصير الشركات الأجنبية فى ١٩٥٧، قيام أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث، الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، تأييد ثورة العراق فى ١٩٥٨، إصدار قوانين يوليو الاشتراكية، صياغة الميثاق الوطنى فى ١٩٦٢-١٩٦٣، بناء السد العالى فى ١٩٦٤، مناصرة ثورة الثمن فى ١٩٦٤، الثورة الليبية فى ١٩٦٩، التصنيع، مجانية التعليم، إنشاء القطاع العام دعما للفقراء ومحدودى الدخل، تأييد ثورة الجزائر فى ١٩٥٤، وقيام منظمة التحرير الفلسطينية فى ١٩٦٥،

إلا أنها عملت فى فراغ سياسى لم تملؤه الزعامة الوطنية فى شخص الرئيس، الزعيم الخالد. فقد حل الأحزاب وفى مقدمتها الوفد حزب الأغلبية والممثل لثورة ١٩١٩. وحل جماعة الإخوان المسلمين فى ١٩٥٤. ولم تنجح التنظيمات السياسية التى أنشأتها الثورة فى ملء الفراغ السياسى مثل: هيئة التحرير، الاتحاد القومى، الاتحاد الاشتراكى، حزب مصر، الحزب الوطنى. ووضع الإخوان فى السجون فى ١٩٥٤ والشيوعيون أيضا فى ١٩٥٨.

وبعد هزيمة ١٩٦٧ بدأ المشروع القومى فى الانهيار، والنظام السياسى فى الضعف حتى انتهى بوفاة الزعيم الخالد فى سبتمبر ١٩٧٠. وأتى نظام سياسى آخر يستعمل الإخوان والحركة الإسلامية لتصفية الناصريين فى الجمهورية الثانية. كما يبدأ الآن العلمانيون التنويريون بتصفية الإخوان فى الجمهورية الثالثة حتى يضعف الجناحان الرئيسيان فى المعارضة، ويقوى القلب من جديد أى الدولة الممثلة فى النظام السياسى. ولما ضعف الأساس الشعبى للنظام بعد الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ وجد أحلافا فى الخارج بالمفاوضات مع إسرائيل فى كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام فى ١٩٧٩. ولما ضعفت الدولة أكثر فأكثر، جعلت نفسها حليفا مطلقا للولايات المتحدة الأمريكية، وأيدت عدوانه على أفغانستان ثم العراق ثم الصومال، والعدوان الإسرائيلى المستمر على فلسطين واجتياح فلسطين كلها. وبعد عصر الاستقطاب فى النظام العالمى ونشأة عالم ذى قطب واحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ثم الالتصاق بها إلى حد التبعية خضوعا لقوانين السوق والمنافسة الحرة. فما يفقده النظام فى الداخل يجد تعويضا له فى الخارج.

ومع بداية تفسخ الدولة وتفكيك الوطن، وفساد النظام السياسى ينشط الجناحان الرئيسيان فى الحياة السياسية، السلفية والعلمانية، الإخوان والحركات الإسلامية من ناحية والشيوعيون أو مجموع قوى اليسار من ناحية أخرى لوراثة الدولة التابعة والحليفة للخارج، والقاهرة والفاسدة فى الداخل، صراعا على السلطة. ويشتد الصراع كلما ظن كل

فريق أن الدولة على وشك الانهيار، وأن النظام السياسى يلفظ أنفاسه الأخيرة. وتحدث حالة استقطاب شامل يغيب فيه الحوار بين قوى المعارضة السياسية ويغيب فيه أيضا الحوار بين الحكومة والمعارضة، بين الدولة وخصومها. والوطن هو الخاسر، وليس النظام السياسى الذى يعتمد على قوة رجال الأعمال، وليس الدولة الأمنية لاعتمادها على أجهزة الأمن والشرطة.

هل يمكن العودة إلى الإصلاح الأول فى فجر النهضة العربية الأولى من أجل إقامة نهضة عربية ثانية تتجاوز الاستقطاب الحالى بين السلفية والعلمانية والحرب بين الإخوة الأعداء ويقيم جسرا بين الحكومة والمعارضة بين الدولة وخصومها؟ كان شعار الطهطاوى الوطن للجميع. "فليكن هذا الوطن مكانا لسعادتنا أجمعين. نبنيه بالحرية والفكر والمصنع". والتعددية السياسية يكفلها الشرع بإثباته حق الاختلاف "كلكم راد وكلكم مردود عليه". والمركب أوشك على الغرق، لا يستطيع ربان واحد إنقاذه. فهل يمكن تقديم مصلحة الوطن على مصلحة الحزب، ووحدة الوطن على الصراع على السلطة حتى تصل السفينة أولا إلى بر الأمان؟

٧- الإصلاح بين السلفية والعلمانية (٢)

منذ اتصال العالم الإسلامى بالغرب الحديث منذ القرن الثامن عشر نشأت ثلاثة تيارات فكرية واختيارات سياسية، مازالت مستمرة حتى الآن وأصبحت قضية العصر الحديث كله.

الأول التيار العلمانى الذى نشأ فى الهند عند السيد أحمد خان بعد أن قضت بريطانيا على إمبراطورية المغول، وأصبح "النموذج الأوروبى" هو النموذج الوحيد للتحديث. والبداية بالتعليم وإنشاء المدارس الحديثة وخلق جيل جديد من اللوردات المسلمين، وتقوم ملكة بريطانيا بدور خليفة المسلمين. وهو نفس تيار تركيا الفتاة، وجمعية الاتحاد والترقى والقومية الطورانية لإنقاذ تركيا من نظام الخلافة القاهر فى الداخل والضعيف فى الخارج والذى أدى إلى هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى والذى جسده مصطفى كمال بثورته فى ١٩٢٣ وإلغائه نظام الخلافة فى ١٩٢٤. واستمر هذا التيار فى الوطن العربى خاصة عند بعض المهاجرين الشوام إلى مصر مثل شبلى شميل، وفرح أنطون، ونقولا حداد، ومن المصريين سلامة موسى وإسماعيل مظهر وزكى نجيب محمود ومازال مستمرا عند فؤاد زكريا. وسياسيا يتبنى الليبرالية أو اللامركزية أو التعددية السياسية أو العلمانية أسوة بالنظام السياسى الغربى.

والثانى التيار السلفى كرد فعل طبيعى على التيار العلمانى. فالانبهار بالجديد

(*) الشرق الأوسط: سبتمبر ٢٠٠٥.

ينقلب إلى الدفاع عن القديم، وتقليد الغرب الحديث يؤدى إلى تقليد القدماء. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح بها أولها. ويعتبر عادة محمد بن عبد الوهاب زعيم السلفيين فى القرن الثامن عشر فى شبه الجزيرة العربية وكما عرض فى "التوحيد الذى هو حق الله على العبيد". وبالرغم من تعلمه على يد بعض الإصلاحيين فى العراق مثل الألوسى إلا أنه اكتشف ابن تيمية الذى رده إلى أحمد بن حنبل وأصبح المصدر الأول لزعيم السلفيين المعاصرين رشيد رضا حتى الحركات الإسلامية المعاصرة. ومثله أبو الهدى الصيادى فى تركيا وفى النظام الشاهنشاهى فى إيران قبل الثورة فى ١٩٧٩.

والثالث التيار الإصلاحى الذى نشأ فى مصر فى مدرسة الأفغانى الذى هاجر إليها واستمر فيه تلاميذه من بعده محمد عبده وحسن البنا فى مصر، وشكيب أرسلان والقاسمى والكواكبى فى الشام، وعلال الفاسى فى المغرب، وعبد الحميد بن باديس فى الجزائر، والسنوسى حتى الطاهر بين عاشور فى تونس، وعمر المختار فى ليبيا، والمهدى فى السودان. والكل ينتسب إلى الألوسيين فى العراق والشوكانى فى اليمن وحركة الإصلاح المعارضة الآن فى شبه الجزيرة العربية فى الداخل والخارج.

ومن ثم نشأ طرفان ووسط. طرفان: العلمانية والسلفية، ووسط وهو الإصلاح. وكانت الاختيارات الثلاثة معروضة على العالم الإسلامى ووقعت أحداث حتمت هذا الاختيار أو ذاك. فلما صاغ الأفغانى الإسلام فى العصر الحديث فى شعار: الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل تبنى الضباط المصريون الشعار بقيادة أحمد عرابى الذى وقف فى ميدان عابدين مع رفاقه مواجها الخديوى توفيق "إن الله خلقنا أحرارا ولم يخلقنا عقارا. والله لا نُورّثُ بعد اليوم". وجاء الإنجليز واحتلوا مصر فى ١٨٨٢ بعد هزيمة العرابيين العسكرية بذريعة حماية سلطان مصر والدفاع عن نظام الخلافة. فخشى محمد عبده من عواقب الثورة السياسية ومناطحة السلطة السياسية والانقلاب عليها والخروج

على الحاكم فأثر التغير الاجتماعى وإصلاح المحاكم الشرعية ونظام التعليم والقضاء على العادات الاجتماعية مثل "سفه الفلاح". فلما قامت الثورة الكمالية فى تركيا بقيادة مصطفى كمال ونجح العلمانيون فى الاستيلاء على الحكم خشى رشيد رضا، تلميذ محمد عبده الأثير، من أن يتكرر النموذج التركى فى باقى أرجاء العالم الإسلامى فارتد سلفيا كرد فعل على العلمانية. وارتد الإصلاح مرة ثانية إلى الوراء. فلما أراد حسن البنا، تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم، إحياء مشروع الإصلاح من جديد، ليس فقط على مستوى الأيديولوجية الثورية كما حاول الأفغانى فى "العروة الوثقى" بل أيضا على مستوى التنظيم الثورى الذى لم يستطع الأفغانى إنجازه لأنه لم يستقر فى مكان واحد، وكان مطاردا فى أفغانستان وإيران والحجاز ومصر والسودان وتركيا حتى استقر فى باريس. أنشأ حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين على ضفاف القناة فى الإسماعيلية عام ١٩٢٨. وأصبحت فى ظرف عقدين من الزمان وحتى الآن أكبر تنظيم سياسى إسلامى فى كل أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى. حاربت فى فلسطين، وشاركت فى معظم الثورات العربية منذ منتصف الخمسينيات. ومازالت تمثل التحدى الرئيسى للنظم السياسية القائمة. فقرر القصر والإنجليز التخلص من حسن البنا فاغتيل فى فبراير ١٩٤٩. ودخلت الجماعة السجون. ولما اصطدمت بالضباط الأحرار فى مصر فى ١٩٥٤ دخلوا السجون من جديد. وتحول سيد قطب، أكبر مفكر إصلاحى معاصر مثل أبى الأعلى المودودى فى باكستان، من مفكر اشتراكى وناقد أدبى رومانسى إلى مفكر غاضب من آثار التعذيب. وانتقل من "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" و"معركة الإسلام والرأسمالية" و"السلام العالمى والإسلام" و"خصائص التصور الإسلامى ومقوماته" الذى يقوم على التوازن والوسطية إلى "معالم على الطريق" الذى يقسم فيه المجتمع إلى جاهلية وإسلام، إله وطاغوت، إيمان وكفر، حق وباطل. ولا يمكن المصالحة بين الاثنين إلا بقضاء الثانى على الأول بتكوين جيل قرآنى فريد تحت

شعار "لا إله إلا الله". وكان سيد قطب قد تأثر فى السجن بكتاب أبى الأعلى المودودى "المصطلحات الأربعة فى القرآن" الألوهية، والربوبية، والحاكمية، والعبودية والتى تعبر عن الصراع بين المسلمين والهندوس فى الهند، وتدعو إلى المفاصلة التى أدت إلى انفصال باكستان عن الهند.

وما حدث من انهيار فى التيار الإصلاحى حتى أصبح سلفيا حدث أيضا فى التيار العلمانى بعد أن قوى التغريب فيه. فقد حرص شبلى شميل على تبرير نظرية التطور بالآيات القرآنية والتراث الإسلامى وتأسيس علم الاجتماع اعتمادا على ابن خلدون. ثم انفصل تلميذه أحمد لطفى السيد عن الموروث واعتمد على الوافد الغربى كله، ابتداء من ترجمة كتاب "السياسة" لأرسطو حتى الليبرالية السياسية وتأسيس أحزاب الأقلية المتعاونة مع القصر. فزادت المسافة بين السلفية والعلمانية. ولم تنفع إسلاميات العقاد أو محمد حسين هيكل أو طه حسين أو خالد محمد خالد فى التقريب بين التيارين المتباعدين. بل إن طه حسين فى "مستقبل الثقافة فى مصر" روّج للنموذج الغربى بكامله حتى تكون مصر قطعة من أوروبا مرتبطة بالثقافة اليونانية واللاتينية، ثقافة البحر الأبيض المتوسط وليست بالثقافة الأسيوية حيث يعيش ثلاثة أرباع المسلمين مثل رينيه حبشى فى لبنان. وانقلب خالد محمد خالد من الليبرالية فى بداية حياته فى "من هنا نبدأ" إلى السلفية فى "رجال حول الرسول". وازداد الانبهار بالغرب عند سلامة موسى فى "هؤلاء علمونى" وكلهم من أساطين الفكر الغربى وأدبائه ولا يوجد مفكر إسلامى واحد. ولم تنفع محاولات فرح أنطون تأصيل العلمانية فى فلسفة ابن رشد. بل انقلب إسماعيل مظهر من "أصل الأنواع" فى أول حياته إلى "الإسلام أبدا" فى آخر حياته. وازداد التعارض إلى حد التناقض بين السلفية التى صب فيها الإصلاح، والعلمانية التى صب فيها التيار العلمى العلمانى.

وإذا كان التيار العلمانى الأول الذى يتبنى النموذج الغربى ضعيف النشأة، حملته

الأقلية إلا أنه اشتد أكثر فأكثر بزيادة الانبهار بالغرب فى عصر القطب الواحد والعولمة والقنوات الفضائية ووسائل الاتصال الحديثة وقيم الاستهلاك واتساع رقعة الطبقات الغنية. كما اشتد التيار السلفى داخل السجون أولا وخارجها ثانيا لضعف الدولة الوطنية وضياع الاستقلال الوطنى وتحولها إلى دولة قاهرة للداخل وتابعة للخارج. فتحولت إلى حركة سلفية جهادية لصد الهجمة الجديدة على الوطن العربى والعالم الإسلامى باحتلال باحتلال كل فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان واستمرار احتلال كشمير وسبته ومليليه فى المغرب. واستطاعت حشد الجماهير وتقديم البديل كما تعبر عن ذلك شعاراتها "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل"، "الحاكمية لله"، "تطبيق الشريعة الإسلامية". وكلما ضعفت الدولة الوطنية اشتد الاستقطاب بين التيارين المتنازعين كسلطة بديلة. بل وصل الآمر إلى حد الحرب الأهلية فى الجزائر والتى كان ضحيتها أكثر من مائة ألف شهيد، وإلى معارك مسلحة فى شبه الجزيرة العربية. ومازال التوتر قائما بين التيارين فى مصر وليبيا وسوريا. واستطاع بعضها الوصول إلى الحكم فى السودان وإيران.

وإذا كان التيار العلمى العلمانى قد رفع شعار "لا يتغير شىء فى الواقع إلا إذا بدأنا بعلوم الطبيعة أولا وتم الفصل بين الدين والدولة ثانيا، وإذا كان التيار الإصلاحى قد رفع شعار "لا يتغير شىء فى الواقع إن لم نعد فهمنا للدين أولا" فإن التيار الليبرالى السياسى الذى مثله الطهطاوى فى مصر، وخير الدين التونسى وابن أبى ضياف فى تونس، وحركة التنظيمات عند أنور باشا ومدحت باشا فى تركيا قد رفع شعار "لن يتغير شىء فى الواقع إن لم نبن الدولة الحديثة أولا". وهو ما فعله الطهطاوى مع محمد على والتونسى مع باى تونس، وأنور باشا مع السلطان عبد الحميد. ولما ضعفت الدولة تحول هذا التيار إلى تيار تبريرى للسلطة القائمة وراء الدولة وليس أمامها. وجاءت الليبرالية المدنية تعطى الأولوية لحقوق الإنسان و المجتمع المدنى وقضايا المرأة والأقليات على الدولة بتشجيع من الغرب مما

زاد الاستقطاب بين السلفية والعلمانية.

يستطيع الإصلاح أن يعاود الكرة حماية للأمة من الضغوط الخارجية والمشاريع المفروضة عليها مثل مشروع الشرق الأوسط الكبير، والمتوسطية والعولمة. كما يستطيع حماية الأمة من تفتيت الأوطان بعد القضاء على الخلافة أولا ثم على المشروع القومى العربى ثانيا ثم على الدولة القطرية ثالثا بتفتيتها إلى فسيفساء عرقى طائفى. وهو ما يحدث حاليا فى العراق. كما يستطيع استدعاء الحركات الإصلاحية المهاجرة لعودتها إلى الداخل واستئناف مشروعها الإصلاحى بالحوار مع التيارات الأخرى فى إطار من الشرعية والحوار الوطنى الشامل بين كل التيارات الفكرية والسياسية، خاصة بعد انتشار الدعوات إلى الوسطية، ونبذ التطرف والحوار بين الحكومة والمعارضات، والتعددية السياسية. وتجارب الأردن والمغرب وتركيا رائدة فى ذلك.

إن الإصلاح الجديد يتطلب أولا موقفا نقديا من القديم وإعادة بناء علومه بما يتفق مع تحديات العصر وأزماته. كما يتطلب ثانيا موقفا نقديا من الغرب الحديث وتحويله من مصدر للعلم كى يصبح موضوعا للعلم من أجل القضاء على أسطورة النموذج الأوحد، والثقافة العالمية، والمعلم الأبدى. كما يستدعى ثالثا التنظير المباشر للواقع الذى نعيشه وتحويله إلى نظرية حتى لا يكتفى الإصلاح بتأويل النصوص القديمة ونقد النصوص الجديدة دون تحويل الواقع إلى نص جديد خاصة وأن الحضارة العربية الإسلامية متهمة بأنها حضارة نص كما قال محمود درويش: واحتمى أبوك بالنصوص فدخل اللصوص.

مهمة الإصلاحيين الجدد هو تقييم التجارب الإصلاحية الماضية على مدى قرنين من الزمان من أجل استئنافها فى حركة إصلاحية جديدة تنهى هذا الاستقطاب القاتل بين السلفية والعلمانية حفاظا على وحدة الأوطان واستقلالها.

الفصل الرابـــع

الثقافة الوطنية

١- اللغة العربية إلى أين؟

٢- الجزيرة هذا الصباح.

٣- ابن خلدون بين الاستشراق والعرقية.

٤- الإعلام والعنف.

٥- المشروع النهضوى العربى الجديد.

١- اللغة العربية إلى أين؟

فى العقود الثلاثة الأخيرة، عصر الانفتاح على الغرب الأمريكى غزت اللغة العربية مجموعة من الألفاظ المعربة تخص الوجبات السريعة على الطريقة الأمريكية. حملت معها قيم الاستهلاك السريع، ومتعة الطعام البارد والحار "ياللا ابدأ المرح والمتعة"، "المتعة بقت متعتين". ووزعت الإعلانات الملونة على أوراق ناعمة داخل "الأهرام" أكبر صحيفة قومية يومية. ودخلت الملايين منها كل بيت، بالإضافة إلى كتابتها على واجهة المحلات واللافتات الكبيرة حتى أصبحت زاد كل يوم. يقرؤها الشباب الجديد ويندفع نحوها. ومعظمه عاطل عن العمل أو من طبقة متوسطة أو راقية، يتشبه بالغير، ويعشق الجديد الذى ترمز له الولايات المتحدة الأمريكية. يعجز الفقراء عن الاقتراب منها لأسعارها. ويعجب المثقفون من فخامة الطباعة الملونة والأوراق الناعمة، ومؤلفاتهم على أوراق جرائد صفراء، وأسعارها المرتفعة تدخل فى جيوب الناشرين. يتفقون على ألف ويطبعون ألوفا.

ولا فرق بين السياسة المباشرة، الحكم والمعارضة حول السلطة السياسية، والثقافة الشعبية وتحليل الخطاب فى الحياة اليومية. فكلاهما كاشفان عن الأوضاع السياسية والاجتماعية سواء كان فى ظاهر الحكم أو فى باطن السلطة. فاللغة سلطة وثقافة. وقد تم تحليل ما يقرب من ثلاثين إعلانا لمعرفة لغتها ومفاهيمها ودلالتها على الأحوال العامة فى البلاد التى يختلف فيها السياسى والثقافى فى الثقافة السياسية التى تكشف عنها اللغة التداولية فى الحياة اليومية. وهى ليست مجرد تأملات وملاحظات عابرة بل تقوم على

(*) الاتحاد: ٢١ مايو ٢٠٠٥، الزمان: ٢٤ مايو ٢٠٠٥، الدستور: مايو ٢٠٠٥.

تحليل دقيق للمضمون. ولا يفهم من ذلك دعاية لهذا أو نقدا لذلك بل مجرد وصف للغة الإعلان كما هو الحال فى الدراسات الإعلامية المعاصرة. والمفارقة هى كيف يكون الاتجاه السياسى العام معارضا للولايات المتحدة الأمريكية واللغة التداولية فى الحياة اليومية لغة الوجبات الأمريكية السريعة مما يوقع فى ازدواجية الشخصية بين القول والعمل، القول الأمريكى والعمل الوطنى؟

إن دخول الألفاظ الأجنبية وتعريبها شىء طبيعى مثل دخول الألفاظ العربية إلى اللاتينية ثم أصبحت فرنسية أو إيطالية أو أسبانية أو إنجليزية. ومنذ عصر النهضة فى القرن الثامن عشر دخلت ألفاظ التنوير مثل "الشَّرطة" أى القانون، "الأندستريا" أى الصناعة والعمران أو "الأيديولوجيا" و"البرلمان" و"الليبرالية" أى الألفاظ السياسية. ثم دخلت بعد ذلك ألفاظ التكنولوجيا الحديثة مثل: "الراديو"، "التليفزيون"، "التليفون"، "التليجراف"، "الكمبيوتر"، "الانترنت". والآن دخل كم هائل من مصطلحات الوجبات السريعة وقيم الاستهلاك وعمت المحلات العامة والإعلانات بالألفاظ المعربة أو بالعامية الدارجة.

وظهرت ألفاظ معربة عن أنواع الأطعمة الأجنبية وطرق الطهى التى لا يوجد مقابل لها عند العرب. وأشهرها لفظ "برجر" وهو اللحم المفروم. يعرف العرب الشواء. وهو اللحم الطبيعى للشاة كلها دون فرمها. ويُضاف إليه ألفاظ أخرى معربة مثل "تشيز برجر" أى اللحم المفروم بالجبن، "تشيكين برجر" أى لحم الدجاج المفروم، "مشروم برجر" أى اللحم المفروم بعش الغراب. وأحيانا يتضاعف اللفظ ويصبح عبارة ثلاثية اللفظ مثل "دوبل تشيز برجر". وأحيانا لا يلتفت إلى الثقافات الشعبية. ففى الطعام لا يوجد حلال أو حرام إلا الطعم والحاجة مثل "هامبورجر" و"الهام" هو شرائح الخنزير. وقد تم تعبير لفظ "البيرة" من قبل. وأحيانا يصبح الأمر غير مفهوم ولكن له دلالة صوتية أنه غربى مثل "البوس برجر"، وبالإضافة إلى اللحوم هناك أيضا الحلوى مثل "كيك المفن". وقد يكون التعبير كله معربا لا

عربيـة فيـه مثـل "سـندوتش كـانتوك"، "البيتـزا ترادـيشونال" ومـا أسـهل أن يقـال الفطـائر التقليدية، "روست بيف" أى اللحم البقرى المحمر، "مشروم آند سويس" وهما عشر الغراب وسويسرا ولا رابط بينهما إلا طريقة الطهى. "فيمس ستار برجر" وهو اللحم المفروم الكبير على شكل النجمة، "روست بيف آند شيدر" وهو اللحم البقرى المحمر مع الجبن، "تشيكين فيليه" وهو شرائح الدجاج، "ميجا مشروم" أى عش الغراب الكبير، "ستار ناجتس" وهو غير معروف إلا نصفه الأول نجمة شىء ما. والمحشى هو "ستافت كراست"، والأجنحة المحمرة "فاير ونجز"، والبعض يتعلق بفواتح الشهية مثل "صوص الباربكيو" وهى صلصة الطماطم الحراقة، "صوص الببر مايونيز" وهى صلصة الفلفل بالخل والبيض، "كاتشب" وتعنى "إمسك من فوق" مثل "سفن آب" سبعة من فوق.

وقد يكون اللفظ الأجنبى غير مفهوم مثل "وجبة الريزو" إلا أن جرس العبارة أفضل من "وجبة الفول" أو "وجبة الطعمية" أو "وجبة الكشرى". فشتان بين الموروث والوافد، بين البلدى والمستورد، بين المحلى والعالمى، بين الشعبى والراقى. وسكر "الايسنج"، والمعروف هو سكر التموين، وسكر القمع، وسكر البودرة.

وما حدث فى المأكولات حدث أيضا فى المشروبات الشهيرة مثل "البيبسى كولا" وهى كبيرة ولذيذة، و"الكوكاكولا" وقد أصبحت رمزا للحضارة الأمريكية الحديثة، و"سفن آب" ودون معرفة لماذا هى "سبعة اللى فوق"، هل هى فقاعات الغاز المتصاعدة منها؟ ويتحول اللامعقول العشوائى فى اللغات الأجنبية إلى العربية ويتحول إلى مفهوم بالعادة والتكرار. بل إن بعض الألفاظ المعربة هى مجرد كلمات عادية فى اللغة الإنجليزية وليست مصطلحات مثل "كول سلو كبير" أى "بارد وبطئ" أى سلطة الكرنب.

ومعظم أسماء محلات هذه الوجبات السريعة أجنبية وأشهرها "ماكدونالد"، "بيتزاهت"، "كنتاكى"، "هارديز"، "جينو"، وصندوق الطعام هو "باكت". وطريقة توصيل

الطلبات "هوم ديليفرى" أى التوصيل للمنازل، وأماكنها ميدان تريومف، بجوار مركب أمريكانا، فى المدن الجديدة بيفرلى هيلز، وليس المدن الصناعية كمدينة العمال أو شبرا الخيمة. وما أسهل من تعريب البعض منها مثل "سولت آند بيبر" وهما الملح والفلفل، ولكن الجرس الغربى يؤثر فى الأذن العربية أكثر من اللفظين العربيين، "داى آند نايت" أى "الليل والنهار" ولهما رصيد فى القرآن. واستعمل أحدهما من قبل فى "كازينو الليل"، و"ويك إند" أى عطلة نهاية الأسبوع. وقد يُمصر أحد الأسماء الأجنبية مثل "تكا النيل" كما مصرت من قبل بعض وكالات العربات مثل "محمد موتورز"، "منصور شيفورليه" جمعا بين الموروث والوافد، بين المحلى والعالمى.

وكل هذه الألفاظ المعربة أى المنقولة نقلا صوتيا من الإنجليزية إلى العربية لها ألفاظ عربية مقابل مثل "ميل" أى وجبة، و"سوبر" أى كبير، "سمارت" أى لطيف، "ميجا" كبير، "فاميلى" أى عائلة، "منيو" أى قائمة طعام. ومن ثم ظهرت تعبيرات مثل "سوبر ميل"، "سمارت ميل"، "ميجا ميل"، "فاميلى ميل"، "سمارت منيو ميل"، "كرسبى ستريس ميل". وقد يختلط المعرب بالعربى مثل "ميجا مطافى ميل". وقد يصبح الأمر خليطا غير مفهوم إلا أنه أجنبى. والناس تعشق الأجنبى فى عصر الانفتاح مثل "زنجر سوبريم ميل" أو "السينا بارتس". لا يهم المعنى المفهوم بل المطلوب فقط اللفظ الأجنبى المنطوق.

وأحيانا تستعمل ألفاظ معربة بلا داع بالرغم من وجود المقابل العربى المستقر مثل "بيتى" أى صغير و"بان" أى خبز فى "بيتى بان"، و"سبايسى" أى حريف باللغة الفصحى و"حراق" باللغة المتداولة، و"تشيز" أى جبن فى "تشيز برجر"، "بيف" أى لحم بقرى، "بيرى" أى بالزبد فى "خبز بيورى"، "سينمون ريزن" وتعنى القرفة والزبيب، "تشيز لفرز" وتعنى محبى الجبن، بالإضافة إلى إمكانية تعميم لفظ "لفرز" فى مجتمع مازال يحرم الحب ويعشقه.

ومن السهل إيجاد ألفاظ عربية أصيلة للألفاظ الأجنبية المعربة المنقولة صوتيا مثل "بيج تستى" أى طعم لذيذ، "بيج كوكى" أى مخبوزات جافة كبيرة.

وقد تعربت ألفاظ الطهى من قبل من الفرنسية والإيطالية وقت الاستعمار الفرنسى والإيطالى والبريطانى قبل الغزو الأمريكى وذلك مثل "فيليه" فى "دجاج فيليه"، وهو عرق اللحم الملفوف بالخيط، "بانيه" فى "دجاج بانيه" وهو المقلى، "روست" أى المحمر. و"فيلتو" فى "دجاج فيلتو" وهو لحم رقيق من الصدر من الألفاظ الإيطالية. كما دخلت أنواع الأطعمة وتعربت من قبل مثل "شيكولاته" بل وأصبحت كلمات شائعة فى الأغانى الشعبية، و"بسكويت" وتستعمل أحيانا فى الغزل. "كوكى" وهى المخبوزات الجافة الحلوة، "كيك" التى تحولت إلى كعك، كما عربت أنواع الأطعمة، "ماركات" الجبن فى "جبنة امنتال" أو "موتزاريللا" فى "دجاج موتزاريللا"، وكذلك أنواع الأرز مثل "أرز بسمتى".

ويختلط التركى القديم مع الأمريكى الجديد، وكلاهما يقص تاريخ العرب الحديث كما تعكسه اللغة العربية مثل "شيش طاووق". وقد دخلت من قبل أنواع الأطعمة الشرقية، الهندية مثل "الكارى" فى "دجاج بالكارى".

وقد نقلت بعض التعبيرات حرفيا مثل "هوت دوج" وتعنى الكلب الساخن، وهو ما لا يؤكل، دون مراعاة للثقافة الشعبية ومنظومة قيمها. مع أنه من السهولة وضع ألفاظ عربية وتعبيرات عربية، وأصناف مأكولات عربية مثل "كبده اسكندرانى" حتى ولو كانت عامية مثل "لهاليبو". فهى أفضل من "سبايسى" و"شيلى". وأفضل منها بعض العبارات مثل "عاوز تولعها"، "هاتقدر على الملهلب؟".

وإذا اختيرت أسماء عربية فإنها تكشف عن بنية الثقافة العربية، الثقافة الأبوية مثل "وصاية" فى "عرض خطير... من كومبو وصاية الكبير". وحتى السلاطة "سلطة سيزار" أى القيصر إشارة إلى العظمة والسُّلطة فى مجتمع ثار على سلطة الإقطاع والباشوات والقياصرة

الجدد. فأصبحت السُّلْطة والسَّلَطة قرينين.

ومعظمها صفات الكم مثل كبير، عظيم، أو مرادفها المعرب مثل "جامبو" فى "سمان جامبو"، سوبر فى "سوبر ستار"، "كومبو"، "ميجا"، "دوبل". وقد تقترن الألفاظ كلها مثل "كومبو حجم سوبر"، وفى أفعل التفضيل "أكبر" و"أعظم" وما يقابله مثل "اكسترا" فى "اكسترا تشيزى" أى جبن إضافى. وهى الصفات الغالبة على الثقافة العربية الحالية.

ونظرا لموسيقى اللغة العربية والتى بدأت فى بعض المسرحيات التجارية وعباراتها النمطية بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ "وشر البلية ما يضحك" مثل "العملية فى النملية"، "الفاس فى الراس"، مجرد إيقاع صوتى، ظهرت بعض مثل هذه العبارات فى إعلانات الوجبات السريعة مثل "وجبة ذكية، سعر وكمية"، "عرض خطير.. من كومبو وصاية الكبير"، "وفر أكتر مع كومبو الأكبر". والغالب على ذلك العامية مثل "كل اللى تتمنوه... بسعر مش حتقاوموه"، "قطع دجاج مقرمشة... بصلصة سبايسى محبشة". وقد تختلط العربية بالألفاظ الأجنبية المعربة مثل "مينى فيليه... قول للكل عليه"، "حب استافت كراست مرتين... لأن المتعة بقت متعتين".

وتستعمل حضارة مصر القديمة كنوع من الدعاية للوجبات السريعة وكذلك حضارة أفريقيا التى مازالت قطب جذب وسحر للغربيين بغاباتها وحيواناتها. وهى أيضا للتصحر وأمراض ضعف المناعة والفقر والتخلف والحروب الأهلية والنزاعات الحدودية. ففى إعلان باللغة الإنجليزية "مصر، حيث حكم الفراعنة، وازدهرت الحضارة أولا". مع أنها لم تكن حضارة الوجبات السريعة بل حضارة العلوم والفنون والصناعات.

وبعض الإعلانات كلها باللغة الإنجليزية وكأننا فى أمريكا. فقد أصبحت اللغة الإنجليزية شائعة كلغة تداولية فى الحياة اليومية. وأنشات أقسام فى الكليات الجامعية بالفرنسية والإنجليزية تدعمها فرنسا أو أمريكا بالأساتذة والمراجع. فهناك ليسانس حقوق

بالفرنسى أو بالإنجليزى بجوار العربى، وهناك بكالوريوس اقتصاد وعلوم سياسية بالإنجليزى أو بالعربى. وهناك بكالوريوس تجارة محلية أو خارجية بالإنجليزى "بالإنجلش". والغريب أن المحلات التى تقوم بذلك محلات شعبية أصحابها أولاد البلد مثل "مؤمن"، وتُكتب بالحروف اللاتينية!

وعلى الوجه الآخر لورقة الإعلان الملساء الملونة هناك إما مسابقة يانصيب عربيات للكبار. فقد أصبحت العربة الفارهة هدفا ورمزا "بى إم دبليو". والأغلب عربيات لعب للأطفال كلها تدل على القوة السحرية "هيليكوبتر بالريموت" القادر على الوصول إلى كل مكان. فقد تم غزو العراق بالريموت من البوارج والصواريخ الموجهة. والألعاب حربية، مدمرة وطائرة، مثل الطائر النارى، التورنايدى. حتى الفار هو "الفار جيرى"، والسمكة "السمكة ميمو". كل ذلك مع "كارت الخربوشتين". ولا يهم ماذا يعنى بل يدل فقط بصوته الأجنبى على الغرابة فيثير الخيال. ومادام أجنبيا فهو عظيم. وتستعمل أيضا بعض اللازمات الشعرية الإيقاعية مثل "لف لى البليدز الدوارة... مع كل وجبة أطفال جبارة".

هذه هى اللغة العربية وهذا هو مصيرها. وهو نفس مصير البلاد. واللغة أحد مقومات الوطن تبعية للخارج فى السياسة والثقافة دون مقاومة أو إبداع. لذلك أنشد شاعر النيل:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ∴ فهل سألوا الغواص عن صدفاتى؟

٢ـ الجزيرة هذا الصباح

بين تكنولوجيا الاتصال ومضمون الخبر

ليس الإعلام فقط ما يُدرس فى الكتب، المصادر والمراجع، بل ما يحياه الناس خاصة المشاهدين الذين يوجه إليهم الإعلام. وما فى الكتب فى الغالب هى نظريات الاتصال وكلها غربية أوروبية أمريكية تعمم لدى الدول غير الأوروبية وأمريكا من خلال مؤلفات أساتذة الإعلام دون مراعاة للبيئات المحلية وتغير المشاهدين من بيئة إلى أخرى. والإعلام فى النهاية علم إنسانى وليس فقط علما طبيعيا للصوت والضوء. يتوجه إلى المشاهد للتأثير فيه وإيصال الرسالة إليه وليس وسائل الاتصال.

والموضوع الرئيسى فى الإعلام هو الخبر، وليس الترفيه أو التعليم أو الوعظ الدينى أو المباريات الرياضية أو الإعلانات. الخبر هو الأساس والذى من أجله يجلس المشاهد أمام أجهزة التلفاز ليتلقى الخبر. وبعد ذلك يبحث عن البرامج الأخرى، خاصة فى هذه الأيام والأخبار تتسارع، والحوادث تتوالى، وأخبار قناة الجزيرة أصبحت أهم مصادر الخبر للمواطن العربى عامة وللمثقف خاصة وربما أيضا للسياسى وصاحب القرار.

وبعد أن تعود الناس على سماع أخبار الجزيرة، والكرة الأرضية تهبط إلى المياه وتصعد بلفظ الجزيرة المميز فى شكله وخطه تغير الإخراج فى أول هذا العام بموسيقى جديدة وأشكال اليكترونية غير مألوفة، وطغت تكنولوجيا الاتصال على مضمون الخبر. وتحولت

(*) الاتحاد: ٣٠ يوليو ٢٠٠٥، الدستور: ٢٩، ٣١ يوليو ٢٠٠٥.

الوسيلة إلى غاية فى ذاتها تبهر العين والأذن قبل أن تشبع الذهن، وتنبه العقل. وزاد الجانب الحرفى الذى وصلت الجزيرة إلى أقصى مداه من قبل فتحول إلى افتعال باسم تجديد الأسلوب، وتجاوز المألوف. وزايدت على باقى القنوات الفضائية القديمة والجديدة مع أنها قد كسبتها من قبل وبزّتها. ولم يعد أحد قادر على منافستها. وتطرفت فى وسائل الإخراج والتقديم حتى ضاع مضمون الخبر. وأصبح الخبر هو الوسيلة، وطرق التقديم هى الغاية.

استمرت الموسيقى، صاخبة فى البداية وخافتة طول الوقت أثناء سماع الموجز ثم الصخب الموسيقى من جديد. شوشت الموسيقى على الخبر، وتحول الخبر إلى مادة للموسيقى التصويرية كالأفلام والتمثيليات الدرامية التلفزيونية. وتحولت المقدمة أو المقدم إلى ممثل يقوم ويقعد، ويسير ويلتف، يبتسم وتبتسم أكثر مما يجب، يصعد الدرج ويهبط منه، ويدخل الحلقة ثم يخرج منها.

وينتهى الموجز أو الخبر بمجرد سماعه ثم يتخلله الفاصل الموسيقى أو الإعلان عن برنامج قادم "بلا حدود" أو "الاتجاه المعاكس" أو "تجربة حياة" لأحد مشاهير الإعلاميين أو "سرى للغاية" أو "صحفيون بلا حدود". وأصبحت الأخبار التى ينتظرها المشاهدون والتى كانت بحق مدرسة سياسية فى إذاعة الخبر وتحليل الخبر ومناقشة الخبر، أصبحت أداة للإعلان عن باقى البرامج "المثيرة" التى لا تحتاج إلى مزيد من النجاح الإعلامى.

والسؤال هو: هل "الأخبار" فن أم سياسة؟ هل المقصود منها إظهار إبداع وسائل الاتصال الحديثة بكل ما لديها من قدرة على الإبهار بالوسائل السمعية والصوتية أم دعوة المشاهدين إلى التفكير والتبصير بالحقائق بعد أن أصبح الإعلام الرسمى متحدثا رسميا باسم نظم الحكم فضاعت مصداقيتها، وانتظر الناس الإعلام الحر والخبر الصادق والتغطية الجريئة والمشاهد الحية من قناة الجزيرة؟ وبمجرد سماع الخبر، ومدته أصبحت أقصر من

الماضى، يُعاد الموجز أكثر من مرة لمن لم يشاهد البرنامج الخبرى من أوله.

وبعد أن كان المشاهد، خاصة المهتم بالشأن العام، والمختص بالفكر السياسى والعمل الحزبى يعطى على الأقل نصف ساعة من وقته ثلاث مرات يوميا للبرامج الإخبارية "الجزيرة هذا الصباح" فى الصباح، و"وسط اليوم" ظهرا، و"حصاد اليوم" مساء دخلت أخبار الرياضة وأخبار المال والاقتصاد وأسعار العملات، وأسهم البنوك، وأوضاع البورصات العالمية بل وأخبار الطقس، فيتشتت فكر المشاهد المختص بالأوضاع السياسية. وشعر بأن البرنامج الخبرى مجرد وسيلة للإعلان عما هو أهم. بل كثر تدخل الإعلان عن البنوك والشركات، ومن يساهم فى ماذا تدعيما بالمال، بنك أبو ظبى الوطنى أو شركة قطر للبترول. بل أتى ما هو أعظم وهو الإعلانات التجارية عن العربات وأدوات التجميل ومكيفات الهواء وكل البضائع الاستهلاكية. فبعد أن كان المشاهد يتعلم من الأخبار، ويزداد وعيه سياسيا وتاريخيا أصبح ضحية رأس المال والشركات والبنوك ورجال الأعمال. ونظرا لنجاح الجزيرة فى الخبر، استعمل هذا النجاح للترويج إلى الإعلان التجارى كما هو الحال فى القنوات الأمريكية. أصبح الخبر محمّلا بثقل كبير أكثر مما يتحمل. فتحول المشاهد الجاد عنه إلى "العربية" أو إلى "بى. بى. سى العالم" بأقل قدر ممكن من الإخراج فى البداية، الموسيقى الإيقاعية، والأرقام فى عدد تنازلى ترمز للثوانى التى لا تتجاوز العشرين. ثم يأتى الخبر الجاد، والتحليل العلمى، والنقاش السياسى.

ويبدأ أثر الإخراج الأمريكى فى الاهتمام بشكل مقدمات البرامج أكثر مما يجب. صحيح أن الوجه الجميل، والابتسامة الحلوة، وأناقة المظهر بل وروعة الحجاب الذى يكشف عن نضارة الوجه، كل ذلك يجعل المشاهد سعيدا بالجانب الجمالى فى إذاعة الخبر. هذا بالإضافة إلى طلاقة اللسان وسلامة النحو، والأسئلة الجادة، والوعى السياسى. ثم يضيع كل ذلك بنوع من الأثر الأمريكى من مدرسة لارى كين وهو شاب "الخفيّة" الزائدة، والاستظراف

غير الضرورى، والمناداة بالاسم الأول على الطريقة الأمريكية لسرعة الألفة. فأصبحت مقدمة الخبر أحيانا أهم من الخبر، تسترعى الانتباه بالعين والصوت والذكاء أكثر من الخبر نفسه. وكم من مشاهد قد تمنى أن تكون إحداهن رفيقة حياته. فنافست مقدمات البرنامج الإخبارى نجوم الفن وملكات الجمال، وضاع الخبر وسط هذا الحشد الهائل من وسائل الإخراج والاتصال الحديثة.

ما تمتاز به الجزيرة هو الخبر والرأى اللذان يحدثان الوعى السياسى. وقد حدث ذلك بالفعل. وساهمت أخبار الجزيرة فى حركة الشارع السياسى العربى وبالوعى بحركات المعارضة التى تصمت عنها وسائل الإعلام الرسمية. وساهمت فى توحيد الوعى العربى ومعرفته العميقة بقضايا الأمة الرئيسية من احتلال وتخلف، وفقر وقهر. ثم أوشك أن يضيع هذا المكسب كله لصالح وسائل الاتصال وطرق الإخراج الحديثة والمبالغ فيها. فضاع الهدف، وانحرفت الغاية. خسرت الجزيرة الرهان، وأضاعت الجدية والوقار. تأمركت فى الإخراج، والشبهات حولها تحتاج إلى من يبددها.

هل قصدت ذلك الجزيرة بعد أن زادت الضغوط عليها للتقليل من حجم أثرها على المشاهد العربى؟ هل أرادت الجزيرة بالفعل إعطاء الأولوية لتكنولوجيا الاتصال على مضمون الخبر بطريقة لامباشرة متذرعة بوسائل الاتصال الحديثة، وضرورة التحديث المستمر؟ إنها بذلك تخسر مستمعيها من المثقفين والسياسيين ورواد النهضة العربية الثانية والطليعة العربية التى تتشكل الآن ويضرب بها المثل وكما جسدتها مراسلو الجزيرة الذين استشهد بعضهم، ورُج بالآخر منهم فى السجون، ومازالوا يتعرضون لمخاطر المهنة وشرف الكلمة وصدق العرض والتغطية الإعلامية. كانت الجزيرة فى طليعة القنوات الإخبارية، مدرسة بأكملها يتعلم منها الإعلام الرسمى، ووريثة بى بى سى العربية. والخشية أن تبدأ بتغليب وسائل الاتصال الحديثة على الخبر والرأى والتحليل الواعى ومواكبة حركة الشارع

العربى.

ولم كل هذا العناء فى تنميق الشكل وتحسين الإخراج بالصوت والصورة والابتسامة والجمال ومضمون الخبر هو الدم والقتل والتدمير والصراخ وتجريف الأراضى وهدم المنازل، وبكاء الأطفال، وعويل النساء، واستشهاد الرجال فى العراق وفلسطين، وأفغانستان والشيشان؟ وهل تحتاج مآسى العرب، ومشاكلهم اليومية وأزماتهم فى المياه والكهرباء والمواصلات إلى كل هذا التجميل للخبر الموشح بالسواد؟ وهل يحتاج الفقر فى النيجر والمرض فى أفريقيا والحروب الأهلية ومأساة دارفور واغتيالات لبنان وتهديد سوريا وإيران إلى كل هذا التحسين الجمالى فى وسائل الاتصال؟ أين الإبداع العربى والمدارس الإخبارية التى لا تغلب المضمون على الشكل ولا الشكل على المضمون؟ أين الخبر العربى الذى يحمل الهم العربى فى الشكل والمضمون؟ متى يتحرر الفكر السياسى من خنق وسائل الاتصال والتى قد تصبح يوما موانع الاتصال؟ وهل تحتاج العروس إلى ثوب الزفاف؟ والصديق هو من أصدقك القول لا من صدّقك.

٣- ابن خلدون بين الاستشراق والعرقية

يحتفل العالم كله هذا العام بالمائوية السادسة لوفاة العلامة ابن خلدون مؤسس علم العمران أى علم الاجتماع أو علم التاريخ الاجتماعى (١٤٠٦-٢٠٠٦). وعقدت عشرات المؤتمرات الدولية عنه فى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة وفى الوطن العربى فى الجزائر وتونس والمغرب ومصر على الطريق فى ديسمبر القادم.

وقد أقامت وزارة الثقافة بالجزائر الشقيق من خلال المركز الوطنى للبحوث فى عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ بالاشتراك مع وزارة التعليم العالى، والإشراف العلمى لمدرسة الدراسات العليا للعالم الإسلامى، مركز التاريخ الاجتماعى للإسلام فى البحر الأبيض المتوسط التابع لوزارة التعليم الوطنى والتعليم العالى والبحث العلمى بفرنسا، ملتقى دوليا فى ١٧-١٩ يونيو بعنوان "إشكال ابن خلدون، استقبال، امتلاك، توظيف". وافتتحه رئيس الجمهورية واختتمته وزيرة الثقافة مع إعلان تأسيس "مركز الدراسات الخلدونية". الأرض هبة من الرئيس، والبناء بتمويل من الشركة الوطنية للبترول (سوتراك). وحضره عديد من الأساتذة والمثقفين والإعلاميين. كثروا يوم الافتتاح. وتناقصوا تدريجيا فى الجلسات العلمية. ثم زادوا فى حفل الاختتام.

وقد ذاع ابن خلدون عندنا أثناء المد القومى الاشتراكى فى الخمسينيات والستينيات وما أوصى به بعض المستشرقين مثل جارودى وورودنسون من أننا نستطيع أن نبنى نهضتنا المعاصرة ليس بالضرورة طبقا للنموذج الغربى والأيديولوجيات الغربية بل من خلال عقلانية

(*) الاتحاد: ١ يوليو ٢٠٠٦، الدستور: ٣ يوليو ٢٠٠٦.

ابن رشد، ومادية ابن خلدون. فعند ابن رشد العقل أساس النقل، والنظر واجب بالشرع، ونظريات الفلاسفة اجتهادات ممكنة، والفقه نسق أخلاقى، والكلام الأشعرى سوء استخدام للعقل والنقل معا. أما ابن خلدون فقد نقد أخطاء المؤرخين الذين يعتمدون فى مصادرهم التاريخية على روايات ضعيفة مملوءة بالأخطاء والخيالات الشعبية دون نقدها وتمحيصها ودون تطبيق شروط التواتر عليها كما يفعل علماء الحديث. واتجه إلى الملاحظة والمشاهدة والتجربة كمصدر مباشر للتاريخ الماضى والحاضر. فالغرب ليس وحده واضع لأسس المنهج التجريبى قديما عند أرسطو أو حديثا عند بيكون ومل. بل وضعه المسلمون فى مناهج علم أصول الفقه فى التحليل وفى العلوم الطبيعية.

واشترك فى الملتقى الدولى علماء من أكثر من ثلاثة عشر بلدا، أربع عربية، الجزائر ومصر والمغرب وتونس، وثلاث إسلامية، ماليزيا وسنغافورة وإيران، وست غربية، فرنسا وإيطاليا وأمريكا وهولندا وبولندا وألمانيا. وقُدم حوالى سبعة وعشرون بحثا: سبعة من الجزائر، وستة من فرنسا، وثلاثة من مصر، واثنان من كل من إيطاليا وأمريكا والمغرب، وبحث واحد من كل من ماليزيا وسنغافورة وإيران وألمانيا وهولندا وبولندا. وغابت كثير من الجامعات العربية خاصة أقسام الفلسفة بها والتى أجرت عشرات الرسائل الجامعية على ابن خلدون بين التقريظ والنقد. لذلك غلب على الملتقى الاستشراق والحديث باللغة الفرنسية بما فى ذلك الباحثين العرب باستثناء الباحثين المصريين الذين أصروا على الحديث بالعربية وهى اللغة الوطنية التى دافعت عنها الجزائر بعد الاستقلال فى حركة التعريب فى التعليم والثقافة. وغاب الاتجاه العروبى الإسلامى من الملتقى. وحضر بعض ممثليه ولكن على استحياء. والوئام الوطنى ليس فقط بنزع السلاح بين المتقاتلين بل أيضا بنزع السلاح العقلى فى الثقافة الوطنية الجزائرية بين تياراتها المختلفة: الفرانكفونية، والأمازيغية، والعروبية والإسلامية.

حضر الاستشراق بوضوح، النص وطبعاته وترجماته المختلفة، وانتشاره فى المشرق وفى المغرب العربى، وتلقى أوروبا له، ومقارنات بينه وبين هوبز وماركس وأوجست كومت، وكيفية تلقى الاستعمار له، وعرض المفاهيم التقليدية عن العصبية والحتمية الجغرافية، ونظرية المعرفة وموضوعات أخرى مكررة تعرضت لها الرسائل الجامعية من قبل.

وقد حاولت دراسات أخرى الخروج من الاستشراق التقليدى مثل ابن خلدون مفكرا تقليديا للإسلام العلمانى، ووضع ابن خلدون وسط رؤى متعددة، ولكنها ظلت محدودة داخل الاستشراق التقليدى. وأقصى ما وصلت إليه هو سبق ابن خلدون فلاسفة الاجتماع الأوروبيين فى كثير من النظريات الاجتماعية مما يثلج قلوب العرب والمسلمين. وقد حاول بعض الباحثين العرب والمسلمين تقييم خطاب ابن خلدون الحضارى وبيان مدى عصريته. ومع ذلك ظلت فى إطار التحليل العلمى الخالص. ومن ثم غابت الدراسات الوطنية النقدية ونقل مقدمة ابن خلدون إلى مستوى الأزمة الراهنة، وضم سبعة قرون تالية له لوضع فلسفة شاملة للتاريخ ليس فقط لأسباب الانهيار بل أيضا لوضع شروط النهضة. فابن خلدون ليس تراثا مغايرا للباحث بل هو جزء من حضارته ومسئول عنه. فالباحث هو الذات والموضوع فى آن واحد.

لم تكن هناك مراجعات شاملة لأحكام ابن خلدون الشهيرة على العرب والعجم والبربر طبقا لعنوانه الشهير "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر". فالمهم استخلاص العبر وليس فقط الرصد التاريخى كما يفعل الاستشراق، من البداية إلى النهاية أى على مدى أربعة عشر قرنا وليس فقط سبعة قرون. وهو تاريخ عرقى للعرب والعجم والبربر وليس تاريخا إسلاميا للأمم الإسلامية التى انضوت تحت لواء الثقافة الإسلامية. وهو تاريخ سياسى للدول والممالك. وهو جزء من التاريخ الإسلامى فى نهاية المرحلة الأولى للحضارة الإسلامية، مرحلة الإبداع من القرن

الأول حتى القرن السابع الهجرى (توفى ابن خلدون عام ٨٠٨هـ) وليس فى نهاية العصر الوسيط الأوروبى فى القرن الرابع عشر الميلادى، وبالتالى تكون المائوية السادسة لديه عام ١٤٠٨هـ والذى انقضى منذ عشرين عاما إذ أننا الآن فى عام ١٤٢٧ هجرية.

كنا فى حاجة إلى مراجعة أحكام ابن خلدون على العرب وبيان كيف أنها أحكام جائرة مثل: لا يحل العرب بأرض إلا حل بها الخراب مع أن آثار العرب باقية فى الأندلس والمغرب والمشرق العربى. لا يفلح العرب إلا بصيغة ولاية أو نبوة وكأن العرب لا يحركهم إلا الأنبياء والأولياء والأشكال الدينية دون العلماء والقادة والأبطال. لا يقدر العرب إلا على البسائط لأنهم بدو وهم الآن قادة الطائرات ويمتلكون ناصية العلم والتكنولوجيا كما بان ذلك منذ دولة محمد على، والتصنيع فى العهد الناصرى، وآلة الحرب فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فكيف يكون العرب أبعد الأمم عن الصنائع؟

كنا فى حاجة إلى تصحيح بعض أحكام ابن خلدون العلمية الخالصة على الدول والبشر. فالدولة تقوم على القهر وليس أمام الشعوب إلا الطاعة. والملك انفراد بالمجد. وماذا عن العقد والبيعة والاختيار للإمام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة من الناس؟ والفلاحة صفة المتضعين من الناس، والفلاحون هم أكثر من نصف سكان الوطن العربى. وهم الذين قاموا بالثورات على مدى التاريخ فى الصين وألمانيا وفيتنام وكوبا. وكيف تكون دعامة الدولة الجند والمال أى الجيش ورجال الأعمال وكانت الدولة الإسلامية قديما دولة الفكرة والقضية والرسالة لنشر التوحيد؟ وهل قيم البداوة من كرم وشجاعة ومروءة هو وصف لواقع أم من صنع الخيال؟ والقرآن يصف الأعراب بأنهم أشد كفرا ونفاقا، ومنهم الذين تخلفوا عن القتال كما يحدث الآن فى فلسطين؟ وهل قيم الحضر باستمرار قيم سلبية، الترف والبذخ والمجون والملذات أم أيضا العلم والفن والصناعة؟ وهل هذا التقابل وارد أم أن الحضارة قد دخلت فى البداوة، والبداوة قد دخلت فى الحضارة بوسائل الاتصال الحديثة؟

وهل العصبية روح البداوة تتفكك فى الحضارة أم تتبدل أشكالها بظهور أشكال جديدة من الترابط الاجتماعى مثل المهنة والطبقة والشلة والدفعة وجماعات الضغط والمصالح؟ وهل الدورة التاريخية أربعة أجيال أم أكثر؟ فقد بقت الدولة العباسية خمسة قرون، والحضارة الإسلامية فى الفترة الأولى سبعة قرون، والحضارة الأوروبية الحديثة خمسة قرون. وهل الحتمية الجغرافية هى التى تحدد مصائر الشعوب أم أن الإرادة الإنسانية قادرة على تجاوزها؟

كان يمكن تطوير بعض أحكام ابن خلدون الصائبة مثل أن الظلم نذير بخراب العمران، وأن العدل أساس الملك، وأن الإنسان مفطور بطبعه على التعاون، وليس العزلة والانكماش. ومن ثم يوضع ابن خلدون فى مساره التاريخى بين الماضى والحاضر، ليس فقط سبعة قرون وراءه بل أيضا سبعة قرون أمامه. كان يمكن لهموم العالم أن تجتمع مع هموم المواطن. فيصبح ابن خلدون موضوعا ليس فقط للدراسات الاستشراقية العرقية بل أيضا للدراسات الوطنية الإسلامية.

٤- الإعـــلام والعنـــف

أصبح الإعلام، خاصة الإعلام المرئى، أهم عامل إخبارى وثقافى وفنى وتربوى فى حياة الأفراد والشعوب. يملأ أوقاتهم، ويغرز فيهم قيمه، ويؤثر فى سلوكياتهم، أكثر من الأسرة أو المدرسة أو الجامعة. أصبح الإعلام بديلا عن العلم، منافسا له، وربما مزحزحا إياه. بل إن الأغانى نفسها أصبحت أشبه بالإعلانات فيما يسمى "الفيديو كليب" بما فيها من رقص وتثنى وإثارة للغرائز. كما أن الإعلانات أصبحت مجرد أغانى راقصة حتى لمبيدات الحشرات الزاحفة والطائرة. وتتخلل الإعلانات معظم المسلسلات التليفزيونية التى يشاهدها الملايين على القنوات الفضائية وليس فقط على القنوات المحلية بعد أن أصبحت الأطباق الهوائية فوق أسطح جميع المنازل بالعشرات. بل إنه فى بعض المسلسلات والأفلام، الإعلانات هى الأصل، تأخذ أكثر من نصف الوقت، والمسلسل هو الفرع، يأخذ أقل من نصف الوقت.

مثال ذلك إعلان "ميلودى تتحدى الملل" الذى يُعرض فى قناة "ميلودى". وبالرغم من أهمية ما تذيعه القناة من أفلام قديمة وتراث سينمائى أوشك أن يندثر إلا أن هذه الإعلان يدمر ما تصنعه. ويقضى على ما تهدف إليه. يحتوى على ثلاثة مناظر. عنصر واحد ثابت فيها وعنصر آخر متغير. العنصر الثابت رجل مفتول العضلات، منفوخ الصدر مثل رواد الفضاء، يضع نظارة على عينيه قبل بداية عمله. يسير الهوينى وكأنه يتسرب إلى الميدان، ويتسلل إليه. لا يواجه بل يخادع. يأتى من وراء الضحية ويغتالها. وليس هذا سلوك القوى. فالقوة شجاعة. والشجاعة شهامة. وهو ما لا يتوفر فى هذا العملاق والطرازان ورامبو. وهو

(*) الاتحاد: ٧ أكتوبر ٢٠٠٦.

نموذج للأفراد فى الاعتماد على القوة، وللدول فى الاعتماد على الغزو والعدوان. فالقوة هى الحل. وهى السبيل لتحدى الملل، القوة العمياء التى لا ترحم كبيرا أو صغيرا.

المنظر الأول لزوجين مسنين. يقضيان أوقات الفراغ فى ممارسة الرياضة، لعبة دفع كرة صغيرة فى حفرة. لا تتطلب جهدا ولا تحتاج إلى جرى أو نط أو عنف. يلعبان فى هدوء بعد مرحلة طويلة من سنين العمر. لا يشعران بالملل، فالعشرة حية فى الذاكرة، والرفقة فى الطبيعة على عشب أخضر مع ممارسة لرياضة هادئة، تحافظ على الصحة، وتبعث الأمل فى النفوس. الزوج يمسك بالمضرب ويحركه بنعومة وفى هدوء ملائكى. ويكرر حركة اليد عدة مرات ليحسن التصويب بدفع الكرة الصغيرة فى الحفرة الأصغر. والزوجة تنتظر على مقربة منه. تقف على عكازين تقوى بهما على غوائل الزمن. وتنظر إلى زوجها فى حنان وتشجيع على حسن الأداء وتبتسم له. فهما فى انتظار كرته كى تقع فى الحفرة التى تحت أقدامها كى يكسب الجولة ولا يشعر بالخسران. الوصال بين الزوجين قائم. وذكريات السنين عطر يملأ المكان.

وفجأة يتسلل الرجل القوى من بُعد. يلبس نظارته، ويشحذ قواه، ويجند طاقاته. يأتى خلف الزوج العجوز ويحمله بيديه كالعصفور، ويدور به ويلف عدة مرات بسرعة. ثم الزوج يطير فى الهواء فى طاحونة دائرية. ثم يقذف به الرجل القوى على الأرض. فيقع جثة هامدة منبطحا على الأرض ومُسوًّى بها. ثم يقف من جديد فى رعب ويسترد عافيته وهيئته كإنسان. ويهرول مذعورا بعيدا عن هذا الوحش، وتجرى وراءه ببطء زوجته ذعرا. فأى ملل يتحداه هذا الوحش؟ وأى قسوة يمثلها ضد هذين العصفورين؟ وإذا كانت "ميلودى" تتحدى بهذه القسوة. فهى بديل مرعب. يرى أن "الإرهاب" هو الحل، و"الرعب" هو البديل.

والمنظر الثانى، شاب يغنى لأصدقائه. ويعزف على الجيتار أو العود. ولا يوجد ما يوحى بالملل عند مستمعيه من أصدقائه. ويجتهد المغنى العازف، ويبذل جهده قدر طاقته فى

الغناء. ثم يتسلل الوحش من ورائه ويأتى بقادوم يضرب به رأسه. ويقضى الوحش على الفنان. فهل هذه هى الوسيلة للقضاء على الملل؟ ولا يوجد ما يوحى بملل المستمعين. والفن الحديث كله بهذا المعنى، يوحى بالملل، ولكنه عند النقاد عبقرية أصيلة لم يشهد مثلها تاريخ الفن من قبل. أسكت الوحش المغنى دون أن يأتى بغناء بديل. قضى على الفن دون أن يأتى بفن مغاير. قتل الحياة دون أن يبعثها من جديد.

والمنظر الثالث حوار بين ضيف وإعلامى تليفزيونى من خلال الكاميرا. وكما هو العادة يثرثر الضيف كما هو الحال فى كثير من حوارات النخبة. كلام فى كلام. لا يفهم منه الناس شيئا. لذلك سئموا من البرامج الثقافية، وملوا أحاديث المثقفين. ثم يأتى الوحش من خلف الضيف. يجره من قدميه. فيوقعه على الأرض سحلا وكما يتم فى بعض النظم السياسية مع المعارضين الذين يسحلون فى الشوارع. والضيف يستغيث بالإعلامى. والإعلامى لا يتحرك لإنقاذ ضيفه خشية أن يصيبه ما أصاب الضيف. فهل يقضى على الملل من الإعلاميين بسحل ضيوفه ومتحدثيه؟ وهل الإعلام البديل هو القوة والبطش والاغتيال؟

خطورة إعلان "ميلودى يتحدى الملل" أنه يجعل القوة هى الحل، والبطش هو البديل، والغدر هو الطريق. ولا بديل عن الملل بعد القضاء على المملين من المسنين والفنانين والمثقفين، إلا القضاء عليهم، والحكم عليهم بالموت، دون تحليل ظاهرة الملل، ومعرفة أسبابها، وإيجاد الطرق للتخلص منها. رياضة المسنين ليست مللا بل ملء فراغ، وأنس بالرفقة. والغناء النمطى كما هو الحال فى الغناء الشبابى الآن يملأ فراغ الطبقة الدنيا، ويعزيها عن الفقر بأغانى راقصة، وإيقاعات حادة، وتصفيق بالأيادى، وكأن الغاية من الغناء ليس جمال الكلمات كما هو الحال فى الشعر، ولا جمال اللحن كما هو الحال فى الموسيقى الشرقية القديمة، بل القصد التفريح عن القلب، والتفريج عن النفس، والتطهر من عذاب اليوم وآلام الزمن. يؤدى دورا علاجيا كما هو الحال فى "الزار" والرقص الصاخب، والموسيقى العالية عن

طريق معدات تكبير الصوت الحديثة. وإعلام الدولة كلام فى كلام. لا يقضى عليه "بموت المؤلف" بل بإيجاد إعلام مستقل بديل يعنى بمشاكل الناس، ويحاكم المسئولين فى الدولة، ويكشف الفساد الإدارى والمالى والسياسى.

خطورة هذا النوع من الإعلام هو أنه يحاول إصلاح الخطأ بخطأ آخر، خطأ الملل بخطأ القوة، خطأ السطحية بخطأ العنف. ومجموع الخطأين لا يكوّن صوابا. إن وظيفة الإعلام الأولى هو الحوار، مقابلة الرأى بالرأى الآخر، وبلورة الوعى الشعبى بقضايا المجتمع، وليس مقابلة الرأى حتى ولو كان خاطئا بالعنف حتى ولو كان مصيبا. ثم يشتكى المجتمع بعد ذلك من العنف والإرهاب، والإعلام يزرعهما من خلال بعض الإعلانات. ويشتكى من الانحلال والانحراف، والإعلام يحث عليهما من خلال "الفيديو كليب"، والمنافسة فى التقصع والخلاعة. ويشتكى من التطرف وهو الذى يبعثه ويثيره ويدفع إليه بالتطرف الإعلامى فى البرامج الدينية والسياسية.

ياليت قناة ميلودى تتحدى الملل بشىء آخر غير القوة والعنف والضرب فوق الرأس، والسحل على الأرض، والقذف فى الهواء. فما فائدة استبدال الخوف بالملل، والرعب بالعياء؟ واسم ميلودى يفيد اللحن والعذوبة وليس الضرب بالعصى والسحل بالحبل والقذف باليد إلى الهواء.

٥- المشروع النهضوى العربى الجديد

من أنشط مراكز الأبحاث فى الوطن العربى "مركز دراسات الوحدة العربية" فى بيروت الذى تأسس منذ ما يقارب الثلاثين عاما. وريادته فى البحث والنظام والدقة العلمية والجدية يشهد بها جميع الباحثين الذين يتعاونون مع المركز وجميع المثقفين الذين اطلعوا على مطبوعاته ومجلته الصامدة "المستقبل العربى". وهو الذى وراء تأسيس "المؤتمر القومى العربى"، و"المؤتمر القومى الإسلامى". وهو الذى يدعم عديد من الجمعيات العلمية العربية. وقد نال الجوائز وشهادات التقدير كأفضل مركز بحثى عربى. علاقاته مع الجامعات العربية، وتدعيمه لها بالأساتذة الزائرين وبمطبوعاته يشهد لها الجميع. وهو بعض ما تبقى لنا من العصر الجميل، من روح الخمسينيات والستينيات، حيث كانت القومية العربية فى أوجها، والعرب فى عزة نصرهم، والقومية العربية بؤرة لحركات التحرر فى العالم. وقطبا فى حركة عدم الانحياز.

وعقدت فى فاس فى المغرب ندوة هامة عن المشروع النهضوى العربى الجديد منذ أربع سنوات. وقدمت فيها أوراق رصينة وجادة من جهرة المثقفين العرب. ثم عقد هذا الشهر فى القاهرة ندوة مصغرة لتحرير الصيغة النهائية للمشروع بأوراق جديدة دون الرجوع إلى أوراق فاس، بداية من الصفر كعادة العرب. فجاءت فى معظمها أوراق عامة مكررة متسرعة ومتداخلة. والبعض منها مجرد فقرات مفككة يغلب عليها أسلوب المابنبغيات، التعبير عما ينبغى أن يكون، وليس تقرير ما هو كائن. كما يسود الأسلوب القطعى الذى تبدأ كثير من

(*) الاتحاد: ١٣ أغسطس ٢٠٠٥، الدستور: ١٤ أغسطس ٢٠٠٥.

فقراته بحرف التوكيد والنصب "إن" وهو الأسلوب السائد فى "الميثاق" الذى أصدرته الثورة المصرية عام ١٩٦١.

ويتجه المشروع نحو الماضى أكثر مما يتجه نحو المستقبل وذلك بالمراجعة المستمرة لتجارب عصر النهضة فى القرنين التاسع عشر والعشرين والحكم عليها بالفشل فى معظمها. فالرجوع إلى الماضى لا يميز فقط الحركة السلفية بل كل التيارات الفكرية والقوى السياسية الأربع التى تتحكم فى الشارع العربى، الإسلامية والقومية والليبرالية والماركسية. فالإسلامى يحن إلى الماضى، عصر الخلافة الراشدة. والقومى يحن إلى الماضى، الخمسينيات والستينيات حين بلغت القومية ذروتها. والليبرالى يحن إلى الماضى، ثورة ١٩١٩ فى مصر، والتعددية السياسية والأحزاب والبرلمان والدستور وحرية الصحافة. والماركسى يحن إلى الماضى، الثورة الاشتراكية الكبرى فى ١٩١٧، وعصر الاستقطاب والتحرر الوطنى لشعوب العالم الثالث .

غلب على الصياغة الأخيرة المدخل الأيديولوجى النظرى، والنمط المثالى، ووضع المبادئ العامة للفكر القومى كما تمت صياغته منذ قرن تقريبا، منذ ساطع الحصرى حتى ميشيل عفلق وسعدون حمادى. وهو ما سماه أحد المشاركين مشروعا "خارج التاريخ". يستنبط الواقع من الفكر ولا يستقرى الفكر من الواقع. يتضمن رؤية مثالية للأمة دون أن ترى واقعها.

يضع مقومات المشروع النهضوى العربى الجديد بداية بالوحدة كمثل أعلى دون رصد مشروع التجزئة الحالى الذى يهدد الأمة فى عصر الهيمنة الأمريكية والهجمة الحالية على الوطن العربى، وتفتيت الوطن العربى إلى فسيفساء من دول طائفية عرقية، عرب وبربر وأكراد وأفارقة وصحراويون، وسنة وشيعة ومسلمون وأقباط. فلا تريد الإمبراطورية الأمريكية الجديدة أن تعود القومية العربية من الخمسينيات والستينيات لتوحد المنطقة

كما فعلت فى الماضى حتى لا يتكون منها قطب ثانٍ فى مواجهة القطب الأول، وبعد أن ألغيت الخلافة. فلا رباط الإسلام ولا رباط العروبة مرغوب فيه.

ووضعت الديموقراطية ثانيا كتعبير عن أمل يحدو الجميع دون وصف أنواع القهر والتسلط والطغيان والقوانين المقيدة للحريات وقانون الطوارئ الذى يُعتقل طبقا له كل ألوان الطيف فى المعارضة السياسية بلا تهمة أو محاكمة، وغياب التعددية السياسية وحرية تكوين الأحزاب، وحرية الصحافة وخرق حقوق الإنسان، ووضع المعتقلين السياسيين.

وتأتى التنمية المستقلة ثالثا والاعتماد على الذات. فليس العرب أقل من الهند فى الاكتفاء الذاتى فى الغذاء. ولا يشار إلى أوضاع التبعية الحالية، وبيع القطاع العام، وتهريب الأموال إلى الخارج على ما يعرف باسم نواب القروض، ورفع الحواجز الجمركية بدعوى توفير المواد الاستهلاكية، وفتح أبواب الاستيراد على مصراعيها حتى أصبح الاقتصاد العربى معتمدا على الغير فى الغذاء والسلاح والتعليم والصحة باسم العولمة واقتصاد السوق.

والعدالة الاجتماعية رابعا باعتبارها أملا منشودا ومظهرا من مظاهر القومية التى تعنى اشتراك الجميع فى توزيع الثروة طبقا لشعار القوميين الوحدة والاشتراكية والحرية. ولا يوصف التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وازدياد الغَنى غِنى، والفقير فقرا، وارتفاع الأسعار، ورفع الدعم عن المواد الغذائية، وإلغاء لجان تقدير الإيجارات وجعل السكن طبقا للعرض والطلب.

ويأتى الاستقلال الوطنى خامسا مع أنه هو العنصر الأول فى أى مشروع نهضوى عربى. فلا يوجد أعز على الشعوب من الاستقلال الوطنى. بل لقد حاربت الصين وفيتنام وكوبا وشعوب العالم الثالث كله من أجل التحرر الوطنى لتحقيق استقلال الأوطان. والعراق وفلسطين وأفغانستان والشيشان وكشمير، كل هذه الأوطان تحارب من أجل الاستقلال الوطنى ضد قوات الاحتلال.

ثم يأتى التجدد الحضارى سادسا دون وصف للاستقطاب الحالى بين السلفيين والعلمانيين، ودون تحليل لانتشار الحركات المحافظة بعد انكماش الأيديولوجيات العلمانية للتحديث الليبرالية والقومية والماركسية. ولا توصف الأزمة الحضارية الحالية وصعوبة تحقيق نهضة بتراث شعبى محافظ أو تقدم بتراث يعتبر المثال فى الماضى وليس فى المستقبل، وأن التاريخ فى انهيار مستمر، ولا سبيل إلى التقدم إلا بالعودة إلى عصر الصفاء الأول.

والطليعة الفاعلة هى التى ستحقق هذا المشروع النهضوى العربى الجديد. ولا ضير من استعمال العنف إذا ما كان ردا على عنف سواء من الخارج فى حالة العدوان أو فى الداخل فى حالة القهر والقمع. ومقاومة الاحتلال أمر مشروع طبقا للمواثيق الدولية. أما استعمال العنف مع الداخل حتى ولو كان عنفا مضادا فإن البديل عنه هو الحوار. فلا خصومة فى الوطن. والمواطن لا يسفك دم المواطن (**أشداء على الكفار، رحماء بينهم**). وقد استطاع ابن عباس وهو يحاور الخوارج أن يُرجع معه ثلاثة آلاف إلى معسكر على. والأفضل جبهة إنقاذ وطنى أو جبهة وطنية متحدة تجتمع على الحد الدنى من برنامج للعمل الوطنى مع أكبر قدر ممكن من التعددية النظرية.

ويستبعد المشروع النهضوى العربى الجديد الليبرالية كتيار سياسى والليبراليين كقوة سياسية لخصومة تقليدية بين القوميين والليبراليين وخلافهما حول التخطيط والاقتصاد ودور الدولة وحول الوحدة العربية، وحول الموقف من الغرب. والحقيقة أن الليبرالية تيار وطنى. بل إن الصراع الدائر الآن، وحركة الشارع فى لبنان ومصر من أجل الحرية والديموقراطية والتعددية السياسية وحرية تكوين الأحزاب والصحف. وقد انضوت التيارات الرئيسية الأخرى، الإسلامية والقومية والماركسية تحت الشعارات الوطنية. والليبرالية الوطنية لها رصيدها منذ فجر النهضة العربية عند الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وطه

حسين والعقاد وخالد محمد خالد. وجمعت الإسلاميين مثل الأفغاني ومحمد عبده والعلمانيين مثل شبلى شميل وفرح أنطون وسلامة موسى وزكى نجيب محمود وفؤاد زكريا. ولها من يمثلها فى تجربة مصر الحديثة منذ ثورة ١٩١٩. ولها روادها الحاليون مثل سعيد النجار ومحمد عصفور، وحزب الوفد الجديد بطريقة أو بأخرى.

ولا يأخذ المشروع النهضوى العربى الجديد دول الجوار مثل إيران وتركيا باعتبارها الامتداد الطبيعى للقومية العربية بدلا من المفهوم القومى القديم. فالإسلام كالعروبة رابط بين شعوب المنطقة خاصة فى المغرب العربى، من مصر غربا. لا فرق بين الوطن والعروبة والإسلام. ولا يتأسى بتجارب جنوب شرق آسيا مثل ماليزيا أو أقصى الشرق مثل الصين.

وضع المشروع النهضوى العربى الحقائق كمسلمات أيديولوجية ولم يبين مدى المسافة بين هذا المثال والواقع العربى الحالى. ولم يبين آليات تقريب المسافة بين المثال والواقع باستثناء نصائح عامة مثل إرادة النهوض.

إن التفكير السلبى الناقد خير من التفكير الإيجابى الواضع. ونقد الواقع مقدمة لنقد الفكر، والقضاء على موانع المشروع سابق على تحقيق عناصره. فالأرض تُسوى وتُمهد أولا قبل البذر فيها. والسؤال الأهم: كيف يستطيع العرب أن يقفزوا قفزة نوعية فى التفكير والممارسة؟ فربما لا تكون الأزمة فى البكائيات على الماضى ولا التمنيات للمستقبل بل فى كيفية الانتقال من الماضى إلى المستقبل عن تحليل مكونات الحاضر للسيطرة عليها وإعادة العرب إلى حركة التاريخ.

الفصل الخامس

المقاومة الفلسطينية

١- الثورة والدولة.

٢- التطبيع جهارا.

٣- من كوبنهاجن إلى القدس.

٤- هل من مفاوض؟

٥- واحد بألف.

٦- رموز فلسطين.

٧- إيران وحماس.

١- الثــورة والدولــة

هى أزمة جيلنا الذى عاش مرحلتين متتاليتين، مرحلة التحرر من الاستعمار ومرحلة ما بعد الاستعمار، مرحلة الثورة ومرحلة الدولة، مرحلة النضال الوطنى ومرحلة التنمية الشاملة. وهو يشاهد نصب عينيه ضياع المكتسبين الرئيسيين، الثورة والدولة. فقد تحولت الثورة إلى ثورة مضادة، من مقاومة الاستعمار إلى التحالف معه، ومن مناهضة الصهيونية إلى الاعتراف بها. وتحولت الدولة الوطنية إلى دولة أمنية، وانقلب اقتصادها من الاشتراكية إلى الرأسمالية، وتغير اقتصادها من الاعتماد على الذات إلى المعونات الأجنبية. والغريب أن يتم هذا التحول بنفس الرجال، ونفس القادة الوطنيين. تعبوا من الثورة ونعموا بالدولة. أرهقهم النضال الشعبى فأغرتهم السلطة والثروة. ونعى المثقفون الوطنيون حظهم. وعابوا زمانهم. ورأوا مسار تاريخهم الحديث بين النهضة والسقوط، بين شرعية الثورة وعقل الدولة، لا فرق بين قومى وماركسى وليبرالى وإسلامى. الكل يبكى حظه، وينعى زمانه.

فهل الثورة والدولة نقيضان أم متكاملان؟ وهى نفس القضية المطروحة الآن فى القضية الفلسطينية بين حماس وفتح. فحماس هى الثورة وفتح هى الدولة. ويكاد أن يقع التناقض بينهما إلى درجة الصراع المسلح، وإراقة الدم الفلسطينى مرتين، مرة بيد العدو الصهيونى، ومرة بيد المناضل الفلسطينى. ما هى طبيعة العلاقة بين الثورة والدولة؟

هناك أربعة أنماط للعلاقة بين الثورة والدولة أفرزها التاريخ، وتحققت فى الواقع

(*) الاتحاد: ٢٠ يناير ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٨ يناير ٢٠٠٧.

الثورى فى الوطن العربى وخارجه. الأول "ثورة بلا دولة". وتمثلها التجارب الثورية قبل مرحلة التحرر الوطنى مثل الثورة الجزائرية بكل فصائلها المتمثلة فى جبهة التحرير الوطنى، والثورة الفلسطينية، حماس وفتح معا، والممثلة فى منظمة التحرير الفلسطينية، وجميع ثورات العالم مثل الثورة الفيتنامية، والثورة الصينية، والثورة الكوبية. فلا توجد سلطة إلا سلطة الثورة لأن الدولة كانت بين المحتل الأجنبى أو العميل الوطنى. وبعد النصر تتحول بطبيعتها إلى دولة. وهكذا نشأت الدولة الوطنية الحديثة. فالثورة بعد أن تحقق أهدافها لا تستمر. تخبو وتبرد بطبيعة الأشياء. وتصبح جزءا من السياق الوطنى والإقليمى والدولى. ويتحول الخيال الثورى إلى ترشيد عقلى. ويتحقق المثال فى الواقع. ولكل منطقه، ما ينبغى أن يكون للثورة وما هو كائن للدولة. وقد يقع الشقاق بين فرقاء الأمس، وينتصر فريق الواقعية السياسية على فريق النقاء والطهارة الثورية، فتح دون حماس.

حينئذ ينشأ النمط الثانى "دولة بلا ثورة"، واقعية سياسية بلا روح ثورية مما يؤدى إلى سلسلة من التنازلات السياسية من الدولة بحجة التعايش مع النظام الدولى فى الخارج والاستقرار السياسى فى الداخل، وتوفير لقمة العيش للمواطنين ضد شعار "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها". وتقمع المعارضة السياسية التى تمثل روح الثورة والبدائل السياسية. وقد ينتهى الأمر إلى شق الصف الوطنى، والوقوع فى حرب أهلية بين رفقاء الأمس، بين الدولة والثورة. تسفك الدماء، وتُتبادل الاتهامات بالعمالة والخيانة، وهو ما يحدث بين فتح وحماس اليوم.

حينئذ ينشأ النمط الثالث "لا ثورة ولا دولة". فتضيع مكتسبات مرحلة النضال الوطنى ضد الاستعمار والصهيونية، وهى الثورة، وتضيع مكتسبات مرحلة ما بعد الاستعمار، وهى الدولة. لم يتعود الشعب على الثورة بعد احتكارها من الدولة، فاهتم بلقمة العيش داخل البلاد أو هاجر لمزيد من الرزق شرقا إلى بلاد النفط أو غربا إلى سوق العمل أو

شمالا للبلاد المتقدمة كى ينعم بالخبز والحرية فى آن واحد خارج البلاد. ولم يتبق من الثورة إلا أحزاب معارضة تقليدية قومية أو ليبرالية أو يسارية ضعيفة أمام الدولة الأمنية والحزب الحاكم أو إسلامية غير شرعية، جماعة محظورة تمارس بعض أجنحتها العنف فى العمل السرى بالعقلية الانقلابية، ثورة على الثورة أو دولة داخل الدولة. ولا يبقى أمام بعض المثقفين الوطنيين إلا الهم والغم أو التفريج عن الكرب بالعمل الأدبى أو الفنى أو الثقافى. يسبحون ضد التيار ولم يغرقوا بعد. جزر منعزلة لم يغمرها الطوفان.

وتتحول الدولة إلى دولة قاهرة لخصومها السياسيين فى الداخل، وتجد تعويضا عنها فى أحلافها الجديدة فى الخارج، وهى التى طالما قاومت الأحلاف والمحاور فى عصر الثورة. وتمتلئ السجون بالمعتقلين السياسيين طبقا لقانون الطوارئ، أو قانون الإرهاب أو قانون حماية الوحدة الوطنية أو قانون الاشتباه أو قانون العيب، وإنكار ما علم من الدين بالضرورة وهو طاعة أولى الأمر درءا للفتنة بين الناس ومنع وقوع الفساد فى الأرض. وتنتهى القيادة السياسية. وتعزل نفسها عن مجريات الأحداث. وتنكفئ على نفسها تتشبث بالحكم دون أن ترى المياه الجوفية تحت العرش الذى قد يغرق فى أية لحظة. ويتوقف الخيال السياسى. وتغيب البدائل. فليس فى الإمكان أبدع مما كان. وتلتصق الدولة بالدول الكبرى تجد سندا فيها. وتتنازل عن دورها الأقليمى. وتبقى مجرد هيكل عظمى تنخر فيه عوامل البلى. تتفكك الدولة من الداخل. وتتحول من حامل لمشروع وطنى يجمع بين الناس إلى مجموعة من الشلل المتناحرة. فللخاص الأولوية على العام. ولرجال الأعمال الأسبقية على رجال السياسة. توضع المعارضة فى السجون، وتتفكك الدولة وتتحول إلى جماعات ضغط، وشلل سياسية، ومجموعات مصالح متضاربة. فالوطن فقد روحه باستئصال الثورة، وفقد جسده بتفكك الدولة. تخرج الدولة من حركة التاريخ ومسار الزمن. فتحدث الانقلابات العسكرية من بقايا الجيوش الوطنية وأجيال جديدة من الضباط الأحرار، بالرغم من

استئناس الجيوش وتحويلها إلى مؤسسات اقتصادية، وجعلها درعا حاميا للسلام، الخيار الاستراتيجى الأوحد، بعد أن أصبحت حرب أكتوبر آخر الحروب، والأراضى العربية فى فلسطين وسوريا ولبنان وفى أم الرشراش فى مصر ما زالت محتلة. وقد تحدث هبات شعبية عارمة من جماهير الفقراء ضد الأغنياء كما حدث فى الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، وفى هبة قوات الأمن المركزى فى ١٩٨٦. وإن استعصى ذا وذاك فقد تقع حوادث اغتيالات سياسية كما حدث فى أكتوبر ١٩٨١.

حينئذ يحدث النمط الرابع "ثورة ودولة" عودا على بدء إلى عصر النضال الوطنى من أجل القيام بحركة تحرر وطنى ثانية لتصحيح حركة النضال الوطنى الأولى واسترجاع مكتسباتها، الدولة الوطنية المستقلة، والتنمية البشرية المستدامة . هكذا استقلت فيتنام بعد حروب تحرير طويلة ضد الاحتلال اليابانى أولا، والاستعمار الفرنسى ثانيا، والعدوان الأمريكى ثالثا. واستمرت المفاوضات خمس سنوات فى باريس، والقتال على أشده فى فيتنام. ثورة فى الداخل، ودولة فى الخارج. ثورة تقاوم، ودولة تفاوض. وهو ما يحدث فى إيران حاليا، ثورة إسلامية وطنية فى الداخل يمثلها الحرس الثورى والمرشد الروحى، ومفاوضات فى الخارج تمثلها الدولة والرياسة دفاعا عن حق الثورة والدولة فى امتلاك الطاقة النووية فى عالم مدجج بالسلاح النووى على المستويين الإقليمى والدولى. وهناك تجارب أخرى عديدة للثورة والدولة فى الاتحاد السوفيتى السابق، وفى الصين والهند وكوبا. ومر الوطن العربى بها فى مصر والجزائر تحت شعار "يد تبنى، ويد تحمل السلاح".

والحقيقة هناك نمط خامس هو التكامل بين الثورة والدولة، بين الهجوم والدفاع، بين الرمح والدرع، بين المقاومة والمفاوضة، بين حماس وفتح، بناء على تقسيم العمل بين الداخل والخارج. الثورة قلب، والدولة عقل. الثورة روح، والدولة بدن. الثورة ما ينبغى أن يكون، والدولة ما هو كائن. الثورة مثال وخيال وشهادة، والدولة واقع وسياسة وبقاء. ولا تعارض

بين الوظيفتين. كلاهما سلطة، سلطة الشعب وسلطة النظام، سلطة من أدنى وسلطة من أعلى، سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية. هذا ليس توفيقا أو تلفيقا بين متعارضين أو انتهازية سياسية لاحتواء الاثنين بل هو حرص على مبدأ سابق على الثورة والدولة وهو الوطن، وهدف تال للثورة والدولة وهو الوحدة الوطنية.

ما يعوق هذا النمط المتكامل بين الثورة والدولة هو بعض جوانب الموروث الثقافى الحديث والقديم، مثل المدخل الأيديولوجى للواقع العربى الراهن، وإعطاء الأولوية للعقيدة على الشريعة، وللنص على الواقع، وللقول على الفعل، وللفرقة الناجية على الفرقة الهالكة. وهو تعبير عن العجز عن مواجهة الواقع، الاحتلال فى الداخل، والحصار فى الخارج.

السلطة ليست بالضرورة فى القصر بل فى العقل. وقد رفض عمر الخلافة لابنه عبد الله حتى لا يتحمل وزرها الأب والابن، مسئولية "والله لو عثرت بغلة فى العراق لسئلت عنها يا عمر لماذا لم تسو لها الطريق".

ليست حكومة الوحدة الوطنية بصعبة المنال، دولة من فتح، وثورة من حماس، دولة فى القصر، وثورة فى الشعب، (أشداء على الكفار، رحماء بينهم).

٢- التطبيع جهارا

كانت النظم العربية التى عقدت معاهدات سلام مع الكيان الصيونى تطبع العلاقات معه سرا، ومن وراء ستار، فى الزراعة، والصناعة، وحديد التسليح والأسمنت والنفط والغاز. وكانت جرائد المعارضة تفضح هذا التطبيع السرى، ولكن عقل الدولة شىء وعقل الثورة شىء آخر. أما الشعوب ممثلة فى مؤسساتها الثقافية والعلمية فإنها كانت ترفض التطبيع. وكانت لجان مقاومة التطبيع مع العدو الصهيونى من أنشط اللجان على مستوى العمل الأهلى. والقلة التى طبّعت كانت موضع استهجان وإدانة بل وفصل من المؤسسات الثقافية والجمعيات الأهلية. وكانت الحجة أن التطبيع لا يُفرض بالقوة على الناس حتى ولو كان جزءا من استحقاقات معاهدات السلام بالنسبة لبعض الدول وفى مقدمتها الشقيقة الكبرى مصر، والشقيقة الصغرى الأردن.

وكانت دولة أخرى فى أقصى المغرب العربى وعلى المحيط الأطلسى وليست من دول البحر الأبيض المتوسط قد عقدت معاهدة سلام مع العدو الصهيونى مع أنها بعيدة عن قلب المعركة وليست من دول الجوار مع فلسطين. إلا أنها رأت فى ذلك تدعيما للنظام السياسى القائم من أمريكا وإسرائيل وإعلانا عن التوجه الغربى المطلوب فى عصر العولمة. هذا بالإضافة إلى أنه من الناحية الاقتصادية ليس لدى هذا البلد ما يصدره ليستفيد من التطبيع ولكن لديه ما يستورده وفتح أسواقه ومراكز أبحاثه وخيمه الثقافية وصحرائه موطن الشعر العربى للتطبيع الثقافى: المنح للطلاب، الإعارات للأساتذة، النشر للمبدعين وللحد من التيار

(*) الاتحاد: ٢٩ يناير ٢٠٠٥، الدستور: يناير ٢٠٠٥.

السلفى المتنامى وكطريق إلى أفريقيا بعد صهينة الثقافة الزنجية. وفى أقصى الشرق وفى منطقة الخليج تسعى بعض الأنظمة إلى التطبيع مع الكيان الصهيونى بطريق غير رسمى، مكاتب اتصال أو تجارة، تبادل للمنافع فى استثمار رؤوس الأموال وعوائد النفط بفوائد بنكية أكبر، خطوة نحو تصديره إلى المتوسط عبر الكيان الصهيونى. وكذلك يتم نصف سرا ونصف جهرا. فالشعوب غاضبة من الدماء التى تسيل كل يوم فى فلسطين والعراق وأفغانستان. وهناك بقايا حياء فى أنظمة الحكم، والأعمال بالنيات، واستعينوا على قضاء حاجتكم بالكتمان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، ولله فى خلقه شئون.

ثم حدث تحول نوعى فى ممارسة التطبيع من السر إلى العلن، ومن الصمت إلى الجهر، ومن الحياء إلى الفخر، ومن الكره إلى الطوع، ومن الطاعة إلى المبادرة. فعلى الصفحة الأولى فى الصحيفة القومية الأولى لدى الشقيقة الكبرى، يتم الإعلان عن اتفاقية "الكويز" اختصارا للمناطق الصناعية المؤهلة Qualified Industrial Zones التى تعلن شراكة بين دولة عربية، كبرى أو صغرى مع الحليف الأمريكى والعدو الصهيونى، جهارا وبالبنط العريض. فالنظام العربى يُعلن جهارا عن التطبيع كسياسة رسمية. ويبين مغانمه الاقتصادية. فهناك آلاف لفرص العمل ضد البطالة. وهناك أسواق جديدة مفتوحة للتصدير ومن ثم زيادة الدخل القومى. وهناك تحديث للمصانع القديمة المستهلكة التى لم تعد قادرة على المنافسة مع إنتاج المصانع الجديدة للغزل والنسيج.

والواقع غير ذلك. فأجزاء من تحديث المصانع لدى العدو الصهيونى. والتصدير للأسواق العالمية بما فى ذلك السوق الأمريكى مشروط بملفات حقوق الإنسان والمرأة والأقليات وتحقيق بنود مشروع الشرق الأوسط الكبير. ومن كان يدرى قبل القبض على عزام عزام أنه جاسوس لإسرائيل كان يعمل فى مصنع الغزل والنسيج فى المحلة الكبرى؟ والقطاع الخاص هو الذى سيقوم بالشراكة بكل ما فيه من فساد وتهريب للأموال. وإن وُجد ربح

فلرجـال الأعمـال ولـيس لجمـوع الـشعب وتـوفير حاجاتـه الأساسـية للبقـاء. النتيجـة هـى الـسيطرة علـى الاقتـصاد، وتحويـل الاقتـصاد الـوطنى إلى اقتـصاد خـدمات تـابع ولـيس إلى اقتصاد إنتاج ومبادرة. وتنفذ السيطرة إلى قلب الاقتصاد المصرى الوطنى منذ طلعت حرب والقطاع العام منذ عبد الناصر، وهى صناعة الغزل والنسيج فخر الصناعة المصرية وعمودها التقليدى الأول من قطن مصر وعمالة وإبداع. ومن ثم يزدهر التطبيع ويكثر عدد المطبعين مادامت الجيوب عامرة للقلة حتى ولو كانت المعدة خاوية للكثرة.

والأخطـر مـن الاقتـصاد هـو الـسياسة. ومنهـا الإعـلان الرسمـى عـن الحلـف المـصرى الأمريكى الإسرائيلى جهارا، وتكوين محور جديد داخل الوطن العربى بين الشقيقة الكبرى وأعداء العرب التقليديين إسرائيل وأمريكا. فتنقلب الحياة السياسية رأسا على عقب، وتنتهى الثوابت الوطنية فى الوطن العربى. وتنشأ أجيال جديدة لا تفرق بين الصديق والعدو. ترى أن رأس المال ليس له وطن، وأن التجارة شطارة، وأن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل، وأن الأجنبى النافع خير من الوطنى الضار. فيقضى على وحدة الوطن العربى، وجر القلب إلى سياسة الأحلاف ومناطق النفوذ، وهو الذى طالما وقف ضده وقاومه منذ حلف بغداد إلى محور الرياض- طهران- كراتشى فى بداية الثورة المصرية. وتصبح سياسة الأمر الواقع باسم السياسة الواقعية Realpolitik هى السائدة. فإسرائيل أقوى دولة فى المنطقة العربية، وأمريكا أقوى دولة فى العالم، والعرب ضعاف مشتتون مختلفون قطريون يعانون من التمزق والتخلف والتسلط والحروب الأهلية. وأصبحوا لا وزن لهم على المستوى الدولى ولا ثقل لهم فى مسار التاريخ. فالبديل الوحيد فى الداخل هو النظام العربى الحالى ولا بديل غيره. والبديل الوحيد فى الخارج، هو التحالف مع إسرائيل وأمريكا ولا بديل غيره. وكل ذلك مكسب للقضية الفلسطينية، ومساعدة لشعب فلسطين ليس عن طريق المقاومة بالحجارة أو بالسلاح بل عن طريق المواثيق الدولية والتأييد الأوروبى وخارطة

الطريق. فالعرب يكسبون بالسلام ما افتقدوه بالحرب. ويُشرع لسياسة الهرولة نحو المحور الجديد بل قد يقع التنافس بين العرب، بين مصر والأردن مثلا، لكسب ود الحليف الجديد، كل منهما يريد تقديم مزيد من الخدمات وتحقيق أكبر قدر ممكن من المنافع. وما يصرح به الخليج جهارا ويمارسه فعلا تسبق إليه دول الجوار وتحققه عملا. والغاية النهائية هو القضاء على ما تبقى من صمود الإرادة الوطنية فى سوريا وإيران ولبنان، بحصار سوريا، وتهديد إيران، وتفتيت لبنان. مع أن تركيا حاولت ذلك فى سياساتها التقليدية منذ الثورة الكمالية وبدأت تتراجع بعد ما يزيد على سبعين عاما إلى سياسة وطنية عربية إسلامية بعيدا عن الحلف الأمريكى الإسرائيلى.

والأخطر من الاقتصاد والسياسة هى الثقافة. التطبيع جهارا، والاعتراف بالصهيونية علنا، من أجل صهينة العقل العربى، والاستسلام لمنطق القوة، إسرائيل فى الداخل وأمريكا فى الخارج. وتنتهى القصص القديمة التى سادت فى الخمسينات والستينات عن التنمية المستقلة، والاعتماد على الذات، والسوق العربية المشتركة، والتكامل العربى، والوحدة الاقتصادية، العربية والقومية العربية. فقد أدى كل ذلك إلى هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧. الخطورة على الثقافة أن تتحول الأقلية المطبعة إلى أكثرية، وأن ما يتم سرا يتم علنا، وأن ما يستحى من الناس يصبح لا حياء فيه. و"إن لم تستح فاصنع ما شئت". الخطورة أن تهتز قناعات، وتحل محلها قناعات أخرى، فتهتز النفس، ويضطرب الوجدان بعد أن تتحول الثوابت إلى متغيرات، والمتغيرات إلى ثوابت.

والأخطر من الاقتصاد والسياسة والثقافة هو التاريخ. إذ قد يتحول التطبيع جهارا إلى تغيير مسار التاريخ ابتداء بحصار الأوطان ونفى الإرادة الوطنية المستقلة والدولة الوطنية المستقلة التى كانت حصيلة حركات التحرر الوطنى، وكلفت ملايين الشهداء ثم يأتى حصار المعارضة العربية التى تسبح ضد التيار حتى تبدو قديمة تتبع أساطير الأولين خارج العصر

والزمان، تجرفها الواقعية السياسية وتزويها فى أقبية التاريخ. ثم يأتى حصار ما تبقى من كرامة. فيصبح الواقع هو القاعدة والوطن هو المثال. ينتهى عصر الأيديولوجيا ليس إلى التكنولوجيا كما كان قديما بل إلى سوق المال. وكما تنتهى الوطنية تنتهى القومية التى أدت إلى ضرب الثورة الإسلامية فى إيران فى ظهرها بعد عامها الأول، ثم إلى احتلال الكويت ثم إلى احتلال العراق. وتُحاصر الحركة الإسلامية الباقية التى مازالت تقاوم نظرا لأنها الوحيدة تقريبا فى الساحة، فى فلسطين والعراق، ضد الاحتلال وفى سائر الأقطار العربية ضد القهر والفساد، ونظرا لأنها غير شرعية فى معظم الحالات تبدو وكأنها عنيفة فيتم تشويهها فى الداخل والخارج لم يبق إلا الاستسلام التام، والتطبيع جهارا وليس سرا، والتبعية علما بإرادة حرة وطوعا وليس جبرا وكرها. ويتم الاستسلام للنظام الدولى الجديد وإلى جدول الأعمال المفروض من الخارج: العولمة، صراع الحضارات، نهاية التاريخ، العالم قرية واحدة، قوانين السوق للغرب. وجدول أعمال آخر لنا: حقوق الإنسان دون حقوق الشعوب، وحقوق الأقليات دون حقوق المواطنة، والإدارة العليا بديلا عن الدولة الوطنية، والتعليم الخاص بدلا من التعليم الوطنى، والتأهيل بعلوم السوق وإدارة الأعمال واللغات والحاسبات الآلية وليس بالتعليم الوطنى لإعداد المواطن الصالح.

وتضعف الذاكرة العربية ويطويها النسيان. ويغيب الخيال العربى. ويختفى المتنبى والمعرى. وتنسى الأجيال القادمة أحمس وصلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر، طاردو الغزاة، ومؤسسو الدول، وحماة الشعوب، والمحافظون على مسار التاريخ من الانكسار أو الردة.

التطبيع جهارا و(لا يحب الله الجهر بالسوء). ولا يجوز الخضوع إلا لله طوعا أو كرها (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا أو كرها). وهو وحده الذى يأمر (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها). وفى المأثور "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها".

٣- من كوبنهاجن إلى القدس

ارتبطت عاصمة الدانمرك "كوبنهاجن" بمجموعة من المثقفين العرب والإسرائيليين. وأصدرت بيانا باسمها بغرض تسوية سلمية للقضية الفلسطينية والتطبيع مع الكيان الصهيونى دون التزام واضح بالحد الأدنى للتسوية: الانسحاب من الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ بما فى ذلك القدس الشرقية، وعودة اللاجئين، وإزالة المستوطنات، والسيطرة على مصادر المياه. وخشى المثقفون العرب من التنازل عما لا يملكون، وأن مبادراتهم فيها عطاء أكثر مما فيها أخذ، وأنهم لا يمثلون الجماهير العربية ولا مطالبهم الوطنية. فخجل بعضهم، ومات البيان.

كما ارتبطت أسماء عواصم أوروبية أخرى بنفس الموضوع، القضية الفلسطينية، مثل مدريد واتفاقياتها القائمة على مبدأ الأرض فى مقابل السلام، وأوسلو واتفاقياتها التى منها انبثقت السلطة الوطنية الفلسطينية دون قيام الدولة فى الموعد المحدد وحتى الآن.

وارتبطت أسماء بعض العواصم العربية بالقضية الفلسطينية. وكان تحويل إسرائيل لمجرى نهر الليطانى فى جنوب لبنان هو الدافع على عقد مؤتمر القمة العربى الأول فى القاهرة فى الستينيات. كما ارتبط اسم القاهرة باتفاقيات تنظيم العلاقة بين المقاومة الفلسطينية والدولة اللبنانية، ثم بتفاهمات القاهرة بين فصائل المقاومة الفلسطينية. كما ارتبط مؤتمر القمة العربية فى الخرطوم فى ١٩٦٧ أعقاب الهزيمة باللاءات العربية الثلاث الشهيرة، لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة مع العدو الصهيونى. وارتبط اسم الدار البيضاء

(*) الاتحاد: ٤ فبراير ٢٠٠٦، الزمان: ٥ فبراير ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٥ فبراير ٢٠٠٦.

بالقمة العربية التى جعلت منظمة التحرير الفلسطينية هو الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى. وارتبطت القمة العربية فى بيروت بالمبادرة العربية، الانسحاب الكامل فى مقابل السلام الكامل، استئنافا لمبادرة روجرز، ولمبدأ الأرض فى مقابل السلام. وارتبطت مدينة الطائف باتفاقية إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية.

كما ارتبطت أسماء بعض العواصم العربية بلحظات فارقة فى تاريخها مثل مؤتمر القاهرة فى ١٩٩٠ لتشريع العدوان الأمريكى على العراق بفارق صوتين. وارتبط اسم تونس بمؤتمر القمة المؤجل للخلاف على جدول الأعمال الداخلى أم الخارجى. كما ارتبط اسم بغداد من قبل بحلف بغداد الشهير فى ١٩٥٤. وارتبط اسم الرياض بالحلف الإسلامى بين الرياض وطهران وكراتشى فى ١٩٦٥ لمحاصرة القومية العربية ومضمونها الاشتراكى التقدمى.

قفز اسم "كوبنهاجن" من جديد إلى الأذهان بسبب الرسوم الساخرة التى نشرتها إحدى المجلات الدانمركية لقياس مدى حرية التعبير كما يقال فى الظاهر، والقصد الحقيقى مدى إظهار سيادة المحافظة والتعصب والتخلف فى العالم الإسلامى إذا ما ظهرت ردود أفعال سلبية استئنافا لقضايا سلمان رشدى البريطانى الهندى، ونصره تسرين من بنجلادش، وربما أيضا نصر حامد أبو زيد من مصر عن اضطهاد المفكرين والكتاب فى أوطانهم وبالتالى غياب حرية التعبير. فيكسب الغرب نقطة على حساب المسلمين فى حرية التعبير. والسؤال هو: لماذا التجربة على الحضارات الأخرى مثل الحضارة الإسلامية والشواهد كثيرة فى الحضارتين المسيحية واليهودية؟ فعندما صدر فيلم "يسوع المسيح نجم كبير" قامت المظاهرات فى إيطاليا وفى كثير من العواصم الأوروبية ضد الفيلم وتصوير المسيح فى علاقة حب مع مريم المجدلية. وعندما بدأ بعض المفكرين والباحثين الأوروبيين فى التشكك فى الأرقام التى يعلنها الكيان الصهيونى عن المحرقة التى قام بها النازيون فى

ألمانيا خاصة، الخمسة ملايين، لابتزاز أوروبا من أجل التعويضات وشرعية الهجرة ليهود العالم، أربعة عشر مليونا، إلى إسرائيل، من الشتات إلى حق العودة، وضم الأراضى المحتلة وإقامة المستوطنات وتوسيعها لاستيعاب الهجرة، طالب الغرب بمحاكمتهم وإدانتهم بمعادة السامية بالسجن والغرامة. وعندما تجرأ رئيس الجمهورية الإسلامية فى إيران بالتعبير عما يكنه كل عربى ومسلم تجاه الكيان الصهيونى، وما تربى عليه على مدى جيلين من الزمان قبل مفاوضات السلام ومعاهدات الصلح والاعتراف به من مصر والأردن وموريتانيا، وطالب الإسرائيليين بالعودة من حيث أتوا، فلماذا يتحمل الفلسطينيون وزر ما اقترفه الأوروبيون، ثارت ثائرة الغرب واتهموه أيضا بالتطرف والتعصب والصبيانية واللاواقعية ومعاداة السامية وطالب بمعاقبته بالطرد من الأمم المتحدة لخرق ميثاقها الخاص باحترام استقلال الدول، مع أن ما تفوه به رئيس الجمهورية الإسلامية بالكلام قامت به الولايات المتحدة بالفعل فى العراق وأفغانستان، وقامت به إسرائيل فى فلسطين، وقامت به روسيا فى الشيشان، والهند فى كشمير. وبعد أن نجح حماس فى الانتخابات التشريعية فى أكثر الانتخابات ديموقراطية فى العالم دون تزوير أو غلبة، وهو ما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء غربا وشرقا، رفض الغرب نتائجها ولم يعترف بشرعية المنتخبين. وهددها بقطع المعونات عن الشعب الفلسطينى وعدم الاعتراف بها كممثل للشعب الفلسطينى إلا بعد الاستسلام لشروط إسرائيل دون مطالبة إسرائيل بالمقابل بالانسحاب من الأراضى المحتلة، وحق اللاجئين فى العودة، تنفيذا للقرارات الدولية.

وتحية للعرب والمسلمين أن هبوا هبة رجل واحد لمواجهة الرسوم الساخرة من الرسول صلى اللّه عليه وسلم التى نشرت بإحدى المجلات الدانمركية. وقاموا بسحب السفراء العرب من العاصمة الدانمركية أو استدعاء سفراء الدانمرك فى العواصم العربية والإسلامية للاحتجاج أو المطالبة بالاعتذار الرسمى ليس فقط من المشرفين على المجلة بل أيضا من

الحكومة الدانمركية أو بمقاطعة البضائع الدانمركية خاصة منتجات الألبان التى تمثل جزءا كبيرا من الصادرات الدانمركية أو القيام بالمظاهرات داخل الدانمرك وخارجها للاحتجاج على إهانة المقدسات الإسلامية ورفع لافتات "نحن فداك يا رسول الله". كما تحركت منظمة المؤتمر الإسلامى التى تمثل مليار وربع من سكان العالم للاحتجاج. وقريبا غطى الرسام الهولندى ماثيو فان جوخ أجساد فتيات عاريات بآيات من القرآن الكريم وكان جزاؤه القتل تم على إثرها اتهام المسلمين بالتعصب ومعاداة حرية التعبير. وهذا كله مما يثلج القلوب، ويثأر لكرامة العرب والمسلمين التى لم يعد أحد فى الغرب يوليها أى اعتبار.

والسؤال هو: لماذا لم يقم العرب والمسلمون قيامة رجل واحد لإنقاذ المسجد الأقصى، أولى القبلتين، وثالث الحرمين، والقدس المدينة، وفلسطين، الوقف الإسلامى؟ لماذا يتركون الحفريات تحت المسجد الأقصى تمهيدا لهدمه وإنشاء هيكل سليمان على أنقاضه؟ ولماذا لم يقفوا وقفة رجل واحد ضد تهويد القدس وإقامة الجدار العازل، وزرع المستوطنات؟ولماذا لم تقطع الدول المتصالحة مع إسرائيل علاقاتها معها وإنهاء كل محاولات التطبيع معها وهى تقتل وتشرد وتصفى جسديا نشطاء المقاومة؟ ولماذا لم يسحبوا سفراءهم من واشنطن ولندن بعد عدوان أمريكا وبريطانيا على العراق وقتل الآلاف من الأطفال والنساء والشيوخ؟ ولماذا لم يقاطعوا البضائع الأمريكية والبريطانية بعد احتلال أفغانستان؟ ولماذا لم يقطعوا مع روسيا بعد احتلالها الشيشان وهى جمهورية إسلامية وأراضى المسلمين؟ ولماذا لم يقطعوا مع الهند حتى تنسحب من كشمير والإقرار بحق تقرير المصير للشعب الكشميرى طبقا لقرارات الأمم المتحدة؟ ولماذا لم يقاطعوا البضائع الأسبانية، وأسبانيا مازالت تحتل مدينتين مغربيتين، سبته ومليلية، من بقايا الاستعمار الغربى الحديث؟ وهل الرسوم الساخرة لشخص الرسول أكرم من دماء المسلمين وأراضيهم وثرواتهم وكرامتهم، ومن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا؟

إن المقدس فى القرآن الكريم هو الله، الملك القدوس (**هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس**)، (**يسبح لله ما فى السماوات والأرض الملك القدوس**). تقدسه الملائكة (**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**). والمقدس أيضا هو الروح القدس الذى أيد عيسى بن مريم (**وآتينا عيسى بن مريم البيِّنات وأيدناه بروح القدس**)، (**إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا**). وهو جبريل عليه السلام حامل الوحى للرسول (**قل نزله روح القدس من ربك بالحق**). وهو أيضا الأرض المقدسة (**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم**) قبل أن يقطعوا العهد والميثاق، والوادى المقدس (**إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى**)، (**إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى**). أما الرسول فهو بشر، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق. حرم إطراءه وتعظيمه كما أطرت النصارى عيسى بين مريم. وهو على خلق عظيم.

فإذا كان للمسلمين كل هذه القدرة على التجميع والاعتراض والاحتجاج، وكان لديهم كل هذه الإمكانيات فى التأثير على أعدائهم وممثليهم ومغتصبى حقوقهم فأين توضع؟ أليس موقفنا أضعف فى اتهامنا بأننا ضد حرية التعبير، وموقفنا أقوى فى قدرتنا على مقاومة الاحتلال؟

٤- هل من مفاوض؟

مازالت إسرائيل تتحدى: هل من مفاوض؟ هل من شريك؟ فالعيب ليس فى إسرائيل التى تريد السلام وإنهاء الصراع العربى الإسرائيلى بل فى الفلسطينيين الذين مازالوا يحملون السلاح ويمارسون "الإرهاب". فلا يوجد شريك للسلام. وبالتالى توقفت عجلة السلام بسبب غياب المفاوض الفلسطينى، الشريك فى عملية السلام.

والسؤال هو: هل تعترف إسرائيل بالآخر، أى آخر، يكون طرفا لها، تفاوضه ويكون شريكا لها بصرف النظر عن درجة صلابته وليونته أم أنها أساسا لا تعترف بالآخر مهما كان، وأنها لا تعترف إلا بنفسها، والآخر فى خدمتها، والعالم كله مجالا حيويا لها؟

رفضت إسرائيل التفاوض مع أبى عمار، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس السلطة الوطنية الفلسطينية لأن يساعد "الإرهاب" من وراء ستار. وهو الشخصية التاريخية التى سيطرت على النضال الفلسطينى على مدى نصف قرن. وهو الذى اعترف بقرارى الأمم المتحدة رقمى ٢٤٢، ٣٣٨ مما سبب انشقاقا فى النضال الوطنى الفلسطينى، بسبب الانسحاب عن الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧ وحدها دون ذكر ولعودة اللاجئين، وبداية مسلسل التنازلات. وهو المفاوض فى أوسلو والموقع على اتفاقياتها. وهو الذى اعترف بإسرائيل فى مقابل اعتراف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية تحت محاصرته فى بيروت ثم فى رام الله. وأخيرا تم اغتياله بدس السم فى طعامه، وكما قال الأفغانى "لله جنود من عسل".

وفاوض أبو مازن، وجلس، وصافح، ولكنه لم يحصل على شىء، فإنه لم يقض على

(*) الاتحاد: ٢٠ مايو ٢٠٠٦.

"الإرهاب"، ولم يفكك البنية التحتية للفصائل، ولم يطهر مؤسسات السلطة من الفساد المالى والإدارى، ولم يوحد أجهزة الأمن الفلسطينى، ولم ينزع سلاح المقاومة أى أنه لم يدخل المفاوضة عاريا تماما حتى يتم الاستسلام.

وجاءت حماس بانتخاب حر وديموقراطى للشعب الفلسطينى. ومع ذلك هى أيضا ليست شريكا فى السلام. فإنها تريد تدمير إسرائيل طبقا لبرنامجها السياسى، ولا تعترف بها. ومازالت تحمل السلاح، وتؤيد العمليات "الإرهابية". ومهما أعلنت حماس بأنها تقبل مبادرة السلام العربية، الانسحاب الكامل فى مقابل السلام الكامل، وأنها تقبل إقامة الدولة الفلسطينية على حدود الرابع من يونيو حزيران ١٩٦٧، وأنها تقبل بكل الاتفاقات السابقة التى وقعت عليها السلطة الوطنية الفلسطينية، تم حصارها وعدم الاعتراف بها بل وتجويع شعب فلسطين من أجل تركيعه.

وقررت إسرائيل الانسحاب من جانب واحد فى غزة تحت وطأة المقاومة لأنه لا يوجد شريك فلسطينى يفاوض. وتعد الآن خطة انسحاب ثان من الضفة الغربية لتجميع المستوطنات الكبرى فى حزام واحد، وترك المستوطنات النائية "غير الشرعية"، وكأن الأولى كانت مستعمرات شرعية لأنه لا يوجد أيضا شريك فلسطينى بالرغم من وجود رئيس السلطة، ورئيس الحكومة، ومنظمة التحرير الفلسطينية التى اعترفت بها إسرائيل من قبل.

ولا يوجد مفاوض فلسطينى فقط بل لا يوجد أى مفاوض عربى آخر. فقد رفضت إسرائيل منذ البداية مفاوضة العرب مجتمعين، مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، وهى دول الطوق المحتلة حتى تنفرد بكل قطر على حدة. وهو ما فعلته مصر فى اتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨، ومعاهدة السلام فى ١٩٧٩. ثم تلتها الأردن فى اتفاقيات وادى عربة. وإن كانت مصر قد استردت سيناء منزوعة السلاح، واستردت طابا بقرار من محكمة العدل الدولية، فإن الأردن لم يسترد الضفة الغربية التى كانت تحت إدارته فى عام ١٩٦٧. ولا يوجد

أى مفاوض إسلامى حتى من الأنظمة المعترفة بإسرائيل رسميا مثل تركيا أو غير رسمى مثل باكستان. فالقدس مسئولية المسلمين، والمسجد الأقصى أمانة فى عنق مليار وربع من المسلمين.

ولا يوجد مفاوض أيضا لأولى الأمر، الرباعية أو الاتحاد الأوروبى أو روسيا أو أمريكا، يفاوض لتنفيذ القرارات الدولية وباسم العرب. والعرب أعضاء منتسبون فى الاتحاد الأوروبى. وأوروبا من دول الجوار تعيش على نفط العرب. وروسيا الحليف التقليدى للعرب فى الحرب والسلام، فى التحرير والتنمية.

ولا يوجد مفاوض حتى ولو كان الله نفسه، بالاحتكام إلى الأنبياء والكتب المقدسة. فقد أعطاهم الله كل شىء، الأرض والمدينة والمعبد والهيكل بناء على ميثاق قديم ووعد أبدى بالنصر على أعدائهم. فالله فى صفهم ومعهم. ولا موسى مفاوضا. فقد خرجوا من مصر معه، وغضب منهم لعصيانهم له. وعاشوا فى التيه قبل أن يعودوا إلى فلسطين. ولا الشيطان مفاوضا لهم فهم قادرون على استخدامه لصالحهم والعمل معهم.

ليست القضية إذن هو غياب المفاوض والشريك، بل هى قضية عدم الاعتراف بالآخر على الإطلاق. فلا يوجد إلا طرف واحد يقرر، والآخر ينفذ. طرف يأمر، والآخر يطيع. فإسرائيل هى الشعب المختار، أبناء الله وأحباؤه. لا يعترفون بالشعوب الأخرى إلا خدما لهم (**ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل**). يقتلون الأنبياء، ويمالئون الملوك. ويعتدون على باقى القبائل والشعوب.

وقد عبرت الصهيونية عن هذه الموقف بوضوح. عنصرية دموية، ومركزية استعلائية، واستعمال القوة للاستيطان فى أراضى الغير والتوسع. وهو ما استقر فى الوعى الأوروبى كله، وكما ظهر أيضا فى المركزية الأوروبية، والعنصرية الأوروبية، والاستعلاء الحضارى الأوروبى. فأوروبا مركز العالم. وزحزحت اليهودية التى تنفى الآخر المسيحية التى تعترف

بالآخر بالرحمة والمغفرة "من لم يكن منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر" من الوعى الأوروبى. وربطت نفسها بالمد الاستعمارى الأوروبى، والانتشار خارج أوروبا، والالتفاف حول أفريقيا وآسيا، قارات العالم القديم.

كان من الطبيعى أن ترفض إسرائيل مبادرة السلام العربية حتى قبل إعلانها فى القمة العربية فى بيروت. فهى لا تعترف بأى مفاوض مهما كان لأنها أساسا لا تعترف بوجود آخر غيرها. وإذا فاوضت فإنها تملى إرادتها على محيطها ومجالها الحيوى الذى ليس له حدود إلا بمقدار ما يصل إليه جيش الدفاع الإسرائيلى. لقد ساهمت فى نهاية الاتحاد السوفيتى، وإسقاط المنظومة الاشتراكية المعادية لها، والصديقة للعرب. والآن تسيطر من خلال رأس المال على كبريات الشركات فى الولايات المتحدة الأمريكية ومراكز اتخاذ القرار السياسى فيها. وتجدد سلاح الطيران الصينى. وتقوم بالتصنيع المشترك للشرائح الإليكترونية مع الهند، وسلاحها النووى جاهز فى أى لحظة ضد العواصم العربية والدول الإسلامية مثل إيران وباكستان.

إيران وحدها هى المفاوض لأمريكا وأوروبا. فهى التى تفرض إرادتها على الآخرين وتبين حدود قوتهم. هنا تعترف أمريكا وأوروبا وإسرائيل بالمفاوض. فالمفاوض هو الذى يملى إرادته وليس الذى يستسلم ويسلم منذ البداية، ويستجدى ويستعطف ويهيب بالضمير العالمى للمساعدات الإنسانية لشعب نصفه لاجئ ونصفه محاصر. المقاومة وحدها فى العراق هى التى تريد قوات الاحتلال مفاوضتها وليست الحكومة العراقية المشكّلة تحت الاحتلال. المقاومة فى فلسطين وأفغانستان والشيشان وكشمير هى القادرة على المفاوضة لأنها هى التى تبين حدود إرادة الآخر باصطدامه بإرادات أخرى تقاوم وتفرض نفسها. وأمريكا اللاتينية الآن هى التى تقاوم، وتبين حدود إرادة الولايات المتحدة الأمريكية، وسيطرة الشمال على الجنوب.

لم يبق أمام إسرائيل إلا خياران. الأول النموذج الأندلسى، أن يعيش اليهود مع غيرهم متساويين فى الحقوق والواجبات، يشاركون فى نفس القيم كما عاشوا عصرهم الذهبى فى الأندلس، فى غرناطة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة. والثانى هدم المعبد بمن فيه على من فيه كما فعل شمشون الجبار وهو ما حدث فى الأسر البابلى وفى العصر الرومانى وفى نازية هتلر.

٥- واحد بألف

ليست المعارك عسكرية فقط، ولا اقتصادية فقط، ولا سياسية فقط بل هى معارك ذهنية أيضا بين الصور النمطية التى ينسجها كل فريق من المتصارعين للآخر. يسهم فى صنعها التاريخ والثقافة والإعلام والتكرار. وقد تتهاوى إذا ما تغير الواقع الذى ينتجها والظروف التى أنشأتها. وخطورتها أنها سلاح فى المعارك. تؤثر فى المحاربين. هل يحارب الجندى شبحا أمامه، أسطورة، وهما، رجلا خارقا للعادة إلى آخر ما صورته السينما الأمريكية مثل رامبو، طرازان، الإنسان الآلى، حرب الكواكب أم يحارب شخصا مثله، جنديا عاديا قد ينتصر وقد ينهزم طبقا لقدرته على حمل السلاح وتخطيط قيادته؟

ومن ضمن الصور الذهنية بيننا وبين العدو الصهيونى، الكم والكيف. فنحن كم بلا كيف وهم كيف دون كم. العرب ثلاثمائة وخمسون مليونا، والإسرائيليون خمسة ملايين فى فلسطين المحتلة. والمسلمون مليار وربع، واليهود على مستوى العالم أربعة عشر مليونا، معظمهم فى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة نيويورك. ومع ذلك يغلب الكيف الكم، والقليل الكثير. وهو ما لاحظه الأفغانى من قبل حين صرخ فى المسلمين: والله لو كنتم ذبابا أو جرادا وحططتم على الجزيرة البريطانية لأغرقتموها.

وقد تجلى ذلك فى ذريعة العدوان الصهيونى على ما تبقى من فلسطين فى قطاع غزة والضفة الغربية بأسر جندى إسرائيلى بعد عملية فدائية نوعية داخل الكيان الصهيونى،

(*) الاتحاد: ٥ أغسطس ٢٠٠٦، الدستور: ٧ أغسطس ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٣ أغسطس ٢٠٠٦.

وتبرير العدوان الصهيوني على لبنان بذريعة أسر المقاومة اللبنانية لجنديين فى معركة عسكرية بين جنود وليس خطف كما يفعل قطاع الطريق. ويرفض الكيان الصهيوني تبادل الأسرى كما هو متبع فى كل الحروب. ففلسطين والكيان الصهيوني فى حالة حرب منذ ١٩٤٨. وفلسطين كلها محتلة. وأعيد احتلال القطاع بعد الانسحاب منه. ومزارع شبعا محتلة فى لبنان. وفى سجون إسرائيل حوالى عشرين ألف أسير. قبض عليهم فى منازلهم اختطافا كما حدث فى سجن أريحا. بل ولا تريد تبادل الأسرى مع حوالى ألفين من الأطفال والنساء طبقا للمواثيق الدولية ومعاهدات جنيف. تريد إسرائيل الجندى حيا وكأن الآلاف من الفلسطينيين السجناء ليسوا أحياء. وتريد الأسرى جثثا فبدونها لا يكون له إعلام وراثة، ولا اعترافا بموت، ولا تصريحا بدفن طبقا للشريعة اليهودية. أسير إسرائيلى بألف فلسطينى أو بعشرة آلاف، كيف فى مقابل كم. أحياء إسرائيليين فى أيدى المقاومة فى مقابل أحياء أموات فى السجون الإسرائيلية.

وقد خلقت هذه الصورة النمطية على مدى الحروب العربية الإسرائيلية منذ ١٩٤٨ حتى الآن. ففى ١٩٤٨ هزمت العصابات الصهيونية الجيوش العربية مجتمعة بما فى ذلك جيوش مصر وسوريا والأردن ولبنان من دول المواجهة، والسعودية والعراق من دول الجوار. واستمرت الصورة فى هزيمة ١٩٥٦ واحتلال سيناء وعدد القتلى الإسرائيليين بالمئات فى مقابل عدد الشهداء المصريين بالآلاف. واستمر نفس الأمر فى هزيمة ١٩٦٧ عندما كان قتلى الإسرائيليين بالمئات أيضا والشهداء المصريين بالآلاف، وصورة حزن الكنيست على قتلاهم، وصورة رقص أحد أعضاء مجلس الشعب المصرى فى المجلس فرحا بعد تراجع الرئيس عن الاستقالة. وتغير الأمر فى نصر أكتوبر ١٩٧٣ عندما زاد عدد قتلى العدو الصهيوني، وقل شهدائنا. والصور النمطية القديمة فى حاجة إلى وقت حتى تنقشع أمام الوقائع الجديدة وتتكون صور نمطية أخرى. لا تكفى واقعة واحدة بل عدة وقائع حتى يحدث التراكم النفسى

والذهنى الضرورى لنشأة صورة ذهنية جديدة.

والآن تنقلب الآية. وينشأ واقع جديد على الأرض. فتتغير الصور النمطية القديمة، الكم العربى فى مقابل الكيف الإسرائيلى إلى صور جديدة، الكيف العربى فى مقابل الكم الإسرائيلى، المقاومة الشعبية فى مواجهة جيش منظم، حزب فى مواجهة دولة، رجل أمام دبابة، صاروخ يطلق على مدينة، خندق يصد قذائف طائرة، مقاوم فى مواجهة فرقة، مقاوم يتحصن فى المقابر، ويقاتل بمفرده من يحاصرونه من جنود العدو الصهيونى واستدعاء أمه لإقناعه بالتسليم وهو يقاوم. **(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)**. ومن بصير أكثر هو الغالب، واحد باثنين **(إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألفا يغلبوا ألفين)**، وواحد بعشرة **(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)**، **(وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا)**. والكثرة لا تنتصر بالضرورة **(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم)**. فجيوش اثنتين وعشرين دولة عربية فى مواجهة جيش واحد للعدو الصهيونى لا تعنى النصر بالضرورة، ولا حتى كم السلاح بل نوعيته.

إنما المهم هو أين المعركة، فى العراق وفى إيران ضد العرب والمسلمين أم فى فلسطين؟ ومن العدو، أمريكا التى تابعناها، إسرائيل التى صالحناها وعقدنا معها المعاهدات وطبَّعنا معها أم أمريكا التى تعتدى علينا وتحتل العراق وأفغانستان وتهدد سوريا والسودان وإيران من أجل تأسيس الإمبراطورية الجديدة بنداء إلهى وإسرائيل التى احتلت كل فلسطين وتدمر لبنان، وتهدد سوريا وإيران، وتقتل الجنود المصريين على الحدود من أجل إنشاء إسرائيل الكبرى باختيار إلهى؟ هل الأعداء من الماضى، الشيوعية من روسيا والتى تنكر الدين وتقول بالعنف والصراع الطبقى وقد انتهى عصر الاستقطاب؟ هل العدو أوروبا التقليدية فرنسا وإنجلترا وهولندا والبرتغال وبلجيكا وإيطاليا وأسبانيا، الدول الاستعمارية التقليدية الكبرى وقد انتهت بفضل حركات التحرر الوطنى، وتوحدت دولها ويجمعها حلف شمال الأطلنطى

للهيمنة عن بعد؟ أم أن العدو شبح قادم من الإسلاميين شيعة أم سنة، داخل الوطن العربى وخارجه للقضاء على أنظمة الحكم الحالية لصالح الحاكمية أو ولاية الفقيه؟ وما قيمة التكديس العربى للسلاح وهو يتقادم جيلا وراء جيل ويتقدم فى الكيف وليس فقط فى الكم؟ وما قيمة المليارات التى تصرف فيه مادام لا يستعمل ضد العدو الفعلى، أمريكا وإسرائيل، ليس بالضرورة جيشا فى مواجهة جيش بل تدعيما للمقاومة الشعبية ضد الجيوش الغازية؟

إن العدل قوة حتى ولو كان المظلومون ضعفاء. والظلم ضعف حتى ولو كان الظالمون أقوياء. وقوة المقاومة فى رفع الظلم، وضعف الكيان الصهيونى فى ممارسة العدوان. شجاعة المقاومة بالرغم من قلة حجمها أقوى من جبن العدو الصهيونى بالرغم من كثرة عتاده ورجاله. وشرعية الحق أقوى من شرعية الباطل. وتدمير فلسطين ولبنان، والاعتداء على المدنيين وشاحنات الغذاء والدواء وهدم المنازل هروب من مواجهة المقاومة على الأرض. ولا فرق بين الإفراط فى استعمال القوة واستعمال القوة وكأن الجلاد مطالب فقط بالرفق بالضحية فى ذبحها.

إن تأسيس شرعية الكيان الصهيونى على القوة والعدوان فى الماضى والحاضر لا يعنى استمرار ذلك فى المستقبل. فما أسس على باطل يبقى باطلا إلى آخر الزمان. فالميزان هو الأساس الذى قامت عليه السماوات والأرض. وهو رمز العدل فى حياة البشر. وكما هُجّر الفلسطينيون بالملايين فى هزيمة ١٩٤٨ ثم فى هزيمة ١٩٦٧ فإنهم عائدون. وكما أن شعب إسرائيل من المهاجرين منذ ١٩٤٨ فإلى بلادهم الأصلية يعودون. مليونان من المهجّرين من شمال إسرائيل هربا من صواريخ المقاومة، وآلاف من المهاجرين الروس إلى إسرائيل يعودون إلى بلادهم أو يهاجرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية، احتماء بالنفوذ الصهيونى على الإدارة الأمريكية التى تسيطر عليها المسيحية الصهيونية.

إن التاريخ يعيد نفسه. فكما صرخت امرأة اغتصبها الروم فى الشام "وامعتصماه" تصرخ امرأة فى لبنان أيضا "وا....."، ولكنها لا تدرى من تنادى؟

٦- رمـــوز فلسطيــــن

لم يكتف العدو الصهيونى باحتلال الأرض، ما يقارب من نصف فلسطين فى عام ١٩٤٨، والنصف الثانى فى عام ١٩٦٧، ضاربا عرض الحائط بكل قرارات الأمم المتحدة بالنسبة لحقوق شعب فلسطين. بل حول شعبا بأكمله منتزعا إياه من أرضه إلى مجموعة من اللاجئين فى دور الجوار أو من المهاجرين فى البلد البعيد. وما تبقى منه متشبثا بالأرض فإنه تحول إلى أقليات مضطهدة، مواطنين من الدرجة العاشرة لا يحق لها بناء المنازل أو الاشتراك فى نقابات العمال (الهستردوت) أو الفلاحين (الموشاف) أو الجيش أو القضاء أو الحكومة. تنقصهم الخدمات والملاجئ. وربما يُراد بهم الغدر وطردهم خارج أراضى ١٩٤٨ واللحاق بالدولة الفلسطينية حفاظا على الهوية العنصرية اليهودية.

لم يكتف الكيان الصهيونى فقط بالقضاء على مكونات فلسطين، الأرض والشعب بل أنه أيضا أراد تزييف التاريخ. فالأرض منذ آلاف السنين أرض إسرائيل منذ مملكة سليمان وداود، ونجمته على العلم الجديد. وتبرر الأساطير الدينية الاستعمار الاستيطانى، أساطير أرض المعاد والميثاق وشعب الله المختار، ويُزيف التاريخ باستبعاد الكنعانيين العرب سكان فلسطين الأصليين. ولا يوجد استيطان أبدى نظراً لهجرات الشعوب بحثا عن الأمن والرزق. وقارتان من قارات العالم الخمس قد تكونت كلها من المهاجرين، أمريكا واستراليا. وأستوطن البيض فى أفريقيا، والأفارقة فى العالم الجديد طبقا لقانون تقسيم العمل.

وما تبقى من تاريخ شعب بعد تاريخ الأرض تم استلابه. فتحولت المدن الفلسطينية

(*) الاتحاد: ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦، الدستور: ٤ سبتمبر ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٧ سبتمبر ٢٠٠٦.

إلى مدن إسرائيلية، وحوصرت الأحياء العربية القديمة بأحياء يهودية جديدة، حوصرت يافا بتل أبيب. وقاومت بعض الأسماء العربية من مخاطر الاندثار مثل عكا، وحيفا، واللد والرملة، وعسقلان، وبير سبع، والمطلة، وكل البلدات التى تبدأ بلفظ "كفر". ولكن تُنطق بالعبرية. وتم تدمير الأحياء والمدن العربية التى خرجت منها المقاومة لمحو التاريخ والقضاء على ما تبقى من فلسطين.

ثم استُلب تراث فلسطين الشعبى ورموزه، الناى والجمل والخيمة. وأصبحت رموزاً يهودية. وسُرقت عادات الطعام وفنون الطهى العربية وأصبحت إسرائيلية. وتحولت الألحان العربية والدبكة الشامية إلى ألحان يهودية ورقص يهودى. والموالح الفلسطينية، والبرتقال اليافاوى أصبحت منتجات إسرائيل وزراعاتها المصدرة إلى الخارج. لم يبق فى فلسطين رمز إلا تحول إلى رمز يهودى. والحياة رموز. بل إن اسم فلسطين المشتق من سكانها الأصلين تحول إلى إسرائيل أى "انتصر الله". فأصبح مدلول الله هو الاستعمار الاستيطانى. وأصبحت الأرض "أرض إسرائيل".

ولم يكتف الكيان الصهيونى بذلك كله، استلاب الرموز المباشرة، الأرض، والشعب والتاريخ. بل استمر فى القضاء على الرموز السياسية الحية مثل عدم الاعتراف بنتيجة الانتخابات الأخيرة التى شهد العالم كله بنزاهتها وحريتها لأنها أفرزت "حماس" التى تمثل رمز المقاومة وليس فتح التى تمثل رمز "الدولة". فلا اعتراف بحماس، حزبا أو تنظيما أو حكومة. هو تنظيم إرهابى موالى لحزب الله، وسوريا وإيران والقاعدة، ومن ثم لا يوجد ممثل لشعب فلسطين ولا شريك للسلام. فأصول فتح إخوانية، وأيديولوجية حماس إسلامية. ومن ثم تعرى شعب فلسطين من أى غطاء سياسى يحميه. فلا حدود للتدمير، تدمير المخيمات مثل جنين، وهدم المنازل، وتصفية قادة المقاومة، وقتل الأطفال والنساء، والشيوخ. الوطن مستباح، والحدود مفتوحة. والسلطة تناشد العالم، والنظام العربى صامت. ومظاهرات

الشعب العربى فى المدن العربية وهتافاتها تضيع فى الهواء.

ثم يأتى أخيراً القضاء على الرموز السياسية واعتقال ثلث أعضاء المجلس التشريعى، وربع مجلس الوزراء، ورئيس المجلس التشريعى، ونائب رئيس الوزراء ووزير التعليم. فالغطاء مكشوف، والرمز السياسى لم يعد له قيمة ولا تمثيل لشعب وراءه. والتهمة الانتساب إلى "حماس"، وهو حزب شرعى وصل إلى السلطة عن طريق الانتخابات الحرة.

والغاية من القضاء على الرموز إهانة الشعب والإيحاء له بأنه غير قادر على الحفاظ على هاماته وممثليه. فقد قطع الرأس بعد أن مُزّق الجسد إلى أشلاء. لم يعد هناك جسم للجريمة، لا جسد ولا رأس، لا ملف ولا قضية. وإذا كانت السلطة الوطنية غير قادرة على حماية مؤسساتها، وإذا كانت الحكومة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وإذا كانت المقاومة قد فقدت قادتها وزعماءها فلم يعد يبق شىء من فلسطين. ومصير الأرض المحتلة هو مصير الجليل الأعلى، كانتونات عربية داخل الكيان الصهيونى. يضمن لها الأمن والغذاء أسوة بفلسطين ١٩٤٨. والعالم موافق. والنظام العربى متواطىء. والشعوب العربية مهددة بنفس الأخطار. فقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

والرمز لا يكون أسيرا. ولا يمكن استلابه أو ابتلاعه أو تحويله أو القضاء عليه. يبقى الرمز فى الذهن والوجدان والخيال (**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**). ويظل الرمز حاملا للدلالة ومؤشراً عليها (**من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت**). أطفال جدد يولدون كل يوم. فلسطين مثل مصر ولادة. جيل يذهب وجيل يأتى. وانتصارات المقاومة فى العراق ولبنان تعطى الأمل للمقاومة فى فلسطين على الاستمرار. فالحق لا يضيع. والوجود لا يكون شرعيا. الوجود شرعيته، وشرعيته وجوده. الكيان الصهيونى وجود لا شرعى. وفلسطين وجود شرعى.

مازالت رموز الوجدان والخيال باقية لم تُسلب بعد، شعر المقاومة، أغانى الأرض، واسم فلسطين. بها المسجد الأقصى، والقدس الشريف، قبلة سدس سكان الأرض. أدب المقاومة مازال يبدع. وفنون المقاومة مازالت تعطى. والمتنبى والنبى مازالا حاضرين فى وجدان الأمة، الشعر والوحى. فالنْظم رمز أبدى لا يُقضى عليه لأنه نابع من القلب والوجدان والخيال الحر. هو القدرة على الكلام والتعبير والتأثير. والكلام فعل وخلق(**كن فيكون**).

أطفال فلسطين مازالت تغنى وترسم. وأجيال فلسطين مازالت تتوارث فيما بينها مفاتيح المنازل ووثائق ملكيتها. الذاكرة الجماعية مازالت حية لم تمت. "أتذكر يا أبى يافا؟". أغصان الزيتون، وأشجار البرتقال مازالت فى الخيال وإن دمرتها قوات الاحتلال، وإن كانت فلسطين فى جيل مضى قد ضاعت نظرا لاختلال ميزان القوى بين العرب والهجرات الصهيونية فإن ميزان العالم لا يبقى على حال. ولا موج البحر يظل دائماً فى أدناه، ولا شاطئه فى جزر مستمر. الشعوب قيام وقعود، والحياة صعود وهبوط. الديموجرافيا فى صالح العرب. والتاريخ أيضاً شاهد على أن الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ليس أول غارة على العالم الإسلامى الذى تكالبت عليه الغارات من الشرق والغرب. مازال الأطفال يذكرون حطين، وعين جالوت كلما شاهدوا صواريخ المقاومة اللبنانية تنهمر على المستوطنات الشمالية فى الكيان الصهيونى. فإذا خطفت إسرائيل الرموز فإن المرموز باق. وإذا استولت على المثل فإن الممثول شاهد.

٧- إيران وحماس

عاملان رئيسيان فى الحراك السياسى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى أو فيما يسمى الشرق الأوسط. يتشابهان ويختلفان. ويثيران زوابع فى الرأى العام العالمى، ومحط أنظار القوى المحلية والدولية، بينهما أوجه تشابه، وبينهما أوجه اختلاف.

وتتمثل أوجه التشابه فى أن كليهما اتجاه دينى. فالدين مازال فى الشعوب التراثية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية يقوم بدور الأيديولوجية السياسية لدى الشعوب التى قطعت مع تراثها، واستبدلت به المذاهب الاقتصادية. كلاهما نابع من قلب الثقافة الموروثة التى أصبحت الركيزة الأولى للثقافة الوطنية.

وكلاهما اتجاه جذرى. له قيادة جذرية. تسلك طبقا للمبدأ وليس طبقا للواقع. قيادة مبدئية تمارس طبقا للمبدأ وليست برمجاتية تمارس السياسة الواقعية (ريال بوليتيك) التى قد تصل أحيانا إلى حد التنازل عن المبدأ أو تبنى المبدأ المضاد والمصالحة مع العدو الصهيونى والاعتراف به والمفاوضة معه وهو مازال يحتل الأرض ولا يعترف بحقوق الشعوب. وكلاهما يحمل السلاح الممكن أو الفعلى. كلاهما مستعد للدفاع عن الأوطان ضد التهديد بالغزو والعدوان وضرب المنشآت النووية، ورد العدوان بالعدوان على الأساطيل المتمركزة على مقربة من المياه الإقليمية أو المقاومة الفعلية للاحتلال حتى لو كانت الإمكانيات غير متكافئة. طرف يملك كل الترسانة العسكرية وآلياتها وتقنياتها الحديثة وطرف لا يملك إلا البندقية وإرادة الصمود.

(*)

وكلاهما مقبول من الشعوب العربية والإسلامية التى تعى بتجاربها الطويلة أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. وترى عجز النظم السياسية على استرداد حقوقها ودرء العدوان وتبعية الحكومات للعدو المشترك، الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. وترى الشعوب فى إيران وحماس الأمل فى خلاصها.

ولكليهما الأغلبية الشعبية. تحكم فى إيران بعد انتخابات حرة نزيهة بعد أن ظن المراقبون أن الأغلبية للبرجماتية المنفتحة على الغرب. وتحكم حماس بعد انتخابات حرة نزيهة أيضا بعد أن كانت التوقعات وتحليل الرأى العام أن الأغلبية لفتح والمقاومة التقليدية للشعب الفلسطينى بعدما لم تحصل السياسة الواقعية على شىء منذ مدريد ١٩٩٢ إلا على أوسلو، ولم ينته مبدأ الأرض فى مقابل السلام إلا إلى السلطة الوطنية الفلسطينية، وتجميع قوات الاحتلال، ثم العودة إلى احتلال الضفة والقطاع، وتحول القطاع بعد الانسحاب منه إلى سجن كبير، ويعاد احتلاله الآن من جديد.

كلاهما معاد لأمريكا وإسرائيل لمن يهدد بالعدوان ولمن يعتد بالفعل. يحتل الأرض ويدمر المنازل ويصفى قادة المقاومة. كلاهما معاد للعدو، العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص (**إن يكن قد أمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله**).

كلاهما معارض للتسويات ويريد حقه كاملا غير منقوص، حق إيران فى امتلاك الطاقة النووية للأغراض السلمية وتخصيب اليورانيوم على أرضها بل وامتلاك السلاح النووى لدرء خطر العدوان الإسرائيلى والتهديد اليومى بضرب المنشآت النووية الإيرانية كما فعلت مع العراق، وحق الفلسطينيين فى استرداد ما تبقى من فلسطين وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس، مع حق عودة اللاجئين، وفك المستوطنات، والسيطرة على مصادر المياه.

كلاهما مرفوض من الحكومات العربية التى تتبنى الواقعية السياسية التى تصل إلى

حد الاستسلام للأمر الواقع دون الأخذ فى الحسبان إمكانيات الوطن العربى وقدراته المالية والنفطية والتأثير على الدول الكبرى وفى العالم لصالح الحق العربى. وكلاهما مرفوض من معظم حكومات العالم الإسلامى البعيدة عن قلب المعركة والتى تراعى الضغوط الدولية عليها والتسليم بالأمر الواقع أيضا. وكلاهما مرفوض من أوروبا والاتحاد الأوروبى الذى مازال مترددا بين الاستقلال عن الولايات المتحدة الأمريكية والتبعية لها من خلال حلف شمال الأطلنطى. وبطبيعة الحال كلاهما مرفوض من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بدعوى تهديد السلام فى المنطقة والإرهاب.

وبالرغم من أوجه التشابه بين إيران وحماس فى المبادئ والأوضاع إلا أن أوجه الاختلاف بينهما أيضا واضحة. ليس الخلاف أن إيران شيعة وحماس سنة. فإيران بها سنة وشيعة وحماس سنة ولكنها مع حزب الله فى لبنان. وسوريا تناضل أيضا فى نفس الخندق. الخلاف السنى الشيعى تقليدى قديم. محاه النضال الوطنى المشترك ضد العدو المشترك والمخاطر المشتركة. إنما الخلاف فى قدرة إيران على الحوار مع باقى التيارات السياسية فى الداخل وحشد الشعب كله وراء سياستها الوطنية المبدئية. وقد استطاعت حماس ذلك أخيرا بعد الموافقة على وثيقة الأسرى وعلى تشكيل حكومة وحدة وطنية وعلى الالتزام بعدم تجاوز الخط الأحمر، إراقة الدم الفلسطينى بأيدى فلسطينية.

إيران دولة مستقلة استطاعت أن تتحرر من الاستعمار البريطانى بعد نضال وطنى طويل. كما استطاعت التخلص من التبعية للولايات المتحدة الأمريكية بعد الثورة الإسلامية فى ١٩٧٩ وإسقاط النظام الملكى السابق وتحويله إلى نظام جمهورى. وحماس مازالت تحت الاحتلال الإسرائيلى المؤيد من الولايات المتحدة الأمريكية. إيران كلها دولة مقاومة ذات سلطة واحدة، لا فرق بين الجيش والشعب. وحماس فصيل من فصائل المقاومة مع فصائل أخرى أقرب منها أو أقل قربا. وهى فى خلاف سياسى بعد أن أتت إلى السلطة مع رئاسة

الدولة فى كيفية التعامل مع العدو مبدئيا أو برجماتيا. تمتلك إيران الدولة من الأسلحة ما تستطيع به رد العدوان الإسرائيلى الأمريكى. وتطور صواريخها القصيرة المدى إلى أخرى بعيدة المدى. وتقوم بدور القوة الإقليمية الكبرى. تخطب أمريكا ودها لمساعدتها فى الخروج من وحل العراق. وحماس فصيل من فصائل المقاومة. لا تملك إلا سلاحا تقليديا لا يستطيع رد العدوان بالطائرات والدبابات والعربات المصفحة والبوارج الحربية والصواريخ الموجهة إلا بالبندقية والأنفاق وإرادة القتال كما كان الحال فى فيتنام.

بعض المعارضة الإيرانية فى الخارج. ليسوا من قادة الثورة الإسلامية بل من معارضيها. هاجروا إلى الغرب خاصة الولايات المتحدة وبوجه أخص فى وست وود ضاحية من لوس أنجلوس التى يطلق عليها "طهران الصغيرة". يقطنها مليون إيرانى مهاجر. وقادة حماس السياسية فى الخارج وقادتها الميدانية فى الداخل، وبعض قادة الانتفاضة فى سجون العدو الصهيونى. لا تحاور إيران خصوم الثورة فى الخارج. وتحاور حماس الداخل والخارج. فى إيران لا حوار بين الثورة وخصومها. وفى حماس لا خصومة فى وطن محتل.

الكل يحترم إيران ويقدرها بالرغم من اختلافه معها وعدائها لها بما فى ذلك أعداؤها لوطنيتها وصمودها وحرصها على استقلالها الوطنى فى عالم لا يُحترم فيه إلا الأقوياء. وحماس، الكل ضدها فى فى الداخل والخارج، فى محيطها الإقليمى وفى النظام الدولى. تمنع عنها المرتبات والمعونات بل وحقوق الصادرات وضرائبها لدى الكيان الصهيونى. ويعترف الكل بحق إيران فى امتلاك الطاقة النووية ويعرضون عليها المغريات والبدائل حتى لا تتحول إلى صناعة السلاح النووى. فى حين تحاصر حماس لأنها منظمة إرهابية تقتل وتدمر وتريد إزالة إسرائيل من الوجود، وتحرير الأراضى المحتلة منذ ١٩٤٨ من البحر إلى النهر مثل الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧. الكل يطلب من إيران الحوار والرد على مقترحات الاتحاد الأوروبى، وإيران ليست فى عجلة من أمرها. أما حماس فالكل يقاطعها. وهى ليست شريكا

للسلام. عليها أن تستسلم أولا وتترك المقاومة وتجلس على مائدة المفاوضات وهى منزوعة السلاح، مقصقصة الريش حتى لا تأخذ شيئا، وتفاوض على لا شىء مادام الكيان الصهيونى يرفض العودة إلى حدود ١٩٦٧، والانسحاب من القدس، وفك المستوطنات، وحق العودة للاجئين، وهدم الجدار العازل. مطلوب من حماس أن تعطى كل شىء ولا تأخذ شيئا.

جردوه من كل شىء فلما استنزفوه ألقوا إليه العظاما

الفصل الســادس

انتصــار لبنــان

١- تحية إلى لبنان.

٢- تبديد الوهم.

٣- بشائر النصر.

٤- الدواء أم الداء؟

٥- إسرائيل والعالم.

٦- لبنان، الدولة والمقاومة.

١ـ تحية إلى لبنان

ورفعت الأعلام الحمراء والبيضاء ووسطها شجرة الأرز باسقة تهزها أيادى العرب فى لبنان. وتذكّر بالثورة الفرنسية والعلم المثلث الألوان، والمارسيليز، والاستيلاء على سجن الباستيل. وأين؟ فى أصغر دولة حجما مساحة وسكانا، صورتها فى ذهن العرب الجمال والحب، والشعر والغناء، والجبل والسهل والبحر، جمال الروح وجمال الطبيعة. وفى نفس الوقت فى أكبر دولة من حيث المقاومة والقدرة على العمل والإعمار. فقد حرر شعبها الجنوب المحتل بفضل تنظيماته السياسية وقواه الشعبية. ومازال صامدا ضد كل محاولات نزع سلاحه وإنهاء مقاومته بدعوى السلام القادم مع العدو المحتل واستقلال الدولة وسيطرتها على المجتمع. فى حين أنه فى دول أخرى مركزية مثل مصر وسوريا تطالب الولايات المتحدة الأمريكية بتقوية المجتمع المدنى وتخفيف الدولة قبضتها عليه. وهى لا تريد هذا ولا ذاك، لا مجتمعا مدنيا قادرا على مناهضتها، ولا دولة وطنية مستقلة ترفض التبعية لها. لبنان عقل الأمة فى الفكر والأدب، طباعة ونشرا. لغتها وشعرها ونهضتها منذ القرن التاسع عشر، وأدباؤها ومصلحوها المهاجرون من بر الشام إلى بر مصر. وقد كان حصار بيروت فى ١٩٨٢ من شارون، رجل السلام الآن، هو حصار لعقل العرب بعد الجثمان على جسد العرب فى فلسطين والجولان. وكتم نفس العرب فى مصر.

ولقد تساءل الناس من قبل: أين الشارع العربى؟ أين جماهير العرب؟ أين الأمة العربية التى طالما خاطبها عبد الناصر لردع العدوان عنها وتوحيدها؟ لقد نزلت الملايين فى

(*) الاتحاد: ١٩ مارس ٢٠٠٥، الزمان: ١٧ مارس ٢٠٠٥، الدستور: مارس ٢٠٠٥.

عواصم الغرب ومدنه الكبرى، وفى قلب الولايات المتحدة الأمريكية، باريس ولندن وبراج وسياتل وفلورنسا وجنوه ضد الاحتلال الأمريكى للعراق رافعة أعلام العراق وفلسطين فوق الأعناق. ولم يتحرك الشارع العربى إلا فى هبات وقتية ومظاهرات طلابية أعظمها الرباط، فى أقصى المحيط، وأولها فى الخليج الذى لم يتعود على حركة الشارع، وقلبها فى جامعات مصر. ومع ذلك ظلت منذ عدة سنوات محدودة الأثر. وغلب على الشارع العربى السكون وكأن الأمر لا يعنيه، بعد أن أدار ظهره لنظم الحكم التى احتكرت القرار السياسى على مدى نصف قرن، فى الحرب والسلام، وفى الاشتراكية والرأسمالية، بل وفى الاستقلال والتبعية. والأمة يتزايد عددها منذ أن كان يشير إليها عبد الناصر فى خطبه مائة وخمسون مليونا، وقد جاوزت الآن المائتى وخمسين. بل إن الأمة الإسلامية المحيطة تزيد على المليار، خمس سكان العالم، ومازالت القدس محتلة، وأفغانستان والشيشان وكشمير أيضا محتلة. أصبحت الأمة كالقلب أو الجوف المفتوح تجرى فيه القوى الدولية ما تشاء من عمليات جراحية وكأن الجسد بلا صاحب، جثة هامدة واراها التراب. صاحبه يخدره، وعدوه يقتله.

وأخيرا تحرك الشارع العربى فى بيروت يحمل الأعلام الوطنية وليست الحزبية، ويترنم بالنشيد الوطنى. ويقف فى ساحة الشهداء يرثى شهداءه القدماء والجدد. وتسقط الجماهير الحكومة، وتفرض إرادتها على المجلس النيابى. فليست جماهير جورجيا وأوكرانيا وكولومبيا وشيلى بأفضل من الجماهير العربية. تجاوزت الجماهير ممثليها المنتخبين. وتجاوز الممثلون حكومة الأغلبية. فالغليان فى القلب قد طالت مدته. وتدافع الجماهير العربية عن كرامتها الوطنية. وتسأل عمن اغتال رئيسها ومعمّرها وموحّدها. وتدافع عن استقلال الأوطان. وتطالب بانسحاب قوات دولة الجوار التى طالت على أكثر من عقد من الزمان بعد اتفاق الطائف وانسحاب الأجهزة الأمنية التى لم يتعود عليها لبنان الحر الطليق، بل والفوضوى العتيق. والتدخل الأجنبى فى هذه الحالة من القوى الغربية التى تسيطر على

المنظمات الدولية يصطاد فى الماء العكر. وتصدر القرارات دفاعا عن استقلال لبنان وسيادته وهو يهدف إلى السيطرة على المقاومة. وتوطين اللاجئين، وجر لبنان إلى مخططات التسوية فى اتفاق ١٧ مايو- آزار جديد. ويركب الموجة، موجة الشارع اللبنانى والوطنية اللبنانية باسم الشرعية الدولية، ومزارع شبعا مازالت محتلة فى الجنوب، والجولان مازال محتلا فى الشمال، بالرغم من صدور العشرات من القرارات الدولية بانسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة فى يونيو- حزيران ١٩٦٧. وتم تشويه الحركة الوطنية اللبنانية التى استطاعت لأول مرة منذ الاستقلال وبعد الحرب الأهلية النزول إلى الشارع باسم الاستقلال الوطنى وليس باسم الطائفية والعشائرية محققة بذلك، وعلى نحو تلقائى، أحد بنود اتفاق الطائف. وتم تشويهها بقسمتها إلى موالين ومعارضين، موالين لسوريا والنظام فى لبنان، ومعارضين لهما. وكلاهما وطنيون عروبيون قوميون. إنما هى التعددية السياسية التى تصل إلى حد الصراع السياسى على حساب الوفاق الوطنى الذى يعمل له "حزب الله" فى الجنوب، والمتهم بالإرهاب والعنف. والمطلوب نزع سلاحه وكأنه ميليشيات تقاتل على الهوية وليس محررا للجنوب.

إن ما حدث فى بيروت وتحرك الشارع العربى قابل أن يتكرر فى باقى العواصم العربية. يقلب موازين القوى فى الوطن العربى لصالح الشعوب. ويفك أسر الأنظمة المحاصرة بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج وسندان الداخل. فليست نظرية "الدومينو" فى دول البلقان وأوروبا الشرقية وفى جنوب شرق آسيا قاصرة على الطوفان القادم بعد اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق من أجل زعزعة المنطقة كلها، واختلاط الحابل بالنابل لإشعال فتيل حروب أهلية فى العراق وفلسطين ولبنان والمغرب العربى ومصر وسوريا والسعودية طبقا لمخططات القوى الكبرى. بل تنطبق أيضا فى الاتجاه المضاد، فى حركة الشارع العربى ضد مخططات التجزئة فى الوطن العربى إلى فسيفساء عرقى طائفى، تكون

فيه إسرائيل هى أقوى دولة عرقية طائفية فى المنطقة، وتأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية فيها بدلا من أساطير المعاد وشعب الله المختار التى أعطاها لها هرتزل فى "الدولة اليهودية" فى أواخر القرن التاسع عشر، والتى ولم يعد يصدقها أحد. الاحتقان فى الشارع العربى على أشده. بلغ الذروة. وينتظر الشرارة التى قد تكون قد وقعت فى بيروت. ولن تستغرق وقتا طويلا حتى تمتد حركة الشارع إلى باقى العواصم والمدن العربية، تسترد زمانها بأيديها، وتدافع عن استقلال أوطانها، وتحمى كرامتها من الطعن فى القلب باحتلال فلسطين والعراق، وقص الأطراف بالتلويح بالعدوان أو الهجر للنظم العربية التى لم تسر بعد فى طريق التحول الديموقراطى أو التى تسير ببطء أو التى تعطى باليمين ما تأخذه باليسار، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الوراء، انتخاب الرئيس بين أكثر من مرشح وليس الاستفتاء على مرشح واحد ثم وضع الضوابط التى تمنع من الترشيح، وإبقاء المدة بلا حدود، واستعمال إعلام الدولة وأجهزتها وراء المرشح الأوحد الذى تعود عليه الناس على مدى نصف قرن. لقد حدث التراكم الكمى الضرورى فى الشعب العربى الذى أحدث فى بيروت تغيرا كيفيا. وبالتالى تصبح العواصم العربية زينة الحاضر كما كانت زينة الماضى. ويفك الحصار العربى عن الأنظمة بفعل الداخل وليس بفعل الخارج. فالنظم الشعبية قادمة بعد بيروت. تحرر الأوطان من العدوان الخارجى وتحرر الشعوب من القهر الداخلى. ومن ثم تنتهى موجة العقود العجاف وتبدأ موجة العقود السمان.

٢- تبديد الوهم

للأسماء سحرها. وللتعبيرات دلالاتها. لذلك تناقل الناس الأقوال المأثورة والأمثال العامية. وعلقوها على جدران المنازل والمحلات العامة. ويستشهدون بها فى حياتهم اليومية لتفسير الأحداث وإعطاء شرعية لها.

وفى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة الدائرة الآن بين فلسطين ولبنان من ناحية والكيان الصهيونى من ناحية أخرى بد اسحر الكلمات ودلالة العبارات. فقد تم أسر جندى من جيش الاحتلال فى عملية فدائية نوعية وقتل آخرين أطلق عليها "تبديد الوهم". وساندت المقاومة اللبنانية ممثلة فى حزب الله المقاومة الفلسطينية ولتخفيف الضغط عليها وكانت بداية المواجهة المفتوحة فى عملية "الوعد الصادق". وأطلق العدو الصهيونى على العدوان على لبنان عملية "أمطار الصيف".

وأهم من الأسماء والتعبيرات هو مضمونها أى فن الحرب. وقد كتب فيه علماء الاستراتيجية مثل كلاوشفتز وتسن سو والجنرال جياب وجيفارا تنظيرا للممارسات العسكرية التى أدت إلى انتصار الجيوش وضد الأساطير التى ينسجها الأعداء كنوع من الحرب النفسية لتحقيق النصر قبل أن تبدأ المعارك. فالمعارك ليست فقط بالسلاح حين المواجهة بل أيضا بالصور النمطية التى يخلقها كل طرف للطرف الآخر.

وقد نسج العدو الصهيونى حول نفسه أسطورة "العدو الذى لا يُقهر" اعتمادا على

(*) الاتحاد: ٢٩ يوليو ٢٠٠٦، الدستور: ٩ أغسطس ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٦ أغسطس ٢٠٠٦.

الحروب العربية الإسرائيلية السابقة منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧، مع أنه كان لكل حرب ظروفها. هزم فيها العرب ليس لقوة العدو بل لضعف العرب. ففى هزيمة ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية مفككة مفرقة فى مواجهة عصابات منظمة، أركان حربها أقرب إلى قوات الاحتلال البريطانى لفلسطين. أسلحتها فاسدة. ومع ذلك حافظت على نصف فلسطين بعد أن رفض العرب قرار التقسيم. وفى العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦، كانت إسرائيل بمثابة دراجة ممسكة بعربة نقل كما صور موسى ديان. ولم تحدث مواجهة بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى بعد الأمر بالانسحاب. وفى هزيمة ١٩٦٧ لم تحدث مواجهة أيضا بعد الأمر بالانسحاب إثر تدمير سلاح الطيران المصرى. أما حرب الاستنزاف فى ١٩٦٨-١٩٦٩ فقد أوجعت إسرائيل. وفى حرب أكتوبر بدأت أسطورة العدو الذى لا يُقهر فى الانقشاع نظرا للأداء العلمى العسكرى لعبور سيناء والتنسيق العسكرى المصرى السورى على جبهتين فى آن واحد.

أقام العدو الصهيونى استراتيجيته العسكرية على الحرب الخاطفة بحد أقصى أسبوعا كما حدث فى حرب الأيام الست. فلما طالت فى حرب أكتوبر بدأ الانهيار التدريجى للأسطورة. وقامت خطتها على سلاح الطيران والقوة التدميرية الهائلة، الحرب عن بُعد ودون مواجهة. فلما صمم العرب دفاعاتهم الجوية على الصواريخ المضادة للطائرات فى حرب أكتوبر سقط سلاح الجو الإسرائيلى أمام حائط الصواريخ. وانتهت أسطورة الذراع الطويلة.

وبعد عمليتى "تبديد الوهم" التى قامت بها المقاومة الفلسطينية وعملية "الوعد الصادق" التى قامت بها المقاومة اللبنانية غيّر العرب استراتيجيتهم طبقا لإمكانياتهم وتراثهم العسكرى. فانهارت أسطورة العدو الذى لا يُقهر. ففى مقابل طيران العدو، ذراعه الطويلة، ظهر الصاروخ تجاه المدن. ولأول مرة تنتقل المعركة إلى داخل الأراضى المحتلة منذ

١٩٤٨. وضربت نهاريا وعفولة وطبرية وصفد وغيرها من مدن الشمال، وحيفا وعكا من مدن الساحل. فسماء العدو مفتوحة. تعودت على الهجوم وليس الدفاع. ولم تستطع صواريخ باتريوت المضادة للصواريخ اقتناص صواريخ الكاتيوشا أو رعد لاختلاف مستويات الارتفاع. ونزل الإسرائيليون إلى المخابئ. وغادر السياح. وتحول مليونان من العاملين إلى عاطلين. ونزحوا إلى الجنوب. وانتابهم الرعب. وذاقوا مما ذاق منهم الفلسطينيون واللبنانيون. فالسماء مفتوحة للجميع، ليس فقط لطيران العدو بل لصواريخ المقاومة. بالإضافة إلى دقة التصويب باستراتيجية سياسية محسوبة، تتوقف على مدى استهداف طيران العدو المدنيين اللبنانيين. ومصافى حيفا ومصانعها البتروكيميائية والإلكترونية فى المرمى. وتستطيع أن تنال ما هو أبعد من حيفا وعكا وطبرية، ومدن بير سبع واللد والرملة وعسقلان وإيلات قريبة من فلسطين ومصر والأردن والسعودية لو قامت الحرب الشاملة.

وتستطيع المقاومة الصمود شهورا. والعدو الصهيونى لا يستطيع أن يصمد أسابيعا. فالجند هم العاملون. والاحتياط يحارب ولا ينتج. وبالتالى انتهت استراتيجية الحرب الخاطفة. وقد كان الأسير الإسرائيلى الطيار يسأل بعد إفاقته: هل الحرب مازالت قائمة؟ فيُقال له: نعم، فيصاب بالإغماء. فإذا فاق مرة ثانية يسأل: وهل مصر مازالت تحارب؟ فيُقال له: نعم. فيُغشى عليه ولا يفيق. والآن تقوم المقاومة اللبنانية بدور مصر. ويقوم سماحة الشيخ حسن نصر الله بدور الزعيم الخالد جمال عبد الناصر. والشعب العربى من المحيط إلى الخليج يساند القائدين.

كانت الحروب السابقة جيشا فى مواجهة جيش، ودولة فى مواجهة دولة. بل دولة فى مواجهة دولتين أو ثلاث أو اثنين وعشرين دولة عربية. وأقام العدو استراتيجيته على التفوق عليها جميعا كيفا وكما فى نوعية السلاح. والآن يقف شعب فى مواجهة جيش، ومقاومة فى مواجهة دولة. والشعب فى كل مكان. والمقاومة تحت الأرض. لذلك لم يجد العدو

أمامه إلا ضرب المدن وقتل المدنيين، أطفالا ونساء وشيوخا وشبابا، وتدمير البنية التحتية، جسورا وطرقا ومحطات طاقة وثكنات جيش ومحطات إرسال بل وشاحنات خشية من نقل الصواريخ، وعربات مدنية خشية من حركة المقاومة. ولم يجرؤ العدو حتى الآن القيام بغزو برى للجنوب كما فعل من قبل عند احتلاله بيروت عام ١٩٨٢، والقضاء على المقاومة الفلسطينية واللبنانية على الأرض. يخشى المواجهة الأرضية وجها لوجه. لا يقاتل إلا فى حصون حديدية أو عن بعد فى عنان السماء أو فى عباب البحر.

وإذا كانت الحروب العربية الإسرائيلية السابقة قد قامت على التخطيط من جانب العدو، والارتجال والخطابة والعنتريات التى ما قتلت ذبابة من جانب العرب فإن العرب، مصريين وسوريين، منذ حرب أكتوبر عبروا القناة والجولان بناء على تخطيط علمى دقيق لخط بارليف، تيارات المياه فى القناة، وسد فتحات اللهب، واختراع مدافع المياه لشق الساتر الترابى، والقوارب المطاطية، وضرب مراكز القيادة المتقدمة فى عمق سيناء، والرجل فى مواجهة الدبابة، والصاروخ فى مواجهة الطائرة. فالعلم العسكرى ليس حكرا على شعب دون شعب. ولا تمتاز به حضارة على حضارة أخرى.

وإذا كان الإعلام العربى فى الحروب العربية الإسرائيلية السابقة قد غلب عليه التهويل والكذب والخداع، فى حين أن أعلام العدو كان أقرب إلى الصدق. فالمنتصر لا يحتاج إلى دعاية وخداع شعب، فإنه تحول منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى إعلام دقيق وصادق يخبر عن حقائق. واستمر ذلك فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة. إذ تميز إعلام المقاومة بالصدق والدقة دون ادعاء حتى ولو كان إسقاط طائرة للعدو. فى حين لجأ إعلام العدو إلى الحرب النفسية لرفع معنويات جنوده حتى يقبلوا المواجهة مدفوعين بأسطورة العدو الذى لا يُقهر.

وبالرغم من استعمال العدو الصهيونى للأسلحة المحرمة دوليا مثل الصواريخ والقنابل

التى تنفجر مرتين، والقذائف التى تقطع الجسد أشلاء أو تحرقه بحيث لا يمكن التعرف عليه، والمقذوفات السامة إلا أنها فى لحظة يأس قد تستعمل مخزونها النووى ولها فى تراثها ما يبرر ذلك فى عقدة "الماسادا" الانتحار ساعة الخطر وكما فعل شمشون. لذلك من مصلحة العرب التنسيق مع القوى النووية فى المنطقة مثل إيران وباكستان من أجل ردع العدو.

ومن الواضح أنه لا فرق بين يسار ويمين ووسط فى إسرائيل. فوزير الدفاع من اليسار، ورئيس الوزراء من الوسط، وزعيم المعارضة من اليمين. والكل يجمع على ضرورة الاستمرار فى الحرب حتى تحقق إسرائيل شروطها: الإفراج عن الأسرى الثلاثة، نزع سلاح حزب اللّه، وضع قوات دولية فى جنوب لبنان تقوم بدور جيش لبنان العميل السابق الذى قضت عليه المقاومة بعد تحرير الجنوب. فاليسار الإسرائيلى أسطورة. وإذا كان الرأى العام العالمى، وقرارات الأمم المتحدة، والدول الثمانية، والاتحاد الأوروبى كله لصالح إسرائيل، ولا أحد يذكر العشرين ألف أسير عربى فى سجون إسرائيل، وإذا كان الكل يعترف بحق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها ولا أحد يذكر حق المقاومة لتحرير الأراضى المحتلة طبقا لمواثيق الأمم المتحدة، فليس أمام العرب إلا أنفسهم. وكما جربوا الهزائم فإنهم قادرون على تجربة الانتصارات.

٣- بشائر النصر

لم يعد السؤال الآن الهزيمة أم النصر بل بشائر النصر. ففى نهاية الأسبوع الثالث من المعركة الدائرة الآن بين المقاومة الوطنية اللبنانية وجيش العدو الصهيونى، بدأت بشائر النصر. العدو يصرخ ويتألم، وجيشه الذى لا يقهر ينخرط لواؤه المختار باكيا. وليس أمام العدو إلا قتل المدنيين، وتدمير البنى التحتية، وإتباع سياسة الأرض المحروقة. وهى أفعال لا تقدم عليها الجيوش ذات المبادئ التى تعتمد على شرف القتال وليس على الجبن وخسة المقاتلين وضعفهم، وهروبهم من المواجهة.

لثالث مرة يحارب لبنان وحده بمجتمعه، ومقاومته، ومنظماته المدنية، جيشا يُعتبر من أقوى الجيوش فى العالم، تسليحا وتدريبا ومناورة، بعد محاولة غزو بيروت فى ١٩٨٢، ونجاح المقاومة فى تحرير الجنوب فى ٢٠٠٠. وهذه المرة بأسر جنديين إسرائيليين لتبادل الأسرى مع تسعة آلاف جندى لبنانى ومثلهم من الفلسطينيين وبضع مئات أخرى من العرب المقاتلين. فالمعركة قومية. وأراضى ثلاث دول عربية محتلة. لقد تدرب جيش العدو على مقاتلة الجيوش بداية بالطيران، وبأسلوب الحرب الخاطفة وحركات الالتفاف كما حدث فى ١٩٥٦ وفى ١٩٦٧. والآن يحارب شعبا ومقاومة شعبية تتجاوز الدول ونظمها السياسية. لم يتعود على مواجهة رجال عراة من مخابئ الحديد والحصون. وكلما استردت الشعوب حريتها وكسرت احتكار الدول والنظم السياسية القضايا الوطنية زادت فرص النصر. فالنظام مهتم بالبقاء فى كرسى الحكم حتى ولو احتلت الأوطان. فغرض العدو

(*) الاتحاد: ١٩ أغسطس ٢٠٠٦.

إسقاط النظام قبل احتلال الأرض! سقطت الجولان وبقى النظام. واحتلت سيناء وبقى النظام فى ١٩٦٧. فالنظام التقدمى أولى بالمحافظة من أراضى الوطن!

وقد أثرت الحرب الدائرة الآن بين المقاومة اللبنانية والعدو الصهيونى فى حركة الشارع العربى. فقامت المظاهرات فى معظم العواصم العربية، دمشق والقاهرة والخرطوم وصنعاء والرباط والمنامة وغزة ورام الله، بل وفى بعض العواصم الإسلامية فى دكا وإسلام أباد وجاكرتا. قد يؤثر ذلك أكثر فى حركات التحول الديموقراطى من الداخل. وقد يساعد ذلك على فك الحصار حول الأنظمة العربية المحاصرة بين مطرقة الخارج وسندان الداخل. وقد يستيقظ الحكام بعد مقتل كليب أخِ المهلهل: "اليوم خمر، وغدا أمر". وأين النتائج الإيجابية لتبعية الأنظمة العربية الموالية للولايات المتحدة فى الضغط عليها باسم الصداقة والموالاة والتأييد فى غزو العراق، وكذا الأنظمة الموالية لإسرائيل للمطالبة بوقف إطلاق النار، وإدانة قتل المدنيين، وتدمير البنى التحتية؟ وأين الأنظمة العربية التى فاوضت وصالحت واعترفت بإسرائيل فى الضغط عليها بإيقاف العدوان والتهديد بسحب السفراء العرب أو بقطع العلاقات الدبلوماسية أو بإيقاف التطبيع وتوريد الغاز والبترول والرمل والحديد، وهو ما تسير به المركبات والمدرعات والطائرات الإسرائيلية للعدوان على لبنان وفلسطين وما تبنى به إسرائيل جدار الفصل العنصرى؟ وهل نتائج الصلح والحلول السلمية تصفية المقاومة وضرب المدنيين وتدمير السلطة الوطنية الفلسطينية؟

إن ما يحدث الآن فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة والتى كانت لبنان وحدها فى ثلاثة منها ليدل فى العمق وعلى الأمد الطويل على بشائر النصر. لقد تعود الخطاب العربى على لغة الهزيمة، النواح والبكاء والصراخ، ونعى مفردات العهر القديمة، وكتابة الهوامش على دفتر النكسة وشيوع مفردات النكبة والنكسة والهزيمة، واستصغار النفس وتضخيم الآخر. ومن هذا الوضع النفسى بيننا وبين العدو نشأت الصور النمطية له ولنا. فهو

العدو الذى لا يقهر، القادر على الدخول فى معارك على الجبهات العربية كلها فى وقت واحد والنصر فيها كما حدث فى حرب ١٩٦٧. جيشه أكثر تدريبا وتسليحا وإمدادا وخبرة وذكاء وحماسا وقضية. ونظامه السياسى أكثر ديموقراطية وحرية وشعبية. وهو الذى يتوسع باستمرار من ١٩٤٨ حتى اليوم والذى بلغ أوجه فى الاحتفال بمرور نصف قرن على تأسيس الكيان الصهيونى، أما نحن فالأقل تسليحا واتحادا وديموقراطية وتدريبا. دفاعنا انسحاب فى ١٩٥٦ ثم فى ١٩٦٧. وتحولت هزائمنا وانتصارات العدو إلى قدر لا يمكن الفكاك منه، ومصير محتوم لا يمكن الهروب منه.

واليوم، فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة، وهى بحق الحرب اللبنانية الإسرائيلية الثالثة، تبدو بشائر النصر. فلماذا استمرار لغة الهزيمة ونغمتها ومفرداتها ونعى العرب وعهر المفردات؟ هذه هى الحرب السادسة. كانت الهزائم فى الحروب الثلاثة الأولى لأسباب عسكرية وسياسية واجتماعية وثقافية فى ضياع نصف فلسطين فى ١٩٤٨، وفى العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦، ثم فى العدوان على مصر وسوريا والأردن، واحتلال أراضى ثلاث دول عربية، وضياع ما تبقى من فلسطين فى هزيمة ١٩٦٧. فكانت هى نهاية القاع. كان الخط منحدرا من ١٩٤٨ نصف نصر ونصف هزيمة بالحفاظ على الضفة الغربية وقطاع غزة إلى ١٩٥٦ التى كانت هزيمة ثم تحولت إلى نصر بانسحاب الجيش الإسرائيلى من سيناء بعد الإنذار الروسى إلى ١٩٦٧ التى كانت هزيمة كاملة واحتلال فلسطين كلها والجولان وسيناء. وكانت أكبر جرح غائر فى الوجدان العربى، النكبة الثانية. وانتشر أدب الهزيمة، وثقافة الهزيمة، والموت فى الروح، والسكون فى التاريخ.

وبدأ الخط فى الصعود مباشرة بمعركة رأس العش والصمود فى مثلث بورسعيد وإغراق المدمرة إيلات وبداية حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٦٩ والتى لا يكاد يذكرها أحد بالمدافع والغارات الليلية فى سيناء.

واستمر فى الصعود فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى كانت نصرا عسكريا بكل المقاييس، عبور أكبر مانع مائى فى التاريخ، وتدمير خط دفاع لم تكن تقوى القنابل الذرية عليه. وتحررت سيناء على مراحل، عسكريا فى الأقل وسياسيا فى الأكثر حتى طابا التى تم استردادها بحكم من محكمة العدل الدولية. كان الثمن المفاوضة والصلح والاعتراف، ومازالت الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان محتلة. وأضعف الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل روح العمل الجماعى لقضية العرب. فتابعت الأردن والضفة الغربية مازالت محتلة. وهرعت موريتانيا وهى لا لها فى العير ولا فى النفير. إنما فقط للحصول على الرضا الأمريكى، والوعد بالرفاهية والرخاء، واستثمار رؤوس الأموال الأجنبية. وأعقبتها مكاتب تجارية فى الخليج أو اتصال فى تونس والمغرب، بل وتدريبات عسكرية مشتركة بين حلف شمال الأطلنطى وإسرائيل وبعض الأقطار العربية. والأخطر من ذلك كله اتهام المقاومة بأنها مغامرة غير محسوبة واستعداء أمريكا وإسرائيل على لبنان، وإعطائهما الغطاء الشرعى للعدوان عليه.

ثم استمر الخط فى الصعود فى صمود بيروت وفشل الغزو الإسرائيلى فى جنوب لبنان عام ١٩٨٢ لإخراج المقاومة الفلسطينية منه. قاوم الشعب الجيش وانتصر عليه وهزت صورة جيش الدفاع. وسميت مغامرة شارون. وقضت على وزير الدفاع.

ثم استمر الخط صاعدا فى تحرير جنوب لبنان بفضل المقاومة اللبنانية عام ٢٠٠٠ وهروب جيش الدفاع ليلا من جحيم المقاومة. وانتهى جيش لبنان الجنوبى فى الشريط الحدودى إما بالاستقرار لدى العدو أو العودة إلى لبنان الوطن ومحاكمته بتهمة الخيانة الوطنية أو العفو عنه. فصدر الوطن قادر على احتضان حتى من يخطئ فى حقه.

وبالرغم من انشغال العرب بالعدوان على العراق فى ١٩٩١ بدعوى تحرير الكويت ثم الغارات المتتالية عليه فى ١٩٩٨ وأخيرا غزوه فى ٢٠٠٣ بدعوى القضاء على الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل إلا أن الانتفاضة الفلسطينية قامت فى ١٩٨٧ بالحجارة ثم بالسلاح

منذ ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ يوم طواه النسيان لصالح ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فالقوى هو الذى يحدد معالم التاريخ والحوادث الفارقة فيه.

وأخيرا ظهرت بشائر النصر فى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة الدائرة منذ ثلاثة أسابيع بمقاومة شعب ضد غزو جيش، وصواريخ ضد مدن، ورجل فى مواجهة دبابة، ونقل المعركة إلى أرض العدو من شمال لبنان دون الجبهة الشرقية فى الأردن، والجنوبية فى مصر والسعودية، وبئر سبع وإيلات واللد والرملة وعسقلان على مرمى صواريخ العرب. ولأول مرة يعيش نصف سكان إسرائيل فى الملاجئ وتحت الأرض، يذوق ما ذاق منه العرب. وتم التخطيط للحرب بعيدا عن العنتريات التى ما قتلت ذبابة و منطق الناى والربابة. وتطول المدة. وتنتهى أسطورة حرب الأيام الستة، والحرب الخاطفة. فالكيان الإسرائيلى لا يتحمل الحرب الطويلة. فجيشه شعبه تحت الاحتياط. وكلما طالت الحرب توقف الإنتاج، وتعطلت السياحة، وبدأت الهجرات المضادة.

لم يبق إلا السلاح النووى الإسرائيلى الذى يوازى السلاح النووى الإيرانى والباكستانى جوار العرب، ردعا بردع. والمهم أين العرب الذين يعرفون قيمة دول الجوار والدخول فى دوائر تحرك جديدة بعيدا عن أوهام الطائفية والحرص على كراسى الحكم؟

ويظل السؤال أى لحن يغرد العرب؟ هزائم الماضى أم بشائر النصر؟

٤- الدواء أم الداء؟

ماذا يحتاج لبنان؟ إرسال الدواء أم القضاء على الداء؟ فبعد أن تُرك لبنان وحيدا يقاوم، يُذبح عدة مرات فى تاريخه الحديث منذ إنشاء الكيان الصهيونى أمام صمت الأنظمة السياسية أو إعطاء غطاء شرعى للعدوان حتى لا تمتد المقاومة إليها ومناصرة الشعوب لها.

عقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب الأول تحت أسنة الرماح، وبعد موافقة الكيان الصهيونى على هبوط طائرة الوزراء. فالنظم السياسية لم تعد نظما حرة فى أوطانها بل أسيرة الكيان الصهيونى وتحت مظلة الهيمنة الأمريكية. وكان أقصى جهده التأثير فى قرار مجلس الأمن ١٧٠١ بجعله أكثر توازنا بين الجلاد والضحية، بالاستعانة بفرنسا صديق لبنان التقليدى، وبأمريكا التى تحالفت بعض الأنظمة العربية معها. ولم يكن من بين الوفد وزير خارجية الشقيقة الكبرى بعد أن تنازلت عن دورها للشقيقة الصغرى. وحققت الدبلوماسية العربية نصرا فى أروقة مجلس الأمن لم يترجم نفس القدر من النصر الذى حققته المقاومة اللبنانية على الأرض على مدى أكثر من شهر، أطول حرب عربية إسرائيلية منذ غرز الكيان الصهيونى فى الوطن العربى منذ أكثر من نصف قرن. وبالتالى يؤدى العرب بعض الاستحقاقات للبنان وهو إيقاف العدوان بعد أن تخلوا عن مناصرته، والإبقاء على نفسه الأخير بعد أن أصبح الجسد مثخنا بالجراح، وإن كان قلبه مازال ينبض ويقاوم العدوان عليه.

(*) الاتحاد: ٢٦ أغسطس ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٠ سبتمبر ٢٠٠٦.

وينعقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب الثانى من أجل إعمار لبنان. وما أسهل أن يتم ذلك وبأقل التكاليف، بعض الملايين من عائدات النفط التى تراكمت بعد مضاعفة أسعاره منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ حتى الآن. وإن تخلى العرب عن الدفاع عن لبنان المقاومة، فعلى الأقل المساهمة فى تضميد الجراح، وتوفير الدواء، وإعادة بناء البنية التحتية، والمنازل المهدمة، ودفن الموتى، وتجهيز الأنعاش، والسير فى المآتم، وتقبل العزاء. وتعويضا عن العجز عن مناصرة لبنان فى ساحة القتال تتم المغالاة فى التعبير عن مظاهر النشاط الإنسانى بإرسال الوفود الرسمية والشعبية من المثقفين والفنانين لإعلان التأييد، وتقديم العزاء، والترحم على الشهداء مما لا يبعث الموتى من تحت الأنقاض ولا من ظلمات القبور، كأن أقصى طموح العرب، الرأفة بالضحية وإدانة الاستعمال المفرط للقوة، والحفاظ على البنية التحتية، وحماية المدنيين. وماذا يضير سلخ الشاة بعد ذبحها؟

أما التكليف الثانى للأمن العام للجامعة العربية فى المؤتمر الأول لوزراء الخارجية العرب بالدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربى فقد طواه النسيان. فقد انفضت الحرب وآثر يرْبَع الفرزدق السلامة. فمازالت الخلافات السياسية قائمة، وهى الداء، بين من يناصر لبنان والمقاومة ولو بالقول وبين من يعتبرها مغامرة غير محسوبة خارج إطار الدولة، ودون تقديم طلب رسمى للموافقة عليها. وبدلا منها تتقدم دول ثلاث تخلت عن واجبها الوطنى والقومى لنصرة المقاومة خوفا من إسرائيل "ماقدرش أحارب إسرائيل" أو "نحن الذين نحدد ساعة المعركة" لعقدة الهزائم المتكررة بالرغم من انتصارات العرب فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفى صد العدوان على بيروت فى ١٩٨٢، وفى تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠، تتقدم بمشروع لإحياء عملية السلام بعد أن أعلن الأمين العام لجامعة الدول العربية موتها. لقد عجز النظام العربى من قبل على مناصرة الانتفاضة الأولى، انتفاضة الأقصى فى ١٩٨٧، والانتفاضة الثانية انتفاضة السلاح فى ٢٠٠٠، وترك شعب فلسطين يُذبح بتصفية قادة المقاومة، وقتل الأبرياء،

وهدم المنازل، وإقامة الجدار العازل، وإقامة المستوطنات مع مناداة شعوب العالم لمناصرة خارطة الطريق، والغاية منها كما بدا حتى الآن تصفية القضية الفلسطينية كجزء من عملية أكبر، الشرق الأوسط الجديد، بعد تصفية دوله الوطنية ومقاومته الشعبية فى العراق وفلسطين ولبنان، والبقية تأتى على سوريا باسم الإرهاب، والسودان باسم دارفور، وعلى الخليج كله باسم حقوق السكان الأسيويين والعمالة المهاجرة، وعلى المملكة العربية السعودية التى خرج منها تنظيم القاعدة، والمغرب العربى باسم الأقلية البربرية وصولا إلى مصر، بعد قص ريشها، وعزلها عن محيطها العربى، وإغراقها بالمعونات لتوفير الخبز لثمانين مليونا من الأفواه.

وماذا عن الداء ذاته؟ ذبح لبنان منفردا. والنظام العربى يتفرج، والشعوب العربية تصرخ، لا فرق بين نظام قومى وإسلامى، تقدمى ومحافظ، بين الجيش وقريش، بين العسكر والأئمة، بين آل القشلاق وآل البيت. إن الغاية من العدوان على لبنان الاستمرار فى مهانة العرب فى العراق وفلسطين، وغرز إحساسهم بالعجز وباستباحة الأوطان، والقضاء على مفهوم القومية العربية، وغرز مفهوم القطرية قبل تفتيت الأقطار إلى دويلات طائفية وعرقية يكون فيها الكيان الصهيونى أقوى دولة طائفية عرقية فى المنطقة يأخذ شرعيته من طبيعة الجغرافيا السياسية فيها بدلا من أساطير التكوين الأولى فى القرن الماضى، أساطير أرض المعاد والميثاق وشعب الله المختار. غاية العدوان هو الاستمرار فى هزائم العرب المتكررة منذ ١٩٤٨ فى الحروب العربية الإسرائيلية السابقة، وجعل الهزيمة هى القاعدة والنصر هو الاستثناء. والدفاع العربى المشترك مجرد ورقة لا تعنى شيئا. والشقيقة الكبرى آثرت السلام بعد أن أثخنتها الجراح. ودول الطوق تعزل شعوبها عن ساحة القتال أكثر مما تحاصر الكيان الصهيونى. الطوق لمن؟ وحول من؟ ودول الجوار الإقليمى، كل منها يبحث عن مصالحه، ويغنى على ليلاه، فى الغرب أو الولايات المتحدة الأمريكية أو فى ودائع البنوك

أو فى الحفاظ على المنصب ضد الخطر الداخلى والمد الشيعى وسط الأغلبية السنية.

الداء هو الشرق الأوسط الجديد الذى تتفتت فيه الأوطان، ويُقضى على مظاهر المقاومة الشعبية فيها من أجل ضم الفئات داخل مشروع الهيمنة الأمريكية على المنطقة. فقد شن الكيان الصهيونى العدوان على لبنان بالوكالة، وليس بالأصالة. فقد تسلق الكيان الصهيونى على القوى الكبرى منذ نشأته استفادة من سماحة الإسلام فى العصر العثمانى إلى الاستعمار البريطانى حتى قوة الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

قد يكون الداء هو الدفاع عن فكرة الكيان الصهيونى، وإنهاء مقاومة التطبيع، ورفض الاعتراف الشعبى بها. فالعدوان الصهيونى بالأصالة، وليس بالوكالة. يحقق مشروعه الخاص، وهو الدفاع عن الوجود الصهيونى فى المنطقة وليس عن حدود دولة. فمصر، الشقيقة الكبرى، صالحتها وعقدت معاهدة سلام معها. وخرجت من المعركة منكفئة على ذاتها كما يخرج القلب من الجسد. ولبنان، الشقيقة الصغرى التى مازالت تقاوم منذ ١٩٤٨ وإسقاط اتفاقية آزار حتى الدفاع عن بيروت فى ١٩٨٢ وتحرير الجنوب فى ٢٠٠٠ عليها أن تدخل بيت الطاعة. وسوريا وإيران اللذان يمدان المقاومة بالسلاح ستدور عليهما الدائرة. وبالتالى يصبح الكيان الصهيونى هو ركيزة الشرق الأوسط الجديد، قلبه ونموذج تحديثه. تقوم بدور مصر وإيران فى آن واحد.

ليست القضية هى تحرير أسيرين وقتل ثمانية فى معركة عسكرية داخل الكيان الصهيونى. فقد كان العدوان مبيتا منذ شهور مضت وينتظر الذريعة. يريد رد الاعتبار إلى الجيش الإسرائيلى بعد انسحابه المذل من الجنوب عام ٢٠٠٠. ويساهم فى صنع الشرق الأوسط الجديد بعد أن تكفلت أمريكا بتفتيت العراق. وتتكفل إسرائيل الآن بتفتيت لبنان وابتلاع فلسطين، وتهديد أمريكا وإسرائيل بضرب سوريا وإيران. ليس الهدف من العدوان الصهيونى فقط رد فعل على فشله فى غزو بيروت عام ١٩٨٢ بل القضاء على لبنان كله من

الجنوب إلى الشمال، ومن الجبل إلى البحر بل، وإثارة الحرب الأهلية فى لبنان ضد المقاومة مع الاطمئنان لضعف العرب، وذبح المقاومة الفلسطينية. فحماس مثل حزب الله، والقضاء على القوة العسكرية الإيرانية. فالكل من جنس واحد.

والهدف البعيد من ذلك كله ترسيخ فكرة وجود إسرائيل. فقد وجدت لتبقى مهما عصفت بها حوادث الدهر، وتغيرت موازين القوى الدولية، ووقفت ضدها المقاومة فى لبنان وفلسطين، ورفضت الشعوب العربية فى مصر والأردن وموريتانيا التطبيع معها. ومهما تجرأت المقاومة على ضرب مدن إسرائيل، ووصول صواريخ المقاومة إلى حيفا وما بعد حيفا وما بعد بعد حيفا، وانهيار الجيش الذى لا يقهر، وتهجير نصف سكان الكيان الصهيونى من الشمال إلى الجنوب، واهتزاز ثقة العرب به بما فى ذلك الولايات المتحدة. فتكلفة بقائه عالية. الحفاظ على الأساطير المكونة للكيان الصهيونى ضرورى من أجل الاعتراف به والاستسلام له، وخضوع العرب وعجزهم أمامه. يحتاج الكيان إلى نصر إعلامى للمحافظة على الصورة القديمة أمام الآخرين، هزيمة العرب الأبدية ونصر إسرائيل الأبدى. الحفاظ على الكيان الإسرائيلى الداخلى من التفكك هو الهدف من جولة قادمة وإلا انتقلت الحرب إلى الداخل بين العسكريين والسياسيين، وبدأت الهجرات المضادة، وتوقفت السياحة. واتجه الغرب والولايات المتحدة إلى حلفاء آخرين أقل تكلفة، وأكثر قبولا لدى الرأى العام العالمى. يريد الكيان الصهيونى أن يحول اللاشرعية إلى شرعية وهو ما لا يرفضه النظام العربى فى مبادراته باسم الواقعية السياسية التى تصل إلى حد الخيانة القومية. وهو ما ترفضه المقاومة الشعبية. المعركة إذن ليست معركة حدود بل معركة وجود. ومن يدرى، فربما يتحول يقين العدو بالنصر إلى شك ويتحول شك العرب بالنصر إلى يقين.

٥- إسرائيل والعالم

يعجب العرب كيف أن العالم كله مع إسرائيل! فهل اقتنع العالم بالصهيونية والاستيطان واحتلال أراضى الغير والتوسع والعدوان وقتل المدنيين الفلسطينيين ثم اللبنانيين وأصبح العالم كله صهيونيا؟ وأين الغرب المعروف بتعدديته واختلاف آرائه وتعارض مصالح دوله وهو يتفق على رأى واحد بالنسبة لتأييد إسرائيل منذ بيان الدول الصناعية الثمانية فى موسكو حتى اعتراض أمريكا فى مؤتمر روما الأخير على اتخاذ قرار بوقف إطلاق النار حتى تنتصر إسرائيل على المقاومة اللبنانية وتحتل شريطا حدوديا فى الجنوب حيث كان جيش لبنان الجنوبى والذى طردت منه إسرائيل عنوة وهربت منه تحت جناح الليل عام ٢٠٠٠ بفعل ضربات المقاومة؟ صحيح أن الغرب قد عُرف بأنه قوة بلا عدل منذ أوج الاستعمار فى القرن التاسع عشر حتى العولمة الجديدة بعد نهاية عصر الاستقطاب. ثم قامت حركات التحرر الوطنى لمقاومته وانتصرت عليه فى القرن العشرين. وقضت فى عقدين من الزمان، فى الخمسينيات والستينيات، على استعمار الغرب لغيره من الشعوب فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية على مدى قرنين من الزمان. ولم يحدث أن أجمع الغرب الأوروبى على تبنى المطالب الإسرائيلية كما يحدث هذه الأيام فى المواجهة بين المقاومة اللبنانية والكيان الصهيونى وكأنه هو المجنى عليه وليس الجانى، وكأنه هو الضحية وليس الجلاد! بل لقد استخدم الغرب الأمم المتحدة آخر ملجأ للعدل دون القوة لصالح إسرائيل. ولم تستطع وقف إطلاق النار أو حتى إدانة قتل أربعة من المراقبين الدوليين. ولأول

(*) الاتحاد: ١٢ أغسطس ٢٠٠٦، الدستور: ١٤ أغسطس ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ٢٠ أغسطس ٢٠٠٦.

مرة تكتفى بالأسف دون الإدانة. ولو أنهم قتلوا بأيدى المقاومة لدُك لبنان أو ما تبقى منه عن آخره. ويظهر المعيار المزدوج من جديد، السماح لإسرائيل بأن تفعل ما تشاء، وعقاب العرب إذا ما فعلوا أصغر شيء لتحرير أوطانهم من الاحتلال. ويترك لإسرائيل استمرار العدوان حتى تقضى على الغرب، وتفرض شروطها على طاولة المفاوضات. فليس مسموحا بانتصار العرب أو بهزيمة إسرائيل.

ويعرض العالم كله على العرب شروط إسرائيل للتسوية وكأن العرب لا وجود لهم. يعرض العالم على العرب كشرط لوقف إطلاق النار الإفراج عن الأسيرين الإسرائيليين بلا مقابل وكأنه لا يوجد تسعة آلاف أسير لبنانى فى سجون إسرائيل، ومثلهم من الفلسطينيين وباقى الأقطار العربية. فإسرائيليان اثنان لهم أهل. وتسعة آلاف لبنانى لا أهل لهم. ومنهم من قضى فى سجون إسرائيل ربع قرن! وكم فى الحياة من أرباع القرون؟ ولماذا تسمية عملية "الوعد الصادق" التى أسرت فيها المقاومة اللبنانية جنديين إسرائيليين وقتل ثمانية "خطف" جنديين وليس أسر جنديين فى معركة عسكرية بين المقاومة اللبنانية وجيش الاحتلال الإسرائيلى لمزارع شبعا؟ ولماذا لا يُذكر خطف الفلسطينيين من سجن أريحا أو خطف إسرائيل مقاومين فلسطينيين من منازلهم فى معركة غير متساوية بين جيش الاحتلال الإسرائيلى ومواطنين مدنيين عزّل؟

ومن الشروط الدولية وضع قوات طوارئ دولية أو من حلف شمال الأطلنطى فى جنوب لبنان مجهزة بأحدث الأسلحة، ومكلفة بمهام قتالية ضد المقاومة اللبنانية لحماية إسرائيل! ولماذا لا توضع نفس القوات الدولية فى شمال إسرائيل وداخل حدودها لحمايتها أو على الأقل على الجانبين على مسافة متساوية فى آن واحد؟ وهل يأتى العدوان فقط من لبنان على شمال إسرائيل أم أنه يأتى من إسرائيل أيضا بقصف قرى الجنوب؟ ومن ضمن الشروط إبعاد المقاومة اللبنانية من الجنوب إلى حدود نهر الليطانى دفاعا عن شمال

إسرائيل، ونزع سلاح حزب الله. وبسط سلطة الدولة والجيش اللبنانى فى الجنوب وليس انسحاب إسرائيل من مزارع شبعا حفاظا على استقلال لبنان ووحدة التراب الوطنى. ولماذا يكون لإسرائيل وحدها حق الدفاع عن نفسها وهى الدولة المحتلة وليس للبنان وفلسطين حق الدفاع عن نفسيهما وهما الدولتان الواقعتان تحت الاحتلال؟ ولماذا ضرورة تنفيذ كل بنود قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ الذى يدعو إلى نزع سلاح حزب الله وليس تطبيق مئات القرارات لصالح لبنان مثل القرار ٤٢٥ أو لصالح فلسطين مثل القرار ٢٤٢ أو ٣٣٨ الذى يدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧؟

وماذا عن جوهر القضية ذاتها وهو احتلال أراضى لبنان وفلسطين وسوريا وإيقاف العدوان الإسرائيلى على المدنيين فى لبنان وفلسطين وكأن إسرائيل لم تستطع القضاء على المقاومة فانبرت إلى قتل المدنيين وهدم المنازل وتدمير البنية التحتية فى لبنان وفلسطين كنوع من العقاب الجماعى المعروف فى تاريخ اليهود وفى عقائدهم؟ لماذا أخذ الأعراض، الحرب المتبادلة بين العرب وإسرائيل، وترك الجوهر وهو احتلال إسرائيلى لأراضى ثلاث دول عربية، فلسطين وسوريا ولبنان؟

السبب فى هذا الوضع، رؤية العالم الغربى كله لمصالح إسرائيل والميل نحو جانب واحد ليس فقط المعيار المزدوج، والاعتماد على القوة دون العدل بل غياب الطرف الآخر، العرب كلية. لا يعترف الغرب بأى أحد سواه. وعلاقته بالآخر علاقة المركز بالأطراف، السيد بالعبد، والمخدوم بالخادم. يخاف الغرب لاشعوريا من العرب والمسلمين بسبب الهجرات من جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى شماله، وسرعة انتشار الإسلام فى أوروبا بعد أن أصبح الدين الرسمى الثانى فيها بعد المسيحية، وبقاء الدولة الإسلامية مثل البوسنة والهرسك وألبانيا فى أوروبا الشرقية، واحتمال دخول تركيا الاتحاد الأوروبى، ومخاطر تكوين قطب عربى إسلامى ثان فى عالم أحادى القطب منذ نهاية عصر الاستقطاب واتخاذ الإسلام عدوا

بديلا عن الشيوعية.

كل هذه المغالاة فى حب إسرائيل، الطفل المدلل للغرب، وتأييد عدوانها والتحدث باسمها إنما هو ستار خارجى يخفى كراهية دفينة لهم لأسباب عقائدية وتاريخية وسياسية. فهم الذين أنكروا السيد المسيح. وتعاونوا مع الرومان فى التخلص منه. وهم الذين سيطروا على رأس المال ومراكز إصدار القرارات فى الدول الغربية. بل وساهموا فى إسقاط الإمبراطوريات بأكملها مثل الاتحاد السوفيتى وانهياره. تاريخها فى السيطرة على العالم من خلال القوة الكبيرة السيطرة، انجلترا أولا ثم الولايات المتحدة ثانيا. والآن تحاول التسلق على أكتاف الهند والصين. فمن يدرى مستقبل الولايات المتحدة إلى أين وقد بدأ رد الفعل فى العالم كله ضدها، شعوبا بالمظاهرات، ونظما سياسية بوصول اليسار فى بعض دول أمريكا اللاتينية إلى الحكم؟

إن ها التأييد المطلق لإسرائيل فى العالم سيحدث رد فعل عنيف ضد الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة، وكشف أن كل محاولات الحوار العربى الأوروبى أو الإسلامى المسيحى أو الدينى أو حوار الحضارات أو الشمال والجنوب أو الشرق والغرب كل ذلك مجرد كلام فى كلام. ومازال إنكار الغرب أى وجود فعلى لغيره هو السائد. وهو إنكار بنيوى قائم على عنصرية دفينة أو مركزية وغرور. كما يكشف عن أن كل ما قيل عن حقوق الإنسان وإنسانية الغرب وفلسفة التنوير ما هو إلا زيف وبطلان. وقد يزيد ذلك أيضا فى انفصال النظم الغربية عن شعوبها. فالنظم تزداد يمينا، والشعوب تتجه يسارا باستثناء إيطاليا التى سقط فيها مرشح اليمين ونجح فيها مرشح يسار الوسط. فعصر الشعوب قادم. وهو معادٍ لنظم الغرب وهيمنة الولايات المتحدة.

لقد استولت دولة صغيرة الحجم مثل إسرائيل على العالم كله بالباطل. وانتصرت دولة صغيرة الحجم مثل لبنان عليها بالحق. فالتحية واجبة للمقاومة اللبنانية التى

استطاعت كسر شوكة الكيان الصهيونى حتى لو سيطر على العالم كله. وتعويضا عن عجز إسرائيل عن مواجهة المقاومة فى الجنوب، وجها لوجه، فإنها تقوم بتدمير دولة بأكملها، وتشرد شعبا بأكمله. وبالمثل المصرى العامى "اللى ما يقدرش على الحمار يقدر على البردعة". وبالتالى يظهر للعالم أنه لا يهرب فقط من مواجهة الرجال ولكنه أيضا يقتل الأطفال والنساء والشيوخ. وفى غياب نصر فعلى تعود عليه من قبل يوهم بنصر مزيف سوف يتعود عليه.

٦- لبنان، الدولة والمقاومة

فرح الجميع عندما رفرفت أعلام لبنان فى الشوارع وفى ميدان الشهداء فيما سمى فيما بعد بحركة ١٤ آذار، وشجرة الأرز الخضراء وإطارها الأبيض والأحمر تملأ سماء لبنان وتنتشر فوق أرضه. نزلت الآلاف إلى الشوارع دفاعاً عن استقلال لبنان ضد وجود قوات "أجنبية" على أرضها، وتأكيدا لسلطة الدولة والاستقلال السياسى. وكان العرب قد عانوا من غياب الشارع العربى بالرغم من تفاقم الأزمة الوطنية إلى حد الكارثة فى العراق وفلسطين لولا نزول المصريين أيضاً إلى الشارع ممثلين فى الحركات الجديدة للمجتمع المدنى مثل "كفاية" و"الحركة المصرية من أجل التغيير". والكتاب والفنانون والمثقفون الوطنيون ضد التوريث والتسلط والفساد، ودفاعا عن المقاومة فى العراق وفلسطين.

واختلف الناس فى دوافع الحركة الوطنية اللبنانية وأهدافها، وطنية أم تآمر؟ دفاع عن استقلال لبنان أم بداية تحقيق مشروع الشرق الأوسط الجديد بتقليص دور سوريا وإيران فى المنطقة؟ بناء لبنان أم بداية تدمير لبنان؟ ولما انسحب الجيش السورى من لبنان كان يمكن لبطاريات صواريخه الدفاع عن سماء لبنان ضد العدوان الاسرائيلى الأخير الذى دمر لبنان الدولة والمجتمع. كان يمكن أن تدخل سوريا الحرب وتخفف العبء على المقاومة اللبنانية وعدم ترك لبنان وحيداً، مسيحا يُصلب فى حديقة جتسمانى، والحواريون نائمون. يختبره الشيطان وحيدا فى الصحراء.

كانت الحركة الوطنية فقط موجهة ضد وجود القوات السورية فى لبنان دون وجود

(*) الاتحاد: ٢ سبتمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٢٨ أغسطس ٢٠٠٦.

القوات الإسرائيلية فى مزارع شبعا وكفر شوبا، ودون العدوان المستمر عليه، واختراق أجوائه الفضائية، ومياهه الإقليمية، وعمليات الإنزال فى مطار بيروت لتصفية المقاومة اللبنانية. ولم يكن من أهدافها الحفاظ على استقلال لبنان وهويته ضد التبعية للولايات المتحدة الأمريكية ومشاريعها فى الهيمنة على المنطقة بداية بالعراق ثم فلسطين ثم لبنان ثم سوريا والخليج ونهاية بمصر. وطالما نقد العرب المعيار المزدوج فى الغرب، والكيل بمكيالين بين فلسطين والكيان الصهيونى. وتقع الحركة الوطنية الجديدة فى لبنان فى نفس الفخ، استقلال وطنى بالنسبة لسوريا، وتبعية ورضوخ بالنسبة لأمريكا وإسرائيل.

وبعد انتصار المقاومة الوطنية فى الجنوب، وتبديد وهم الجيش الذى لا يقهر، وسقوط الصواريخ على المستوطنات فى شمال فلسطين المحتلة، وعودة الثقة إلى المقاتل العربى فى أطول حرب عربية إسرائيلية منذ نشأة الكيان الصهيونى، وتكبيده أكبر الخسائر البشرية والمادية فى تاريخه، عادت حركة ١٤ آذار تطالب ببسط نفوذ الدولة على كامل أراضيها. وتحولت الحركة من مناهضة سوريا إلى مناهضة المقاومة ممثلة فى حزب الله والتى لم تشارك فيها الحركة ونخبها السياسية المتقلبة المزاج والأهواء والمصالح. فأين كانت سلطة الدولة أثناء احتلال الجنوب والشريط الحدودى وتكوين دولة داخل الدولة، وجيش داخل الجيش، جيش لبنان الجنوبى التابع لإسرائيل والذى انهار وفر معظمه إلى إسرائيل بعد انسحابها من الجنوب ليلا تحت ضربات المقاومة؟ أين كانت سلطة الدولة على مزارع شبعا وكفر شوبا وعلى سماء لبنان ومياهه الإقليمية وكامل أراضية الوطنية، بجباله وسهوله، ضد محاولات الاختراق والإنزال واحتلال الأراضى؟ أين كانت سلطة الدولة أثناء الحرب الأهلية التى دامت أكثر من خمسة عشر عاما بين الميليشيات والقوى السياسية المتناحرة للسيطرة على الدولة لولا اتفاقية الطائف؟ ولماذا تكون سلطة الدولة موجهة فقط ضد المقاومة الوطنية فى جنوب لبنان ممثله فى حزب الله وليس ضد باقى القوى الوطنية

فـى كـل الأراضـى اللبنانيـة فـى الجنـوب والـشمال، قواعـد الجبهـة الـشعبية، والجبهـة الديمقراطية؟ وماذا عن السلاح المخبأ والمنتشر لدى ما تبقى من ميليشيات الحرب الأهلية؟ وأين سلطة الدولة مع محاولات التطبيع مع إسرائيل وإثراء المرتزقة من تجار لبنان ومهربى البضائع؟

كانت الدولة على علم بنية المقاومة، أسر بعض جنود العدو الصهيونى للإفراج عن الآلاف من المعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين والعرب فى سجون العدو، وبعضهم قضى فيها أكثر من ربع قرن. فحزب الله ممثل فى الحكومة. وله أعضاؤه فى المجلس النيابى. ولم يرفض أحد الفكرة والأسلوب. أما الإخطار بتحديد الزمان والمكان للعمليات العسكرية فهذا ما تأباه طبيعة الحروب فى وقت لم تعد فيه أسرار عسكرية بسبب وسائل الاتصال الحديثة والقدرة على جمع المعلومات من كل طرف عن الطرف الآخر. وفرق بين بيروقراطية الدولة وأوراقها وأختامها والمقاومة الوطنية التى تقوم على عنصر المفاجئة.

وبدلا من تهنئة المقاومة بالنصر ودرء العدوان الصهيونى على جنوب لبنان بدأ التآمر عليها لتصفيتها وإنجاز ما لم يستطيع العدو إنجازه بالسلاح ولا الولايات المتحدة من خلال مجلس الأمن. بدأت حركة ١٤ آذار وحلفاء سوريا السابقين قبل الانقلاب عليها بالدعوة إلى نـزع سـلاح حـزب الله وهـو مـا لم يطالـب بـه العـدو الـصهيونى بعـد أن أدرك حـدود قدراتـه مكتفيا بإبعاده عن الجنوب أو إضعافه. وهو ما لا ينص عليه قرار مجلس الأمن الأخير ١٧٠١ المنحـاز إلى إسـرائيل أصـلا. وأرادت الحركـة تحويـل العـرس إلى مـأتم، والفـرح إلى حـزن، والوحدة الوطنية إلى حرب أهلية، والنصر إلى هزيمة.

المطالبة بنزع سلاح حزب الله الآن والحرب لم تضع بعد أوزارها، والعدوان الإسرائيلى مـازال مستمراً كمـا بـدا فـى حركـة الإنـزال الأخيرة فـى البقـاع، والجيش الإسـرائيلى مـازال محتلا للجنوب، ومزارع شبعا وكفر شوبا لم تتحرر بعد خيانة وطنية وإدخال لبنان المدمر فى

مشروع الشرق الأوسط الجديد. ولا يُخفى قادة الكيان الصهيونى نياتهم الاستعداد للجولة الثانية لاستعادة هيبة الجيش، وأسطورة العدو الذى لا يقهر، وهيبة الدولة القادرة على إملاء شروطها على العرب. وتدفعها أمريكا إلى ذلك، وتعد لها الغطاء الشرعى عن طريق قرار جديد من مجلس الأمن، يطالب بنزع سلاح حزب الله وجعل الجنوب اللبنانى منزوع السلاح، وإعطاء قوات الطوارئ الدولية مهام قتالية دفاعاً عن إسرائيل، اعتمادا على البند السابع من الميثاق. فدعوة حركة ١٤ آذار وحلفاء الأمس بنزع سلاح المقاومة هو تنفيذ للمخطط الإسرائيلى الأمريكى، وانحياز صريح لأعداء لبنان.

والأخطر من ذلك هو نزع صفة الوطنية عن المقاومة، وتصور حزب الله تابعا لسوريا وإيران. والمقاومة الوطنية بطبيعتها لا تكون تابعة لأحد لوجود تناقض رئيسى بين الاستقلال والتبعية. وهى نفس قراءة أمريكا وإسرائيل لنزع الشرعية عن المقاومة الوطنية للاحتلال الإسرائيلى للجنوب وكذريعة للهجوم على سوريا وإيران. وقد اتُّهم عبد الناصر بأنه عميل الاتحاد السوفيتى لمجرد أنه كان يمده بالسلاح لمقاومة العدوان الإسرائيلى. كما اتُّهمت من قبل كل الحركات الوطنية بنفس الاتهام فى كوبا وفيتنام.

إن عظمة لبنان فى الوطن العربى أن المجتمع المدنى فيها أقوى من الدولة، ويضرب به المثل بالتعددية السياسية. فلماذا تريد حركة ١٤ آذار القضاء على أهم سمة فى لبنان والتى نود نحن العرب أن نكون مثلها، وأن تكون مجتمعاتنا المدنية أقوى من نظمنا السياسية بدلا من السيطرة شبه المطلقة للدولة على المجتمع المدنى؟ وإذا كان لبنان يمثل نموذج أولوية المجتمع المدنى على الدولة فإن النظام العربى فى مجموعه فى مصر والسعودية وليبيا وتونس وعُمان يمثل أولوية الدولة على المجتمع المدنى. وتشارك العراق وفلسطين الآن فى النموذج اللبنانى، أولوية المجتمع على الدولة. لذلك تزدهر المقاومة. وطالما كانت الدولة ممثلة فى نظامها السياسى تابعة للعدو الأجنبى المحتل كما هو الحال فى أفغانستان

والشيشان وكشمير.

إن المقاومة اللبنانية الممثلة فى حزب الله مقاومة وطنية عربية إسلامية تستعيد بها روح الخمسينيات والستينيات، روح جيفارا و عبد الناصر وروح الثورة الإسلامية فى إيران. تجمع بين الوطنية والعروبة والإسلام فى نظرية الدوائر الثلاث التى صغناها فى عصر التحرر الوطنى وتخلينا عنها وتطبقها إسرائيل الآن. عدوها إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، وظهيرها العرب والمسلمون والمسيحيون ومجموع دول الشرق وأحرار الغرب. هدفها تحرير الأراضى العربية المحتلة وإزالة آثار العدوان. وإذا كان الشعب العربى فى لبنان وفى باقى أرجاء الوطن العربى مع المقاومة فلا يضيره مؤامرات النخب السياسية عليها. وسيحافظ على وحدته وانتصاراته ضد دعاة التفرقة والهزيمة. وسيظل لبنان منارة للعلم والفكر منذ فجر النهضة العربى فى بر الشام وبر مصر.

البـــاب الثالـــث



الفصل الأول

التنويـــــر الأوروبـــى

١- أوروبا، جغرافيا أم حضارة؟

٢- نهاية التنوير الأوروبى.

٣- صدام الحضارات، مرة أخرى.

٤- الدين والدولة.

٥- الدين بين الحرب والسلام.

٦- حقوق الإنسان ... مرة أخرى.

١ـ أوروبا، جغرافيا أم حضارة؟

يتصور البعض فى أوروبا وخارجها أن أوروبا قارة من قارات العالم الخمس مع أفريقيا وأمريكا وآسيا واستراليا، وأنها منطقة جغرافية. حدودها فى الشمال فى جرينلاند، وفى الجنوب الشاطئ الشمالى للبحر الأبيض المتوسط، اليونان وإيطاليا وفرنسا. وفى الغرب الشاطئ الغربى له، أسبانيا، مما خلق هوية غامضة للبرتغال التى تطل على الأطلنطى من الغرب كما تطل عليه أمريكا من الشرق فازدوجت الهوية بين المتوسطية والأطلنطية. وفى الشرق جبال الأورال، آسيا الممتدة من أوروبا الشرقية حتى روسيا والصين.

وقد تمتد المساحة الجغرافية أكثر من ذلك. فأوروبا فى الشمال ملتقى آسيا وأمريكا فى القطب الشمالى. وفى الجنوب تمتد إلى أفريقيا من الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط. وفى الغرب شبه الجزيرة الأيبيرية التى تقع فيها الأندلس والتى عاش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون أمة واحدة مازالت تضرب المثل فى التعايش بين الأمم. وكان يمثل العصر الذهبى لليهود وللمسيحيين على حد سواء، ومازالت مآثر غرناطة وأشبيلية وقرطبة وطليطلة ماثلة للعيان، يفخر به الجميع، وقصر الحمراء يطل على العالم بأكمله. وفى الشرق فى فلسطين تقع أكبر مأساة عرفها العالم بعد وعد بلفور فى ١٩١٧، وسقوط دولة الخلافة فى ١٩٢٤، وتقسيمها بين العرب واليهود فى ١٩٤٨، ثم العدوان المستمر على العرب فى ١٩٥٦، وابتلاعها كلها فى ١٩٦٧، ومازالت ترزخ تحت أبشع أنواع الاحتلال الاستيطانى.

ومع ذلك هناك تحديد عنصرى معلن أم غير معلن لأوروبا، وهى أوروبا البيضاء المسيحية، نهاية التاريخ، ومركز العالم. وهى التى تمنع من انضمام تركيا إليها تحت دعاوى كثيرة: ملف حقوق الإنسان فى تركيا، القصاص، وضع المرأة، الحريات العامة، المعتقلون السياسيون، القضية الكردية، المستوى الاقتصادى. والحقيقة أن تركيا بلد مسلم، صاحب ثقافة مغايرة. وبانضمامها إلى الاتحاد الأوروبى يكثر عدد المسلمين بالإضافة إلى أوروبا الشرقية، البوسنة والهرسك وألبانيا والأقليات المسلمة فى كل دول البلقان. وهنا يحدث انحراف عن الهوية الأوروبية المسيحية العنصرية البيضاء. ويبرز التراكم التاريخى القديم عندما سيطرت دولة الخلافة على أوروبا الشرقية حتى حدود فيينا من الشرق، وحين اتسعت رقعة المد الإسلامى حتى تور فى فرنسا عبر الأندلس من الغرب. ثم سقطت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وسميت اسلامبول أى "مدينة الإسلام".

والحقيقة أن أوروبا ليست رقعة جغرافية، وليست قوة سياسية واقتصادية بل هى ثقافة عبر التاريخ. فقد ربط

(*) الاتحاد: ١٥ يوليو ٢٠٠٦.

طريق الحرير بين الشرق والغرب، من الصين إلى البندقية. وامتدت الثقافات والعلوم والحضارات الأسيوية عبر الهند وفارس وبابل وكنعان ومصر القديمة إلى الحضارة الأوروبية. فلغات أوروبا هندية أوروبية. والفلك البابلى داخل فى الفلك اليونانى. وأساطير جلجامش وكنعان دخلت فى العهد القديم. ومن تنبأ بولادة السيد المسيح ثلاثة من مجوس الشرق. والمسيحية نفسها شرقية المنبع. وأساطير وعلوم مصر القديمة داخلة فى الأساطير اليونانية وعلوم اليونان. والمنطق الصورى عند أرسطو له ما يشابهه فى منطق نيايا فى الهند. وكانت فى بلخ فى أفغانستان ثقافة يونانية. وأثر مزدك ومانى وزرادشت والغنوصية الشرقية فى كل الفلسفات القديمة اليونانية والهللينستية والمسيحية الأولى. كانت أوروبا وأفريقيا وآسيا وحدة حضارية واحدة منذ فجر التاريخ بالرغم من تنوعها، وقبل المركزية الأوروبية فى العصور الحديثة.

وكان البحر الأبيض المتوسط بؤرة هذا اللقاء الحضارى فى القارات الثلاث خاصة بين شاطئيه الشمالى والجنوب، الأوروبى والأفريقى. فعندما يكون الشمال قويا سياسيا ومبدعا حضاريا تنتقل الثقافة من الشمال إلى الجنوب كما كان الحال فى العصر اليونانى الرومانى عندما ترجم العرب علوم اليونان وثقافتهم إلى العربية مباشرة أو عبر السوريانية وشرحوها ولخصوها وعرضوها وأكملوها وأبدعوا فيها وتجاوزوها. وحدث ذلك مرة ثانية فى العصور الحديثة الغربية عندما ترجم العرب فى مصر والشام فلسفة التنوير والعلوم السياسية والاجتماعية الأوروبية، وأقاموا على أساسها النهضة العربية الحديثة، واستنبطوا منها نموذجا للتحديث يقوم على الحرية والتعددية السياسية والبرلمان والانتخابات وحرية الصحافة والتعليم وإنشاء المدارس والجامعات. وإذا كان الجنوب قويا سياسيا ومبدعا حضاريا انتقلت الثقافة والعلوم من الجنوب إلى الشمال كما كان الحال فى العصر الإسلامى حين انتشرت الثقافة والعلوم الإسلامية عبر الترجمات فى طليطلة إلى كل ربوع أوروبا. وكانت وراء نهضة الغرب الحديث. وانتشرت أفكار العقل والطبيعة والعلم والقانون ومفاهيم العدل والشجاعة فى بدايات العصور الحديثة وسُميت فيما بعد فلسفة التنوير. والآن يحدث مرة ثانية بانتشار الإسلام فى ربوع أوروبا بحيث أصبح الدين الثانى فيها بعد المسيحية خاصة بعد أن اشتدت أزمة الغرب كما يشهد بذلك فلاسفة التاريخ الأوروبيون أنفسهم مثل اشبنجلر فى "سقوط الغرب"، وهوسرل فى "أزمة العلوم الأوروبية" وماكس شيلر فى "قلب القيم"، ونيتشة فى انتهائه إلى العدمية المطلقة. لعبت أوروبا دور الأستاذ وقمنا نحن بدور التلميذ مرتين فى العصر اليونانى الرومانى وفى العصور الحديثة. وقمنا نحن بدور الأستاذ وأوروبا بدور التلميذ مرتين فى العصر الإسلامى الأول وفى النهضة الحالية للمسلمين، وفى المرة الثانية مازلنا فى بدايتها.

فأوروبا ثقافة وحضارة، تأخذ وتعطى ولو أنها تثبت العطاء وتنكر الأخذ بالرغم من بيان بعض الباحثين المنصفين له مثل مارتن برنال فى "أوروبا السوداء" فى كشف الجذور الأفريقية والأسيوية للحضارة الأوروبية، وجيمس ستون فى "التراث المسروق".

إن مأساة الحوار العربى الأوروبى فى العقدين الأخيرين هو تصور أوروبا للعرب على أنهم مصدر للطاقة، وفوائض أموال من عوائد النفط، وأسواق ضخمة للاستهلاك. فتقدم أوروبا الاقتصاد على السياسة. ونحن العرب نريد حل مأساتنا فى فلسطين ثم فى العراق، ونريد حوارا سياسيا أولا. فالسياسة قبل الاقتصاد. فكل طرف يعزف لحنه. وكل منهما يمارس دور السيد على الآخر.

والآن وبعد تكوين الاتحاد الأوروبى، الشاطئ الجنوبى الأفريقى ممثلا فى دول المغرب العربى مجرد مراسلين وليسوا أعضاء. ينابهم حسن الجوار، والدول التى لها الأولوية فى الرعاية. وقد يصل الأمر إلى تدريبات عسكرية مشتركة مع قوات حلف شمال الأطلنطى دون أن تكون أعضاء كاملين فى الاتحاد.

والحقيقة أن الشاطئين الشمالى والجنوبى للبحر الأبيض المتوسط يمثلان تكاملا طبيعيا. وثقلا تاريخيا وثقافيا بل ومركز التوازن بين الشرق الأسيوى والغرب الأمريكى. ويمكن أن يمثل الشاطئان كومنولث واحدا. فهما أقرب من الحلف بين أوروبا وأمريكا عبر الأطلنطى فى حلف شمال الأطلنطى.

وفى ذلك أعظم الفائدة لأوروبا نفسها بالتخلى عن هويتها العنصرية البيضاء ومركزيتها، ورغبتها الدفينة فى التوسع العسكرى والهيمنة الاقتصادية والسياسية. وهو حماية لها من السيطرة الأمريكية وتغلغل النفوذ الإسرائيلى. وهو فى نفس الوقت أحد عوامل الإسراع فى التحول الديموقراطى والتنمية المستدامة دون الوقوع فى المتوسطية أو الشرق أوسطية كبدائل للوحدة العربية أو العرب باعتبارهم بؤرة للعالم الإسلامى الذى أصبح يشمل الآن مساحة القارات الخمس.

٢- نهاية التنوير الأوروبى

إن أعظم ما أنتجه الغرب من إبداع فكرى هو فلسفة "التنوير" أو "الأنوار" والتى بلغت الذروة فى القرن الثامن عشر عند فلاسفة التنوير فى فرنسا، فولتير وروسو ومونتسكيو وفلاسفة "دائرة المعارف الفلسفية" وكانط فى ألمانيا. تسترجع عصر بركليس عند اليونان. وتقوم على أفكار العقل والحرية والمساواة والإخاء، والطبيعة والتقدم. وبفضلها قامت الثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية، وتجسدت فى قوانينها، إعلان الاستقلال، والدستور، وتمثال الحرية، ونظام الحياة الأمريكى. كما قامت الثورات الروسية العديدة ضد القيصر على مثل هذه الأفكار التى تبناها المناصرون للثقافة الفرنسية فى روسيا. وحاول اليسار الهيجلى فى ألمانيا القيام بنفس الثورة عام ١٨٤٨ إلا أنها فشلت كثورة وبقت كمثل عليا فى الحرية والمساواة.

وقامت النهضة العربية الأولى فى القرن التاسع عشر على مُثُل التنوير التى روّج لها الطهطاوى بعد أن عرفها أثناء وجوده إماما للبعثة التعليمية فى باريس خمس سنوات. ورآها تقوم على قاعدة الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة القدماء وعلى قاعدة جلب المنافع ودفع المضار عند الأصوليين. فلا فرق بين الشريعة الإسلامية و"شرطة" نابليون، ولا بين "روح القوانين" عند مونتسكيو و"مقدمة ابن خلدون". فمونتسكيو هو ابن خلدون فرنسا. وابن خلدون هو مونتسكيو العرب.

مُثُل التنوير قيم إسلامية عرفها تراثنا القديم. فالعقل أساس النقل. ومن قدح فى العقل فقد قدح فى النقل. ويطالب القرآن بالبرهان وبإعمال العقل. والحرية قيمة إسلامية. فقد خلق الله الناس أحرارا. والتوحيد تحرير للوجدان الإنسانى من كل صنوف القهر. والمساواة فضيلة إسلامية. فالناس سواسية كأسنان المشط. والإخاء مبدأ إسلامى. والنبى شاهد على أن عباد الله إخوانا. والطبيعة آية من آيات الله، دليل على وجوده. وللناس فيها جمال حين يريحون وحين يسرحون. والتقدم سنة الحياة وقانون التاريخ. وهو لفظ قرآنى، (**لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**). وقصص الأنبياء دليل على ذلك. وقام العصر الليبرالى فى النصف الأول من القرن العشرين على مُثُل التنوير خاصة العقل والحرية. وما أكثر جماعات "التنوير" الآن. بل تتبناه الدولة ضد الحركات الإسلامية المتهمة بالتخلف والأسطورة والخرافة والتعصب.

والآن، بدأ الغرب ينقلب على نفسه، ويقطع أنفه بيديه. يدمر ما بناه، ويهدم ما حارب من أجله. بدأ نقد العقل

(*) الاتحاد: ١٨ مارس ٢٠٠٦، الدستور: مارس ٢٠٠٦.

وتحطيمه لصالح اللامعقول والعبث والاشتباه باسم الوجود الإنسانى أو تناقضات الحياة. فالعالم بلا نسق، والعقل لا يقدر على استيعابه أو ضبطه. كما سادت الاتجاهات التسلطية ممثلة فى الفاشية والنازية، والشمولية ممثلة فى النظم الشيوعية التى قهرت الحريات الفردية باسم أمن النظام ومصلحة الجماعة، وظهر التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء نظرا لتراكم رأس المال من المستعمرات الخارجية ومن التصنيع الداخلى، واستغلال العمال والمهاجرين الأفارقة والأسيويين وفقراء أوروبا الشرقية. وعمت الفردية والأنانية ضد مبدأ المساواة بين البشر. وأصبح للفرد الأولوية على الجماعة، والأنانية على الغيرية، والأثرة على الإيثار. أما الطبيعة فقد تلوثت. وماتت الأسماك فى الأنهار تحت شعار "الإنسان سيد الطبيعة". وأصبحت مادة صرفة لا حياة فيها، وليست دليلا على شىء. وانهار التقدم، وبدأ النكوص. وقاربت الحضارة الغربية فى العصور الحديثة على الانتهاء بعد أن اكتملت الدورة التاريخية.

وشاعت العدمية منذ أعلن نيتشه فى نهاية القرن التاسع عشر "موت الإله" وحياة الإنسان. ثم أعلن بارت فى منتصف القرن العشرين موت المؤلف، والكتابة فى درجة الصفر. فلم يعد يحيا أحد وبدأ نقد الحداثة باسم ما بعد الحداثة. وتفتيت الرؤى الكلية للعالم باسم التفكيك. وغابت القيم المطلقة لصالح النسبية والشك واللاأدرية. وتحدث الفلاسفة عن أزمة الضمير الأوروبى، عند هوسرل فقدان الإحساس بالحياة، وعند ماكس شيلر قلب القيم، وعند برجسون تحويل الآلة إلى إله، وعند اشبنجلر "أفول الغرب". وتكشفت أزمة الحضارة الغربية، وتفسخ مشرعها، أكبر كم ممكن من الإنتاج، لأكبر قدر ممكن من الاستهلاك لأكبر قسط ممكن من السعادة. تعثر الإنتاج بسبب أزمة الطاقة، وسيادة الشعوب على المواد الأولية. وتأزم الاستهلاك نظرا لوجود مراكز صناعية أخرى فى آسيا، خاصة الصين واليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج. وزاد معدل الانتحار فى أكثر الدول الأوروبية تقدما، وهى البلدان الشمالية. وثار الشباب فى مايو ١٩٦٨ رافضين مادية الغرب واستغلاله وكذبه ونفاقه وتسلطه. وانتشرت الثقافات المضادة، ثقافة الشباب والمرأة وجماعات المعارضة.

وصعد اليمين الأوروبى، وعادت النازية الجديدة. وانتشرت النزعات العرقية والطائفية. وبان العداء للمهاجرين، ووصفت ثقافات الشعوب اللاأوروبية مثل الإسلام بالإرهاب والعنف وخرق حقوق الإنسان والمرأة والطفل والشيخ، والتسلط والطغيان. وكان آخرها الرسوم الساخرة من الرسول الكريم باسم حرية التعبير المطلقة دون مسئولية أو احترام حريات الآخرين. وعاد إلى أوروبا عنفوانها الاستعمارى فى موجة ثانية من الهيمنة باسم العولمة أو صراع الحضارات أو نهاية التاريخ اعتمادا على القوة العسكرية حتى تقضى على ما تبقى من حركات التحرر الوطنى وهى الدولة الوطنية المستقلة بعد أن وقعت فى التبعية للخارج والفساد والقهر فى الداخل. وظهر ذلك فى العدوان العسكرى المباشر على الشعوب المستقلة، العدوان الصهيونى على كل فلسطين، والعدوان الأمريكى على العراق وأفغانستان، والعدوان الروسى على الشيشان دون مراعاة لميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على احترام استقلال الشعوب، وعدم جواز الاستيلاء على أراضى الغير بالقوة.

بل إن أوروبا فقدت استقلالها بتبعيتها للولايات المتحدة. ولم تعد ميزان التعادل بين الشرق والغرب، وجسر الحوار بين الشمال والجنوب. وسادت المحافظة الجديدة الإدارة الأمريكية، وتخلت عن أفكار الثورة الفرنسية التى تبناها المؤسسون الأوائل. وظهرت المسيحية الصهيونية التى تؤمن بظهور المخلص، دولة إسرائيل، من أجل تأسيس إسرائيل الكبرى، والإمبراطورية الأمريكية التى عهد إليها الرب بإصلاح العالم، ونشر الديموقراطية والحرية فى سائر ربوع العالم. وظهر المعيار المزدوج فى المناداة بالديموقراطية ورفض نتائج الانتخابات الفلسطينية وفوز حماس، وتحريم تخصيب اليورانيوم على إيران، والسماح بأسلحة الدمار الشامل فى إسرائيل، وتأييد الهند فى سلاحها النووى والتخوف من سلاح باكستان أن يقع فى أيدى "الإرهابيين" أى المعادين للولايات المتحدة وإسرائيل. وكما صرخ هوسرل فى نهاية "أزمة العلوم الأوروبية": خطر، أوروبا، خطر. عليك أن تختارى بين طريقين: إما أن تنتهى إلى العدم أو أن تبعثى نفسك من خلال الرماد.

قد يكون الأمل فى الحركات المعادية للولايات المتحدة الأمريكية التى عمت العالم كله حتى داخل أمريكا نفسها ضد العدوان الأمريكى على الشعوب. قد يكون الأمل فى عودة الحركات اليسارية الاشتراكية فى أمريكا اللاتينية المناهضة للاستعمار والهيمنة الأمريكية. فجيفارا لم يمت بعد. قد يكون الأمل فى صعود آسيا، الصين خاصة من أجل تحدى العالم الأحادى القطب. قد تستطيع إيران بلورة اتجاه دولى معاد للهيمنة الأمريكية دفاعا عن استقلال الشعوب. قد تكون حركات التحرر الوطنى الجديدة فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير ميلاد روح جديدة تغير مسار العالم. وكما انتقلت الحضارة من الشرق إلى الغرب فإنها قد تعود من جديد فى اتجاه معاكس، من الغرب إلى الشرق.

لا يكاد يخلو تاريخ العالم من حضارة قائدة كما كانت الصين والهند وفارس ومصر وكنعان وبابل وآشور قديما، ثم اليونان والرومان والعرب وأوروبا بعد ذلك. إن العالم الآن على مفترق الطرق بين "أفول الغرب" وبزوغ الشرق.

٣- صدام الحضارات، مرة أخرى

نظم جناح الشباب فى الحزب الليبرالى الديموقراطى فى هولندا فى مدينة لاهاى فى المسرح الكبير ندوة ليوم واحد بين أربعة من المفكرين، هولندى وبريطانى وأمريكى وأنا عن صدام الحضارات لتثقيف الشباب وتعويدهم على الحوار. فالحزب ليست مهمته فقط الوصول إلى السلطة إلا عند شيوخ الحزب بل مهمة شبابه التعلم والتثقف والتربية السياسية والوعى بروح العصر.

بدأ الهولندى، عجوز من أهل البلد ارستقراطى النزعة (بولكشتاين) من أصل ألمانى وأستاذ فى الجامعة التكنولوجية فى ليدن، يبحث عن "الأصولية المستنيرة"، يدافع عن الاتجاه المحافظ التقليدى فى الغرب، وينفى عنه تهمة التعصب والعدوان كما هو الحال فى المحافظة الجديدة السائدة فى البيت الأبيض وفى الإدارة الأمريكية الآن والتى كانت وراء العدوان على العراق وأفغانستان. ومازالت تهدد إيران وسوريا ولبنان. يشعر بدونية أمام الغرب الكبير جعل بحثه كله شرحا لبحث البريطانى. ويزهو بأن الغرب هو صاحب الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٥، وينسى الإعلان العالمى لحقوق الشعوب الذى أعلن فى الجزائر فى سبعينيات القرن الماضى تتويجا لحركات التحرر الوطنى واستقلال الشعوب. كما لم يعرف "الإعلان العالمى لواجبات الإنسان" الذى صدر منذ عدة سنوات وشاركتُ فى صياغته مع هانز كنج اللاهوتى السويسى الحر ويورسوكيم الكورى مع هلمولت شميت مستشار ألمانيا السابق، وأصبح وثيقة من وثائق الأمم المتحدة. كما يدافع عن القيم الغربية التى ذاعت فى أهان الناس مثل الديموقراطية دون أى نقد لها كما يفعل الليبراليون الجدد. فالديموقراطية تصور كمى وليست تصورا كيفيا. تقوم على تداول السلطة بين الأغلبية والأقلية. وفى المصالح العليا يتفق كلاهما كما هو الحال فى الغزو الأمريكى للعراق وأفغانستان. فلا فرق بين الجمهوريين والديموقراطيين، أو بين محافظين وعمال فى بريطانيا. وفى العدوان على فلسطين لا فرق بين عمال وليكود. فالديموقراطية ليست غاية فى ذاتها بل هى وسيلة لتحقيق منظومة من القيم. وليس لها شكل واحد، الديموقراطية التمثيلية طبقا لمبدأ صوت واحد لرجل واحد بل لها عدة أشكال مثل الديموقراطية التوافقية التى تقوم على إجماع الأمة كما يحدث فى اليابان الحديث أو فى الإجماع فى تراثنا القديم. وتتمثل قيمة الحرية فى السوق والمنافسة أى الحرية الاقتصادية. وأعطى الغرب للعالم مفهوم التقدم دون تحديد لمستواه، المادى أو المعنوى، لطبقة خاصة أو لمجموع الناس، هل هو دائم أم يحمل الفناء فيه. والسلام قيمة جديدة بعد ملايين من البشر قضوا نحبهم فى الحروب الأوروبية على مدى تاريخ أوروبا منذ نشأتها حتى الحرب العالمية الثانية. والآن تصدر أوروبا

(*) الاتحاد: ٢٠ أغسطس ٢٠٠٥.

الحروب خارج حدودها باستئناف موجة جديدة من العدوان باسم العولمة وصراع الحضارات لتبتلع الدول الوطنية الحديثة التى تكونت إثر حروب الاستقلال.

والثانى بريطانى (جون جراى) أستاذ الفكر الأوروبى فى كلية الاقتصاد بجامعة لندن، مغرور للغاية، يتكلم وكأنه معلم الجميع، أنفه إلى أعلى ولا ينظر إلى أحد. يتكلم كثيرا، ويسهب فى الكلام دون تركيز على قضية. بغيته الانتشار وامتلاك المنصة وملء الفراغ. له بعض وجهات النظر النقدية. ومع ذلك الفكر الغربى لديه فكر شامل مع أنه أحادى النظرة، يعبر عن البيئة الأوروبية وحدها وليس عن الإنسانية جمعاء. يرد الشيء إلى ما هو أعلى منه فيقع فى الصورية والتجريد أو إلى ما هو أقل منه فيقع فى التجريبية والوضعية. ينقصه التوازن والتركيز على الثورة. ينتقل من الفعل إلى رد الفعل ثم يجمع بينهما فى طرف ثالث. وينتهى إلى النسبية والشك ثم إلى اللاأدرية والعدمية. يبدو أنه من الليبرالية الجديدة أو اليسار الليبرالى ولكنه بريطانى أساسا مازال يعتبر نفسه سيد البحار.

والثالث أمريكى (يان بوروما) من كلية بارد بنيويورك. واضح عليه التأدب والتواضع ولكنه إسرائيلى الاتجاه. يتكلم باسم مصالح إسرائيل. اشترك مع إسرائيلى فى تأليف كتاب "الاستغراب، الغرب فى عيون أعدائه"، يؤرخ فيه للاتجاهات المعادية للغرب فى آسيا وأفريقيا ويخص الحضارة الإسلامية بنصيب وافر. يرى أن ميزة الغرب الفصل بين الدين والدولة. والحقيقة أن الفصل هو بين السلطة الدينية والسلطة السياسية لفض الصراع بينهما على السلطة مرة باسم البابا ومرة أخرى باسم الإمبراطور. وكثيرا ما تسقط المشكلة على الحضارة الإسلامية. كما يتميز الغرب بالتعددية السياسية والاعتراف بحرية الفرد والتأكيد على ديموقراطية الحكم على عكس الحضارات الأخرى التى مازالت ترزح تحت الرأى الواحد والحزب الواحد ونظم القهر والتسلط. والحقيقة أن ذلك يرجع إلى أن الغرب واللاغرب، كل منهما يعيش لحظة تاريخية مختلفة عن الأخرى. فالغرب بدأ عصوره الحديثة منذ خمسة قرون ضد السلطتين الدينية والسياسية. وسجن وحرق وعذب المفكرون الأحرار بعد إدانتهم فى محاكم التفتيش. فكل ما فيه الغرب الآن من مكاسب إنما أتى بعد نضال طويل من أجل الحرية والتعددية السياسية والعقد الاجتماعى والمجتمع المدنى والدولة الوطنية التى بدأ الغرب يتخلى عنها وبصعوبة لصالح تجمعات أكبر مثل الاتحاد الأوروبى. ولم يلاحظ أن الغرب يعانى من المعيار المزدوج واللغة المزدوجة والقيم المزدوجة عندما ينتقل من داخل أوروبا إلى خارجها فينقلب إلى القيم المضادة من تدعيم للتسلط والقهر ونهب للثروات وتعميم للجهل والمرض، وهى بعض آثاره فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وربما طغت الوثنية الأوروبية التى كانت سائدة قبل انتشار المصدرين اليونانى الرومانى، واليهودى المسيحى على ربوعها. لذلك ظلت أوروبا رومانية الطابع، يهودية المزاج. وابتعدت عن منطق العقل اليونانى وروح الأخلاق المسيحية كما تجلت فى الموعظة على الجبل.

واستعرضت ورقتى مفهوم أوروبا وأنه أكثر من مجرد مفهوم جغرافى بل هو مفهوم حضارى. فأوروبا منطقة مفتوحة لآثار متبادلة بينها وبين جنوب البحر الأبيض المتوسط. أوروبا لها شاطئان أو ثلاثة، شاطئ أوروبى شمال

البحر الأبيض وشاطئ عربى أفريقى، جنوب البحر الأبيض وشاطئ أسيوى شرق البحر الأبيض فى الشام وفلسطين ولبنان، وشاطئ شمالى شرقى فى تركيا. فأوروبا فقط هى أحد شواطئ البحر الأبيض المتوسط. لذلك كثر التفاعل الحضارى بين شمال البحر الأبيض وجنوبه، من الشمال إلى الجنوب فى العصر اليونانى الرومانى، ومن الجنوب إلى الشمال فى العصر الإسلامى، ومن الشمال إلى الجنوب فى العصور الحديثة الأوروبية، والآن من الجنوب إلى الشمال من جديد فى عصر الهجرات العربية الإسلامية وانتشار الإسلام فى الغرب حتى أنه أصبح الدين الثانى فى أوروبا.

وكشفت الردود علىّ عن الموقف الغربى تجاه العرب والمسلمين. فالحرب على العراق من أجل الديموقراطية وكأن العالم قد نصّب الغرب حاميا للديموقراطية وجعله شرطى العالم. وهو أول من أيد النظم الديكتاتورية ضد الشعوب، رعاية عن مصالح الغرب، وكأن الديموقراطية تنشر على أسنة الرماح وفوهات المدافع ونيران الدبابات والمصفحات. وترفض الحركة الإسلامية الدولة الوطنية لأنها تتبنى مفهوم الأمة التى تأتى هويتها من فكرها وقيمها وليس من الأرض أو القوم، بالإضافة إلى قهر الدولة الوطنية وفسادها وتبعيتها. ونقص حب الاستطلاع عند العرب والمسلمين إنما راجع نسبيا إلى وجود معارف مسبقة تحدد تصوراتهم للعالم وتحدد معاييرهم للسلوك. وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قد انتهت بعد ابن رشد بسبب سطوة الغزالى وهيمنته على الثقافة العربية وتنميطها فى أحادية عقائدية وتشريعية مع استبعاد الرأى الآخر والمعارضة للسلطان فإنها قد قامت فى الغرب على يد المفكرين الأحرار والرشديين اللاتين. وكثيرا ما يسأل الغرب عن الحدود الإسلامية دون أن يعرف أنها ليست على الإطلاق إنما تتحقق إذا ما توافرت شروطها أولا. وللمسلم حقوق كما أن عليه واجبات، ولا واجبات بلا حقوق. أما الإرهاب "الإسلامى" فإنه ظاهرة اجتماعية سياسية لها ظروفها مثل الإحساس بالعجز والإحباط أمام عجز الحكومات وسلبيات الشعوب وهيمنة القوى الأجنبية. والعالم العربى الإسلامى مازال يغلق عصوره الوسطى ويعد نفسه لبداية عصوره الحديثة ولا تجوز المقارنة بين حضارة غربية تنتهى وحضارة عربية إسلامية تبدأ.

تشاؤهم أم تفاؤل وبالنسبة لمن؟ تشاؤم بالنسبة للغرب، وتفاؤل بالنسبة للعرب والمسلمين على الأمد الطويل لمن يرسمون استراتيجيات المستقبل.

٤- الديـــن والدولـــة

إذا كانت المعارك العاجلة للتأثير فى مجرى الأحداث فى مصر ومنها الانتخابات الرئاسية الشهر الماضى والانتخابات التشريعية الشهر القادم تحتاج إلى التحليل المباشر للواقع السياسى، وإذا كانت السنتان القادمتان هى مرحلة انتقال فى تاريخ مصر بعد أن دبت الحياة السياسية فى الشارع المصرى خلال هذا العام خاصة الشهور الأخيرة فقد آن الأوان كى يتجه التحليل السياسى إلى التفكير فى السياسات بعيدة المدى وفى الاستراتيجيات الطويلة من أجل إرساء قواعد الدولة الحديثة التى تعيد صياغة الدولة الوطنية حصيلة حركات الاستقلال الوطنى، بعد تعثرها وضعفها ومخاطر تفتيتها، وتبعيتها للخارج وقهرها للداخل.

ومن ضمن الإشكالات علاقة الدين بالدولة، والنزاع الحاصل بين السلفيين والعلمانيين حولها، الربط عند السلفيين، والفصل عند العلمانيين. وهو نفس الإشكال المطروح على كل الدساتير العربية مثل الدستور العراقى. وهو التحدى الذى تواجهنا به النظم الغربية والنظام العالمى الجديد وجدول أعماله الخاص بالتحول الديموقراطى وحقوق الإنسان والأقليات وفرض النموذج الغربى القائم على الفصل بين الدين والدولة تحت شعار "الدين لله والوطن للجميع". وكثيرا ما ينقل المفكرون والمحللون السياسيون الإشكال الغربى، الصلة بين الكنيسة والدولة أو بين السلطة الدينية والسلطة السياسية بعد أن جرب الغرب التوحيد بينهما فحدثت المذابح باسم الدين مرة وباسم الدولة مرة أخرى. فآثر الاختيار الثانى، وهو الفصل بينهما وإن استحال ذلك من الناحية العملية، فى ممارسات الكنيسة والدولة على حد سواء، بالتعاون مرة وبالتعارض مرة أخرى. وتم إسقاط هذا التاريخ الأوروبى الخاص على باقى الثقافات والتجارب الحضارية فثارت مشكلة مزيفة. ففى التجربة الإسلامية ليس فى الإسلام كنيسة ولا سلطة دينية. والدولة تحكم بالمصالح العامة للأمة وهى مقاصد الشريعة، الحفاظ على الحياة، والعقل، والمعيار الأخلاقى الشامل، والعرض أى الكرامة، والمال أى الثروة الوطنية.

والأخطر من ذلك هو وقوع الدولة فى الممارسات الحالية فى المعيار المزدوج، الجمع بين الدين والدولة فى ممارستها الخاصة دفاعا عن سلطتها، والدعوة إلى الفصل بينهما عندما تتوجه إلى المعارضة السياسية. فتقيس بمقياسين، وتكيل بمكيالين.

فخطاب الدولة للمعارضة خاصة الإخوان المسلمين أنه لا يمكن إقامة حزب سياسى على أساس دينى وإلا أدى ذلك إلى الوقوع فى الطائفية مما يهدد الوحدة الوطنية إذا ما طالب الأقباط بإقامة حزب قبطى. وهو ما لم يمنع

(*) الاتحاد: ١ أكتوبر ٢٠٠٥، الدستور: ٢ أكتوبر ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ٢ أكتوبر ٢٠٠٥.

الإخوان من تقديم أنفسهم كمستقلين فى الانتخابات التشريعية أو متحالفين مع حزب الوفد مرة أو مع حزب العمل مرة أخرى. وهى تحالفات سياسية وقتية. إذ سرعان ما يتمسك الوفد بعلمانيته، كما تترصد الدولة لحزب العمل وتوقعه فى شباك الأخطاء حتى تجد ذريعة لإيقافه عن العمل وتعليق جريدته. أما المستقلون فإنهم يوصفون بالإخوان علنا، ويسلط عليهم دائما سيف الحل إذا ما غضبت عليهم الدولة. هذا بالإضافة إلى تناقض وجود ممثلى جماعة محظورة فى المجالس النيابية والاتحادات والنقابات والجمعيات الأهلية والنوادى المهنية. كما حدث تناقض آخر بين وجود الإخوان فى الشارع السياسى كأكبر قوة سياسية مؤثرة من قوى المعارضة السياسية وفى حوار مستمر مع النظام السياسى من أجل حل وسط بين السلطة والمعارضة لتفتيت قوى المعارضة ولاطمئنان السلطة على التخفيف من حدة المعارضة مقابل مكاسب موعودة على المستوى السياسى فيما يخص بالوجود الشرعى والإفراج عن المعتقلين. وترفع الدولة شعار "لا سياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة" من أجل الحد من نشاط الجماعات الإسلامية فى الجامعات. فالدولة هنا تقوم بدور الحامى للعلمانية. فإذا ما صدقتها بعض الأجنحة الليبرالية فى حركة الإخوان الأم وتقدمت بإنشاء أحزاب سياسية مدنية استطاعت أن تحول الإسلام إلى برامج سياسية اجتماعية مثل "حزب الوسط" فى مصر أو حزب "النهضة" فى تونس رفضت الدولة أو علقت الطلب بين القبول والرفض، وأصبح الحزب فقط "تحت التأسيس" أى تحت المراقبة. إذا انضم إلى الدولة يُوافق عليه، وإذا استمر فى المعارضة السياسية يُرفض. فتنهار حجة ضرورة الفصل بين الدين والدولة فى تأسيس أحزاب المعارضة.

أما الدولة نفسها من أجل تدعيم سلطتها فإنها دولة دينية بالأصالة تستعمل الدين من أجل تدعيم نظامها السياسى. فدين الدولة هو الإسلام. ومن تحرج من ذلك بسبب وجود الأقباط اتهم بالكفر والعلمانية والتغريب. والشريعة الإسلامية أحد مصادر التشريع مع أن المصالح العامة هى أساس التشريع. وهى نفس المشكلة فى صياغة الدستور العراقى. وفى بطاقة الهوية، هناك "خانة" للدين وفى كثير من الأوراق الرسمية حتى فى بعض طلبات التأشيرات من السفارات الأجنبية. والدين مادة فى المدارس ولكن لا يدخل فى المجموع مما يعطى التلاميذ إحساسا بأنه لا أهمية له. ويفصل المسلمون عن الأقباط فى تعليم الدين مما يرسخ منذ البداية الطائفية ويخاطر بالوحدة الوطنية. ويعظم حضور الدين فى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة. فيؤذن على الصلاة خمس مرات يوميا بالإضافة إلى قداس يوم الأحد على إحدى القنوات وليس القناة الأولى، والاحتفال بالمناسبات الدينية، العيدين، وصلاة الجمعة، والمولد النبوى، ورأس السنة الهجرية، وليلة القدر. وتعرض الأفلام الدينية فيها مثل "الشيماء"، "ظهور الإسلام". وتصاغ البرامج الدينية مثل "حديث الروح" كل يوم و"نور على نور" و"العلم والإيمان". ويوضع الدين فى برامج الأحزاب، حكومة ومعارضة. وفى كل حزب قسم أو مكتب للشئون الدينية وله صحف دينية مثل "عقيدتى" مهمتها تكفير المعارضة السياسية باسم الدين. وتتولى الدولة شئون بناء المساجد، وتعيين الخطباء، وتحديد موضوعات خطب الجمعة. وتفرز الدولة بين الحين والآخر دعاتها ووعاظها الذين يشغلون الناس بما لا ينفع، بعيدا عن حقوقهم السياسية

والاجتماعية، مثل تفسير القرآن بروح ابن البلد، والعلم في القرآن لتخدير الناس بأنهم أسبق من الغرب في الاكتشافات العلمية، ومخاطبة الشباب وحل أزماتهم النفسية. وقد تغضب على بعض مشايخ السلطان ودعاة النظام إذا استفحل الأمر وخرج على قواعد اللعبة واستقطب الناس بعيدا عن طاعة النظام. بل وفى الدولة وزارة للأوقاف وللشئون الدينية. والطرق الصوفية جزء من رياسة الجمهورية. وشيخ مشايخها يعينه الرئيس مثل تعيين شيخ الأزهر، ومفتى الديار المصرية، ورئيس جامعة الأزهر. بل إن الدولة تسمح بالتعليم الدينى الخاص منذ الحضانة حتى الجامعة. ويسلم الرئيس جوائز تحفيظ القرآن للمسلمين من كافة أرجاء العالم الإسلامى. ويتم التهادى فى فرق الجيش بالقرآن المذهب المغلف بالقطيفة الحمراء. ينحنى عليه الرئيس لتقبيله. وتنظم الدولة صندوق الزكاة. وتمتلئ الأغانى الشعبية والأناشيد الوطنية بالرموز الدينية مثل "الله أكبر فوق كيد المعتدى"، "والله زمان يا سلاحى". وحرب أكتوبر هى حرب رمضان، ومن المدن الجديدة مدينة العاشر من رمضان. وتؤسس الدولة لجانا لتقنين الشريعة الإسلامية وإصلاح قوانين الأحوال الشخصية. ويذهب الرئيس إلى العمرة والحج بملابس الإحرام. وبعض الرؤساء أخذ لقب "الرئيس المؤمن". ورفع شعار "من لا دين له لا أمان له" ضد خصومه من الناصريين والشيوعيين. ويفضل البعض أن يدفن فى المساجد أو بجوار مسجد حتى يسكنه الله فسيح جناته. بل لقد تحول البعض منهم بعد مماته إلى ولى من أولياء الله الصالحين.

فمتى يتم الكف بهذا اللعب بالدين والسياسة واستعمال المعيار المزدوج، التوحيد بينهما دفاعا عن النظام والفصل بينهما للقضاء على شرعية المعارضة. أليس الدين كما قيل من قبل "أفيون الشعب" كما تفعل الدولة، و"زفرة المضطهدين" كما تفعل المعارضة؟

٥- الدين بين الحرب والسلام

كانت قضية الحرب والسلام هى قضية رئيسية فى القرن العشرين ومازالت مستمرة بعد أن شهد حربين عالمتين فى النصف الأول منه، والحرب الباردة فى النصف الثانى منه. وبالرغم من نهاية عصر الاستقطاب والحرب الباردة إلا أنه ظهر استقطاب جديد خاصة بعد حوادث سبتمبر فى واشنطن ونيويورك وما تلاها من عدوان على أفغانستان والعراق والشيشان، وتهديد سوريا وإيران وحصار لبنان والسودان. وقد زاد من اشتعالها سيطرة اليمين المحافظ على الإدارة الأمريكية ودعاة الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، وسيطرة اليمين الإسرائيلى على الحكم، دعاة إسرائيل الكبرى.

لذلك توجهت الجمعيات الدينية المدنية نحو هذه القضية، تدعو للسلام، وتخفف من غلواء الحرب، وتدعو إلى التعايش المشترك بين الشعوب. ترتبط بالمؤسسة الدينية وبالمؤسسة السياسية على حد سواء. وتتعاون مع الكنيسة والدولة فى آن واحد بدلا من الاستقطاب التقليدى فى أوروبا بين الدين والدولة والذى امتد لدينا فى صورة الاستقطاب الحالى بين السلفية والعلمانية.

ومن أمثال هذه الجمعيات "سانت إيجديو" التى أسسها المثقف الإيطالى "ريكاردى" منذ عدة سنوات والتى أصبحت أكبر جمعية مدنية أهلية فى العالم، مركزها إيطاليا. تتعاون مع الفاتيكان والدولة فى البلدان الكاثوليكية. وتقوم على العمل الحر التطوعى لأعضائها وربما على جزء من تمويلها.

وقد عقدت الجمعية الشهر الماضى اجتماعها السنوى فى مدينة ليون بفرنسا مركز الأسقفية الكاثوليكية بحضور الآلاف من الأعضاء والقادة من رجال الدين والعلماء والمفكرين والمثقفين والمسئولين الحكوميين تحت عنوان "شجاعة إنسانية من أجل السلام". حضرها ممثلون عن كل أديان العالم، رسميون وغير رسميين، بالزى الدينى الرسمى لكل دين أو بالملابس المدنية التى تكشف عن إيمان علمانى. فالإيمان مازال متجذرا فى الوعى الأوروبى على غير ما يبدو فى الظاهر من مادية وإلحاد. وكانت تظاهرة كبرى خاصة فى الافتتاح وفى النهاية، ومسيرة السلام بالشموع فى المسرح الرومانى للإعلان عن عالم واحد تعيش فيه كل الشعوب فى سلام وتعاون مشترك.

وعقدت ما يقرب من أربعة وعشرين مائدة مستديرة على مدى ثلاثة أيام، صباحا ومساء حول خمسة محاور رئيسية.

(*) الاتحاد: ١٥ أكتوبر ٢٠٠٥، الزمان: ١٨ أكتوبر ٢٠٠٥، الدستور: ١٦ أكتوبر ٢٠٠٥.

الأول، أزمات العالم ومناطق التوتر فيه فى القارات الخمس. فى أمريكا حوادث سبتمبر فى واشنطن ونيويورك ودوافعها الدنية والسياسية، وكيفية الحوار بين الأديان والتفاهم المتبادل بينها. وفى آسيا بعد زلزال تسونامى كيف يمكن السيطرة على الطبيعة وتفادى مخاطرها وحماية الآلاف من تدمير الطبيعة. ولم يكن إعصار كاترينا وريتا قد هبّا بعد على جنوب الولايات المتحدة الأمريكية ولا زلزال باكستان والهند قد وقع وحصد عشرات الألوف من المواطنين الأبرياء. وفى أفريقيا عشرات الملايين من الأفارقة مصابون بالإيدز. وآخرون حصدتهم الحروب الأهلية والنزاعات الحدودية. وتعود ذاكرة الغرب إلى محرقة اليهود بعد أن انقضى ستون عاما على أوشفتز من أجل عقد حوار جديد بين المسيحيين واليهود. ولا تذكر المحارق الأخرى فى فلسطين وجنوب أفريقيا وروانda، ومذابح الفرنسيين فى الجزائر، والأمريكيين فى العراق وأفغانستان، والروس فى الشيشان، والإسرائيليين فى فلسطين. وما أكثر المحارق والاستئصال العرقى فى العالم. وفى اليابان انقضى ستون عاما أيضا على هيروشيما التى قضت فيها أمريكا على مدينة بأكملها ثم أشفعتها بناجازاكى. وفى أوروبا ما مستقبلها ومسئوليتها عما حدث من مآسى فى العالم إبان الحقبة الاستعمارية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية؟ وهل تستطيع أن تصمد أمام الولايات المتحدة واستقطابها لها وأن تكون ميزان الثقل فى العالم بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب؟ وماذا عن أطفال العالم الذين يموتون جوعا وقحطا وتصحرا؟ وماذا عن اقتصاد العالم فى عصر العولمة وإمكانية التضامن بين الشعوب من أجل المشاركة المتساوية فى ثروات العالم بدلا من أن يستهلك ٥ ٪ من سكان العالم ٧٥ ٪ من ثرواته؟

والمحور الثانى، هو الحوار كطريق لحل الأزمات والتوترات فى العالم. وهو الحوار بين الكاثوليك والبروتستانت بعد تاريخ طويل من الصراع الدموى والخلاف العقائدى. فما هى متطلبات الوحدة بين المسيحيين وكم ميلا لم تُقطع بعد من أجل الوصول إلى الوحدة بين المسيحيين. والصراع مازال موجودا بين البروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا الشمالية، وبين الكاثوليك والكاثوليك فى إقليم الباسك. وهو الحوار الإسلامى المسيحى اليوم وغدا فى مواجهة ما يسمى بحقوق الأقليات فى العالم الإسلامى. فالمسيحيون العرب جزء من الأمة العربية. والطوائف جزء من نظام الملة فى الإسلام القائم على المساواة بين الملل فى الحقوق والواجبات فى إطار الأمة الإسلامية الواحدة التى تتكون من عديد من الطوائف والملل المختلفة. وهو الحوار بين الشرق والغرب، حوار الديانات والثقافات فى عصر الإمبراطورية الأمريكية الجديدة التى تزحف نحو الشرق بعد غزو العراق وأفغانستان، وتهديد إيران، وإقامة القواعد العسكرية فى قازخستان من أجل محاصرة الصين، والقضاء على النهضة فى جنوب شرق آسيا. وهو الحوار بين الشمال والجنوب، بين أوروبا وأفريقيا، بين المستعمِر القديم والمتحرر الحديث. فأوروبا مازالت مسئولة عن بعض مآسى أفريقيا فى التصحر والفقر إثر نهب الثروات المعدنية، والحروب الأهلية والنزاعات العرقية نتيجة الحدود الاستعمارية المصطنعة، وقسمة الشعوب والقبائل بين دول متجاورة لا تعرف مفهوم الحدود السياسية، والقضاء على إمكانية وجود لغة أفريقية واحدة بدلا من الفرانكفونية أو الأنجلوفونية. فأفريقيا لها كيانها المستقل وليست مجرد امتداد لخاصرة أوروبا

الجنوبية عبر البحر الأبيض المتوسط.

والمحور الثالث، قيمة الحياة وعقوبة الموت نظرا لحملة جمعيات حقوق الإنسان على الحكم بالإعدام، ونظرا لمشاكل الأخلاق البيولوجية المعاصرة مثل الموت السريرى، والموت الدماغى، وزراعة الأعضاء، والموت الرحيم، وشهادة الإيمان بالقول والفعل خاصة وأن الشاهد والشهيد مشتقان من نفس اللفظ. فالشهيد يتنازل عن الحياة الدنيوية فى سبيل الحصول على الحياة الأبدية. ولم يتعرض أحد للعمليات الاستشهادية فى فلسطين والعراق والشيشان. وهو موضوعى خلافى يُخشى منه التفرقة بين المجتمعين وليس وحدتهم.

والمحور الرابع، النزعة الإنسانية التى توحّد بين الشعوب. وهى رسالة الأديان جميعا. وهى إنسانية روحية وليست عولمة اقتصادية. تقوم على حرية الضمير وعلمانية الدولة وثقافة العيش المشترك.

والمحور الخامس، السلام وهو المقصد الأسنى من الحوار بين الشعوب. ويتطلب شجاعة أدبية فائقة واعتراف مبدئى بالآخر وتقديس الحياة والتضامن والعيش المشترك.

يهتم المؤتمر برجال الدين والمسئولين الرسميين وبالشخصيات العامة خاصة بأزيائهم المميزة. ويغيب أصحاب القضية الذين يعانون من ويلات الحروب، الفلسطينيون والعراقيون والأفغان والشيشان. وكثيرا ما يغلب على التحليلات الوعظ الدينى أو الخطاب الأخلاقى. وتغيب البرامج العملية التنفيذية لتحقيق السلام عن طريق نزع جذور الحرب وهى العدوان والهيمنة والتسلط من القوى على الضعيف، ومن الغنى على الفقير.

كانت فرصة للعرب والمسلمين من مصر والمغرب وتونس ولبنان خاصة أن يعرضوا الإسلام المستنير، وأن يحاوروا ديانات العالم وحضاراته. فالإسلام قادر على الحوار كما هو قادر على النضال. وهو دعوة إلى السلام بقدر ما هو دعوة إلى الجهاد فى حالة العدوان على الشعوب. فالدفاع عن النفس حق مشروع فى طبائع البشر وفى الديانات السماوية وفى الشرائع الوضعية. وكانت مساهمة لتبديد الصور النمطية التى تراكمت فى الوعى الأوروبى عن الإسلام وربطه بالعنف والتخلف والتعصب. وهى ظواهر سياسية واجتماعية طارئة. ليت العالم الإسلامى يعرف كيف تنشط جمعياته الأهلية مستقلة عن الحكومات والمؤسسات الدينية الرسمية حتى ينشط الفكر الإسلامى فى مواجهة تحديات العصر ويكون طرفا متكافئا مع الجمعيات الأهلية المماثلة فى الغرب والشرق.

٦- حقوق الإنسان... مرة أخرى

عقدت الشهر الماضى فى مدينة لوجانو بسويسرا ندوة دولية نظمتها كلية اللاهوت (أصول الدين) بعنوان "حقوق الإنسان بين الثقافات المحلية والشرائع السماوية". وهو موضوع مشترك بين القانونيين واللاهوتيين إجابة على سؤال: إلى أى حد تتضمن الشرائع الدينية حقوق الإنسان؟ فلم يعد اللاهوت حديثا فى الإلهيات أو النبوات، عقليات أو سمعيات، بل معالجة لقضايا العصر مثل حقوق الإنسان، والمجتمع المدنى، والتعددية، والأخلاق البيولوجية، والمجتمع التقنى... الخ . وكانت أغلبية المدعوين من الكاثوليك ثم الإنجليكانيين ثم البروتستانت ثم اليهود، ومسلم عربى واحد، ومسيحى عربى واحد. والسؤال الأهم بطبيعة الحال يتعلق بالشريعة الإسلامية خاصة قانون العقوبات أى الحدود وإلى أى حد تتفق مع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، خاصة حد القتل وحد السرقة وحد الزنا؟ فحق الحياة حق من حقوق الإنسان ولا يمكن تصحيح خطأ بخطأ فى القصاص. وحق امتلاك البدن حق طبيعى من حقوق الإنسان، لا يمكن بتر أحد أطرافه، وإلا تحول المجتمع الإنسانى كله إلى مجتمع من المعوقين.

وعقدت أربع جلسات. الأولى عن التراث اليهودى المسيحى الإنجليكانى والعبرانى والمسيحى الفلسطينى. فالإنجليكانية جماعة وسط بين الكاثوليكية والبروتستانتية، منتشرة فى إنجلترا وأمريكا خاصة، ولها فروعها فى الوطن العربى. والعبرانى وليس اليهودى إشارة إلى الدين اليهودى القديم. والمسيحى الفلسطينى أى المسيحية العربية وخرق حقوق الإنسان الفلسطينى فى الأراضى المحتلة. والجلسة الثانية عن القانون العام والتراث الدينى القانونى، الكاثوليكى والعبرانى والإسلامى. هنا تتميز الكاثوليكية عن غيرها من الطوائف. وتبقى الشريعة اليهودية باعتبارها مصدر الشريعة المسيحية. ويتفرد الإسلام بالإجابة على السؤال المطروح عن حقوق الإنسان فى الإسلام. والجلسة الثالثة عن الحرية الدينية كحق عام. فالحرية حق طبيعى للإنسان مثل الإيمان من أجل الاعتراف بالآخر، والحوار بين الأديان. أما الجلسة الرابعة فكانت عن القانون الإنسانى وبناء السلام من وجهة نظر الكاثوليكية والعبرانية والإسلامية. وهنا تمثل الكاثوليكية المسيحية. وتتكرر العبرانية للمرة الثالثة، والإسلامية للمرة الثانية. وقضية الحرب والسلام تشغل بال العالم بالرغم من نهاية الاستقطاب والحرب الباردة. وتعددت لغات الندوة بين الإيطالية والفرنسية والألمانية وهى اللغات الرسمية الثلاث فى سويسرا بالإضافة إلى الإنجليزية.

طالت الأوراق وقلت المداخلات. كل لاهوتى أو قانونى يعرض مادته العلمية قراءة وليس ارتجالا. يعلن عن إيمانه المسبق دون ما رغبة فى الحوار مع الآخر. فكبار رجال الدين على رأس الحضور. ورؤساء الجامعات وكبار

(*) الاتحاد: ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥، الزمان: ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٥، الدستور: ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٥.

الأساتذة مشاركون. غاب الفكر الحر. كما عز التأويل والقراءة والاجتهادات الجديدة. وقد استرعت الورقة الفلسطينية والورقة الإسلامية الانتباه. فقد عرضت الأولى خرق حقوق الإنسان لشعب فلسطين فى الأراضى المحتلة قدمها عربى ومسيحى من أصول أرمنية. وعرضت الثانية تأصيل حقوق الإنسان فى الإسلام فى نظريات الإنسان الكامل فى التصوف، والإنسان العامل فى الفقه، والإنسان الحكيم فى الفلسفة. وبينت أن مقاصد الشريعة التى من أجلها وضعت الشريعة ابتداء هى العناصر المكونة لحقوق الإنسان وهى الحفاظ على الحياة أى النفس، والعقل أى العلم والمعرفة، والدين أى القيمة والمعيار، والعرض أى الكرامة، والمال أى الثروة الوطنية. وقد عز الحوار بين المشاركين نظرا لغياب مدرسة الحق الطبيعى السابق على مفهوم حقوق الإنسان لدى القانونيين واللاهوتيين. الحق الطبيعى هو الحق الفطرى الذى يشارك فيه البشر جميعا بصرف النظر عن شرائعهم ودياناتهم.

مازال الغرب منشغلا وشاغلا نفسه بموضوع حقوق الإنسان لأسباب خاصة بثقافته وأخرى تتعلق بثقافة الآخرين. فهو يزهو بأن ثقافته هى ثقافة الإنسان والتاريخ، فى حين أن ثقافات الشعوب الأخرى مثل الثقافات الشرقية ثقافات الله والخلود. وهو الذى صاغ مفهوم حقوق الإنسان مرتين، الأولى أثناء الثورة الفرنسية فى "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والمواطن". والثانية بعد الحرب العالمية الثانية "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان". وهو الأشهر والأكثر ذيوعا بعد أن صادقت عليه الأمم المتحدة وأصبح ميثاقا من مواثيقها الدولية ملزما لكل دول العالم التى وقعت عليه. ومن ثم يسجل الغرب لنفسه نقطة لصالحه على باقى الشعوب التى تمتلئ سجونها بآلاف المعتقلين السياسيين، وتذهب آلاف أخرى ضحايا الحروب الأهلية والنزاعات الطائفية والعرقية فاقت المليون شهيد فى رواندا بين قبيلتين، الهوتو والتوتسى. وينسى الغرب أنه أيضا ضحى بآلاف من البشر فى عدوانه على باقى الشعوب منذ الحقبة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر عندما استعمرت أوروبا كل العالم القديم فى أفريقيا وآسيا بالإضافة إلى العالم الجديد منذ بداية العصور الحديثة فى نصف الكرة الغربى. ومازالت تحصد جيوشه الآلاف فى العراق وأفغانستان والشيشان، ولا يتحرك لخرق حقوق الإنسان فى فلسطين أو فى الدول التى تحكمها نظم سياسية موالية له. ويكثر الآن الحديث عن حقوق الإنسان فى إطار صراع الحضارات حتى يعطى الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية لنفسه شرعية التدخل فى الدول المستقلة وتغيير أنظمتها غير الموالية بدعوى خرق حقوق الإنسان، فأصبحت مثل ذريعة امتلاك أسلحة الدمار الشامل، والإرهاب، وتهديد الأمن الدولى، وعدم الانصياع لقيم العالم الحر وفى مقدمتها الديموقراطية والتعددية السياسية. وهو موضوع حيوى داخل الغرب تثيره التجمعات اليسارية المناهضة للعولمة كأحد أشكال الهيمنة الجديدة، ودفاعا عن الأقليات فى الغرب وحقوق المهاجرين فى العمل والإقامة، والمساواة فى الحقوق والواجبات مع الأغلبية. تكشف عن المعيار المزدوج فى الغرب، تطبيق حقوق الإنسان عند البيض الأمريكيين ذى الأصول الإنجيلية البروتستانتية (الواسب) وخرقها فى الأقليات الأمريكية من أصول أفريقية أو أسبانية أو عربية. فهناك فرق بين النظر والعمل، بين المبدأ والواقع، بين الإعلان العالمى لحقوق الإنسان كوثيقة وأوضاع حقوق الإنسان

فى الغرب كممارسة.

وهو موضوع مهم بالنسبة لنا أيضا. فأوضاع حقوق الإنسان لدينا مخترقة. وتُتهم ثقافتنا بأنها لم تعرف مفهوم حقوق الإنسان. وتعيش شعوبنا فى القهر والتسلط والطغيان. لذلك نجد أنفسنا فى موقف الدفاع باستمرار عن ثقافاتنا وأنها عرفت أيضا مفاهيم عدة لحقوق الإنسان. فليس هناك مفهوم واحد، هو المفهوم الغربى، القائم على التصور الفردى للإنسان وحريته المطلقة بما فى ذلك حق الإجهاض والشذوذ الجنسى والعرى. فى حين يوجد مفهوم جماعى لحقوق الإنسان يقوم على الاعتراف بالآخر وبأنساق القيم كما يقررها الحق الطبيعى أو الفطرة الإنسانية. لذلك أصدرنا "الإعلان العالمى لحقوق الشعوب" لتأكيد حق كل شعب فى تقرير المصير، وفى حريته واستقلاله، تعبيراً عن نضال الشعوب وحركات التحرر الوطنى فى الخمسينيات والستينيات. وقد صدر هذا الإعلان فى الجزائر عام ١٩٧١. مازال الغرب يفرض علينا موضوع حقوق الإنسان ويدعم ماليا ومعنويا عشرات الجمعيات الأهلية النشطة فى هذا المجال، تقوية للفرد على حساب الجماعة، وفرضا لجدول الأعمال الغربى على باقى الموضوعات مثل المجتمع المدنى، والمرأة، والأقليات، والإدارة، والتحول الديموقراطى كأساس للخصخصة والنشاط الاقتصادى للقطاع الخاص وغيرها من العناصر التى تكون مشروع "الشرق الأوسط الكبير". والعولمة ليست فقط اقتصادية وقوانين السوق بل أيضا خضوع العالم كله إلى منظومة ثقافية واحدة، هى المنظومة الغربية. أما جدول أعمالنا الخاص باستكمال تحرير الأرض والدفاع عن الاستقلال الوطنى، ومقاومة الهجمة الاستعمارية الجديدة، والعدالة الاجتماعية، والتنمية المستقلة، والدفاع عن الهوية، وحشد الجماهير فهى أساطير قديمة عانت منها الشعوب، وانقلبت إلى ضدها بعد إفلاس الدولة الوطنية وتحولها إلى دولة قهر وفساد، وتبعية واستغلال. مازال الغرب يهاجم ونحن فى موقف الدفاع. نحاول أن نبين "حقوق الإنسان فى الإسلام". والهجوم أقوى من الدفاع. الغرب يقف فى موضع قوة، ونحن فى موقف ضعف. وتتجلى عقدة العظمة لديه فى نقاط قوته، وعقدة النقص لدينا فى نقاط ضعفنا. الغرب هو الذى يضع اللحن، ويضبط الإيقاع وما علينا إلا الرقص والدوران.

الفصل الثانى

حوار الحضارات

١- العالم الوطنى والزائر الأجنبى.

٢- كيف يفكر المثقف العربى فى الغرب؟

٣- كيف يتحدث المثقف الغربى عن الإسلام؟

٤- العلم والسياسة (خطاب إلى بابا الفاتيكان).

٥- المؤتمرات الدولية، ما لها وما عليها.

٦- النزعة الإنسانية.

٧- المؤتمرات التجارية.

١- العالم الوطنى والزائر الأجنبى

العلاقات بين الحضارات علاقات تعلم متبادل. فلم تكن الحضارات فى يوم ما دوائر منعزلة عن بعضها البعض منغلقة على نفسها. وإذا حدث فإنها تنقرض وتموت. الحضارات فى تفاعل بينها للإثراء المتبادل (**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**).

والتفاعل بين الحضارات تعبير عن ميزان القوى الحضارى. فالحضارة "الأعلم" تصب فى الحضارة الأقل علما. والحضارة "الأعقل" تنساب فى الحضارة الأقل عقلا. الحضارة الأقوى تقوم بدور المعلم. والحضارة الأضعف تقوم بدور التلميذ. وكما هو الحال فى الأوانى المستطرقة، نظرا لوجود حضارة إنسانية واحدة تتغير مركزها على مر الأيام، وتتغير علاقة المعلم بالتلميذ، مرة يكون المعلم معلما، والتلميذ تلميذا، ومرة يصبح التلميذ معلما، والمعلم تلميذا. فلا يوجد معلم أبدى ولا تلميذ أبدى. إنما هو تبادل للأدوار (**وتلك الأيام نداولها بين الناس**).

حدث هذا فى الصين قديما عندما انتشرت الكونفوشيوسية على سائر ربوع آسيا، وكذلك فى الهند عندما انتقلت البوذية من الهند إلى التبت والصين واليابان وجنوب شرق وأواسط آسيا. وحدث نفس الشىء فى حضارة فارس عندما عمت المانوية والزرادشتية والمزدكية فى آسيا وامتدت غربا حتى الوطن العربى. كما رحلت حضارات ما بين النهرين، بابل وآشور، إلى اليونان، مهد الحضارة الغربية. وذاعت حضارة مصر القديمة إلى السودان والشام واليونان. وأثرت حضارة كنعان فى دين إبراهيم على مختلف مراحله. وذاعت حضارة اليونان والرومان عبر شواطئ البحر الأبيض المتوسط كله شمالا وجنوبا، شرقا وغربا. وقد ورثت الحضارة العربية الإسلامية الحضارات القديمة كلها ووحّدتها فى حضارة إنسانية واحدة، ونشرتها مع تنوعها فى ربوع العالم كله شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا. ثم ورثتها الحضارة الغربية الحديثة منذ سقوطها الأندلس وحتى نهاية العصور الغربية الحديثة وبداية النهضة الإسلامية المعاصرة.

كان الغرب يأتينا زمن هارون الرشيد يتعلم من أطبائنا وعلمائنا ورياضيينا وصيادلتنا وصناعاتنا. ثم كنا نأتيه منذ القرن التاسع عشر وإرسال محمد على البعثات التعليمية من أجل نقل المعارف والعلوم وتأسيس النهضة العربية الحديثة. واستمرت البعثات التعليمية فى العصر الليبرالى فى النصف الأول من القرن العشرين، وفى العصر الاشتراكى فى النصف الثانى منه. وقد قل إيقاعها نظرا لتحول مسار التاريخ وانتقال المركز الحضارى من الغرب إلى الشرق،

(*) الاتحاد: ١٦ يوليو ٢٠٠٥، الزمان: ١٦ يوليو ٢٠٠٥.

ومن الغرب إلى الإسلام. فالقرن الواحد والعشرين هو قرن الصين صناعة ، وقرن الإسلام حضارة.

وطبقا لهذا التصور "البندولى" للحضارات يزورنا الآن عديد من الباحثين والدارسين والصحفيين الغربيين لجمع المعلومات عن مصر والعرب، والإسلام والمسلمين. وينضم إليهم أحيانا رجال السياسة والأعمال، وزراء دفاع وثقافة وشئون دينية وأصحاب شركات يريدون الاطمئنان على استثماراتهم من قبول للشعوب أو رفض لها بصرف النظر عن موافقة الحكومات. فالشعب هو الأهم لأنه هو الذى يعطى العمال وهو الذى يستهلك. وهو الذى يغضب ويثور، ويدمر ويحرق. وقد ينضم إليهم الجواسيس والمتآمرون وأصحاب النوايا الشريرة، المثيرون للشغب الطائفى والعرقى فى مسموح الرهبان.

ويبدو أن مجرد جمع المعلومات عن طريق شبكات المعلومات والملفات والتحليل الكمى لا يفيد فى الإحساس بنبض الجماهير، وحركة الشارع ومسار التاريخ. فقد كانت عند أمريكا وإسرائيل أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حركة الجيشين المصرى والسورى ونقاط توجهاته، ولكن أجهزة استخباراتهما عجزا عن التنبؤ باندلاع الحرب الساعة الثانية إلا خمس دقائق ظهر يوم السبت السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣. فإرادة الشعوب. والدفاع عن الاستقلال الوطنى، وكرامة الأوطان لا يمكن أن تحسب كمّاً عن طريق الحسابات الآلية بل هى كيفيات خالصة حرة لا يمكن التنبؤ بها.

لذلك يأتى الزوار الأجانب على اختلاف تخصصاتهم لمعايشة المنطقة والحديث مع مثقفيها وعلمائها لمساعدتهم على تحديد رؤية لهم لحاضر شعوب المنطقة ومستقبلها. فالفكر الوطنى أقدر على المعرفة من الزائر الأجنبى. الأول يعرف بالتجربة المعيشة، والثانى بالمعلومات الميتة.

يريد الغرب ألا يؤخذ على غرة كما حدث فى إيران. فقد اندلعت الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ والغرب يظنها واحة أمان. كما أخذت إسرائيل على غرة فى الانتفاضة الأولى، وفوجئت أمريكا بعد احتلال العراق وتغيير النظام بالمقاومة الشعبية العراقية ورفض الشعب العراقى الاحتلال الأمريكى لوطنه. يستعد الغرب للمستقبل، ويستبصر مدى بقاء النظم السياسية الحالية، ويحاور القوى السياسية البديلة المؤثر فى الشارع العربى وعلى رأسها الحركة الإسلامية، والمعارضة العلمانية، فتحييدها والتعامل معها أفضل من تجاهلها أو معاداتها كما تفعل النظم السياسية الحالية. فالغرب ليس له صديق أبدى إلا مصالحه. وقد تتغير المصالح من الحاكم إلى المحكوم، ومن الحكومة إلى المعارضة، ومن النظام السياسى إلى أوضاع الشعوب.

ويأتى الزوار الأجانب عن طريق سفاراتهم بالقاهرة. فالتنسيق بين العلماء والمفكرين والساسة مع وطنه ومن يمثله فى الخارج نظرا لأن النظام السياسى الذى يعيش فيه يمثله. أتى بانتخاب حر. فبينه و بين مؤسساته تعاون وتفاهم. وليس كالعالم الوطنى منا الذى كثيرا ما يزور الخارج ولا يتصل بسفارته ولا تتصل به سفارته لأنه بينه وبينها

عداوة أصيلة. فهو من المعارضة التى لا يعترف بها النظام السياسى، ولا يشعر بأن سفارته تمثله. ويعمل بالسفارات الأجنبية فى القاهرة موظفون مصريون ولاؤهم لمكان عملهم وليس لوطنهم مصر. فالرزق يفرض سلوكه. ويطلبون من علماء مصر تكييف أوقاتهم ومواعيدهم طبقا للوقت المحدود والمشاغل الكبرى التى لدى الزائر الأجنبى. وحمدا لله أن العالم المصرى قد وقع عليه الاختيار بأن يكون هو الند للزائر الأجنبى. فالأجنبى هو الأساس، والوطنى هو الفرع. الأجنبى صاحب الحق، والوطنى عليه الواجب.

ويفرح العالم الوطنى بانه فى النهاية سيكون رفيقا للزائر الأجنبى متحدثا بالإنجليزية مع الخواجة الأجنبى. وأحيانا تقترح موظفة السفارة الأجنبية إحضار مترجم مع الزائر لأن العالم الوطنى قد لا تصل قدراته إلى معرفة لغة الزائر الأجنبى. ومن الطبيعى ألا يعرف الزائر العربية. وماذا سيأخذ منها إن عرفها؟ وما هى العلوم والثقافة التى سينهل منها إذا تكلمها؟ لقد تربى لدى العالم الوطنى أحيانا عقدة نقص فى مواجهة الخواجة الأجنبى الذى تربى لديه عقدة عظمة. فيكون الحوار ليس حوارا بين ندين، بل يسأل الأجنبى، وعلى الوطنى أن يجيب. ويتهم الأجنبى، وعلى الوطنى أن يدافع. يسأل الأجنبى عن أسباب العنف وكراهية الآخر والعداء للغرب. كما يسأل عن الأوضاع الداخلية ومدى شعبية نظم الحكم. ولا يسأل الوطنى كى يجيب الأجنبى. لا يسأل عن العنف فى أيرلندا والباسك، والجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة، وصعود اليمين المحافظ فى أمريكا، واليمين النازى الجديد فى أوروبا. الأجنبى هو الذات والوطنى هو الموضوع. الأجنبى هو السائل والوطنى هو المسئول. الأجنبى هو السيد، والوطنى هو العبد. وكلنا فى خدمة السيد، حكام ومحكمين، سياسيين وعلماء.

والغريب أن العالم الوطنى يفيض بمعلوماته على الزائر الأجنبى. ويعطيه ما يعرف وما لا يعرف. ويبوح له بأخص خصائص الوطن وسراديبه الداخلية. فهو سعيد بما لديه من معلومات يجهلها الأجنبى. وقد يضر بالبلاد دون أن يقصد. وقد يمارس المعارضة السياسية فى غير محلها، فهى فى داخل الأوطان وليست فى خارجها، مع الوطنيين ومع الأجانب. فالأجنبى لا يريد بالبلاد خيرا حتى وإن بدا متعاطفا مع مطالب المعارضة ومتباعدا عن السلطة. وقد يكون أحد الأهداف اللاشعورية للعالم الوطنى هو أن ينال الحظوة لدى الأجنبى، وإشراكه فى مشروع بحث أو تكليفه بكتابة مقال أو دعوته إلى ندوة أو مؤتمر. وإذا ما كان على صلة بعلماء الخارج فإنه قد ينال حظوة فى الداخل فى معهده أو مركزه أو جامعته.

متى يعتز العالم الوطنى بنفسه، ويعرف قدره، وأنه يعيش لحظة تحول تاريخى، وأنه يتحول من التلميذ إلى المعلم، وأن الأجنبى يتحول من المعلم إلى التلميذ؟ متى يشعر الوطنى أن مفاتيح العالم بيده، وأن مسار التاريخ مرهون بموقفه وفكره وفعله؟ متى يفرض احترامه ومواعيده وهيبته على السفارات الأجنبية حتى تقدره، وتدرك وضعه فى وطنه وفى العالم، وأن الزائر الأجنبى هو الذى يحتاج العالم الوطنى؟

٢- كيف يفكر المثقف العربى فى الغرب؟

هو المثقف المتغرب الذى قضى عمره فى الغرب. ولا يحمل من العروبة إلا اسمه، ولا من الإسلام إلا رسمه. ارتبطت مصالحه بالغرب. وأصبح خطابه عن ثقافته العربية الإسلامية موجها إلى الغرب. يتبنى مواقفه وأهدافه. وهو نموذج يتكرر فى المؤتمرات الدولية التى يعقدها الغرب عن الإسلام والمسلمين. ويُدعى إليها بعض المتغربين من داخل الأوطان أو من خارجها. يتحدثون بلغة الاستشراق. يعطى الأنا العربى أقل مما يستحق، ويعطى الأنا الغربى أكثر مما يستحق.

يأخذ موقفا نقديا من الإسلام، ثقافة وحضارة ودنيا. فيقع فى صراع الحضارات. ويأخذ موقفا رافضا منه شعبا ومجتمعا وبشرا، فيقع فى العنصرية الأوروبية. ويتبنى المنظور الغربى، العلمانية، باعتبارها هى الحل فى مقابل "الإسلام هو الحل". والواقع أنه لا حلول جاهزة من الموروث أو من الوافد. بل هناك تشخيص لواقع وتحليل للحظة تاريخية. وقد تتعدد الحلول. فلا توجد قضية لها حل سحرى واحد. بل هناك حلول متعددة.

يأخذ المواقف الغربية، ويتبنى المنظور الغربى. فيعتبر الأصولية فاشية كما صرح بذلك الرئيس الأمريكى أخيرا معمما الحكم على الإسلام كله، بكل تياراته واتجاهاته ومدارسه ومذاهبه عبر أربعة عشر قرنا. والبديل عن هذا الداء هو دواء العلمانية الناجح. والدليل على ذلك تجربة الغرب. مع أن الغرب لم يتخل عن تراثه اليهودى المسيحى بل غيره وأعاد تشكيله على نحو عقلانى تجريبى بدلا من استنباطه من النصوص الدينية، وحتى يكون هناك مقياس للصدق خارج النص وعلوم التأويل. يتبنى جدول الأعمال الغربى ويدافع عن الأحكام الغربية، ويبعد عن نفسه شبهة أنه مفكر عربى أو إسلامى. ويضع نفسه فى مكان ليس فيه. يوحى بأنه مفكر غربى. فالغرب حضارة خارج الزمان والمكان. والمفكر الغربى نموذج للمفكر من حيث هو كذلك، المفكر العالمى وليس المحلى كما هو الحال عند المفكرين الوطنيين العرب والهنود والأفارقة. ومن لم يكن غربيا فإنه ليس مفكرا.

وعادة ما يخلق المفكر العربى المقيم فى الغرب أشباح من وهمه، لا وجود لها فى الواقع. وهى موضوعات أثيرة فى الغرب، أقرب إلى الأفكار النمطية الشائعة عن الإسلام والمسلمين مثل موضوع المرأة ووضعها غير المتكافئ مع الرجل فى الميراث والشهادة والقوامة والرئاسة وإمامة الصلاة وتعدد الزوجات، والطلاق، والحجاب والنقاب. فالمرأة عورة تحجب فى المنزل. وهى الجسد ولا شىء سواه. هى الأنثى، الزوجة والأم وليست العاملة ولا القاضية ولا المناضلة. ويكون

(*) الاتحاد: ١٨ نوفمبر ٢٠٠٦، الزمان: ١٥ نوفمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٦.

ذلك فى الوقت الذى يدعى فيه الغرب بأنه المدافع عن المرأة وقضاياها وأوضاعها، وحقها فى العرى والشذوذ الجنسى والإجهاض. فيبدو وضع المرأة فى الإسلام متخلفا قديما فى حاجة إلى تغيير جذرى.

ويُقرن بموضوع المرأة موضوع الجوارى والإماء وشراء النساء فى أسواق النخاسة مع أن الموضوع نفسه لم يعد له وجود على أرض الواقع، وبالتالى لم يعد موضوعا فقهيا أو ثقافيا. تجاوزه الواقع، وانقضى بفعل الزمن. ويُقرن به موضوع العبيد بالرغم من انتهاء الظاهرة، وقامت الحرب الأهلية الأمريكية فى القرن التاسع عشر لتحرير العبيد. صحيح أن هذه الموضوعات مازالت مدونة فى كتب الفقه القديم لأن الفقهاء الجدد لم يتجرءوا على حذفها لانقضاء الظاهرة. فالفقه بلغة المغاربة علم النوازل أى الوقائع وليس الافتراضات النظرية.

وكى يتقارب المفكر العربى فى الغرب للغربيين فإنه ينتقى من التراث القديم ما يوافق هواهم. ويضع جدول الأعمال الذى اختاروه من قبل والذى يسهل نقده وتشويه الإسلام من خلاله. فالأخبار السيئة هى الأخبار الصحيحة فى حين أن الأخبار السارة ليست أخباراً على الإطلاق. الأولى واقعية، والثانية مثالية. الأولى برهان، والثانية خطابة. الأولى علم ونقد وتحليل، والثانية دعاية ووعظ وتبشير.

ينقل المثقف العربى المتغرب العلم الغربى بحذافيره. فهو لم يتغير فى نمط تفكيره القديم. وهو مثل السلفى الذى ينقده، نقلا بنقل. فالسلفى ينقل عن القدماء، والمتغرب ينقل عن المحدثين. يستعمل منهج النقل فى كلتا الحالتين وليس منهج العقل أو التحليل الواقعى. ويعتمد على تمايز الحضارات وخصوصية الثقافات وعقليات الشعوب. فهناك العقلية الغربية المتميزة بقدرتها على التنظير والنقد والتحليل فى مقابل العقليات السحرية والبدائية والخرافية وهى كل العقليات اللاغربية بما فى ذلك العقلية العربية. ويكرر النظريات العنصرية الغربية، وربط الثقافة بالعِرْق وكما فعل فيليب بطاى فى "العقلية العربية". وهى النظريات التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر، عصر القوميات والصراعات بينها خاصة بين الفرنسية والألمانية.

وقد يتخفى المفكر العربى المتغرب وراء النظريات المجردة والكلام النظرى الخالص ليوحى للغربيين بأنه حامل علم من نفس بضاعتهم. ويوحى للعرب الحاضرين بأنهم مازالوا خطباء ووعاظ ومتدينين. وهو ما يتنافى مع العلم الرصين والبحث الدقيق. وقد تدرك الحقائق بأبسط السبل وأقصر الطرق. وقد يكون الهدف من التنظير المفتعل إخفاء الحقائق أكثر من كشفها، وادعاء العلم أكثر من إعطائه.

ويتبادل المفكرون العرب المتغربون مع المستشرقين الكرة فيما بينهم ويزيحون غيرهم من المفكرين العرب والمثقفين الوطنيين. فهم غير مؤهلين للدخول فى هذا النقاش النظرى الخالص. وتغلب عليهم الإنشائيات والماينبغيات. وقد يغرد المثقف المتغرب بمفرده ليوهم نفسه والآخرين بأنه عالم غير منقطع النظير، لا يشق له غبار. ولا يهم استماع الحاضرين إليه أو فهم شىء منه بل ما يهمه هو إثبات أنه عالم مغوار أمام نفسه، وأنه يتفوق على مواطنيه من

المثقفين الوطنيين. ولإثبات استقلاله عنهم فإنه قد يعطى إجابات مخالفة لإجاباتهم، ولكن الأسئلة واحدة. ونصف الإجابة فى طريقة وضع السؤال. ويتجاهل تساؤلات مواطنيه العرب الأصلاء لأنه لا يريد الذهاب إلى الأصول بدعوى الحداثة. ولا يريد أن يشك فى مسلماته التى نقلها من الغرب. وقد يعلى الصوت فى الإجابة غرورا أو يخفضه تواضعا. فالإجابة لديه نوع أدبى لإحداث أكبر أثر فى السامعين.

والحقيقة أن الدافع وراء كل ذلك ليس العلم أو المنهج أو الخلاف فى وجهات النظر أو فى النتائج بل إثبات الجدارة حتى يتجدد عقده فى جامعته أو تعرض عليه جامعة أخرى عقدا أفضل. وقد يكون الدافع هو القضاء على غربته وبعده عن وطنه بالارتماء فى أحضان الغرب لإيجاد الوطن البديل والحنان الضائع. والمغلوب كما قال ابن خلدون مولع بتقليد الغالب. وهو لا يعلم أنه مهما باع نفسه ووطنه وثقافته فإن الغرب لن يشتريه. فهو مازال أجنبيا مهما قلد وتبنى ودافع عن الغرب. فالغرب عنصرى فى جوهره. لا يقبل الدخلاء عليه مهما تغربوا. والثقافة الوطنية بعد أصيل فى المثقف العربى مهما تغيرت الظروف وزادت الضغوط. الروح روح، والبدن بدن. والأصل لا يكون فرعا، ولا الفرع أصلا. وربما فى نهاية العمر، يعود المثقف المتغرب إلى وطنه ليقضى الأجل هناك. فالتراب الوطنى مثواه إن لم تكن الثقافة الوطنية مبغاه.

٣- كيف يتحدث المثقف الغربى عن الإسلام؟(*)

كثرت المؤتمرات المحلية والدولية عن الإسلام والمسلمين منذ الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩. وتوالت بإيقاع أسرع منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وأصبحت المؤلفات عن الإسلام سريعة البيع والنفاذ فى طبعات متعددة. والكل يريد أن يعرف ما هذا الإسلام الذى يهدد أوروبا، هوية وشعبا وأرضا؟ وذاعت حوادث الحجاب بين التحريم والإباحة. وازداد التهكم على المقدسات الإسلامية فى الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية وفى الأفلام. وزاد المتخصصون فى الإسلام، وانتشروا فى كل مكان، أكاديميين وصحفيين وهواة. وزادت المكافآت فى أجهزة الإعلام. فالحديث الإعلامى عن الإسلام أربح من البحث العلمى الرصين، دقائق معدودات فى مقابل عشرات السنين من البحث العلمى الرصين.

فكيف يتحدث المثقف الغربى عن الإسلام فى المؤتمرات الدولية؟ الإسلام سلعة رائجة فى أجهزة الإعلام ولدى الجمهور. والمتحدث عنه نجم فى سماء الفكر. يعرف الحقيقة الخافية على الناس وعلى أصحاب القرار. لا يعرف العربية ويتحدث عن الإسلام وكأنه قرأ أصوله فى القرآن والسنة وتراثه فى شتى أنحاء العلوم الإسلامية. ويصدر الأحكام وهو غير عالم بمظانها. وهو غير متخصص. لم يدرس فى إحدى أقسام الدراسات الإسلامية فى الجامعات الأجنبية المحلية أو الإقليمية أو الدولية. هو صحفى، دبلوماسى، تاجر، رحالة، سائح، هاو، شرطى أو جندى، وزير أو مسئول، موظف أو ملحق دبلوماسى. وفى أحسن الأحوال جامعى درس التاريخ أو الاجتماع. عاش فى الوطن العربى، ملحقا بإحدى الشركات أو السفارات. وقد يكون طالب دراسات عليا يعد رسائله للماجستير أو الدكتوراه. فأينع قبل الأوان. له مؤلفاته عن الإسلام عن طريق السياحة الثقافية والمقابلات مع الكتاب والمفكرين بحجة المقابلة المعمقة والتجارب المعاشة. ويأخذ العلم شفاها من الأفواه بعد أن عجز عن الإطلاع على المصادر والمراجع، وقضاء الساعات الطوال فى المكتبات العامة للبحث والفحص والتحليل. فالصحيفة تريد منه مقالا فى أسبوع. يلتقط المعلومات من هنا وهناك، ويقتات على موائد الغير. وهو سريع الانتشار فى أجهزة الإعلام. وقته مملوء بالمقابلات والأحاديث والاستشارات. وهو خبير لدى الشركات الكبرى والبنوك التى لها فروع فى العالم الإسلامى ليحذرها حين الخطر وقبل فوات الأوان. كما أنه مستشار لدى الأحزاب السياسية أو البرلمانات ومجالس النواب والشيوخ أو حتى جماعات الضغط.

يطلق الأحكام المطلقة دون برهان هنا وهناك. هو كثير الدهشة، يفتح الأعين والأفواه. يهدد ويتوعد، وينذر ويحذر

(*) الاتحاد: ١١ نوفمبر ٢٠٠٦، الزمان: ١٥ نوفمبر ٢٠٠٦.

من خطورة الصحوة الإسلامية بعد أن أُخذ الغرب على غرة باندلاع الثورة الإسلامية فى إيران وهى واحة أمان بالنسبة للغرب، ووقوع حوادث الحادى عشر من سبتمبر فجأة حتى شلت قوى أكبر دولة فى العالم، ولم تستطع الدفاع عن نفسها، مع أنه يعترف أمام المشاهدين أو الحاضرين بأنه لم يدرس الموضوع، وبأنه يريد أن يسمع أولا قبل أن يدلى بدلوه حتى يقتات على فتات الآخرين، ويفكر على تفكيرهم كالنبات المتسلق. ويفعل ذلك من اجل تثقيف ذاته، وتنمية قدراته، وتدريب نفسه على الحوار مع المسلمين، والحديث عن الإسلام.

يقول الكل ولا شىء. وينسج خطابا يدور حول نفسه. لا يخرج إلى عالم، ولا يشير إلى شىء. ويسقط من عالمه ومن ثقافته على الإسلام الكثير بدعوى المقارنة ومعرفة الآخر عن طريق الإحالة إلى الذات. ويسقط كثيرا من تربيته وثقافته وأحكامه الشائعة وصوره النمطية على الإسلام. فيخرج إسلاما مشوها لا صلة له بالإسلام الفعلى، إسلاما من صنعه وتركيبه وخياله وليس من واقع المسلمين ولا أصول الإسلام، وكما بين باقتدار إدوارد سعيد فى كتابه الشهير "الاستشراق". يثير مسائل وهمية من ذهنه لا وجود لها فى أرض الواقع مثل الصلة بين الدين والسياسة، بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، بين الدين والدولة، بين الدين والعلمانية، بين الدين والتقدم. وهو لا يعلم أن ذلك من تاريخ المسيحية الغربية وليس من الإسلام فى شىء. فلا يوجد فى الإسلام فصل بين الدين والسياسة. ولا توجد سلطة دينية أساسا كالكنيسة بل السلطة مدنية مختارة من الناس عن طريق البيعة أى الانتخاب الطبيعى الحر. والشريعة تقوم على تحقيق المصالح العامة وهى الضروريات الخمس: الحياة، والعقل، والدين، والعرض، والمال. وهى أمور فيها الدين والعلمانية فى آن واحد. والناس أعلم بشئون دنياها. وخيرهم للناس أنفعهم للناس. والإسلام أتى لإعمار الأرض. وإذا أتى أحد ملك الموت وفى يده فسيلة فليغرسها حتى يترك الأرض خضراء وليست صفراء قاحلة. فالمسائل من داخل ذهن المستشرق المبتدئ، ومن تاريخ المسيحية فى الغرب، والإجابة عليها إسقاطا بعد أن يعرض الإسلام على مرآته وفى إطاره المرجعى. وهو غير قادر على الخروج من حضارته وبنية ثقافته ليضع نفسه فى منظور الآخر، ولفهم البدائل الحضارية المختلفة عن اختياره الحضارى. ومن ثم لا يقدر على فهم سؤال يوضع له لأنه لا يمتلك الموضوع الذى يجيب منه بل يقيس الإجابة على ما يعرفه من حضارته من قبل. والنموذج واحد وهو النموذج الغربى. ما اتفق معه كان صحيحا. وما خالفه كان خاطئا. وتتحول الإجابة إلى توزيع الاتهامات فى حالة المخالفة، والحكم بالتخلف والخلط على الحضارة الإسلامية مثل تخلف الحضارات الشرقية وخلطها بين الحياة الروحية والحياة المادية، بين الحياة الأبدية والحياة الزمنية، بين الآخرة والدنيا. فالمستشرق المبتدئ تعود على نموذج واحد هو "أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". وهو الشعار الذى تحول فى الممارسة إلى "أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لقيصر".

ويضع المثقف الغربى الإسلام كله فى سلة واحدة، لا تمييز فيه بين مدارسه المختلفة، بين عقلانية وإيمانية، بين نصية ومصلحية، بين برهانية وصوفية. كما يضع الغرب أيضا فى سلة واحدة لا تمايز فيه بين الاتجاهات والمدارس والمناهج المختلفة. فيقارن كلا بكل أو جزءا بكل أو كلا بجزء فيخطئ فى الأحكام. ويكون أشبه بالداعية والمبشر

والخطيب الذى يهمه إثارة انتباه المستمعين وجذب انتباه الحاضرين.

وهو سعيد بنفسه، مكتف بذاته، يحمل العلم كله، ويعرف الحقيقة بأكملها مثل الأصولى الإسلامى الذى يتحدث عنه ويحذر منه. يتقرب إليه صغار الباحثين العرب من المهاجرين الجدد. فهو صاحب حظوة فى مراكز الإعلام، وصاحب سلطة فى مراكز البحث العلمى. لعله يجد لهم عملا فى صحافته أو مراكز أبحاثه. ويستغلهم هو فى جمع المادة العلمية له. إذ يحسنون اللغة العربية أو الفارسية أو التركية، ويمدونه بمادتها، ويسهلون له جمعها حتى يقتطف هو ثمارها، ويتباهى بها فى المؤتمرات والمنتديات. وقد يستعملهم كمصادر لجمع المعلومات وإيصالها لمراكز اتخاذ القرارات فيما يسمى بالتجسس العلمى من خلال مراكز الأبحاث والعاملين بها من أصحاب البلاد ومن المهاجرين الأجانب. وهم لا يكتمون سرا. ويضرون وهم يحسبون أنهم ينفعون.

هذا هو العلم الزائف. وهذه هى الشهرة المزيفة لمن يتصدى للإسلام من المثقفين الغربيين، على الأقل بعضهم وليسوا جلهم، فى المؤتمرات الدولية. يزيدون الزيف على الزيف، ويؤكدون الأفكار النمطية، ويكررون الأحكام الخاطئة. فلا يتقدم علم، ولا تتحاور حضارات. وتضيع الإمكانيات، وينقضى العمر، ويأتى الأجل (**ولكل أجل كتاب**).

٤ـ العلم والسياسة

خطاب إلى باب الفاتيكان

أثارت الإشارات السلبية المتحيزة إلى الإسلام فى المحاضرة التى ألقاها بابا الفاتيكان بنيدكت السادس عشر فى جامعة ريجنزبرج حفيظة المسلمين عن حق فى مشارق الأرض ومغاربها. ولم تنفع محاولات التخفيف من آثارها بالطرق الدبلوماسية التقليدية وبالأعذار النمطية بأنها فهمت خارج سياقها، وأنها قد أسىء فهمها، فالعيب فى القارئ وليس فى الكتاب. ورفض البابا الاعتذار عما قاله وتأسف لرد الفعل السلبى عند المسلمين وكأن العيب فيهم وليس فيه. فزاد الطين بلة.

والحقيقة أن ما قاله البابا، وهو أستاذ جامعى سابق، يتنافى مع أبسط نتائج العلم والمعرفة بتاريخ الحضارات، وما استقرت عليه الأحكام. كما ينافى أبسط قواعد المنهج العلمى الذى يتباهى به الأوروبيون منذ ديكارت واضع المنهج العقلى، وبيكون واضع المنهج التجريبى وهو الحياد، وعدم البداية بأحكام مسبقة، والوضعية، وعدم اجتزاء الحقائق، والبحث العلمى المجرد أى النزاهة العلمية، وعدم استعمال العلم لتبرير مواقف سياسية مسبقة.

والخطأ فى هذه الإشارات فى المنهج والنتائج. إذ يقوم المنهج على الانتقاء الجزئى، وليس على الإحصاء الشامل لعلاقات الحضارة الإسلامية بالحضارة الأوروبية، وليس الإسلام بالمسيحية. فكلاهما حضارتان. فاختيار حوار دار بين البابا إمانويل الثانى مع مسلم فارسى مجهول فى القرن الرابع عشر الميلادى فى أتون الحروب الصليبية والعدوان على المسلمين أرضا وثروة وحضارة وعلما تشويه متعمد لصورتهم لتبرير العدوان عليهم كما يحدث الآن فى وصفهم بالإرهاب والعنف وامتلاك أسلحة الدمار الشامل لتبرير احتلال العراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. وهو تيار مستمر فى الحضارة الأوروبية. روّج له التبشير والاستشراق، وكما فعل الأب لامانز تبريرا للتبشير، نقل المسلمين إلى دين أفضل، ولتبرير الاستعمار، نقل المسلمين إلى حضارة أرقى.

ومنهج الانتقاء يقوم على اصطياد أسوأ ما فى حضارة ورد الكل إليها إذا كانت النية سيئة أو انتقاء أفضل ما فى حضارة ورد الكل إليها إذا كانت النية حسنة. وهو ما يوقع فى الجدل البغيض، وضياع العلم فى سوق السياسة. والمنهج الموضوعى الشامل محايد، يأخذ الكل ولا يرده إلى أحد أجزائه. فهناك الفيلسوف أبيلار فى القرن الثانى عشر تلميذ المسلمين الذى كتب "حوار بين يهودى ومسيحى وفيلسوف"، ويعنى بالفيلسوف المسلم الذى أصبح نموذج

(*) الاتحاد: ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٦.

الفلسفة أى إعمال العقل فى الإيمان. بل إنه بيّن تناقض أقوال البابوات فى كتابه "نعم ولا" كما يفعل علماء الحديث فى نقد الروايات وعلماء الأصول فى "التعارض والتراجيح". وهناك الجدليون أيضا فى القرن الحادى عشر الذين أثبتوا تحت تأثير المسلمين تناقض العقائد المسيحية وعدم اتفاقها مع العقل. وعند العالمين بالديانات المقارنة لا يوجد برهان عقلى فى المسيحية على التثليث، فالتجسد سر إلهى. كما لا يوجد برهان عقلى فى اليهودية على الاختيار والعهد وأرض الميعاد. فتلك إرادة الله. اختار الله بنى إسرائيل بمحض مشيئته، وليس بناء على إيمان به أو طاعة لأنبيائه أو ممارسة للفضيلة. الإسلام وحده الذى أقر اتفاق العقل والنقل، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. ودعوة القرآن صريحة للتعقل والتفكير والتدبر والمطالبة بالبرهان (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**). وكتب ابن سينا وابن طفيل قصة "حى بن يقظان" لبيان اتفاق العقل والوحى، الفيلسوف والنبى على نفس الحقائق: وجود الله، وخلق العالم، وخلود النفس.

وتتعدد لحظات التاريخ. فلماذا لم يذكر البابا الرشدية اللاتينية وأثر العقلانية عند ابن رشد فى نشأة العقلانية فى العصر الوسيط المتأخر عند سيجر البرابنتى وأنصاره من النصارى واليهود؟ لماذا لم يذكر حضارة المسلمين فى الأندلس، غرناطة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة، العصر الذهبى للفلسفة اليهودية. ومازالت تفخر به أوروبا عامة وأسبانيا خاصة؟ ولماذا لم يذكر ابن ميمون واسبينوزا والعقلانية اليهودية تحت أثر المسلمين؟ ولماذا لم يذكر العلم العربى الذى ترجم إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية، مناظر ابن الهيثم التى وراء العلم الجديد لجاليليو، وطبيعيات الكندى التى هى وراء الكيمياء الحديثة؟ وهناك مئات الدراسات العلمية على أثر الحضارة الإسلامية على النهضة الأوروبية الحديثة مثل "شمس الإسلام تشرق على الغرب" للمستشرقة الألمانية هونيكه، مواطنة البابا.

والعالم المتخصص باللاهوت المقارن لا يقول أن مشيئة الله فى الإسلام ليست مطلقة. فلا يوجد إله فى كل الأديان إلا إذا كانت صفاته مطلقة، ولكن رحمته تسبق عدله، ورحمته وسعت كل شىء فيغفر لمن يشاء. كما أن العالم بعلم الكلام الإسلامى يعلم أن المعتزلة قالوا بالواجبات العقلية مثل الخلق والتكليف. فالأخلاق قائمة كى تسير أمور الحياة. وقوانين الطبيعة مطردة حتى يعيش الإنسان فى عالم موثوق به.

أما ادعاء أن الإسلام انتشر بحد السيف فهو تكرار حكم شائع وصورة نمطية. القصد منها تشويه صورة الإسلام واتهامه بالعنف والإرهاب. لقد انتشر الإسلام فى مناطق سادها صراع مرير بين الفرس والروم. وأنهك الشعوب المستعمرة من الطرفين. فجاء الإسلام قوة جديدة لفض النزاع بين الإمبراطوريتين، وتحرير الشعوب المستعمرة، وإقامة السلام بين الشعوب. ولقد استدعى المقوقس حاكم مصر العرب لتخليصه من ظلم الرومان. وقد اعترف توماس أرنولد فى كتابه الشهير "الدعوة إلى الإسلام" أن الإسلام انتشر فى أفريقيا فى القرون المتأخرة وهو فى أضعف لحظاته. ويعلم المؤرخون أن الإسلام انتشر فى جنوب شرق آسيا فى ماليزيا والملايو والفلبين عن طريق التجارة والمصاهرة. فالإسلام لا يفرق بين الشعوب "كلكم لآدم، وآدم من تراب". ولا يعرف نقاء الجنس والعرق واللون الذى عرفته الحضارة الأوروبية

بشقيها اليهودى والمسيحى.

والجهاد فى الإسلام كما يعلم المختصون دفاع شرعى فقط وليس عدوانا على أحد. (**لا إكراه فى الدين**) المبدأ العام أى إقرار حرية العبادة لجميع الشعوب والعيش فى سلام بينها. أما آيات الجهاد فإنها الاستثناء فى حالة العدوان على المسلمين (**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق**)، (**وإن اعتدوا عليكم فاعتدوا عليهم بمثل ما اعتدى به عليكم**). وهى حالة فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. والإسلام ينتشر الآن فى أوروبا وأمريكا بمبادئه وأخلاقه وليس بسيوفه وجيوشه.

وكيف يُقال أن كل ما أتى به الإسلام شرير ولا إنسانى، والإسلام رسالة خلقية للعالم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؟ الدين معاملة، وعدم إيذاء الناس، وإماطة الأذى عن الطريق "والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه". لذلك أعجب المسلمون بأخلاق أفلاطون وأرسطو وسقراط وجالينوس وأبوقراط. وكتب مسكويه "تهذيب الأخلاق". ودونت عدة رسائل فى الشرق والغرب عن "الأخلاق فى القرآن". كما ظهر ذلك فى التصوف الخلقى وفى الأساس الأخلاقى العبادات والمعاملات. وقد انتشر الإسلام فى الغرب بسبب أخلاقه، قيمه وفضائله ومعايير سلوكه كرد فعل على حضارة الانحلال والموت الحديثة فى الغرب.

أما فيما يتعلق بموقف الإسلام من اليهود والنصارى وباقى الديانات فقد اعترف الإسلام بهم جميعا. وقد خلق الله البشر شعوبا وقبائل، ولكل منها جعل شرعة ومنهاجا للتعارف والإثراء المتبادل وليس للتحارب والتقاتل وعدوان بعضها على البعض الآخر. وقد أبدع الفقه القديم مصطلح "أهل الذمة" أى من يعيشون فى ذمة المسلمين وفى حمايتهم وليسوا مواطنين من الدرجة الثانية. كما أبدع الفقهاء المعاصرون فقه المواطنة، ومساواة جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات أمام القانون بصرف النظر عن دينهم وطائفتهم. الشعائر والطقوس (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**). وأن قانون الاستحقاق، الجزاء من جنس الأعمال، قانون عام للناس جميعا. والحاكم الكافر العادل خير عند الله من الحاكم المسلم الظالم.

أما أن الإسلام لم يأت بجديد فهذه عظمته وأنه إقرار بما دعا إليه الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى، وما دعت إليه الشرائع الثلاث، بل ما دعت إليه الفطرة البشرية التى أقرها الحكماء وشرعها حلف الفضول نصرة المظلوم وأخذ حقه من الظالم. شريعة موسى ومحبة عيسى كلاهما طريقان صحيحان يقرهما الإسلام. والإسلام هو الاختيار الحر بينهما (**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**). الإسلام تصديق لكل الأنبياء والرسل. ما ذكر منهم أو لم يذكروا (**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص**). والمسيح نفسه لم يأت بجديد "جئت لا لأنقض الناموس بل لأكمله"، إكمال الشريعة بالأخلاق.

إن الذى يريد الحوار بين الأديان لا يذكر ما يفرقها بل ما يوحدها مثل دعوة الأديان جميعا للمحبة والأخوة

والسلام. ولقد خصصت الكنيسة الكاثوليكية جزءا من مؤسساتها واهتماماتها لذلك. وإذا كانت أول آية فى انجيل يوحنا التى يذكرها البابا "فى البدء كانت الكلمة، وكانت الكلمة مع الله، وكان الله هو الكلمة" فإنها تشبه الحديث القدسى "أول ما خلق الله خلق العقل. فقال له أقبل فأقبل. أدبر فأدبر. وعزتى وجلالى ما خلقت إلىّ أعز منك". ووصف الإسلام السيد المسيح بأنه (**كلمة الله وروح منه**). ووصف مريم بأنها سيدة نساء العالمين (**يا مريم إنا فضلناك على نساء العالمين**).

يبدو أن البابا يدفع بالكنيسة الكاثوليكية التى تمثل غالبية المسيحيين إلى تيار محافظ، معادى للإسلام والمسلمين، أسوة بما يحدث فى الولايات المتحدة لدى المحافظين الجدد وامتدادا له. وقد ألقى البابا محاضرته فى ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦ وكانت حوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نفس الذكرى وبنفس النتائج. ويتفق ذلك مع صعود اليمين فى الغرب، فى أوروبا والولايات المتحدة بالرغم من نجاح يسار الوسط فى السياسة الإيطالية مما يدل على ان الكنيسة خارج العصر. والقصد اتخاذ الإسلام كعدو بديل عن الشيوعية. والعنف عام وشائع فى المسيحية فى الصراع بين البروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا الشمالية وقتل الأبرياء فى تفجيرات الجيش الجمهورى الأيرلندى، وموجود بين الكاثوليك والكاثوليك فى بلاد الباسك على الحدود بين فرنسا وأسبانيا. والمذابح بين البروتستانت والكاثوليك فى العصور الحديثة مثل مذبحة سانت بارتلمى أشهر من أن تذكر، والعنف بين الهندوس والتاميل فى سيريلانكا، والجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة الأمريكية أى العنف المدنى وليس الدينى، وعنف المافيا فى جنوب إيطاليا.

والقصد من ذلك كله فى النهاية إثارة الاتجاه المحافظ عند المسلمين ودفعهم إلى العنف لأنه يعلم مدى تمسكهم بتراثهم وثقافتهم. فيظهر المسلمون على أنهم يرفضون الآخر ويأسف لذلك وليس لنفسه. كما أن الغرض هو التغطية على قضاياهم السياسية واحتلال أوطانهم فى فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير وتصوير النزاع فى بلادهم على أنه نزاع دينى وليس صراعا سياسيا.

إن محاضرة البابا فى جامعة ريجنزبرج "الإيمان والعقل والجامعة، ذكريات وتأملات" لا تتحمل التعرض لهذه الإشارات إلى الإسلام. هى خارج على الموضوع فى أى حكم لجنة علمية عليها. وتنتهى إلى مواعظ تقليدية عن أهمية الإيمان ضد العقل الوضعى. وهو ما لا يستدعى الهجوم على إيمان الآخرين. هذا ليس سجالا دينيا بل هو نقد علمى من أستاذ جامعى إلى أستاذ آخر بصرف النظر عن المناصب فى المؤسسة الدينية.

٥- المؤتمرات الدولية، ما لها وما عليها

منذ الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ كثرت المؤتمرات حول الإسلام والمسلمين خاصة "الأصولية الإسلامية". وزاد إيقاعها بعد حادث المنصة فى أكتوبر ١٩٨٠، وظهور الحركات الإسلامية على الساحة فى معظم البلدان العربية والإسلامية ووصول البعض منها فى الحكم ودخولها فى معترك الحياة السياسية كأحزاب شرعية، بل ودخولها حربا مسلحة فى الجزائر. وأصبحت تهدد وحدة الأوطان بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى شمال البلاد المسلم وعلى جنوبها غير المسلم فى غالبيته عند المحافظين أو دونه عند الليبراليين.

واتسع النطاق بظهور المقاومة الإسلامية فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير، وازدياد الشارع الأسيوى اتجاها نحو الإسلام فى باكستان والجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا وفى ماليزيا وأندونيسيا. فالإسلام ثقافة الجماهير، وتاريخ البلاد الوطنى.

ثم وصل الأمر إلى حد مبالغ فيه بعد حوادث سبتمبر ٢٠٠١ فى واشنطن ونيويورك وأصبح تنظيم القاعدة هو مصدر الرعب الأول. وكثرت المؤتمرات عن الأرهاب والعنف والقوة من ناحية أو الدين والسلام والحوار والتعايش بين الأديان من ناحية أخرى. ودخل حلف شمال الأطلنطى فى الميدان بقوة بعد أن لم يعد له مهمة عسكرية لزوال خطر التهديد الروسى وانتهاء حلف وارسو، وأصبحت مهمة ثقافية أى دراسة أيديولوجيا الثورة والتنظيمات الإسلامية كنوع من العمل الوقائى حتى لا يتكرر نموذج الثورة الإسلامية فى إيران، ولا تتكرر حوادث واشنطن ونيويورك خاصة بعد حوادث مدريد وتفجير القطار فى ٢٠٠٤. وزادت معدلات الهجرات من البلدان العربية والدول الإسلامية إلى أوروبا وأصبح الدين الإسلامى الدين الثانى فى أوروبا، أربعة عشر مليونا من المسلمين. فظهرت عادات وسلوكيات جديدة فى أوروبا دفعت الهيئات والمنظمات ومراكز الأبحاث إلى تناول موضوعات الإسلام والغرب، الإسلام وأوروبا. بالإضافة إلى ما يروجه دعاة صراع الحضارات، وأنصار المحافظة الجديدة واليمين الصاعد إلى اعتبار الإسلام خطرا على الغرب وليس إضافة حضارية كما كان فى بداية العصور الحديثة.

وأُدعى إلى كثير من هذه المؤتمرات وما أكثرها. وأكون فى حيرة بين الرفض والقبول. الرفض يعنى الانعزال وضياع فرصة التعرف على ما يحدث فى العالم الخارجى، والدفاع عن الحق العربى، والمساهمة فى التخفيف من حدة الاتهامات الموجهة إلى الثقافة العربية وتكرار الصور النمطية، وربط العرب والمسلمين بالعنف والإرهاب والتخلف دون

(*) الاتحاد: ١٨ يونيو ٢٠٠٥، الدستور: يونيو ٢٠٠٥.

معرفة جذور الإرهاب فى الداخل وفى الخارج، فى النظم السياسية التى تقوم على القهر والتسلط، ونظام العالم الذى يقوم على القطب الواحد والعدوان على الشعوب المستقلة. والقبول يعنى الإرهاق المستمر، والسفر أسبوعيا، وتعطيل أبحاثى العلمية والتزاماتى الوطنية داخل البلاد. وأحسن الاختيار بالقبول بعد أن أرى نفسى العربى الوحيد، وأتصور نفسى غائبا، ومدى الخسارة من غياب العرب. وهذا ما حدث فى البيان الختامى عندما أصررت على حذف الفقرة الخاصة بإدانة الحرب العادلة والمقصود بها الجهاد لأن الدفاع عن النفس حق مشروع طبقا لمواثيق الأمم المتحدة وأيدنى سفير تركيا فى موسكو فى حق الشعب المحتل فى الدفاع عن نفسه ضد العدوان.

وليست أهمية هذه الندوات والمؤتمرات الدولية فقط كثرتها بل تمويلها وأهدافها. وغالبا ما يكون التمويل أمريكيا مباشرا أو غير مباشر. والغالب أن تكون أهدافها جمع المعلومات عن الموضوع، والتأثير فى الرأى العام عن طريق الحضور الطاغى لأجهزة الإعلام، واختبار صحة النظريات عن طريق سماع آراء الناس فيها وأخذ الآراء المعارضة بعين الاعتبار.

وقد عقد فى الأسبوع الماضى فى موسكو ندوة دولية بعنوان "الدين والسلام، من الإرهاب إلى الأخلاق الشاملة" وكانت الدعوة موجهة من معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم فى موسكو. وهو معهد عريق تخرج منه عديد من الأساتذة العرب. وعلماؤه مستشرقون جدد متعاطفون مع القضايا العربية.

ووافقت على المشاركة بورقة عن "جدل العنف واللاعنف" للبحث عن جذور العنف وتوضيح الفرق بين العنف المرئى والعنف اللامرئى، عنف الفرد وعنف الدولة. العنف كفعل والعنف كرد فعل، العنف القاهر والعنف المحرر إلى آخر هذه الفروق الموجودة فى الأدبيات الشائعة فى أمريكا اللاتينية.

الغطاء روسى، والتمويل أمريكى، والتنظيم تركى من إحدى الجماعات الموالية للولايات المتحدة الأمريكية. تجمع الكل مصالح واحدة وخطر واحد هو الإرهاب، فى الولايات المتحدة ضد تنظيم القاعدة القائم فى آسيا، وفى روسيا فى المقاومة الشيشانية، وفى تركيا وما يحدث فيها أحيانا من عنف وانفجارات بين الحين والآخر فى بعض البنوك والرموز الغربية. وروسيا فى حاجة إلى استضافة مثل هذه الندوات لزيادة العائدات السياحية. وتركيا تلعب على الجميع، على الغرب لقبولها عضوا فى الاتحاد الأوروبى، وعلى أمريكا باعتبارها شريكا فى مقاومة الإرهاب، وعلى روسيا باعتبار أثرها على آسيا الإسلامية وشعوبها من أصل تركى. وأكبر وفد من أندونيسيا لتفجيرات بالى، والجماعات الإسلامية المنتشرة هناك، ووفود كثيرة من أواسط آسيا. وكان هناك ممثلون من قازخستان التى تبنى بها أكبر قاعدة أمريكية وسط الاتحاد السوفيتى السابق وبالقرب من الصين. إنها ندوة عن الإسلام الأسيوى.

غلب على الندوة الإعلام خاصة فى الجلسة الافتتاحية وكلمات الوفود الرسمية وكلها حديث عن الأخوة والمحبة والتعاون والخطب الإنشائية التى لا تفيد. وألقيت كلمة من وزير عربى للأوقاف عن طريق نائبه أشبه بخطبة مسجد

تعتمد على الحجج النقلية عن المحبة والإخاء. والحضور لا يفهم شيئا وكأن المستمع ليس طرفا فى الخطاب. وحضرت الجوانب الاحتفالية مثل الغناء والابتهالات لموسى وعيسى ومحمد، وزرع شجرة وريها بالماء من الوفود فى وعاء من زجاج وطين.

والأهم من ذلك كله هو روسيا التى لم تتغير. لقد انهار النظام الشمولى فى الواقع ولكنه بقى فى الذهن كرؤية للعالم. لم تتحول روسيا من دولة شمولية إلى دولة ليبرالية. وتحول الخطر الخارجى، النظام الرأسمالى وحلف وارسو إلى خطر داخلى من الجماعات الإسلامية بسبب المقاومة الشيشانية. فبالرغم من إصدار تأشيرة الدخول من وزارة الخارجية ووزارة العدل قبل إصدارها فى القاهرة إلا أن كل العرب والمسلمين بما فيهم المصريين حجزوا ساعة فى المطار قبل الدخول للتأكد من صحة التأشيرة وعدم تزويرها. ولا تعرف الشرطيات فى المطار أى لغة أجنبية للتفاهم معهن.

ونظرا للفقر العام، تنافس العربات الخاصة عربات الأجرة فى نقل السياح الأجانب إلى الفنادق بخمسين دولارا للرحلة، وهى لا تتجاوز الخمسة دولارات، ومرتب الموظف مثل ذلك شهريا. ورسوم المناطق السياحية مضاعفة للأجانب. والكل يخضع للنظام دون مبادرات فردية أو حسن تصرف أو إعمال للعقل دون انتظار للأوامر. والفرد لا وجود له إنما هو جزء من نظام أشمل. وفى الحفلات الرسمية، تعزف الفرقة الموسيقية الصغيرة، فرقة الغرفة المكونة من السيدات أنغام الموسيقى الكلاسيكية الخفيفة، من بقايا روسيا القديمة.

لقد تعاقب على روسيا نظامان قيصريان. الأول القيصرية الكبرى التى انتهت بانتصار الثورة الاشتراكية الكبرى عام ١٩١٧. ويمثلها بطرس الأكبر وإيفان الرهيب. والثانية القيصرية البديلة بعد ثورة ١٩١٧ والتى مثلها النظام الشمولى باسم الماركسية اللينينية الداروينية والتى انتهت بنهاية النظام الماركسى باسم "البريسترويكا" و"الجلاسنوت" بداية بأوروبا الشرقية واندفاعا شرقا حتى موسكو فى ١٩٩١. وفى كلا النظامين يغيب الفرد لصالح الدولة، ويتوارى الفكر الحر لصالح النظام، وتمحى المبادرة الفردية لصالح القدر المسبق. وكل ما فى موسكو من قصور وكنائس ومبانى وميادين وشوارع وعمران كلها من عصر القيصرين القديم والجديد. وكل ما فى أذهان الناس وما يتصل بالقوت اليومى من تراكم العهدين السابقين. وقد يكون البديل الثالث هو تحريك الأذهان وتحريك منظمات المجتمع المدنى حتى تنعم روسيا بفترة ليبرالية تمثل قيمها مثل الفردية والحرية والعقلانية. ثم تنتقل هذه القيم من الأفراد إلى الجماعات، وتعترف روسيا بحريات الشعوب المنضوية تحت سلطتها فى عهد القيصرين السابقين حتى تأمن من الخوف. حينئذ تلحق بالغرب إبداعا لا تقليدا، ومن موقف الندية وليس من موقف الدونية. وفى التيارات الروحية والوطنية فى الثقافة الروسية ما يساعدها على بلورة رؤية جديدة تحافظ من خلالها على أصالتها، وتحرص على إبداعها، وتأمن على نفسها من غوائل الزمان.

٦- النزعة الإنسانية

يفرز الغرب بين الحين والآخر مقولة يشغل بها الناس، وتكون مركز النقاش العالمى فى مراكز الأبحاث والجامعات و فى الإعلام والرأى العام مثل "العولمة"، "صدام الحضارات"، "نهاية التاريخ" لتعبر بها عن الحالة الراهنة للهيمنة الغربية. كما تصدّر مقولات أخرى كى تنشغل بها ثقافة العالم الثالث ومنها الثقافة العربية مثل "المجتمع المدنى"، "حقوق الإنسان"، "حقوق المرأة"، "الديموقراطية"، "الشرق الأوسط الكبير أو الجديد"،"الإدارة العليا" ... الخ. قد تنجح بعضها فى القيام بالدور مثل "المجتمع "المدنى". وقد لا ينجح البعض الآخر مثل "العولمة" نظرا لأنها أحد أشكال الهيمنة السياسية والثقافية والسيطرة الاقتصادية، وقيام المظاهرات الشعبية فى كافة أرجاء العالم ضدها.

وبدأت مقولات أخرى فى الظهور، لم تستهلك بعد. وتبدو جديدة. تعبر عن مطلب مستمر فى الضمير البشرى، وحاجة دائمة فى الوعى الإنسانى مثل "النزعة الإنسانية" أو "الدراسات الإنسانية". وهى على النقيض من المقولات العدوانية المادية الاستهلاكية السوقية السابقة. إذ تتوجه مراكز الأبحاث الآن لدراسة مثل هذا المفهوم وإعادة قراءة تاريخ الثقافة الغربية من خلاله. إذ ينعى الغرب حظه من تدهور هذه النزعة الإنسانية التى كانت سائدة خاصة فى القرن الثامن عشر. وهى ليست بعيدة عن مفهوم "حقوق الإنسان". مثال ذلك ما كتبه جابريل مارسل "اللاإنسانى ضد الإنسانى"، وأورتيجا اى جاسيه "القضاء على النزعة الإنسانية فى الفن"، وهيدجر فى "رسالة فى الإنسان"، ونيتشه فى "هذا هو الإنسان"، وجان بول سارتر فى محاضرته الشهيرة فى جنيف التى دشن بها فلسفة الوجودية "الوجودية نزعة إنسانية".

والهدف من ذلك ليس إحياء النزعة الإنسانية داخل الغرب المعاصر بل دفع الثقافات اللاغربية نحو هذا المفهوم الذى يعبر عما تحتاجه شعوب العالم الثالث من تحول من التمركز حول الله أو الفرد المطلق أو الكون إلى التمركز حول الفرد والإنسان. الهدف هو التوجه نحو شعوب الصين والهند وإندونيسيا وإيران وأواسط آسيا للتعبير عن حاجتها إلى الفردية وتأكيد الذات، الإنسان أو المواطن، وليس الحاكم أو السلطان. وهم عمالقة المستقبل من حيث عدد السكان والإنتاج الزراعى والصناعى والتقدم العلمى حتى يظل ذلك فى يد الغرب وحده، قاصرا على مجموعة الثمانية. ويتم التخطيط لذلك من الآن، خاصة وأن هذه الشعوب تعانى أيضا من ضعف النزعة الإنسانية. فالصين مشغولة بالمجموع وليس بالفرد. والهند مشغولة بالقوة والمنافسة وليس بالفقر والفقراء أو طائفة المنبوذين.

(*) الاتحاد: ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦، الزمان: ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٦، ٢ يناير ٢٠٠٧، الدستور: ٧ يناير ٢٠٠٧.

كما تعبر النزعة الإنسانية عن الحنين إلى الماضى عند اليونان وفى القرن الثامن عشر، عصر حقوق الإنسان والمواطن إبان الثورة الفرنسية بعد أن انتهكت حقوقه داخل الغرب ذاته بصعود النزعات الطائفية والعرقية واليمين المحافظ، وسيادة السوق. والاسترقاق الجديد للشعوب. كما تعبر عن رغبة كامنة لدى شعوب العالم الثالث التى لم تخرج بعد إلى مرحلة الحداثة. ومازال الإنسان مطويا فى الله أو فى السلطان أو فى الأب أو الأخ أى "سى السيد" أو فى المجتمع والتقاليد والموروث الثقافى بوجه عام. "النزعة الإنسانية" كلمة حق يراد بها باطل، حق لأنها تعبر عن حاجة فعلية لدى الشعوب، وباطل لأن المقصود منها إبعاد الشعوب خارج المركز عن مصالحهم الاقتصادية وسيطرة العولمة عليها، واحتكار الغرب لها.

وقد رُصدت ميزانيات ضخمة فى الجامعات ومراكز الأبحاث لهذا الموضوع "النزعة الإنسانية" التى هى الشق البرىء للعولمة. فكلاهما عالميتان شموليتان، يسقطان الحدود بين الملل والنحل والأعراق والثقافات والدول الوطنية لصالح المشترك بينها وهى النزعة الإنسانية التى لم تمنع من وقوع حروب أو احتلال أوطان أو اختراق حقوق أفراد وجماعات.

وتعقد الندوات فى المركز كإعلان ومؤشر. يحضر فيها المتخصصون من داخل الغرب وخارجه لتكوين الكتائب الإنسانية، والفرق الجديدة. ثم تعقد بعد ذلك فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكأنها ندوات محلية بدوافع وطنية مع جامعات أو مؤسسات مشاركة. وبدلا من الاستعمار والتبشير تبدأ المؤتمرات والندوات وحلقات البحث والحملات الإعلامية فى موضوع النزعة الإنسانية.

ويشارك فيها غير الأوروبيين الذين يودون أخذ الأوروبيين وسيلة للانتقال إلى أوروبا، وجسرا يعبرون به من الجنوب إلى الشمال. يأخذون موقفا "عوليا" خارج الأوطان. ويأتى بعض المفكرين من جنوب أفريقيا الذين ساهموا فى حركات التحرر فيما سبق والآن يريدون إقامة جسر التعاون بين المواطن الجديد والمستعمِر القديم. ويتسابقون فى التقرب إلى الغرب على حساب بعضهم البعض حتى ولو كانوا رفاق نضال من قبل. وحدتهم الدماء أثناء النضال الوطنى. وفرقتهم الأقلام فى عصر بناء الدولة ثم تعثرها. ويخرج رجال من "الأقليات" من دارفور وكردفان أو جنوب السودان أو من الأمازيغ فى المغرب العربى من أجل إيصال صوتهم للأوروبيين المتعاطفين معهم أصلا، ليس بدافع حقوق الأقليات، بل من أجل تفتيت الأوطان. ويقوم الغرب، من خلال هذه المؤتمرات والندوات بتدريب طلاب الدراسات العليا فى البلدان خارج العرب لخلق جيل جديد مؤهل لقيادة الأوطان فى الداخل تجاه سياسات موالية للغرب. فتعليمه وثقافته ومزاجه ومصلحته فى الخارج وليس فى الداخل. يحقّبون التاريخ مثل الغرب. ويقسمونه إلى قديم ووسيط وحديث. وتوضع الثقافة الإسلامية فى الوسيط أى فى العصور الوسطى الأوروبية. ويصدرون عليه أحكاما بالعنف والإرهاب والأصولية مثل الغرب. ويؤرخون لمسار العالم ابتداء من الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والكوارث عديدة، قتل مليون من البشر فى رواندا، ومئات الألوف فى العراق بعد احتلاله. ولا يذكرون سبتمبر قبله بعام عندما

اندلعت المقاومة الفلسطينية ولا يكاد يذكرها أحد.

ويحضر هذه الندوات والمؤتمرات "كادر" عال من الموظفين العموميين أو القسيسين والرهبان لأنهم يوحون بالثقة. فهم أهل الله، وأصحاب الإيمان. وتشارك الجامعات الأوروبية فى بودابست وفلورنسا فى هذه البحوث والدعوات. فهى جامعات أوروبية أى دولية. يأتى إليها الطلاب من العالم الثالث للتمرين على البحث والتأهيل على العلم، ونقل العلم والتكنولوجيا ممن يملكون إلى من لا يملكون. وتقوم ألمانيا بهذا الدور. فهى مركز النقل فى أوروبا وحلقة الاتصال بين شماله وجنوبه. ولم تكن التجربة ناجحة. ولم تمنع من اندلاع الحروب، ووقوع الانقسامات على مدى تاريخ النزعة الإنسانية فى مسار الوعى الأوروبى.

لا أحد ينكر قيمة الإنسان، ولكن هل يتم ذلك بالقول أم بالفعل، بالبحث أم بالعمل، بالندوات فى قاعات الفنادق الكبرى أم فى الحقول والمزارع بين الفلاحين، أو فى المصانع بين العمال؟ وماذا عن الخسائر، التصحر فى جنوب أفريقيا، وانتشار الأمراض مثل "الإيدز"، والجوع والقحط والجفاف والفقر والضنك نظرا لسوء عدالة التوزيع؟ وتلك مسئولية وزارة الزراعة وليس قوات الأمن ورجال الشرطة.

يفرز الغرب المقولات، والعرب يتلقفونها. يكتب الغرب النصوص، والعرب يشرحونها. و"النزعة الإنسانية" مجرد نموذج لما حدث فى مؤتمر حولها فى "إيسن" فى ألمانيا منذ شهور، وتُعد الدورة الثانية فى أفريقيا، وربما فى مصر، فى حضن الأزهر الشريف.

٧- المؤتمرات التجاريـــة

تعرف الأوساط العلمية، الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث، المؤتمرات العلمية لمناقشة الموضوعات العلمية أو القضايا السياسية أو حال العالم المضطرب للمساهمة فى تقدم العلم أو التحكم فى الظواهر الاجتماعية، وتوجيه مسار التاريخ. وتكون فرصة للتعارف بين العلماء من مختلف الاتجاهات، وربما أيضا تبادل الوظائف والمناصب الجامعية، وإيجاد فرص جديدة للعمل والرقى المهنى. فالعلم وظيفة. والعالم موظف عام فى جامعة أو معهد أو مركز للأبحاث. "إن الله لا ينزع العلم انتزاعا ولكن ينزعه بقبض العلماء".

ولما سادت العولمة كل شىء، وتحويل الحياة إلى سوق، والعلم إلى تجارة، نشطت المؤتمرات السياحية أخيرا. والغاية منها تعريف الناس بعضهم ببعض، واللقاء الإنسانى فى مجتمعات غلبت عليها الفردية والانعزال. غاب الترابط الاجتماعى أو الأخوة الإنسانية أو الحياة المشتركة فى عصر العولمة وشبكات المعلومات وتحويل الحاسب الآلى إلى الرفيق الأوحد للإنسان يجعل العالم كله بين يديه، الواقع والممكن. كما نظمت المؤتمرات الطبية ليس لمناقشة موضوعات الطب بل للاستشفاء البدنى والنفسى وملء الفراغ الروحى فى المجتمعات الأوروبية والذى تحاوله "الكوميونات" أى جماعات العيش المشتركة الدينية أو الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية والفنية، وكما بدأت جماعات السان سيمونيين فى فرنسا ومصر فى القرن التاسع عشر. وهى الجماعات السائدة بين الطلاب والعمال والمثقفين بما فى ذلك جماعات الجنس. وهناك مؤتمرات لتسويق الوظائف وتبادل المناصب بدعوى دراسة العمالة، وتقسيم العمل، والهجرة، والشباب، والبطالة، والحراك الاجتماعى. وهناك مؤتمرات للترفيه والتعارف الاجتماعى وإيجاد فرص للحياة خارج المجال الوظيفى، والعودة إلى إنسانية الإنسان، وليس الإنسان المنتج المطحون بالآلة وأدوات الإنتاج فى المجتمع الرأسمالى. فيعود الناس إلى الحياة البدائية، ويعيشون وجها لوجه، بدلا من الحياة الحديثة التى أدار فيها كل إنسان ظهره للآخر، ووجهه للحاسب الآلى.

ومن هذه المؤتمرات الجديدة ما تم فى تونس فى يوليو الماضى من جماعة مجهولة تحت عنوان "التأويل والعلوم الإنسانية" وهو موضوع علمى دقيق، له أهله من المتخصصين. ووضع برنامج تفصيلى من مئات الأوراق على مدى ثلاثة أيام فى جلسات موازية، وموجود فى موقع على شبكة المعلومات. أسماء مشهورة، وأوراق ذات عناوين براقة، مهرجان للتأويل. ووضع اسمى كمتحدث رسمى فى جلسة اليوم التالى. ومع الجلسات الافتتاحية هناك ورش عمل تفصيلية

(*) الاتحاد: ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٦، الزمان: ٢١ نوفمبر ٢٠٠٦، الدستور: ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٦.

لنقاشات حول موائد مستديرة لتعميق موضوعات الجلسات العامة. وهو على الورق تنظيم جيد، وبصيرة علمية نافذة. والمكان، فندق أبى نواس للإقامة. ومكان الاجتماع معهد العلوم والتكنولوجيا التابع لجامعة تونس. والافتتاح بحضور وزير التعليم العالى ووزير الثقافة. وبعد إيقافى فى مطار قرطاج الدولى عشر ساعات بالرغم من حصولى على تأشيرة دخول، فقد كان اليوم الأحد، عطلة رسمية، ولا يوجد مسئول كبير، سمح لى أخيرا بالدخول بأمر من الرئيس لمكانتى العلمية وأستاذيتى المشهود لها بالرغم من أثرى على الحركة الإسلامية فى تونس.

وامتلأ المؤتمر بالعموميات وإطلاق الأحكام والتطرق إلى العلوم الإنسانية بوجه عام. فالإنسانيات هى كلمة السر فى المؤتمرات الدولية الآن للتغطية على العولمة بعد أن خلقت تيارا معاديا لها، ترث كلمة الإدارة العليا التى تمهد للعولمة، الإدارة كبديل عن الدولة الوطنية. فالدول كالشركات، تدار بموظفين دوليين من الأمم المتحدة أو البنك الدولى أو صندوق النقد.

ويحضر مثل هذه المؤتمرات المئات من الجامعيين والباحثين لأنها جزء من النشاط العلمى الذى يدخل فى خبرة الأساتذة، وأحد مسوغات ترقياتهم. فالخبرة أهم من الشهادة. والاشتراك فى المؤتمرات العلمية عرض للعلم على المستوى الدولى. ولا يقل أهمية عن الجلوس بالساعات الطويلة فى المكتبات وأمام الحاسبات الآلية. تمولها الجامعة كلها أو على الأقل نسبة كبيرة منها. فالنشاط العلمى لا يقل أهمية عن البحث العلمى والتبادل العلمى. والعمل العلمى المشترك خير من العمل العلمى المنفرد. لذلك كانت البحوث المشتركة أهم من البحوث الفردية. فالعلم نشاط جماعى وليس فقط إبداعا فرديا. ويحضر مثل هذه المؤتمرات الأمريكيون والاستراليون أكثر من الأوروبيين. ونادرا ما يحضر الأفارقة والأسيويون، أمريكا من أجل السيطرة على العالم وتجنيد العلماء للعمل لحسابها، واستراليا لبعدها القارى فى جنوب شرق آسيا، ولتبعيتها لأمريكا أكثر من انجلترا التى هى الأخرى تابعة لأمريكا لإخراج الاستراليين من عزلتهم الجغرافية بعيدا عن جنوب شرق آسيا.

ويتم دعوة مشاهير المفكرين والعلماء من أجل إلقاء الكلمات الافتتاحية فى الجلسات العلنية المشتركة وكأنهم نجوم الغناء والفن. يريد المشاركون رؤيتهم والاستماع إليهم وإن أمكن حوارهم ووضع ذلك فى السيرة الذاتية لزيادة حجمها ووزنها وأهميتها وأثرها على أماكن طلب الوظائف. ولا ضير من إقامة الموائد الفاخرة فى أمسيات العشاء فى الضواحى السياحية العامرة وعلى شواطئ البحر مثل سى بوسعيد. فالسياحة فى تونس الدخل الرئيسى، ليس فقط لزيارة الآثار فى قرطاج والقيروان وسوسه بل للتمتع بدفئها ومياهها وجمالها المعمارى وتراثها العربى فى الغناء والصناعات التقليدية والأطعمة الشرقية.

والبرنامج ضخم لتسويق المؤتمر والدعوة إليه. يتناول كل الموضوعات. والحديث فى أى موضوع دون تحديد مسبق، سوق عكاظ ولا يتعرض للقضايا الكبرى التى مازال يعيشها ثلاثة أرباع سكان العالم فى أفريقيا وآسيا

وأمريكا اللاتينية مثل استكمال التحرر الوطنى، ومقاومة أشكال الهيمنة الجديدة مثل العولمة، وقضايا العدالة الاجتماعية، والوحدة والتجزئة، والتنمية المستدامة، والهوية ضد التغريب. فقد انتهى عصر الروايات الكبرى ولم تبق إلا النتف الصغيرة المتشظاه باسم ما بعد الحداثة والتفكيك.

وتقوم عائلة بتنظيم المؤتمر وكأنه تنظيم عائلى شخصى لتقليل المصروفات. فالخصخصة لا حدود لها. والرأسمالية تقوم على العائلات الكبرى. والغاية ليست فقط ما يُعلن منها من موضوعات علمية ولقاءات إنسانية بل الاستثمار، ووضع رأسمال فى عمل من أجل استثماره. فالاستثمار فى كل مجال حتى فى المؤتمرات العلمية والشركات المنظمة له. كل عمل تجارة. وكل تجارة ربح وتجنب الخسارة. وتدار الأموال السائلة بلا إيصالات أو تحويلات رسمية. فالعملية فى بيتها. ويبدو القلق فى تصرفات إدارة المؤتمر للتفاوت بين الظاهر والباطن، بين ما يُعلن عنه على الملأ وما يخفى فى الصدور.

المهم وجود المنظم المشارك فى الوطن العربى، المغفل الشريك الذى يود أن يرتبط اسمه أيضا بالمؤتمرات الدولية للخروج من عزلته، وتحويل عقدة النقص إلى عقد عظمة، والخروج من المحلية إلى الدولية، ومن العزلة إلى المشاركة. هدف مثل هذه المؤتمرات إبعاد المؤسسات العلمية والتعليمية العربية عن الروايات الكبرى وأحلام الخمسينيات والستينيات فى العالم الثالث لإعادة تشكيل العالم من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة ما بعد الاستعمار. وتحويل الوعى القومى فى العالم الثالث إلى صغريات الأمور والروايات الصغرى لما بعد الحداثة والتفكيك والتشظى والتفتيت والبؤر الصغيرة. ولهذا التيار أبطاله من مفكرى كل عصر، توم وبيل وبول، المروجون لروح العصر مثل فقهاء السلطان عندنا. هم موظفو نظم العالم المتجددة باستمرار، هانتنجتون لصراع الحضارات، وفوكوياما لنهاية التاريخ، والمحافظون الجدد للهيمنة على العالم. هم أنبياء كل عصر، يعبرون عن روحه ويدعون له. ويصاب المثقف الوطنى بالغثيان لأنه حتى فى الغرب هناك مثقفو السلطان. وقد يفرح بينه وبين نفسه لأنه فى الوطن العربى خاصة والعالم الثالث عامة مازال المثقف الوطنى واعيا لتحولات العالم ومسار الحضارات. (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

الفصل الثالــث

الإســـلام فى الغـــرب

١- رأس السنة الجديدة، أين ولمن؟

٢- من ريح الغرب إلى ريح الشرق.

٣- الحديد والنار.

٤- من فجر قطارات لندن؟

٥- أبانا الذى فى واشنطن.

٦- النوايا والأفعال.

٧- الإرهاب ... الإرهاب ... الإرهاب.

١- رأس السنة الجديدة، أين ولمن؟

الوقت ليس متأخرا أن يتذكر الإنسان ما حدث فى رأس السنة. إذ يحتار الإنسان منا أى رأس سنة جديدة يحتفل؟ فالزمان له دورته اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية. بل له دورته أيضا كل سنوات خمس فى الخطط الخمسية أو عشر، وهو العقد من الزمان أو ربع القرن أو نصفه أو كله. فإذا طال الزمن تحول إلى حقبة تاريخية تقصر أو تطول لتصبح عصرا.

وكل عام يحتفل البعض فى صمت، مصريين وأجانب بعيد ميلاد السيد المسيح فى ٢٤ ديسمبر من كل عام. ولا يشعر به أحد إلا القلة. الشوارع مضاءة، والإعلام مرفوعة، والمحلات عامرة، استعدادا لأسبوع وراءه، رأس السنة الميلادية. مع أن السيد المسيح هو الذى أحيا اليهودية، وحولها من شريعة الجوارح إلى شريعة القلب، ومن الطقوس والشعائر الصورية الخارجية إلى التقوى الباطنية والإيمان الصادق والإخلاص. كما تجلى فى "الموعظة على الجبل".

ويحتفل مجموع أقباط مصر بيوم آخر، بعد ذلك بأسبوعين فى ٧ يناير من العام التالى خلافا فى يوم ميلاد السيد المسيح بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية، بين السنة الشمسية والسنة القمرية، وربما لصراع سياسى بين الغرب والشرق تجسد فى صراع على السلطة الدينية. وقد أصبح عيدا وطنيا فى مصر مثل رأس السنة الهجرية وأجازة رسمية فى البلاد. ويشارك جموع المصريين فى قداس منتصف الليل بحضور بابا الأقباط وممثل رئيس الجمهورية ورجال الدولة والجيش والشرطة والمثقفين ورجال الإعلام وجماهير غفيرة من المؤمنين. ويذاع القداس على الهواء ليشارك الغائب الحاضر.

والاحتفال الأعظم ليس هو أعياد ميلاد السيد المسيح بل رأس السنة الميلادية أى يوم ٣١ ديسمبر من كل عام، والتحول من آخر ليلة فى السنة الماضية الساعة الثانية عشر تماما إلى أول لحظة فى العام الجديد ١ يناير. تطفأ الأنوار وتتلألأ، ويعلو الصراخ، وتتناثر القبلات، ويعم الفرح، بانتهاء عام وبداية آخر وينشط الرقص، وتفتح الزجاجات بكافة أنواعها وألوانها وأعمارها. وكلما ازداد التغريب فى مجتمع، والتقليد لعادات الغرب خارجه زاد الاحتفال. وغطى كل أعياد ميلاد السيد المسيح، ورأس السنة الهجرية، ورأس السنة اليهودية (روش هاشاناه)، ورؤوس السنوات الهندية والصينية بل وأعياد جلوس أباطرة اليابان على العرش. فأصبح عيد رأس السنة الميلادية هو عيد الجميع، عيد العالم. فالحضارات كلها تخضع للتحقيب الغربى الذى ساد منذ تصدر الغرب مركز الريادة فى العالم.

(*) الاتحاد: ٨ يناير ٢٠٠٥، الزمان: ١٠ يناير ٢٠٠٥.

ويحتار الإنسان أين يقضيه حتى لا يتأخر عن الركب، ويشارك فى البهجة ويفرح، تعويضا عن حزنه الدفين. فإن لم يجد دعوة خاصة عند أحد الأصدقاء أو المعارف فى المنازل فإنه يختار احتفال النوادى. فهو أقل تكلفة من احتفالات الفنادق. وتزدحم النوادى بالمشاركين والحاجزين مبكرا نظرا لقلة الأماكن وكثرة الراغبين، بالرغم من بعد المسافات، ووجود الجديد منها على أطراف العاصمة.

ويشتد الصخب بمكبرات الصوت، افتعالا بالمناسبة حتى ولو كان المكان فارغا. فالناس لا تأتى إلا قبل منتصف الليل بساعة حتى تتزين وتتهيأ وتتلقى التهانى وتتبادلها عبر الهواتف قبل الخروج. ولأن الفرح لا ينبع من الداخل فإنه يُفرض من الخارج عن طريق الصخب الخارجى الذى يتحول إلى إزعاج. فلا يستطيع صديق أن يحدث صديقا أو حبيب يناجى حبيبة. والزجاجات الملونة ممنوعة طبقا لقانون النوادى. والبعض يحضرها سرا. يفتحها تحت المائدة أو يعيد تعبئتها فى زجاجات الكوكاكولا. فكلا السائلين أحمر. ولا يحدث شىء قبل منتصف الليل. فإذا ما حان الوقت وجاءت اللحظة الحاسمة من عام إلى عام لم يتحرك أحد. فالحركة نقص فى الاحترام. ولم يقبّل أحد جارته فهو ضد التقاليد والأعراف. ولم يرقص أحد فى البداية أو النهاية، فرادى أو ثنائيات أو مجموعات، رجالا أم نساء، شبابا أم أطفالا. فالرقص خلاعة وتقليد للغربيين وإثارة للغرائز واقتراف المحرمات، الرقص حرام. وفى الفرح تدمع العين. وبعد الضحك يقال "اللهم اجعله خيرا". والناى آلة الحزن. وعند الصوفية من غضب الله عليه يجعل فى قلبه مزمارا. ثم يهرع الجميع على البوفيه المفتوح بلا نظام. يتقاتل المدعوون على الأصناف، بداية باللحوم. ويقفز كل مشارك فوق الآخر. وتستمر المعركة لمدة ساعة. وتقل الأصناف كيفا وكما بعد أن أخذ كل مشارك أكثر من طاقته. ومعظمها أطعمة شعبية رخيصة. فالنادى يريد الكسب حتى ولو استغل. ولعلية القوم طعام خاص يأتيهم على الموائد، الوزير أو رجال الجيش والشرطة والمحافظين ومديرى الأمن. وبعد أن تهدأ النفوس وتمتلئ البطون يبدأ مغنى الأفراح يهيئ الناس لإطرابهم. وما من مجيب. فما يقدمه ليس فنا ولا طربا بل عملا فى مقابل أجر ليلة رأس السنة. ويبدأ الناس فى الانصراف. فقد تحقق الغرض. انتهى العام القديم، وبدأ العام الجديد.

وقد يفضل آخر الذهاب إلى النوادى الأجنبية. الزحام هو نفسه. والجمهور مصرى أكثر منه أجنبى أو مصرى متغرب. يرطن بالفرنسية أو الإنجليزية أو اليونانية. جمهور من المولّدين، الفرانكو آراب. صحيح أنهم يرقصون ويفرحون وينطلقون على نغمات الغناء والرقص الغربى. فإذا ما تحول النغم إلى شرقى دبت فيهم الحياة إلى أقصاها. وتغطى ألحان نانسى عجرم ورقصاتها على الفالس والتانجو و"التشا تشا". لا فرق بين شاب وشيخ، بين رجل وامرأة. فالقلب مصرى والشكل غربى. الروح شرقية، والمصلحة غربية. والضجيج هو هو. والصوت المرتفع، والصخب يملأ الأجواء. أما العشاء فلا يسأل عنه أحد. مادام الشراب مسموحا به، والفرح بلا حدود أو قيد. وفى منتصف الليل يعلو الصراخ، وتتلألأ الأنوار، وتنهمر القبلات ابتهاجا بعام جديد. والعشاء سىء فالناس لم تأت للطعام. والاستغلال مستمر. أغلى الأسعار وأقل التكاليف. وما يهم النادى هو طلبات الشراب لأنها لا تدخل ضمن الأسعار. والذكى من يحضر

شرابه معه، علنا لا سرا. والثلج والكأس والخدمة متروكة لحسن التقدير.

وعند الانصراف فى كلتا الحالتين فى النوادى العربية أو الأجنبية يقف حارسو السيارات ورجال الأمن ينتظرون العطايا. فمن أنفق مئات الجنيهات لن يبخل هذه الليلة ببعض منها. والبرد قارس، والانتظار طويل. والجوع كافر، وأفراد الأسرة ينتظرون الأب على وجه الصباح وهو حامل لهم إفطار اليوم الأول فى العام الجديد. لم يطعموا مع المصريين دون فرح. ولم يفرحوا مع المتغربين دون طعام. حزانى جياع، جمعوا الضررين دون المنفعتين. وهذا هو المتصل الدائم سواء كان المحتفلون برأس السنة مصريين أو متمصرين. وهم فقراء الأمة ومساكينها "اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين".

والحكماء الذين يقضون الليلة فى الفراش فى "بطانية بارتى". يشاهدون عواصم العالم وهى تفرح ليلة رأس السنة. لا يملكون ما ينفقون خارج المنزل. والقلب ثقيل. والنفس حزينة حتى الموت. تكفى القبلات بين أعضاء الأسرة أو الأقارب أو الأصدقاء الحميمين والحجة والعذر: الدفء فى الداخل خير من البرد فى الخارج، والحميمية خير من الانفتاح.

وفى هذه الليلة ينسى الجميع الدماء التى مازالت تسيل فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. ينسون الاحتلال الجاثم على الأوطان، وكأن النصر المؤزر قد تحقق، والاستقلال الوطنى قد تم الحفاظ عليه. قد يهرب الإنسان إلى رأس السنة بدعوى "ساعة لقلبك وساعة لربك". وقد يهرب آخر إلى العكوف والصلاة ضد بدع الكفار وتقاليد العاصين، طالبا النجاة وسائلا المغفرة والثواب. وكما دخل المحتفلون آخر ليلة فى العام الماضى تاركين همومهم وراءهم، يخرجون إلى العالم فى أول يوم من العام الجديد حاملين همومهم معهم.

عيد بأية حال عدت يا عيد.

٢- من ريح الغرب إلى ريح الشرق

إن من أهم العناصر لتحديد معالم الشخصية الوطنية للشعوب هو معرفة دورها فى التاريخ ورسالتها التى تحملها عبر الأجيال. وهذه هى اللحظة الفارقة فى تاريخ تركيا الحديث. فمنذ الثورة الكمالية، اختارت القيادة السياسية الاتجاه نحو الغرب وتقليده. فالغرب هو نموذج التحديث الوحيد بعد أن تباطأ الإصلاح، ولم ينجز الكثير. ووصل اليونان إلى أبواب أنقرة كما وصلت الدولة العثمانية من قبل إلى أبواب فيينا. ولم يعد أنصار الخلافة قادرين على الصمود أمام حركة التاريخ التى تدفع نحو الجديد دون القديم ، بعد أن استرعى الجديد الانتباه، ولفت الأنظار. فى حين عجز القديم عن حماية الأوطان، وتكلس فى أقبية التاريخ.

وبالرغم من تعثر هذا النموذج على مدى نصف قرن، وحدوث رد فعل عليه بالحنين إلى الماضى كما عبر عنه حزب رفاه بقيادة أربكان، والدخول فى معارك شكلية مثل الحجاب والمدارس الدينية أو اللجوء إلى الحمية الدينية، وإحياء مشاريع الوحدة الإسلامية، وإثارة الجيش حامى الثورة الكمالية، إلا أنه استمر على نحو معتدل ومتوازن عند أنصار انضمام تركيا إلى الوحدة الأوروبية. فجزء من تركيا فى أوروبا. وحضور تركيا فى أوروبا واضح للعيان. وقد كان الخليفة العثمانى حتى القرن الماضى فى مركز ثقل سياسى واقتصادى فى أوروبا. والآن يحدث رد فعل جديد على هذه الهرولة بالاندفاع نحو الغرب لدى أنصار التوجه نحو الشرق. فى مقابل "ريح الغرب" ظهر رد فعل فى "ريح الشرق". ورسالة تركيا التاريخية هى التى تحدد الاختيار.

ليست تركيا فقط موقعا جغرافيا يتنازع عليه أنصار ريح الغرب وأنصار ريح الشرق. فتركيا جغرافيا، حلقة اتصال بين الشرق والغرب عبر مضيق الدردنيل والبوسفور كما أن مصر حلقة اتصال بينهما أيضا عبر قناة السويس. نصفها فى آسيا سيناء، ونصفها الآخر فى أفريقيا، وادى النيل. وليست فقط كيانا سياسيا يقبله الغرب بسهولة إلا امتدادا للنفوذ الغربى من خلال حلف شمال الأطلنطى نحو الشرق، روسيا والصين. وليست فقط كيانا اقتصاديا فمستوى الدخل القومى للفرد فى تركيا أقل منه فى أوروبا. وليست فقط كيانا اجتماعيا فمازال ملف حقوق الإنسان فى تركيا مفتوحا، وكذلك ملف الأقليات القبارصة اليونانيين فى الجنوب، والأكراد فى الشرق. إنما القضية هو الكيان الثقافى. فتركيا دولة إسلامية والغرب مسيحى. تزعمت العالم الإسلامى، ومن الصعب أن تكون طرفا للمركز الأوروبى. العادات والتقاليد والثقافة فى تركيا غير متجانسة مع العادات والتقاليد والثقافة فى الغرب. وفرق بين إعلان

(*) الاتحاد: ٥ نوفمبر ٢٠٠٥، الدستور: ٦ نوفمبر ٢٠٠٥.

المبادئ، قبول انضمام تركيا إلى الوحدة الأوروبية بعد عقد من الزمان ، والقبول الفعلى والاختلاط بين الشعوب.

إن الاندفاع نحو الغرب منذ الثورة الكمالية حتى أنصار ريح الغرب والانضمام إلى الوحدة الأوروبية تقابله صعوبات جمة. فهناك عداء تقليدى فى الغرب تجاه تركيا. إذ يعتبرها الغرب دولة أسيوية تمثل جزءا من الأراضى الأوروبية، وتجعل فيها عاصمتها التاريخية وجامعها الأزرق. حولت كنيسة أياصوفيا إلى مسجد ثم إلى متحف. استولت على عاصمة الإمبراطورية الرومانية، القسطنطينية، وعاصمة المسيحية الغربية. ووصلت جيوش الإمبراطورية حتى أبواب فيينا بعد أن اجتاحت دول البلقان وأدخلت الإسلام بين شعوبها حتى أصبحت دولا بأكملها إسلامية مثل البوسنة والهرسك وألبانيا. واستفحلت الهجرات التركية إلى الغرب خاصة فى ألمانيا، وكونت أكبر جالية إسلامية فيها. وكانت صورة التركى فى الأدب الغربى صورة المتعصب، الجاهل، زير النساء، القاتل، المتآمر، الغادر، القاسى، الحسى، القاهر. ومن هنا نشأ تعبير "رأس تركى" وبتعبيرنا "الدماغ الحجر". أصبح هو الغريب والدخيل مع الفارسى كما صور مونتسكيو فى "رسائل فارسية". ومشكلة أوروبا حاليا وقف المد الإسلامى فيها القادم من الشرق، تركيا وباقى الدولة الأسيوية مثل باكستان، والقادم من الجنوب من المغرب العربى إن لم تستطع وقف تحول الأوروبيين أنفسهم إلى الإسلام. بل إن أوروبا نفسها متجهة نحو الغرب، عبر الأطلنطى، نحو الولايات المتحدة الأمريكية اعتمادا عليها فى الدفاع والحماية والأمن من خلال حلف شمال الأطلنطى. وتمنع المركزية الأوروبية والتى تقوم على أسس عرقية وحضارية من أن تمتد شرقا وإلا ضاعت هويتها. تركيا بالنسبة للغرب هى مجالها الحيوى، وامتداد لدفاعها وأمنها من حدودها الشرقية ضد اندفاع روسيا والصين نحو الغرب من خلال الامتداد الجغرافى عبر الأورال. تستعمل أوروبا تركيا لصالح أوروبا. لذلك قبلت تركيا بسهولة عضوا فى حلف شمال الأطلنطى، ولكن تقف أمامها العقبات للانضمام إلى الوحدة الأوروبية. فتركيا تعمل لصالح الغرب ولا يعمل الغرب لصالح تركيا.

وقد استيقظت تركيا أخيرا عندما قادها الطريق الثالث الممثل فى حزب العدالة والتنمية بين "الكمالية" و"الأربكانية"، بين العلمانية والسلفية، كطرفى نقيض. واستطاعت أن تقيم انتخابات برلمانية حرة. ورفضت مرور قوات التحالف الأمريكى البريطانى عبر حدودها لغزو العراق من الشمال اعتمادا على رفض البرلمان وبالأسلوب الديموقراطى الذى يظن الغرب أن قد تفرد به دون غيره. واتبعت أسلوب الحوار مع دول الجوار خاصة سوريا ومصر. وأدركت أن الغرب نفسه فى أفول كما تنبأ بذلك فلاسفته مثل اشبنجلر فى "أفول الغرب" وبرجسون وهوسرل وشيلر ورسل وتوينبى ونيتشه، وأن الشرق فى نهوض وكما عبر ذلك جوزيف نيدهام فى "العلم والحضارة فى الصين القديمة"، وأنور عبد الملك فى "ريح الشرق".

والحقيقة أن تركيا جغرافيا فى الشرق أكثر منها فى الغرب. وأنقرة عاصمتها فى قلب الأناضول. وامتدادها فى كردستان شرقا أوسع من امتدادها فى أوروبا غربا. وأثرها جنوبا فى الوطن العربى وحضورها فيه أكثر من خمسة قرون أكثر من حضورها فى الشمال فى شبه جزيرة القرم وفى روسيا. ورصيدها فى الوطن العربى ودفاعها عنه ضد

الهجمات الاستعمارية الأولى كبير ضد تشويه الاستشراق وأحيانا غلاة القوميين العرب بالحديث عن الاستعمار التركى والقهر التركى. قوتها فى أواسط آسيا وفى إيران حتى الهند. فاللغات هناك لهجات تركية. وقامت تركيا بالدفاع عنها أثناء المد الشيوعى الذى قضى على الممالك الإسلامية فى آسيا الوسطى، بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها. شعر المسلمون فى الهند بمقدار الخسارة عندما ألغيت الخلافة. وترك المسلمون بمفردهم دون حماية فى صراعهم مع الهندوس حتى نشأة باكستان كحماية بديلة. مازالت تركيا دولة إسلامية فى ثقافتها وروحها وتاريخها وحاضرها وربما مستقبلها. تشهد نهضة صناعية ويفوق تصديرها استيرادها. مازال المسلمون يحنون إليها فتنشأ أحزاب جديدة للخلافة فى الشرق والغرب من أجل العودة إليها سلما أم حربا، بدأت تتراجع عن تعاملها الوثيق مع إسرائيل فى التسليح والاقتصاد، وتقترب أكثر مع دول الجوار. وتقف مع الغرب ضد الهجمة الحالية من الغرب على الشرق فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان.

فإذا كان روح التاريخ قد انتقل قديما من الشرق إلى الغرب، من الصين والهند وفارس وحضارات ما بين النهرين وكنعان ومصر القديمة إلى الغرب عبر اليونان والرومان والعرب حتى أحط أخيرا فى الغرب، أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية فإن روح التاريخ قد تعود الآن من الغرب إلى الشرق، من أوروبا إلى آسيا عبر العرب أيضا نظرا للنهضة الأسيوية الحالية فى تركيا وإيران والهند والصين وماليزيا وأندونيسيا وهونج كونج وتايوان وكوريا وتايلاند وسنغافورة. وبالتالى، يعود حلم الأفغانى من جديد لتأسيس "الجامعة الشرقية"، وحلم السلطان جالييف فى تأسيس "جامعة شعوب الشرق" فى مواجهة الهيمنة الغربية وعصر الإمبراطورية الأمريكية وإسرائيل الكبرى.

لن تصمد ريح الغرب طويلا حتى وإن نجحت على الأمد القصير بانضمام تركيا إلى الوحدة الأوروبية. وستطغى عليها ريح الشرق على الأمد الطويل حتى لو تعثرت حاليا لنقص فى الخيال السياسى، وضعف مجموعة الأربعة وعشرين الأفريقية الأسيوية أمام قوة مجموعة الثمانية. فمازال مؤتمر باندونج حيا فى الذكريات مع حركة تضامن الشعوب الأسيوية والأفريقية ودول الجنوب والقارات الثلاث. ومازالت آثار قطار الشرق السريع من برلين إلى بغداد وشاعر النيل ينشد "غادة اليابان". ولقب سيدة الغناء العربى "كوكب الشرق". وإقبال يسأل: والآن ماذا نفعل يا أمم الشرق؟

٣ـ الحديد والنار

انقضى أكثر من شهر على ثورة المهاجرين المهمشين فى ضواحى باريس. والتى استمرت ما يقرب من ثلاثة أسابيع. بدأت عنيفة وخفت حدتها بعد ذلك بقانون الثورات والانتفاضات والهبات الشعبية. دلالاتها أهم من أحداثها. والدروس المستفادة منها هى الأبقى فى التاريخ بعد أن تندثر الأحداث من الذاكرة، ويطويها النسيان.

كانت أشبه بمظاهرات الشباب فى مايو ١٩٦٨، تلقائية، بدأت بفرنسا، وانتشرت خارجها وإن لم تبلغ حجمها. حركتها نفس الدوافع، التهميش وتسلط الكبار، وعدم المشاركة فى تحديد مستقبلهم، والتلقين فى التعليم، وبيروقراطية المؤسسات، والشعور بالقهر.

وهى ليست فريدة بالعصر الحاضر. فقد قامت على مسار التاريخ ثورة العبيد فى روما، وثورة القرامطة وثورة الزنج فى بغداد، والهبات الشعبية فى تاريخنا المعاصر من أجل الخبز والحرية.

والسبب مزدوج، يرجع إلى طبيعة المجتمعات الأوروبية التى يعيش فيها المهاجرون. فهى مجتمعات عنصرية فى اللاوعى الحضارى بالرغم من فلسفات التنوير وقيم الحرية والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان والادعاء بأن الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية، نموذج التحديث. فمازالت تتعامل فى الممارسة بالمعيار المزدوج. ما ينطبق داخل أوروبا لا ينطبق خارجها. وقيم الحرية والديموقراطية والعدالة فى الداخل تتحول إلى نقيضها حين ممارستها فى الخارج إلى ممارسات القهر والتسلط والاستغلال. بل إنه معيار مزدوج داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها. قيم تنطبق على الطبقات العليا والوسطى وتنحسر عن الطبقات الدنيا من المهاجرين والملونين. فالعامل الحاسم فى العنصرية فى اللاوعى الحضارى الأوروبى هو لون البشرة ثم لكنة اللغة ثم الأصل أو المصدر. فاللون الأبيض هو الأعلى يدنوه الأصفر ثم الأسمر. واللكنة الأوروبية فى النطق أعلى من اللكنة الأسيوية والأفريقية. والهجرة الأمريكية اللاتينية أعلى من الهجرة الأسيوية ومن الهجرة الأفريقية. سماهم وزير الداخلية "الحثالة"، وهو المرشح لمنصب رئاسة الجمهورية، تملقا لليمين الأوروبى الصاعد والأحزاب النازية الجديدة، والمحافظين الجدد والمسيحية الصهيونية فى الولايات المتحدة.

إن علاقة المركز بالأطراف لا تنطبق فقط على علاقة المركز الأوروبى بأطرافه فى آسيا وأفريقيا. بل وينطبق أيضا داخل المجتمع الأوروبى ذاته داخل المدن. فهناك مراكز المدن فى الأحياء الراقية فى وسط المدينة التى بها البنوك والشركات ومؤسسات الدولة مثل الأحياء العشرة الأولى فى مدينة باريس. وهناك أطرافها التى يسكنها الملونون

(*) الاتحاد: ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٥.

والمهاجرون مثل الأحياء الثلاثة الأخيرة. فالأطراف كالمناطق العشوائية فى مدننا العربية، أرخص سعرا وأقل نظافة وأكثر عصيانا للقانون. تسكنها الأجيال الثانية والثالثة من المهاجرين الذين يحملون الجنسيات الأوروبية أو على الأقل الجنسيات المزدوجة. وفى بيوتها البالية تندلع الحرائق لغياب التأمين عليها. وفى أزقتها تنتشر الجريمة والجنس والمخدرات. وبين شبابها تعم البطالة وينشأ الشعور باللاانتماء. فهم ثقافيا مازالوا يعيشون ثقافة الوطن الأم، فى اللغة، والعادات والتقاليد والقيم والهوية. أقلية تعيش وسط أغلبية، تصدر عن سلوك الأقليات، والإحساس بالاضطهاد. لا تعمل إلا بالأعمال التى لا يقترب منها الرجل الأبيض، تعبيد الشوارع، البناء، المجارى، تنظيف الطرقات. أقرب إلى العمال المتجولين، وعمال التراحيل كما هو الحال فى بلادنا. وكما شق "الزنوج" فى الولايات المتحدة بعد خطفهم من أفريقيا للقيام بالأعمال اليدوية التى لا يقوم بها المهاجرون البيض النازحون من أوروبا كذلك شق عمال شمال أفريقيا الأنفاق لتسيير القطارات.

أقامت الحكومات الاشتراكية الإسكان الشعبى وهو ما يسمى "الإسكان المتوسط الأسعار" HLM. وقدم به العهد. وأصبح باليا لا يتفق مع أنماط البناء الحديث. وهى تجمعات إسكانية بلا هوية مجرد معلبات متشابهة. قدمت خدماتها العامة فى المياه والغاز والكهرباء. وأصبحت آيلة للسقوط لسوء العناية بها. ففى نظر البلديات، هى خارج كوردون المدنية، لا تمثل قلبها. هى أحياء خدمات، مصدر للعمالة، للأحياء الراقية وسط المدينة.

وبدلا من تحليل الأسباب الاجتماعية لثورة المهمشين فى العواصم الأوروبية يتم اللجوء إلى الأسباب النمطية التى مازالت قابعة فى اللاوعى السياسى الأوروبى، وهو عنف الإسلام، والثقافة العربية المتخلفة، والأصولية الإسلامية، وجماعة أسامة بن لادن وأبى مصعب الزرقاوى وأيمن الظواهرى وامتداد تنظيم القاعدة داخل أوروبا للانتقام من المجتمعات الأوروبية وتدميرها. فالمهاجرون يأتون من ثقافات غير متحضرة، ويعيشون وسط العالم المتحضر، العالم الحر. ولا يستطيعون التكيف معه. ويمارسوا ثقافة الخراب والتدمير. ألم يلاحظ ابن خلدون من قبل أنه إذا حل العرب بأوطان أسرع إليها الخراب؟ أليس من الأمثال العامية "العرب جرب". وهنا تكشف العنصرية عن رؤيتها للعالم، وتسقط عقليتها على السلوك الإنسانى. وينسى الوعى الأوروبى ما نادى به دائما من أنه مؤسس العلم الحديث، والمنهج التحليلى للعوامل، والمنهج الاجتماعى، والوضعية الاجتماعية ضد الخرافات والتحيزات والأحكام المسبقة دفاعا عن الموضوعية والحياد. وإذا كان الإسلام قد أصبح الدين الثانى فى أوروبا بعد المسيحية وقبل اليهودية، فإنه مازال دينا دخيلا من خارج الحدود الجغرافية لأوروبا، بالرغم من وجود أغلبية إسلامية فى شرق أوروبا. وبالرغم من وجود مسلمين أوروبيين تحولوا إلى الإسلام ولا يمارسون العنف إلا أن حبهم للسلام ناتج عن ثقافتهم الأوروبية السابقة وليس من الدين الجديد. والعنف عند البيض لا يقل قوة وانتشارا عن العنف عند المهاجرين الملونين وجماعات الجريمة المنظمة عند البيض أكثر تدميرا لمظاهر المدنية الأوروبية من الجماعات المهاجرة مثل تدمير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما. والغرب يعلم أن الإسلام منذ بداية عصر النهضة أحد المصادر الرئيسية للحضارة الأوروبية فى العصر

الحديث عبر الترجمات من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية فى طليطلة وبادو وبالرمو وبيزنطة.

لم يكن العنف موجها ضد الأشخاص. فقيمة الحياة هى المقصد الأول من مقاصد الشريعة ولكن ضد الممتلكات ورمزها العربة التى يطمح المهاجر أن يمتلكها. العنف ضيق نفسى أولا واغتراب عن العالم الذى يعيش فيه المهاجر، ببدنه وليس بروحه. الضيق حديد الزنزانة والمعدن الذى تصنع منه العربة. فيتم مقابلة الحديد بالنار، حديد القهر الاجتماعى والمجتمع العنصرى والطبقات العليا ونار الغضب والقهر والتهميش والاغتراب. كانت العربات التى تقف أمام منازل الأغنياء هى الهدف الأول، المستحيل الذى يود المهاجر الحصول عليه. ويحدث ذلك فى كل الهبات الشعبية مثل ثورة الأمن المركزى فى مصر فى يناير ١٩٨٦. فهو يحرس الفنادق الكبرى. ويرى من خلال لوحات الزجاج الخارجى الموائد الفاخرة وزجاجات الخمور. وهو يحرسها من الخارج. ومرتبه يساوى ثمن زجاجة مياه معدنية. فتفجر الغضب فى نفسه ودمر الواجهات الزجاجية. وهو حارس الأمن للآخرين الذى يفتقد الأمن لنفسه. والعنف فى التاريخ أحد دوافعه ومساره وحركته فى كثير من الأدبيات الغربية منذ هيجل حتى سوريل.

إن ما حدث فى العواصم الأوروبية من ثورة المهاجرين المهمشين لهو مؤشر على ما قد يحدث بصورة أعظم فى المستقبل القريب أو البعيد مع تزايد المد العنصرى اليمينى فى الغرب، وتزايد الإحساس بالضنك لدى المهاجرين مع النمو السكانى. ومازال الاستيلاء على الباستيل، نداء "إلى الباستيل" الذى تفوهت به امرأة من العامة فى الذاكرة الجمعية. فمن مصلحة المجتمع الأوروبى إعادة هيكلة بنيته الاجتماعية بحيث يتم دمج المهاجرين فى نسيجه والحوار مع الداخل يسبق الحوار مع الخارج. وتحديث روح أوروبا يسبق تنميتها وعولمتها واقتصادها وأسواقها. الهجرة من الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط إلى شماله إضافة لا نقصا، وإيجابا لا سلبا، تعبر عن وحدة حضارة الحوض عبر آلاف السنين.

٤- من فجر قطارات لندن؟

إن البحث عن علل الأشياء وأسبابها يبدو سهلا فى الظاهر ولكنه صعب فى الواقع. إذ تتفاوت العلل بين العلة الفاعلة والعلة الغائية. والعلة الفاعلة مجرد أداة فى حين أن العلة الغائية هى العلة الفاعلة بالفعل.

وأول ما تبادر إلى الذهن الإرهاب "الإسلامى" دون أدلة أو براهين. وإذا كان هو أحد المسلمين أو بعض منهم فلماذا صفة الإسلامى خاصة وأن عنف الجيش الأيرلندى لا يسمى الإرهاب الكاثوليكى. فالإسلام دين له تفسيرات عدة مثل كل دين. ولا يمثله سلوك واحد. وقد يخرج باسمه سلوكان نقيضان، الانتقام والمغفرة، العنف والرفق، التعصب والتسامح.

وسرعان ما تخرج إدانة المسلمين لأفعال العنف، يتبرءون من هذه الفعلة الشنعاء التى قام بها فريق ضال منهم، إرهابيون من جماعة الجهاد أو القاعدة أو من المنظمات الجهادية فى أوروبا. يتنصلون من بنى قومهم ومن إخوتهم فى الدين تجنبا لردود الأفعال الغاضبة من البريطانيين، ومن المجتمع الذين يعيشون فيه بعد أن أحسن استقبالهم. فهم بريطانيون مسلمون يريدون أن يعيشوا فى سلام مع المجتمع البريطانى ولا يؤخذون بجريرة السفهاء منهم. ورئيس وزراء بريطانيا يبادلهم التحية بأحسن منها ويردها. فهم بريطانيون أصلاء وإن كانوا فى الأصل من المهاجرين. يعرفون الإسلام الصحيح، ويستنكرون أفعال الفئة الضالة. وما أسهل الإدانة وما أصعب الفهم. ما أسهل الحكم وما أصعب الحيثيات.

ولماذا الذهاب للعلة الأيديولوجية، وهى العلة المحركة على الفعل وليس إلى العلة الجاذبة التى دفعت إلى الفعل وهى العلة الغائية؟

إن العلل الحقيقية هى الدافع على الفعل والبواعث عليها والغايات منها. ومادام هناك إنسان فضل الشهادة على الموت، وآثر الآخرة على الدنيا فلابد أن تكون هناك علة فاعلة أو غاية نبيلة دفعته إلى ذلك. فلا يوجد عاقل يؤدى بنفسه إلى التهلكة، ويأخذ معه حياة الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ وربما من بَنِى وطنه إلا إذا كان هناك دافع قوى يدعوه إلى ذلك.

ما حدث فى لندن كان مخططا له أن يحدث فى اسكتلندا حيث اجتماع الدول الثمانية الأكثر تصنيعا فى العالم، مجمع رأس المال العالمى من أجل احتكار السوق باسم المنافسة الحرة. وقد قامت المظاهرات من البريطانيين

(*) الاتحاد: ٦ أغسطس ٢٠٠٥، الدستور: ٧ أغسطس ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ١٤ أغسطس ٢٠٠٥.

أنفسهم ضد رموز العولمة الحديثة دفاعا عن فقراء العالم. ونظرا لاشتداد قبضة الأمن فى الشمال خفت ضبطها على الجنوب حدثت تفجيرات لندن. السبب إذن ليس فقط السيطرة الاقتصادية على ثروات العالم بل على التبعية للولايات المتحدة، ومشاركتها فى الغزو على العراق، وقتلها عشرات الأطفال والنساء والشيوخ من العراقيين فى البصرة والفالوجة، ونهب جزء من عائدات النفط العراقى.

وتستعيد الذاكرة تاريخ بريطانيا الاستعمارى فى مصر والسودان: قمعها الثورة العرابية فى مصر، والثورة المهدية فى السودان، وقمعها الثورة فى جنوب أفريقيا وعدن، واحتلالها الخليج كله، وهونج كونج وسنغافورة لربط البحار لسريان الأسطول البريطانى فى موانئ عبر قارات العالم الخمس ومحيطاته الستة. وأخيرا وعد بلفور فى ١٩١٧ لإنشاء وطن قومى لليهود ومساعدة الهجرات الأولى فى فلسطين.

وكل معتدى عليه يكتشف مواطن قوته ومواطن ضعف الخصم. قوة الخصم فى العدة والعتاد والآلة العسكرية، والطائرات والمدافع والدبابات، وقوة المعتدى عليه فى حبه للشهادة (**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**). وقد حذر الرسول من قبل من حب الحياة وكراهية الموت.

وقد أحدثت تفجيرات قطارات لندن نتائجها كما أحدث تفجيرات قطارات مدريد من قبل، فقد تم الإعلان عن ضرورة البحث عن الأسباب التى تؤدى إلى العنف دون الاكتفاء بالإجراءات الأمنية. وبدأ الإعلان عن ضرورة سحب القوات البريطانية من العراق بل والقوات الأمريكية فى ظرف عام. فقد شن العدوان على العراق بأكذوبة أسلحة الدمار الشامل أو القضاء على الإرهاب. واتضح أنه لا وجود لأسلحة الدمار الشامل بل فى إسرائيل التى لم يغزها أحد. وبدلا من القضاء على ما يسمى الإرهاب زاد وتحول إلى مقاومة شعبية شاملة. كما أعلنت إيطاليا على استحياء أنها تود أيضا سحب القوات الإيطالية من العراق بعد أن قتلت القوات الأمريكية ضابط الأمن الإيطالى وهو فى صحبة الصحفية الإيطالية التى أفرج عنها الخاطفون، تقديرا لدورها فى تغطية أخبار المقاومة.

يفكر الأعداء الآن مرة ومرتين فى تكرار النموذج العراقى أو نموذج آخر على سوريا ولبنان وإيران. لم يعد الوطن مستباحا كما كان لأمريكا وبريطانيا وإسرائيل يفعلون فيه ما يشاءون. أصبحت له حرمة، ليس من نظم الحكم التى يؤيد بعضها العدوان الأجنبى على الآخر ولكن من الشعوب ومن مقاومتها للعدوان. العدو هو المستباح. وهو الذى يحل دمه وتجب مقاومته.

إن العدو لا يعرف إلا القوة ولا يستطيع إلا هى، وقد استعملت المقاومة لغته "لا يفل الحديد إلا الحديد"، "ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة". ومن ثم ينتهى لوم الضحية ويبدأ التوجه إلى الجلاد.

لقد اكتسب الشعب العربى المناعة. فقد نجحت المقاومة فى جنوب لبنان فى إزالة العدوان الصهيونى من أراضيه. ونجحت المقاومة الفلسطينية فى تحويل عدم توازن القوى إلى توازن الرعب حيث فقد الإسرائيلى الأمن بعد

أن قام الكيان كله على أسطورة ضمان الأمن. ولم ينفع الجدار العنصرى العازل فى إتمام عمليات الاستشهاد داخل الخط الأخضر. كما اكتسب الشعب العربى مناعة من درس المقاومة العراقية التى استطاعت النصر على أعتى قوة عسكرية فى العالم من أجل تحرير الوطن.

إن وجود بروز ونتوءات فى أنظمة العالم الثالث ترفض الدخول فى بيت الطاعة مثل المقاومة العراقية والمقاومة الفلسطينية ووجود نظم سياسية قامت بذلك بالفعل فى سوريا ولبنان وإيران فى مواجهة التهديد، ووجود دول تقدمت بسياسة الاستقلال الوطنى مثل ماليزيا، كل ذلك يساعد باقى الدول التى آثرت دخول بيت الطاعة على الخروج منه، وبداية تكوين قطب ثان فى مواجهة القطب الأول ليُعاد التوازن إلى العالم. وقد شجع ذلك بعض نظم أمريكا اللاتينية على الاستمرار فى المقاومة بالتحالف مع القوى الشعبية ضد هيمنة القطب الواحد. وبالتالى تعود سيرة دول عدم الانحياز من باندونج حتى بغداد بعد خمسين عاما نموذجا للاستقلال الوطنى من عصر الاستقطاب إلى عصر القطب الواحد. ويقف مد الإمبراطورية الأمريكية الإسرائيلبة الجديدة على حدود الوطن العربى والعالم الإسلامى حماية للصين الهدف الأكبر لقوى الهيمنة. فهذا القرن، قرن الصين اقتصادا، وقرن الإسلام ثقافة.

لقد بدأت عجلة التاريخ فى الدوران فى الاتجاه المعاكس، ابتداء من العراق وفلسطين، وربما سوريا ولبنان وإيران إذا ما أرادت الإمبراطورية الصهيونية الأمريكية الجديدة الاستمرار فى العدوان. وكما انتصر الغرب فى الحرب العالمية الثانية بدخول أمريكا الحرب فقد ينتصر العرب والمسلمون وقوى التحرر فى العالم على الإمبراطورية الأمريكية والإسرائيلية الجديدة أيضا بشن الحرب بعد ما يزيد على نصف قرن وإيقاف مد الهيمنة.

التاريخ موجات. فإذا كان العالم قد مر بموجة التحرر فى الخمسينيات والستينيات ثم انخفضت الموجة فى السبعينيات والثمانينيات حتى وصلت القاع فى التسعينيات وبداية القرن الواحد والعشرين فإن الموجة تصعد من جديد بفضل قوة الدفع فى المقاومة العراقية والفلسطينية. وتكون نهاية الإحساس بالعجز والإحباط والتشاؤم عند العرب. وتستعيد الذاكرة العربية حطين وعين جالوت طبقا لما تشاهد فى بغداد والفالوجة وكما شاهدت فى جنوب لبنان وما قد تشاهد فى سوريا وإيران (ويقولون متى، قل عسى أن يكون قريبا).

٥- أبانا الذى فى واشنطن

حدث تحول جذرى فى النصف الثانى من عمر الثورات العربية الأخيرة فى أوائل الخمسينيات، بعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ بالنسبة للموقف من الولايات المتحدة الأمريكية. وتطور هذا الموقف تدريجيا من التعامل معها وهى التى ناصرت إسرائيل ودعمتها أثناء العدوان إلى التحالف الاستراتيجى الكامل معها، يتنافس العرب مع إسرائيل على إرضائها. ويسرقون الدور التقليدى الذى قامت به إسرائيل، حليف أمريكا فى المنطقة وكما حدده هرتزل وبن جوريون جسر الغرب إلى الشرق. فالعرب أقدر على رعاية المصالح الأمريكية من إسرائيل بما لديهم من إمكانيات نفطية ومالية وأسواق وعمالة وموقع استراتيجى طالما حرصت أمريكا عليه بإدخال المنطقة العربية الإسلامية فى دائرة نفوذها عن طريق الأحلاف المباشرة، مثل حلف بغداد فى أوائل الخمسينيات حتى الحلف الإسلامى فى منتصف الستينات أو غير المباشرة، بالتدريبات العسكرية المشتركة أو قواعد عسكرية لأسطولها أو إتباع سياساتها العربية والإقليمية والدولية.

بدأ هذا التحول بما عرف بعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ باسم "وقفة مع الصديق" والمقصود به الاتحاد السوفيتى. إذ أنه لم يورد كل عقود السلاح المتفق عليه مع العرب تعويضا لتدميره أثناء الانسحاب من سيناء فى ١٩٦٧. كما أن نوعية السلاح أقل من نوعية السلاح التى تعطيه أمريكا لإسرائيل. ثم ازداد التحول غربا بقبول مبادرة روجرز للسلام التى لا تخرج عن إطار قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ بالانسحاب من الأراضى المحتلة. ثم ازداد الانحراف غربا فى الجمهورية الثانية بعد حرب أكتوبر عندما قيل أن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط عامة، والصراع العربى الإسرائيلى خاصة فى أيدى الولايات المتحدة الأمريكية. وإن بيدها مفاتيح الحرب والسلام. وبعد زيارة رئيس الجمهورية الثانية فى مصر للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ واتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ١٩٧٩ تأكد الدور الأمريكى كدور وحيد فى الصراع العربى الإسرائيلى. وفى نهاية عصر الاستقطاب وبداية العالم ذى القطب الواحد منذ أوائل التسعينيات وبداية عصر الهيمنة الأمريكى الجديد بدت أمريكا وكأنها هى الوحيدة القادرة على صنع السلام أو شن الحرب. فبدأت محادثات مدريد، واتفاقيات أوسلو، وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية، وكامب ديفيد الثانية بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وتمت صياغة خارطة الطريق كحل دائم للقضية الفلسطينية ولا تبتعد كثيرا عن مبادرة السلام العربية، انسحاب كامل فى مقابل التطبيع الكامل. ومازالت الولايات

(*) الاتحاد: ١٧ سبتمبر ٢٠٠٥، العربى الناصرى: ١٨ سبتمبر ٢٠٠٥.

المتحدة هى اللاعب الرئيسى فى الصراع إيجابا أم سلبا بالنسبة للمستوطنات والجدار العازل والحل النهائى.

والبعض يبحث فى سجل التاريخ عن الصفحات الناصعة فى تاريخ العلاقات العربية الأمريكية منذ رفض أمريكا العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ بعد تأميم قناة السويس حتى الضغط الحالى على إسرائيل لإيقاف الاستيطان فى الأراضى الفلسطينية المحتلة وفرض خارطة الطريق وربما مقايضة فلسطين بالعراق.

أصبحت أمريكا عاملا رئيسيا فى كل جانب من الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الوطن العربى والعالم الإسلامى. بيدها الحل والعقد. تقدم مشاريع الشرق الأوسط الكبير والمتوسطية. وتضع جدول أعمال لإصلاح المنطقة وفى مقدمتها الديموقراطية، وحقوق الإنسان، والمجتمع المدنى، والأقليات، والمرأة.

وأصبحت الحديث العلنى والسرى على كل لسان. فبعد سيادة المحافظة الجديدة والمسيحية الصهيونية على ذهن الإدارة الأمريكية وقع العدوان على أفغانستان ثم العراق، وأصبح التهديد مائلا كل يوم ضد سوريا بذريعة الإرهاب، ولبنان بحجة تطبيق قرار الأمم المتحدة ١٥١٩ لنزع سلاح حزب الله من جنوب لبنان وضمان أمن حدود إسرائيل الشمالية، وإيران بحجة احتمال امتلاك أسلحة نووية وصواريخ يصل مداها إلى مدن إسرائيل، والسودان بحجة دارفور، وليبيا بحجة مساندة الإرهاب قبل أن ترضخ ليبيا لمطالب الغرب والولايات المتحدة، ومصر لحصارها من الشمال والجنوب أو من الداخل بدعوى ملف حقوق الإنسان.

تتحالف معها النظم العربية، خوفا منها، ولاتقاء شرها، ولمساعدتها فى الاستمرار فى دفة الحكم ضد تململ الشعوب من التمديد والتوريث وقوانين الطوارئ والأحكام العرفية. وتسرع النظم فى تنفيذ توجيهات الولايات المتحدة بالاعتراف بالحكومة العراقية وإرسال الممثلين الدبلوماسيين لها، وإدانة المقاومة فى فلسطين والعراق تحت مسمى الإرهاب، والاستمرار فى قطع العلاقات مع إيران بالرغم من أنها ظهير العرب للدفاع عن فلسطين والعراق والاستقلال الوطنى والتعاون النووى، والاستمرار فى الخصخصة والدخول فى سوق العولمة، والرضوخ لروشتات البنك الدولى فى الإصلاح الاقتصادى، بل والسماح بإقامة القواعد العسكرية أو التدريبات المشتركة أو أحلاف الدفاع. فالتحالف مع الخارج أكثر أمنا وضمانا لاستمرار الحكم من التحالف مع الداخل الرافض كلية لنظم الحكم. وهو وهم كبير لأن التحالف مع الخارج مشروط بمصالح الخارج. وقد تتخلى الولايات المتحدة عن حلفائها إذا ما كانوا عبئا عليها أو إذا ما أدوا الأدوار المطلوبة منها أو إذا ما تغيرت قواعد اللعبة أو إذا ما خرجوا على بيت الطاعة.

وقد ترتبط بعض أجنحة المعارضة بها لمطالبة تأييدها ضد نظم الحكم القائمة عن طريق تبنى نفس جدول الأعمال الخارجى، والاعتماد على أجهزة الإعلام الخارجية والقنوات الفضائية والوعد بالحكم الرشيد، والإدارة الحسنة. ولا غضاضة فى مقابلة المسئولين الأمريكيين فى السفارات والوزراء الأمريكيين ومستشارى الأمن القومى الأمريكى للتنسيق معهم فى خطط المستقبل.

ولا يقتصر العامل الأمريكى على الحياة السياسية والاقتصادية وحدها بل يتعداها إلى الحياة الاجتماعية والثقافية. فتنشر قيم الاستهلاك ونمط الحياة الأمريكى وبرامج التعليم الأمريكى من أجل السوق. فالتجارة والحقوق والعلوم السياسية بالإنجليزية. والأسماء والمصطلحات فى الطعام والشراب واللباس والإسكان وأسماء الشركات كلها بالإنجليزية. وطلب تأشيرات الدخول إلى أمريكا تحتاج شهورا لإصدارها من كثرة الطالبين. وتتندر المسرحيات الساخرة من "ماما أمريكا"، ومن المواطن الذى سمى طفله "بوش".

والحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست بهذه الصورة المتضخمة فى الوطن العربى. وليست هى العامل الوحيد الحاسم فى حياة الشعوب. فهناك شعوب أخرى تعيش فى عصر العولمة ولها مثل مشاكلنا فى التنمية والاستقلال، تعطى العامل الأمريكى نسبته الصحيحة كأحد العوامل وليس العامل الوحيد. إذ هناك عوامل أخرى مثل الاستقلال الوطنى، والإرادة الوطنية، والتنمية المستقلة، والمشاركة الشعبية، والاعتماد على الذات، وتنوع مصادر الاستثمار. فالصين وماليزيا لهما تجاربهما المستقلة. وتحققان أعلى معدل للتنمية من أمريكا نفسها. بل إن منسوجات الصين غزت الأسواق الأمريكية دون منافس فى السعر أو فى الجمال أو فى الجودة. واستطاعت ماليزيا استيعاب التلاعب بالعملة، وإقامة نهضتها المستقلة، وإتباع سياسات متوازنة بين الشرق والغرب. كما استطاعت تركيا الاعتماد على الشعب وممثليه فى مواجهة الضغوط الأمريكية للدخول فى قوات التحالف لغزو العراق. ومازالت إيران تنتهج سياسة مستقلة تجاه محاولات أمريكا نزع سلاحها النووى تحقيقا للأمن القومى الإسرائيلى. ومازالت سوريا صامدة ضد اتهامها بالإرهاب، ومازال الشعب اللبنانى يرفض قرار ١٥١٩ دفاعا عن استقلال لبنان والمقاومة الشعبية فيه مادامت جزء من أراضيه مازالت محتلة. بل إن الدول المجاورة للولايات المتحدة مثل فنزويلا وكوبا مازالا يمثلان تحديا لسياساتها اعتمادا على الشعب ضد محاولات الانقلاب ضدهما. ومازالت أوروبا تحاول الحفاظ على استقلالها من التحالف الكلى معها.

لا توجد قوة أبدية فى التاريخ. وكل قوة تخضع لقوانين القيام والسقوط، النهضة والانهيار. وقد تكون بوادر الانهيار الأمريكى قد بدأت فى الظهور: الانهيار الاقتصادى، وارتفاع أسعار النفط، والحركات المعادية للولايات المتحدة الأمريكية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بل فى أوروبا وداخل الولايات المتحدة نفسها. أصبح اليمين المحافظ عبئا عليها، وغزو العراق وأفغانستان والقتلى الأمريكيين كل يوم جعلها لا تعطى الأولوية لمنكوبى إعصار لويزيانا والميسيسبى الذين تجاوزوا العشرة آلاف فى لويزيانا وحدها. وأكثرهم من الأمريكيين السود الذين لم ينقذهم أحد لا قبل الإعصار ولا بعده لأنهم لا يملكون ما يُحملون عليه خارج مناطق الإعصار. وقوى الطبيعة أقوى من أقوى دولة فى العالم، ويلحق شهداء الإعصار الأبرياء بشهداء الفالوجة والقائم والحديثة وأطفال العراق وحصارهم أكثر من خمسة عشر عاما حتى استشهدوا بالآلاف. "اللهم لا شماتة".

٦- النوايـــا والأفعـــال

ويتكشف التاريخ بعد وقوع أحداثه. وتعترف أمريكا بأنها غزت العراق ودمرت شعبا أخذا بالشبهات، امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل بالرغم من عدم عثور المفتشين الدوليين على شيء منذ ذلك. ولإخفاء الجريمة تغيرت الذريعة من امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل بالفعل إلى نيته فى ذلك. وأصبحت النية ذريعة للعدوان وكأن أمريكا مطلعة على النوايا والسرائر وتحكم على ما فى القلوب كالله تماما.

ويتكرر نفس الشيء الآن مع إيران، التهديد بالعدوان عليها إن لم توقف تخصيب اليورانيوم، وتخضع نفسها لتفتيش وكالة الطاقة الذرية ولقرارات الأمم المتحدة لأن فى نيتها تحويل ذلك إلى أسلحة ذرية بالرغم من إعلان إيران أن أبحاثها لأغراض سلمية خالصة. فأصبح التفتيش فى الضمائر والحكم على النوايا ذريعة للعدوان على الشعوب وتدمير الدول، وقلب الأنظمة، وخرق القانون الدولى، وجعل القوة هو القانون الوحيد فى العلاقات الدولية.

وفى نفس الوقت تترك الأفعال. فإسرائيل تعلن أنها تمتلك سلاحا نوويا، وأنها ترفض تفتيش المنظمة الدولية للطاقة الذرية، وأنها لن توقع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية. وهى الدولة الوحيدة فى الوطن العربى التى تمتلك أسلحة الدمار الشامل. وهى المحتلة لفلسطين وسوريا ولبنان، وتهدد دائما بالتوسع والعدوان. فهى دولة بلا حدود دولية معترف بها. حدودها هو مدى ما يستطيع أن يصل إليه جيش الدفاع الإسرائيلى.

وتمتلك الهند السلاح النووى والصواريخ بعيدة المدى ولا تحرك أمريكا ساكنا بل إنها تؤيدها، وتنكر على باكستان سلاحها النووى وصواريخها خشية أن يقع فى أيدى المنظمات "الإرهابية"، والهند تحتل كشمير، وتتعاون مع إسرائيل. وتمتلك كوريا الشمالية السلاح النووى، والصواريخ العابرة للقارات ولا تهددها أمريكا خشية من الصين وروسيا. تفتش أمريكا فى نوايا الضعفاء وتترك أفعال الأقوياء. تأخذ بالشك، وتترك اليقين.

ولم تكتف أمريكا بالهيمنة على العالم بل أرادت أيضا الدخول فى أعماق النفس البشرية والحكم على نوايا أنظمة الحكم، والمحاسبة ليس فقط على الأفعال بل أيضا على خاطرات النفس وهمسات القلوب. لا تحاسب فقط على الأفعال بل أيضا على الأفكار. وهو يناقض القانون. فالقانون لا يحاسب إلا على الأفعال لا على النوايا. وإذا تحققت النوايا فى الأفعال "مع سبق الإصرار والترصد" فإنها تخضع لطائلة القانون لأنها أفعال قصدية وليست مجرد أفعال بالمصادفة عن غير قصد.

(*) الاتحاد: ٨ أبريل ٢٠٠٦، الزمان: ٧، ٩ أبريل ٢٠٠٦.

والحكم على النوايا تشديد على الناس ترفضه الشريعة. فلما نزلت آية (**وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**) ضج عمر، وهرع إلى الرسول مصرحا بأن الإنسان كثيرا ما تحدثه نفسه بما قد يؤدى إلى الهلاك. فنزلت آية أخرى تنسخ الأولى وأرحم بالناس وهى (**لا يُكلف الله نفسا إلا وسعها. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**).

تترك أمريكا الحاضر وتحكم على المستقبل. وتصمت عمن يمتلكون أسلحة الدمار الشامل كإسرائيل، وتهدد بالعدوان من لديه شبهات نوايا على أن يمتلكها فى المستقبل. أما عمن امتلكها فى الماضى كأمريكا وروسيا ومعظم الدول الغربية فقد أصبح حقا مكتسبا لا غبار عليه. البعض له هذا الحق والبعض الآخر يمنع عنه هذا الحق. تصادر أمريكا على حق الآخرين. وتريد إيقاف التاريخ. فما حدث فى الماضى لا يتكرر فى الحاضر أو المستقبل.

وعلى هذا النحو يتوقف الزمن على الغرب، أوروبا وأمريكا. من امتلك أسلحة الدمار الشامل فى الماضى فهذا حقه. ومن يمتلكها فى الحاضر فقد لحق بالفريق الأول. ومن يحاول امتلاكها فى المستقبل فهو عرضة للعدوان لأن المستقبل ملك لمن امتلك الماضى والحاضر. يسير الغرب الأوروبى الأمريكى مع الزمن من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل، ويحاصر الباقى فى الزمن بين الماضى الذى كان مستعمرا فيه، والحاضر إلى مازال يتحرك فيه، والمستقبل المحرم عليه.

والذئب آكل الشاة لا محالة متحملا جريرة أبيه وهو تعكير صفو الماء وقد ولد بعد الذئب، والمياه تتدفق من أعلى إلى أدنى، من الذئب إلى الشاه. ومهما صحت الأعذار أو بطلت، ومهما صدقت الحجج أم كذبت فإن الذئب آكل للشاه وفى كل الأحوال.

إنه عالم تسوده القوة وليس العدل. وكما انهارت الإمبراطورية الرومانية قديما قد تنهار الإمبراطورية الأمريكية حديثا وفى المستقبل الذى ليس ببعيد. هذا هو قانون التاريخ منذ قصص الأنبياء حتى فلسفات التاريخ. القوة بلا عدل تدمر نفسها بنفسها. والعدل بلا قوة ينتصر حين يتمكن من وسائل القوة. قد تدور الدائرة على المحافظين الجدد الذين دمروا العالم باسم الله، وأسالوا دماء الشعوب باسم العناية الإلهية. قد ينقلب السحر على الساحر بموجة المعاداة للولايات المتحدة التى تعم العالم كله فى أوروبا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. وكما سقط الاتحاد السوفيتى طبقا لنبوءة كثير من المحللين السياسيين منذ عدة عقود قد تسقط الولايات المتحدة فى عقدين من الزمان طبقا لتحليلات فلاسفة السياسة والتاريخ. وقد تنبأ فرض ولاس محمد، زعيم أمة الإسلام من قبل بـ"سقوط أمريكا" على أسس أخلاقية. فالقوة لها حدود. والمقاومة لا حدود لها. وقد سقطت الفاشية والنازية بعد اجتياحهما لأوروبا. وقد تسقط إسرائيل بعدها. فإذا ما سقط الحامل سقط المحمول.

هناك قوى اشتراكية جديدة صاعدة فى العالم خاصة فى أمريكا اللاتينية. وهناك قوى إسلامية أخرى صاعدة فى العالم فى إيران وتركيا وماليزيا وأندونيسيا. وهناك قوى أسيوية اقتصادية أخرى صاعدة فى العالم، الصين

واليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة والهند، قادرة على أن تكوّن قطبا ثانيا فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية. وبالتالى يتحول المحاصِر إلى محاصَر، والقفز إلى آسيا عبر أوروبا يتحول إلى القفز إلى أمريكا عبر أوروبا. ويقظة أوروبا قادرة على أن تجعل نفسها ميزان الثقل بين الشرق والغرب فى صد الهيمنة الأمريكية على الشرق قفزا على أوروبا والوطن العربى فى ضفتها الجنوبية والشرقية، وبين الشمال والجنوب كجسر بين الأغنياء والفقراء.

إن الحكم على النوايا دون الأفعال هو السبب فى شن كثير من الحروب الوقائية أو الاستباقية لإجهاض نية الخصم بتوجيه ضربة إليه. وقد لا يكون عند الخصم مثل هذه النوايا. العدوان هو أول إطلاق للرصاص بالفعل وليس بالقول. وفى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ كانت الذريعة تأميم قناة السويس وتهديد حرية الملاحة، والعدوان الإسرائيلى على مصر والأردن وسوريا فى ١٩٦٧ كان بحجة غلق مضيق شرم الشيخ وطلب سحب قوات الطوارئ الدولية. والأفضل غذاء المعتدى بالعدو بدلا من أن يتعشى المعتدى عليه بالعدو.

الأعمال بالنيات، ولا يكفى النيات وحدها أن تكون أعمالا. ويُحاسب البشر على أعمالهم وليس على نواياهم. والولايات المتحدة تحكم على النوايا بما لديها من قدرة على قراءة الضمير ومعرفة أسرار النفس. فأجهزة التصنت والمراقبة فى كل مكان. وكل شىء لديها مكتوب فى اللوح المحفوظ

٧- الإرهاب... الإرهاب... الإرهاب

مازالت المؤتمرات والندوات وحلقات البحث المحلية والدولية تعقد منذ عشرات السنوات عن الإرهاب. وقد كتب حتى الآن ١٤٠٠٠ مقالا عن الموضوع، ومازال الغرب لم يفهم الإرهاب. وأنفقت ملايين الدولارات على البحوث ومازال الموضوع مستمرا. لا تخلو جامعة أو مركز بحث خاصة فى أمريكا وأوروبا عن مشروع حول الإرهاب. ومع الجامعات ومراكز الأبحاث تدخل الأحلاف العسكرية القديمة مثل حلف شمال الأطلنطى، والمخابرات العامة، ووزارات الدفاع والخارجية ومجالس الأمن القومى وهيئات أركان الحرب والكنائس والأحزاب والاتحادات والنقابات.

وقد عقد فى مقاطعة توسكانيا بإيطاليا فى منتصف الشهر الماضى ندوة دولية عن العوامل النفسية والاجتماعية فى تكوين الإرهاب. والقصد كالعادة تجميع المعلومات، وتحليل العوامل، ورصد الإحصائيات، وعمل الرسوم البيانية، والاعتماد على النماذج الرياضية من أجل فهم ظاهرة الإرهاب. ولم يكن هناك أى بحث عن الواقع الحى والمعيشى فى المخيمات ورؤية مآسى الشعب الفلسطينى التى قد تغنى عن كل هذه المجردات التى تعمى أكثر مما تكشف، وتبعد عن الموضوع أكثر مما تقرب منه. فالاقتراب من الواقع الحى فى فلسطين أو العراق أو أفغانستان أو الشيشان قد يكشف عن العدوان الأمريكى البريطانى الإسرائيلى على الوطن العربى والعالم الإسلامى. فوظيفة العلم الكشف وليس التعمية، والدخول فى الموضوع وليس الدوران حوله، وعيشه ومعاناته وليس تجريده والابتعاد عنه.

ودعى إليه أسماء لامعة فى البحث العلمى ما يزيد على العشرين أكثر من نصفهم من الولايات المتحدة الأمريكية ثم بريطانيا ثم إسرائيل. ثم باحث واحد من كل من أسبانيا والنمسا وروسيا والأمم المتحدة وفلسطين ومصر. وتوزعت الأوراق على أربعة محاور على أربعة أيام. الأول كيفية دراسة الجذور النفسية والاجتماعية للإرهاب. والثانى البواعث الفردية والجماعية للانخراط فى العنف السياسى. والثالث العوامل الاجتماعية والثقافية والدينية والأعمال الاستشهادية التى يطلق عليها لفظ القنابل الانتحارية. والرابع الخطوات العملية لدى علماء النفس والاجتماع للإقلال من خطر الإرهاب.

والغريب أن كل البحوث المقدمة تبدأ من الأحكام المسبقة المعروفة المكررة آلاف المرات، ربط الإرهاب بالإسلام وبالفلسطينيين وبالعراقيين وبالأفغان وليس بالمسيحية ولا بالنزاع الدموى بين البروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا

(*) الاتحاد: ٨ أكتوبر ٢٠٠٥، الزمان: ٧ أكتوبر ٢٠٠٥، الدستور: ٩ أكتوبر ٢٠٠٥.

الشمالية، ولا بالصراع فى بلاد الباسك على حدود فرنسا وأسبانيا، ولا بالهندوكية وإسالة الدماء فى سريلانكا، ولا بالجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة الأمريكية من اليمين كما تم فى تفجير مبنى الحكومة الاتحادية فى أوكلاهوما، ولا باضطهاد المسلمين الأتراك فى ألمانيا خاصة، وسوء معاملة العرب والمسلمين فى كل أنحاء أوروبا. فالربط جوهرى بين الإسلام كدين والإرهاب كعنف دون ما ذكر للظروف النفسية السياسية والاجتماعية التى أدت إلى استعمال العنف فى حالة الاضطهاد وغياب أى أساليب أخرى للمقاومة. وتؤدى الأحكام المسبقة إلى الإدانة المسبقة. فالمقدمات هى النتائج، والأهواء هى الحقائق. المقاومة الفلسطينية إرهاب، والمقاومة العراقية إرهاب، والمقاومة الأفغانية إرهاب، وحزب الله تنظيم إرهابى، وسوريا نظام إرهابى يسمح بتسلل الإرهابيين العرب عبر الحدود المشتركة مع العراق، ويؤيد حزب الله، والنظام الإيرانى إرهابى لأنه يرفض الدخول فى بيت الطاعة الأمريكية دفاعا عن استقلاله الوطنى وحقه فى امتلاك القدرات النووية، وإسرائيل مدججة بأسلحة الدمار الشامل النووية والكيميائية.

وما يرعب الولايات المتحدة هو أن تتسرب أسلحة الدمار الشامل إلى "الإرهابيين" وكأنها حكر على الدول الكبرى وحدها. ولا ترى خوف الدول الصغرى منها وهى فى يد الدول التى هدفها العدوان وتكوين إمبراطوريات جديدة مثل أمريكا وإسرائيل. الغاية هى احتكار الإرهاب ضد من يقاوم هذا الاحتكار.

والخلط واضح دائما بين الإرهاب والمقاومة، بين العنف العبثى غير المسئول على أتفه الأسباب بالرغم من وجود بدائل أخرى كالحوار والحلول السلمية، والعنف الهادف الذى هو حق شرعى للإنسان للدفاع عن النفس فى حالة العدوان. لذلك لم توجد ورقة واحدة لتحديد معنى الإرهاب، للهروب من الموضوع برمته. وما أسهل التعليل بالجواهر الثابتة مثل الإسلام أو العروبة أى بالأيديولوجيات وليس بالظواهر الاجتماعية والسياسية طبقا لرؤية شعوبية عنصرية تلصق الإرهاب وغيره من الظواهر مثل التخلف وغياب حقوق الإنسان ومظاهر الاضطهاد والقهر والتسلط بطبائع الشعوب والثقافات.

وتغطى الأوراق كل شىء فرعى وتترك كل شىء رئيسى. تتكلم عن ردود أفعال الإرهاب عند أطفال فلسطين، وأثر تدمير المدارس على نفسيتهم، وكيفية التأقلم مع الإرهاب، ورغبتهم فى العيش فى سلام! ولا شىء يُذكر عن الاحتلال وإرهاب الدولة. فالإرهاب من الفلسطينى للفلسطينى وليس من الإسرائيلى إلى الفلسطينى.

ويحضر الأمريكيون والإسرائيليون بكثافة فهم الضحية! ويغيب العرب والمسلمون إلا القليل فهم الجلادون! ويتحول المؤتمر أو الندوة إلى إرهاب الأغلبية للأقلية. وقد يحضر باحث عربى أمريكى يفكر على استحياء، ويتكلم بحساب. ويتحول العلم الرصين إلى سياسة فاضحة. وتتحول وجهات النظر المختلفة إلى صراع قوى. وينتقل الصراع بين العدوان والمقاومة فى فلسطين والعراق وأفغانستان إلى حلقات البحث والندوات العلمية. فالباحث يدافع عن سياسات ولا يبحث عن حقائق. وهو ما يثير من جديد قضية الصلة بين المؤسسة الأكاديمية والمؤسسة السياسية،

والاستقلال العلمى للجامعات. وهو نفس السؤال المثار لدينا بين المؤسسة الدينية والإعلامية من ناحية والنظام السياسى من ناحية أخرى.

ويشعر الباحث العربى أنه واقع تحت إرهاب العلم ونظام العالم والكون. ويشعر بضعفه وعجزه وغياب العرب. ويقدر الشهيد الذى يسمونه "القنبلة الانتحارية" الذى لم يعد له وطن ولا قريب ولا صديق. ولا يملك إلا نفسه يضحى بها طواعية واختيارا. لا يملك أسلحة الدمار من طائرات وصواريخ ومدرعات حتى يقاوم جيشا لجيش فى معركة متساوية الأطراف. الغلبة فيها لمن يحسن القتال.

وكان السؤال فى النهاية: من يُرهب من؟ من يخاف من؟ إنه الصراع الأبدى بين القوى والضعيف، بين الغالب والمغلوب، بين من يملك كل شىء ومن لا يملك شيئا، بين الجلاد والضحية.

وواضح أن مراكز الأبحاث فى الغرب والولايات المتحدة مازالت تفكر وكأنها مازالت فى أجواء الحرب الباردة. موضوعاتها نفس الموضوعات القديمة مثل العنف، الإرهاب، الصراع، الحرب. مازالت الذهنية فى عصر الحرب الباردة. ولم تحاول مد النظر إلى الأمام بعد الاعتراف المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وبعد التسليم بحق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس. ولقد رضى العالم كله بخارطة الطريق كدليل ومؤشر على طريق السلام. لم تتناول الأبحاث موضوعات مستقبلية مثل آفاق السلام، طرق السلام، شروط السلام، العيش المشترك، التنمية المشتركة، استثمار الموارد، المياه، الطاقة، العمالة. هذا لمن ينوى السلام. ومن الواضح أن الغرب يتحدث عن السلام ويفكر فى الحرب مثل إسرائيل تماما. ومراكز الأبحاث تعلم ذلك. ومازالت تخطط للحرب باسم الحرب على الإرهاب، بالغزو مرة وبمشاريع الشرق الأوسط الكبير والشرق أوسطية مرة أخرى.

فمتى يتغير الغرب ذهنيا؟ ومتى يعترف بالآخر المساوى له والكفء فى الحوار معه. ومازالت المركزية الأوروبية مصدر العنصرية الدفين هى التى توجه مراكز الأبحاث طالما ظل الاستقطاب قائما بين المركز والأطراف.

الفصل الرابـع

الإســـلام فى آسيــــا

١- ضمير الأمة.

٢- الجاسوسية بين الجريمة والاتهام.

٣- الدلالة المعاصرة للحج.

٤- خواطـر حاج.

٥- العدل الإلهى فى جنوب شرق آسيا.

٦- التشريع الجنائى الإسلامى بين الحقوق والواجبات.

٧- العقوبات البدنية وحقوق الإنسان.

١- ضمير الأمـة

استيقظت الأمة فى الآونة الأخيرة على صوت ضميرها، محو إسرائيل من على الخارطة، نقلها إلى أوروبا سبب مصائبها. وهاج الغرب أكثر مما هاجت إسرائيل: اطردوا هذا الصوت من الأمم المتحدة، أخرسوه إلى الأبد بتدمير سلاحه النووى. كيف يتجرأ على المقدسات والمسلمات والبديهيات؟

كان من الطبيعى أن يصحو ضمير الأمة بصوت أحد قادتها بعد أن تم التنازل يوما بعد يوم فى حقوق شعب فلسطين، من تحرير فلسطين إلى فتح معبر فى غزة. فقد تربى هذا الجيل الذى أوشك على الانقراض منذ النكبة الأولى فى ١٩٤٨ على تحرير فلسطين، من النهر إلى البحر، واسترداد حقوق شعب فلسطين كاملة غير منقوصة بعد أن تم العدوان عليه، وأخذ أكثر من نصف الأرض فى ١٩٤٨ عام النكبة، ثم الاستيلاء على النصف الآخر فى ١٩٦٧ عام النكسة أو النكبة الثانية. ثم بدأ التنازل التدريجى من تحرير كل فلسطين إلى إزالة آثار العدوان، والقبول بمشروع روجرز. فقد ضاع النصف الأول من فلسطين إلى غير رجعة. يكفى إنقاذ النصف الثانى من فلسطين بعد ١٩٦٧. اعترف العالم كله بإسرائيل منذ ١٥ مايو١٩٤٨ وأصبحت عضوا فى الأمم المتحدة وتقع المسئولية على العرب برفضهم التقسيم. فضاع منهم ما رفضوه. مع أنهم لو قبلوا التقسيم لاعتدت إسرائيل على دولة فلسطين كما اعتدت على الضفة الغربية. وما كان العرب نفسيا يقبلون نصف الوطن بعد أن كان الوطن كله لهم.

ثم تحول شعار إزالة آثار العدوان والانسحاب من الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧ إلى خارطة الطريق التى تقبل بوجود المستوطنات والجدار العازل، والقدس والمياه واللاجئين فى يد إسرائيل. ثم تحولت خارطة الطريق إلى الانسحاب من غزة، ثم من غزة إلى فتح معبر فى رفح بحضور طرف ثالث، الاتحاد الأوروبى لمنع مرور المطلوبين من المقاومة. يُغلق أو يُفتح طبقا لمزاج إسرائيل وأمنها. أما الممر الآمن بين الضفة والقطاع الذى تم الاتفاق عليه ولم يفتح حتى الآن إمعانا فى إذلال الفلسطينيين.

واعترفت ثلاث دول بإسرائيل، مصر والأردن وموريتانيا، قبل أن تنسحب إسرائيل من الأراضى المحتلة وقبل استرداد الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطينى. وسيناء منزوعة السلاح. وفى بعض دول الخليج والمغرب العربى مكاتب اتصال أو مكاتب تجارية لإسرائيل تمهيدا لإقامة العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع أن إسرائيل قد رفضت المبادرة العربية، انسحاب كامل فى مقابل اعتراف كامل وتطبيع شامل. ومازالت لدى إسرائيل أربعة عشر تحفظا

(*) الاتحاد: ٣١ ديسمبر ٢٠٠٥، الدستور: يناير ٢٠٠٦.

على خارطة الطريق وأولها رفض العودة إلى حدود ٤ يونيو- حزيران ١٩٦٧، ورفض الانسحاب من القدس، ورفض تفكيك المستوطنات، ورفض عودة اللاجئين. وأصبحت اللاءات أكثر من ثلاثة، لاءات الخرطوم، لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة مع إسرائيل.

وتم تغيير الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى كان ينص على إقامة دولة واحدة فى فلسطين متعددة الأعراق والطوائف. يتعايش فيها الجميع. ويحكمها نظام ديموقراطى. وقُبل التقسيم الذى كان رفض من قبل لإقامة دولتين، إسرائيل على ٧٨٪ من أراضى فلسطين، وفلسطين على ٢٢٪ منها. وقُبل وجود المستوطنات فى الدولة الفلسطينية، والقدس مدينة مفتوحة، والسيادة المشتركة على القدس والمسجد الأقصى، السيادة الإسرائيلية تحته حيث يقبع هيكل سليمان والفلسطينية فوقه، وعودة اللاجئين اختيارا لضم الأسر وبنسبة محددة إلى أراضى ١٩٦٧ وليس إلى فلسطين ١٩٤٨ حتى لا تتغير الطبيعة السكانية لإسرائيل، والأغلبية اليهودية فيها. والمستوطنات قائمة مع توسيعها رأسيا وليس أفقيا. والجدار العازل قائم يلتهم قرى فلسطينية بأكملها داخل إسرائيل بحجة الأمن والهدف الاستيطان.

وتم الصلح مع إسرائيل من الشقيقة الكبرى مصر أولا التى قادت الحرب، وبادرت بالسلام. وتم التطبيع علنا أو سرا قبل الانسحاب من الأراضى الفلسطينية المحتلة. وقبل العرب بكل اتفاقيات السلام، كامب ديفيد، أوسلو، وادى عربة. وقبلت فصائل المقاومة التهدئة مع العدو الصهيونى، والكف عن العمليات الاستشهادية، وإطلاق صواريخ قسام على المدن الإسرائيلية طبقا لتفاهمات القاهرة بين فصائل المقاومة والسلطة الوطنية. وفى نفس الوقت لم تتوقف حركة الاغتيالات لزعماء المقاومة وقادة الفصائل. وتشترط الآن إسرائيل والولايات المتحدة بل والاتحاد الأوروبى عدم دخول حماس الانتخابات التشريعية. ويتذرعون بالديموقراطية. وينقدون النظم التسلطية فى الوطن العربى. ويقع التناقض بين السلطة والمقاومة والتى قد تصل أحيانا إلى درجة النزاع المسلح وهو الخط الأحمر الذى لا تتعداه السلطة أو المقاومة.

فى هذا الجو العام من التنازلات المستمرة والإحباط المتزايد، والعجز المطلق ينطلق صوت الضمير من داخل الأمة الإسلامية بالتشكك فى المحرقة التى يستعطف بها الكيان الصهيونى شعوب العالم، ويتخذها ذريعة للعدوان الصهيونى على فلسطين وتأسيس دولة إسرائيل دون الحديث عن مذابح الشعب الفلسطينى على مدى أكثر من نصف قرن. فلا تقبل إسرائيل التشكك من أى شخص كان، أوروبيا أو غير أوروبى، أمريكيا أو غير أمريكى، فى عقائدها وأساطيرها المؤسسة لدولتها مثل الميثاق والوعد والأرض والاختيار والمدينة المقدسة والمعبد والهيكل، ولا فى المحرقة التى راح ضحيتها خمسة ملايين من اليهود على أيدى النازية. وقد سبق من قبل محاكمة جارودى، والقبض على إرفين فى النمسا لنفس السبب. والغرب يدعى حرية البحث العلمى، نزاهته وموضوعيته وحياده. ويصرح صوت الضمير بتحرير كل فلسطين من النهر إلى البحر، واسترداد حقوق الشعب الفلسطينى كاملة. وإذا كان الغرب معها إلى هذا الحد فلينشئها على أرضه. وإذا كانت المحرقة قد تمت فى ألمانيا النازية فلتزرعها على أرضها، وليس فى أراضى الغير. وقد

كانت مثل هذه البدائل مطروحة من قبل: الأرجنتين فى أمريكا اللاتينية أو توجو فى أفريقيا.

ليست القضية سياسة دولة وقنوات دبلوماسية وعلاقات دولية بل هى قضية ضمير. يصرح فى ماليزيا وفى إيـران ولـدى الـشعوب فـى باكـستان وأفغانـستان ومـسلمى الهنـد وأندونيـسيا. الـسياسة مبـادئ، والـسياسات استراتيجيات ومصالح. قد تكلف صحوة الضمير العدوان عليه والتحرش به. والذرائع موجودة التى سمحت من قبل بالعدوان على العراق، الأسلحة النووية، تخصيب اليورانيوم فى حالة إيران، العداء للسامية فى حالة ماليزيا، والتعصب الإسلامى لدى الشعوب الإسلامية. وقد يكون العقاب الطرد من الأمم المتحدة ومن باقى المنظمات الدولية والتى تسيطر عليها الأمم المتحدة وباقى القوى الكبرى. والأسد سيأكل الحمل على أية حال لتعكيره صفو الماء عليه.

صحوة الضمير تعبير عن الثورة وإن لم يكن تعبيرا الدولة، تعبير عن المبادئ وليس مراعاة للمصالح. قد يكون المحافظون فى الداخل ثوريين فى الخارج. وقد يكون الإصلاحيون ثوريين فى الداخل مهادنين للخارج. وفى هذه الحالة ما أحوج الأمة إلى قادة مصلحين فى الداخل ثوريين فى الخارج، (**أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

صوت الضمير، هو صوت الأجيال القادمة فى حالة تغير موازين القوى. هو الذى يحافظ على استمرار الأمة فى التاريخ ويحميها من الذوبان. يحافظ على هويتها، ويدافع عن كرامتها. يعبر عن المسكوت عنه ضد المنطوق به. هو الأمل الذى لا يضيع، والنار التى لا تخبو، والمبدأ الذى لا يساوم، والروح التى لا تموت.

٢- الجاسوسية بين الجريمة والاتهام

لا توجد علاقات دولية دائما. إذ تتغير التحالفات طبقا لتغير المصالح. فعداوات القرن التاسع عشر فى الغرب بين فرنسا وإنجلترا، وعداوات القرن العشرين بين فرنسا وألمانيا، والحرب الباردة بين الغرب والشرق، والصراع التقليدى بين حلف شمال الأطلنطى وحلف وارسو، كل ذلك انتهى إلى نوع جديد من العلاقات الدولية، أشهره الاتحاد الأوروبى، والعالم ذو القطب الواحد. وهناك علاقات دولية أخرى مازالت ثابتة فى نصف القرن الأخير بين الوطن العربى من ناحية والولايات المتحدة وإسرائيل من ناحية أخرى.

ويلعب الإعلام دورا رئيسيا فى تحويل أنماط هذه العلاقات الدولية من أجل أن تتحول الاختيارات والتقلبات السياسية لنظم الحكم إلى رأى عام وحتى لا تبدو مجرد قرارات فردية أو مملاة من الخارج. وهو جزء من عملية تزييف الوعى السياسى سواء فيما يتعلق بالسياسات الداخلية أو السياسات الخارجية. فالإعلام هو الذى يصنع التاريخ المعاصر. تتحكم النظم السياسية من خلاله أكثر مما تحكم بواسطة الجيش والشرطة وأجهزة الأمن.

ونموذج ذلك ما حدث أخيرا مع إسرائيل، بالإفراج عن الجاسوس عزام عزام بعد أن أدانه القضاء المصرى بجريمة التجسس وثبوتها عليه برسائل الشفرة مع الموساد الإسرائيلى. ورفضت السلطات المصرية أى ضغوط عليها من إسرائيل أو الولايات المتحدة من أجل الإفراج عن الجاسوس الإسرائيلى بدعوى استقلال القضاء المصرى، وعدم جواز تدخل السلطة التنفيذية فى السلطة القضائية. واحترم العدو قبل الصديق الموقف النزيه للنظام السياسى حرصا على الاستقلال الوطنى للبلاد. والناس فى دهشة. هل هناك عمال إسرائيليون فى مصانع الغزل والنسيج فى المحلة الكبرى، قلب مصر الصناعى؟

ثم تم الإفراج عنه فجأة وبلا سابق إنذار. فالسياسة لا تعرف الثوابت. كل شىء يخضع للتجارة، المكسب والخسارة، بشرط أن يكونا فعليين وليسا وهميين. فهل كان الدافع غزل إسرائيل ودفعها إلى قبول المفاوضات مع الفلسطينيين بعد أن كانت إسرائيل هى التى تسعى للتفاوض مع العرب؟ فشارون رجل سلام. ينسحب من قطاع غزة طوعا أو تحت ضربات المقاومة. لعله يقبل أن يطبق خارطة الطريق، وأن يكون الانسحاب من غزة مقدمة لانسحابات أخرى من الضفة الغربية، وبداية مفاوضات الحل النهائى فيما يتعلق بانسحاب إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو – حزيران ١٩٦٧ بما فى ذلك القدس الشرقية وحق العودة، والسيطرة على المياه. وهو ما ترفضه إسرائيل بلاءاتها

(*) الاتحاد: ٢٢ يناير ٢٠٠٥.

الثلاثة: لا للانسحاب، ولا للقدس العربية، ولا لحق العودة. وعين شارون "لا تكسر" بالإفراج عن جاسوس فى مقابل الاستيطان فى "يهوذا والسامرة". وهى طريقة إدارة الشئون السياسية الخارجية عن طريق "كسر العين"، وإكرام اللئيم ونسيان ثقافة شعبية أخرى تحذر من إكرام اللئيم.

قد يكون الدافع هو صفقة من أجل الإفراج عن الطلبة المصريين الستة فى سجون إسرائيل بتهمة المقاومة والإعداد لعمليات استشهادية فى بئر سبع. وشتان ما بين الموقفين. جاسوسية تضر بمصالح البلاد، واستشهاد يدافع عن كرامة الأوطان. والجاسوس الإسرائيلى يقبّل علم إسرائيل بعد الإفراج عنه. ويعلن بلهجة مصرية أنه كان ميتا فأحياه رئيس الوزراء الإسرائيلى. فاليهودى المصرى فى إسرائيل يهودى، فى حين أنه كان فى مصر مصريا. سجن الوطنى شرف، وإطلاق سراح الجاسوس خسة. فكيف يتساويان؟

وقد يكون الدافع هو غزل أمريكا عن طريق غزل إسرائيل، محميتها وربيبتها. لعلها تضغط على إسرائيل لقبول التفاوض، وتطبيق خارطة الطريق. ولماذا لا يتسابق العرب فى إرضاء سيد العالم والقطب الأوحد فيه؟ فقبول العولمة، وإسقاط إرادة الدولة الوطنية المستقلة، وإدخالها فى قوانين السوق أو الاستسلام لمطالب إسرائيل هما أقصر الطرق للتقرب إلى أمريكا وأكثرها نفعا. وهو تصور شعبى للسياسة الدولية يقوم على التشخيص والتأثير فى الرؤساء حتى تتغير السياسات الموضوعية التى تقوم على ميزان القوى.

ولمزيد من إرضاء إسرائيل وأمريكا وفى نفس الوقت الذى يتم فيه الإفراج عن الجاسوس الإسرائيلى بالرغم من إدانة القضاء له بجريمة التجسس والتخابر يتم توجيه الاتهام إلى موظف سابق فى السفارة الإيرانية وكان ذلك منذ عام مع مواطن مصرى بتهمة التجسس لصالح إيران. وإذا كان ذلك صحيحا فلماذا الآن وفى نفس توقيت الإفراج عن الجاسوس الإسرائيلى؟ قد يكون ذلك لمزيد من طلب القرب من الولايات المتحدة الأمريكية. فأمريكا تهدد إيران كل يوم. وتتهمها بإجراء التجارب النووية واستمرار المفاعلات الإيرانية بتخصيب اليورانيوم. وها هو دليل آخر على أن إيران مازالت لم تدخل بيت الطاعة بعد، وأنها "الولد الشقى" فى المنطقة، وأن النظام الثورى الإسلامى يثير القلاقل فى مصر، ويسبب الانزعاج لإسرائيل بتأييده سوريا وحزب الله، ولأمريكا برفض سياساتها فى فلسطين والعراق وأفغانستان. ومن ثم تعطى أمريكا دليلا جديدا يبرر لها العدوان على إيران كما اعتدت على العراق بنفس التهمة، امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وعلى أفغانستان بنفس الاتهام، إيواء جماعات الإرهاب.

والعجيب هو الاعتراف بأن الجمهورية الإسلامية ليست مسئولة مسئولية مباشرة عن التجسس بل فقط الحرس الثورى. وهو تنظيم مستقل يرعى الثورة وليس الدولة. والحرس الثورى يسبب مشاكل للدولة وللثورة معا. وكان يمكن حل ذلك بالطرق الدبلوماسية وفى صمت وليس عن طريق الإعلان، إبقاءً على العلاقات التاريخية بين مصر وإيران وعدم إعطاء الولايات المتحدة ذريعة إضافية للعدوان عليها. والتخابر بين الدول متعارف عليه. وكل دولة لديها جهاز

للمخابرات العامة لجمع المعلومات عن الأعداء والأصدقاء فى كل مكان حماية للأمن القومى ومصر وإيران ليستا بدعة فى ذلك.

مازالت العلاقات المصرية الإيرانية بين مد وجذر. كلما اقترب المد رعاية للمصالح المشتركة، وتبديدا لسوء التفاهم بين دولتين قائدتين فى المنطقة، مصر فى الوطن العربى، وإيران فى العالم الإسلامى. وكلما قاربت العلاقات المصرية الإيرانية على العودة بإزالة كافة العقبات مثل تغيير اسم شارع فى طهران، لقاء بين الرئيسين أسرع الجذر لمزيد من التباعد والاتهامات لصالح إسرائيل والولايات المتحدة ولهما أصابعهما فى أجهزة الإعلام أو بسبب التشدد المحافظ فى إيران الذى مازال يغلّب منطق الثورة على مصلحة الدولة، والنص على الواقع، والماضى على الحاضر والمستقبل. وظلت العلاقات المصرية الإيرانية تسير فى مكانها، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف.

إن مصر قلب الوطن العربى ودول الجوار خاصة إيران وتركيا تكون رصيد الصمود فى مواجهة القطب الواحد. وحولهما ماليزيا وأندونيسيا وأواسط آسيا بل والهند بعد نجاح حزب المؤتمر التقليدى، حزب غاندى ونهرو، وسقوط اليمين المتحالف مع إسرائيل والولايات المتحدة. إن الخلاف حول جزر الخليج بين الإمارات وإيران، والخلاف بين النظام الثورى فى إيران والنظام العربى المتحالف مع إسرائيل والولايات المتحدة، كل ذلك يمكن أن يوضع فى إطار التناقض الثانوى فى مواجهة تناقض رئيسى بين الوطن العربى والعالم الإسلامى من ناحية، والولايات المتحدة من ناحية أخرى.

فكيف يتم التضحية بمصائر الشعوب ومصالحها الدائمة من أجل مكاسب وقتية؟ وهل يمكن التغافل عن الواقع فى سبيل الوهم؟

٣ـ الدلالة المعاصرة للحج

الحج هو الركن الخامس فى الإسلام وأكثرها شعائرية. لذلك يسمى باستمرار "مناسك" أى شعائر. فى حين أن أقلها شعائرية هى الشهادة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الصلاة. وتعنى "حج" أيضا جادل وانتصر على الخصوم. ومن اللفظ أيضا الحجاج أى الجدل، والحجة أى الدليل. فالحج دليل على شيء وليس المقصود منه المناسك.

وقد ذكر لفظ "حج" بمعنى الدليل فى القرآن عشرين مرة، وبمعنى المناسك ثلاث عشرة مرة. فالحج دلالة ومعنى وليس شعيرة ونسك. والدلالة أهم من الدال. الدلالة فعل فى العالم وجهاد فيه (**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله، والله لا يهدى القوم الظالمين**). فمساواة الشعيرة بالدلالة ظلم لأنهما لا يستويان. وقد تعنى الحِجَّة السنة لأنها مرة واحدة فى العام يتخلله فعل وعمل وزراعة وتجارة وإنتاج كما طلب شيخ مدين من موسى أن يعمل لديه ثمان حجج وإن عشرا فمن عنده كمهر تزويج ابنته إليه (**على أن تأجرنى ثمان حجج، فإن أتممت عشرا فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك. ستجدنى إن شاء الله من الصالحين**). فالحج تطوع وليس مشقة، لمن استطاع إليه سبيلا (**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**). والاستطاعة ليست فقط المال أو الجسم بل أيضا القبول العقلى. وهى القدرة على إتيان الشعائر. منها عزائم ومنها رخص. فإن لم يستطع إتيان الشعائر كلها عزيمة وحرفيا فعليه ما استيسر من الهَدْى. ومن لا يستطيع التحليق فعليه الفداء أو الصيام أو الصدقة أو النسك (**فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى. ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدْى محله. فمن كان مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**). فمن لم يجد الهدى فى العمرة أو الحج فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة بعد الرجوع إن لم يحضر أهله المسجد الحرام (**فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة. ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام**).

وفى الممارسة الاجتماعية تحول الحج عند البعض إلى غرور وجاه ولقب وزفة وتجارة ومنافع ومزايدة فى الدين ورغبة فى الشهرة والتستر على الغش والنهب والاستغلال بالدين والمظاهر الشكلية. مع أن المقصود من الحج طهارة النفس، وتقوى القلب (**فمن فرض فيهم الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج**)، (**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**).

ودلالة الحج الأولى هى الوحدة، وحدة البشر جميعا ووحدة الأمة. ثلاث ملايين من الحجيج فى مكان واحد

(*) الاتحاد: ٢١ يناير ٢٠٠٦، الزمان: ٢٢ يناير ٢٠٠٦، الدستور: ١٩ يناير ٢٠٠٦.

وزمان واحد وبهتاف واحد "لبيك اللهم لبيك، إن الحمد والنعمة لك والشكر" تعلن عن القوة الضاربة لمليار وربع من المسلمين، خمس سكان المعمورة، فى لحظة تاريخية واحدة، ومن موقع واحد، ولهدف واحد، لا فرق بين جنس ولون ولغة وعرق. الحج فى ميقات واحد (**يسألونك عن الأهلة كل هى مواقيت للناس والحج**)، (**الحج أشهر معلومات**). أما الواقع فمختلف تماما. فالأمة ممزقة مختلفة. يعتدى بعضها على البعض الآخر بالاحتلال المباشر أو بمعارك الحدود أو بالحروب الأهلية الداخلة أو بالانقسام العرقى والطائفى أو بتضارب المصالح والأهواء.

والدلالة الثانية المساواة التامة بين البشر. فالكل فى لباس واحد، لباس الإحرام، عارى الكتف، بلباس أبيض وخف غير مخيط، لا فرق بين فقير وغنى، عظيم وحقير، حاكم ومحكوم، قوى وضعيف، رئيس ومرؤوس. "كلكم لآدم وآدم من تراب"، "وأنا شهيدا على أن عباد الله إخوان". خلق الناس جميعا من نفس واحدة. لهم وحدة المصدر ووحدة المصير. يقف الإنسان الطبيعى كما ولدته أمه دون زيف حضارى أو طبقة اجتماعية من لباس أو مركب أو مسكن. أما الواقع فمختلف تماما. هناك الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والحكام والمحكومون، والأسياد والعبيد، والسجانون والسجناء، والملوك والرعايا، والسلاطين والعامة.

والدلالة الثالثة وجود مركز للأمة الإسلامية، بيت الله الحرام تطوف حوله، وجبل عرفات يصعدون إليه. فالأمة بما لها من ثقل يصعب أن تكون طرفا لمركز آخر. كان الهدف من مناسك الحج أن يصبح لشبه الجزيرة العربية مركز قديم جديد، للتجارة والإمارة، للثروة والسلطة. وكان الرسول يستقبل الوفود من الحجيج. وكانت مكة مركز تجارة القوافل بين الشمال والجنوب، رحلتى الشتاء والصيف. ونشأت دولة جديدة من وسط شبه الجزيرة العربية تفرد جناحها شرقا على إمبراطورية الفرس، وغربا على إمبراطورية الروم. والآن أصبحت الأمة الإسلامية طرفا لغيرها من المراكز فى الغرب أم فى الشرق سواء فى عصر الاستقطاب أو فى عصر القطب الواحد. إذ يسهل بعد تفتيت الأمة أن تنجذب أجزاؤها إلى هذا القطب أو ذاك. والمركز هو البيت العتيق، أول بيت وضع ببكة. وإبراهيم أبو الأنبياء. وهو أول المسلمين (**فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما**) وهو مكان الأمن والسلام وليس الخوف والعنف والقتل المتبادل (**إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بيّنات، مقام إبراهيم. ومن دخله كان آمنا**).

والدلالة الرابعة أن الحج مؤتمر سنوى للأمة تعلن فيه عن موقفها من العالم بين الأصدقاء والأعداء. وخطبة الوداع التى ألقاها الرسول على جبل عرفات أشبه بخطاب حال الاتحاد الذى يلقيه الرؤساء مرة فى العام لإخطار الشعب بوضع الدولة وعلاقاتها بالدول الأخرى وكما هو واضح فى سورة "براءة" التى تعلن موقف المؤمنين من المشركين فى حالة عقد معاهدات السلام والأمن بين الفريقين أم فى حالة نقضها. (**وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله**). فإن تابوا فالصلح وإن تولوا فالحرب. أما الذين لم ينقضوا عهدهم مع المسلمين ولم يظاهروا أحدا عليهم فإن لهم السلم والأمان. وإن استجار أحد منهم المسلمين فله أمنه وعهده عند المسجد

الحرام. فإن نكث بالعهد فإنه يكون مع الأعداء. يغتاظ قلوبهم ولا يرقبون فى المسلمين إلاً ولا ذمة. يرضون المسلمين بالأفواه وليس بالقلوب. وهو اختبار للمسلمين. أما اليوم فقد تحول الحج إلى شعائر فارغة من أى مضمون بدعوى لا سياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة. والحج دلالة رمزية على مسار الأمة فى التاريخ بين أصدقائها وأعدائها كما هو الحال فى خطبة الوداع. وطالما نقضت الولايات المتحدة وإسرائيل عهودها مع المسلمين بالعدوان على أوطانهم، وامتلاك أراضيهم، واستنفاذ ثرواتهم، ومحو هويتهم بالرغم من كل الاتفاقات والمواثيق والعهود.

والدلالة الخامسة، رمى الجمرات على الشيطان بعشرات الحصى وحماس الحجيج لذلك. يدفعون بعضهم بعضا إلى درجة الموت دفعا ودهسا بالأقدام حتى تمتلئ الأرض من فوق الجسور بمئات الأطنان من الحصى. والسؤال اليوم من هو الشيطان الأكبر؟ أليس إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وأين هو؟ أليس فى فلسطين والقدس والمسجد الأقصى؟ ولو أن هذه الملايين الثلاثة قد زحفت إلى القدس فى حركة مقاومة سلبية كما فعل غاندى فى الهند لتحريرها من الاستعمار البريطانى بقعود الملايين فى الميدان العام فلا تقوى الخيل البريطانية المرور فيه، لتم تحريرها. ولو أن هذا الحصى كان صواريخا تطلق على المستوطنات الإسرائيلية لما بقى أحد منها فى الأراضى المحتلة. فأين المعركة؟ وأين الرمى؟ وأين العدو؟ ألا يمثل الشيطان أهواء النفس وانفعالاتها، وأنه بالداخل وليس بالخارج كما قال الصوفية؟

والدلالة السادسة، ألا يمثل السعى بين الصفا والمروة البحث عن الماء للبقاء وعن الزرع للحياة (**إن الصفا والمروة من شعائر الله**). ألا تعنى مياه زمزم تفجير الينابيع من الأرض للإبقاء على الحياة. (**ربنا إنى أسكنت ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة. فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**). فالمياه والزرع والاستقرار تعنى التنمية والعمران. ومازالت الصحارى قاحلة، والمياه نادرة.

والدلالة السابعة الفدى أى الضحية أى فداء الإنسان بالكبش. فالإنسان لا يُذبح حتى ولو كان بأمر الوحى فى المنام. الإنسان قيمة مطلقة مهما كانت الظروف (**وفديناه بذبح عظيم**). والواقع انتهاك حقوق الإنسان، وآلاف المعتقلين السياسيين، والمعذبين فى السجون، والحشر فى وسائل النقل العامة والمدرجات الجامعية، وسكان النجوع وأطفال الشوارع وقاطنو المقابر.

إن الحج له منافع للناس وليس مجرد شعائر وطقوس بل إن المنافع سابقة على ذكر الله (**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا، وعلى كل ضامر يأتيك من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس والفقير ثم ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق**). فالطواف يأتى فى النهاية وليس فى البداية. وإطعام الجائع والفقير يأتى فى البداية وليس فى النهاية.

تلك هى الدلالة المعاصرة للحج والتى تتجاوز الشعائر والطقوس والأشكال الخارجية إلى المضمون فى القلب وفى حياة الناس، التقوى الباطنية ومصالح الأمة.

٤- خواطـــر حـــاج

دق جرس الهاتف خلال النهار قبل عيد الأضحى بأسبوع، يبلغ دعوة من وزير الإعلام والثقافة فى المملكة العربية السعودية باعتبارى أحد ضيوف شرف المملكة فى الحج هذا العام. وكان صوتا رفيعا ذا جلال ووقار، من طبيعة المملكة وهيبتها. فرفضت على التو. فالوقت متأخر. ومثل هذه الدعوات يُخطط لها من قبل بعدة أشهر حتى يتم وضعها فى برنامج المدعو جيدا بوقت كاف. فالمفكرون لديهم ما يشغلهم من مشاريع الإصلاح. واحترامهم واجب وضرورى. هذا بالإضافة إلى أن المدعو قد قام بالعمرة من قبل، وعرف كيف يؤديها الناس. وحج جديد قد لا يزيد المعرفة به كثيرا. وهل يملك المفكر أسبوعا يقضيه فى الحج وهو فى بداية كتابة محاولته الرابعة لإعادة بناء العلوم الإسلامية القديمة، علوم التصوف. ويريد إنجازه بعد عام؟ وهذا العام يخلو من الأسفار الكثيرة مما يسمح بالتدوين السريع. وحدث ذلك بعد استشارة زوجته لعل لها رأيا آخر. وكانت تخشى عليه، وهو المفكر الحر، من المجتمع المحافظ ونظم الحكم التقليدية. ومازال حادث اختطاف بن بركة واغتياله فى الأذهان.

وأثناء الليل ربما هتف هاتف: هب أنها دعوة لندوة أو مؤتمر أو محاضرة أو حوار أتكون قد رفضت؟ ولماذا لا تعتبر الحج مثل الندوة؟ إقبل وازدد معرفة. فالعمرة الأولى مجرد "بروفة" للحج، تخلو من الملايين. وأنت لم تزر المدينة ولا قبر الرسول. ولا تعرف عرفات ومنى ورمى الجمرات وكل مصطلحات الحج كالميقات والتشريق والهدْىَ والتحليق، والرمية الكبرى والرمية الوسطى والرمية الصغرى. وأسررت إلى الزوجة الهاتف الجديد فنصحت بالقبول إذا كانت الدعوة مازالت قائمة؟

وبعد السؤال، الدعوة مازالت قائمة، والمغادرة بعد أربعة أيام. المهم إرسال جواز السفر وصورتين للقيام بإجراءات تأشيرة الدخول وإصدار بطاقة السفر. ولما كان اليوم هو الاثنين، موعد الدراسات العليا بعد الظهر، وكانت وكالة الأنباء السعودية بجوار كوبرى الجامعة أخذتهما بنفسى قبل الدرس. وأرسلت أحد المساعدين بعد يومين لاستلام تأشيرة الدخول وبطاقة السفر. وبالفعل بدأ الاستعداد للسفر، المغادرة يوم الجمعة والعودة يوم الخميس، ستة أيام بأكملها يستطيع الباحث أن يكتب فى الصباح الباكر قبل أن يغادر لتأدية المناسك. وأخذ معه آخر نص "رسالة المسترشدين" للمحاسبى لتحليلها وبعض رسائل الترمذى وأصحاب الشطحات ونصوص الحلاج لتكفى عمل ستة أيام، ونسخة من كتابه الأخير "حصار الزمن" الذى يهدف إخراج الأغلبية من أسر الماضى، وانحسار الطبقة الوسطى عن الحاضر، وقفز الأقلية نحو المستقبل. وقد تصور أنه يوجد على الأقل كرسى ومنضدة ومصباح، وأنه قادر بين

(*) أخبار الأدب: ٢٢ يناير ٢٠٠٦.

المناسك على أن يفكر وقت الراحة. فيعمل العقل مع عمل الجوارح.

وفى يوم الخميس مساء ليلة السفر عرف الأهل والأصدقاء بسفر الحاج. فقد أبلغت إحدى الأخوات التى اتصلت مصادفة للتهنئة بالعيد القادم. وما أن علمت حتى ذاع الخبر. فالمجتمع مجتمع حكاية. يُذاع فيه الخبر أسرع من أجهزة الإعلام وثورة الاتصالات الحديثة. وانهالت المكالمات للتهنئة بالسفر إلى الحج لأنها مكتوبة مع أنها قرار فردى لا دخل فيه لأحد. وكل مكالمة تطلب دعوة وتحقيق مصلحة فردية. فالأم تريد دعوة كى تنجب ابنتها. والأخت تريد تذكير الرسول بما طلبته منه سابقا وهى مجاورة فى مسجده لمدة شهر. وكانت النية معقودة على ثلاثة أشهر لولا أن المدة القصوى لتأشيرة الحج شهر الواحد. وثالثة تريد أن أختار لها دعوة وظروفها معلومة. وتجمعت فى ليلة حاجات المجتمع المصرى وإحباطاته، وعجزه عن تحقيق ما يريد. ولم يبق له إلا الدعاء فى الحرم المكى أو المسجد النبوى كملجأ أخير، بالرغم من وصف إقبال الدعاء بأنه سؤال وشحاذة. ومن يريد شيئا عليه أن يحققه بنفسه وجهده. ويستطيع عالم الاجتماع جمع هذه الطلبات وتحليلها اجتماعيا لمعرفة حاجات المجتمع وكيفية تحقيقها كما فعل آخرون فى تحليل النداءات على عربات النقل فى "هتاف الصامتين" أو فى الرسائل التى يرسلها أصحاب الحاجات إلى مسجد الإمام الشافعى فى "رسائل الإمام الشافعى". وفضل بعض الأقارب الجيران الزيارة شخصيا، للتهنئة فى المساء مع الأطفال. وعادة ما تكون ليلة السفر لإعداد الحقائب وتذكر ما يجب أخذه خشية النسيان. وفى نفس الوقت، الخميس مساء، يتحدث أحد نجوم الصحافة يحكى قصة حياته كرواية مشوقة بطلها راوى القصة والأحداث تدور حوله كلما اقتربت القصة من النهاية والأحداث المعاصرة التى هو ليس فقط شاهدا عليها بل صانعها. واختلط نظام الأولويات بين الرد على المكالمات الهاتفية والزيارات الشخصية والواجب السياسى لمعرفة كيف تُروى أحداث العصر خاصة وأن الراوى قد اقترب من مقدمات ثورة يوليو والمفكر أيضا أحد شهودها. كانت ليلة مرهقة بسبب الضغوط الاجتماعية على الأفراد، وسيطرة الدين كملجأ وملاذ.

كانت الحيرة يوم السفر بأى ملابس يسافر الحاج، باللباس العادى ثم يغيره بعد الوصول إلى ملابس الإحرام، وهو أقرب إلى التواضع وإخفاء النوايا وأقرب إلى التقوى أم لبس الإحرام منذ مغادرة المنزل فيرى الجيران الحاج ويدعون له بقبول الدعوة، وهو يزهو عليهم بالإيمان الفياض، وبالنعمة الوفيرة؟ وفى الأحياء الشعبية تصدح الزغاريد من النوافذ من ربات البيوت، ويصاحب الأطفال العربات حتى تزداد سرعتها عن سرعتهم. وفضل الأستاذ الخيار الأول، وغادر بالملابس العادية. ووجد الناس فى المطار وقد فضلوا الخيار الثانى، زى الإحرام، يختالون من لحظة وزن الحقائب حتى لحظة عبور الشرطة والصعود إلى الطائرة. وتذكر العالم قول المسيح: إذا أردت أن تصلى فلا تصل أمام الناس حتى لا تأخذ جزاءك منهم بل ادخل إلى غرفة وأغلق الباب وصل لله حتى لا يراك إلا أبوك الذى فى السماوات. والشعائر تظاهر أمام الناس. وأكثر الشعائر مظهرية، مناسك الحج. وفى الطائرة البعض يلبى بصوت مرتفع، يقود باقى الأصوات. والبعض الآخر يقرأ القرآن. يسبّل بعينيه، ويتمتم بشفتيه، ويتراقص برأسه من عمق التدبر، والزبيبة

على الجبهة. وفضلت تحليل التائية الكبرى "نظم السلوك" لابن الفارض استعدادا لتحليلها فى "من الفناء إلى البقاء" لإعادة بناء علوم التصوف.

وأثناء الطيران يعلن قائد الطائرة أن من أراد الإحرام الآن فليفعل. فنحن نطير الآن بالقرب من الميقات حيث يجوز بدء الإحرام. وكيف يتم ذلك فى الطائرة ودورة مياهها لا تتسع لخلع الملابس العادية ولبس ملابس الإحرام؟ وهما دورتان للدرجة السياحية لا تتسع لعدد غفير. ولم يتحرك أحد. فمن نوى الإحرام فعل فى منزله. ومن نوى بعد الوصول فإنه ينتظر.

كان الطيران المدنى العادى قد توقف منذ يومين. وكل المسافرين ينتقلون إلى قرية الحجاج حيث ينتظر الجميع ساعات وساعات للتأكد من تأشيرة الحج. وبالرغم من دعوة مجموعة من الإعلاميين والفنانين والمفكرين، حوالى خمسة عشر، والبعض مع زوجاتهم وانتظار وفد من وزارة الثقافة والإعلام فى قرية الحجاج فقد استغرقت إجراءات الخروج حوالى ساعتين، أوراق تُعد، وأوراق تُلصق، وأوراق تُملأ، ومعلومات مكررة ومعروفة منذ ملء استمارة طلب تأشيرة الدخول، وعشرات الإجراءات بلصق كوبونات وأرقام سرية من أكثر من جهة: المطار، وزارة الحج، أجهزة الأمن. واختلطت الانفعالات بين السعادة للقدوم والشقاء لطول الإجراءات الإدارية. وكان آخر الذين أنهوا إجراءات الخروج هو الوفد الرسمى المدعو دعوة رسمية لكثرة الإجراءات وضرورة الإعفاءات من رسوم الحج. وتمنى المدعو رسميا أن يكون ضمن عامة الحجاج حتى تقل الإجراءات، ويسرى عليه ما يسرى على باقى البشر. ويتعامل الموظفون مع القادمين المحرمين كوحدات بشرية أو كائنات حية، تتماثل وتتشابه، وليس كأفراد، لكل منها شخصيته المستقلة واحترامه الواجب. فلأمن النظام الأولوية المطلقة على كرامة الفرد. وتم الوصول إلى فندق "السلام هوليداى إن"، لفظ عربى يوحى بدلالات سياسية معاصرة، ولفظ وافد يوحى بصناعة أمريكية. كانت النية وضع كل شخصين فى غرفة واحدة مما أثار المفكر، واعتراض الجميع. فالعادات مختلفة، والسن متقدمة، والعالم يستيقظ قبل الفجر للكتابة مما يقلق شريكه فى الغرفة. فتم التراجع على الفور.

وفى اليوم التالى اختار البعض الذهاب إلى مكة لطواف القدوم وسعيه. واختار فريق آخر الذهاب إلى المدينة لأنه سيذهب إلى مكة لقضاء مناسك الحج فى اليوم التالى فى كل الأحوال. وانضم المفكر إلى فريق المدينة. استغرق الطريق حوالى أربع ساعات. وبعد الاستقرار فى فندق ماريوت دقائق حتى حملت عربة الفندق المجموعة إلى المسجد النبوى، المدينة أقل ازدحاما من مكة، وأكثر عصرية وحداثة. والمرور أمام قبر النبى يتطلب السرعة. وحرس المسجد والجنود يهيبون بالإسراع. وبين القبر والمنبر الروضة الشريفة، يصلى فيها المسلمون كى يغفر الله لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تأخر. وقد جلس المفكر بين المنبر والقبر كى يشعر برياض الجنة ودون أن يتنازل عن مسئوليته عن أفعاله وعن قانون الاستحقاق.

وطريق العودة من المدينة إلى مكة استغرق ضعف مدة القدوم من مكة إلى المدينة لأن الناس تريد القيام بطواف القدوم وسعيه. والتفتيش على الطريق يوقف العربات والهاربين والقائمين إقامة لاشرعية. وقبل كمين التفتيش بأمتار تتوقف الحافلات لينزل من بطنها من أماكن العفش بعض الأسيويين الهاربين. وطوابير السيارات طويلة يستغرق المرور على نقطة التفتيش ساعات وساعات لإبراز جواز السفر أو تصريح المرور أو الدعوة للزيارة. وما أسهل من إقامة أكثر من نقطة كى يمر الحجاج سريعا بدلا من عذاب الانتظار.

ثم يتم الوصول إلى مكة، مدينة مغلقة. لا تسير فيها العربات أو الحافلات للازدحام، وسد الطرقات بعيدا عن منطقة الحرم المكى، ولدخول المصلين أو خروجهم من الحرم فى صلاة الفجر. ولما كان المدعوون مجموعة ممثلة من كافة العالم الإسلامى ما يقرب الستين لم تنتظم المواعيد، وكأن التأخير هى السنة المتبعة فى حين أن الإسلام هو دين الوقت، والمحافظة على أداء الواجبات فى أوقاتها حتى لا تتم قضاء بل أداء، وليس على التراخى بل على الفور. وكثيرا ما تدافعت الوفود للحاق بشىء دون نظام، والإسلام دين النظام، وأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج فى الصلاة.

والطواف حول الكعبة تضيق دوائره بالقرب منها وتبتعد دوائره بالبعد عنها حتى تصل إلى الطوابق العليا فى الحرم. ودورة منها على هذا الاتساع تعادل سبع دورات ضيقة حول الكعبة مباشرة. وتتقاتل الناس فى الطواف رجالا ونساء، شيوخا وأطفالا. كل رجل يحمى نساءه أمامه، ويحوط حولهن ذارعيه أو يحمل أطفاله على كتفيه. الرجال ملفوفون بالبياض والنساء متلحفن بالسواد. والكل يرفع يديه، يحيى مقام إبراهيم. أما الوصول إلى الحجر الأسود لتقبيله أو رؤيته من بعد فمن شبه المستحيلات. والكعبة بناء أسود مغطى بقطيفة سوداء مذهبة عالية البنيان، عريضة الحائطين. يلف الناس حولها. توحى للناظر بالوثنية القديمة فى العصر الجاهلى قبل أن يطهرها الإسلام من الأصنام، وينظم الطواف حولها بلباس الإحرام، كتف عار وليس بالعرى كله، وبالهتاف والدعاء وليس بالتصفيق والأجراس، ربطا الجديد بالقديم، وبالمسلمين بالحنفاء، وللرسول بإبراهيم، من بقايا الوثنية القديمة وبعد تهذيبها. وحول قبة صغيرة تكاد لا ترى أمام ضخامة الكعبة وجموع الطائفين ترفع الأيدى للتحية. إنه مقام إبراهيم. وفى الشام أيضا، المسجد الإبراهيم فى نابلس. فإبراهيم هو أول المسلمين، وأمته هى أمة الإسلام. والسعى مثله سبع مرات بين الصفا والمروة مغطى بسقف الحرم، أقل ازدحاما. ويستطيع ذوو الحاجات الخاصة استعمال كرسى بعجلات يدفعها هو بنفسه أو من أحد الأقرباء. ويسعى وهو جالس. وأمام الحرم النبوى ساحة كبيرة يفترش الناس فيها العراء. وتقوم آليات التنظيف الحديثة بكنسها أولا بأول. وتلم الشباشب والأغطية والأمتعة الخاصة ومخلفات الأطعمة فى أكياس كبيرة من البلاستيك ثم تنظف الرخام بالماء وتجففه ليعود إلى الاتساخ من جديد. وأمام الساحة على الجهة المقابلة دورات المياه لقضاء الحاجات.

ويوم عرفات زحف الحجيج إلى الجبل من عشرات الطرقات والجسور مثل جيش سليمان، نمل أبيض يتحرك من كل حدب وصوب إلى أعلى. وعلى جانبى الطرقات عربات الإسعاف أو الطعام أو الشراب، وتقذف عربات النقل

الكبرى وعليها أسماء الملوك علبا من الوجبات الجاهزة أو أكياسا من الماء البارد. ويحمل البعض أطفالهم على الأكتاف هذه المسافات الطويلة ولعدة ساعات أو يصحبوهم لو كانوا قادرين على السير. وهناك مكاتب للحجيج الضائع مثل مكاتب الأشياء المفقودة. والكل يلبى. وبين الطرقات والهضاب تبدو الخيام مزروعة فى كل مكان، قباب فى قباب، لها نفس اللون البنى الفاتح. وما ليس له خيمة تحميه، الشوارع تأويه إما فى خيم يدوية، مجرد قبة من القماش على مربع من الصلب لحمايته، وفى الغالب زرقاء اللون أو فى العراء فوق الأرصفة أو تحتها، نساء وأطفالا وشيوخا وشبانا بجوار سلال القمامة والقطط تسرح بينها وتطوف حولها ودون دورات مياه. ووسط الطرقات تسير العربات، فى داخلها بشر، وفوقها بشر، وعلى جوانبها بشر. تبدو وكأنها مجموعة متحركة من البشر. لا تتوقف. تسير ببطء وتؤدة، وشمس واحدة تسطع عليها، وتتجه نحو غاية واحدة، وتبتهل إلى إله واحد. وتخلو من خطبة الوداع كما فعل الرسول فى حجه الأخير على عرفات. يبين فيها حال الأمة. فالغاية من هذا التجمع الكبير هو إعلان حالة الأمة ومسارها فى التاريخ، بين أصدقائها وأعدائها، بين انتصاراتها وانكساراتها، بين إنجازاتها وتحدياتها. مازال الخوف من تسييس الحج قائما، ومن ثم تم تفريغه من مضمونه، بدعوى لا سياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة. والإسلام لا يعرف هذه التفرقة بين ما يجب أن يكون، وهو الدين، وما هو كائن أى السياسة. اليهودية ملكوت الأرض، والمسيحية ملكوت السماوات، والإسلام تحقيق ملكوت السماوات فى الأرض. هو تحقيق المثال فى الواقع (**إن هذا الدين لواقع**)، وخشية أن يختلف المسلمون مع أن الاختلاف رحمة. والتوحيد قادر على جمع الأمة على الحد الأدنى من الاتفاق على المصالح العامة. وأين تتجه هذه الملايين نحو عرفات أم نحو القدس؟ مقاومة سلمية تحج إلى القدس، إلى المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين كما فعل غاندى فى الهند عندما جلس ملايين الهنود على الأرض فى الميدان العام الذى لم تستطع سنابك الخيل البريطانية دهسه، وكما فعل المسلمون فى طهران عندما وقفوا بالملايين يحيطون بالكلية الحربية الموالية للشاه.

وفى لقاء مع صاحب الدعوة، وزير الثقافة والإعلام، وبعد مفتى الجزائر ومفتى تركيا ومفتى الفلبين عن دلالة الحج فى حياتنا المعاصرة وإلقاء خطب الوعظ والإرشاد فى الحج، طُلب من المفكر الحديث. فركز على دلالته المعاصرة فى خمس: الأولى، المفارقة بين التوحيد والتجميع ولم الشتات والاجتماع فى مكان واحد وزمان واحد لكل المسلمين من كل حدب وصوب ومن كل فج عميق من ناحية وفرقة الأمة فى الواقع لدرجة الحروب بينها وعدوان بعضها على البعض الآخر وعمق الانتماءات القطرية والقومية والعرقية والطائفية والقبلية والعشائرية من ناحية أخرى . والثانية، المفارقة بين المساواة التامة للبشر فى القامة واللباس والشكل واللون بما يدل عليه الإحرام والتفاوت الطبقى والاجتماعى والبشرى بين المسلمين، أغنياء وفقراء، عظماء وبسطاء، مستكبرين ومستضعفين، حكام ومحكومين، مديرين ومُدارين. والثالثة، ضرورة عقد حلقات بحث بين علماء الأمة حول أهم موضوعات الساعة كالاحتلال والقهر والتفرق والتخلف والتبعية والاغتراب واللامبالاة حتى تعى الأمة مشاكلها وحلولها. فليس المقصود بالحج حفظ مناسكه وإلا

تحول الإسلام إلى صورية وقعت فيها الشريعة اليهودية ونقدها المسيح والرسول. والرابعة، هذا المركز الواحد الذى تتجه إليه الملايين والذى يرمز إلى مليار وربع من البشر، خمس سكان المعمورة، من الثقل بمكان بحيث لا يمكنه الانحياز إلى مركز آخر، شرقا أم غربا (**لا شرقية ولا غربية**). القلب لا يميل إلى أحد الجناحين. هو مركز الثقل فى الجسم كما أن المسلمين فى أفريقيا وآسيا مركز للثقل فى العالم. والخامسة، هذا التجمع البشرى الروحى يمتلك من الإمكانيات المادية: الطاقة، والمعادن، والمحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية، والإمكانيات المعنوية: العقول والسواعد ما تؤهله أن يكوّن تكتلا اقتصاديا كبيرا مثل مجموعة الثمانية وغيرها من التجمعات الإقليمية، يقوم التصدير بدلا من الاستيراد، ويمارس الإبداع عوضا عن النقل. وأُعطيت بعض الأحاديث الصحفية والمقابلات الإعلامية والتعليقات الإذاعية تحمل أبعاد الاستنارة وتحمل هموم الأمة دون خوف من المحافظة الدينية والسياسية. فالاختيار بين العقل والعنف يكون لصالح العقل، وبين الإصلاح والانقلاب يكون لجانب الإصلاح، وبين الرأى والرأى الآخر من ناحية والمواجهة الأمنية بين الشرطة وجماعات العنف السياسى تكون لصالح الرأى والرأى الآخر. وما كان ممنوعا من قبل من الكتب بالرغم من تهريبها فى القصور ولدى الشباب أصبح الآن مسموحا به. فوجود الكتاب خير من تهريب السلاح.

وإلى منى تتحرك الملايين لرمى الجمرات من على الجسور أو الأنفاق. وهى على أنواع، ممتدة على ثلاث ليال، الجمرة الكبرى والجمرة الوسطى والجمرة الصغرى. وللجمرات عدد محدد، سبعة ثم واحد وعشرون ثم واحد وعشرون، ومجموعها تسع وأربعون. وموعدها بعد غروب شمس كل يوم. ومكانها من فوق الجسر إلى أسفله أو فى النفق أمام الحائط المبنى كالتمثال فى الجاهلية. فإذا أراد بعض الحجاج المتعجلين المغادرة فعليه توكيل أحد برمى الجمرات بدلا عنه أو التضحية بفدى أو إعطاء ثمنه لشركة استثمارية أو بنك إسلامى ليقوم بالفدى بدلا عنه بالرغم من المآسى التى شاهدها المسلمون من شركات توظيف الأموال. وتتحمس الألوف فى نفس المكان الضيق، تصرخ وتزبد وترمى بأقصى قوة من الأمام، فتصيب الحائط، ومن الخلف فتصيب الرؤوس فى الصفوف الأمامية، فتنزف الدماء، ويموت العشرات. وقد يتعثر أحد الحجيج فوق الجسر بسبب ما يحمله فوق كتفيه من حطام الدنيا، فيقع هو وحمله. فيتعثر المتسرعون، ويقعون على الأرض، ويقع التالون لهم، ويهرع الكل، ويدوسون بالأقدام الحجيج على الأرض. وتكون النتيجة مئات القتلى. والكل يهتف "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والشكر". فى حين أن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا. وفى رمى الجمرات يصرخ الكل، ويضرب بأقصى قوته الشيطان، وكأن الحرب قد قامت، والنصر قد تم، وهزم العدو وولى الدبر. وأين تكون رمى الجمرات الآن فى عرفات أم فى فلسطين، ضد الشيطان أم ضد العدو الصهيونى، بالحصى أم بالصواريخ، رمزا أم حقيقة؟ وفى كلتا الحالتين، يسقط الشهداء.

كان من واجبات الضيافة تناول طعام الغذاء مع الملك، خادم الحرمين الشريفين. وكان قصرا باهرا فى بنائه

وزخرفته واتساعه. حتى لقد تخيل البعض نفسه فى الجنة، وليس على الأرض. ومواد بنائه كلها مستوردة، الرخام والبللور والموائد والكراسى بعد أن تعب المدعوون من الجلوس القرفصاء أثناء الغذاء والعشاء فى الأيام التالية. وسلم كل مدعو باليد فردا فردا. ولم ينتظر المدعوون قدوم الملك للشروع فى تناول الغذاء. فقد نسى السلام، وحضر الطعام. وكان خطاب الملك تقليديا دينيا خالصا يخلو من موضوعات الساعة التى تشغل بال المثقفين والإعلاميين والعلماء. وتمنيت حين المغادرة أن آخذ كل هذه الخراف واللحوم والأسماك والجمبرى والشيش كباب معى إلى بولاق الدكرور والأباجية وقلعة الكبش لإطعام فقراء المسلمين وسكان المقابر.

وكانت البطون من قبل قد أتخمت من كثرة ما يقدم من خراف مرتين يوميا ظهرا ومساء فى صوانى مستديرة وسط أكوام من الأرز (المنسف) والناس جلوس على الأرض حول المفارش المشمّع ووسطها الصوانى المستديرة. وكبار السن يتألمون من الجلوس على الأرض بعد أن صعب ثنى ركبهم وضم الساقين. وانتفخت بطون الجميع، وامتلأت الأمعاء بالغازات. وظل الحجيج يسعى بين دورات المياه لإعادة الوضوء والصلاة وصوانى الخراف وأداء الشعائر. وعاش الكثير منهم الصراع بين حوائج البدن ومطالب الروح، بين البيولوجيا والأيديولوجيا، بين متطلبات الأرض ونوازع السماء. وكان الأطباء فى الوفد، عميدة كلية الطب ووكيلها يعطون الأدوية لتسهيل الإخراج بعد الإمساك أو لإمساك الإخراج بعد الإسهال.

وفى النهاية يتم التحلل من الإحرام. وكان حراما قبلها الحلق أو التطيب أو الاستحمام بصابون ذى رائحة طيبة أو حتى عند البعض دعك الأسنان بمعجون به رائحة النعناع أو الفواكه حتى لا ينعم الحاج بطيب الحياة وهو محرم، وكأن النظافة ليست من الإيمان، وكأن الإسلام ليس دين النظافة، وكأن النظافة ليست أساس الطهارة. وفى الحلق، يفضل البعض حلق شعر الرأس كلية فيصبح الحاج أصلعا. وينتقل موس الحلاقة من رأس إلى رأس دون تطهير بالرغم من مخاطر "الإيدز" الذى ينتقل عن طريق الدم. والأنوار ساطعة فوق الرؤوس بدلا من أن تخرج منها.

وفى طريق العودة، بالرغم من أن الوفد كان بدعوة رسمية من وزارة الثقافة والإعلام، وهى التى حددت موعد السفر وموعد العودة إلا أن سلطات المطار رفضت مغادرة الوفد لأن مناسك الحج لم تنته بعد. فكيف نغادر فجر اليوم الثالث وينقصنا رمى الجمرات الوسطى فى اليوم الثانى الأربعاء، والصغرى فى اليوم الثالث الخميس، والمفروض أن نعود من المناسك يوم الجمعة ويبدأ الفوج الأول للمغادرة يوم السبت؟ فلابد من إذْن من وزارة الحج أن أداء المناسك قد اكتمل. فالدين أساس الدولة. وبعد أن وافقت السلطة الدينية على الخروج وافقت السلطة الأمنية.

وكما بدأ الحج بتهنئة الأقارب والأصدقاء انتهى أيضا بالتهنئة بسلامة الوصول خاصة بعد أنباء شهداء الحجيج الذين سقطوا فوق جسر الجمرات بالمئات بالتدافع طبقا للرواية الرسمية وبدفع رجال الأمن الحجيج لإفساح الجسر لمرور شخصية كبيرة مسئولة. والناس طبقات. وأصحاب البلاد لهم الأولوية فى الحج على عامة المسلمين.

ومن ضمن المناسك الشعبية شراء الهدايا للأقارب والأصدقاء. فالحج تجارة. وأشهر شارع للهدايا شارع غزة الذى يقود إلى الحرم، وليس القطاع فى فلسطين المحتلة. وهى صورة غزة أيضا فى مصر قبل احتلال إسرائيل لها فى الانتفاضة الثانية بعد عسكرتها. ولابد من إرضاء الجميع حتى لا يحزن أحد لم ينله من بركة الحج شيئا. يأخذ البعض هداياه عندما يأتى للتهنئة. وتُرسل الهدايا إلى البعض الآخر الذى لا يستطيع القدوم. فقد ترامت أطراف القاهرة من مدينة السادس من أكتوبر حتى مدينة العاشر من رمضان. يبدى البعض فرحه بالهدية. ويبقى البعض الآخر على الحياد، حياء أو استصغارا. وفى المقابل كان المهنئون قديما يحملون معهم أقماع السكر وزجاجات شربات الورد الأحمر تهنئة للحاج قبل عصر المعلبات والعصائر، بالإضافة إلى الذبح ووضع وشم الكف الملطخ بالدم على مدخل المنزل حماية للحسد مع كتابة العبارة الشهيرة "حج مبرور، وذنب مغفور". وفى الأحياء الشعبية يستقبلون الحاج بالمزامير والفرق الموسيقية الشعبية وحملة الأعلام والمباخر وكأنه راجع من الانتصار على أعداء المسلمين.

الحج هو الركن الخامس للإسلام لمن استطاع إليه سبيلا. ولا تعنى الاستطاعة هنا فقط القدرة المالية أو الجسمية بل أيضا العقلية على تحمل هذا الجانب الشعائرى الذى ينسى فيه الناس المرموز ويأخذون الرمز، ينسون الدلالة ويأخذون الحركة. وهو أثار الصوفية ضد الفقهاء. لذلك كتب أبو حيان التوحيدى "فى الحج العقلى إذا ما ضاق الفضاء عن الحج الشرعى". ومما خفف هذا الجانب الصورى نقاش الوفد المصرى بين أعضائه حول أمور الدين والدنيا. فقد كان متنوع الاتجاهات، بين من يحتمى بالنص، ومن يعتمد على العقل، ومن يدافع عن مصالح المسلمين، منهم الإعلاميون والموسيقيون والمسرحيون والفنانون التشكيليون ومسئولو العلاقات الثقافية فى وزارة الثقافة والمفكرون. يجمعهم هم واحد، الدين والوطن. وفى حواراته مع باقى الوفود من المغرب العربى أو إيران أو تركيا. وعادة ما يلتقى المصريون فى الخارج أكثر مما يلتقون فى الداخل. فالوطن يفرّق ولا يجمّع.

وفى النهاية، تتفاوت أركان الإسلام الخمسة بين الواقع والرمز. أولها الشهادة، "أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه". والشهادة ضد الكتمان والخوف. وهى شهادة على العصر حتى ولو كان جزاء الشاهد أن يكون شهيدا. فكلاهما شهادة. وتكون الشهادة بفعلين، فعل سلبى "لا إله" لنفى كل آلهة العصر المزيفة من مال وثروة وشهرة وجاه وقوة ونساء، وهى آلهة العصر، وفعل إيجابى "إلا اللّه" من أجل إثبات الإله الواحد الحق الذى يتساوى أمامه الجميع. فهو أقل الأركان شعائرية وصورية. يكفيه النية بالقلب حتى دون النطق باللسان والتمتمة بالشفتين. والزكاة ثانى الأركان والخالية من الشعائرية مثل الشهادة. هو فعل مباشر للمشاركة فى الأموال والثروات. فللفقراء حقوق فى أموال الأغنياء. والثالث الصيام وهو فعل يقوم على الإرادة والإمساك عن الطعام والشراب إحساسا بجوع الفقراء. فهو مثل الزكاة من حيث العدالة الاجتماعية، بالعطاء فى الزكاة، وبالمران والاستعداد فى الصيام. والرابع الصلاة. وشعائرها حركات الجسد فى الركوع والسجود وهى مفيدة للجسم وليونة الأعضاء. والوضوء نظافة للبدن. والطهارة صحة. دلالتها إتيان الواجبات فى أوقاتها، على الفور وليس على التراخى، أداء لا قضاء. أما الحج فهو أكثر الأركان

شعائرية من طواف وسعى، وتشريق ورمى للجمرات، وحلق وفَدْى. وكلها رموز لدلالات. ثم نسى الناس الدلالات وأبقوا على الرموز. فوقع الحج فى الصورية والشكلية والشعائرية. هدفه تجميع الأمة ومساواة أفرادها، توحيد للعرب تحت إمرة قريش حتى تجتمع لها الثروة والسلطة، التجارة والإمارة. والمسلمون اليوم بددوا ثرواتهم. وتسلطوا على الداخل، وتابعوا الخارج. فأضاعوا التجارة والإمارة. فأين علماء المسلمين اليوم الذين يعيدون التفكير فى كيفية أداء المناسك كى يحافظوا على أرواح المسلمين ومصالحهم ومسارهم فى التاريخ فى نظام دولى أحادى القطب يضع غيرهم فى المركز وهم فى الأطراف.

٥- العدل الإلهى فى جنوب شرق آسيا

أبدع الفلاسفة فى كل العصور وفى كل الثقافات نظريات فى "العدل الإلهى". يبرئون فيها الله عن فعل الشر. فالله عادل رحيم، والشرور فى العالم ظلم وقسوة. وإذا كان الله هو خالق العالم فكيف يصدر الشر عن الخير، والظلم عن العدل، والقسوة عن الرحمة؟ وكما برأ الفلاسفة الله عن فعل الشر فإنهم لم يستطيعوا جعل الإنسان بإرادته الحرة أو المجبرة مسئولا عنه. فالإرادة من خلق الله. والعقل القادر على التمييز بين الحسن والقبيح من خلق الله (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**). لم يبق لدى فريق منهم إلا نفى الشر من أساسه. فالله خير، ولا يصدر عنه إلا الخير فى الإنسان وفى الطبيعة. الإنسان خيّر بطبيعته وفطرته. ولو ترك وحيدا فى الطبيعة لما عرف الشر. والطبيعة خيّرة. كل شىء فيها متفق مع حاجات الإنسان: الماء للشراب، والهواء للاستنشاق، والنبات والحيوان للغذاء، والشجر والأحجار للإيواء. الشر سوء فى الفهم أو خطأ فى الحكم، وليس فى طبائع الأشياء. الشر وجهة نظر، وليس فى الموضوع، فى المعرفة وليس فى الوجود.

وأكبر مثالين على ذلك ليبنتز فى الفلسفة الغربية، والمعتزلة فى الفلسفة الإسلامية. فعند ليبنتز، هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، ولا يوجد أفضل منه. ولو وجد أفضل منه لخلقه الله بالفعل. وكل شىء فيه يحدث طبقا لقانون الانسجام والتآلف الذى قام عليه الكون. فلا تناقض فيه. ولا يند فيه شىء عن العقل والفهم. والعالم مكوّن من ذرات روحية وليست مادية. والأرواح تتوافق ولا تتخالف. وعند المعتزلة كل ما فى هذا العلم صلاح. ويتفاوت الصلاح بين الأقل صلاحا والأكثر صلاحا. فالشر هو صلاح أصغر فى سبيل صلاح أكبر. الجراثيم لاكتشاف الدواء، والهزائم لمعرفة مقومات النصر، والموت طريق إلى إطالة الحياة. وهو معنى الآية (**عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون**). والله لطيف بالعباد لا يفعل إلا ما فيه مصلحتهم. الشر ظاهر، والخير باطن. والإنسان فى حكمه السليم يتجاوز الظاهر إلى الباطن. والشر الأصغر لخير أكبر. ويُعوض عن الآلام يوم القيامة. يُعوض للمظلوم بالاقتصاص من الظالم. ويُعوض للشاة المذبوحة بأن تكون شاة أعظم وأسمن وأجمل يوم القيامة. ويُعوض الأطفال والشهداء والأبرياء. فالظلم فى العالم جزء صغير من نظرية أكبر فى العدل الشامل.

وهناك فريق ثان من الفلاسفة وهم المانويون، يرى أن الشر موجود فى العالم، داخل فى نسيج الوجود. ولا يمكن جعله فقط مجرد خطأ فى الحكم أو مناسبة حاضرة لخير قادم. وهناك صراع فعلى فى الكون بين الخير والشر كمبدأين

(*) الاتحاد: ٥ فبراير ٢٠٠٥، الزمان: ٤ فبراير ٢٠٠٥، الدستور: فبراير ٢٠٠٥.

متساويين فى القوة. ومن هذا الصراع تنشأ الحياة. وانتشر هذا التيار فى ربوع آسيا فى الصين وفارس. وآخرون يرون أن الشر فى النفس، فى الأهواء والانفعالات والرغبات والميول واللذات البدنية. والخير هو السيطرة عليها، وتطهير النفس، والدخول فى الكون فى حالة من الرضا العام أو الفناء. وهو موقف البوذية فى الهند، والصوفية عند المسلمين. وقد توسط بعض الفلاسفة القائلين بنظرية الفيض بين هاتين النظريتين، نفى الشر وإثباته بأن جعلوا الشر مرتبة دنيا فى الوجود وفوقها مرتبة عليا. وكلما صعدنا إلى أعلى قل الشر وزاد الخير. والذروة خير مطلق بلا شر. وكلما هبطنا إلى أسفل قل الخير وزاد الشر. والقاعدة شر مطلق بلا خير. والإنسان بين الاثنين يستطيع أن يدرك ذلك بعقله حتى يصل إلى أعلى عليين أو أسفل سافلين. ويتم ذلك بالضرورة وليس بالإرادة، بالتأمل وليس بالفعل.

وجاء المعاصرون مثل جان بول سارتر، وجعلوا الشر فى العام وفى الإنسان، فى الوجود وفى الإرادة وسماه "عدم". فالوجود عدم. يقوم على لا شىء. وليس له أساس. والحرية ليس لها هدف ولا غاية، حرية عادمة. وكل ما فى الكون وفى الإنسان يبعث على الغثيان والقرف. اللاوجود أساس الوجود، والإنسان دودة تنحر فى تفاحة. هو تجويف فى الأرض وليس بروزا فيه.

فأى النظريات فى العدل الإلهى أقرب إلى تفسير ما حدث فى جنوب شرق آسيا وغضب المحيط وثورة تسونامى الذى كلف ما يقارب ربع مليون شهيد معظمهم من المسلمين؟ من المسئول عن ذلك؟ الله أم الطبيعة أم الإنسان؟ فى نظرية العدل الإلهى الله ليس مسئولا عن الشر فى العالم والإنسان بل عن الخير فقط. الخير من الله والشر من النفس. وإذا كانت النفس من خلق الله فكيف يصدر الشر عن الخير؟ ولماذا هذه القسمة التى يبدو فيها الإنسان مسئولا عن الشر وحده دون الخير وكأن الإنسان لا يفعل إلا الشر أما الخير فمن غيره ومن خارجه؟ ولم هذه الثنائية فى مصادر الفعل وهى أقرب إلى الشرك، القول بفاعلين، وليس التوحيد القول بفاعل واحد؟ هل يعاقب الله المسلمين لإهمالهم وكسلهم وتخلفهم وعدم قيام السلاطين بالدفاع عن الأوطان وبتحقيق العدل أو العلماء بواجباتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ هل يعاقب الله الأوروبيين لأنهم احتلوا بلاد غيرهم، وحولوا العالم إلى متجر، والمعبد إلى دكان، وكأن الدنيا هى البداية والنهاية؟ وماذا عن الأطفال الأبرياء غير المكلفين الذين غرقوا وطوتهم الأمواج؟

هل الخطأ فى الطبيعة، والطبيعة هى المسئولة عن مآسى البشر؟ وفى نظرية العدل الإلهى العالم مخلوق، والخير لا يخلق إلا خيرا. ولماذا يكون الإنسان هو الخاسر إذا ما غضبت الطبيعة، وهو لا يستطيع السيطرة على قاع المحيط، وليس مسئولا عن تكوين القشرة الأرضية، ولا عن كيفية انفصال الكرة الأرضية عن الشمس، ولا عن عدم استقرار القشرة الأرضية، ولا عن عدم برودة جوفها، ولا عن حزام السلاسل الكبرى فى آسيا أو الصغرى فى أفريقيا؟ وإن قدرات الإنسان فى النهاية أضعف من قدرات الطبيعة ومهما بلغ الإنسان من قدرة على السيطرة على الطبيعة، إقامة السدود والجسور لتجنب غضب المحيطات والفيضانات فإنه يظل محدود القدرة. واليابان التى بلغت الذروة فى العالم والتكنولوجيا وطرق مقاومة الزلازل الأفقية والرأسية بطرز البناء وأساليبه وأنواعه لم تنج من مخاطر الزلازل والبراكين.

ولماذا لا تكون الطبيعة لصالح الإنسان كما تقرر نظرية العدل الإلهى؟ ولماذا لا يكون الإنسان سيد الطبيعة كما هو الحال فى النموذج الغربى؟

وإذا كان الخطأ إنسانيا فهل كانت إقامة محطات إنذار مبكر فى قاع المحيط أو على الشاطئ كافية لتجنب كوارث تسونامى؟ ألا يتفق البناء قريبا من الشواطئ مع مقتضيات المنتجعات السياحية؟ أليس البناء بالأخشاب يتفق مع بيئة الغابات؟ وقد سئم السواح الغربيون من سكنى ناطحات السحاب ويريدون الاستجمام فى الأكواخ الخشبية وسط الغابات أو على شواطئ المحيطات. هل خطأ الأوروبيون أنهم يهربون من البرد القاسى فى شتاء أوروبا للاستجمام بدفء الشمس، من أقصى شمال أوروبا، البلاد الاسكندنافية إلى جنوب شرق آسيا؟ لقد فنيت أسر بأكملها. أخذها الموت على حين غرة. وإن تبقى واحد منها فالأب دون أسرة أو الطفل دون عائلة. تيتم الأطفال. ونشطت شركات النخاسة لشرائهم فى سوق العمال الرخيصة أو من أجل متعة الشواذ جنسيا.

وتسابقت الدول فى العطاء من أجل الغوث والمعونة. سبقت اليابان الدولة الغنية غير الإسلامية والتى تعرف مآسى الكوارث الطبيعية. وتخلفت أمريكا أولا وتبرعت بعشرات الملايين من الدولارات وهى التى تنفق المليارات فى الحروب والعدوان على الشعوب. وجاءت الدول العربية والإسلامية فى نهاية المطاف، ليس لضيق ذات اليد. فأموال النفط تتراكم فى البنوك الغربية، وحياة البذخ والترف والسفه فى الإنفاق شاهدة للعيان. والأخوة الإسلامية، والأمة الواحدة ورابطة الدين والتاريخ والجوار الجغرافى لم تجعل العرب والمسلمين أكثر كرما وسخاء من النصارى والكفار.

فماذا يقول الفلاسفة؟ كيف يعيدون صياغة العدل الإلهى من أجل استيعاب ربع مليون شهيد فى جنوب شرق آسيا، معظمهم من خير أمة أخرجت للناس؟ أين العدل فى الكوارث الطبيعية والمآسى الإنسانية التى لا يستطيع الإنسان لها دفعا؟ فإما تبرئة اللّه وتخطئة الطبيعة، والطبيعة خيّرة من صنع إله خير. وإما تبرئة اللّه والطبيعة وتخطئة الإنسان، وهو ما يفوق قدراته ومن مبادئ الشريعة عدم جواز تكليف ما لا يطاق (**ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به**). وماذا يقول الفلاسفة الجدد لمراجعة الفلاسفة القدماء؟

٦- التشريع الجنائى الإسلامى بين الحقوق والواجبات

عُقد فى مدينة إسلام أباد بين ٢٦-٢٨ مايو الماضى ندوة دولية بعنوان " التشريع الجنائى الإسلامى وحقوق الإنسان" نظمه مجلس الأيديولوجية الإسلامية التابع لرئاسة الجمهورية الباكستانية. وافتتحه رئيس الجمهورية بنفسه، مبينا أهمية التحديث والتجديد والاجتهاد والتكيف مع ظروف العصر. وكان لى شرف إلقاء المحاضرة الافتتاحية بعده أمام خمسمائة من علماء باكستان، وممثلى الدول الأجنبية، وبعض أجهزة الإعلام.

وكان الدافع وراء إنشاء هذا المجلس هو تجديد العلوم الإسلامية الموروثة بما يتفق مع روح العصر، وتحقيقا لأصل الاجتهاد، وهو أحد واجبات علماء الأمة. وكان من أهم إنجازاته إعادة النظر فى قانون العقوبات فى تطبيق الشريعة الإسلامية وهى المصدر الرئيسى للدستور الباكستانى. فقد قامت دولة باكستان على أساس الإسلام بعد تقسيم الهند إثر الصراع الطائفى بين المسلمين والهندوس الذى لم تنجح حركة المقاومة السلمية عند غاندى ولا حزب المؤتمر القومى عند نهرو فى إيقافه.

وكان الدافع لتناول هذا الموضوع فى ندوة دولية هو الهجوم المستمر للمستشرقين وأجهزة الإعلام الغربية على الإسلام كدين وحضارة وثقافة، وعلى المسلمين كشعوب ودول وحكومات بأننا مازلنا نعيش فى الماضى، ولم نتكيف مع معطيات العصر، وأن هناك صراع حضارات بين الإسلام والغرب. يربط الإسلام بالتخلف والقسوة والإرهاب والعنف والتسلط والقهر والتعذيب وخرق حقوق الإنسان فى مقابل حضارة الغرب، نموذج التقدم والحرية والسلام والحوار والديموقراطية وموطن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان. ويكون هذا الصراع الحضارى مقدمة لتبرير الغزو على الشعوب الإسلامية بدعوى الإرهاب، والعنف، وامتلاك أسلحة الدمار الشامل. وبمثل هذه الذرائع تم غزو أفغانستان والعراق والشيشان. ويستمر التهديد لإيران وسوريا ولبنان والسودان، وبالرغم من أن الواقع يكشف عن هذا الادعاء بعد فضائح التعذيب فى سجن أبو غريب وجوانتانامو، وتعذيب بعض معتقليه فى بعض النظم السياسية العربية، وتأييد الغرب لأبشع النظم التسلطية خارج حدوده، واستعماله المعيار المزدوج فى حكمه على الآخرين إلا أن تشويه الحضارات والشعوب اللاأوروبية مازال مستمرا.

ومن الداخل يوجه العلمانيون مثل هذا الانتقاد للتشريع الجنائى الإسلامى خاصة العقوبات البدنية ضد دفاع السلفيين والمحافظين عنها. ويطالبون بتطبيق القانون المدنى الحديث نظرا لما قد يسببه تطبيق الشريعة الإسلامية فى

(*) الاتحاد: ٤ يونيو ٢٠٠٥، الزمان: ٦ يونيو ٢٠٠٥، الدستور: يونيو ٢٠٠٥.

الظروف الحالية من خطورة على وحدة الأوطان، والمساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات. وقد تم تطبيق القانون المدنى الحديث فى كثير من البلدان العربية والإسلامية إبان تجارب التحديث فى القرنين الأخيرين منذ أن عرّب الطهطاوى قانون نابليون "الشَّرطة"، ومحاولات إعادة قوانين الأحوال الشخصية وإلغاء المحاكم الشرعية.

ويقف المجددون موقفا وسطا بين السلفيين والعلمانيين من أجل تحديث الشريعة إعمالا لمبدأ الاجتهاد. وأنشئت لجان متخصصة لذلك لتقنين الشريعة الإسلامية بناء على ظروف العصر الحاضر. فقد أدى التطبيق الحرفى للشريعة الإسلامية إلى خطرين عظيمين. الأول تهديد وحدة الأوطان فى البلاد المتعددة الثقافات مثل بعض البلدان الأفريقية التى فى شمالها يقطن المسلمون عربا وأفارقة، وفى جنوبها الأفارقة مسيحيين أو ذوى ديانات محلية مثل السودان، ونيجريا، وتشاد ومالى أو فى بعض البلدان المتعددة الطوائف مثل لبنان ومصر وسوريا والأردن والعراق. والثانى الاصطدام مع حقوق الإنسان ومواثيقها التى أقرتها الأمم المتحدة وفى مقدمتها "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان" والإعلانات الأخرى عن حقوق المرأة والطفل والشيخ والأقليات. فمن حق الذمى ألا يطبق عليه الحد. ومن حق المرأة والرجل الاحترام دون التشهير العلنى. والجسد حق من حقوق الفرد، لا يجوز بتر أعضائه أو تعذيبه أو حتى القصاص فيه جزئيا أو كليا تحت أى ظرف وإلا نشأ مجتمع من المشوهين والعاطلين. وبالرغم من أن حقوق الإنسان مشروطة بالثقافات المحلية مثل حق الإجهاض والشذوذ الجنسى والعرى فى الثقافة الغربية دون غيرها، وحقوق الإنسان الفردى دون حقوق الشعوب فى "الإعلان العالمى"، وبالرغم من الازدواجية فى التطبيق بين الإنسان الأوروبى والإنسان غير الأوروبى إلا أنها أصبحت عالمية نظرا لسيادة الثقافة الغربية فى إعلان مواثيقها وسيطرة القوى الغربية على المنظمات الدولية فى إصدار قراراتها. ومن ثم أصبحت ثقافة عالمية بفعل القوة ومن لا يلتزم بها يصبح خارجا على الشرعية الدولية ويستحق العقاب.

وقد حاول ذلك من قبل عبد القادر عودة فى "التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى" الذى صدر فى جزأين قبل أن يستشهد فى ١٩٥٤، جمعا بين الخصوصية الإسلامية والعمومية القانونية. ووضعت فى إطارها التاريخى القديم والحديث. فقد كانت كثير من التشريعات الجنائية الإسلامية لها ما يشابهها فى التشريعات الفارسية والرومانية القديمة مثل الصلب، وقطع يد السارق. وكان الرجم عقابا على الزنا فى الشريعة اليهودية. وقد أتت المسيحية للتخفيف منها رحمة بالناس، والتحول من شريعة الجوارح إلى شريعة القلوب كما حاول الصوفية بعد ذلك. فالزنا زنا القلب والعين. وأتى التشريع الإسلامى تخييرا بين الشريعتين (**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**). العين بالعين والسن بالسن شريعة يهودية (**ومن عفا وأصلح فإن أجره على الله**) أقرب إلى المسيحية. والتشريع الإسلامى خيار بين الاثنين.

والحدود فى الإسلام جزء من كل. وتطبيق الشريعة الإسلامية لا يعنى فقط تطبيق قانون العقوبات بل يعنى تطبيق النظام الإسلامى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والقانونى ككل. والحدود أصغر جزء فيها. النظام

الإسلامى ككل حقوق، والحدود واجبات. ولا توجد حقوق دون واجبات، ولا واجبات دون حقوق. ومن حق المسلم الغذاء والسكن والتعليم والزواج والعلاج وتوفير فرص العمل من بيت المال. فإذا استوفى حقوقه طولب بواجباته فى عدم القتل والسرقة والزنا وشرب الخمر. ولا يمكن تطبيق حد القتل فى مجتمع يقتل بعضه بعضا، ولا حد السرقة فى نظام يسرق فيه الشريف فيترك ويسرق فيه الضعيف فيطبق عليه الحد أو فى مجتمع كله سارق، ويقوم الحارسون عليه بنهب المال العام، ولا حد الزنا فى مجتمع لا يستطيع فيه الشباب الزواج المبكر، وتذخر إعلاناته وأغانيه و"الفيديو كليب" بالإثارات والإيحاءات الجنسية.

ليس القصد من الحد العقاب بل التنبيه على خروج الطبيعة البشرية عن كمالها الطبيعى. "الحد" اشتقاقا يعنى ما لا يجوز الخروج عليه أو تجاوزه لأنه إغراق للطبيعة. والإسلام دين الطبيعة والفطرة. تعنى العقوبة فقط أن لكل فعل رد فعل، ولكل سبب نتيجة، ولكل عمل أثر. فأعمال البشر لها آثارها الحسنة والقبيحة فى الدنيا منفعة أو مضرة، وفى الآخرة ثوابا وعقابا. العقوبة من "العقب" أى الأثر، وما يأتى عقب شىء ما. الغرض منها الهداية والنذير وإرجاع الطبيعة إلى مسارها الصحيح، وليس الإيلام والإيذاء، وإحداث العاهات، وتشويه السمعة. الغاية منها الردع والإيحاء والتنبيه والتحذير وليس التطبيق الآلى. هى أشبه بجرس إنذار. ليس الغرض منها القسوة بل الردع كما هو الحال فى الأسلحة الذرية والكيميائية، ليس للاستعمال بل للتخويف.

هذه هى فلسفة التشريع الجنائى الإسلامى على غير ما تصوره أجهزة الإعلام الغربية وما قد يقصد من استعمال المحافظين لها زيادة فى الحمية وحرصا على حقوق الله، وحقوق الإنسان أولى بالحفظ. ويظل السؤال قائما: إلى أى حد تتفق العقوبات البدنية مع حقوق الإنسان؟ وقد آن للمشرع أن يجيب عليه.

٧- العقوبات البدنية وحقوق الإنسان

وحدث شبه إجماع فى المؤتمر الدولى عن "القانون الجنائى الإسلامى فى عصر العولمة" الذى عُقد بإسلام أباد بباكستان فى ٢٦-٢٨ الشهر الماضى على ضرورة إعادة النظر فى العقوبات البدنية ومدى اتفاقها أو اختلافها مع حقوق الإنسان كما حددتها المواثيق الدولية العامة والخاصة، الغربية واللاغربية. وما أكثر الأدلة على إمكانية إعادة فهم قانون العقوبات فى الإسلام بحيث لا يتعارض مع حقوق الإنسان، وهى ثقافة العصر، من داخل الشريعة الإسلامية نفسها وليس من خارجها.

فالأحكام الشرعية، ومنها الحدود، ليست أحكاما نظرية مجردة تطبق فى المطلق بل هى أحكام "وضعية" بتعبير الشاطبى فى "الموافقات" مغروزة فى الواقع وقائمة عليه مثل السبب والشرط والمانع. فلا يطبق حد إلا إذا توفرت أسبابه، وتحققت شروطه، وغابت موانعه. فلا تقطع يد سارق إن لم تتوافر لديه أسباب الحياة الكريمة، وإشباع الحاجات الأساسية من عمل وغذاء وكساء وسكن وتعليم وعلاج، وبعد غياب الموانع من بطالة وجوع وعرى وعراء وجهل ومرض. وقد علق عمر تطبيق حد السرقة عام الرمادة عندما عم الجوع وتقيح جلده من تحريم السمن على نفسه حتى يطعم كل المسلمين. وقد عرف عمر بجرأته فى التشريع بتعليقه سهم المؤلفة قلوبهم بعد انتصار الإسلام وكثرة المسلمين، وتحريمه توزيع أرض السواد فى العراق كغنيمة بين المحاربين حتى لا يركنوا إلى الأرض، ويستقرون فيها، ويتركوا الفتح والجهاد فى سبيل الله.

والعقوبات نوعان، النفس وما دون النفس. النفس فى القصاص وما دون النفس فى العقوبات البدنية على السارق والزانى. أما فيما يتعلق بغير النفس فهذا أمره التعويض المادى وهو ما لا يتعارض مع قيمة الحياة أو البدن كحق طبيعى للإنسان.

وقد اختلفت فلسفات القانون والتشريعات المدنية. البعض يقره (**ولكم فى القصاص حياة**) والبعض الآخر لا يقره لأن مجموع الخطأين لا يكوّن صوابا، وبدلا من قتيل يكون هناك قتيلان. وهو نوع من الإسراف فى القتل. وتعتمد فلسفة القصاص على التوحيد بين الذات والصفات والأفعال كما تفعل المعتزلة فى تصور الألوهية. فما دامت الأفعال إجرامية تعبر عن صفات إجرامية فإن الذات لا وجود لها ومن ثم وجب إعدامها. فى حين تعتمد فلسفة منع القصاص على تصور الأفعال والصفات زائدة على الذات كما تفعل الأشاعرة فى تصور الألوهية، وأنه مهما بلغت أفعال الإجرام

(*) الاتحاد: ١١ يونيو ٢٠٠٥، الدستور: يونيو ٢٠٠٥.

وصفاته فإنها زائدة على الذات، ولا يمكن مساواة الذات بها، ومن ثم وجب الحفاظ عليها وليس إعدامها. يمكن حماية المجتمع منها بعقوبة الحبس مدى الحياة دون إعدامها. والعجيب أننا فى عقائدنا أشاعرة التى تقوم على الرحمة، ونختار القصاص الذى يقوم على فلسفة الاعتزال التى تقوم على العدل.

وفى حالة قطع الطريق أو الإفساد فى الأرض فإن العقاب هو قطع اليدين والرجلين من خلاف ثم الصلب على جذوع النخل. وقطع الطريق وترويع الآمنين والإفساد فى الأرض جرائم بشعة. عقوبتها الإعدام ترويعا للآخرين وردعا لعدم تكرار ذلك. ولكن القتل شىء والتقتيل شىء آخر. ولا يمكن الجهر بذلك الآن أو ممارسته.

بل ويفصّل القدماء طرق القصاص بالسيف أو بدونه. ويقيس المحدثون على السيف الرمى بالرصاص أو الشنق. كما يفصّل القدماء طرقا أخرى مثل الخنق والحرق والغرق والسم والرمى من أسطح المنازل. ويستعمل فى أمريكا الآن الكرسى الكهربائى مما يجعل الجسد يقشعر من التقتيل. وتحدثت كتب التاريخ عن القتل عن طريق "الخازوق".

وهى نفس القضية فى موضوع الرجم حتى الموت الذى كان شائعا فى اليهودية وجاء السيد المسيح بتفضيل الرحمة عليه "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر". والإسلام خيار بين الاثنين ولا يمكن تطبيق هذه العقوبة اليوم. وهى غير معمول بها حتى فى القوانين المدنية المطبقة حاليا فى معظم الدساتير العربية. ويتساوى المواطنون فى القصاص دون تفرقة بين حر وعبد، وذكر وأنثى، ومسلم وكتابى، وشريف ووضيع.

أما الردة والحرابة والبغى والخروج فكلها اتهامات سياسية من السلطان ضد خصومه، ومن الدولة ضد المعارضة. فالردة تفتيش فى ضمائر المؤمنين وهو ما لا يبيحه الشرع، وسيف مسلط على رقاب المفكرين والأدباء والعلماء. يعارض الشريعة لأنه **(لا إكراه فى الدين)**، **(من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)**. وعادة ما لا يتحول أحد عن الإسلام إلى غيره من الديانات بل يتحول أصحاب الديانات الأخرى إلى الإسلام. فإذا حدث استثناء واحد أو اثنان فإنه لا يطعن فى القاعدة. و"الحرابة" أيضا اتهام من الدولة للمعارضة المسلحة. وكل فريق سياسى يدعى أنه هو مثل الله ورسوله ويطبق حد الحرابة على مخالفيه. والبغى أيضا عدوان فريق من الأمة على فريق آخر مع ادعاء كل فريق أنه الطرف الآخر هو الباغى. والحقيقة أنه "إذا اقتتل المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار" القاتل نعم، والمقتول لأنه كان حريصا على قتل صاحبه. والخروج اتهام أيضا من الدولة ضد كل الخصوم السياسيين بعد أن جربوا كل الوسائل السلمية مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصيحة، واللجوء إلى قاضى القضاء. وفى الفقه القديم باب عن كيفية "الخروج على الحاكم الظالم".

أما العقوبات فيما دون النفس مثل قطع اليد أو الأنف أو خزق العين **(العين بالعين، والسن بالسن والجروح قصاص)** فقد عملت القوانين المدنية على تجاوزها بالدية والتعويض. وإلا نشأ مجتمع من المبتورين والمجدوعين ومقطوعى الآذان والألسن ومفقئى العيون.

فأولها حد السارق بقطع اليد وهو النموذج الذى يأخذه الإعلام الغربى لبيان التعارض بين الحدود وحقوق الإنسان. والحقيقة أنه لا يطبق الحد فى حالة العوز والبطالة والفقر. وهناك حد أدنى للمسروق لا يجوز دونه قطع اليد. وهناك السرقة فى مجتمع كل من فيه سارق، والسرقة أحد وسائل إعادة توزيع الدخل، كما قال عديد من الفلاسفة الاشتراكيين الطوباويين مثل روسو وبرودون. ويطبق الحد على الجميع وليس "إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف طبقوا عليه الحد". ولا حد فى مال غير محرز أى غير محروس. ولا حد فيما هو مشاع بين الناس، ملكية عامة، مثل الماء والكلأ والنار والمصحف.

ويصعب إثبات جريمة الزنا، شهودا أربعة يرون القضيب فى الفرج كالمرود فى المكحل! مما يدل على أن المقصود هو الفعل العلنى الفاضح. لذلك لم يطبق الحد إلا فى حالة الاعتراف. ولا يجوز التلصص لأنه جريمة. لا يمكن إثبات جريمة بارتكاب جريمة أخرى كما تسلق عمر السور ورأى قاطنه يشرب الخمر فبطلت شهادته. ونادرا ما حدث تطبيق الحد كما يدل على ذلك حادثة الغامدية التى أتت الرسول للاعتراف بارتكابها جريمة الزنا وتطبيق الحد عليها وهى حامل. فقد صرفها الرسول حتى تضع حملها. فلما عادت وهى تحمل الطفل صرفها حتى تفطمه. فلما عادت للمرة الثالثة لتطبيق الحد طبقه بناء على اعترافها ثم طلبها. وأثنى على توبتها الصادقة.

وهناك وسائل عامة وخاصة من أجل إيقاف الحد مثل "الضرورات تبيح المحظورات" فى حالة السرقة عن جوع أو بطالة أو عوز أو فقر أو مرض. وأيضا "إدراء الحدود بالشبهات" وتلمس الأعذار للسارق.

ومنها أيضا قبول الدية أو التعويض. الدية فى القتل من الولى. فهو الوحيد الذى فى مقدوره العفو لتجاوز الألم الشخصى لفقدان القتيل. وهناك الكفارات، تحرير رقبة وهو ما يصعب الآن لانتهاء نظام الرق، وإطعام ستين مسكينا وهو ما يسهل الآن إذا كان الفرد قادرا لتحويله من سارق إلى كريم، ومن آخذ إلى معطى، وصوم شهرين متتابعين، تطهيرا للنفس وتقوية للإرادة. ويكون ذلك فى العبادات والمعاملات على حد سواء.

وهناك من يرى أن تطبيق الحدود مشروط بوجود الإمام أى الدولة الإسلامية التى تكون فيها الحدود مساوية للحقوق وليس خارج الدولة الإسلامية لتطبيق الحدود دون حقوق.

إن اختلاف الفقهاء والمدارس الفقهية فى الحدود يسمح بالحركة لاختيار أنسب الحلول، وأكثرها اتفاقا مع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان. وإذا لم يُسعف الفقه القديم يمكن إبداع فقه جديد. فلم يتوقف الاجتهاد. ومازال مفتوحا إلى يوم الدين.

والأخطر الآن ليس إعادة النظر فى قانون العقوبات وحقوق الإنسان بل فى الربط المتناسب بين الجريمة والعقاب. واليوم كم من جرائم ترتكب من الأفراد والجماعات والدول الكبرى دون عقوبات. وكم من العقوبات توقع على الأفراد والجماعات والدول الصغرى دون جرائم.

الفصل الخامس

ما بعد الاستعمار

١- مستقبل الدولة الوطنية.

٢- عصر الشعوب.

٣- الاشتراكية والإسلام.

٤- الإسلام فى الصومال بين الجوع والحرب.

٥- الدين والحياة.

٦- اليأس والأمل.

١- مستقبل الدولة الوطنيـــة

الدولة الوطنية هى وريث الإمبراطوريات الكبرى القديمة، الفارسية والرومانية واليونانية والمسيحية والنمساوية والفرنسية والبريطانية وربما الأمريكية عن قريب عندما ينحسر المحافظون الجدد، وتعود أمريكا إلى حدودها الطبيعية محاصرة بين المحيطين الأطلسى والهادى، قارة وسط البحار مثل استراليا. خرجت الدولة الوطنية خارج حدودها بل خارج مدنها فى لحظات المد. فقد كانت الدولة هى المدينة مثل أثينا وروما، ثم عادت إليها من جديد فى لحظات الجذر مثل فرنسا بعد هزيمة نابليون فى ووترلو. وأصبحت النزعات العرقية وأحيانا الطائفية أسسا للدولة الوطنية الوليدة بالإضافة إلى مفهوم الحدود الطبيعية الجغرافية مثل نهر الراين بين فرنسا وألمانيا، وجبال البرانس بين فرنسا وأسبانيا، وسهل اللومباردى بين إيطاليا وألمانيا. وفى هذا الإطار السياسى نشأت الصهيونية على نفس النمط كأيديولوجية سياسية عرقية طائفية تبحث عن موطن جغرافى لها، أىَّ مكان على الأرض، فى أفريقيا أو فى أمريكا اللاتينية أو فى فلسطين.

وكما نشأت الحروب بين الإمبراطوريات من أجل التوسع الإقليمى وضم التكوينات العرقية والطائفية واللغوية والجغرافية فى كيان سياسى واحد استؤنفت الحروب بين الدول الوطنية للسيطرة على المصالح ولبقايا تكوينات عرقية وطائفية من العصر الإمبراطورى القديم أو الحديث. فنشأت النازية كنزعة عرقية لتكوين دولة وطنية كبرى فى ألمانيا والنمسا وكل المناطق الناطقة بالألمانية. ونشأت الفاشية لتكوين إمبراطورية إيطالية كبرى تضم الناطقين بالإيطالية وبالمستعمرات الرومانية القديمة فى ليبيا وامتداداتها الجديدة فى إريتريا والصومال والحبشة.

وأثناء الإمبراطورية العثمانية بعد هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ وقبل إلغاء الخلافة فى ١٩٢٤، احتلت الدول الوطنية الاستعمارية فرنسا وإنجلترا خاصة ممتلكات الرجل المريض، المغرب العربى لفرنسا، والمشرق العربى لفرنسا وإنجلترا. ومن أجل مساعدة الحلفاء فى الحرب ضد دول المحور، وعدت بريطانيا بتكوين تجمع عربى بديل بعد معاهدة سايكس بيكو المملكة العربية فى الحجاز والشام، ثم الجامعة العربية لتجميع الدول العربية فى إطار منظمة إقليمية عام ١٩٤٥. ولدت فى رأى البعض ميتة تنفيذا لإرادة الدول الكبرى ورغبات الملوك.

وقامت الدولة الوطنية بتجديد شبابها بتجديد زعاماتها الوطنية التى استطاعت تجميع الشعوب فى الداخل من أجل الحصول على الحرية والاستقلال من الدول الاستعمارية. وأدت دورها بنجاح فى الحصول على الاستقلال

(*) الاتحاد: ٣ يونيو ٢٠٠٦، الدستور: يونيو ٢٠٠٦.

الوطنى. وتحول زعماء حركة التحرر الوطنى إلى أول رؤساء للدول، وتحويل النجاح على الصعيد الخارجى إلى نجاح آخر على الصعيد الداخلى. وكانت أكبر مكسب فى مرحلة ما بعد الاستعمار. أعطت الشعوب الإحساس بالعزة والكرامة. وساعدت الدول الوطنية التى تحررت أولا مثل مصر باقى الدول الوطنية التى مازالت تناضل من أجل الاستقلال فى المغرب العربى، ليبيا وتونس والمغرب وأخيرا الجزائر، ودول المشرق العربى خاصة فى اليمن. وقد خرج معظمها من الحركة الإصلاحية فى المغرب والمشرق. فى المغرب عمر المختار، السنوسية، جمعية علماء الجزائر، البشير الإبراهيمى، عبد الحميد بن باديس، علال الفاسى. وفى المشرق عند الكواكبى والزبيرى والأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وحسن البنا والمهدية.

وقامت الدول الوطنية بإنجازات كبرى فى الخمسينيات والستينيات بفضل الضباط الأحرار وثورات الجيوش الوطنية التى استأنفت النضال الوطنى للأحزاب السياسية بعد أن ضعفت ولم يكتمل الاستقلال بعد، نظرا لوجود القواعد العسكرية الأجنبية على الأراضى الوطنية. وكان أهمها بناء الدولة الاشتراكى، والإصلاح الزراعى، والتصنيع، وحقوق العمال، وإنهاء الإقطاع وحكم أحزاب الأقلية المتعاونة مع الإنجليز والقصر، ومجانية التعليم، وظهور القومية العربية كحركة تحرر وطنى وفرضها نفسها كحياد إيجابى بين القوتين العظميين فى ذلك الوقت، والتوسع فى إنشاء المدارس من أجل القضاء على الأمية.

ثم تعثرت الدولة الوطنية. فكل مد له جذر. وكل قيام يعقبه انهيار. فقد همشت الحركة الإسلامية التى خرجت حركات التحرر الوطنى منها. واعتبرتها منافسا لها على السلطة مثل كل القوى السياسية التى كانت جزءا من الجبهة الوطنية مثل الماركسيين والليبراليين. واصطدمت معها، وحلتها، وأدخلتها السجون. وحكمت بمفردها بنظام الحزب الواحد دون تداول للسلطة حتى ضاعت التعددية السياسية. وسادت نظم القهر والتسلط والطغيان. وتغيرت الحركة الإسلامية فى السجون تحت أهوال التعذيب. وتحولت إلى حركات تكفيرية للمجتمع الجاهلى كله، كما حدث لسيد قطب فى "معالم فى الطريق" بعد أن كتب قبل السجن "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" و"معركة الإسلام والرأسمالية" و"المستقبل لهذا الدين. وأصبحت الدولة مركزية تقوم على حكم الفرد الواحد، مركزية التخطيط، ومركزية التنمية، ومركزية الإدارة. وقلدت النموذج الشرقى بالرغم من التمييز بين الاشتراكية العلمية والاشتراكية العربية، بين الاشتراكية الدولية والتطبيق العربى للاشتراكية. ونظرا لتضخم جهاز الدولة بعد نشأة القطاع العام، زادت البيروقراطية، وعمت المحسوبية والواسطة ومراكز القوى والشللية. وزاد نفوذ الضباط. ورفعت الشعارات: الحرية والاشتراكية والوحدة، والواقع على النقيض.

فلما ضعفت الدولة الوطنية، وفشلت خطط التنمية، ونشأت الطبقات الجديدة من خلال الرأسمالية الوطنية غير المستغلة وتحولها إلى مستغلة فى قطاع المقاولات وتجارة الجملة، بدأ التحول الرأسمالى بإعطاء الأولوية للقطاع الخاص ولرأسمال المال الأجنبى. وصدرت قوانين الاستثمار لتهيئة الجو لنشاطه بإعفائه من الضرائب مدة معينة،

وتوفير الأراضى اللازمة له، ومده بالخدمات فى المياه والكهرباء والصرف الصحى مجانا. وبدأ التعليم الخاص لتلبية احتياجات السوق للغات الأجنبية والحاسبات الآلية وفنون الإدارة والإعلان والعلاقات العامة. وانتشر الفساد لأن المجتمع الرأسمالى لم يتمثل قيم الليبرالية فى حرية المنافسة وقوانين حماية المستهلك بل قامت بعقلية الإقطاع. وانتشر تهريب الأموال، وكثرت العمولات والمقايضات وغسل الأموال. وازداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرا. وتم امتصاص الدولة الوطنية داخل الرأسمالية العالمية باسم العولمة، واقتصاديات السوق والمنافسة، والعالم قرية واحدة، وثورة الاتصالات، وإسقاط حدود الدولة الوطنية والإرادة المستقلة وحماية الصناعات الوطنية لصالح التجمعات الإقليمية، والشركات العابرة للقارات المتعددة الجنسيات، ومجموعة الدول الثمانية الأكثر تصنيعا، ومنظمة التجارة العالمية، والتعريفة الجمركية. ومنظمة الأمم المتحدة واقفة بالمرصاد لمن يعصى إرادة القوى الكبرى كما تفعل إيران أو حماس أو كوريا الشمالية أو كوبا أو دول أمريكا اللاتينية الناهضة من جديد دفاعا عن خيارها الاشتراكى الأول ومعاداتها للهيمنة الأمريكية فى الشمال على الجنوب.

وخرجت الحركة الإسلامية من السجون بعد استيفاء المدة أو لاستعمالها من أجل تصفية البؤر التقدمية القديمة، وتغذية الثأر القديم. وقامت الحركة الإسلامية بذلك خير قيام. ثم انقلبت على الدولة الوطنية الضعيفة التابعة، وقامت بلعبتها السياسية الخاصة كسلطة بديلة عن الدولة القائمة فى مواجهة المعارضة العلمانية والحزب الحاكم.

وبعد تفتيت دولة الخلافة بعد أن خسرت تركيا الحرب فى ١٩١٤ -١٩١٨ وإلغائها نهائيا فى ١٩٢٤، وبعد نهاية القومية العربية البديلة بهزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، والعدوان العراقى على الكويت فى ١٩٩٠، والخلافات الحدودية بين المغرب والجزائر على واحة تندوف وعلى الصحراء، وبين مصر والسودان على حلايب وشلاتين، وبين اليمن والسعودية على عسير ونجران، وبين العراق والكويت على آبار النفط، تخاطر الدولة القطرية الآن بالتفتيت إلى دويلات عرقية وطائفية بعد الغزو الأمريكى للعراق فى ٢٠٠٣، والتدخل فى السودان فى إقليم دارفور، والصراع المسلح بين الشمال والجنوب، ومخاطر التفتيت فى الخليج ولبنان وشبه الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربى إلى فسيفساء عرقى طائفى: أكراد وسنة وشيعة وتركمان وآشوريين وعرب وبربر وأفارقة، وزيدية وشوافع، ونجديين وحجازيين، ومارون ودروز. قاربت الدولة الوطنية على الانتهاء بين الابتلاع فى الخارج والتفتيت فى الداخل.

إن مستقبل الدولة الوطنية مرهون بالحنين إلى الأوطان، ليس العرق أو الطائفة بل كما حن الرسول إلى مكة وهو يهاجرها إلى المدينة، وكما كتب أبو حيان "الحنين إلى الأوطان"، والطهطاوى فى مقدمة "مناهج الألباب" أن حب الوطن من الإيمان. ومستقبلها أيضا فى التجمع الإقليمى الذى يحيط بها كالعروبة، ليس كأيديولوجية سياسية بالضرورة بل كمصالح إقليمية وكحل لخلافات الحدود. ومستقبلها أيضا فى دول الجوار، إيران وتركيا ظهير الوطن العربى، بالإضافة إلى أفريقيا، والعروبة جزء منها، وجنوب شرق آسيا وأواسط آسيا. فالتراث المشترك رابط بين

الجميع. وقد يكون التوجه نحو الشرق، الصين واليابان والهند قادرا على الصمود فى وجه الهيمنة الغربية الجديدة قفزا فوق آسيا عبر المتوسط.

إن مستقبل الدولة فى المحافظة على هويتها فى الداخل وعدم التفريط فى إرادتها الوطنية وتفاعلها مع الخارج من موضع الندية كما تفعل الصين واليابان والهند وماليزيا وإندونيسيا وأخيرا إيران.

٢ـ عصر الشعوب

الفرد والجماعة من الموضوعات الأثيرة عند الفلاسفة فى كل العصور. البعض يركز على أولوية الفرد على الجماعة. والبعض الآخر يعطى الأولية للجماعة على الفرد. ويقدم فريق ثالث الطبقة باعتبارها حلقة الوصل بين الفرد والجماعة. فالطبقة جماعة تتسم بسمات الفرد.

وقد ظهر ذلك فى الشرق القديم. فقد ركزت الهندوكية على الطبقة فى نظام الطبقات (الكاست). وحدث رد فعل فى البوذية بالتركيز على الفرد والسيطرة على الانفعالات. وأبرز كونفوشيوس فى الصين أهمية الجماعة، الأسرة، والدولة، وعلاقة الفرد بهما. ثم ظهر بوضوح عند اليونان. إذ ركز سقراط على الفرد، وأفلاطون على الطبقة فى محاورة "الجمهورية"، وأرسطو على الجماعة فى كتاب "السياسة".

وفى تراثنا الإسلامى القديم ركز معظم الفلاسفة على الفرد، الفيلسوف أو الإمام القادر بعقله على الاتصال بالعقل الفعال. فهو الوحيد الملهم، كامل الأوصاف. بينما ركز الصوفية على الطبقة، الخاصة فى مقابل العامة. أما ابن خلدون فهو الذى فضل أن تكون الجماعة بدوا أو حضرا، شعبا أو أمة، هى وحدة التحليل.

وبدأ الغرب الحديث فرديا منذ "أنا أفكر فأنا إذن موجود" يعطى للذات الأولوية على الموضوع فى المثالية الحديثة. فقد سئم الكنيسة والثيوقراطية كأشكال للجماعة. ثم حدث رد فعل فى التيارات الاشتراكية لتعطى الأولوية للجماعة على الفرد تحقيقا للمساواة والعدالة الاجتماعية بعد أن تحققت حرية الفرد وديموقراطية الحكم. وأخيرا ظهر كارل ماركس ليؤكد على أولوية الطبقة على الفرد الذى هو أساس النظم الرأسمالية، والجماعة التى هى أساس الاشتراكيات الطوباوية.

وقامت الثورات الحديثة فى الغرب باسم الجماعة أو الشعب مثل الثورة الفرنسية أو الطبقة مثل الثورة البلشفية. ثم بانت الآثار السلبية للجماعة فى النازية والفاشية مما دفع كثير من التيارات المعاصرة إلى العودة إلى الفرد من جديد. فالجماعة هى الدهماء.

والفرد هو الوعى الذاتى القادر على الصمود ضد الجماعة دون الذوبان فيها. ظهر ذلك عند الوجوديين مثل أورتيجا إى جاسيه فى "ثورة الجماهير" و"الإنسان والشعب" وعند ميرلوبونتى فى "الإنسان والرعب"، وعند جابريل

(*) الاتحاد: ١٦ أبريل ٢٠٠٥، الدستور: أبريل ٢٠٠٥.

مارسل فى "البشر ضد الإنسان" وعند ماركوز فى "الماركسية السوفيتية".

ويبدو أن عصر الجماهير قد عاد منذ سقوط حائط برلين وتحرك الشعوب فى أوروبا الشرقية حتى وصلت إلى الاتحاد السوفيتى لإعادة التوازن إلى علاقة الجماعة بالفرد، والعدالة بالحرية، بعد أن تمت التضحية بالفرد باسم الجماعة، وبالحرية باسم العدالة. وتحركت الملايين فى شوارع طهران دفاعا عن حرية الشعوب واستقلالها وحرية الفرد ضد قهر أنظمة التسلط والطغيان. ومنذ أن بدأت العولمة تقوم بدور الدولة فوق الدولة والشركات المتعددة الجنسيات ونظام العالم الجديد وقوانين السوق تحركت الملايين فى العواصم الأوروبية فى براج وجنوه وسياتل وباريس ولندن وفلورنسا ضد الرأسمالية الجديدة، دفاعا عن حقوق الشعوب المهددة بالغزو والاستعمار الجديد فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان. تحركت الشعوب باسم الجماعة وباسم الطبقة ضد الرأسمالية والمحافظة الجديدة ورموزها فى الإدارة الأمريكية وفى اليمين الصاعد والنازية الجديدة فى أرجاء أوروبا.

وفى العالم الثالث سادت نظريات الجيوش الوطنية كأداة للتغير الاجتماعى خاصة فى أمريكا اللاتينية وفى الوطن العربى. فالجيش هو القوة الوحيدة المنظمة. وجنوده وضباطه يمثلون الطبقات المحرومة. لذلك اندلعت الثورات العربية الأخيرة بفعل الضباط الأحرار أمام ضعف أحزاب الأقلية والقصر، وضعف المعارضة المنظمة. فجسّد الجيش المطالب الوطنية وحماها، وعمل على تحقيقها. تحول الانقلاب إلى ثورة، وحركة الضباط إلى تغير اجتماعى، بالرغم من اصطدامها بقضية الحرية.

كما ظهرت نظرية البطل التاريخى، والزعيم الأوحد، والمخلص الذى كان على موعد مع القدر لإنقاذ شعبه. وظهر قواد عظام فى العالم الثالث، يثيرون الخيال فى عصر رومانسى فى الخمسينيات والستينيات. وبرزت أسماء مثل: شوين لاى، هوشى منه، كاسترو، جيفارا، نهرو، سوكارنو، تيتو، عبد الناصر، سيكوتورى، نكروما، جومو كنياتا، موجابى، نيلسون مانديلا، كاوندا، الخمينى، كأبطال للتحرر فى العالم، قادوا الشعوب نحو الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية.

والآن. يعود عصر الشعوب من جديد. فقد ثار الطلبة فى أندونيسيا وأسقطوا نظاما عسكريا فاشيا تسلطيا. ثم تحركت الشعوب مرة أخرى فى جورجيا وأوكرانيا وقرقيزيا فى أواسط آسيا لإنهاء ما تبقى من نظم تسلطية فردية تدعى الحكم باسم الجماعة. وفى أمريكا اللاتينية تحركت الشعوب فى فنزويلا دفاعا عن الحكم الوطنى المستقل عن السيطرة الأمريكية. وكما توحدت شعوب العالم الثالث فى حركات الجيوش الوطنية، وفى الزعامات "الكاريزمية" فإنها تستيقظ من جديد بعد أن أعطت ثقتها للجيوش والزعماء فتحولت النظم إلى أدوات قهر وتسلط عسكرى أو ملكى حتى ولو كان فى أشكال جمهورية.

ولم يخرج الوطن العربى عن هذه القاعدة. فبعد أن تحركت الجيوش وحركات الضباط الأحرار منذ أكثر من

نصف قرن وأحدث أكبر تغير اجتماعى فى بنية المجتمعات العربية، وبعد أن وثق بزعمائه التاريخيين بن بيلا ومحمد الخامس والسلال وسوار الذهب وعبد الناصر بدأ الشعب العربى يعانى من القهر والتسلط والفساد فى الداخل والتبعية والاستسلام للخارج. وبدأ يتحرك فى لبنان ومصر بعد أن طالت فترة الإحساس بالعجز والإحباط واليأس بالرغم من انتهاك كرامة الشعوب فى الداخل والخارج كل يوم. وسالت الدماء فى لبنان والجزائر فى حروب أهلية، وفى فلسطين والعراق بعدوان صهيونى أمريكى، وفى شبه الجزيرة العربية ومصر بحركات العنف التى لم تستطيع النظم السياسية احتوائها والحوار معها، وآثرت تجاهلها أو قمعها. وقوة الضغط من أعلى تحدث الشقوق من أسفل.

والكل يتساءل: أين مصر؟ أين شعبها وجماهيرها ودورها ومبادراتها وقيادتها لأمتها؟ مصر لم تمت بل هو الهدوء الذى يسبق العاصفة، والصبر الذى بدأ ينفذ. لم تتوقف الجماهير فى مصر عن التحرك منذ ثورة القاهرة الأولى والثانية ضد الحملة الفرنسية على مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ثم ثورة عرابى فى ١٨٨٢ ضد القصر، تلتها ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر. ومن الحركة الوطنية، لجنة الطلبة والعمال، فى الأربعينات خرج الضباط الأحرار وثورة يوليو ١٩٥٢. وفى الجمهورية الأولى قامت التحركات الشعبية فى ١٩٥٤ دفاعا عن الديموقراطية، وفى ١٩٦٨ ضد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧. وفى الجمهورية الثانية اندلعت مظاهرات ميدان التحرير فى ١٩٧١ تطالب بتحرير سيناء. ثم اندلعت الانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ضد غلاء الأسعار. وفى الجمهورية الثالثة تكررت الحركات الشعبية فى مظاهرات الأمن المركزى فى يناير ١٩٨٦، وضد العدوان الأمريكى على العراق فى ١٩٩١ ثم فى ١٩٩٨. وساندت الحركات الشعبية الانتفاضتين الأولى والثانية فى فلسطين. والآن تتحرك الجماهير ضد التوريث والتجديد والتمديد دفاعا عن التعددية السياسية، وحماية للحريات العامة، مطالبة بالاستقلال الوطنى ضد التبعية للخارج، وبالديموقراطية ضد التسلط فى الداخل.

وإذا كانت الهبات الشعبية الماضية من أجل الخبز فإن الهبات الحالية والقادمة من أجل الحرية. "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها".

٣- الاشتراكيـــة والإســـلام

ازدهر موضوع "الاشتراكية والإسلام" فى أدبيات الستينيات بعد قوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦٢، والميثاق الوطنى فى ١٩٦٣ بعد الانفصال عن سوريا وانتهاء أكبر تجربة وحدوية فى العصر الحديث، الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١. وقد ولى العصر الجميل بما يقرب من نصف قرن. وقد نشأت الأدبيات بعد هجوم النظم المحافظة فى السعودية واليمن على الاشتراكية باعتبارها شيوعية تقوم على الإلحاد والكفر والصراع الطبقى الدموى. فاضطر مفكرو الناصرية لاستعمال نفس السلاح، الدين، دفاعا عن الاشتراكية. فالمال مال الله، ومال الله هو مال الشعب. والعمل مصدر القيمة بدليل تحريم الربا. والقطاع العام هو الماء والكلأ والنار والملح فى الحديث المشهور. ويحرم الإسلام اكتناز رأس المال. فالملكية استخلاف. للمالك حق الانتفاع والاستثمار والتصرف وليس له حق الاستغلال والاحتكار والاكتناز. والعدالة الاجتماعية أكثر من الزكاة. فليس من الأمة من بات جوعان وجاره طاوٍ. وعجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه.

وبعد انقلاب الثورة إلى ثورة مضادة فى السبعينات، فى الجمهورية الثانية انقلبت هذه الأدبيات رأسا على عقب، من تبرير الاشتراكية والقطاع العام إلى تبرير الرأسمالية والانفتاح والقطاع الخاص. فالإسلام مع التجارة الشرعية، والربح الحلال. بل إن العلاقة بين الإنسان والله تم تصويرها على أنها تجارة ولكنها لا تبور. وإذا قضيت الصلاة يوم الجمعة فالسعى فى أرض الله. وصاحب ذلك أيضا الانقلاب على القضية الفلسطينية، من المقاومة إلى الاعتراف، ومن النضال إلى الصلح، ومن النزال إلى التفاوض، وفى كلتا الحالتين كانت المبادرة من السلطان. هو الذى يقرر، والجوقة تبرر. وتحولت المعركة إلى صراع على السلطة فى الداخل، داخل قطر عربى، وفى الخارج بين الأنظمة العربية المختلفة، التقدمية فى مواجهة المحافظة. وشاركتنا فى ذلك أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. فقد كان العرب بؤرة العالم الثالث، ورواد حركات التحرر الوطنى فى القارات الثلاث.

والتاريخ يعيد نفسه. وتبرز حركات تحرر اجتماعى جديد فى مواجهة الموجة الثانية للاستعمار فى أشكال متعددة للهيمنة مثل العولمة، والسوق، والخصخصة، وحرية التجارة العالمية أو العدوان العسكرى المباشر، وخرق ميثاق الأمم المتحدة فى حق الدول فى الاستقلال الوطنى، وعدم جواز عدوان دولة على أخرى. فتم احتلال العراق وأفغانستان والشيشان وفلسطين، كل فلسطين. هذا بالإضافة إلى تهديد سوريا وإيران والسودان ولبنان من أجل حصار مصر فى الشمال والجنوب، فى الشرق وفى الغرب بالعدوان على ليبيا فى ١٩٨٦ وإجبارها على الانقلاب على خياراتها الوطنية

(*) الاتحاد: ١١ فبراير ٢٠٠٦، الزمان: ١٠ فبراير ٢٠٠٦، الدستور: فبراير ٢٠٠٦، العربى الناصرى: ١٩ فبراير ٢٠٠٦.

والقومية الأولى. وساعد على ذلك نهاية عصر الاستقطاب، وبداية نظام القطب الواحد، وغياب الحليف الاشتراكى الشرقى فى مواجهة العدوان الغربى، وضعف حركة عدم الانحياز وعدم تطويرها فى نظام العالم الجديد، وانحسار المد القومى العربى لصالح القطرية والطائفية والعرقية.

ومنذ بداية سيطرة المحافظة الجديدة، والمسيحية الصهيونية على البيت الأبيض، وغرور الرأسمالية بعد سقوط النظم الاشتراكية الشمولية من أوروبا الشرقية حتى الاتحاد السوفيتى نفسه والجمهوريات الاشتراكية فى أواسط آسيا، بدأ تكوين الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، زاحفة من الغرب إلى الشرق عبر الأطلنطى إلى أوروبا، ومن الغرب إلى الشرق مرة ثانية عبر الأورال إلى آسيا. وكذا إمبراطورية إسرائيل الكبرى التى لم يعد لها حدود أرضية أو جوية إلا فى إيران وباكستان وأواسط آسيا حتى الصين شرقا وأفريقيا جنوبا وأوروبا وأمريكا عبر الأطلنطى غربا حتى أصبح مركز العالم كله. بدأ العداء لأمريكا فى الوطن العربى والعالم الإسلامى وفى أمريكا اللاتينية ليضع حد لموجات الانتشار الأمريكى حول العالم ضد الهيمنة والاستغلال ودرءا للعدوان العسكرى، ومظاهر العولمة والاستقطاب الجديد بين المركز والأطراف. وقد بدأ المد الأمريكى فى الانحسار من شدة المقاومة وانتخاب نظم ديموقراطية حرة معادية للولايات المتحدة الأمريكية وغزوها وتهديداتها، وقسمتها العالم إلى الأخيار والأشرار. فالمتحالفون مع أمريكا هم الأخيار، بريطانيا وبعض الدول الأوروبية. والمعادون لها هم الأشرار فى الوطن العربى، حماس فى فلسطين، المقاومة اللبنانية والعراقية والأفغانية وإيران وكوريا الشمالية، محور الشر. وهى نفس العقلية الاستعمارية العنصرية القديمة وقسمة العالم إلى عالم حر وعالم ما وراء الستار الحديدى.

وقامت حركات التحرر الجديدة فى أمريكا اللاتينية على أكتاف الاشتراكية التى ظن المدافعون عن النظام الرأسمالى أنها قد قضى عليها إلى الأبد دون تمييز بين الاشتراكية كهدف والشمولية الهيجلية والداروينية كوسيلة. فقد صمد هوجو شافيز وعاد إلى الحكم فى فنزويلا بعد محاولات أمريكا التآمر عليه للإطاحة به. ونجح لويس ايناسيو فى البرازيل حاملا لواء التنمية المستقلة. كما نجح ايفو موارليس على أكتاف الثقافة الوطنية وباسم السكان الأصليين الذين استأصلهم الاستعمار الغربى باسم الاستكشافات الجغرافية. ولكن مازالت الثقافة الوطنية هى الحامية للشخصية الوطنية، والحاملة للأيديولوجيات السياسية للاستقلال الوطنى. وهو ما حدث فى فلسطين تماما بعد ذلك بخمسة قرون بالإحلال السكانى والاستيطان، شعبا مكان شعب عن طريق الهجرات. ونجحت ميشيل باشيلى فى تشيلى، امرأة وطنية تبطل الادعاءات عن أوضاع المرأة فى العالم الثالث، وجعلت نصف أعضاء حكومتها من النساء، نساء وطنيات للحفاظ على حقوق الطفل وليس النساء العاريات، نساء الإجهاض والشذوذ. لم تعد كوبا وحدها، وهى ما تبقى من العهد الجميل فى الستينيات. بل أصبحت بؤرة تلتف حولها دول أمريكا اللاتينية لإحياء هذا العصر البطولى. ونيكارجوا فى الطريق. وبُعث جيفارا الذى استشهد فى ١٩٦٨. وبعث الليندى الذى قتلته المخابرات الأمريكية وهو يدافع عن الديموقراطية فى قصر الرئاسة فى ١٩٧٣.

ولما كان الوطن العربى والعالم الإسلامى مواكبين لحركات التحرر فى أمريكا اللاتينية فى الستينيات فإنهما أيضا يواكبانه بعد ما يقرب من نصف قرن بعد أن تعود إليه روحه الوطنية ونضاله من أجل الاستقلال فى حركة استقلال وطنى ثانية ومد ثورى ثان. بدأ ذلك أيضا بأسلوب ديموقراطى وليس عن طريق انقلابات عسكرية أو ثورات شعبية. وكان الحامل لذلك ليس الاشتراكية وغيرها من الأيديولوجيات العلمانية للتحديث بل الإسلام السياسى أى الموروث الشعبى الذى أصبح الرافد الرئيسى للثقافة الوطنية. حدث ذلك فى مصر بنجاح الإخوان المسلمين فى الانتخابات التشريعية، وفى فلسطين بنجاح حماس، وفى لبنان ممثلا فى حزب الله والقوى الوطنية الأخرى المعادية للولايات المتحدة الأمريكية، وفى المقاومة العراقية التى تسيطر على الحياة السياسية والمدنية فى العراق، وفى أفغانستان التى مازالت تقاوم العدوان الأمريكى، وفى الشارع الباكستانى المناهض للهيمنة الأمريكية والنظام المتحالف معها، وفى إيران فى التيار المحافظ الذى يمثله رئيس الجمهورية والمرشد الروحى والتمسك بالاستقلال الوطنى والحق فى امتلاك الطاقة النووية وإسرائيل مدججة بالسلاح التقليدى وبكافة أسلحة الدمار الشامل بما فى ذلك السلاح النووى، وفى تركيا لدى جموع الشعب ممثلا فى حزب العدالة والتنمية، وفى المغرب ممثلا فى الحركة الإسلامية فى حزب الاستقلال وحزب العدالة والتنمية وجماعة العدل والإحسان. كان الإسلام والعروبة والوطن هى العناصر الرئيسية الثلاثة المكونة لحركات التحرر الوطنى فى ربوع الوطن العربى. فما تقوم به الاشتراكية والثقافة الوطنية فى أمريكا اللاتينية يقوم به الإسلام والعروبة فى الوطن العربى والعالم الإسلامى. والوطنية هو القاسم المشترك بينهما. فهل يستطيع "لاهوت التحرير" أن يربط بين المنطقتين. فيُبعث من جديد. ويعود كاميلو تورين، وبوف، وجواتيرز، والأسقف روميرو، وهلدا فون كامارا رواد لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، والأفغانى والكواكبى وعلى شريعتى واليسار الإسلامى والإسلام التقدمى فى العالم الإسلامى من جديد كحامل لموجة جديدة من التحرر الوطنى فى مواجهة الموجة الجديدة للهيمنة الأمريكية؟

٤- الإسلام فى الصومال

بين الجوع والحرب

تتوارد الأنباء من الصومال، القطر العربى الشقيق، وعضو الجامعة العربية عن تقدم "اتحاد المحاكم الشرعية" على "أمراء الحرب". استولى على العاصمة مقديشيو ويتقدم نحو جوهر وصولا إلى مدينة بيداوه، مقر الحكومة المؤقتة. وبدأ الخوف يدب فى قلوب الأمريكيين. ويتساءلون: ماذا لو نجح "اتحاد المحاكم الشرعية" فى الاستيلاء على السلطة فى كل ربوع الصومال، وهم يعلنون عن قدوم نظام إسلامى؟ ألا يكون نظام طالبان آخر؟ ألا يكون امتدادا لتنظيم القاعدة ونجاحا له وخسارة للولايات المتحدة الأمريكية؟

وترتبك الإدارة الأمريكية. هل تؤيد أمراء الحرب الذين عادتهم بالأمس وصورة الجندى الأمريكى القتيل المسحول على الأرض المجرور بحبل مربوط بعربة تجوب شوارع العاصمة؟ هل تمدهم بالسلاح حتى ترجح كفتهم على قوات "اتحاد المحاكم الشرعية"؟ أم هل تتودد إلى القوة الجديدة، وتساعدها على كسب الحرب، فى مقابل تعهده بعدم التحالف مع تنظيم القاعدة، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وموالته لأمريكا التى ناصرته ضد خصومه؟ وأمريكا فى كلتا الحالتين لا تريد إلا مصلحتها وليست مصلحة الصومال، حكما مواليا لها فى القرن الأفريقى، إسلاميا أو غير إسلامى، تسلطيا أو ديموقراطيا.

وسواء انتصر "اتحاد المحاكم الشرعية"، وهو الأكثر احتمالا، نظرا لاعتماده على الإسلام كثقافة شعبية وحركات جماهيرية أو الحكومة المؤقتة من أمراء الحرب السابقين فإن الناس جائعة فى الحالتين، وتموت فى الحرب بين المتقاتلين على السلطة. فمازال شعار "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" هو الموجه السياسى الرئيسى للفكر الإسلامى، ومن ثم ضرورة الاستيلاء على السلطة لتحقيق النظام الإسلامى. أما أمراء الحرب فالنزاع على السلطة لديهم هو امتداد للسلطة القبلية على سلطان الدولة. فالدولة قبيلة كبيرة، والقبيلة دولة صغيرة. لا يهمهم الإسلام كأيديولوجية بل تكفيهم السلطة كواقع.

ويترحم البعض على نظام الحكم السابق قبل الثورة عليه واتهامه بالتسلط. فالمستبد العادل أو حتى الظالم مع الحفاظ على وحدة البلاد أفضل من الحرب الأهلية بين الأحزاب السياسية أو القبائل العرقية وتفتيت الأوطان، وتدخل القوات الأجنبية. وما حدث فى العراق وفى الصومال خير دليل على ذلك.

(*) الاتحاد: ١٧ يونيو ٢٠٠٦، الدستور: يونيو ٢٠٠٦.

والخوف من مد سلطة "اتحاد المحاكم الشرعية" على ربوع الصومال أن تعلن قيام دولة إسلامية تطبق الشريعة الإسلامية، خاصة قانون العقوبات أى الحدود، وتفرض النقاب على النساء وإجبارهم على المكوث فى المنازل، ومنع المعارضة السياسية والتعددية الفكرية باسم الطاعة لأولى الأمر. ولا أحد ضد نظام إسلامى للدول ولكن بأى معنى؟ هل الشريعة الإسلامية فقط قانون العقوبات والحدود؟ وإذا كانت الحدود هى عقاب لعدم القيام بالواجبات، فأين الحقوق؟ لا يوجد واجب إلا وفى مقابله حق. لا يعنى تطبيق الشريعة الإسلامية فقط الحدود وهى الواجبات بل أيضا الحقوق، حق المسلم فى المشاركة فى السلطة، وحقه فى بيت المال، وحقه فى الرقابة، والحسبة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ليس النظام الإسلامى فقط نظام العقوبات أى القانون الجنائى بل هو النظام السياسى الدستورى، ودولة المؤسسات، واستقلال القضاء، وانتخاب الحاكم من الناس عن طريق البيعة. فالإمامة كما قال الأصوليون القدماء "عقد وبيعة واختيار". وهو نظام اقتصادى يقوم على رعاية المصالح العامة، وأخذ حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء، والملكية العامة لوسائل الإنتاج كالماء والكلأ والنار قديما وهى الزراعة والصناعة حديثا، والعمل وحده مصدر القيمة بدليل تحريم الربا. وهو نظام اجتماعى يقوم على رعاية الفقراء والمرضى وتوفير العمل والتعليم من بيت المال. والمرأة تعمل وتتعلم وتحارب وتشارك فى الحياة العامة. والإسلام تعمير للأرض، وزراعة الصحراء، وتوظيف الحديد للصناعة. فصورة الأرض فى القرآن هى الأرض الخضراء، وليست الأرض الصفراء، الهشيم الذى تذروه الرياح. هى الأرض التى ينزل عليها الماء فتهتز وتربو، وتنتج من كل زوج بهيج.

إن النظام الإسلامى فى الصومال هو النظام الذى يحارب الجوع والقحط والجفاف والمجاعة التى أهلكت الأرض والزرع والحرث والنسل. فالحفاظ على الحياة مقصد الشريعة الأول. وهو الذى يحافظ على أرواح الناس، فدم المسلم وعرضه وماله حرام على أخيه المسلم. هو النظام الذى لا يعيش على المعونات الأجنبية فى الطعام والشراب والإيواء بل الذى يعتمد على نفسه، فخير الناس من أكل من عمل يده.

لعل محاولات الحوار بين الإخوة الأعداء فى مقديشيو وفى بيداوه التى تقوم بها القبائل تكون بداية الحوار الوطنى بين الفرقاء المتحاربين حقنا للدماء، ومنعا لتدخل القوات الأجنبية فى دارفور أخرى. وهو درس من الإسلام الأول عندما آخى الرسول بين الأوس والخزرج، وبين المهاجرين والأنصار، وبين كل القبائل، كل قبيلة تمسك بطرف عباءته لوضع الحجر الأسود فى مكانه وإلا فالحرب بين القبائل. وكما وصف القرآن جماعة المسلمين (**أشداء على الكفار رحماء بينهم**).

ليست القضية من يستولى على الحكم فى مقديشيو أو ينقل الحكومة إلى بيداوه أو يتقدم نحو جوهر المدينة المتوسطة لينقض على الآخر. بل القضية فى إقامة نظام سياسى يقوم على الائتلاف الوطنى والتعددية السياسية والاتفاق على برنامج إنقاذ وطنى ليعيد إلى البلاد وحدتها السياسية وبرامجها التنموية، ويواجه القضايا المصيرية، الجوع والقحط والمجاعة والجفاف. وليس الصومال كله فى الحضر بل هو فى الريف أيضا. ولا يتجاوز الحضر فيه حيث

المدن الكبرى ٥٪ من مجموع أراضى الصومال.

وهنا يأتى دور الجامعة العربية بعدما انحسر عن السودان وفلسطين والعراق من أجل تحقيق الوفاق بين القبائل العربية والقوى السياسية المتصارعة فى الصومال بدلا من تربص الولايات المتحدة والمجتمع الدولى للتدخل فى فيه. ونظام وطنى تعددى مستقر فى الصومال قادر على الحوار بين دول الجوار، الحبشة وإريتريا، يحمى القرن الأفريقى من التدخلات الأجنبية من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

إن صورة العرب والمسلمين فى الرأى العام الأوروبى، صورة الجوع والحرب أصبحت مألوفة بسبب السودان والصومال وباكستان وأفغانستان ثم فى فلسطين بسبب الاقتتال بين فتح وحماس، والضحايا المدنيين فى العراق مازالت هى الصورة الغالية مما يجعل المجتمع الدولى ينظر للعرب والمسلمين نظرة دونية. ومن لا يستطيع الحوار مع نفسه فكيف يستطيع الحوار مع الآخرين؟

إن تجربة جديدة للوئام الوطنى والتعددية السياسية فى الصومال إضافة أخرى لتجارب الحكم الإسلامى فى تركيا والمغرب وإيران والسودان. تعتمد على الثقافة الوطنية، والإسلام أحد مكوناتها الرئيسية، وعلى الحركات الشعبية. تجعل الحكم الإسلامى الذى تتمسك به الحركات الإسلامية والتنظيمات الشعبية مقبولا فى الداخل والخارج. وتملأ الفراغ السياسى بين النظم العلمانية بقيادة النخب السياسية، والنظم السلفية بقيادة العائلات التقليدية. ومن هذه التجارب الجديدة للحكم الإسلامى تتخلق أشكالا جديدة من الحكم الإسلامى أقرب إلى الحكم المدنى التعددى الديموقراطى الذى يحافظ فيه على حقوق الإنسان ومساواة المواطنين جميعا فى الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الدين والعرق والطبقة.

متى يأتى الإسلام محمولا على الأعناق معززا الحكم الوطنى وليس على الضد منه وكنظام ديموقراطى يراعى حقوق الإنسان ومقتضيات المجتمع المدنى وليس على أسنة الرماح وفوق أعناق الجماهير حتى لو سالت الدماء؟

٥- الديـــن والحيـــاة

منذ عدة أشهر، غرقت عبارة فى جيبوتى، تحمل حوالى ثلاثمائة عضواً من جماعة "الدعوة والتبليغ". وهى جماعة ذات أصول هندية تدعو إلى الإسلام بالطريقة الهندية لنشر الإسلام فى الهند وفى أفريقيا، وتقوم على الروحانيات، والتصفية القلبية، وخلاص الإنسان الفردى كما هو الحال فى التصوف التقليدى، خلاص النفس إن استعصى تخليص العالم.

وبقدر تركيز الدعوة على الجوانب الروحية فى الإسلام على الطريقة الهندية فإنها تركز أيضا على الجوانب الشكلية المظهرية للداعية، الذقن الطويلة، والقلنسوة الكبيرة، والجلباب الأبيض، والقامة الطويلة، والمنكبين العريضين، والعيون الثاقبة، والحركة النبيلة. فلا دين بلا رجال دين. والداعية أقرب إلى الشيخ الذى يبحث عن المريدين، شيخ طريقة فى حاجة إلى حلقة حوله للذكر والعبادة. رجل الدين هو مركز الدين. فهو الذى يقود ويعلم. وهو الذى يرشد ويوجه. وهو ما يتفق مع الديانات فى آسيا وأفريقيا التى تقوم على أهمية المعبد، وقراءة الطالع، وإجراء الكرامات، والتأثير بالسحر فى حياة الناس.

كما خرجت الدعوة من التراث الشيعى الأقرب إلى الدعوة الصوفية، وطاعة الأئمة، والتأويل الباطنى. ومنها خرجت الأحمدية والبابية استئنافا للإسماعيلية القديمة. والداعية هو الإمام الحاضر، نائب الإمام الغائب. ولما كان الفقراء فى أفريقيا وآسيا فى حاجة إلى خلاص واستعصى خلاصهم من الفقر بأخذ حقوقهم من أموال الأغنياء أو بزيادة الموارد عن طريق التخطيط أو بنظام سياسى اشتراكى فإنه يتم خلاصهم عن طريق الوهم والتعويض. فالكمال الروحى خير من الرخاء المادى. والنفس أعز على الإنسان من البدن. والأزمة فى الواقع الاجتماعى تنفرج بالسمو الروحى.

وتحرص الدعوة على الزيادة الكمية للمسلمين. فقد وصل المسلمون اليوم إلى مليار وربع، خمس سكان المعمورة تقريبا. ومازالت الدعوة الإسلامية فى ازدياد ليس فقط فى أفريقيا وآسيا بل أيضا فى قلب الدول الأوروبية وفى الغرب الأمريكى الأكثر تصنيعا. فالمسلمون كتلة بشرية ولكنها صماء، كم بلا كيف. لا يستطيعون خلاص القدس أو تحرير فلسطين أو الذب عن البيضة بتعبير القدماء أو الدفاع عن الأوطان بتعبير المحدثين، فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. مع أنه فى الإسلام يغلب الكيف الكم، والقلة الكثرة. (**وكم من فئة قليلة غلبت فئة**

(*) الاتحاد: ٢٤ يونيو ٢٠٠٦، الدستور: يونيو ٢٠٠٦.

كثيرة بإذن الله). وهزم المسلمون فى حنين حين أعجبتهم كثرتهم. (**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم**).

وتقوم الدعوة والتبليغ على الهويات الدينية وليس على الهوية الوطنية. فالإنسان هو المؤمن المتدين، المنتسب إلى دين، اليهودية أو المسيحية أو الإسلام أو الهندوكية أو البوذية أو الفيتشية. ينتسب إلى الروح وليس إلى الوطن. وهى ديانات عبر الأوطان. تخترق الحدود. وأقوى من المذاهب والأيديولوجيات السياسية والاجتماعية. الأمة خارج الأوطان. والإيمان الدينى يتجاوز الولاء للأوطان. والداعية من جماعة الدعوة والتبليغ يجوب العالم كله، ويحط على جماعة المسلمين. ينام فى المساجد، ويدعو فيها. منزل الله بيته. وجماعة المصلين أهله. وانتزاع الإنسان من هويته الوطنية بداية الخيانة والعمالة باسم الأممية الدينية وكما تفعل العولمة باسم الأممية الاقتصادية والإعلامية، وتسقط الحدود بين الأوطان وتلغى الإرادة الوطنية المستقلة. وينسلخ الإنسان عن قومه وينتمى إلى جماعة بلا قومية. يخرج من العالم. ويعيش مع الأقطاب والأبدال كما يقول الصوفية.

والدعوة بين اليهود والمسيحيين لدخولهم إلى الإسلام لا معنى له لأن الديانات الثلاث دين واحد، دين إبراهيم مع اختلاف الصياغات وأشكال التعبير عنه طبقا لظروف كل عصر، ونتيجة لتجربة النبى مع قومه. فلا فرق بين "الوصايا العشر" عند موسى، و"المواعظ على الجبل" للمسيح إلا فى تأويلاتها الحرفية الظاهرية فى اليهودية، والروحية الأخلاقية فى المسيحية. لذلك قال المسيح "ما جئت لألغى الناموس بل لأكمله". والإسلام هو الاختيار الحر بين الشريعة والمغفرة، بين القانون والمحبة (**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولئن صبرتم فهو خير للصابرين**).

وتجوز الدعوة والتبليغ لدى الفيتشية الأفريقية أو الديانات الأسيوية مثل البوذية والهندوكية والشنتوية والشامانية، وتحويل المؤمنين بها إلى دين التوحيد. وهو أرقى دين من حيث التنزيه والتصور للعالم، وجود إله واحد خالق الكون، وبعث النفس لحسابها طبقا للأعمال. فدين الوحى أكثر تنزيها من ديانات الطبيعة عند هيجل.

ومهما بلغت الدعوة والتبليغ من قوة روحانية تتجاوز حاجات الأبدان يظل التبشير المسيحى فى أفريقيا وآسيا أقوى وأنجع. إذ يقوم على تلبية حاجات الناس المادية بالإضافة إلى الدعوة الرسولية. يوفر الطعام والشراب والغذاء والسكن والعلاج والتعليم للناس. ويعطى المنح الدراسية فى الخارج. ويوحى للمدعوين بأنهم سينتقلون من التخلف إلى التقدم، ومن التقليد إلى التجديد، ومن القديم إلى الجديد، وأنهم سينتقلون إلى الحداثة وما بعد الحداثة، متجاوزين المراحل بالطفرة والسبق. وسينتقلون من أفريقيا وآسيا إلى أوروبا وأمريكا، من الأطراف إلى المركز، من الجوع والفقر والحرمان والجهل والتهميش والقهر والفساد والمرض والحروب الأهلية إلى الشبع والغنى والكفاية والعلم والرعاية والحرية والأمانة والصحة وحقوق الإنسان، وباختصار من الجحيم إلى الفردوس، من الواقع الأليم إلى اليوتوبيا الحالمة.

وهنا يتم نزع المؤمنين خارج الأوطان، ويتحول ولاؤهم للأوطان إلى ولاء للغرب، المستعمر القديم. فلا يكون الإنسان مسيحيا إلا إذا كان غربيا. والمسيح أبيض أشقر ذو عيون زرقاء وكما رسمه عصر النهضة فى إيطاليا. وهو

شرقى أسمر صاحب عيون دكناء وشعر أسود. فالتحول إلى المسيحية ليس فقط تحولا إلى دين بل هو تحول إلى ثقافة وحضارة ومدنية. والمسيحية دين عالمى يتجاوز الأوطان. لذلك ردت المسيحية الوطنية على ذلك بحركة "المسيح الأسود"، و"موسى الأسود"، و"اللاهوت الأسود". فالأسود جميل، والأبيض قبيح. والشيطان أبيض، وأبو جهل وأبو لهب بيض. وقد حدث رد الفعل هذا وعلى حد سواء فى المسيحية الوطنية وفى الإسلام الوطنى. ويتبادل أنصار الدين العالمى وأنصار الدين الوطنى الاتهامات. يتهم أنصار الدين العالمى أنصار الدين الوطنى بالشيوعية والمادية والإلحاد. ويتهم أنصار الدين الوطنى أنصار الدين العالمى بالخيانة والعمالة للقوى العالمية.

لا يهم المؤمن أن يظل على دينه القديم أو أن يتحول إلى دين جديد إذا كان سيظل يمارس دين الشعائر والطقوس بعيدا عن زراعة الأرض، وتصنيع المنتجات، وتعمير الصحراء. إن المؤمن حقا هو الذى يحارب المجاعة والقحط والجفاف والتصحر، ولا يقتل أخيه صراعا على السلطة. المؤمن حقا هو الذى يساهم فى عمليات التغير الاجتماعى والتنمية البشرية. ووثنى يزرع أو يحطب ويأكل من عمل يده خير من مسلم يقوم ويقعد فى المسجد وهيئات القوت الدولية تطعمه وتسقيه.

إذا اتجهت الدعوة والتبليغ فى أفريقيا خاصة إلى الدخول فى التحديات الكبرى فى أفريقيا مثل الإيدز والمجاعة والتصحر والحروب الأهلية وساعدت الناس على الشفاء من الأمراض وعلى زراعة الأرض وتوفير الغذاء وعدم سفك الدماء التى حرمها الله لكانت أكثر خدمة للدعوة الإسلامية بصرف النظر عن إيمان الناس. والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه. إن المسلم النافع خير من المسلم العابد. والدعوة إلى الإسلام هى دعوة إلى العمل (**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**). والعمل رفع لمكانة الإنسان (**يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل**).

لو هؤلاء الغرقى الثلاثمائة من جماعة الدعوة والتبليغ كانوا من العلماء العاملين لشعر الناس بفقدهم وبخسارة العالم بموتهم. إلا أنهم غرقوا ظانين أن لهم الفردوس. ودخول الفردوس مشروط بالعمل فى الدنيا (**أفحسبتم أننا خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون**). الحياة كد وكفاح وسعى (**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**). متى يتحول المسلمون من كم إلى كيف؟ ومن إيمان لا يفيد إلى إيمان نافع (**أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض**).

٦- اليــــأس والأمــــل

يتجاذب العرب انفعالان: اليأس والأمل. وهما حالتان نفسيتان يسميهما الصوفية اليأس والرجاء، اليأس من التقدم الروحى وبلوغ الغاية، والرجاء فى استكمال الشوط والوصول إلى النهاية.

ينتاب العرب إحساس باليأس من أنظمتهم السياسية التى لا تحرك ساكنا بالنسبة للدماء التى تسيل فى العراق والتى بلغت منذ الغزو الأمريكى البريطانى أكثر من خمسين ألف شهيد من الأبرياء. وتركت الانتفاضة الفلسطينية الأولى، انتفاضة الحجارة، والثانية انتفاضة الأقصى، والثالثة انتفاضة التحرير تحت رحمة جيش الاحتلال الإسرائيلى، يصفى قادة المقاومة يوميا، ويقتل المدنيين، ويهدم المنازل على مدى عشرين عاما من ١٩٨٧ وحتى الآن. وربما هى أطول انتفاضة لشعب فى التاريخ من أجل التحرر والاستقلال. والجيوش العربية قامت بالثورات العربية منذ نصف قرن، منذ نهاية الأربعينيات وأوائل ومنتصف الخمسينيات حتى الستينيات. تحول ضباطها الأحرار إلى حكام، ومن ضباط إلى رؤساء. والآن تدين بالولاء للنظام. وتحول بعض الضباط إلى الحياة الاقتصادية فى مكاتب الاستيراد والتصدير. كما عهد للقوات المسلحة بالمساهمة فى تأسيس الحياة المدنية، والدخول فى التنمية البشرية، وبناء الخدمات للناس بعد أن عجزت الوزارات عن إقامة الكبارى، ومد الجسور، وتجديد شبكات المياه والكهرباء. وأصبح من مهام وزارات الدفاع تسهيل حياة الضباط بتوفير الخدمات لهم فى الإسكان والعلاج والمواصلات والمناسبات الاجتماعية وكما تفعل الحركات الإسلامية فى دور المناسبات الملحقة بالمساجد.

ويشتد اليأس بالناس عندما يشاهدون باستمرار قوى الهيمنة فى السيطرة على الوطن العربى، الإطباق على السودان باسم الجنوب ودارفور، والإطباق على الصومال باسم القضاء على أمراء الحرب أولا ثم باسم تعاطف اتحاد المحاكم الإسلامية، السلطة الجديدة البازغة مع القاعدة. فكل مسلم أصولى. وكل إسلام إرهاب، وكل مد إسلامى هو امتداد لتنظيم القاعدة. كما يشتد اليأس عندما يرى الناس عقد حلف عسكرى بين ليبيا وبريطانيا وقد كانت ليبيا عدوة الغرب الأولى والخارجة على القانون الدولى، والراعية للإرهاب والتى تنمى قدراتها النووية. وقد كان الوطن العربى منذ الثورات العربية مناهضا للأحلاف، حلف بغداد، والحلف الإسلامى. ولديه اتفاقية الدفاع العربى المشترك. فالعرب قادرون على حماية بعضهم بعضا قبل أن ينفرط العقد، وتغيب مصر عن الساحة، ويتم تهميشها وإخراجها من قلب العرب. وقامت دول عربية بما فى ذلك مصر والجزائر وأحيانا إسرائيل بتدريبات عسكرية مشتركة مع الولايات المتحدة، ليس للدفاع عن الأوطان بل للدفاع عن النظم الحاكمة وطاعة لأمر السيد. وتكتشف خلية لبنانية

(*) الاتحاد: ٨ يوليو ٢٠٠٦، الدستور: ٩ يوليو ٢٠٠٦.

للتجسس لحساب إسرائيل التى ربما ساهمت فى كثير من عمليات الاغتيال الأخيرة للقادة والنواب والصحفيين اللبنانيين.

ويزداد اليأس كلم تجبرت النظم السياسية وقهرت شعوبها، وأذلت مواطنيها فى الداخل، فقد مر قانون السلطة القضائية دون عرضه على القضاة أصحاب الشأن، ووافق عليه المجلسان النيابيان، الشعب والشورى. وصدق عليه الرئيس بالرغم من معارضة القضاة وحولهم المعارضة السياسية بكافة أطيافها. ويمر الآن قانون الشائعات لحبس الصحفيين على جرائم لم يرتكبوها وخرقا لحقوق سرية مصادر المعلومات. ومازالت قضية الحريات مطروحة فى كل أرجاء الوطن العربى مع اختلاف درجاتها حتى ولو كانت صالونات أدبية أو منتديات فكرية أو مجتمعات ثقافية. والعواصم العربية على التوالى تحتفل بأنها عواصم الثقافة العربية الإسلامية من اليونسكو أو المؤتمر الإسلامى.

وطال انتظار العرب وفرغ صبرهم. ولم يعد "الصبر مفتاح الفرج" مثلا يجدى فى شىء. فالإناء يغلى، والكرامة مهانة كل يوم. لم يعد أحد يعترف بهم فى نظام العالم الجديد الذى تضعه الدول الكبرى أو الإرادات الوطنية المستقلة التى مازالت فى العالم الثالث مثل إيران وماليزيا وفنزويلا وجنوب أفريقيا. ومن طول الانتظار ترهّل الجسد العربى، وتعود عليه، وانشغل بهموم الدنيا وأمور المعاش. وإن تحرك فلمشاهدة مباريات المونديال أو لسماع صوت مغنية شابة جديدة أو لصغائر الأمور، يملأ بها فراغه، ويفرّغ فيها طاقاته مادام الطريق العام مسدودا أمامه.

وكلما استمرت حالة اليأس هذه ازداد الوطن العربى تفككا وتشرذما، وتمزقت أوصاله (**أأرباب متفرقون خير أم الإله الواحد القهار**). ثم يصعب التجميع بعد ذلك من أجل استعادة حلم الستينيات عندما كان للعرب مشروعا قوميا تقدميا اشتراكيا وحدويا (**أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشىء عجاب**).

ومع ذلك تتراءى أمام العرب بعض مظاهر الأمل. فيتعلقون بها كما يتعلق الغريق بطوق النجاة. فالمقاومة فى العراق مستمرة، والقوات الأمريكية موحولة فى طمى العراق مهما دمرت مساجده ومآذنه وتمثال بانيها أبى جعفر المنصور، ومحو ذاكرتها التاريخية فى اللغة والشعر والفلسفة والفن. وتتكرر مأساة فيتنام. وينتصر شعب فيتنام على أعتى آلهة جهنمية للحرب. فالاحتلال مداه قصير، والاستقلال الوطنى هو المدى الطويل.

والمقاومة الفلسطينية مازالت ترفض الاستسلام الكامل والتنازل عن الأرض والقضية. وبالرغم من صعوبة الحوار بين فتح وحماس، وبين فصائل المقاومة والسلطة الوطنية إلا أن العملية النوعية الأخيرة بهجوم فصيل من فصائل المقاومة على موقع عسكرى إسرائيلى بالرغم من الحائط العازل ومراكز الإنذار الإليكترونى والعربات المصفحة والدبابات رفعت الروح المعنوية للفلسطينيين الذين كانوا على مشارف الاقتتال فيما بينهم، وتجاوز الخط الأحمر. وأصبحت المقاومة الفلسطينية فى موقف قوة وليست فى موقف ضعف. تقتل جنود الاحتلال المحصنين (**لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر**)، (**وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم**). وترفض إسرائيل أن تقوم بتبادل

الأسرى الفلسطينيين من النساء والأطفال مع الأسير الإسرائيلى. وتتزايد أعداد الأسرى يوما بعد يوم بأسر جندى آخر فى الضفة الغربية بعد أن بدأت إسرائيل بشن حملتها العسكرية الواسعة لاحتلال القطاع. والمقاومة تنتظره بالسواتر الترابية والحفر والصواريخ فى الأزقة والشوارع. ويستعيدون حرب أكتوبر، الجندى فى مواجهة الدبابة. وكما عجزت آلة الحرب الجهنمية الأمريكية على البقاء فى فيتنام والعراق فإن حليفتها إسرائيل بما لديها من أعلى نوعيات السلاح الأرضى والجوى والبحرى ستغرق أيضا فى رمال غزة.

وتشتد المقاومة الأفغانية وتتجمع قواتها من جديد من أجل طرد المحتل الأمريكى. وقد كان جيفارا يطالب بخلق أكثر من بؤرة ثورية تقاوم قوات الغزو الأمريكى حتى تتبعثر وتتشتت أمام ضربات المقاومة فى كل مكان. ويتحرك الشارع العربى فى لبنان ومصر الأردن والكويت بهذا الخيط الضئيل من الأمل ليسترد عافيته وينظر عنه غبار السكون والقعود على مدى نصف قرن، يأخذ مصيره بيده ويدافع عن كرامته ويتصدى بنفسه لأعدائه فى الداخل والخارج.

سيظل هذا الجدل العاطفى قائما عند العرب، جدل اليأس والأمل حتى يتقلص اليأس ويزداد الأمل، ويخرج الشعب العربى من قبو التاريخ ويعود إلى مساره من جديد. عجلة التاريخ تدور بقانونه الخاص وتفاعل إرادات الشعوب معه. ولا يتوقف مساره بل يبطؤ فقط إذا وقفت الشعوب متفرجة عليه دون أن تتفاعل معه. (ويقولون متى، قل عسى أن يكون قريبا).

الفهـــرس

البـــاب الأول

مصـــــر

الفصل الأول

الثـــورة المضـــادة

١- الثورة المصرية ومقاومة الأحلاف.	١٠
٢- ١٥ مايو ثورة التصحيح أم ضياع فلسطين؟	١٥
٣- محاكمة الانقلابيين.	٢٠
٤- هل تغير شيء؟	٢٥
٥- نادى الضباط ونادى القضاة.	٢٩
٦- جيل يدفع ... وجيل يقبض!	٣٤
٧- البداية والنهاية.	٣٩
٨- الأيام الأخيرة للنظام.	٤٥
٩- هل يأتى سبتمبر آخر؟	٤٩

الفصل الثانى

السلطـــــان

١- فرعون مصر.	٥٧
٢- الدولة والفرد.	٦٢
٣- لكل أجل كتاب.	٦٧
٤- كرامة السلطان.	٧٢
٥- صورة السلطان.	٧٧
٦- جوقة السلطان.	٨٢
٧- صوفية السلطان.	٨٧
٨- مشايخ السلطان.	٩٢
٩- فتاوى السلطان.	٩٦

الفصل الثالث

سؤال مصر

١- من الذى قتل سفير مصر؟ ١٠٣
٢- من الذى فجر شرم الشيخ؟ ١٠٧
٣- بم تنشغل مصر هذه الأيام؟ ١١٢
٤- العقل أم القدم؟ ١١٧
٥- الطاقة النووية بين الجد والهزل. ١٢٢
٦- يا مصر، كم لك من حدود؟ ١٢٦

الفصل الرابع

الأحزاب السياسية

١- الانتخابات بين الشكل والمضمون. ١٣٣
٢- هل هناك موانع للديموقراطية؟ ١٣٨
٣- الدروس المستفادة من الانتخابات المصرية. ١٤٢
٤- الأحزاب السياسية بين الشرعية واللاشرعية. ١٤٧
٥- لماذا الهجوم على الإخوان فى مصر؟ ١٥٢
٦- الصدام مع الإخوان، لمصلحة من؟ ١٥٧
٧- اللعب بالنار. ١٦٢
٨- كيف يتم التعامل مع الحركات الإسلامية؟ ١٦٧
٩- من يملأ الفراغ السياسى؟ الحاجة إلى حزب جديد. ١٧٢

الفصل الخامس

الثقافة والمجتمع

١- الثقافة والسياسة. ١٧٩
٢- البوابة الحديدية للجامعة. ١٨٣
٣- أفعل التفضيل. ١٨٨
٤- الشفافية. ١٩٢
٥- التعليم من أجل السوق أم لتكوين المواطن الصالح؟ ١٩٦
٦- الرد على البدعة أم السكوت عليها؟ ٢٠٠

٧- الأقوال والأفعال. ٢٠٥
٨- صحافة الإثارة. ٢١٠
٩- أباطرة الصحافة وسدنة النظام. ٢١٥

الفصل السادس

الديـــن والسياســـة

١- القهر الدينى والقهر السياسى. ٢٢٢
٢- ألفاظ التكفير والتعددية السياسية. ٢٢٧
٣- الدين الشعبى والمعارضة السياسية. ٢٣٢
٤- الدولة الإسلامية دولة مدنية. ٢٣٧
٥- الجامع والكنيسة أم المدرسة والمستشفى؟ ٢٤٢
٦- تداول السلطة أم الائتلاف الوطنى؟ ٢٤٦
٧- الدين والثقافة والسياسة فى رمضان. ٢٥١
٨- إفطارات رمضان. ٢٥٦
٩- الدين والأفراح. ٢٦١

الفصل السابع

الثـــورة قادمـــة

١- نداء إلى الشعب. ٢٦٨
٢- نداء إلى الشرطة. ٢٧٣
٣- نداء إلى المعارضة. ٢٧٨
٤- وحدة قوى المعارضة. ٢٨٣
٥- العصيان المدنى. ٢٨٧
٦- الشعوب والجيوش. ٢٩١
٧- الطوفان قادم. ٢٩٥

الباب الثانى

مصر والعرب

الفصل الأول

الوطن المستباح

١- الجسد العربى.	٣٠٤
٢- القلب المفتوح.	٣٠٨
٣- هل فقد العرب زمام المبادرة؟	٣١٢
٤- وحدة القاعدة وتفرق القمة.	٣١٨
٥- اختراق الوطن العربى.	٣٢٢
٦- الخطر على الخليج... من أين؟	٣٢٦

الفصل الثانى

الوطن والمواطن

١- الأوطان الطاردة.	٣٣٣
٢- الدولة الأمنية.	٣٣٧
٣- أين يذهب اللاجئ العربى؟	٣٤٢
٤- أين العرب؟	٣٤٧
٥- العرب والهرب.	٣٥٢

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية

١- الطائفية أم المواطنة؟	٣٦١
٢- الطائفة والعرق أم الوطن؟	٣٦٦
٣- الحرب الأهلية أم حرب التحرير؟	٣٧٠
٤- انفراط العقد.	٣٧٤
٥- لماذا يتأخر الإصلاح؟	٣٧٩
٦- الإصلاح بين السلفية والعلمانية (١).	٣٨٤
٧- الإصلاح بين السلفية والعلمانية (٢).	٣٨٩

الفصل الرابع

الثقافـــة الوطنيــــة

١ - اللغة العربية إلى أين؟ ٣٩٨

٢ - الجزيرة هذا الصباح. ٤٠٥

٣ - ابن خلدون بين الاستشراق والعرقية. ٤١٠

٤ - الإعلام والعنف. ٤١٥

٥ - المشروع النهضوي العربي الجديد. ٤١٩

الفصل الخامس

المقاومــــة الفلسطينيــــة

١ - الثورة والدولة. ٤٢٧

٢ - التطبيع جهارا. ٤٣٢

٣ - من كوبنهاجن إلى القدس. ٤٣٧

٤ - هل من مفاوض؟ ٤٤٢

٥ - واحد بألف. ٤٤٧

٦ - رموز فلسطين. ٤٥١

٧ - إيران وحماس. ٤٥٥

الفصل السادس

انتصــــار لبنــــان

١ - تحية إلى لبنان. ٤٦٢

٢ - تبديد الوهم. ٤٦٦

٣ - بشائر النصر. ٤٧١

٤ - الدواء أم الداء؟ ٤٧٦

٥ - إسرائيل والعالم. ٤٨١

٦ - لبنان، الدولة والمقاومة. ٤٨٦

الباب الثالث

مصـــــر والعالـــــم

الفصل الأول

التنويـــر الأوروبـــى

١- أوروبا، جغرافيا أم حضارة؟	٤٩٥
٢- نهاية التنوير الأوروبى.	٤٩٨
٣- صدام الحضارات، مرة أخرى.	٥٠١
٤- الدين والدولة.	٥٠٤
٥- الدين بين الحرب والسلام.	٥٠٧
٦- حقوق الإنسان ... مرة أخرى.	٥١٠

الفصل الثانى

حـــوار الحضـــارات

١- العالم الوطنى والزائر الأجنبى.	٥١٥
٢- كيف يفكر المثقف العربى فى الغرب؟	٥١٨
٣- كيف يتحدث المثقف الغربى عن الإسلام؟	٥٢١
٤- العلم والسياسة (خطاب إلى بابا الفاتيكان).	٥٢٤
٥- المؤتمرات الدولية، ما لها وما عليها.	٥٢٨
٦- النزعة الإنسانية.	٥٣٠
٧- المؤتمرات التجارية.	٥٣٤

الفصل الثالث

الإســلام فى الغــرب

١- رأس السنة الجديدة، أين ولمن؟ ٥٣٩
٢- من ريح الغرب إلى ريح الشرق. ٥٤٢
٣- الحديد والنار. ٥٤٥
٤- من فجر قطارات لندن؟ ٥٤٨
٥- أبانا الذى فى واشنطن. ٥٥١
٦- النوايا والأفعال. ٥٥٤
٧- الإرهاب ... الإرهاب ... الإرهاب. ٥٥٧

الفصل الرابع

الإســلام فى آسيــا

١- ضمير الأمة. ٥٦٣
٢- الجاسوسية بين الجريمة والاتهام. ٥٦٦
٣- الدلالة المعاصرة للحج. ٥٦٩
٤- خواطر حاج. ٥٧٢
٥- العدل الإلهى فى جنوب شرق آسيا. ٥٨١
٦- التشريع الجنائى الإسلامى بين الحقوق والواجبات. ٥٨٤
٧- العقوبات البدنية وحقوق الإنسان. ٥٨٧

الفصل الخامس

ما بعـد الاستعمـــار

١- مستقبل الدولة الوطنية. ٥٩٣
٢- عصر الشعوب. ٥٩٧
٣- الاشتراكية والإسلام. ٦٠٠
٤- الإسلام فى الصومال بين الجوع والحرب. ٦٠٣
٥- الدين والحياة. ٦٠٦
٦- اليأس والأمل. ٦٠٩

δϕ

* لنفس المؤلف *

أولا: تحقيق وتقديم وتعليق:

١- أبـو الحـسين البـصرى: المعتمـد فـى أصـول الفقـه، جـزءان: المعهـد الفرنـسى بدمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢- الحكومة الإسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣- جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانيا: إعداد وإشراف ونشر:

١- اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسـلامية، العـدد الأول، المركـز العربـى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثا: ترجمة وتقديم وتعليق:

١- نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغـسطين، الإيمـان باحثـاً عـن العقـل لانـسليم، الوجـود والماهيـة لتومـا الاكـوينى)، الطبعـة الأولـى، دار الكتـب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانيـة، الأنجلـو المـصرية، القـاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢- اسـبينوزا: رسـالة فـى اللاهـوت والـسياسة، الطبعـة الأولـى، الهيئـة العامـة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية الأنجلو المـصرية، القـاهرة ١٩٧٣، الطبعـة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣- لـسنج: تربيـة الجـنس البـشرى وأعمـال أخـرى، الطبعـة الأولـى، دار الثقافـة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤- جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعا: مؤلفات بالعربية:

١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنـوير، بيـروت ١٩٨١، الطبعـة الثالثـة، مجـد، بيروت ١٩٨٧.

٢- قـضايا معاصـرة، الجـزء الثـانى، فـى الفكـر المعاصـر، الطبعـة الأولـى، دار الفكـر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثـة، مجد، بيروت ١٩٨٨.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى المركز العربى للبحـث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثـة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، مجد، بيروت ٢٠٠٠، ٢٠٠٢.

٤- دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.
٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات)، الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الثانية، المركز الثقافى العربى، بيروت ١٩٨٨.
٦- دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، دار التنوير (قرطبة)، بيروت ١٩٩٠.
٧- الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١)، (ثمانية أجزاء)، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.
٨- حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٠ (بالاشتراك مع محمد عابد الجابرى)، مدبولى، القاهرة ١٩٩١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥.
٩- مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، مجد، بيروت ١٩٩٤، ٢٠٠٠، دار الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.
١٠- هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، جـ١ التراث والعصر والحداثة، جـ٢ الفكر العربى المعاصر.
١١- الدين والثقافة والسياسة فى الوطن العربى، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.
١٢- جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (١٨٩٧-١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.
١٣- حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.
١٤- من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠٢.
١٥- ما العولمة؟ دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٢.
١٦- النظر والعمل والمأزق الحضارى العربى والإسلامى الراهن، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٣.
١٧- فشته، فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة ٢٠٠٣.
١٨- من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، جـ١ تكوين النص، جـ٢ بنية النص، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.
١٩- حصار الزمن، الحاضر (إشكالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.
٢٠- حصار الزمن، الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.
٢١- من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤.
٢٢- جذور التسلط وآفاق الحرية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.
٢٣- حصار الزمن، الماضى والمستقبل (علوم)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٥.
٢٤- برجسون، فيلسوف الحياة، المركز المصرى للمطبوعات، القاهرة ٢٠٠٧.

٢٥- محمد إقبال، فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامى، بيروت ٢٠٠٧.

خامسا: مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

1- Les Méthodes d'Exégèse, essai sur La science des Fondements de la Compréhension, ‘ilm usul al-Fiqh, le Caire, 1965.

2- L'Exégèse de la Phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique, et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980. (Arabic Translation, Dar Al Madar Al Islami, Lebanon, 2007).

3- La Phénoménologie de L,Exégèse, essai d,une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966). Le Caire, 1988. (Arabic Translation, Dar Al Madar Al Islami, Lebanon, 2007).

4- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianty and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.

5- Islam in the Modern World, 2 vols, I- Religion, Ideology and Development, II- Tradition, Revolution and Culture, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1995, Dar Keba', Cairo 2000.

6- Cultures and Civilizations, conflict or Dialogue? 2 vols, I- The Meridian Thought, II- Cultural Creativity & Religious Dialogue Cairo, Book Center for Publishing, 2006.

